الطبعة 6

ستانلي لين بول

تاريخ مصر في العصور الوسطى

ترجمة وتحقيق وتعليق: أحمد سالم سالم

مراجعة وتقديم الدكتور: أيمن فؤاد سيد



جائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي عام 2015 م

الدار المصرية اللبنانية





الدار المصرية اللبنانية

شغل تاريخ مصر الإسلامية أو ما يطلق عليه المستشرقون تاريخ مصر في العصور الوسطى اهتمام المؤرخين على اختلاف مشاربهم؛ نظرًا لما يتمتع به من مكانة وتأثير في التاريخ على وجه الإجمال، وفي تاريخ أمة الإسلام على وجه الخصوص؛ لذا لم يفُت مستشرقًا بحجم وقيمة الإنجليزي ستانلي لين بول أن يخصص له كتابًا نال صيتًا وانتشارًا واسعين في الأوساط العلمية والأكاديمية على مستوى العالم منذ نشره عام 1901م ولأكثر من قرن من الزمان؛ بسبب مايتمتع به مؤلفه من ثقل وشهرة ونظرة شاملة ودقيقة، حاول من خلالها حصر أهم الأحداث التاريخية والأسماء والتواريخ في هذه الحقبة الزمنية التي امتدت لتسعمائة عام؛ منذ الفتح الإسلامي لمصر عام 23هـ وحتى الفتح العثماني عام 923هـ وعزز ذلك بقوائم على جانب كبيرمن الأهمية للولاة والعمال والسلاطين والخلفاء، فضلًا عن الصور والأشكال التوضيحية، ولم يفُت المترجم أن يُحدّث في تعليقاته بعض معلومات الكتاب بما يواكب مستجدات البحث التاريخي، زيادة على وضع فهارس تقوم بتسهيل مهام الباحث والمطلع على حدٍّ سواء.

وجدير بالذكر أنه على الرغم من اعتماد كثير من المؤرخين على هذا الكتاب في صورته الأصلية، إلا أن هذه هي المرة الأولى التي يترجم فيها الكتاب إلى العربية؛ لتتسع دائرة الاستفادة مما حواه من معلومات تاريخية موثقة.. متشعبة وغزيرة.

وقد تولى مسئولية ترجمة هذا العمل وتحقيقه باحث متخصص ومدقق؛ ليخرج في النهاية هذا العمل بمثابة موسوعة ميسرة لكل مهتم بتاريخ مصر الإسلامية.



الدار المصرية اللبنانية



تاريخ مصر
في العصور الوسطى

بول ، ستانلي لين، 1854 - 1931.

تاريـخ مصر فـي العصور الوسـطى / تأليف سـتانلي لين بول، ترجمـة وتحقيق وتعليق أحمد سالم سالم، مراجعة وتقديم أيمن فؤاد سيد.- ط6.-

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2018.

752 ص؛ 21سـم.

تدمك: 1 - 920 - 427 - 977 - 978

1- العصور الوسطى.

2- مصر - تاريخ 909.07

أ- سالم، أحمد سالم (مترجم ومحقق ومعلق).

ب - سيد، أيمن فؤاد (مراجع ومقدم).

جـ - العنوان

رقم الإيداع: 15264 /2014

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

الطبعة الأولى: شوال 1435 هـ - أغسطس 2014م

الطبعة الثانية - الطبعة الثالثة: 2015م

الطبعة الرابعة: جماد أول 1437 هـ - مارس 2016م

الطبعة الخامسة: جماد أول 1438 هـ - فبراير 2017م

الطبعة السادسة: 2018م



تأليف المُستَشرِق

ستانلي لين بول

تَرْجَمَة وتَحْقِيق وتَعْلِيق

أحمد سالم سالم

مُراجَعَة وتَقْدِيم الدكتور

أيمن فؤاد سيد

الدار المصرية اللبنانية



هذه ترجمة كتاب

STANLY LANE - POOLE

A History of Egypt in the Middle Ages

Publisher: New York: C. Scribner's Sons, 1901



الإهـــــداء

إلى حُقْبَةٍ مِنْ تَارِيخِنَا مَضَت بِصَالِحِهَا وطَالِحِهَا .....

إلى شُخُوصٍ وأَحْدَاثٍ كَوَّنَت وِجْدَانَ أُمَّةٍ .....

أُهْدِي هذا العَمَل .....

لَعَلَّنَا نَلْتَمِسُ عَنْ طَرِيقِ المَاضي آفَاقَ المُسْتَقْبَل .....

المُتَرْجِم.....

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَصْدِير

كان الفَتْحُ العربي الإسلامي لمصر، سنة 20هـ/ 640م، نُقْطَة تحوُّلٍ مهمةٍ في تاريخها الطَّويل، وَضَعَ حَدًّا فاصِلًا بين عصرين مختلفين عقائديًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا خَلَقَ موقفًا جديدًا تمامًا.

ومَرَّت على مصر منذ الفَتْح العربي الإسلامي وحتى الفَتْح العُثْماني لها، سنة 923هـ / 1517م، العَدِيدُ من الحكومات والأسْرات الإسلامية الحاكمة. فلم تكن مصر في الفترة الممتدة بين سنتي 20هـ/ 641م و 254هـ/ 868م سوى ولايةٍ تابعةٍ لمركز الخِلافَة الإسلامية، سواءً في المَدِينَة أو في دِمَشْق أو في بغداد. ومع تولِّي القائد التركي أحمد بن طُولُون، في سنة 254هـ/ 868م، عَرَفَت مصر نوعًا من الحكم الذَّاتي والاسْتِقْلال الشَّكْلي عن مركز الخِلافَة الإسلامية في بَغْداد، فأنشأ بها أسْرَةً حاكمة نُسِبَت إليه، هي الأسْرَة الطُّولونِيَّة، لم تستمر طويلًا حيث خَرَّبَ القائدُ العبَّاسي محمد ابن سليمان الكاتِب عاصمتهم «القطائع»، في سنة 292هـ/ 904م، وعندما أَحَسَّ العبَّاسيون بحَجْم الخَطَر الذي يمثله الفاطميون، الذين نجحوا في

إنشـاء دَوْلَةٍ في إفريقية سـنة 297هـ/ 909م، وتِكْرار محاولاتهم لفَتح مصر من الغرب، عَهدوا إلى والي الشَّام محمد بن طُغْج الإخْشيد بتولِّي أمر مصر سـنة 323هـ/ 934م فأسَّـسَ أسْرَةً حاكمةً بها هي «الأسْـرَة الإخْشيديَّة» كان المُهَيْمِن عليها في السَّنَوات التي أعْقَبت وفاة المؤسِّس سنة 334هـ/ 946م، الأستاذ أبو المِسْك كافور الإخْشيدي الذي أجَّلَت خِبْرَتُه وحُنْكَتُه السِّياسِيَّة مؤقَّتًـا وُصـولَ الفاطِميين إلـى مصر والذين كانـوا يعدُّون العُـدَّة منذ تولِّي الإمـام الفاطمـي الرَّابـع المُعِزّ لديـن الله سـنة 344هــ/ 956م لفَتْح مصر، وكانوا ينتظرون فقط زَوالَ الحَجَرِ الأسْوَد، يعنون كافور الإخْشِيدي، الذي وافته المَنِيَّةُ في سنة 355هـ/ 966م.

هكذا نَجَحَ الفاطميون الشِّـيعة الإسـماعيلية في تحقيق أكبر إنجازاتهم التـي ضَمِنَـت لهـم مكانًـا متميِّزًا فـي التاريـخ الإسـلامي وتاريـخ مصـر الإسـلامية، «فَتْح مصر»، في سـنة 358هــ/ 969م، على يد قائدهـم جَوْهَر الصَّقلبـي، وأصبحت مصـر بعد وصول الإمـام المعِزِّ لدين الله إليها سـنة 362هـ/ 963م، مركز خلافةٍ إسـماعيلية مناوئةٍ للخِلافَة العبَّاسـية السُّنِّيَّة في بَغْداد، ومدَّت سـيادتها على بلاد الشَّام لتتخِذَها نُقْطَة انْطِلاقٍ للقضاء على الخلافَةِ العبَّاسـية في بغداد لتسـتقل بحكم العالـم الإسلامي باعتبارِ أئمَّتِهم وَرَثَـة النَّبـي ﷺ عن طريق ابنته السـيدة فاطمة وزَوْجهـا الإمام علي بن أبي طالِب، رضي الله عنهما.

نَجَـحَ الفاطِميون في تأسـيس دَوْلَـةٍ قويةٍ في مصر كانـت عاصمتُها هي المدينـة الملكية الجديدة «القاهرة» التي وَضَـعَ أساسَـها القائدُ جَوهَرُ سـنة 358هـ/ 969م، وأسَّـس بها في سـنة 361هـ/ 972م، «جامـع القاهرة» الذي

عُرِفَ بعد ذلك بـ «الجامع الأزْهَر»؛ ليكون مركزًا للدَّعْوَة الإسماعيلية في العالم.

وظَلَّ الفاطميون يحكمون مصر أكثر من مئتي عام (358 - 567هـ/ 969 - 1171م)، ورغم فَشَلهم في تحقيق حُلْمِهم في الانفراد بحُكم العالَم الإسلامي لتمسُّكهم بتحدِّياتهم الإيديولوجية التي عزلوا أنفسهم بسببها عن إجماعِ المسلمين، فإنَّهم نجحوا في إرساء نظام سياسي وإداري جديد لم تعرفْه مصر الإسلامية من قبل، كانت السُّلْطةُ فيه في المائة عام الأولى منها للأئمة الخُلَفاء ويتولَّى فيه وزراءُ التَنْفيذ، ولكن بعد الأزْمَة الاقتصادية والإدارية الطاحِنة التي مَرَّت بها مصر في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي في زمن المُستنصر بالله (427 - 487هـ/ 1036 - 1094م) تراجع دورُ الأئمة وأصبحت السُّلْطة الحقيقية في يد وُزَراء التَّفْويض الذين جَمَعُوا في أيديهم بين السُّلْطة التنفيذية والقضائية والدِّعائية، إضافةً إلى قِيادَة الجَيش بعد استعانة المُسْتنصر بالله بالقائد الأرْمَني أمير الجُيُوش بَدْر الجمالي الذي نجح هو وأبناؤه في إطالة عُمر الدولة لمئة عام أخرى إلى أن وَضَعَ لها نهاية قائدٌ كُرْدي سُنِّي هو النَّاصِرُ صلاحُ الدِّين يوسف بن أيُّوب الذي كان آخر وُزَراء الفاطِميين أرسله نُورُ الدِّين محمود هو وعَمَّه أسد الدِّين شيركوه تلبيةً لطَلَبِ الوزير شاوَر السَّعْدي لمواجهةِ جيوش ملك مملكة بيت المقدس الصَّلِيبيَّة التي وَصَلَتْ إلى مشارف القاهرة، فقاد انْقِلابًا سلميًا سنة 567هـ/ 1171م، عادَت به مصر مرة أخرى إلى مجموع الدُّول التي تدعو للخَليفة العبَّاسِي السُّنِّي في بَغْداد، وبدء من هذا التأريخ مَذْهَبُ أهْلِ مصر العقدي هو «المَذهب الأشْعَري» الذي تَبَنَّى الدَّعْوة له قبل ذلك بقرنِ السَّلاجِقَةُ و الزَّنْكيون ثم النُّوريون.

أسَّسَ صلاح الدِّين في مصر أسْرَةً حاكمةً جديدةً هي «الأسْرَة الأيُّوبية» (567 – 648هـ/ 1171 – 1250م). كان نظامُ الحُكْم فيها نظامًا فِيدْراليًّا تقاسَمَ فيه أبناءُ البيت الأيُّوبي، خُلَفاء صَلاح الدِّين وأخيه العادِل أبي بكر، حُكْمَ مصر والشَّام واليمن ودِيار بكر، وكانت السُّلْطةُ العُلْيا فيه للسُّلْطان الجالس في «قَلْعَة الجَبَل» التي أسَّسها صَلاحُ الدِّين ووزيرُه بَهاءُ الدين قراقوش (572 – 579هـ/ 1176 – 1183م) ونَقَلَ إليها مَرْكَزَ الحكم في مصر بعد أنْ كان طوَالَ العَصْر الفاطِمي داخل حُدُودِ القاهرة الفاطِمية.

وقاد الأيُّوبيون العالم الإسلامي في مُواجَهَة الخَطَرِ الصَّليبي الذي هَدَّدَ العالَمَ الإسْلامي منذ سُقُوطِ بَيْتِ المَقْدِس سنة 492هـ/ 1099م، الذي استعاده صلاحُ الدِّين بعد مَوْقِعَة حِطِّين سنة 583هـ/ 1187م.

وبَدَأ في عَصْرِ آخِر سلاطينهم الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب الإكثار من المماليك الأتْراك الذي نشَّأهُم أوَّلًا في قلعته التي أنشأها جنوبي جزيرة الرَّوْضَة غَربي القاهرة والفُسْطاط، وقاموا بدَوْرٍ مهم في القضاء على الحملة الصَّليبيَّة السَّابعة بقيادَة لويس التاسع في المنصورة (647 – 649هـ/ 1249 – 1250م) أهَّلَهُم لميراثِ سادتهم الأيُّوبيين وتأسيس دَوْلَةٍ جديدةٍ هي «دَوْلة سَلاطين المماليك» (648 – 923هـ/ 1250 – 1517م)، أضْحَت بعد انْتِصارهم الكاسح على جيوش المغول في مَوْقِعَة عَيْن جالوت سنة 658هـ/ 1260م، أكبر قُوَّةٍ في العالم الإسلامي خاصَّةً بعد أن استضاف السُّلْطانُ الظَّاهِرُ بيبرس، المؤسِّس الحقيقي لدَوْلَة سَلاطِين المماليك، الخِلافَة العَّباسية في القاهرة، سنة 660هـ/ 1262م، بعد أنْ أسْقَطَها المغُولُ في بَغْداد سنة 656هـ/ 1258م، ثم نجاحها في عَهْدِ المنصور قلاوون وولده

الأشـرف خليل في القضاء على بقايا الوجود الصَّليبي في سـواحِل الشَّـام سنة 692هـ/ 1293م.

ونظـامُ دَوْلَة المماليك نِظامٌ مُتَفَرِّد في تاريخ الدُّوَلِ الإسـلامية الحاكِمة فهـم مَماليـكٌ مُبْتاعون تَرْجِـعُ أصُولُهُم إلى عناصِـرَ عِرْقِيَّـة تركية مختلفة، وعلـى الأخَصِّ من بلاد القفجاق والقُوقاز، وفي مرحلة لاحقةٍ انْضَمَّ إليهم العُنْصُرُ الشَّرْكَسـي والمغُولـي والصَّقَلبي والكُرْجـي (الجورجي)، وكانوا يُجْلَبُون صِغارًا، ويُفَصل قبل سِـنِّ البُلُوغ، حتى يمكن تَنْشِـئَتُهم وتدْريبُهم. وكان يتـم تعليمهُم فـي الطِّباق بقَلْعَةِ الجَبَل، مركـز الحُكْم الجديد، تعليمًا إسْلاميًّا تَقليديًّا وتَلْقينُهم اللُّغَة العربية وتدريبُهم على اسْتخْدام السِّلاح.

ورَغْـم أنَّ الدَّارسـين اصْطَلَحوا على تَقْسـيم تاريخ دَوْلَـة المماليك في مصر والشَّـام إلى عصرين : دَوْلـة المماليك البَحْرِيَّة (648 - 684هـ/ 1250 - 1382م)، ودَوْلَة المماليك الجراكسة أو البُرْجيَّة (784 - 923هـ/ 1382 - 1517م)، فإنَّ هذا التَّمْييز يَخُصُّ فقط العناصر التي سـادت في كلا الفترتين حيث غَلَبَ العُنْصُرُ التركي على مماليك العَصْر الأوَّل (باسـتِثْناء السُّـلطان المُظَفَّر بيْبَرْس الجاشَـنْكير الذي كان جَرْكسـيًّا)، بينما كان مماليكُ العَصْر الثَّاني من الجَراكسَـة، ولـم يَحْدُث تَغْييـرٌ جَوْهَري في تَنْظِيم الدَّوْلَتيْن إلَّا ما يَفْرِضُه التَّطَوُّر الزَّمَني.

ومَرَّت الدَّوْلَةُ المملوكيةُ في عَصْرِها الأوَّل بخَمْسَ مراحل :

الأولى - صُعُودُ البَحْرِيَّة إلى السُّـلْطَة في آخـر عَهْدِ الصَّالح نَجْم الدِّين أيُّـوب وفترة شـجر الدُّر والمُعزّ أيبك والمُظَفَّـر قُطُز (648 - 658هـ/ 1250 - 1260م).

الثَّانِيَة - مَرْحَلَةُ التَّوْطِيد التي تَوَلَّى فيها الظَّاهِرُ بَيْبَرس والمَنْصُورُ قلاوون (658 - 689هـ/ 1260 - 1290م).

الثَّالِثَة - الصِّراعُ بين الفِرَق المملوكية وعَدَمُ الاسْتِقْرار السِّياسي (689 - 709هـ/ 1290 - 1310م).

الرَّابِعَة - السَّلْطَنَةُ الثَّالِثَةُ للنَّاصِر محمد بن قلاوون (709 - 741هـ/ 1310 - 1341م).

الخامِسة - مَرْحَلةُ أحْفادِ المَنْصور قَلاوون (741 - 784هـ/ 1341 - 1382م).

وكان تولِّي السُّلْطان الظَّاهر برقوق منصب السَّلْطَنَة سنة 784هـ/ 1382م إيذانًا ببَدْء عَصْرٍ جَديدٍ في تاريخ دَوْلَة سلاطين المماليك، حيث تبدأ فَتْرَةُ «المماليك الجراكِسَة» أو «البُرْجِيَّة» الذين مَيَّزَهُم المعاصرون عن الفترة السَّابقة والتي أطْلقوا عليها «الدَّوْلَة التُّرْكية».

فأصبح الأصْلُ العِرْقي، اعتبارًا من هذا التأريخ، هو العُنْصُر الشَّرْكسي وأصْبَحوا هم الذين ينتمون إلى السُّلْطَة ويتنافسون عليها، وإنْ كانت سَلْطَنَةُ الظاهِر برقوق، في حقيقة الأمْر، لا تختلِفُ كثيرًا عن فَتْرَة سابقيه من النَّاحيتين التَّنْظيمية والإداريَّة.

وبَلَغَ عَدَدُ سلاطين دَوْلَة سلاطين المماليك الثَّانية (784 - 923هـ/ 1382 - 1571م) ثلاثة وعشرين سُلْطانًا، شَكَّلَ حُكْمُ تسعة منهم هم: الظَّاهِر برقوق والناصر فرج والمؤيد شيخ والأشرف برسباي والظاهر جقمق والأشرف إينال والظاهرُ خُشقَدم والأشرف قايتباي والأشْرَفُ قانصوه

الغـوري، مئة واثنين وثلاثين عامًا، تاركين سَـبْعَة أعْوامٍ فقط للأربعة عشـر سُلْطانًا الآخرين.

وكانـت للتحوُّلات المهمة التي عرفها حَوْضُ البحر المتوسـط وآسـيا الصغـرى والشَّـرْق الأوسـط في القـرن التاسـع الهجري/ الخامس عشـر الميـلادي دوْرٌ فـي التَّمْهيـد لوَضْـعِ نهايةٍ لدَوْلَـة سـلاطين المماليك، فقد تحـوَّل الوَضْعُ السياسـي العـام تمامًـا للمنطقة، فبـدأت الإمـارةُ العُثمانية الناهضة في آسـيا الصُّغرى فـي تهديد مصالح السَّـلْطَنَة المملوكية، وعاوَدَ المغـولُ فـي عَهْـدِ تيمورلنـك الإغارة علـى بلاد الشَّـام، وبدأت فـي عَهد المُؤيَّـد شَـيْخ (815 – 825 هــ/ 1412 – 1422م) فتـرة إعادَة تنظيـم الدَّوْلة فـي أعْقابِ الصِّـراع والمِحَن التي مَـرَّت بها مصر في مطلع القرن التاسـع الهجري/ الخامس عشـر الميلادي. وشـهِدَت مُدَّةُ حكم الأشْرَف برسباي (825 – 841 هـ/ 1422 – 1430م) سلسلة من التحوُّلات الاقتصادية احْتَكرَ فيها هذا السُّـلْطانُ التجارة الشرقية وعلى الأخَصّ التجارة الكارِميَّة. وأدَّت هـذه السِّياسـة الاحْتكارية إلى عَواقِب وَخِيمَة على مصـر دَفَعَت الأوربيين إلـى البَحْـثِ عن طريقٍ آخر للوصـول إلى الهِنْد غير طريـق البحر الأحمر، وهو ما انْتَهَت إليه حَرَكةُ الكَشْفِ الجُغْرافي التي قادَها البُرْتغاليون في نهاية هذا القرن.

هكذا كان للظُّروف والمُتَغَيِّرات الدَّوْلية دَوْرٌ مهمٌ في وَضْعِ نهايةٍ لدَوْلَة سـلاطين المماليـك فـي مصـر والشَّـام تَمَثَّلَت فـي اكْتشـاف رَأسِ الرَّجاء الصَّالح ووُصولِ البُرْتُغاليين إلى المحيط الهندي، وتَحوُّلِ الدَّوْلَة العثمانية – القُوة الجديدة النَّامِيَة في العالم الإسـلامي – من قُوَّةٍ إسـلاميةٍ محصورةٍ

في آسيا الصُّغْرى، إلى قُوَّةٍ عالميةٍ كبرى بعد نجاحها في فَتْحِ القُسْطَنْطِينيَّة، سـنة 857 هـ/ 1453م، واتِّخاذها عاصمة لها ووَضْعِ نهاية للدَّوْلَةِ البِيزَنْطيَّة، ثـم اجْتياحِها لأراضـي أوروبا الشَّـرْقِيَّة (الرُّومَلي) وتَطَلُّعها لمَدِّ سـيطرتها علـى ما أصبـح يُعْـرَفُ بعد ذلك بأراضـي العالـم الغربي (العِراق والشَّـام ومصر والحجاز واليمن وشـمال إفريقيا) وهو ما تَحَقَّق في عَهْدِ السُّـلْطان العُثْماني سليم الأوَّل وخُلَفائه بعد موْقِعة مَرجِ دابق سنة 922هـ/ 1516م.

* * *

شَغِلَ تاريخُ مصر خلال هذه الحِقْبَة الطَّوِيلة اهْتمامَ المُسْتَشْرقين خلال القرن التَّاسِع عشر، خاصَّةً بعد صُدُورِ كتاب «وَصْف مصر» والجزء الخاصّ بـ «الدَّوْلة الحديثة» الذي وضَعَه العلماء المُصاحِبُون لحَمْلَة بونابرت على مصر عند مُنْقَلَب القرن الثَّامن عشر الميلادي.

وكان من أهَـمِّ المُؤلَّفـات التـي تناولـت هـذه الفَتْـرة كتابـان :أحدُهما باللُّغـة الإنجليزية، هو الكتاب الـذي أُقَدِّمُ اليوم لترجمتـه العربية، والآخر باللغـة الفرنسـية هـو كتـاب : L'Egypte Arabe de la Conquete Arabe a) la Conquete Ottomane) الذي أصْدرَه المستشرقُ الفرنسي جاستون فييت (Gaston Wiet) (1887–1971)، أحـد أهم العارفين بتاريخ وحضارة مصر الإسلامية، في باريس سنة 1937م.

ولا توجَـد إلـى الآن أيَّـة كتابات عربية تَعْـدِلُ المادَّة التـي يُقَدِّمُها هذان الكتابـان لهـذه الحِقْبَـة الطَّويلَـة من التاريـخ المصري، الأمـر الذي يجعل نَقْلِهمـا إلى اللغة العربية يَسُـدُّ فراغًـا نوعيًّا في المكتبة العربيـة، غير أنَّه مع

إنشاء الجامعة المصرية سنة 1925م وإنشاء الكراسي المُتَخَصِّصَة بها، وَجَّهَ جيلُ الأساتذة الرُّوّاد اهتمامَهُم إلى دراسة العُصُور المختلفة لتاريخ مصر الإسلامية (وهي الحِقْبة التي يُطْلِقُ عليه الغربيُّون «تاريخ مصر في العُصُور الوُسْطَى»)، فكَتَبَ زكي محمد حسن (1908 – 1957م) رسالته عن «الدَّولة الطُّولونية في مصر» بالفرنسية وصَدَرَت في باريس سنة 1933م ؛ وكتب حسن إبراهيم حسن (1892 – 1968م) رسالته عن «الفاطميون في مصر» بالإنجليزية، سنة 1928م، ونَقَلَها إلى العربية سنة 1932م ؛ وكتبت سَيِّدَة إسماعيل كاشِف، مَتَّعَها الله بالصِّحَّة، بالعربية رسالتيها «مصر في فَجْر الإسلام» (1947، 1970، 1986م) و «مصر في عَصْرِ الإخْشِيديين» (1953، 1970م) ؛ وتتناوَلَ دراسة العصر الأيُّوبي والعصر المملوكي كُلٌّ من : السَّيِّد الباز العَريني (1969م)، ومحمد مصطفى زيادة (1900 – 1968م)، وسعيد عبد الفَتَّاح عاشور (1922 – 2010م)، وأحمد مختار العبَّادي، مَتَّعه الله بالصِّحَّة. وكان الفريد بتلر قد خصص قبل ذلك دراسةً مهمة عن «فتْح العَرب لمصر» (1902م) نقلها إلى العربية محمد فريد أبو حديد سنة 1934م.

* * *

ومُؤَلِّفُ الكتاب الذي نُقَدِّم له اليوم هو المستشرق الإنجليزي ستانلي لين بول (Stanley Lane - Poole) (1854 – 1931م) ابن شقيقة المستشرق الإنجليزي إدوارد وليم لين (Edward William Lane) صاحب كتاب «المِصْرِيُّون المُحْدَثون عاداتُهم وشَمائلُهم»، وهو من كبار عُلماء النُّمّيّات والمُتَخَصِّصين في تاريخ مصر في العصر الإسلامي، وشَغَل لنحو عشرين

عامًا (1884 – 1892م) وَظيفة أمين القسم الشَّرْقي للمسكوكات في المتحف البريطاني، الأمْر الذي مَكَّنَه من وَضْعِ «فهرس النُّقُود الشَّرْقية في المتحف البريطاني» في عَشْـرَة مجلدات (لنـدن 1875 – 1889م)، ثم انتقل إلى مصر كباحث في الآثار حيث كَلَّفَتْه الكُتُبْخانَة الخديوية بالقاهرة بأن يَصْنع فهرسًا لـمُقتنياتهـا من النُّقُود الشَّرْقية صَدَرَ في لندن سـنة 1897م. وعَمِلَ بعد ذلك أستاذًا للعربية في (Trinity College) بجامعة دبلن بإيرلندا (1897 – 1904م)، واستقر أخيرًا في لندن حتى وفاته في 29 ديسمبر سنة 1931م.

ومـن أهـم أعمـال ليـن بـول : - The Mohammadan Dynasties) (Chronological and Geneological Tables with Historical Introduction «مُعْجَـم الأسْـرَات الحاكِمَـة الإسْـلامية» (لنـدن 1892م)، و Art of the) (Saracens in Egypt «فَنّ العرب في مصر» (لندن 1886م)، و The Story) (of Cairo «سِـيرة القاهـرة» (لنـدن 1902م)، و Saladin and the Fall of) (Kingdom of Jerusalem «صـلاح الديـن وسُـقوط مملكة بيت المقدس» (لندن 1898م).

وكتابُـه الـذي نُقَدِّمُـه اليـوم (History of Egypt in the Middle Ages) «تاريخ مصر في العصور الوسطى» (لندن 1901م) أوَّلَ كتاب شامل يتناول تاريخ مصر في هذه الحِقْبَة الطَّويلَة، ألَّفَه مؤلِّفُه في فَتْرَةٍ لم يكن قد نُشِرَ فيها من مصادِر مصر الإسـلامية إلَّا النّذْرُ القليل، ولم تكن الدراسـاتُ الجزئية التي بدأت في الظهور منذ العقد الثالث للقرن العشـرين قد وُجدَت، ولكنه استعاض عن ذلك بالاطِّلاع على النُّسَخ الخطية لعدد مهم من مصادر مصر الإسـلامية، إضافـةً إلى تجـارب الطَّبع الخاصَّـة بكتاب «مُدَوَّنـة الكتابات

العربية» (CIA) للمستشرق وعالم الكتابات التاريخية السويسري ماكس فان برشم (Max Van Berchem).

وبدأ ستانلي لين بول كلَّ فَصْلٍ من فُصُول كتابه بذكر أهم المصادر الخاصَّة به، والتي كانت معروفَةً وَقْتَ تأليفه للكتاب وأهم الآثار الباقية التي ترجع إلى هذا العصر، كما زوَّدَه بالعديد من الصُّوَر الفوتوغرافية النادرة والأشكال التَوْضيحية ونماذج للنقود المتداولة في هذه العصور، كما أنَّ عَرْضَه لم يكتف بالسَّرْدِ التَّاريخي، وإنَّما كانت له الكثيرُ من التَّحْليلات ووِجْهات النَّظَر التي جَعَلَت الكثير ممَّن تناولوا هذه العصور بالدراسة بعد ذلك يحيلُون في هوامشهم إلى كتابه.

* * *

أما مترجم الكتاب الأستاذ أحمد سالم سالم فهو باحِثٌ مُجدٌّ حاصِلٌ على ليسانس الآداب من قسم التاريخ، شعبة الآثار الإسلامية، من جامعة الإسكندرية سنة 2002م، وعُيِّنَ مفتشًا للآثار الإسلامية بالمجلس الأعلى للآثار، ووَجَّه اهتمامه لدراسة الفترة العثمانية، فصَدَرَ له فيها كتابان: «السَّيْطَرةُ العُثمانية على الحَوْض الغربي للبحر المتوسِّط في القرن السَّادس عشر»، الإسكندرية 2011م، و«إستراتيجية الفَتْح العثماني»، الإسكندرية 2012م؛ وهو مسجل لدرجة الدكتوراه في موضوع «السَّيطرَة العُثْمانية على الحوض الشَّرْقي للبحر المتوسِّط منذ فتح القُسْطنطينية 1453م وحتى فتح رودَس 1523م»؛ إضافة إلى العديد من المقالات والترجمات المنشورة في بعض الدوريات المتخصصة.

وكان اختيارُهُ لكتاب «تاريخ مصر في العصور الوسطى» لستانلي لين بول اختيارًا موفّقًا، فالكتاب - كما سبق أن ذكرت - من المؤلفات القليلة التي تُعالِجُ تاريخ مصر الإسلامية منذ الفَتْح العربي الإسلامي وإلى الفتح العثماني بعرض موضوعي تحليلي، وتدارك في تعليقاته عليه الكثير ممَّا نُشِرَ بعد صُدُورِ الكتاب، سنة 1901م، وحَدَّثَ منها معلوماته مثل: «الولاة والقضاة» للكندي، و «السُّلوك» و «اتِّعاظ الحُنَفا» للمقريزي، و «النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة» لأبي المحاسن بن تغري بردي ..

والله وليّ التَّوْفيق،

أيمن فؤاد سيّد

مصر الجديدة في

3 جمادى الأولى سنة 1435هـ

4 مارس سنة 2014م

مُقَدِّمَةُ الـمُتَـرْجِمِ

كانـت الترجمة وسـتظل دومًا مَعبـرًا ومنفذًا تتصل مـن خلاله الثقافات والحضـارات المختلفـة للشـعوب، وذلـك للتعرف على بعضهـا، أو على وجهـات نظـر بعضها في بعـض. وإن كان تاريخنا الإسـلامي كان قد دُوّن عـن طريـق عقول وضمائر إسـلامية في الماضي، فقد أُعيـدت صياغته من جديد بِأَيْدٍ غربية بعد النهضة التي شهدها الغرب في مختلف مناحي العلوم والفنون والآداب، والنَّكْسـة التي شهدها عالمنا العربي خاصة والإسلامي عامـة على مدى قرون العصر الحديث؛ مما أفقدنا القدرة على الاسـتمرار في تصدر مجال العلوم الإنسانية كما كنا في العصر الوسيط؛ حيث سُحب البساط من تحت أقدامنا لصالح الغرب، وتركنا الساحة خالية للمستشرقين الذيـن جاءوا إلـى بلادنا وبحثوا عن المخطوطـات وأمهات الكتب، فضلًا عـن الآثار والنقوش والمسـكوكات، وبدأوا في وضـع النظريات وصياغة تاريخنا وكتابته بعيون غربية، فكان من هؤلاء المستشـرقين مَن هو منصف يبحث عن الحقيقة دون أهواء أو توجهات أيديولوجية أو عرقية وهم الأقل، ومنهم مَن انتهج هذا النهج لغرض آخر، فأدخل كل ما يسـتطيع إدخاله من تَلْفِيق، أو على الأقل إيجاد تفسـيرات للتاريخ يَشُوبها الهوى ويطل من بين ثناياها الحقد والبغض لكل ما هو شرقي أو إسلامي أو عربي.

كان ستانلي لين بول Stanley Lane-Poole (1854 – 1931م)، الذي انتمى إلى مدرسة الاستشراق الإنجليزية، من بين هؤلاء المستشرقين الذين تركوا تراثًا فكريًا كبيرًا في دراسة التاريخ والحضارة الإسلامية، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين؛ حيث ذروة حركة الاستشراق العالمية، إلا أن حركة الاستشراق لم تكن لتصل إلى أوجها في القرن التاسع عشر قبل أن تمر بعدة مراحل، كانت بدايتها في أغلب الظن في القرن الخامس عشر، عندما شهدت أوروبا أو العالم الغربي عامة موجة الزحف الشرقي المتمثل في القوة العثمانية الناهضة، التي تصدرت العالم الإسلامي آنذاك، خاصة بعد سقوط القسطنطينية عام 1453م، ثم الزحف العثماني الكبير على شرق أوروبا والوصول إلى ڤينا قلب القارة عام 1529م، فكان ذلك العجز في القوة العسكرية الأوروبية سببًا مباشرًا في البحث عن أسلوب آخر ناجع للتعامل مع السياسة الحربية القوية للدولة العثمانية.. من هنا بدأت حركة الاستشراق الأوروبية تحت رعاية بابا روما، الذي صب جل اهتمامه على فتح المجال لدراسة تاريخ وحضارة المجتمعات الإسلامية وعلى رأسها الدولة العثمانية، فبدأت على إثر ذلك الجامعات الأوروبية في تخصيص أقسام لتلك الدراسات. وعندما توقف المد الإسلامي ناحية الغرب مع أواخر القرن السابع عشر الميلادي، كانت حركة الاستشراق قد وصلت إلى وضع لا بأس به من اختراق للعالم الإسلامي عن طريق دراسة كافة مظاهره الحضارية حتى قوانينه ومؤسساته ولغته وعقيدته.

منذ ذلك الحين بدأت الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لبعض الدول الأوروبية تؤتي ثمارها، بعد أن ازدادت حركة التبادل التجاري بين

العالميـن الغربي والعثماني، وأتاح ذلك للبعثات الدبلوماسـية والتبشـيرية والإرسـاليات القيام بدور أكبر في التغلغل في المجتمع الإسلامي وإيجاد نقاط ضعف ينفذون من خلالها. ومع الجمود الذي أصاب الدولة العثمانية ثم بداية ضعفها السياسي والعسكري، وجدت تلك البعثات غايتها وبدأت الترويـج – خاصـة ضمـن العالم الإسـلامي – لأفكار تشـير إلـى أن ذلك الجمود والضعف إنما كان بسبب النظم التقليدية للحضارة الإسلامية التي اتخذتها الدولة العثمانية منهجًا وأسـلوب حياة، وبُعْدها عن انتهاج المنهج الغربي، هكذا بدأت تلك المؤسسـات الأوروبية التي عملت على اختراق عالم الشـرق الإسـلامي تَنْحى منحًا جديدًا اتخذ من شعار الإصلاح ذريعة لبنـاء وإعادة بعـث الحـركات الصَّليبيَّة القديمـة، وقد ارتكز هـذا المَنْحى الجديد على نشـاط السـفراء والمبعوثين والرحالة والمستشرقين والعلماء ورجال الدين، في وضع دراسـات مسـتفيضة لبسط السَّـيْطَرة الكاملة على العالـم الإسـلامي، المتمثـل أولًا فـي الدولـة العثمانية؛ لذا نـرى أن أولى الحملات الأوروبية الحديثة على المشـرق والمتمثلة في الحملة الفرنسية عـام 1798م، اتخذت من العلم والحضارة والمدنية الحديثة ذريعة للتدخل فـي العالم الإسـلامي، وكان ذلـك بديلًا عن غطاء الدين الـذي اتخذته في الماضي نفس تلك الحملات، فلكل زمان سياسته الميكافلية.

هكذا وصلت الحركة الاستشـراقية إلى ذروتها في القرن التاسـع عشـر مع ذروة ضعف الدولة العثمانية والعالم الإسلامي عامة، فقد بدأت بالفعل الدول الاسـتعمارية الغربية الراعية لمشاريع الاستشراق تجد لها موطأ قدم في الأراضي الإسـلامية، وبناءً على هذا وجد المستشرقون الطريق مفتوحًا علـى مصراعيه للعمـل بأقصى طاقتهـم، فأخـذوا يُلَمْلِمُـون المخطوطات

العربية والإسلامية من هنا وهناك ويعكفون على دراستها وتحقيقها، وعليه دراسة كل ما يتعلق بتاريخ هذه الأمة، وينشرون عنه الأبحاث تلو الأبحاث بكافة اللغات الأوروبية، وبدأت المطابع الأوروبية وعلى رأسها مطابع مدينة لَيْدِن الهولندية - عاصمة الاستشراق في العالم - طباعة ذلك التراث العربي الإسلامي، ومن ثمّ بدأت الكتب الحديثة في دراسة التاريخ الإسلامي في الظهور باللغتين الفرنسية والإنجليزية. وظهرت ترجمات لكثير من تلك الكتب خاصة في النصف الأول من القرن العشرين، إلا أن أكثرها لم يترجم بعد. لذا حاولت أن أكون خطوة على الطريق للوقوف على كل كلمة كتبها الغرب عن حضارتنا الإسلامية من منظوره، خاصة عن تاريخ هذا البلد ودوره، وأن يكون هذا الكتاب دعوة لإعادة النظر في كتب المستشرقين القديمة، ووصولها لكل الباحثين والمهتمين بالدراسات التاريخية.

* * *

كان هذا الكتاب الذي بين أيدينا للمستشرق الإنجليزي الشهير، ستانلي لين بول من أهم تلك الكتب الكلاسيكية الحديثة التي ظهرت في تلك الفترة وتناولت تاريخ مصر الإسلامية. ولد ستانلي لين بول في الثامن عشر من شهر ديسمبر عام 1854م بمدينة لندن، لعائلة كان اهتمامها الأول دراسة الشرق الإسلامي وحضارته، فخاله هو إدوارد وليم لين Edward .w Lane (1801 - 1876م)، الرحالة والمستشرق الشهير الذي زار مصر ومكث فيها فترات طويلة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، يدرس المجتمع المصري ويكتب عنه. وأمه هي صُوفِيَا بول (1804 - 1891م)، التي جاءت مع أخيها في زيارته الثالثة للقاهرة، وكانت عونًا له في التعرف على حياة

الحريم، ذلك المجتمع المُحَرَّم على الرجال آنذاك، فكتبت مشاهدتها في صورة رسائل تصف حياتها في القاهرة. هكذا نشأ ستانلي مغرمًا بالشرق وحضارته، فتلقى تعليمه في جامعة أُكْسُفورد ثم في جامعة دبلن، وعمل بعدها باحثًا ومؤرخًا في التاريخ والآثار الإسلامية. أرسلته الحكومة البريطانية في بعثات علمية لدراسة الآثار وكتابة تقارير تفصيلية عنها، فقام برحلة علمية إلى مصر عام 1883م، وعمل بين عامي 1895 – 1897م بدراسة آثار القاهرة الإسلامية تحت إشراف الحكومة المصرية، وبعد أن عاد إلى انجلترا عينته الحكومة أستاذًا للغة العربية بجامعة دِبْلِن، وظل شاغلًا هذا المنصب حتى عام 1904م. وفي عام 1914م عُين أمينًا لقسم النقود في المتحف البريطاني، فقد كان مغرمًا بالنقود على وجه الخصوص، ووضع الكثير من المؤلفات عنها، ويتضح ذلك في هذا الكتاب، الذي استعان فيه بعشرات الصور التوضيحية للنقود الإسلامية.

أما عن مؤلفاته فكانت غزيرة، تشي بحبه الشديد وشغفه بدراسته وبذله قصارى الجهد فيها. فمن أهم إنجازاته أنه استطاع بين عامي 1876 – 1893م أن يتمم (المُعْجَمُ العَرَبيّ) الذي كان قد بدأه خاله إدوارد لين ومات قبل إكماله، ومن مؤلفاته الأخرى غير مؤلفاته الهامة في النقود وتاريخها، كتاب: قِصَّةُ العَرَبِ في إِسْبانيا The Story of the Moors in Spain ، والذي قام بترجمته الأستاذ علي الجَارِم عام 1944م، أعقبه بكتاب مفصل عن (تركيا) Turkey نُشر عام 1888م، وفي عام 1890م نشر كتابه: قِصَّةُ القَراصِنة المَغارِبَة The Story of the Barbary Corsairs، ثم ظهر له كتاب هام عام 1892م عن تاريخ أَباطِرَة المَغُول History of Emperors the Mogul ، وفي عام 1894م ظهر كتابه الشهير عن الأسر

الحاكمة الإسـلامية The Mohammadan Dynasties, Chronological and Genealogical Tables with Historical Introductions، الـذي قام بترجمته إلى الروسية المستشرق الروسي بارتولد عام 1899م، واعتمد عليه زامباور في معجمه عن الأسـرات الإسـلامية الحاكمة، وألف كتابـه: صَلاحُ الدِّين وسـقُوط مَملَّكة بَيْت المَقْـدس Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem عـام 1898م، وله عدة مؤلفات أخرى تعد من السِّـير، كان على رأسها سيرة خاله إدوارد لين التي كتبها عام 1877م.

أمـا النصيـب الأوفـر مـن مؤلفاتـه فكان عـن مصـر، فقد صـور الحياة الاجتماعية في مصر في القرن التاسـع عشر في كتابه (صِوَر للقَاهرة) Cairo Sketches، وكتابـه (الحَيـاة الاجْتِماعيَّـة في مِصْـر) Social Life in Egypt، وتناول الحياة الدينية وما يتصل بها في كتابه (دِرَاسات في مَسْجد) Studies in a Mosque، وألـف كتابًـا عن الفن العربي في مصر Art of the Saracens in Egypt عام 1886م، وفي عام 1901م ألف كتابه الذي بين أيدينا عن تاريخ مِصْر في العُصور الوسْـطى، ثم كتابه الشـهير (سـيرة القاهـرة) The Story of Cairo، عـام 1902م، والذي قام بترجمته كل من الدكتور حسـن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن وإدوارد حليم.

يعتبر هذا الكتاب من الكتب القليلة التي تناولت تاريخ مصر الإسلامية علـى وجـه الإجمـال، بنظـرة شـاملة ودقيقة في نفـس الوقت، فقـد حاول مؤلفـه حصر أهـم الأحداث التاريخيـة وذكر الأسـماء والتواريخ والأرقام والإحصائيات ووضع قوائم للولاة والسـلاطين والخلفاء، ودعّم كل ذلك بالصـور والأشـكال التوضيحية التي بلغت مائة صورة وشـكل، هذا فضلًا عن رأيه ونظرته الخاصة كمؤرخ ومستشـرق غربي، فقد حاول على سـبيل

المثال التركيز على أحوال القبط وكنائسهم وأديرتهم، ونراه يتطرق دائمًا لأوقات رخائهم أو شدتهم ويفرد لها الأسطر والصفحات، مع أنه قد استقى معظم معلوماته من الكتب العربية لأشهر المؤرخين المسلمين من أمثال: الطبري وابن الأثير والمقريزي والسيوطي وغيرهم، هذا مع عدم التغافل عن المصادر الغربية الهامة خاصة في عصر الحروب الصليبية، مثل جوانفيل الذي رافق حملة لويس التاسع، أو وليم الصوري وغيرهم ممن عاشوا في ظل أحداث الحروب الصليبية.

* * *

أما عن الصعوبات التي واجهت مترجم هذا الكتاب، فكان أولها بالطبع عائق اللغة التي استخدمها المؤلف؛ إذ لم تكن إنجليزية سلسة كما هي عليه اليوم في كتب التاريخ الغربية؛ حيث يتم استخدام أسلوبٍ مباشرٍ وكلمات متداولة للتعبير عن الأحداث والوقائع، وإنما استخدم لين بول أسلوبًا جذلًا وعبارات أدبية فخمة تنتمي لعالم الأدب أكثر من انتمائها لغيره، فقد حاول الكاتب في أغلب الظن الكتابة بصورة شيقة تبتعد عن جمود الكتابات التاريخية، وهو الأسلوب المتبع في معظم كتب ذلك الوقت، مع ذلك فقد انتشر الكتاب انتشارًا كبيرًا بين الأوساط العلمية المتخصصة في جميع أنحاء العالم، ورجع إليه على مدى أكثر من قرن من الزمان كل مَن كتب عن تاريخ مصر الإسلامية، سواءً كانوا من الغربيين أو المؤرخين المشرقيين فيما بعد، وذلك راجع بالطبع لثقل وشهرة مؤلفه وأهمية كتاباته وجديتها على وجه الإجمال.

ومن العوائق الأخرى كان تأصيل الجمل الواقعة بين علامتي تنصيص، والتي تشير لنقلها حرفيًا من النص العربيّ، هذا مع ملاحظة أن الكاتب

لم يشـر إلـى المصدر في معظـم الأحيان؛ لـذا كان علـى المترجم البحث عـن تلك النصوص وإخراجها من المصادر، هذا غير كثرة أسـماء الأعلام والأماكن التي توجب على المترجم بقدر الإمكان التعريف بها أو الإشـارة لأهـم المصـادر والمراجـع التي ذكرتها، فضـلًا عن التعليق علـى كثير من المعلومات الواردة التي إن لم تتسم بالدقة فهي تتسم برؤية غير موضوعية. وكان علـى المترجـم أيضًا توضيـح بعض الأحداث التاريخية بشـكل أكثر تفصيـلًا فـي الهامش لخدمـة القارئ فـي فهم عميـق للوقائـع والأحداث وربطها بعضها ببعض؛ وللتغلب على عائق التركيز والاختصار الذي اتسم به الكتاب في مجمله.

وفـي النهايـة لا يسـعني إلا أن أحمد اللـه تعالى الذي وفقنـي في إتمام هـذا العمل الكبير، الذي اسـتوجب منـي جهدًا ووقتًـا لا يعلمهما إلا الله، إلا أنني لا أستكثره على خدمة العلم، وأدعو الله تعالى أن ينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم ولا يجعله هباءً منثورًا، وأن يجعلـه خطوة في طريق النهضـة العلمية التي ننتظرها لأمتنا، فبالعلم وحده تنهض الأمم وتحيا. وأقدم شكري وتقديري لكل مَن ساهم في هذا العمل ولو بكلمة أو نصيحة أو دعاء، وأدعو الله أن يجعله في ميزان حسناتهم، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، وصلى الله على سـيدنا ونبينا محمد وجميع أنبيائه ومرسليه، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم آمين.

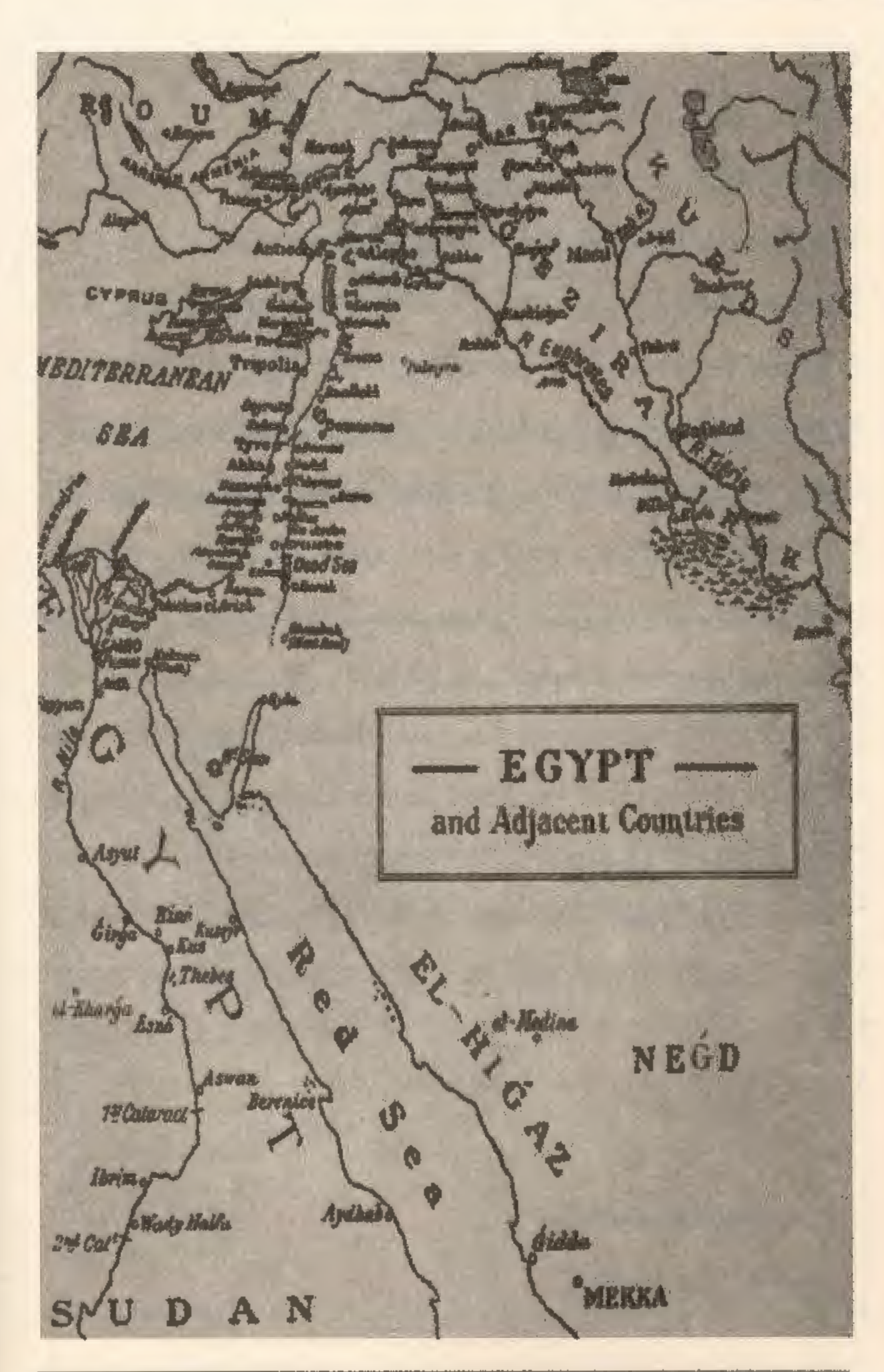
أحمد سالم سالم
الإسكندرية، في
ربيع الأول 1434هـ
يناير 2013م

مُقَدِّمَةُ المُؤلِّف

بجانب المصادر المُنوَّه عنها، فإني مدين بالفضل إلى م. ماكس فان برشم M. Max van Berchem، ليس فقط لسماحه باستخراج نسخ من صِوَره للنقوش، ولكن أيضًا لمساعدته القيّمة في إعداد قوائم النقوش التي تسبق كل فصل، والتي من أجلها أرسل لي بصدر رحب وثائق نسخ تجارب الطبع الخاصة بكتابه الذي على وشك الصدور: Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum، وأيضًا مذكراته عن النقوش المملوكية التي جمعها في سوريا، وجزيل الشكر أيضًا لزملائي، الأستاذ ر. هـ. تشارلز R. H. Charles والأستاذ ج. ب. بوري J. B. Bury، لتقديمهما يد العون في مراجعة المراجع الخاصة بالمصادر الإثيوبية والبيزنطية لتاريخ الفتح العربي؛ و م. ب. كازانوفا M. P. Casanova ، و م. هرتز بك M. Herz Bey لاستخدام بعض أشكالها التوضيحية.

ستانلي لين بول
كلية ترينتي، دبلن
Trinity College, Dublin

18 ديسمبر، 1900م


EGYPT
and Adjacent Countries
CYPRUS
MEDITERRANEAN
SEA
Tripolis
Dead Sea
CAIRO
Asyut
Girga
Thebes
Esna
Aswan
1st Cataract
Ibrim
Wady Halfa
2nd Cat
Berenice
Red Sea
EL-HIGAZ
el-Medina
NEGD
MEKKA
SUDAN
EGYPT
R. Nile
R. Euphrates
R. Tigris
Mosul
Palmyra
Baghdad
IRAQ

الفصل الأول

الـفَـتْـحُ الـعَـرَبـيّ

20 - 18هـ / 641 - 639م

الفتح العربي – الزحف نحو ممفيس – معركة عين شمس – فتح مصر – معاهدة مصر.

المقوقس – حصار بابليون – التقدم نحو الإسكندرية – استسلام الإسكندرية.

المعاهدة مع الروم – الإسكندرية – التسلسل الزمني للفتح.



الفصل الأول
الـفـتـح الـعـربـي
18-20هـ/ 639-641م

المصـادر: جـون نيكيو (يوحنـا النقيـوسي)[1]، ابـن عبـد الحكـم[2]،

---

(1) جون نيكيو أو (يوحنا النقيوسي) كان أسقفًا قبطيًا لمدينة (نقيوس) Nikiu، و ذا مكانة علمية ودينية في مصر وقت الفتح، توفي على الأرجح في أواخر القرن الأول للهجرة، الموافق لأوائل القرن الثامن الميلادي، ألف يوحنا تاريخًا يمتد من آدم عليه السلام حتى نهاية أحداث الفتح الإسلامي لمصر، فهو المصدر الوحيد الذي عاصر وقائع الفتح، لذلك فهو يشتمل على تفاصيل غاية في الأهمية لم تذكر في مصادر أخرى، إلا أن هذه التفاصيل يشوبها الكثير من التضارب والتحيز أحيانًا ضد الفاتحين؛ مما يفقد الكتاب صفة الموضوعية، وكانت معظم وقائع تاريخه باللغة اليونانية باستثناء بعض الفصول الخاصة بمصر المكتوبة باللغة القبطية، وقد تُرجم تاريخه إلى اللغة العربية واللغة الحبشية، إلا إنه لم يصلنا إلا الترجمة الحبشية التي تُرجمت بعد ذلك إلى الفرنسية والإنجليزية، ومؤخرًا تم ترجمتها إلى العربية. (المترجم).

(2) ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت 257هـ/ 870م)، كتاب فتوح مصر وأخبارها. يعتبر ابن عبد الحكم أول المصادر العربية المعتبرة التي تروى أحداث الفتح الإسلامى لمصر وأهمها، فقد دون الواقدى أحداث الفتح في كتابه فتوح الشام قبل ابن عبد الحكم بنحو ربع قرن، ولكن روايته أقرب إلى القصة منها إلى التاريخ، حشوها الأساطير والخوارق والمبالغات، ثم الأخطاء التاريخية الجوهرية، لذا نرى ابن عبد الحكم يغفل رواية الواقدى رغم اطلاعه عليها، وبالعكس نلمس الإتصال بين رواية ابن عبد الحكم والبلاذرى المعاصر له في كتابه فتوح البلدان، وقد انتهج ابن عبد الحكم في التدوين نهج الرواية الشفهية للحديث والسيرة، فروى عن أبيه =

البلاذري[1]، الطبري[2]. الروايات المتأخرة من: المقريزي[3]، أبي المحاسن[4]،السيوطي[5].

تُوفِّي النبي محمد ﷺ عام 11هـ/ 632م[6]، وخلال عدة أعوام من وفاته اجتاح أتباعه شبه الجزيرة العربية وسوريا وأرض الكَلْدَانيين Chaldaea، هازمين قوات إمبراطور القُسْطنطينية وكِسْرى Chosroes أو ملك فارس الساساني؛ وفي عام 18هـ/ 639م افتتح العرب مِصْر، بعد أن أذعن الخليفة عمر على مضض لمزاعم القائد عَمْرو بن العَاص، لكنه اشترط عليه إن وصله خطاب استدعاء قبل دخوله أرض مصر، فعلى الجيش العودة فورًا إلى المدينة. وبالفعل تم إرسال هذا الخطاب، إلا أن عَمْرو احتال لعبور الحدود

= أوعن القريبين من عصره مثل: الليث بن سعد، وابن لهيعة، وعبد الملك بن مسلمة، وغيرهم من محدثى القرن الثانى الهجرى، ثم روى عن معاصريه ممن أتقنوا الرواية وحرصوا على تسلسلها منذ أحداث الفتح، راجع مزيدًا عنه: محمد عبد الله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ الإسلامى، القاهرة 1999م، ص 8 : 20 ، مجموعة باحثين، دراسات عن ابن عبد الحكم، القاهرة 1975م (المترجم).

(1) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت 297هـ/ 892م)، كتاب فتوح البلدان (المترجم).

(2) الطبري، أبو جعفر بن جرير بن غالب (ت 310هـ / 923م)، كتاب تاريخ الأمم والملوك (المترجم)

(3) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ/ 1442م)، كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (المترجم).

(4) أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت 874هـ/ 1470م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (المترجم).

(5) السيوطي، عبد الرحمن بن محمد (ت 911هـ/ 1505م)، كتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (المترجم).

(6) لم يذكر المؤلف سوى التاريخ الميلادي في معظم مواضع هذا الكتاب (المترجم).

قبل فتحه، وهكذا أبطل غاية الخطاب[1]. زار عمرو الإسْكندرية في شبابه، ولم ينس أبدًا ثراءها. ولقد تم تنظيم تلك الحملة بينما كان الخليفة وعَمرو معًا قرب دِمشْق[2] أثناء عودتهما من فتح بَيْت الـمَقْدس في خريف عام 18هـ/ 639م، وقد أدى عمرو صلاة عيد الأضحى (10 ذو الحجة 18هـ) الموافق 12 ديسمبر 639م في العريش[3]، المدينة الحدودية المصرية.

---

(1) يروي المؤرخون أن الخليفة عمر كان يخشى يومئذٍ على المسلمين، خاصة بما علمه عن عمرو بن العاص من شجاعة واندفاع وأنه من الممكن أن يقتحم بالناس المخاطر أو يرمي بهم في التهلكة، لذلك يروي ابن عبد الحكم أن الخليفة كان مترددًا في قبول سير عمرو بالجيش نحو مصر وقد فسر هذا التردد في قوله: « سأرسل إليك بعد قليل كتابًا فإذا أمرتك فيه بالرجوع فارجع إلا إذا كنت قد دخلت في أرض مصر، فإذا كنت قد دخلت فيها فسر على بركة الله، أما عمرو فلم يكن بالرجل الذي ينقض ما بدأ فيه، لهذا عندما وصله كتاب الخليفة لم يأخذه من الرسول حتى بلغ بسيره الوادي الصغير عند العريش؛ حيث قرأ على الناس الكتاب ثم سأل مَن حوله: أنحن في مصر أم في الشام؟، فقيل: نحن في مصر، فقال: إذن نسير في سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين، انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، تحقيق: محمد صبيح، القاهرة 1974م، ص 46 (المترجم).

(2) نقلًا عن ابن عبد الحكم، كان اجتماع القائد عمرو بالخليفة عمر في (الجابية) قرب دمشق؛ حيث كان العرب لايزالون يحاصرون مدينة قيصرية، المصدر السابق، ص 48 (المترجم).

(3) تقع بشمال سيناء على ساحل البحر المتوسط، ذكرها ياقوت أنها مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام، على ساحل بحر الروم في وسط الرمال، ويقول المقريزي: إنها مدينة قديمة من جملة المدائن التي اختطت بعد الطوفان وأنها كانت تسمى مدينة العرش ثم سمتها العامة العريش فغلب ذلك عليها، وقد امتازت بكثرة النخل، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت 1977م، ج 4/ ص 113 ، المقريزي، الخطط، تحقيق: محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي - القاهرة 1998م، ج 1/ ص 589 (المترجم).

كان جيش الفتح يتكون من ثلاثة آلاف وخمسمائة أو أربعة آلاف رجل، لكن سرعان ما تم تعزيزه بمجموعة ثانية من أربعة آلاف، وكان أغلب الجيش من الفرسان المسلحين بالرماح والسيوف والأقواس، وكانت أول مقاومة تقابل المسلمين الفاتحين في مدينة (الفَرَما) Pelusium[1]؛ حيث صمدت الحامية الرُّومية[2] شهرًا، قبل أن يحرز المسلمون نصرًا جزئيًّا من خلال مساعدة الأقباط أو المصريين الأصليين، الذين كانوا توَّاقين للتحرر بأية طريقة من قمع الإمبراطورية الشرقية. وقد أسس الانشقاق الذي بدأ في عام 451م عداءً حادًّا بين الكنيسة الوطنية «اليَعْقُوبية» Monophysite[3]

(1) كانت بيلوزيوم مدينة تقع في أقصى شرق دلتا النيل على بعد ثلاثين كم جنوبي بورسعيد الحالية، سميت بالمصرية القديمة (بير آمون) أي بيت المعبود آمون، واسمها بالقبطية (برمون)، وأطلق عليها في العربية (الفرما)، تعتبر بوابة مصر الشرقية، وكان الفرع البلوزي من النيل يهوي إلى البحر بالقرب منها، ذكرها ياقوت بأنها مدينة قديمة بين العريش والفسطاط قرب قَطْيَة وشرقي تنيس على ساحل البحر على يمين القاصد لمصر وبينها وبين بحر القلزم (البحر الأحمر) أربعة أيام، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج 4/ ص 255، المقريزي، الخطط، ج 1 / ص 591 (المترجم).

(2) استخدم لفظ روماني Roman هنا بكثرة عن لفظ يوناني Greek، وذلك عندما يتصل الأمر بالإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية، وفي اللغة العربية يُدعى البيزنطيون دائمًا بلفظ الرُّوم؛ وصيغتها المفردة رومِيّ.

(3) يقول ابن حزم: قالت (اليعقوبية) إن المسيح هو الله تعالى نفسه، وأن الله – تعالى عن عظيم كفرهم – مات وصُلب وقُتل، وأن العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبر والفلك بلا مدبر، ثم قام ورجع كما كان، وأن الله تعالى عاد محدثًا، وأن المحدث عاد قديمًا، وأنه تعالى هو كان في بطن مريم محمولًا به، وهم – أي اليعاقبة – في أعمال مصر وجميع النوبة وجميع الحبشة، وملوك الأمتين المذكورتين. انظر: ابن حزم الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، بيروت، ج 1 / ص 111، 112 (المترجم).

في مصر وبين الكنيسة الرسمية الخَلْقدونية «Chaledonian» أو الملكانية «Melekite»[1] والتي دعمها أباطرة القُسْطَنطينية؛ وأدى اضطهاد الملكانيين لليعاقبة – الذين شكلوا القسم الأعظم من المصريين – إلى القضاء على أي أثر من ولاء قد يحتفظ به أي قبطي نحو السيادة البيزنطية[2]، وهذا بالطبع قد مهد الطريق للتدخل الأجنبي، الذي تم بالفعل على يد الفرس على عهد قريب للغاية وذلك عام 616م، إلا إنه قد تم طردهم بواسطة الروم قبل الفتح العربي عام 626م. لقد عاش المصريون منذ زمن بعيد تحت حكم الأجانب، وعانوا من العيش تحت وطأتهم جميعًا، ولهذا فإن تغيير الحُكَّام كان يعني القليل بالنسبة إليهم، إلا أن أي تغيير يطرأ على ذلك التعصُّب البيزنطي كان في عيونهم على الأرجح تغييرًا نحو الأفضل، هكذا أسهم هذا السخط الذي عَمَّ أرجاء البلاد في الانتصار السهل الذي أحرزه العرب؛ حيث كانت أول

(1) يقول ابن حزم : فرقة (الملكانية) مذهب جميع ملوك النصارى عدا الحبشة والنوبة، وعامة أهل كل مملكة للنصارى حاشا الحبشة والنوبة، ومذهب جميع نصارى إفريقية وصقلية والأندلس وجمهور الشام، وقولهم: إن الله تعالى ثلاثة أشياء: أب وابن وروح القدس، كلها لم تزل، وأن عيسى عليه السلام إله تام كله، وإنسان تام كله، ليس أحدهما غير الآخر، وأن الإنسان منه هو الذي صلب وقُتل، وأن الإله منه لم ينله شيء من ذلك، وأن مريم ولدت الإله والإنسان وأنهما معًا شيء واحد ابن الله، انظر: المصدر السابق، ج 1 / ص 111، 112 (المترجم).

(2) اعتنق المصريون (كنيسة الإسكندرية) مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح (اليعقوبية)، بينما قرر مجمع خلقدونية الديني المنعقد من قِبَل الإمبراطورية عام 451م الأخذ بمذهب الطبيعتين؛ وقد أدى ذلك الأمر لتعرض المصريين لموجة من الاضطهاد العنيف من قِبَل الأباطرة البيزنطيين، وظل الصراع قائمًا بين الكنيستين حتى الفتح الإسلامي، انظر: رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة (الجزء الخامس)، القاهرة 2001م (المترجم).

ردود الفعل لاستيلاء العرب على مدينة الفَرَمَا، بأن قام البطريرك الذي كان يدعوه العرب «أبو مَيامن» (غالبًا المقصود البطريرك اليعقوبي المنفي بنيامين) بنصيحة الأقباط بدعم الغزاة[1].

صمد الرُّوم ثانية في بِلْبَيْس[2]، والتي تبعد عن مصر ثلاثين ميلًا؛ حيث قُضِيَ شَهرٌ آخر في الحصار[3]؛ وبعد سقوط بِلْبَيْس، اضطُرَّ عَمْرو أن يعاود محاربة الروم في أمّ دُنَين[4]، وهي قرية أو ضاحية كانت قرب حي عابدين الحالي بالقاهرة، حيث انتصر المسلمون مرة أخرى؛ وقبل التقدم أبعد من ذلك ناشد عمرو الخليفة إرسال المدد لقواته، ولقد تم بالفعل إرسال مدد

(1) أي أن نصيحة البطريرك بدعم العرب لم تأت إلا في أعقاب الاستيلاء على الفرما، وهذا يجعل المساعدة الفعلية من قبل الأقباط للمسلمين لم تأت غالبًا إلابعد فتح حصن بابليون، وهذا يفسر الصعوبة الكبيرة التي لاقاها المسلمون في فتح هذا الحصن، وقد أيدت رواية ابن عبد الحكم مساعدة الأقباط للمسلمين بعد فتح الحصن، ابن عبد الحكم، ص 58 (المترجم).

(2) هي مدينة مصرية قديمة كانت تقع بين عين شمس وبسطة على حدود الصحراء، تقع الآن في محافظة الشرقية، سميت في التوراة (أرض جاشان)، ذكر ياقوت أن بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، ياقوت، معجم البلدان ج 1/ ص 479، المقريزي، الخطط، ج 1/ ص 515 (المترجم).

(3) لا يمكن قبول القصة الرومانسية للدفاع عن بلبيس بواسطة أرمينوسا، ابنة الحاكم جورج المقوقس، دون تحفظ، وهي موجودة في Mrs. Butcher's Story of the Church of Egypt, أو بصورة أكثر اكتمالًا في Quatremère,s Mémoires sur l'Egypte,.

(4) هي قرية كانت تقع شمال حصن بابليون، وقد ذكر المقريزي أن أمّ دُنَيْن هي (المقس) على الضفة الغربية للنيل والتي كانت ميناء مصر وقت الفتح، ويطلق عليها يوحنا النقيوسي (تنونديس) (المترجم).

عسكري آخر[1]، وصل بعدد الجيش إلى ما يقرب من اثني عشر ألف رجل[2]. جزء من ذلك الجيش كان على الضفة الغربية من النيل، متقدمًا عند أَسْيوط والبَهْنَسَا[3]، ومحاولًا الاختراق إلى الفيوم، حيث كان يقاومه ثيودوسيوس[4] Theodosius حاكم الفيوم و يوحنا John القائد العسكري لماروس Maros ؛ لكن كتلة الجيش الرئيسية كانت على الضفة الشرقية، مُتمركزة بجِوَار مدينة مِصْر أو «بابليون المصرية»، وهي امتدادٌ لشمال ممفيس

(1) يذكر ابن عبد الحكم في أحد الروايات أن الخليفة قد أمد عمروًا بأربعة آلاف رجل بعد قتاله في أم دنين، وفي رواية أخرى أنه أثناء حصار بابيلون، وعندما أبطأ الفتح على المسلمين كتب القائد عمرو إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه ذلك، فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف كما كتب عمر في كتابه، أما البلاذري فقد ذكر أن المدد كان عشرة آلاف أو اثني عشر ألف رجل على رأسهم الزبير بن العوام، انظر: ابن عبد الحكم، ص 50،49، البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع، بيروت، ص 298 (المترجم).

(2) طبقًا لرواية أخرى، جلب الزبير اثني عشر ألف رجل كمدد إلى عمرو، مع ذلك لا يمكننا الاعتماد هنا على الأرقام، إلا أن إجمالي القوة العربية كان صغيرًا بشكل واضح.

(3) هي مدينة بالصعيد تقع على الضفة الغربية من بحر يوسف، أُطلق عليها في اللغة القبطية (بمسيه)، ومنها جاء الاسم العربي بهنسة، وقد اشتهرت في العصر الإسلامي بصناعة الأنسجة الفاخرة البهنسية، انظر: المقريزي، الخطط، ج 1/ ص 660، محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، دار الكتب - القاهرة 1954م، قسم 2/ ج 3/ ص 211 (المترجم).

(4) كان (ثيودوسيوس) حاكم إقليم الفيوم، ويذكر بعض المؤرخين أنه كان وقتذاك مع حاكم الإسكندرية في بعض بلاد مصر السفلى، لذلك وُكِل أمر الدفاع عن الإقليم إلى (يوحنا) قائد كتيبة من أهل البلد (المترجم).

العتيقة[1]. كانت المدينة محمية بجيش رومِيّ ضخم، فضلًا عن حراستها بحصن قوي أعيد بناؤه بواسطة تُوربو Turbo عام 116م، مازالت بقاياه قائمة تحت اسم قَصْر الشَّمْع[2]. هكذا قَسَّم عَمْرو قواته إلى ثلاثة فيالق وضع

(1) كانت ممفيس موجودة زمن الفتح العربي برغم حالتها الرثة، إلا أنه لم يتم ذكرها أبدًا في الروايات، ولابد أن القسم المأهول منها كان هو المقصود عند التحدث عن «مصر»، وهناك الكثير من الغموض فيما يتصل بمدينة مصر في تلك الفترة، وما يزيده غموضًا كون لفظ مصر مستخدمًا أيضًا للتعبير عن إقليم مصر، ويتحدث المؤرخون العرب بشكل ثابت عن بابليون كما لو كانت مجرد حِصنٍ فحسب، لكن هناك القليل جدًّ ا من الأدلة على استقلال مدينة بابليون أو مصر بصورة ما عن الحِصْن. ونعثر في رواية (يوحنا النقيوسي) فحسب على تمييز بين السيطرة على مصر واستسلام الحِصْن، رغم ذلك فإنه في القرن السادس يذكر كل من هايروكليس وجورج القبرصي، ممفيس و ليس بابليون؛ لذلك لابد من تواجد مدينة مأهولة تُمَثِّل ممفيس العتيقة، وربما تشكل امتدادًا من الناحية الشمالية للمدينة وأكثر عصرية لها، وحري بالمرء أن يتوقع العثور عليها في الضفة الغربية من النيل، لكن كافة المصادر تتفق على وضع مدينة مصر على الضفة الشرقية بجوار حصن بابليون، من ناحية أخرى تبدو (تنونديس) Tendunyas من وصف يوحنا النقيوسي أنها على الضفة الغربية، وكانت ممفيس مدينة ضخمة ولابد أنها توسعت مع ضواحيها من مصر وتنونديس عبر النهر بما يوازي حصن بابليون.

(2) ذكر يوحنا النقيوسي أن الإمبراطور الروماني تراجان هو باني حصن بابليون في العام المائة للميلاد، فقد ثار اليهود بالإسكندرية ذات مرة فأرسل إليهم تراجان جيشًا عظيمًا وجعل أميره مرقيوس توربو ثم جاء بنفسه إلى مصر وبنى بها حصنًا قويًّا، وقد ذكر المقريزي في الخطط أن الحصن كان مطلًّا على النيل وتصل السفن إلى بابه الغربي الذي كان يعرف بباب الحديد فانحسر بعد الفتح بأعوام ماء النيل عن أرض الحصن والجامع العتيق (جامع عمرو) إلى الغرب، وكان الإقليم الذي يقع شرقي الحصن في وقت الفتح مزارع فسيحة، وكانت إلى شماله الحدائق وحوائط =

إحداها شمالي بابليون، والثانية تمركزت في تنونديس Tendunyas (وهي على ما يبدو ضاحية مُحصَّنَة على الضفة الغربية جنوب غرب بابليون)[1]، والثالثة ارتدت شمالًا إلى هليوبوليس[2] (عَيْن شَمْس)، أملًا في إغراء الروم للخروج من حصونهم فيطبق عليهم الفيلقان الآخران من المؤخرة. وبالفعل نجحت المناورة؛ إذ خرج الروم من حصونهم وأخذوا يهاجمون المسلمين في عين

= الكرم، وفيها يليها إلى الجبل الشرقي كنائس وأديرة متصلة إلى الموضع الذي به اليوم جامع ابن طولون وقلعة الكبش، عن الحصن انظر: ستانلي لين بول، سيرة القاهرة، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وعلي إبراهيم حسن، وإدوارد حليم، القاهرة 1997م، ص 60: 67 (المترجم).

(1) من الواضح هنا أن المؤلف قد نقل موقع المدينة عن زوتنبرج M. Zotenberg صاحب الترجمة الفرنسية لتاريخ يوحنا النقيوسي، والصحيح كما ذكر المقريزي أنها تقع شمال حصن بابليون، حيث ميناء المقس في مكان حديقة الأزبكية، إذ كان النيل يجري بجوار حصن بابليون، فكان مجراه إلى الشرق من المجرى الحالي، وفي ذلك المكان كان يوجد الحصن الروماني (تنونديس) وميناء المدينة؛ لذلك لا يمكن أن تكون خطة عمرو تقتضي وضع فيلق من الجيش شمال الحصن وفي نفس الوقت وضع فيلق آخر في تنونديس الواقعة أيضًا شمال الحصن، ومن الأرجح أنه وضع الفيلق الآخر إلى الشرق من الحصن عند الجبل الأحمر بالقرب من موضع القلعة الحالي، ليكون سير الروم عند خروجهم من الحصن بين هذين الكمينين، بينما يكون هو مع القوة الرئيسية في عين شمس (المترجم).

(2) هي القسم الثالث عشر من أقسام (مديريات) مصر القديمة، اسمها المقدس (بيَّرع) أي معبد أو مدينة أو بيت الشمس، وبالقبطية (فري) بمعنى بيت الشمس وهو الأصل في تسميتها باليونانية (هليوبوليس)، وسميت في التوراة وبالقبطية (أون)، وكان في جوارها عين ماء معروفة سماها العرب عين شمس فغلب اسمها عليها، انظر: محمود عكوش، مصر في عهد الإسلام (فتح مصر والإسكندرية)، دار الكتب – القاهرة 1941م، ص 52، 53 (المترجم).

شمس، في حين أطبقت على مؤخرتهم قوات عمرو فتم دحرهم؛ ومن ثمّ اضطروا إلى الفرار نحو النيل؛ حيث استقلوا قواربهم فرارًا عبر مجرى النهر. عند ذلك احتل المسلمون تنونديس مكان حاميتها التي هلكت في المعركة، فيما عدا ثلاثمائة رجل أغلقوا أبواب الحِصن من دونهم وانسحبوا بالقوارب إلى نَقْيوس Nikiu[1]. وكان أهم توابع احتلال تنونديس: الاستيلاء على كامل مدينة مِصْر فيما عدا الحِصْن، الذي تمت محاصرته تبعًا لرواية يوحنا النقيوسي John of Nikiu – الذي يعتبر من المصادر المعاصرة تقريبا للحدث – إذ أنه لا يذكر حصارًا أو غزوًا آخر لمدينة مصر، لكنه يذكر فحسب إخضاع الحِصْن في وقت لاحق[2]. كانت هزيمة الرُّوم في عَيْن شَمْس ساحقة لدرجة أن مصر لم تسقط وحدها في أيدي المسلمين، وهي المدينة الرئيسية في تلك المنطقة، وإنما سقط ما بعدها حتى الفيوم بعدما فر الجيش البيزنطي من المدن الرئيسية حتى مصر الوسطى وأسرعوا نزولًا مع النيل إلى نقيوس، وعندها

(1) كانت مدينة نقيوس – التي تعرف بالقبطية (بشاتي) – تقع على الشاطئ الشرقي لفرع النيل الغربي (فرع رشيد) على مسيرة يوم من حصن بابليون وعلى مقربة من مدينة منوف السفلى القريبة من طنطا، وكان لها مكانة حربية كبيرة في حفظ الطريق بين حصن بابليون والإسكندرية نظرًا لحصانتها، انظر: محمد رمزي، قسم 2/ ج 2/ ص 107 (المترجم).

(2) يؤرخ يوحنا النقيوسي في تاريخه الفتح الإسلامي لمصر منذ الاستيلاء على حصن بابليون (بالتقويم الرومي Indictionis XIV) والذي تم فيما بين 1 سبتمبر 640م – 31 أغسطس 641م، أما التاريخ الأخير فلا يمكن إثباته فعليًا، لكن المهم هو التمييز بين الحدثين، والتركيز على الفترة الزمنية الفاصلة بينهما، وأما التوضيح فهو من عمل المُترجم العربي، طبقًا لزوتنبرج، لكن يمكن افتراض أنه كان لديه بيانات مُسبقة يسير بناءً عليها، وإلا فإنه من النادر للغاية استخدامه التقويم الزمني للسنة الرومية Indiction Chronology.

سارع العرب بالاستيلاء على مدينة الفيوم وأسيوط، وأخيرًا البَهْنَسَا، في مجزرة عظيمة[1].

تتضارب الروايات العربية عن فتح مصر مع بعضها، ومع ما تم تقديمه آنفًا في كثير من التفاصيل، لكنها تؤكد حقيقة أساسية هي انتصار عين شمس (والذي لابد أنه وقع قبل أن تُغمر الأرض بماء الفيضان أي قبل سبتمبر)، وتسجل الاحتلال الذي تلا هذا الانتصار أثناء فترة الفيضان، ثم إنها تضيف قصصًا مختلفة عن مفاوضات، بل وحتى ضيافات بين المصريين والعرب انتهت في النهاية بمعاهدة رسمية، حين نقرأ عن شخص كاثوليكي من مصر يدعى أبو مَرْيم، انضم لجيش عمرو مصحوبًا بأسقف، وساعيًا لتسوية الشروط، ولقد أظهر عمرو طِيب النيَّة، مظهرًا الميول الودية للرسول محمد ﷺ نحو الأقباط[2]؛ حيث قرابة النَسَب المُتعَارَفَة من خلال هاجر الأم المصرية لإسماعيل، الجد الأعلى للرسول ﷺ؛ وعرض عليهم الاختيار المعتاد، إما باعتناق الإسلام أو بدفع ضريبة خاصة يَـجْبِيهَا الفاتحون على غير

(1) نقل المؤلف خبر هذه المذبحة عن يوحنا النقيوسي، الذي ربما دفعه العداء للمسلمين في هذا الوقت أن يختلق مثل هذه الروايات ليضفي طابع الوحشية على أحداث الفتح، إلا أنه من المؤكد تبعًا لكل الروايات التاريخية أنه لم تحدث مثل هذه الأحداث على الإطلاق، خاصة مع حرص الجيش الإسلامي الذي يتكون غالبيته من الصحابة على تنفيذ تعاليم الخليفة بكل دقة، وهي عدم استخدام العنف مع غير المحاربين من أهل البلد خاصة النساء والأطفال وكبار السن، هذا فضلًا عن النهي عن الهدم و التخريب بكافة أنواعه، وهذا ما تحقق بالفعل بدليل مساندة المصريين الأقباط للجيش الإسلامي، وهذا ما ذكره يوحنا نفسه بعد ذلك في بعض وقائع تاريخه؛ مما يدل على تضارب ظاهر في شهادته. (المترجم).

(2) فيما يخص العادات والأعراف، انظر أبو صالح: 286، وملاحظات السيد M r. Evett وباقي المصادر.

المسلمين وهي (الجزية)، من هنا كان أبو مَرْيم والأسقف يميلان لقبول الخيار الثاني، لكن القائد الرُّوميّ «أَرْطبون Artabun»[1] لم يصغ لهما، ومن ثمّ قُتِلَ بعد ذلك في محاولة لمفاجأة المسلمين في هجوم ليلي؛ تبعته معركة عَيْن شَمْس؛ حيث اعتلى الزُّبَيْر بن العَوَّام سور حصن بابليون وفتح بوابته[2]، بعدها سعى المصريون لإقرار الصلح، وعقدت المعاهدة طبقًا للتقليد الإسلامي الذي سجله الطبري في كتابه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم وبَرّهم وبَحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا يُنتقص، ولا يساكنهم النُّوب[3]، وعلى أهل مصر أن يُعْطُوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصُّلْح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف[4]، وعليهم ما جنى

---

(1) دعاه العرب أيضًا المندكر (أو المنغفر) ابن قرقب، ولُقِّبَ في العربية الأعرج أو الأعيرج «الأفعى».

(2) كان ذلك في يوم الجمعة الموافق الثاني من محرم سنة 20هـ/ 22 ديسمبر 640م، انظر: محمد مختار باشا، التوفيقات الإلهمية، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة 1980م، ص 52، انظر تفاصيل فتح الحصن في: ابن عبد الحكم، ض 52، البلاذري، ص 299 (المترجم).

(3) أي النوبيين من أهل النوبة (المترجم).

(4) هذا على الأغلب خطأ يخص «دفع ضريبة الرأس (الجزية) [دينارين لكل رأس] وخمسين مليون درهم ضريبة أرض (خراج)»؛ حيث كانت ضريبة الأرض، لا ضريبة الرأس، هي التي يمكن أن تُعدَّل بصورة مُتناسِبَة مع خصوبة الأرض المتوقفة على مستوى الفيضان، ويُقدِّر ابن خلدون مُستشهدًا بسجلات ترجع للنصف الأخير من القرن الثامن ضريبة الأرض في مصر بحوالي 44 مليون درهم. ويقول أبو صالح: (f.22a) إن عمرو فرض ضريبة سنوية من 3/2 26 درهمًا (أي دينارين) على الجميع، لكنه يفرض دينارين وثلاثة أردبات من القمح على كل الرجال الأغنياء.. =

لُصوتِّهم[1]، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة[2]، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى، رُفع عنهم بقدر ذلك، ومَن دخل في صلحهم من الرُّوم والنُّوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومَن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا، عليهم ما عليهم أثلاثًا في كل ثلث جِباية ثلث ما عليهم[3]، على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين، وعلى النُّوبة الذين استجابوا أن يُعينوا بكذا وكذا رأسًا وكذا وكذا فرسًا، على ألا يُغْزَوْا ولا يُمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة، شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه، وكتب وردان وحضر»[4].

يَنسب معظم المؤرخين العرب مفاوضات معاهدة السلام تلك إلى شخص يُدعى جرجس أو (جُرَيج) أو جورج، ابن مِيناس، المُقَوْقِس[5]،

= بهذه الطريقة أخرجت الدولة 12 مليون درهم؛ حيث إن التعداد السكاني (كما افترضه) باستثناء الصغار وكبار السن كان ستة ملايين. وكان الدينار محتواه الذهبي على الأحرى أكثر من عملة النصف سوفرجين الذهبية البريطانية Half-Sovereign، ويمكن أن يُعتبَر تقريبًا نصف جنيه Half-Guinea (عملة ذهبية بريطانية سابقة تساوي 21 شلنًا إنجليزيًّا).

(1) أي أن كل واحد منهم مسئول عن أعمال العنف التي يقترفها أحدهم (المترجم).

(2) أي فيما يخص أولئك الذين لن يدخلوا في هذه المعاهدة، فإن مبلغ الجزية سيتم إنقاصه عن البقية بصورة متناسبة مع عددهم، لكننا ليس لنا أي مسئولية نحوهم (المترجم).

(3) أي جباية الضرائب ستكون في صورة أثلاث، ثلث في كل مرة (المترجم).

(4) نص ما رواه الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ج 4/ ص 109 (المترجم).

(5) انظر ترجمته في: المقريزي، المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، بيروت 1991م، ج 3 / ص 23 : 30 (المترجم).

الذي كان عظيمًا من واقع مركزه كحاكم لمصر، ثم نُدد به كخائن أكبر للمسيحية[1]، لقد كان في البداية بالفعل يعارض المسلمين الفاتحين، لكن بعد فتح مصر، وفي الفترة التي يقال إنه ومعظم القوات قد انسحبوا للجزيرة المقابلة (التي أطلق عليها بعد ذلك «جزيرة الرَّوْضَة») قام بفتح الاتصالات مع عمرو، آملًا أن ينال شروطًا أسهل إن تمكن من عقد معاهدة قبل أن يستقر مستوى فيضان النهر، والذي كان حينئذٍ يطوِّق المسلمين؛ وتم تحقيق السلام على أساس الجزية التي تساوي دينارين (حوالي جنيه) لكل رأس، باستثناء النساء والأطفال وكبار السن، مصحوبة بضريبة أرض معتدلة

(1) كان هناك «مُقَوْقِس» قام بالفعل باتصال مع الرسول العربي - ﷺ - في عام 628م، وقد أرسل إلى الرسول أَمَتَيْن، وبغل أبيض، وقِدْر من عسل بنها Benha، وهدايا أخرى؛ كانت إحدى هاتين الفتاتين، ماريا القبطية، ذات الشعر الأجعد، والتي صارت زوجة للنبي؛ إلا أن المؤرخين العرب أطلقوا لقب المقوقس علي الحكام الروميين المتعاقبين لمصر (ربما فساد في اللفظ اليوناني الذي يعني "المُعظَّم"، كما يقترح كاراباكيك Karabacek, Mittheil. Aus d. Samml. D. Papyr. E-zherZog Rainer, i. 1-11)، فلربما كان المقوقس الذي اتصل بالرسول شخصًا مختلفًا عن المقوقس المتواجد عام 640م، وكانت اتصالات عمرو بـ"جورج الوالي" أمر واضح، حيث إن يوحنا النقيوسي ينص على أنه بعد غزو مصر والفيوم، "أرسل عمرو الأوامر لجورج الوالي لصنع جسر فوق قناة قليوب"، لتيسير الغزوات إلى مسافة أبعد في الدلتا، ويضيف: "لقد كان جورج هذا آنذاك حين بدأ [المصريون] معاونة المسلمين."، (Milne, Egypt under Roman Rule, 225). غالبًا جورج، ابن ميناس، المقوقس المذكور عند العرب (رغم أنهم جعلوه حاكمًا لمصر كلها، كان يحكم من الإسكندرية)، وتعد مساعداته للمسلمين بعد فتح مصر مفتاحًا لفهم الروايات العربية المُعقَّدَة؛ حيث تُلمِّح أوامر عمرو لجورج ضمنًا بصلات سابقة، ولأنه لابد أن أحدًا ما قاد مفاوضات السلام من الجانب المسيحي، الذي كان على الأرجح مصريًّا لا روميًّا، فليس بعيدًا عن الاحتمال وفقًا للمعتقد العربي أن المقوقس كان هو ذلك المفاوِض.

(الخَراج)[1]، والتعهد بحسن ضيافة المسلمين ثلاثة أيام، للإسهام على ما يبدو في مِيرة الجيش العربي. هكذا وافق المصريون على هذه الشروط، ومُنحَ الرومُّ الاختيار بين الموافقة أو الانسحاب إلى الإسْكندرية[2]. وحين تنكر الإمبراطور لهذه المعاهدة، ذهب المقوقس إلى عمرو وقال: رغم أن الروم تابعوا الحرب، إلا أنه سيبقى على كلمته وعهده، ثم طلب ثلاثة أشياء من القائد العربي: أولها أن العهد مع المصريين دائم لا يقطع، وألا يُبْرَم سلامٌ مع الرُّوم حتى يصبحوا عبيدًا كما يستحقون، وأخيرًا يعلن للجميع أن بضائع الرُّوم ما هي إلا غنائم. هذا فضلًا عن أنه إذا مات أحد منهم يتم دفنه في كنيسة القديس يوحنا St. John في الإسْكَندرية. هكذا وافق القائد عمرو، ومنذ ذلك الحين فصاعدًا قام معظم المصريين - أو الأقباط كما يطلق عليهم الآن - بتحريض المسلمين على الحرب ضد الروم، وساعدوهم في النقل والإمدادات.

كان أول إجراء لعَمْرو بعد فتح مدينة مِصْر هو صنع جسر قرب المدينة حتى يعيد الاتصال بالضفة الغربية، وقد ساعد هذا الجسر أيضًا في كبح

(1) انظر: ابن عبد الحكم، ص 55 (المترجم).

(2) من المحتمل أن هذه المعاهدة هي التي يشير إليها نيقفورس Nicephorus، والذي يقول (28, ed. Bonn) إن البطريرك قيرس Cyrus (ربما "الأسقف" تبعًا للرواية العربية) تم استدعاؤه إلى القسطنطينية من قِبَل الإمبراطور هرقل Heraclius ، وتم التعتيم على خبر اضطرار دفع الجزية للمسلمين. وقد ذكر ثيوفانيس Theophanes (518, ed. Bonn) أيضًا معاهدة؛ حيث وافق قيرس على دفع 120.000 دينار لعمرو، ودفع بالفعل هذه الجزية لثلاثة أعوام؛ لكن يبدو أنه يشير إلى المعاهدة الثانية التي وقعت عند استسلام الإسكندرية، وفي الروايات الـمُرتبكة للكتّاب اليونانيين هناك فكرة سائدة أن البطريرك وافق في تاريخ مبكر على دفع جزية للعرب، انظر:

J. B. Bury, Later Roman Empire, ii. 271.

تقدُّم الروم الهاربين في مجرى النهر إلى نَقْيوس والإسْكَندرية. وعندما قام عمرو بجمع رجاله، وجلب الوحدات العسكرية الصغيرة من الضفة الغربية عبر النهر إلى الشرق، بدأ حصار حصن بابليون بقوة، والذي سقط أخيرًا في 22 ربيع الثاني 20هـ/ 9 إبريل 641م[1].

يربط المؤرخون العرب بين العديد من الحكايات وحصار بابليون، والتي أثارت الاهتمام بشكل كبير لبيانها مدى الانطباعات التي تركها الفاتحون على الروم والمصريين؛ من حيث الأخلاق وبساطة السلوكيات فضلًا عن الورع، أما الشجاعة البطولية للعرب فهي أغلب ما أسهبت تلك الحكايات في الحديث عنه. تقول إحدى هذه الروايات على سبيل المثال: « لما حصر المسلمون الحصن كان عُبَادَةُ بن الصَّامِت[2] في ناحية يصلي وفرسه عنده، فرآه قوم من الروم فخرجوا إليه وعليهم حلية وبزة، فلما دنوا منه سلم من صلاته ووثب على فرسه ثم حَمَل عليهم، فلما رأوه غير مكذِّبٍ عنهم ولوا راجعين، وأتبعهم فجعلوا يلقون مناطقهم ومتاعهم

(1) هذا التاريخ ليوحنا النقيوسي، والذي يقول: إنه كان اليوم الثاني بعد عيد الفِصح، رغم أنه أخطأ في السنة، فوضع XV (15) بدلًا من XIV (16)، (ep-Brooks, Byz. Ztschr. Iv. 440). ومن المؤكد أن النسخة الفارسية من الطبري، جعلت سقوط بابليون في شهر ربيع الثاني من سنة 20هـ (20 مارس - 17 إبريل سنة 641م)، و هذا غير متواجد في نسخة ليدن Leyden من النص العربي.

(2) هو عُبَادةَ بن الصَّامتِ بن قَيس الأنصاري، من صحابة النبي ﷺ السابقين إلى الإسلام، أحد النقباء ليلة العقبة، ومن أعيان البدريين، شهد المشاهد كلها مع الرسول ومن الخمسة الذين جمعوا القرآن في زمانه، مات بالشام واختُلف في زمن وفاته، قيل 34هـ أو 45هـ أو في زمن خلافة معاوية، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، لبنان 2004م، ج2 / ص 2117 (المترجم).

ليشغلوه بذلك عن طلبهم ولا يلتفت إليه، حتى دخلوا الحصن، ورُمِيَّ عبادة من فوق الحصن بالحجارة، فرجع ولم يعرض لشيء مما كانوا طرحوا من متاعهم، حتى رجع إلى موضعه الذي كان به فاستقبل الصلاة، وخرج الروم إلى متاعهم يجمعونه»[1].

وفي قصة ثانية بعد أن تم استضافة رسل المقوقس بضعة أيام في معسكر عمرو، عادوا إلى سيدهم، فطلب منهم أن يخبروه عن العرب، فأجابوا: «رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إليه من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم. ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حَضَرَت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد. يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون في صلاتهم»[2].

حين فُتِحَ حصن بابليون، استعد القائد العربي للسير شمالًا بمجرد أن يعود النيل إلى ضفافه، فبعد الانتصار في عين شمس، أَرسل العديد من الوحدات العسكرية الصغيرة لبقاع مختلفة، للصعيد (جنوب مصر) والفَيوم، وأيضًا إلى الشمال نحو الإسْكَندرية، ودِمْياط، وتِنِّيس على الساحل؛ حيث لم يجدوا الكثير من المقاومة في معظم هذه الأماكن، وفرضوا الشروط المعتادة (الجزية والخراج) على السكان الممتثلين للطاعة؛ وكانت القوات البيزنطية حينئذٍ متمركزة في القليل من المدن الكبرى، وبعد أن ترك قوة في مدينة مصر، وأسطولًا من القوارب تحت حائط الحصن - الذي جرفه النيل آنذاك - سار عمرو على الضفة

(1) نص رواية ابن عبد الحكم، ص 51 (المترجم).

(2) نص رواية ابن عبد الحكم، ص 53 (المترجم).

الشـرقية لينازل ثيودوروس الوالي الروماني، لكنه مع ذلك وجد أن الوالي ومعظـم الجيش الرومانـي تقهقر إلى الإسـكندرية، تاركيـن دومينتيانوس Domentianus فـي نَقْيـوس، ودَارِيـس السَّـمَنُّودي Dares[1] لحراسـة «النهريـن». عنـد اقتراب العرب، فـر دومينتيانوس من نَقْيـوس وأخذ قاربًا إلى الإسْكندرية، ثم دخـل العرب نَقْيوس بلا مقاومة فـي 17 جماد الأول 20هــ/ 13 مايـو 641م (18 جينبـوت[2]، Ind. Xv. [lege xiv.] طبقًا ليوحنا النقيوسـي)، وقيـل إنهـم ذبحوا كل القاطنين وارتكبوا قسـوة ووحشـية في كامـل "جزيـرة نَقْيِوس"، المُطَوَّقـة بين أذرع النيل[3]. من نقيوس اسـتحث

(1) يذكر يوحنا النقيوسي أنه كان رئيس حكام مدينة سَمَنُّود، وهي مدينة قديمة من نواحي مصر جهة دمياط بينها وبين المحلة ميلان، وهي الآن إحدى المراكز بشمال شرق محافظة الغربية، ياقوت، معجم البلدان، ج3/ ص 254 (المترجم).

(2) جينبوت هو الشهر التاسع من الشهور الحبشية، يوافقه مايو تبعًا للشهور الميلادية (المترجم).

(3) مرة أخرى ينقل المؤلف افتراءات يوحنا النقيوسي التي انفرد بها دون المؤرخين، فقال إنهم قَتلوا كل مَن وجدوه في الطريق من أهلها ولم يدعوا رجلًا ولا امرأة ولا طفلًا، ثم انتشروا فيها حول نقيوس من البلاد فنهبوا ما فيها وقتلوا كل مَن وجدوه، وقال: «ولم يكف عمرو ما صنع، بل قبض على حكام الروم وكبل أيديهم وأرجلهم بأغلال الحديد والخشب ونهب أموالًا كثيرة بعنف، وضاعف فرض الضرائب على العمال، وكان يسخرهم ليحملوا طعام أفراسهم، وارتكب آثامًا كثيرة لا تحصى»، إلا أن النقيوسي ذكر في الفصل اللاحق ما نصه: «وعندما وصل هؤلاء المسلمون مع المصريين الذين جحدوا عقيدة المسيحية وانضموا إلى عقيدة هذا المفترس»، هكذا يشير هذا النص إلى اعتراف يوحنا النقيوسي أن بعض الأقباط قد اعتنقوا الإسلام بمجرد دخول المسلمين وهو ما يتناقض مع ما ذكره قبل ذلك من هروب سكان المدن مع تقدم المسلمين، فضلًا عن المجازر التي ذكرها والتي إن حدثت بالفعل لاستحال دخول أحد من المصريين في الإسلام فضلًا عن مساعداتهم المستمرة للفاتحين، وقد =

عمرو المسيرة شمالًا، آخذين أثريبيس Athribis وأبو صِير[1] Busiris،

= دلتنا أوراق البردي المكتشفة حديثًا على حقيقة معاملة الفاتحين للأقباط أثناء الفتح وبعده، ومن أهمها وثيقتان نشرهما المستشرق جروهمان Grohman يرجع تاريخهما إلى سنة 22هـ / 642م؛ أي أنهما معاصرتان لأحداث الفتح، تقول الوثيقة الأولى: «باسم الله، أنا الأمير عبد الله أكتب إليكما أنتما، خريستوفوروس وتيودوراكس، باجارك هيراكليوبولس. قد أَخَذْت منكما خمسًا وستين نعجة لأطعم الجند الذين معي، أعيد ما قلته، خمسًا وستين نعجة لا أكثر ليعلم الجميع ما فعلت، كتبت الإقرار هذا وحرره الشماس يوحنا، مسجل العقود، في اليوم الثلاثين من شهر برمودا من التوقيت الأول»، وهذا إن دل فإنما يدل على حرص الفاتحين على العدل لدرجة الكتابة والتسجيل لضمان الحقوق تتم حتى أثناء القتال، وهذا ما لم نشاهده حتى في الحروب الحديثة، أما الوثيقة الأخرى فهي: «باسم الله أنا الأمير عبد الله أكتب إليكم يا أمناء تجار مدينة (بسوفتس)، وأرجو أن تبيعوا إلى عمر بن الأصلع لفرقة القوطة علفًا بثلاث دراهم ذهبية، كل واحد منها (بعرورين)، وإلى كل جندي غذاء من ثلاثة أصناف»، انظر: تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، ترجمة: عمر صابر عبد الجليل، القاهرة 2009م، ص 195:197، 205، أودلف جروهمان، محاضرات في أوراق البردي العربية، ترجمة: توفيق إسكاروس، القاهرة 1930م، وراجع نص الوثائق في: جاك تاجر، أقباط ومسلمون، القاهرة 1951م، ص60، 61، أودلف جروهمان، أوراق البردي العربية في دار الكتب المصرية، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، القاهرة 1994م، السفر الأول (المترجم).

(1) توجد الآن العديد من القرى في مصر العليا والسفلى يطلق عليها أبو صير، لكن المقصود هنا التي تقع في مركز سَمَنُّود محافظة الغربية، والتي تبعد عن سخا حوالي عشرين ميلًا ناحية الجنوب الشرقي، كان اسمها بالقبطية بوصير ومنه اشتق الاسم العربي أبوصير، وقد ذكر ياقوت أن بوصير هو اسم لأربع قرى بمصر، هي بوصير قوريدس التي قتل بها مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ونقل عن الكندي أنها من كورة الأشمونين، وبوصير السِّدر بليدة في كورة الجيزة، وبوصير دَفَدنو من كورة الفيوم، وبوصير بَنَا من كورة السَمَنُّودية، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج1/ ص 509، 510، محمد رمزي، قسم2/ ج3/ ص125 (المترجم).

ودَمْسِيس Damsis[1] وسَخَا Sakha[2]، متلهفًا لاخضاع كامل الدلتا قبل أن يبدأ مستوى فيضان النهر في الاستقرار، إلا أنه قد تم صده في دمياط، ووجد القنوات وأذرع النيل تعترض سبيله فعاد إلى مدينة مصر، ومنها قام ببداية جديدة مع اختيار الضفة الغربية هذه المرة؛ حيث سار بطريرك تيرينوثيس Terenuthis محاربًا ثلاث معارك مع الرُّوم، ثم وصل إلى كِرْيَوْن Kiryawn[3]، والتي تبعد عشرين ميلًا جنوبي الإسكَندرية. وقد تم صد أول هجوم، إلا أن العاصمة قد تمزقت آنذاك إلى زُمَر، «الزرق» و«الخضر»[4]، والبيزنطيون والمصريون، أو اليونانيون والأقباط، ولم تكن

(1) هي على الأحرى (ميت دَمْسِيس) الحالية والتي تقع على بُعد نحو تسعة أميال إلى الشرق من مدينة طُوخ التي تقع على الجانب الشرقي لفرع دِمْياط (المترجم).

(2) تقع في الدلتا بين فرعي النيل على بعد نحو اثنين وعشرين ميلًا شمالي مدينة طَنْطَا الحالية، وعشرين ميلًا شمال غرب سمنود، يقول ياقوت إنها كورة بمصر وقصبتها سخا بأسفل مصر، وهي في زمانه قصبة كورة الغربية، وذكر أنها من فتوح خارجة ابن حذافة بولاية عمر بن العاص حين فتح مصر، ياقوت، معجم البلدان، ج3/ ص 196 (المترجم).

(3) كانت مدينة كِرْيَوْن آخر سلسلة من الحصون بين بابليون والإسكندرية، وكان لها شأن في الحرب؛ حيث كانت تشرف على الترعة التي عليها كل اعتماد الإسكندرية في الطعام والشراب، هذا فضلًا عن شأنها الكبير في تجارة القمح آنذاك، إلّا أنها لم تكن بحصانة كل من بابليون ونقيوس، وتحدث السيوطي والبلاذري وغيرهما عن معركة حامية استمرت عدة أيام في ذلك المكان انتهت بانتصار عمرو على الروم انتصارًا حاسمًا تراجع على أثره الروم وتحصنوا داخل الإسكندرية، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 458، محمد رمزي، قسم 2/ ج2/ ص 318 (المترجم).

(4) هي في الأصل أحزاب رياضية، يرجع أصلها إلى تشجيع الشعب لسباق الخيل في روما القديمة؛ حيث كان على سائقي عربات السباق التزين بلون من أربعة ألوان هي: الأخضر والأزرق والأبيض والأحمر، وعلى هذا انقسم المشجعون من سكان =

في حالة تسمح بالمقاومة؛ كان ثيودوروس الوالي البيزنطي في رُودس، أما دوميتيانوس Domentianus فكان بديلًا ضعيفًا، فضلًا عن عداوته مع زميله ميناس Menas والي مِصْر العليا. لقد كان الذعر العام وحالة الهرج التي سادت المدينة يفسران وحدهما استسلام حِصن كهذا جيد التحصين، متاح له تدبير المؤن، فضلًا عن إمكانية استقبال الإمدادات من البحر.

وهكذا حين وصل العرب قرب الإسْكَندرية، وجدوا العدو توّاقًا للمفاوضة. وجدير بالذكر أنه قد وصل إلى الطبري تقرير رجل كان قد خدم تحت إمرة عمرو عند فتح مدينتي مِصْر والإسْكَندرية فتم حفظه، هذا الرجل هو زياد الزُّبَيدِيّ، الذي قال إنه بعد فتح بابليون[1] تقدم الجيش داخل الريف (الدلتا) بين مدينتي مِصْر والإسْكَندرية، ووصل إلى بُلْهيب[2]؛ حيث أرسل حاكم الإسْكَندرية إلى عَمْرو عارضًا دفع الجزية

= العاصمة إلى أحزاب رياضية أربعة تسمت بأسماء الألوان، ثم انتقل كل هذا إلى روما الجديدة، ونتج عن هذا التضامن في حقل الرياضة تضامن في السياسة والاجتماع، فانضم البيض إلى الخضر، والحمر إلى الزرق، هكذا أصبح في المدينة حزبان سياسيان اجتماعيان هما حزب الخضر وحزب الزرق، فأيد الزرق الأرثوذكسية وأيد الخضر القول بالطبيعة الواحدة للمسيح، وقد مثّل الزرق في الغالب طبقات الشعب العليا بينما مثّل الخضر طبقات الشعب الدنيا، من هنا أصبح الصراع بينهما في بعض الأحيان صراعًا طبقيًّا، انظر: أسد رستم، الروم وصلاتهم بالعرب، بيروت 1955م، ص 170، 171 (المترجم).

(1) ذكرها الطبري، باب اليُون، ج4 / ص 105 (المترجم).

(2) كان موضعًا على الفرع الغربي للنيل جنوبي مدينة رشيد الحالية، مزيدًا عنها انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج1/ ص 492، وقد علق ألفريد بتلر Alfred Butler في كتابه فتح العرب لمصر The Arab Conquest of Egypt على نقل هذا الحدث عن الطبري من قِبَل المؤلف حيث قال: «وقد ذكر الأستاذ لين بول عن الطبري =

بشرط أن يتم تسليم الأسرى الرُّوم، فبعث إليه عمرو بأنه ينبغي وصول هذا العـرض إلى الخليفة في المدينة؛ فكتب مـا قاله الحاكم وقرأه على الجند، هكـذا انتظـروا في بُلْهيب خلال فترة الهدنة حتى أتى رد الخليفة عمر الذي قرأه عمرو علنًا، وقد نص على أن يطلب من أهل الإسكندرية دفع الجزية، وأما الأسـرى فيخيّرون بين قبول الإسـلام أو البقاء على دينهم؛ إن اختاروا الإسـلام فهم ينتمون إلى المسـلمين، وإن تبعوا عقيدتهم فسـيتم إرسالهم إلى الإسْكَندرية. أما الأسـرى الذين تـم إرسـالهم بالفعل إلى شبه الجزيرة العربيـة فـلا يمكـن إعادتهـم، وهكـذا تم إعطـاء الأسـرى المتبقيـن حرية الاختيـار، وحين اختار بعضهم الدخول في الإسـلام صـاح الجيش: «الله أكبـر». قال زياد: « كبرنا تكبيرة هي أشـد من تكبيرنا حيـن تُفتح القرية»[1]. ومن ثمّ عاد الباقون إلى الإسْكَندرية، وتـم تحديد قيمة الجزية، واستسلمت الإسكندرية ثم دخلها المسلمون.

لـم يذكر يوحنا النقيوسي مثله مثل زياد، حصارًا طويلًا للإسْكَندرية، لكنه يقول: إن البطريرك قِيرس Cyrus الذي عاد من القُسْطَنطينية بيده سلطات

= عبارة زياد وهي أن طلب الصلح جاء إلى عمرو وهو في بُلْهيب، وأنه أرسل إلى الخليفة في ذلك وأن المسلمين انتظروا رده في ذلك الموضع عينه، والخبر على هذه الصورة غير محتمل فإنه يخالف ما جاء في ابن قتيبة ويوحنا النقيوسي، وكلاهما يقول إن عمرو جاء إلى بابليون في ذلك الوقت، وأنه لمن المستبعد أن يكون جيش عمرو قد بقي هذه المدة كلها في موضع واحد، فالحقيقة كانت بغير شك أن عقد الصلح كان في بابليون، وأن إقرار الخليفة جاء إلى عمرو وهو في بُلْهيب»، انظر: بتلر، فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة 1999م، ص 285 ، انظر أيضًا الهامش القادم للمؤلف (المترجم).

(1) الطبري، ج4/ ص 106 (المترجم).

كاملـة للتفاوض، ذهـب إلى عَمْرو في بابليون[1] ليعرض شـروط السـلام ويعطي الجزية، وقد تم حسـم الأمر على أن يدفع أهل الإسْكَندرية للعرب جزيـة شـهرية، وأن يقدمـوا ما لا يقل عن مائة وخمسـين جنديًّا وخمسـين مواطنًـا كرهائـن، في مقابـل أن يتعهد المسـلمون بعدم التدخل في شـئون النصارى وكنائسـهم؛ وأما اليهود (الذين بلا شك ساعدوا في تجهيز أموال الضريبـة) يُسـمَح لهم بالبقاء في الإسْـكَندرية، وأن يبقى المسـلمون بعيدًا عن المدينة لأحد عشـر شهرًا؛ حتى يركب الجيش البيزنطي السفن ويغادر الإسـكندرية، على ألا يرسـل أي جيش آخر محاولًا اسـتردادها. هذا وقد ركبوا بالفعل السفن في 16 شوال 21هـ/ 17 سبتمبر 642م، وهو ما يجعل تاريخ معاهدة الاستسلام المشروط في ذي القعدة 21هـ/ أكتوبر 641م، إن تم مُلاحظة شرط الأحد عشر شهرًا[2].

(1) يجوز أنه خطأ الناسخ الذي قصد بُلْهيب؛ حيث يمكن بسهولة الخلط بين الاثنين في النشر العربي غير المتقن Arabic MS، والذي يبدو أن النسخة الإثيوبية ليوحنا النقيوسي تم استنساخها منه، لكن ربما وجد قيرس، عمرو في بابليون بعد عودته إلى مصر قبل عيد الفصح عام 641م، وهناك بدأ المفاوضات التي استمرت في بُلْهيب.

(2) إن الاعتقاد الذي روي، وسجله العديد من المؤرخين العرب، هو أن الإسكندرية تحملت الحصار لأربعة عشر شهرًا، فَقَدَ خلالها المسلمون أكثر من عشرين ألف رجل؛ والكثير من حوادث هذا الحصار تم توارثها، البعض منها قد يشير حقًّا لإعادة الفتح اللاحقة للمدينة في 645م، وهم ينصون على أنه أثناء معركة عين شمس تم إرسال العديد من الوحدات العسكرية الخاصة لمناطق عديدة من أقاليم مصر، ذهبت إحداها إلى الإسكندرية، وربما تواجد فيلق للمراقبة قرب الإسكندرية لأربعة عشر شهرًا، لكن قصة الحصار تتناقض مع رواية زياد الصريحة، وأيضًا مع يوحنا النقيوسي. والأكثر من ذلك أن أدوات حصار العرب كانت على الأرجح ضعيفة للغاية، رغم استخدامهم المبكر للمنجنيق ومقالع الأحجار، إلا أن هذه =

يصف الكُتَّاب العرب ما كانت عليه مدينة الإسْكَندرية عام 21هـ/ 642م بمبالغاتهم المألوفة[1]: فهي - كما يقولون - كان بها أربعمائة مسرح، أربعة آلاف حمام عام ... إلخ، ويُحصَى سكانها بستمائة ألف نسمة (بدون حساب النساء والأطفال)، منهم مائتا ألف من الروم، وسبعين ألفًا من اليهود. أما عن إمكانية حدوث أي دمار أو نهب من قِبَل

= الأدوات يصعُب أن تصل لدرجة قوة تكفي لنقض حصون الإسكندرية. أما عن القصص المتعلقة بأسر عمرو، والمراوغة لعدم اكتشافه نتيجة لذكاء عبده، وهروبه بصعوبة في حمام عمومي، هي روايات بعيدة عن الصحة. أما عن العلاقات بين المسلمين والروم خلال مُهلة الأحد عشر شهرًا فلا ندري بالضبط على أي وجه كانت. لقد سجل يوحنا النقيوسي أن المسلمين أتوا إلى الإسكندرية لجمع ضريبة الرأس، وتلا ذلك اضطرابات، عَمِل قيرس البطريرك على تهدئتها، لكن هل قام المسلمون بعد ذلك بغزو الإسكندرية، كما يعتقد المؤرخون العرب، أو (كما يبدو أكثر احتمالًا) أنهم تسلموا الضريبة خارج المدينة وراقبوا الهُدنة؟، فليس هناك دليل واضح على ذلك، وطبقًا للمعتقد الذي تكرر من قِبَل العديد من المؤرخين العرب، فإن الإسكندرية تمت السيطرة عليها من خلال الاقتحام، لكن الروم قد استولوا عليها ثانية بصورة شبه فورية؛ حيث تم طردهم منها مرة أخرى، ومن ثمّ هربوا عن طريق البر والبحر، ولكن قد يشير هذا للاضطرابات التي سببتها جباية الجزية، أو الغزو الثاني من مانويل Manuel عام 645م. والحقيقة المُسلَّم بها أنه قد سُمِحَ لأهل الإسكندرية عامة أن يدفعوا الجزية بدلًا من مصادرة ممتلكاتهم، وهذا دليل يرجح الاستسلام المشروط للمدينة، رغم أن بعض الروايات تفسره كعمل تفضلي (من قِبَل المسلمين)، إلا أن هناك حافزًا واضحًا من جانب العرب لإعلان أن مصر قد تم فتحها عن طريق الحرب؛ لأنه عندما يتم فتح بلد بهذه الطريقة فإنها - طبقًا للشريعة الإسلامية - تُحرَم من كل الحقوق وتتعرض للمصادرة، ولن يكون ذلك قابلًا للحدوث في حال استسلام المدينة بصورة مشروطة (صلحًا).

(1) على سبيل المثال: ابن عبد الحكم، ص 62، 63 (المترجم).

العرب، فليس هناك أية إشارة على ذلك في أي من المراجع المبكرة، فمنذ استسلام المدينة المشروط لم يكن من المسموح السلب أو أخذ الغنائم. ويسجل يوحنا النقيوسي أن عَمْرو قد جبى الضرائب المتفق عليها، ورغم ذلك لم يأخذ شيئًا من الكنائس، ولم يُنزل بها أي أذى من أعمال سلب أو غنيمة، بل على العكس قام بحمايتها في كل مكان. أما عن قصة تدمير «مكتبة الإسْكَندرية»، وتوزيع الكتب لإشعال النيران في أربعة آلاف حمام عام، لم يتم العثور عليها في أي من المصادر المبكرة، فضلًا عن أنها ليست مذكورة من قِبَل أي كاتب يوناني، ولم يذكرها يوحنا النقيوسي، أو ابن عبد الحكم أو الطبري، فهي تظهر لأول مرة في القرن الثالث عشر، أي بعد ستمائة عام بعد الحدث المزعوم في أعمال عبد اللطيف وأبي الفرج، إنها بلا ريب متناقضة مع رواية يوحنا النقيوسي عن سياسة الحماية التي اتبعها عمرو، ولربما كان أصل القصة يرجع إلى تدمير كتب عابدي النار خلال الفتح العربي لأرض فارس[1].

ويمكننا أن نورد قصة من حصار الإسكندرية على سبيل المثال كتوضيح للحيوية التي تمتع بها المحاربون العرب: «لقي عَبْدُ الله بن عَمْرو[2] العدو

(1) اتفق ألفرد بتلر مع المؤلف في استبعاد المزاعم التي تلصق بالعرب المسئولية عن إحراق مكتبة الإسكندرية، راجع: فتح العرب لمصر، ص 348 : 370 (المترجم).

(2) هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل، من كبار صحابة الرسول ﷺ وأعلمهم، قدم مع أبيه مصر فلم يزل بها حتى مات أبوه وقد استخلفه على مصر فأقره معاوية عليها، ثم عزل بعتبة بن أبي سفيان، فأقام بمصر إلى أن مات معاوية واستخلف بعده يزيد بن معاوية، فكره عبد الله أن يبايع ليزيد، ولم يزل بمصر حتى مات بها للنصف من جمادى الآخرة سنة 65هـ انظر: المقريزي، المقفى الكبير، ج4 / ص 636 : 643 (المترجم).

بالكِرْيَـوْن وكان على المقدمة، وحامل اللواء وَرْدان مولى عَمْرو، فأصابت عَبْد اللَّه بن عَمْرو جراحات كثيرة، فقال: يا وَرْدان لو تقهقرت قليلًا نصيب الروح، فقال وَرْدان: الروح[1] تريد، الروح أمامك وليس هو خلفك، فتقدم عبـد الله فجاءه رسـول أبيه يسـأله عـن جراحه، فقال عبد اللـه: أقول إذا ما جاشـت النفس اصبري فعمـا قليل تحمدي أو تلامي، فرجع الرسـول إلى عمرو فأخبره بما قال، فقال عمرو: هو ابني حقًّا»[2].

(1) الروح تعني الاستراحة، وهي رواية ابن عبد الحكم نقل عنها المقريزي والمتأخرون، انظر: ابن عبد الحكم، ص 57 (المترجم).

(2) يكاد يكون تأريخ الفتح العربي لمصر مُربكًا بصورة كبيرة، حيث يصعب مناقشة الصعوبات هنا لتعقدها، إلا أن الرواية المذكورة أعلاه مبنية بشكل أساسي على يوحنا النقيوسي وابن عبد الحكم، مقارنة بالطبري والمؤرخين اللاحقين، رغم ذلك فإن رواية يوحنا بها تحويل واضح في بعض الفصول، ولقد نقلت الفصول بين 116-118 لتتقدم على الفصل 114، ويُسعدني رؤية م. إ. و. بروكس.E. W Brooks يصل بشكل مستقل إلى نفس الاستنتاج فيما يتصل بهذا التحويل، بعد دراسته الوافية للموضوع في Byzantinische Zeitischrift.iv (435.444)، وهذا يُشير إلى تصحيح التاريخ 15 (dnI. VX) في الفصل الخامس عشر للسير شمالًا نحو دمياط، والذي لابد أنه كان في أواخر الربيع أو أوائل الصيف (قبل الفيضان) من عام 641م (أي .14 XIV. Ind). هكذا وبنفس الطريقة فإن 15 (XV. Ind) الموجود في عنوان سقوط حصن بابليون لابد من تصحيحه إلى XIV 14. لذلك فإن مثل هذه الزلات ليست مُفاجِئَة في نسخة إثيوبية مترجمة من نسخة عربية محتملة لأصل قبطي محتمل. أما التاريخ القيم الوحيد الذي أمدنا به المؤرخون العرب فهو تصريح ابن عبد الحكم بأن عمرو قد احتفل بعيد الأضحى 10 ذو الحجة عام 18هـ الموافق 12 ديسمبر عام 639م في العريش عند بداية دخوله إلى مصر؛ في حين أن التواريخ الأخرى للمؤرخين العرب كثيرًا ما تتضارب مع بعضها بعضًا ولا يمكن =

= الاعتماد عليها، إلا أن الإشارات بخصوص فيضان النيل تعين على تصحيح وقت وترتيب الأحداث. أما عن التاريخ الوحيد في يوحنا النقيوسي الذي لا يحتمل الشك هو تاريخ موت البطريرك قيرس في «25 ماجابيت Magabit»، الثلاثاء قبل عيد الفِصح، والذي يمكن أن يكون 21 مارس 642م فقط، وأهمية هذا التاريخ هو أنه يصحح الاحتفال الأخير بالفِصح لقيرس (وهو طقس وصفه يوحنا بصورة خاصة) بفِصح عام 641، وهو ما يجعل مفاوضته للاستسلام المشروط للإسكندرية، قد وقعت بصورة مؤكدة في عام 641م وليس في 642م، والتي من أجلها تم إرساله بواسطة قوات الإمبراطور العائدة كاملة التجهيز. وقد زادت رواية المؤرخين العرب إشارة أخرى هامة هي أن الإسكندرية استسلمت بصورة مشروطة بعد تسعة أشهر من موت (هرقل)، الذي توفي في 11 فبراير 641م، وبناءً على ذلك فإن الشهر التاسع يقع من أكتوبر إلى نوفمبر، والذي يسمح بالشرط المنصوص عليه (الأحد عشر شهرًا) قبل الإخلاء في 17 سبتمبر 642م. أما التاريخ العربي المتناقل للاستسلام المشروط هو الأول من محرم سنة 20هـ (21 ديسمبر، 640م)، وهو غير مصدق بالنسبة لهذا الشهر، لكن العام 20 هـ تم تقديمه عن طريق الروايات المبكرة لأمثال ابن إسحاق، والواقدي، كما اقتبسه الطبري (i. 2579 ff.) لفتح كل من بابليون والإسكندرية، وهو يتوافق مع التاريخ المُقدَّم أعلاه، ويؤكده نص ابن عبد الحكم بأن الإسكندرية سقطت في العام الثامن من حكم الخليفة عمر والذي بدأ في منتصف عام 20هـ. وعن التاريخين، إبريل وأكتوبر من عام 641م لفتح بابليون والاستسلام المشروط للإسكندرية على التعاقب، فهما يدعمان بشكل كامل المُعتَقَد المتناقل السائد بأن بابليون سقطت بعد سبعة أشهر من الحصار، والإسكندرية بعد 14 شهرًا، وهكذا فإن حصار بابليون كانت بدايته في سبتمبر عام 640م، فورًا بعد سقوط مدينة مصر، أثناء فيضان النيل، وأما عن ظهور العرب بجِوار الإسكندرية (رغم أنه ليس حصارًا) فيمكن أن يكون قد حدث في نفس الشهر.

الفصل الثاني
وِلَايةُ الخِلَافَةِ الإسْلَامِية
20 - 254هـ / 164 - 868م

إخضاع مصر - تأسيس الفسطاط - الإدارة الإقليمية - العائدات - القنوات - هزيمة الروم - المعاهدة مع أهل النوبة - جزية العبيد - موت عمرو - الولاة الأمويون - معاملة الأقباط - اضطهاد النصارى - صمود النصارى - هجرة العرب - الولاة العباسيون - الفرق الدينية - الخوارج والعلويون - ابن ممدود - الفضل بن صالح - تمرد العرب - اللاجئون الأندلسيون - المأمون في مصر - قمع التمرد - قاضي القضاة - عنبسة - الحرب في السودان - الولاة الأتراك - الصنج الزجاجية.



الفصل الثاني

وِلَايةُ الخِلَافَةِ الإِسْلَامِية

20 – 254هـ / 164 – 868م

المصـادر: ابن عبد الحكـم، أبو صالـح، [1]ابن خلـكان، [2]المقريزي، أبو المحاسن، السيوطي.

---

(1) أبو صالح الأرمنّي، هو نصراني من أصل أرمنّي عاش في مصر في القرن 6هـ / 12م، نسب إليه كتاب (تاريخ الكنائس والأديرة)، جمع فيه تاريخ الكنائس والأديرة المصرية وأحياء الأقباط والبطاركة في مصر، وخلال ذلك تناول جوانب أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية، وقد اعتمد هذا الكتاب كثيرًا على روايات ساويرس بن المقفع الذي عاش في مصر في القرن الرابع الهجري وكتابه (سير الآباء البطاركة)، انظر: سيدة كاشف، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع، المجلة التاريخية المصرية، م 9، 10، 60– 1962م، ص 5 : 32. أما عن أول ما وصلنا من كتاب أبي صالح فهو القسم الثاني الذي يضم بعض خطط مصر والقاهرة الخاصة بالأقباط، وقد نشره المستشرق Evetts في أوكسفورد عام 1895م، وفي عام 1984م نشر الراهب صموئيل السرياني الأجزاء الباقية من الكتاب وهما الأول والثالث، لكنه قدم معلومات جديدة عن الكتاب؛ حيث نسبه إلى شخص يدعى أبا المكارم سعد الله ابن جرجس بن مسعود، والذي كتبه بين عامي 555هـ – 583هـ/ 1160 – 1187م، أما أبو صالح فقد كان مالكًا فحسب لمخطوط الجزء الثاني المحفوظ في باريس، والذي تم نشره عام 1895م (المترجم).

(2) ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد، (ت 681هـ / 1282م)، كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (المترجم).

آثار: مقياس النيل بجزيرة الروضة.

نقوش: أحجار من الفسطاط وأسوان في المتحف المصري بالقاهرة. المجمع العلمي المصري، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية Mi-5, Arché .l Française, Egypt. Inst

المجموعات الخاصة بالقاهرة، والقليل منها في أوروبا، (المتحف البريطاني ومتحف اللوفر و الفاتيكان) (Brit. Mu-, Louvre, Vatican).

عملات: القليل من عملات الخلافة الإسلامية التي تم سكها في مصر (الفسطاط)، تحمل أسماء الولاة.

صنج زجاجية وقوالب طابعة: تُظهر العديد منها: أسماء الحكام، وموظفي بيت المال، وغيرهم من العاملين.

كان استسلام الإسْكَندرية آخر الأعمال المهمة في فتح مِصْر، فلم تكن هناك مواجهات جديَّة في أي مكان آخر؛ ومن ثمّ صارت مصر بأكملها من أَيْلَة Eyla[1] على البحر الأحمر إلى بَرْقَة Barka[2] على البحر المتوسط،

---

(1) هي أول مدينة إسلامية خارج الجزيرة العربية، كانت تقع على رأس خليج العقبة حيث اكتشفت أطلالها شمال غرب مدينة العقبة الحالية، ذكرها ياقوت في معجمه على أنها مدينة على ساحل بحر القلزم هي آخر الحجاز وأول الشام، وبها مجتمع حج الفسطاط والشام، وقال الحميري: هي أول حد الحجاز، بها يجتمع حاج مصر والمغرب، وتسير من أيلة فتلقى العقبة التي لا يصعدها راكب لصعوبتها ولا تقطع إلا في طول اليوم لطولها، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج1 / ص 292، المقريزي، الخطط، ج1/ ص 518، الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، 1984م، ص 70 (المترجم).

(2) هي إقليم شرقي ليبيا، والاسم تعريب لكلمة بركا Barca اللاتينية والتي كانت تطلق على مدينة رومانية قديمة كانت عاصمة الإقليم، أصبحت محطًا لجيوش الفتوحات =

ومن الشـلال الأول للنيل إلى مصبه، ولاية تابعة للخلافة الإسلامية. هكذا انتشـر العرب فـي مصر خلال شـتاء 21-22هـ/ 641-642م، مسـتعيدين النظـام وجابيـن للضرائـب، فلـم يكن عمرو ذلـك الرجل الـذي يمكن أن يتركهم للخمول، هكذا قال: « فاحمدوا الله معشـر الناس على ما أولاكم، فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم، فإذا يبس الزرع وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحي إلى فسطاطكم على بركة الله»[1]. حتـى النوبة تم إخضاعها عن طريق حملة من عشـرين ألـف رجل، تحت قيادة عَبْد اللَّه بن سَـعْد[2] القائـد الأول لدى عَمْرو. وقد رحـب الأقباط الذين عاونـوا الفاتحين بتغيير القـادة، و كُوفئوا على ذلك.

احتفظ عمرو بالوالي ميناس في حكومته لبعض الوقت، وعَين شِـينُودة ShinuJa وفيلوكسينوس Philoxenos حاكمان على الريف والفيوم، وكان ثلاثتهـم بالطبع ودودين مع المسـلمين، فضلًا عن بذلهـم جهودًا كبيرة في

= الإسلامية بين مصر وإفريقية، وقد ذكر ياقوت في معجمه أن بَرْقَة هو صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية، واسم مدينتها أَنْطَابلس وتفسيره الخمس مدن، وهي مما افتتح صلحًا في عهد عمرو بن العاص سنة 21هـ وهي أول منبر ينزلها القادم من ديار مصر إلى القيروان وبها كور عامرة، انظر، ياقوت، معجم البلدان، ج1 / ص 388، الحميري، الروض المعطار، ص 91 (المترجم).

(1) هذا جزء من خطبة لعمرو بن العاص في الريف بعد فتحه لمصر أوردها ابن عبد الحكم، ص 98 (المترجم).

(2) هو عَبْد الله بن سَعْد بن أبي السَّرْح، واسمه الحسام بن الحارث بن حبيب، من أصحاب رسول الله ﷺ وأخو عثمان بن عفان في الرضاعة، وليّ مصر من قِبَل عثمان لما بويع بالخلافة ومكث واليًا حتى مقتل عثمان عام 35هـ، انظر: الكندي، كتاب الولاة والقضاة، بعناية: رفن كست، مطبعة اليسوعيين – بيروت 1908م، ص 11، المقريزي، الخطط، ج1/ ص 826 (المترجم).

جباية الضرائب، حتى أنه بفضل مجهودات ميناس في الإسْكَندرية، أعطت أكثر من اثنين وثلاثين ألف قطعة ذهبية، بعد أن كانت جزيتها الشهرية حوالي اثنين وعشرين ألف قطعة[1]. هكذا دخل الكثير من المصريين في الإسلام للهروب من دفع الجزية؛ واختبأ آخرون لعدم مقدرتهم على الدفع[2]. وقد اختلط الفاتحون بأهل البلد في المدن والقرى، حتى صارت عذارى سُلْطَيْس Sulteys[3] في الدلتا أمهات لمسلمين شهيرين؛ وذلك لاتحادهم الطوعي مع المحاربين العرب.

---

(1) لابد أن عملة سوليدي Solidi (عملة ذهبية من الإمبراطورية البيزنطية) كانت ممثلة بالدينار العربي. يذكر البلاذري أن ضريبة الرأس بالإسكندرية في حوالي عام 112هـ/ 730م، زادت على المبلغ السابق بواقع 18.000 إلى 36.000 دينار، بمعدل 2 دينار لكل رأس سنويًا، هذا المبلغ المدفوع شهريًا يشير إلى أن تعداد السكان من الذكور الخاضعين للضرائب لا يتعدى 192.000 نسمة في زمن عمرو، و216.000 في القرن اللاحق.

(2) لا يمكن أن يكون دخول قبط مصر في الإسلام تهربًا من دفع الجزية، خاصة وأن الجزية كانت دينارين في العام على مَن يقدر من الرجال، كان المصريون يدفعون أضعافها تحت الحكم البيزنطي، لذلك فإن هذا المبلغ الزهيد لا يدفع أحدًا أبدًا للتخلي عن دينه، خاصة أمام ما رأيناه من عناد المصريين وتمسكهم بمذهبهم أمام اضطهاد الرومان، فكيف يتخلون بعد كل هذا عن دينهم أمام العرب المتسامحين إلا عن اقتناع وإيمان. (المترجم).

(3) قرية من قرى مصر القديمة، تقع على بعد حوالي ستة أميال جنوبي دَمَنْهُور الحالية في منتصف الطريق بين كوم شريك وكريون، وقعت بها معركة حامية بين جند المسلمين والروم الذين تلقوا هزيمة كبيرة وفروا إلى كريون ثم إلى الإسكندرية، ويذكر ابن عبد الحكم أن أهل سُلْطَيْس ومَصِيل وبُلْهيب ظاهروا الروم على المسلمين، فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم وقالوا هؤلاء لنا فيء مع الإسكندرية، فكتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر أن يجعل الإسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ويضربوا عليهم الخراج، ابن عبد الحكم، ص 63، ياقوت، معجم البلدان، ج3/ ص 236 (المترجم).

لم تعد الإسْكَندرية عاصمة لمصر، فقد كان هذا المركز التجاري الكبير عرضة لأن يفصله فيضان النيل عن الاتصال الأرضي المباشر مع المدينة المنورة، والتي كانت آنذاك مقرًّا للخلافة؛ ولم يكن الاستعمار الدائم قريبًا من تفكير الخليفة عُمَر، فقد كره أن يُحرَم من خدمات جيوش عَمْرو البارعة، حتى حَظر على الجنود أن يتملكوا الأرض حتى لا يضربوا بجذورهم مستقرين في مصر، وحتى يكونوا على استعداد دائم لحملة جديدة في مكان آخر. علاوة على ذلك كانت الإسْكَندرية رمزًا للسيادة البيزنطية وطغيان الكنيسة الأورثوذكسية، لذلك ظلت بغيضة لدى الأقباط، ولكل هذه الأسباب أمر الخليفةُ عَمْروًا أن يختار موقعًا أكثر مركزية، وقد اختار بالفعل السهل الواقع قرب حصن بابليون، ليس بعيدًا عن شمال العاصمة المصرية القديمة ممفيس، حيث عسكر جيشه أثناء حصار مدينة مصر، ومن ثمّ بنى مسجده في هذا المكان[1]، والذي لايزال قائمًا رغم تكرار بنائه أو ترميمه عبر فترات زمنية متفاوتة[2]؛ وهنا بدأ تأسيس المدينة التي أطلق

---

(1) انظر عن جامع عمرو أو الجامع العتيق: أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل)، دار المعارف بمصر، ص 65 : 100 سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة 1971م، ج1 / ص 55 : 75 حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، القاهرة 1993م، ج1 / ص 23 (المترجم).

(2) لم يعد هناك بقايا من البناء الأصلي، الذي كان عبارة عن غرفة بسيطة مستطيلة الشكل، أبعادها 9.28 متر في 3.17 متر؛ وكان السقف المنخفض - بلا شك - يدعمه القليل من الأعمدة، أما الحوائط فمن المحتمل أنها كانت من القرميد فقط، وغير مغطاة بالجص. أما الأرضية فكانت من الحصى؛ وكان الضوء يأتي غالبًا من خلال فتحات مربعة في السقف، كما هو الحال في رواق الأعمدة الرئيسي في الوقت الحاضر. ولم يكن به أية منارات أو سمات أخرى مميزة من الخارج، فضلًا عن أية =

عليها الفُسْطَاط، «الخيمة»[1]، في البقعة التي ظلت خيمته قائمة فيها عندما سار شمالًا لفتح الإسْكَندرية؛ حيث تركها رغبةً منه في عدم إزعاج الحمام الذي بنى عشه عليها. ظلت الفُسْطاط عاصمة مصر لأكثر من ثلاثة قرون، حتى تم تأسيس القاهرة بالقرب منها عام 358هـ/ 969م؛ وحتى بعد ذلك استمرت لتكون العاصمة التجارية، مميزة في ذلك عن العاصمة الرسمية، إلى أن احترقت في غزو الملك الصليبي عَمُوري الأول Amalric[2] في عام 563هـ/ 1168م. وموقع الفُسْطاط كما يقول المقريزي (الخطط، ج 1/ ص 286)، هو أكثر الجهات المعروفة في الطبوغرافيا المصرية، والذي يطلق عليه الآن مدينة مِصْر، كان أرضًا قفرًا وحقولًا مزروعة من النيل إلى الجبل الشرقي الذي يطلق عليه جبل المُقَطم؛ حيث لم توجد مبانٍ فيما عدا الحصن الذي يطلق عليه الآن قَصْر الشَّمْع[3] والمُعَلَّقة، وهو المكان الذي اعتاد أن يمكث فيه الحاكم الروماني الذي حكم مصر

= مشكاوات أو غير ذلك من الزينة الداخلية. (E. K. Corbet, J. R. A. S., N. S., xxii.). في هذا المبنى المتواضع أقام فاتح مصر، وقام بالإمامة – كنائب عن الخليفة – في الصلوات العامة، وألقى الخطب واقفًا على الأرض، لأن الخليفة حظر ارتفاع المنابر، وكان منزل عمرو نفسه في مقابل المدخل الرئيسي للمسجد.

(1) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص 298؛ المقريزي، الخطط، ج1/ ص 818 (المترجم).

(2) انظر ترجمته في هوامش الفصل السادس (المترجم).

(3) ربما كان هذا الاسم راجعًا إلى الشموع المستخدمة في الكنائس القبطية هناك، و يقترح السيد بتلر A. J. Butler و(أبو صالح) أنه ربما يكون الاسم خطأ عن قصر الخيمي " قصر مصر".

نيابة عن القيصر عند قدومه من الإسْكندرية، وكان هذا الحصن يطل على النيـل؛ حيث كانت تصل القوارب على مقربة من بوابته الغربية، وفي جوار الحصن نحو الشـمال كان مكانًا للأشجار والكروم، والذي صار بعد ذلك موقعًا للمسـجد العتيق (أو مسـجد عَمْـرو). وبين الحصـن والجبل كانت توجـد العديد من كنائس وأديرة النصارى، وسـرعان ما توسـعت العاصمة الجديدة، وأصبحت إحدى المدن الرئيسية في الدولة الإسلامية.



شكل (1) جامع عمرو بالفسطاط

صارت مصر أحد أقاليم الخلافة الإسلامية، من الآن فصاعدًا ولمدة قرنين وربع، ولم يَبدُ أن العرب قاموا بأية تغييرات شاملة في إدارتها[1]، فمن الواضح أنهم كانوا سريعي التأقلم وعلى استعداد لتقبل أفكار أخرى، لقد وجدوا بالفعل في مصر نظامًا حكوميًا قائمًا، فتبنوا خطة الرُّومان السابقين لهم مع قليل من التعديلات، تلك الخطة التي صيغت عبر تاريخ عريق[2].

وقد استمر هذا النظام بكامل جوهره إلى القرن الحالي، وتطور إلى سلسلة لا مركزية من الحكومات الثانوية المتصلة بمرونة بالحكومة الرئيسية في الفُسْطاط. وكان شيوخ القرى تابعين لحكام المقاطعات، الذين اتصلوا بدورهم بالحاكم الرئيسي؛ لكن الحكومة المركزية قليلًا ما تداخلت مع موظفي المقاطعات أو حتى مع الفلاحين طالما كانت تُدفَع الضرائب بانتظام؛ حيث كانت آليات الحكومة بالكامل موجهة نحو غاية معينة، وهي جمع أكبر قدر ممكن من الدخل. رغم ذلك كانت هناك هيئة خاصة مسئولة عن الري، قامت سنويًا بتعيين مفتشين لمراقبة صيانة

(1) كانت مصر مقسمة إداريًا إلى قسمين: الوجه القبلي وهو ما كان في جهة الجنوب من مدينة مصر، والوجه البحري وهو ما كان في شمال مدينة مصر، وهذان القسمان مقسمان إلى أقسام إدارية أصغر وهي الكور جمع كورة، وتلك الكور مقسمة إلى قرى، ويذكر المقريزي أن مصر عند الفتح الإسلامي كانت مقسمة إلى أربعين كورة، المقريزي، الخطط، ج1/ ص 210، 211؛ انظر أيضًا: صفاء حافظ عبد الفتاح، الإدارة المحلية في مصر في عصر الولاة، القاهرة 1991م (المترجم).

(2) يعرض السيد ميلني Milne (Egypt under Roman Rule, 216) أن المديرين أو حكام الأقاليم، توافقوا مع المأمور، أو حاكم الإقليم الفرعي؛ حيث قام بمهام الطوبارك Toparch، وجزءًا من مهام الستراتيجوس (الحاكم العسكري). ورغم ذلك يبدو أن الضرائب كانت أكثر عبئًا تحت الحكم الروماني الأخير منها تحت حكم العرب.

الجسـور والسـدود الحكومية؛ ومع ذلك تُرِكَت الجسـور المحلية للإدارة المسـتقلة لكل قرية أو مدينة، حيث أُنفق عليها من الأموال المحلية. وكان الوالـي يُعَين من قِبَل الخليفة؛ و من ثمّ يقوم عـادة بتعيين الموظفين الثلاثة الكبـار في الدولة: للحـرب، والعدل، والموارد الماليـة، وقد تولاهـم على التوالـي: قائد الجيـش (صاحب الشُّـرْطة)، وقاضي القضـاة، وخازن بيت المال (مُتَولِّي الخَراج).

كان القائد مسـئولًا عن الحرس والجيش والشـرطة، فضلًا عن الحفاظ على النظام، أما القاضي فكان رئيسًـا للقضاء، وكان أيضًا مراقبًا لدار سـك العملة (على الأقل حتى القرن الثالث عشر)، وممثلًا للدين والقانون؛ وقد اهتم خازن بيت المال بجباية الضرائب، ولأهمية وظيفته كثيرًا ما كان يُعَيّن من قِبَل الخليفة، وكانت وظيفته مستقلة عن الحاكم، ومهمته - بعد جباية الضرائب ودفع مصاريف الحكومة - أن يسلم الفائض إلى الخزانة الرئيسية لبيـت المـال التابـع للخليفة، وأحيانًـا ما كان يجنـي الريع فـي مقابل قيمة مدفوعة ثابتة للخزانة، وبعدها يقوم بما يستطيع القيام به من جمع للضرائب.

وأحيانًـا مـا دَمج الحاكـم وظيفة خازن بيـت المال مع مهامه السياسـية الأصليـة. وعلـى كل حال، لا شـك أن رصيـد كبير من ذلـك الفائض بقي لصالح الموظفين ولـم يذهب إلى الخليفة، فقد جعلت التغييرات المتعاقبة للحكام (الولاة) والشك في ولائهم، بعضًا من أشكال هذا الاقتصاد حتميًّا لا مهرب منه، كما هو الحال الآن في الإمبراطورية العُثْمانية[1].

(1) كان ذلك عام 1900م، حين كانت الدولة العثمانية لاتزال قائمة، وتتبع نظام الولاة المعينين على مختلف الولايات من قِبَل السلطان (المترجم).

باشر القائد عمرو من الفُسْطاط - عاصمته الجديدة - أعمال جمع الإيرادات اللازمة؛ حيث استطاع جمع مليون دينار من الجزية فحسب في العام الأول، وفي الثاني أربعة ملايين، وثمانية ملايين في العام الثالث (642، 643، و644م)، ويوضح هذا الازدياد أنه لم يتم السيطرة على مِصْر اقتصاديًّا من قِبَل المسلمين بصورة مباشرة بعد الفتح. لقد كان الدخل الكلي الذي استطاع جمعه يبلغ اثني عشر مليون دينار، مقابل تعداد سكاني قدَّرَه ابن عبد الحكم من ستة إلى ثمانية ملايين نسمة، باستثناء النساء والأطفال، هكذا كان المبلغ الكلي على الأرجح من الخراج حوالي ثلاثة ملايين في مقابل مليون ونصف مليون فدان مزروعة، وثمانية ملايين من الجزية في مقابل أربعة ملايين ذكر راشد، فضلًا عن مليون دينار رسوم متعددة وإسهامات[1].

---

(1) من المستحيل توفيق الإحصاءات المتعددة للمؤرخين العرب بصورة معقولة، لقد بدأ عمرو جمع ثمانية ملايين دينار من الجزية، وهو ما يشير إلى أن عدد السكان من الذكور كان أربعة (ليس ستة أو ثمانية) ملايين، لكن اليعقوبي قدر ضريبة الرأس (الجزية) في مصر حوالي عام50هـ/ 670م بخمسة ملايين دينار، مشيرًا إلى أن عدد السكان من الذكور يبلغ اثنين ونصف مليون، وإلا فهناك عدد كبير جدًّا من الأقباط قد تحوَّل إلى الإسلام من أجل تجنب دفع تلك الضريبة، وهو ما لم يحدث طبقًا لجميع المصادر. كانت ضريبة الأرض في الجزء الأخير من القرن الثامن تبلغ 44 مليون درهم (أو ثلاثة وثلث مليون دينار)، وهو ما ينطبق بصورة مؤكدة مع الخمسين مليونًا التي حددها عمرو في معاهدة عام 19هـ/ 640م. وفي النصف الأول من القرن التاسع ازدادت ضريبة الأرض إلى حوالي أربعة وثلث مليون دينار، ويقول البلاذري: إنه مع نهاية القرن الثامن حُدِّدَ الريع الكلي بأربعة دنانير لكل رأس، إلا أن ذلك يبدو أنه مزيجًا بين ديناريّ ضريبة الرأس و ديناريّ ضريبة الفدان.

فرضت سياسة الخليفة معاملة كريمة للمزارعين، لذلك لا نكاد نسمع عن استعمال القسوة إلا عندما يحاول الأقباط الأثرياء إخفاء مواردهم والتهرُّب من الضرائب؛ وكانت نتيجة ذلك هي المصادرة التي شملت أحيانًا مبالغ كبيرة. ولقد نَمَّى عَمْرو إنتاجية الأرض عن طريق الري، وتم فرض نظام السُّخرة Curvée القديم، والذي أبقى على مائة وعشرين ألف عامل قيد العمل شتاءً وصيفًا في صيانة وتطوير السدود والقنوات. وعمل على تنظيف القناة القديمة التي تربط بابليون بالبحر الأحمر[1]، والتي أُطلق عليها أمنيس تراجانوس Amnis Trajanus بعد أن كانت مسدودة منذ زمن بعيد، وأعيد افتتاحها في أقل من عام[2]، وعن طريقها أُرسِلَ القمح بالسفن إلى المدينة، بدلًا من القوافل في العام السابق. وعلى الرغم من تلك الإدارة الفعَّالَة والحكيمة، لم يكن الخليفة راضيًا عن الدخل الصغير الوارد من مِصْر[3]، هكذا أَنزل عُمَر من رتبة والي إلى الوظيفة الأدنى كحاكم للدلتا،

(1) أُطلق عليها خليج أمير المؤمنين نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب، عن هذه القناة انظر: ابن عبد الحكم، ص 112 (المترجم).

(2) في عام 23 هـ (الذي يبدأ في نوفمبر 643م) طبقًا للكندي، وقد جرَت بعد بلبيس إلى بحيرة التمساح ثم نزولًا إلى القُلْزُم Kulzum، ذلك المرفأ الواقع شمال البحر الأحمر، ولقد ظلت مفتوحة لما يقرب من ثمانين عامًا، بعدها أُهمِلَت وسدت للمرة الثانية، حتى أُعِيدَ افتتاحها في خلافة المهدي عام 164هـ/ 780م، وقد جرت تلك القناة جميلة المنظر كريهة الرائحة (الخليج) إلى الشمال الشرقي لمسافة معينة داخل القاهرة، وذلك حتى عام 1899م حين ردمت لأسباب صحية. ولقد قُطِعَ اتصالها مع بحيرة التمساح منذ زمن بعيد، وشغل مكانها البوسيريس الأكثر قدمًا أو « قناة المياه العذبة».

(3) انظر الرسائل الأصلية بين الخليفة وعمرو عن هذا الموضوع، المحفوظة في ابن عبد الحكم، والتي توضح كيف أن الخليفة عمر اعتبر مصر بقرة حلوبًا، كان عليها أن تُغَذِّي المؤمنين في المدينة أكثر من أن تُسمِّن الحاكم في الفسطاط.

فـي حيـن أن الصعيد أو صعيد مصر وُضِعَ تحت سـلطة عَبْد الله بن سَـعْد، الذي سرعان ما عُيِّنَ كحاكمٍ لمصر بأسرها (إثر اغتيال الخليفة عمر)[1].

هذا على الرغم من إنجاز القائد عَمْرو نجاحًا بارزًا آخر قبل مغادرته، وذلك بعد أن استولى أسطول بيزنطي من ثلاثمائة مركب على الإسْكَندرية عام 25هـ/ 645م، تحت قيادة مانويل Manuel، الأرمنّي[2]، بدعم من الروم المتواجدين فـي الدلتـا، هكذا طالـب الأقباط بإلحـاح إرسـال بطلهم القديـم (عَمْرو) لمجابهة العدو؛ بسـبب تخوفهـم من رجوع الهيمنة الملكانيـة البغيضة[3].

وبالفعل سـارع القائد عمرو زاحفًا بجيش وأسـطول نحو الإسْكَندرية؛ حيـث واجـه الـروم قـرب نَقْيـوس. ولقد اسـتطاع رمـاة الأسـهم التابعين للإمبراطوريـة تغطيـة رسـو القوات مـن ناحية النهـر؛ حيث عانـى العرب

(1) يقول ابن عبد الحكم: إن الخليفة عمر بن الخطاب توفي وعلى مصر أميران، عمرو بن العاص بأسفل الأرض (أي مصر السفلى)، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح على الصعيد، فتوح مصر، ص 118 (المترجم).

(2) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص 310، 311 (المترجم).

(3) اختلف المؤرخون في مكان عمرو حين اُستدعي لقيادة الجيش، هل كان قد ترك مصر ورجع إلى الحجاز أم أنه لم يبارح مصر، وفي كل الأحوال فقد استطاع عمرو الوصول وتجهيز الجيش إلا أنه أبطأ ولم يسر لملاقاة جيش الروم الذي توغل في البلاد، وقد أظهر بذلك الفعل حنكته العسكرية إذ تركهم حتى توغلوا في الدلتا واستدرجهم إلى نَقْيوس، بعد أن أظهر البقية الباقية من الروم في البلاد انحيازهم إلى الجيش الغازي، بعكس الأقباط الذين فطنوا إلى أن مصلحتهم مع العرب. عن الحملة انظر: علي محمد فهمي، البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط، ضمن كتاب: تاريخ البحرية المصرية، مطبوعات جامعة الإسكندرية، ص 281، 282، السيد عبد العزيز سالم، وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط، الإسكندرية 1981م، ج1/ ص 17، 18 (المترجم).

جراء ذلك من خسارة ثقيلة، فقد أصيب فرس عمرو من تحته، وبدأ بعض المحاربين ذائعي الصيت في التقهقر، وفي هذه اللحظة تحدى القائد البيزنطي المسلمين لمبارزة فردية، وسرعان ما انطلق فارس من صفوفهم واحتدمت المبارزة في حين وقف كلا الجيشين في حالة استعداد، وبعد ساعة من المبارزة قَتَلَ العربيُّ خصمه بخنجر، فتشجع المسلمون وقاموا بمهاجمة العدو في ضراوة لدرجة أنهم تفرقوا أثناء فرارهم إلى الإسْكَندرية بعد خسارة قائدهم، وفي المكان الذي وقع فيه الانتصار[1] بنى عَمْرو «مسجد الرَّحْمَة»[2]. ولقد دُمِّرَت آنذاك أسوار الإسْكَندرية؛ حيث قال عمرو في ذلك: «حتى تُصْبح كبيت الزَّانية يُؤتى من كل مكان»[3]. ومكافأة

(1) يذهب بتلر إلى أن الزيادة التي شهدها أهل الإسكندرية في الجزية بعد ذلك كانت جراء نقضهم للعهد، هذا فضلًا عن نقضه من قِبَل إمبراطور الروم إذ كان قد تعهد بعدم إرسال أية جيوش أخرى لمهاجمة المسلمين في مصر، لهذا كان مع العرب كل الحق في التشدد مع الثائرين، ولم يكن في وسعهم أيضًا حين دخلوا المدينة عنوة ووضعوا فيها السيف والنار، أن يميزوا بين صديق وعدو أو بين قبطي ورومي، بتلر، فتح العرب لمصر، ص 405 : 419 (المترجم).

(2) ذكر ياقوت أن المسلتين كانتا عند مسجد الرحمة، وهما مسلتا معبد كيلوباترة القديم المعروف بالقيصريوم بالقرب من موضع عرف بالبقرات، وعلى أساس أن ياقوت جعل من هذا المسجد ومسجد سليمان الذي يقع بالقيسارية مسجدًا واحدًا، يذهب د.عبد العزيز سالم إلى أنه يمكن تحديد موقعه قريبًا من الكنيسة المرقصية الحالية، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج1/ ص184، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ إسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية، 1982م، ص 102 (المترجم).

(3) تذكر المصادر أن القائد عمرو قد ندم كثيرًا على تركه أسوار الإسكندرية سليمة بعد أن افتتحها عام 21هـ، لمعاناته أثناء حصارها للمرة الثانية، فأقسم لئن أظهره الله على أعدائه واستولى عليها هذه المرة ليهدمن أسوارها ويجعلها كبيت الزانية يؤتى من كل مكان، ابن عبد الحكم، ص 235 (المترجم).

على خدمته العسكرية الناجحة، عُرض على القائد المنتصر قيادة جنود مصر دون حكمها، لكنه رفض هذا التكريم بعبارة بليغة هي: «أنا إذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها»[1].

استحث الحاكم الجديد عَبْد اللَّه بن سَعْد[2]، نفسه على منافسة مآثر سابقه، فقام بين عامي 31-32هـ/ 651-652م بفتح النُّوبة، ومحاصرة دُنْقُلة[3]؛ حيث قصف الكنيسة المسيحية بمقالعه الحجرية، وأجبر الزنوج على طلب السلام. وقد سجل ابن سَلِيم المعاهدة التي عُقِدَت آنذاك، كما وردت في المقريزي، وهي وثيقة لافتة للنظر:

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم، عهد عبد اللَّه بن أبي السَّرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته. عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أُسْوان إلى حد أرض عَلْوَة. أن عبد الله بن سعد جعل لهم أمانًا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة. إنكم معشر النوبة آمنون بأمان الله

(1) ابن عبد الحكم، ص 78 (المترجم).

(2) (بن) هي اختصار كلمة (ابن)، والصيغة التقليدية لهذا الاسم هي «عبد الله بنُ سعد»، لكن في هذا التاريخ نستخدمها كما هو شائع في الاستخدام العاميّ المصري.

(3) تقع مدينة دُنْقُلة الحالية في شمال السودان على الضفة الغربية للنيل على مسافة حوالي 448 كم من مدينة الخرطوم العاصمة السودانية، لكنها تختلف عن مدينة دنقلة القديمة التي حاصرها المسلمون، التي تبعد نحو 160 كم جنوب شرق دنقلة الحالية، وقد ذكرها ياقوت أيضًا دمقلة ودنكلة، وقال الحميري: إنها في غربي النيل على ضفته، وهي قاعدة ملك النوبة وأهلها سودان، بينها وبين عمل مصر أربعون يومًا، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج2/ ص 478، الحميري، الروض المعطار، ص 236، 237 (المترجم).

وأمان رسـوله محمد ﷺ أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حربًا ولا نغزوكم ما دمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه. وعليكم حفظ مَن نزل بلدكـم أو مَـن يطرقه من مسـلم أو معاهـد حتى يخرج عنكـم. وإن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسـلمين حتى تردوه إلى أرض الإسـلام ولا تستولوا عليه ولا تردوا عنه. ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه. وعليكم حفظ المسـجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم لا تمنعوا فيه مصليًا وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته. وعليكم في كل سنة ثلثمائة وسـتون رأسًا تدفعونها إلى إمام المسلمين من أواسط رقيق بلادكم غيـر المعيب، يكـون فيها ذكران وإناث، وليس فيهم شـيخ هـرم أو عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والي أُسْـوان. وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض عَلْوَة إلى أرض السُّودان. فإن أنتم آويتم عبدًا لمسلم أو قتلتم مسلمًا أو معاهدًا، أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئًا من الثلثمائة رأس، فقـد بـرأت منكم هذه الهدنة والأمـوال وعدنا نحن وأنتم على سـواء حتى يحكـم اللـه بيننا وهو خير الحاكميـن. علينا بذلك عهد اللـه وميثاقه وذمته وذمـة محمـد ﷺ. ولنا بذلـك أعظم مـا تدينون به مـن ذمة المسـيح وذمة الحوارييـن وذمة مَن تعظمونـه من أهل دينكم وملتكم، والله الشـاهد بيننا وبينكم على ذلك. كتبه عُمَر بن شُرَحْبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين». (مايو- يونيو، 652م).

وقبـل هـذه المعاهـدة تم دفـع الجزيـة السـنوية البالغة «360 رأسًـا من العبيـد»، إلى عَمرو بن العَاص، مع أربعين عبدًا ممن رفض قبولهم كهدية،

لكن تم دفع قيمتهم من القمح والمؤن؛ حيث استمر هذا التبادل لفترة طويلة. كان يتم دفع الثلاثمائة وستين عبدًا كل عام لموظف مصري في (القَصْر)، تلك المدينة الحدودية المصرية التي تبعد خمسة أميال عن أسوان، وتم مبادلة أربعين عبدًا إضافيين في مقابل القمح والشعير والعدس والقماش والخيول. وقد ظلت هذه المعاهدة وجزية العبيد سارية المفعول حتى العصر المملوكي؛ أي لأكثر من ستة قرون لاحقة.

ظهر فجأة أسطول بيزنطي يتكون من سبعمائة إلى ألف مركب في الإسكندرية، بعد ثلاثة أعوام من الحملة النوبية، وكان لدى المسلمين في ذلك الوقت مائتا سفينة فحسب يقاومون بها ذلك الغزو، لكن بعد وابل من السهام ثم وابل من الأحجار بعد نفاد السهام، ضيَّقوا المسافة بينهم وحاربوا سيفًا لسيف، حتى فَرَّ الرُّوم. وقد أُطلق على هذه المعركة اسم «ذَاتُ الصَّوَارِي»[1]، نظرًا لكثرة حبال الأشرعة وصواري السفن التي

---

(1) تعد موقعة ذاتُ الصَّوَاري التي وقعت عام 34هـ / 654م من أهم المعارك البحرية الفاصلة في التاريخ الإسلامي؛ إذ كانت بمثابة نهاية السيادة البيزنطية على البحر المتوسط وبداية السيادة الإسلامية الكاملة التي استمرت لأكثر من ثلاثة قرون، عن الموقعة، انظر: ابن عبد الحكم، ص 129، 130، الطبري، ج4 / ص 288 وما يليها، ابن الأثير، ج3 / ص 13 وما يليها، وعن أهميتها في تاريخ البحرية الإسلامية، انظر: أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، ومحمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، ص 91، 92، علي محمد فهمي، البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط، ص 286، حسين مؤنس، أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البحر المتوسط، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع (العدد الأول) 1951م، ص 90 وما يليها، إبراهيم العدوي، الأمويون والبيزنطيون، القاهرة 1953م، ص 92 وما يليها (المترجم).

ظهرت فيها. ومنذ ذلك الوقت ظلت مصر آمنة من أي هجوم أجنبي لعدة قرون تالية، رغم الغارات العارضة لأساطيل الإمبراطورية البيزنطية. في غضون ذلك عَمل عبد الله على الضغط لجمع مزيد من الضرائب؛ حيث نجح في جمع نحو أربعة عشر مليون دينار، وحينذاك قال الخليفة عُثْمان لعمرو: «إنَّ اللِّقَاح بمصر بعدك قد دَرَّت ألبانها» فأجابه عَمْرو: «ذاك لأنكم أعجفتم أولادها»[1]. هكذا كانت النتيجة سخطًا واسع النطاق أدى إلى ثورة الشعب؛ حيث قاموا بطرد نائب الوالي من الفسطاط ثم نادوا بعزل الخليفة، ورفضوا منح عبد الله حق الدخول حين عاد من رحلته إلى فِلَسْطين، ومن ثمّ أرسلوا قوة من الثوار إلى المدينة لطلب تعيين والٍ من اختيارهم. ولقد ازداد الخلاف حدة، بعد الخطاب الذي تم اعتراضه، الذي كان يشير على ما يبدو إلى معاملة مزدوجة من قِبَل الخليفة[2]، وكان للمصريين العرب المتواجدين في المدينة نصيب رئيسي في الأحداث التي انتهت باغتيال عُثْمان. احتدم النزاع حول وراثة حكم الخلافة في مِصْر،

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص 303 (المترجم).

(2) يقصد المؤلف هنا ما رواه الطبري عن أحداث فتنة مقتل عثمان، وعن الخطاب الذي تم اعتراضه من قِبَل وفد أهل مصر بعد مقابلتهم للخليفة في المدينة وأثناء رجوعهم إلى مصر، وكان فيه أمر من الخليفة عثمان إلى عامله على مصر بقتل أعضاء هذا الوفد بعد رجوعهم، انظر: (الطبري، ج4/ ص 355)، وقد أغفل المؤلف إنكار عثمان لهذا الخطاب وعدم معرفته بما جاء فيه، وأغفل أيضًا دور عبد الله بن سبأ (ابن السوداء) في إثارة الفتنة ثم في الاتصال بين الثوار في مختلف مدن الأمصار، راجع: الطبري، ج4 / ص 340، 341، مزيدًا عن أحداث الفتنة انظر: يوليوس فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، 2009م، ص 107:41 (المترجم).

كما كان في الولايات الأخرى؛ إلا أن عليًّا - الخليفة الجديد - كان مؤيدًا بقوة؛ لذلك قام بإرسال والٍ إلى الفسطاط قرأ تفويضه على الملأ في جامع عمرو، لكنه عُزِل في خضم المؤامرات، وسُمِّمَ الوالي التالي حتى قبل أن يصل إلى مقعد الحكم. وقد أسس عشرة آلاف رجل ممن تعهدوا بالانتقام لمقتل عُثْمان فريقًا في خَرْبِتَّا[1]، الواقعة في الحَوْف (أو الجزء الشرقي من الدلتا) وأعلنوا تمردهم على السلطة، والتحق بهم بعد ذلك خمسة آلاف من الجنود السوريين؛ ومن ثمّ عدد مماثل من المصريين. دخل عَمْرو ابن العَاص ـ وهو مُرَشح الخليفة المنافس مُعاوية - الفُسْطاط ثانية في صفر 38هـ/ يوليو 658م، بعد هزيمة قوات الوالي؛ حيث قام بالقضاء على سلطة عليّ في مصر، هكذا استمرت فترة الحكم الثانية للفاتح عَمْرو أكثر من خمس سنوات، تميزت بالقليل من الأحدث الهامة بغض النظر عن حملتين ضد البربر Berbers في ليبيا. وفي ضوء خدماته العظيمة، منحه معاوية - أول الخلفاء الأُمَويين في دِمَشْق - كامل ريع مِصْر، بعد دفع مصاريف الإدارة؛ وكان الفائض ضخمًا للغاية حتى أنه حين مات عَمْرو في شوال 43هـ/ يناير 664م، عن عمر يناهز تسعين عامًا، ترك سبعين كيسًا من الدنانير، كل منها وزنت عشرة بشل bushel (ما يعادل إردبين)، بمعدل حوالي 160 باوند للأردب؛ مما يجعل هذا المقدار المستحيل يصل إلى

(1) هي قرية شرقي الدلتا، اسمها المصري القديم هو (تما خيربت) واسمها القبطي هو (زما خير)، ويذكر ياقوت عن القضاعي، أنه يعد كُور مصر ثم كور الحوف الغربي، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج2 / ص 355، محمد رمزي، قسم 2/ ج2/ ص 334 (المترجم).

عشـرة أطنان من الذهب. ويقال (لكن بعد عبـارة المؤرخين العرب، «الله أعلم») إن أبناءه رفضوا وراثة تلك الثروة الفاسدة[1].

إن تسـجيل العديـد مـن فترات حكـم الـولاة الثمانية والتسـعين الذين حكموا مصر تحت حكم الخلفاء المتعاقبين للمدينة ودِمَشْـق وبَغْداد حتى وقت ابن طُولُون - الذي أسـس سـلالة حاكمة مسـتقلة عمليًّا عن الخلافة عـام 254هــ/ 868م - من شـأنه أن يخـدم الغرض إلى حد مـا[2]. لقد ظل النظام واحدًا طوال هذا الوقت، إلا أن الاعتدال والقسوة تناوبا طبقًا لميول الحاكم، أو تبعًا لشخصية خازن بيت ماله والموظفين الآخرين. وقد اتصف العديد من الحكام بالكرم والاستقامة، مع نفعهم للناس وحب الناس لهم، ومن وراء هؤلاء عادة كان يقبع أناس ذوي انضباط، استعادوا توازن خزانة بيـت المال من خلال العمليات المسـتمرة لتحصيل الأموال. ولم يكن من الممكن أن تكون الأمانة هي الفضيلة البارزة عند رجال كانوا عرضة للعزل

---

(1) رواية بغير سند تاريخي، واتهام لصحابي جليل دون حجة، فليس ثمة دليل على أن مال عمرو قد جمع من طرق غير شرعية، حتى ولو رفض ابنه عبد الله وراثة هذا المال، فقد يكون رفضه لما عُرف عنه من إعراضه عن الدنيا وزهده في متاعها، ويذهب د. حسن ابراهيم إلى أن الرواية التي تتحدث عن أموال عمرو التي جمعها رواية منكرة؛ إذ يستحيل أن يجمع مثل هذا المبلغ من الذهب - الذي يحتاج إلى فراغ يزيد عن عشرين مترًا مكعبًا - في أقل من عشرين عامًا تولى فيها مصر باعتبارها في يده يأخذ ما زاد عن عمارتها وأعطيات جندها. انظر: ابن عبد الحكم، ص 123، حسن إبراهيم حسن، تاريخ عمرو بن العاص، مكتبة مدبولي - القاهرة، ص 277 (المترجم).

(2) يمكن قراءة حولياتهم في: F. Wiistenfelds Die Statthalter von Aegyptin sur Zeit der Chalifen، المنشور في Abhandl, der Kün. Gesellsch. Der Wis-Seusch, tu Göttingen, Bd. Xx., 1875.

المفاجئ وفقًا لهوى الخليفة؛ مع ذلك سُجل لقَيْس بن سَعْد[1] أنه مع عزله رفض الاستيلاء على منزل بناه في الفُسْطاط لأنه «شُيِّدَ بمال المسلمين» ليصبح المقر الرسمي لمن تلاه من الولاة. ولقد اعتاد حاكم استثنائي آخر، «رجل يخاف الله، عادل غير قابل للفساد»، أن يقول: «حين تأتي الهدايا من الباب، تطير الأمانة من النافذة»، على الرغم من ذلك فإنه تحت حكم هذا الرجل ذاته سلك أُسَامة بن زَيْد سياسة قمعية مميزة، مُتَّبِعًا تعليمات الخليفة، «احلب الدر حتى ينقطع، واحلب الدم حتى ينصرم»[2]. لم تكن الضريبة المعتادة مُفرِطة؛ فقد دفع غير المسلمين ما يعادل حوالي جنيهًا كل عام كجزية، ونفس المبلغ لكل أكر محروثة (فدان، وهو أكثر على الأرجح من الأكر الإنجليزي) كضريبة أرض (خَراج)، هكذا حُصّلت الضرائب سنويًّا من اثني عشر إلى أربعة عشر مليون دينار؛ وفي النصف الأول من القرن التاسع بلغت ضريبة الأرض (دينارين لكل أكر) بمقدار 4.857.000 دينار. لكن جابي الضرائب في مصر لم يكن دائمًا يكتفي بالضرائب القانونية؛ فقد كان هناك العديد من الرسوم الأخرى إلى جانب ذلك، على التجارة والأسواق وغيره، فازدادت وتنوعت من وقت لآخر مما أدى إلى ضخامة الريع. علاوة على ذلك اضطر المسلمون لدفع ربع العُشر كضريبة

---

(1) هو قَيس بن سَعْد بن عُبَادَة الأنصاري، ولي مصر من قِبَل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فدخلها في مستهل ربيع الأول سنة 37هـ، إلى أن عزل لخمس خلون من رجب سنة 37هـ الكندي، كتاب الولاة، ص 20: 22 (المترجم).

(2) كان هذا نص كتاب الخليفة سليمان بن عبد الملك لأسامة بن زيد متولي خراج مصر كما رواها: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت، ج 1 / ص 296 (المترجم).

للفقـراء (الزكاة)، إلى جانب ضريبة الممتلـكات. وفي بداية القرن الثامن، أبلغ موظفو المقاطعات أن خزائنهم أصبحت ممتلئة عن آخرها لدرجة أنها لا تتسـع للمزيد، فأمر الخليفة أن الزيادة يجب أن تنفق على بناء المساجد، فجُـدِّدَ جامع عمرو ضمن مسـاجد أخرى. ويُذكَر أنه حيـن أنهى العاملون عملهم ذات مسـاء وذهبـوا لمنازلهم، جلب الوالي(قُـرَّة)[1] الخمر داخل البنـاء المقدس، وأخذ في ارتشـافه طوال الليل على ألحان الموسـيقى[2]،

---

(1) هو قُرَّة بن شريك العَبْسي، ولي مصر من قِبَل الوليد بن عبد الملك فقدمها في ربيع الأول سنة 90هـ، وظلَّ واليًا عليها حتى توفي في ربيع الأول سنة 96هـ، الكندي، كتاب الولاة، ص 63: 66 (المترجم).

(2) أفاضت الروايات المتأخرة - التي أخذ عنها المؤلف - للمقريزي وأبي المحاسن، الحديث عن فساد وظلم قُرَّة بن شريك والي مصر من قبل الخليفة الأموي الوليد ابن عبد الملك، إلا أنه قد تبيَّن عدم صحة كل هذه الروايات المتأخرة بعد اكتشاف أوراق بردي (كوم أشقاو) عام 1901م، والتي يرجع معظمها إلى مصر أثناء خلافة الوليد بن عبد الملك، ومن بينها أوراق تتعلق نصوصها بالجزية والخراج وإسناد المناصب وأنظمة الإدارة وغيرها، وتظهر هذه الوثائق كيف كان قرّة يهتم بعدالة حكام الأقاليم المختلفة وعدم الإجحاف بأهل الذمة، فيأمر عماله في الأقاليم ألا يقدروا على أهل الذمة ضرائب فوق طاقتهم أو أقل مما يستطيعون أداءه، كما يهدد عماله بالعقاب الشديد إذا ظلموا الأهالي في تقدير الضرائب المفروضة عليهم، انظر: سيدة كاشف، مصر في فجر الإسلام، القاهرة 1994م، ص 225، 226، الوليد ابن عبد الملك، القاهرة 1963م، ص 85، 86، حسن إبراهيم حسن، مذكرة موجزة مما تم نشره من أوراق البردي العربية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الأول 1948م، ص 234، إبراهيم العدوي، ولاية قرة بن شريك على مصر في ضوء أوراق البردي، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الحادي عشر 1963م، ص 49، وانظر نصوص الوثائق في: جروهمان، أوراق البردي العربية (المترجم).

وكانت تلك طريقة أخرى للتخلص من وفرة المـال، على الرغم من ذلك قام بعض الحكام بتعقب وقمع جميع حوانيت الخمر وأماكن اللهو العام.



شكل (2) صنجة زجاجية لأسامة بن زيد سنة 720م

كانت الغالبية العظمى من شعب مصر بالطبع مـن النصارى الأقبـاط، وأيًا كان الظلـم الواقع فقـد تحملـوه بشـكل أساسي، ومـع ذلـك فإن الأدلة على إسـاءة معاملتهم كانـت قليلة للغاية. لقد استقبل الفاتح عمرو، سـفراء مـن الرهبان، الذين طلبوا ميثاقًا بحريتهم واستعادة بطريركهم بنيامين؛ فما كان منه إلا أن منحهم هذا الميثاق ودعـي البطريرك المنفي للعـودة. وبالطبع فَضَّل المسـلمون حلفاءهم من الكنيسـة القومية أو اليَعْقُوبية، أكثر من كنيسـة القُسْـطنطينية الأرثوذكسـية، والتي كانـت لا تـزال مُمثَّلَةً في مصر. ولقد سَـمح الوالي مَسْـلَمة للأقباط ببناء كنيسـة خلف الجسـر بالفُسْـطاط، مما أغضب المؤمنين؛ وحين انتقل عَبْد العَزيز بن مَرْوان[1] لظروف صحته إلى حُلْوان[2]، قرب ممفيس، اختار

(1) هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، لما غلب مروان على مصر في جمادى الآخرة سنة 65هـ جعل صلاتها وخراجها إلى ابنه عبد العزيز، ولما بويع عبد الملك بن مروان بالخلافة أقر أخاه عبد العزيز الذي مكث في الولاية إلى أن توفي في جمادى الآخرة سنة 86هـ انظر ترجمته وسيرته في: الكندي، كتاب الولاة، ص 48: 58، المقريزي، الخطط، ج1 / ص 586، سيدة كاشف، عبد العزيز بن مروان، القاهرة 1967م (المترجم).

(2) يقول ياقوت إنها قرية من أعمال مصر بينها وبين الفسطاط فرسخين من جهة الصعيد مشرفة على النيل، كان أول مَن اختطها عبد العزيز بن مروان لما ولي مصر، وضرب =

الدير القبطي في طَمَوَيْه على الضفة المواجهة للنيل مقرًّا له[1] ودفع للكهنة عشرين ألف دينار مقابلًا لذلك، وهذا بلا شك يسترعي الملاحظة، لأنه طبقًا للنظرية الإسلامية، كانت مصر بلدًا تم فتحه عنوة ولم يكن لقاطنيها حقوق، فليس لهم أن يمتلكوا أرضًا، وكانوا عرضة للمصادرة (وهو ما أذعنوا له كثيرًا). من ناحية أخرى، فإن ابن أخيه وخليفته عبد الله[2]، حَمَلَ

= بها الدنانير، وكان قد وقع طاعون سنة 70هـ وواليها عبد العزيز فخرج هاربًا من مصر، فلما وصل حُلْوان هذه استحسن موضعها فبنى بها دورًا وقصورًا واستوطنها، وقد نقل ذلك أيضًا المقريزي عن ابن عبد الحكم، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج2/ ص 293، المقريزي، الخطط، ج1/ ص 584 (المترجم).

(1) رُويَّ أنه قام بسك العملات العربية التي تم إصدارها في مصر لأول مرة سنة 76 هـ (695م)، وفقًا للإصلاح المالي للخليفة عبد الملك. يقول أبو صالح (f. 52b) إن عبد العزيز بن مروان أراد جعل حلوان العاصمة، فبنى العديد من المساجد، وسرادق من الزجاج، ومقياس للنيل، وأقام بحيرة وقناة لتوصيل الماء إلى هناك فضلًا عن غرس الأشجار، فقد أرسله أطباؤه إلى هناك حيث ينابيع الكبريت لتخفيف داءه الأسدي (الفيلية). بنى أيضًا قصرًا ذا قبة ذهبية، "المنزل الذهبي" في الفسطاط. وبنى أسامة بن زيد أول مقياس للنيل في جزيرة الروضة، التي كان يطلق عليها سابقًا جزيرة الصناعة "جزيرة الحرفيين" (بناة القوارب)، في 97هـ/ 716م، وهو ما حل محل مقياس النيل القديم في ممفيس، واستمر قيد الاستخدام حتى 332هـ/ 944م (المسعودي، 2/ 366). ونُصِبَ مقياس نيل آخر في النهاية العليا لجزيرة الروضة عام 247هـ/ 861م، وتم تطويره بواسطة ابن طولون في 259هـ/ 873م؛ ولقد سجَّلَ ارتفاعًا قدره 18 ذراعًا، كل ذراع مُقسَّم لـ24 بوصة (مصرية).

(2) تولى عبد الله بن عبد الملك مصر من قِبَل أبيه بعد موت عمه في جمادى الآخرة سنة 86هـ، وأقره الوليد بن عبد الملك لما بويع بالخلافة، وظل بمصر حتى تولى قرة بن شريك من قِبَل الوليد عام 90هـ راجع: الكندي، كتاب الولاة، ص 58 : 63 (المترجم).

بصورة كبيرة على الناس، فقد حظر على النصارى ارتداء البورنس Burnus، وأمر باستخدام العربية في الوثائق العامة بدلًا من القبطية كما كان الحال حتى ذلك الوقت[1]. وقد تم تسجيل حالات المصادرة، والغرامات، فضلًا عن التعذيب وجوازات السفر المفتعلة[2]، وقد ابتكر نظامًا من الشارات يتقلده الرهبان عن طريق الترخيص، فإن عُثِرَ على راهب بدون العلامة، يصبح ديره عرضة للنهب. وكان خازن بيت ماله عُبَيْد اللَّه بن الحَبْحَاب أشد قمعًا، فهو مَن قام عام 103هـ/ 722م بأمر من الخليفة بتدمير الصور

(1) أصبحت العربية لغة الدواوين الرسمية في مصر عام 87هـ/ 706م، في ولاية عبد الله ابن عبد الملك وفي خلافة الوليد بن عبد الملك الذي أمر بتدوين الدواوين في مصر باللغة العربية بعد أن كانت تكتب باللغة القبطية استكمالًا لحركة التعريب التي بدأها الخليفة عبد الملك بن مروان في جميع أرجاء الدولة الإسلامية؛ ولهذا اضطر الكثير من أهل الذمة إلى التخلي عن مناصبهم للعرب أو إلى مَن تعلم العربية مِنْ المصريين، إلا أنه من ناحية أخرى ساعد الفتح العربي على إحياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التي كانت اللغة الرسمية لمصر منذ عهد البطالمة، حتى أن أسماء البلاد والأقاليم التي كانت تغلب عليها الأسماء اليونانية أصبحت تعرف مرة أخرى بأسمائها القبطية التي ترجع إلى الأسماء المصرية القديمة، انظر: الكندي، كتاب الولاة، ص 58 ، 59، المقريزي، الخطط، ج1 / ص 833، سيدة كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص 19 (المترجم).

(2) حدثت منذ العصر البيزنطي تنقلات دائمة للسكان في مصر وذلك للتهرب من الضرائب، فاضطر بعض الولاة إلى فرض قيود على حركة التنقلات داخل البلاد لعدم السماح بالتهرب من الضرائب على هذا النحو، ولكي لا يتمكن أحد من الهرب من منطقة إلى أخرى فرضت سجلات على الأهالي أشبه بجوازات السفر، فألزم كل شخص يريد الانتقال من جهة إلى أخرى داخل مصر أن يحمل سجله معه، انظر: ساويرس، سير الآباء البطاركة، ص 70 (المترجم).

التي يقدسها النصارى[1]. مثل تلك الاضطهادات أدت لثورة الأقباط في الحَوْف بين بِلْبَيْس ودِمْياط[2]، ورغم أنه قد تم وقفها لبعض الوقت، إلا إنها

(1) أصدر الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك عام 103هـ/ 722م، قرارًا يقضي بإزالة الأيقونات من الكنائس المسيحية في الدولة الإسلامية، وتبعه في ذلك الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث Leo III (98 – 123هـ / 717 – 741م)، الذي أصدر قرارًا عام 107هـ / 726م ضد عبادة الصور والأيقونات، وأمر بتدمير التماثيل؛ وقد أدى ذلك إلى نشوب صراعات بين مؤيد ومعارض داخل أتباع الديانة نفسها، فكان معظم أنصار قرار الإمبراطور يقبعون في الشرق خاصة مصر، ويرجع ذلك إلى المؤثرات الإسلامية، ويذكر أن هذه الصراعات قد أدت إلى عداء شرس بين الإمبراطورية البيزنطية والبابوية في روما مما زاد من انعزالهما بعضهما عن بعض. انظر عن حركة مناهضة الأيقونات: إبراهيم طرخان، الحركة اللا أيقونية في الدولة البيزنطية، القاهرة 1956م، السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، القاهرة 1960م، ص 177 وما يليها، سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، القاهرة 1966م، ج1/ ص 130، حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة 2008م، ص 102: 156 (المترجم).

(2) هي مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم (البحر المتوسط) والنيل، كانت من أهم الثغور والموانئ المصرية في العصر الإسلامي، نفذت من خلالها أساطيل وجيوش الأعداء أكثر من مرة كما حدث من قِبَل الصليبيين، لذلك اهتم بتحصينها الولاة والحكام، فقد ذكر ياقوت أن شمالي دمياط يصب ماء النيل إلى البحر الملح في موضع يقال له الأشتوم عرض النيل هناك نحو مائة ذراع، وعليه من جانبيه برجان بينهما سلسلة حديد عليها حرس لا يخرج مركب من البحر ولا يدخل إلا بإذن، وعلى سورها محارس ورباطات. وغدت المدينة في القرن الخامس عشر الميلادي المدينة الثانية في مصر بعد العاصمة تخرج منها الأساطيل للغزو في البحر، وقد تميزت المدينة أيضًا بصناعة الأقمشة والفرش الفاخرة، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج2/ ص 472، المقريزي، الخطط، ج1/ ص 597، الحميري، الروض المعطار، ص 257، جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة 2000م (المترجم).

اندلعت مرة تلو الأخرى في السنين اللاحقة، وأثار حبس البطريرك القبطي السخط بين المتدينين المماثلين له في النوبة لدرجة أن الملك كيرياكوس Cyriacus زحف بجيشه إلى مصر على رأس مائة ألف نوبي، وما أقنعه بالعودة إلى بلده إلا طلب البطريرك، الذي أُطلِقَ سراحه على عجل[1].



شكل (3) ختم زجاجي لعبيد الله بن الحبحاب مؤرخ بعام 729م

لم يحاول المؤرخ المسلم المقريزي تقليل تلك الاضطهادات، وروى بنفسه قصة عن بطولة المتدينات اللاتي سُحبن من قِبَل الجنود العرب إلى خارج أديرتهن. كانت فِبْرونيا Febronia[2] عذراء فائقة الجمال، حتى أن من أسرها لم يستطع تحديد من له حق امتلاكها، وأثناء تشاورهم عرضت أن تبوح لقائدهم بسر دهان اعتاد أسلافها أن يدهنوه ليصيروا في منعة. وافق رئيس الجند أن يسمح لها بالعودة لديرها إن سمحت له أن يختبر فعالية ذلك الدهان عليها. هكذا ذهب معها إلى الدير؛ حيث دنت من صورة السيدة العذراء وصلت أمامها، وتوسلت أن تعينها على نيل حريتها، ثم دهنت عنقها بالدهان، ومن ثم استل أحد الجنود سيفًا حادًا بينما ثنت الفتاة البكر ركبتيها عارضة عنقها - وهم لا يعلمون ما يدور بخلدها - ثم غطت وجهها قائلة: إن كان من بينكم رجلٌ قويٌّ دعوه يضرب بسيفه على

(1) رواية منقولة عن أبي صالح، نقلًا عن ساويرس بن المقفع (المترجم).

(2) مثل هذه الروايات لا يمكن الوثوق بها من قبل المقريزي، خاصة وأنها لم ترد في المصادر العربية المبكرة، ومن المحتمل أن يكون المقريزي قد نقلها عن مصدر من المصادر المسيحية، انظر الهامش الآتي للمؤلف (المترجم).

عنقي، وسترون قوة الإله في هذا السر العظيم، فضرب الرجل بسيفه على عنقها فسقط رأسها على الفور؛ وهكذا أرادت أن تحافظ على عذريتها لتظهر أمام المسيح عذراء طاهرة كما خُلِقَت دون خطيئة دنيوية. وعندما رأى الجندرمة[1] ما وقع للفتاة البكر أدركوا غايتها؛ فأبدوا توبتهم وأسفهم الشديد، ولم يتعرضوا بعد ذلك لأي عذراء أخرى[2].

مما يسترعي الملاحظة أنه بالرغم من اضطهادهم المتقطع ووضعهم الثابت كرعية، وأيضًا إغرائهم بالإفلات من دفع الجزية فضلًا عن الإفلات من كل وسائل الاستضعاف من خلال عملية التحول البسيطة إلى الإسلام، فإن الأقباط على العموم ظلوا على الولاء لدينهم (بلغ عددهم 5 ملايين في عام 106هـ/ 725م)[3]؛ لدرجة أنه في حوالي عام 113هـ/ 732م حين لم يجد خازن بيت المال عبيد الله، أن الإسلام يحرز تقدمًا بينهم، أتى بخمسة آلاف عربي من قبيلة قَيْس وأسكنهم الحوف شمال شرقي الفُسْطاط[4][5]،

---

(1) نوع من الجنود المسئولين عن حفظ الأمن الداخلي في الدولة العثمانية، أُدخل إلى مصر عقب الاحتلال الإنجليزي ثم ألغي، أطلق عليهم في وقت لاحق رجال الدرك، انظر: أحمد تيمور، معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، إعداد وتحقيق: حسين نصار، هيئة الكتاب – القاهرة 1994م، ج3/ ص 50.

(2) أبو صالح (f. 84b - 86 a)، وردت القصة في جون الشمَّاس John the Deacon.

(3) أبو صالح (f. 266) نقلًا عن الكندي.

(4) في خلافة هشام بن عبد الملك، أنزل عبيد الله بن الحبحاب عامل خراج مصر في سنة 109هـ بيوتًا من قيس يبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف بالحوف الشرقي في شرق الدلتا وأمرهم بالاشتغال بالزراعة، وكان هذا على ما يبدو ليحلوا تدريجيًّا محل قبط الحوف الذين ثاروا على هشام بن عبد الملك عام 107هـ وليس لعدم إحراز الإسلام تقدمًا بين الأقباط في ذلك الوقت، وقد أدى وجود العرب في القرى واشتغالهم بالزراعة على الاندماج مع الأهالي؛ مما كان له أعظم الأثر في انتشار الإسلام بقرى مصر، انظر: المقريزي، الخطط، ج1 / ص 836 (المترجم).

حيث شكلوا بعد ذلك جذوات للثورة. رغم ذلك فإن السكان العرب على ما يبدو - بغض النظر عن هذه الإضافة البسيطة - كانوا يشكلون حجمًا كبيرًا، رغم أنه حتى القرن الأول من الحكم الإسلامي كانوا تقريبًا مقتصرين على المدن الكبرى. يبدو أن أغلب الحكام أتوا إلى مصر مُرافقين لجيش عربي، قُدِّرَ في أوقات مختلفة بستة آلاف أو عشرة آلاف أو حتى عشرين ألف رجل؛ والكثير من هؤلاء الجنود على أغلب الظن سكنوا المدن، والبعض بلا ريب تزاوج مع قبطيات. لا شك أن هؤلاء العرب كانوا مميزين لدى الحكومة على حساب النصارى؛ لدرجة أنه قد تم توزيع خمسة وعشرين ألف دينار على بعض المسلمين لدفع ديونهم. وقد هاجرت القبائل العربية من وقت لآخر إلى مصر، هكذا استقرت قبيلة الكنز (فرع من رَبيعة) في الصعيد بشكل أساسي في منتصف القرن التاسع وتزاوجت مع السكان، وصارت عاملًا سياسيًا هامًّا للعصيان المسلح الذي حدث لاحقًا في زمن الفاطميين وزمن صلاح الدين[1].

---

(5) ذكر اليعقوبي (ت 260هـ)، تأثير كثافة دخول الأقباط في الإسلام على نقص مقدار أموال الجزية نقصًا ظاهرًا، فبينما كان في أيام عمرو اثني عشر ألف ألف دينار، وفي أيام خلفه عبد الله بن سعد أربعة عشر ألف ألف، إذا بها في خلافة معاوية خمسة آلاف ألف بعد أن أسلم عدد عظيم من القبط، ثم إذا بها في خلافة هارون الرشيد أربعة آلاف ألف، ويذكر أبو صالح أنها كانت في أيام موسى بن عيسى الوالي العباسي ألفي ألف درهم وسبعمائة ألف درهم وكان ذلك حوالي عام 180هـ أي نحو أواخر القرن الثامن الميلادي (المترجم).

(1) للمزيد عن القبائل العربية في مصر انظر: ممدوح عبد الرحمن عبد الرحيم، دور القبائل العربية في صعيد مصر منذ الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الفاطمية، مكتبة مدبولي - القاهرة، عبد الله خورشيد البري، القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، القاهرة، 1992م (المترجم).

كان ولاة مِصْـر جميعهـم مـن العـرب تحت حكـم الخلفـاء الأُمَويين، وأربعـة منهـم كانـوا أبنـاء أو إخوة للخلفـاء الحاكميـن، وقـد زار اثنان من الخلفـاء الأمويين مصر بأنفسـهم: مَرْوان الأول عام 64هـ/ 684م، وذلك لمواجهـة المؤيدين لعَبْد اللَّه بن الزُّبَير[1] الخليفـة المنافس؛ ومَرْوان الثاني الذي ذهب هناك أثناء فراره من العباسـيين المنتصرين منتزعي خلافته، من الجِيزَة إلى الفُسْـطاط، وأرسـل جيوشًـا لتأمين الصَعيد والإسَكْندرية؛ لكنه طُورد حتى الموت من القائد العباسـي صالح بن عليّ[2]، الذي سـيطر على الفُسْـطاط لصالح الأسـرة الحاكمة الجديدة في شهر المحرم سنة 132هـ/ أغسـطس 750م، ومن ثمّ طُرِدَ أنصار الخليفة الأخير خارج الدولة، أو قُتلوا بمجرد رؤيتهم[3].

---

(1) هو عبد الله بن الزبير بن العوام، أول مولود ولد بالمدينة من المسلمين بعد الهجرة، بويع بمكة سنة 64هـ بعد أن أقام الناس بغير خليفة جماديين وأيامًا من رجب، فانقسمت الخلافة يومئذٍ خليفة في المدينة وخليفة في دمشق بعد مبايعة مروان بن الحكم في نفس العام، كان سلطانه بالحجاز والعراق تسع سنين واثنين وعشرين يومًا، قتله الحجاج ابن يوسف الثقفي عامل الخليفة عبد الملك بن مروان في الحرم عام 73هـ وبموته توحدت الخلافة مرة أخرى في ظل الأمويين في دمشق، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ج3 / ص 71: 75، المقريزي، المقفى الكبير، ج4 / ص 351 : 384 (المترجم).

(2) هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ولي مصر من قِبَل أبي العباس السفاح، أول خليفة عباسي، وذلك في شهر المحرم سنة 133هـ إلى أن أتاه كتاب الخليفة بإمارته على فلسطين في شعبان سنة 133هـ الكندي، كتاب الولاة، ص 97 (المترجم).

(3) انظر: الطبري، ج7/ ص 421: 443، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت، 1987م، ج 5 / ص 63 : 79 (المترجم).




شكل (4) صنجة زجاجية للقاسم بن عبيد الله سنة (730م). شكل (5) صنجة زجاجية لعبد الملك بن يزيد سنة (750م).

هكذا فإن الانتقال من حكم الخلفاء الأمويين إلى العباسيين لم يؤثر بشكل كبير على مصر[1]، فإن بعض الحكام الذين خدموا الأسرة القديمة كانوا على استعداد لقبول الوظيفة تحت حكم الأسرة الجديدة، هكذا جُلِب القادة الآخرون من النظام القديم لبلاط الخليفة ليتم أقلمتهم. رغم ذلك فإن توليهم السلطة قد أدى إلى مزيد من القلاقل. وبصفة عامة حكم الوالي العباسي نصف الوقت الذي استطاع فيه الحاكم الأموي أن يحافظ على منصبه[2]. انتمى عدد كبير من الولاة تحت حكم العباسيين إلى العائلة نفسها، والآخرين كانوا في الغالب من العرب؛ إلا إنه في عام 242هـ/

(1) عن طبيعة الإدارة الأموية والعباسية، انظر: آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، ج1/ ص 147: 167؛ محمد كرد علي، الإدارة في عز العرب، القاهرة 1934م، ص 65: 173؛ علي حسني الخربوطلي، الحضارة العربية الإسلامية، القاهرة 1960م، ص 22: 41 (المترجم) .

(2) حدث 31 تغييرًا خلال مائة عام تحت حكم الأمويين؛ أما تحت الحكم العباسي فبلغ 67 تغييرًا خلال 118 عام.

856م بدأ الخليفة في إرسال الأتراك[1]، ومنذ ذلك الوقت - باستثناء الخلفاء الفاطميين - نَدُرَ أن يحكم أي عربي في مصر. فمنذ سنة 219هـ/ 834م حتى بداية الحكم المستقل لابن طُولُون في 258هـ/ 872م، مُنِحَت الولاية لواحد أو لآخر من قادة حرس الخليفة الأتراك في صورة إقطاع، أو لابن الخليفة أو لأخيه؛ ولم يحكم أولئك الإقطاعيون بأنفسهم بل عينوا نائب حاكم ليقوم بهذا العمل بالنيابة عنهم ودفعوا له فائض الدخل[2].

أدى تغيير الأسرة الحاكمة إلى تغيير في محل الإقامة؛ حيث سكن الولاة الأمويون بصفة عامة في الفُسْطاط، رغم أن اثنين من هؤلاء الولاة نقلوا المقر بصفة مؤقتة إلى الإسْكَندرية تاركين نائبًا عنهم في الفُسْطاط. وقد بنى الولاة العباسيون عاصمة جديدة رسمية (ضاحية عسكرية أكثر منها مدينة) في مكان يُدعَى الحَمْراء القُصْوى، على سهل شمال شرق

---

(1) عندما فتح المسلمون أواسط آسيا في القرن الأول الهجري بدأ الترك في الظهور على مسرح الشرق الأدنى كعبيد في بادئ الأمر، وعندما قامت الدولة العباسية عام 132هـ وبدأ ازدياد النفوذ الفارسي في بلاط الخلافة حاول المعتصم الحد من ذلك النفوذ باستخدم العنصر التركي بكثافة؛ مما أدى إلى استفحال أمرهم واستئثارهم بالنفوذ والقوة في القرن الثالث الهجري، انظر: حسن أحمد محمود، وأحمد ابراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، القاهرة 1973م، ص 307: 365، علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، القاهرة 1971م، ص 424: 445، سعد زغلول عبد الحميد، الإسلام والترك في العصر الوسيط، مقال بمجلة عالم الفكر، المجلد العاشر - العدد الثاني، الكويت 1979م (المترجم).

(2) هؤلاء الإقطاعيون هم: أشناس (839-844م)، إيتاش (845-849م)، المنتصر (850- 856م)؛ الفتح (856- 868م)؛ باكباك (868م)، برقوق (869- 872م)؛ الموفق (872م).

الفُسْطاط؛ حيث قام بعض جنود بعض القبائل العربية ببناء بيوت للدفاع، ومنها عُرِفَ المكان «بالعَسْكَر». وقد خَيَّم صالح – القائد العسكري العباسي – هناك عام 132هـ/ 750م؛ ومن ثمّ بنى مرافقه (أبو عَوْن)[1] بيوتًا؛ وصارت العَسْكَر المقر الرسمي للحاكم وحرسه ووزرائه[2]، ثم ربطتها الضواحي بالفُسْطَاط؛ والتي بسببها تراجع النيل (بحلول 107هـ/ 725م) قليلًا نحو الغرب. ولقد شُيِّدَ قصر آخر يطلق عليه قبة الهَواء في 193- 194هـ/ 809-808م بواسطة الوالي حَاتم[3] على هضبة المُقَطْم؛ حيث تستقر الآن قلعة القاهرة، و كثيرًا ما اتخذه الولاة مكانًا للاستجمام.

شهدت مصر العديد من حركات العصيان المسلح تحت حكم خلفاء بَغْداد العباسيين، قل أن تنشأ بسبب الأقباط، مقارنة بما أحدثه المسلمون أنفسهم، فقد ظهرت انشقاقات خطيرة بين المسلمين، حتى بدون الحديث عن الاختلافات الطفيفة بين مدارس الفقه الأربعة التي منها المالكية، أو المدرسة التي تأسست على تعاليم الإمام مالك، التي كانت الأكثر انتشارًا

(1) أبو عون عبد الملك بن يزيد، مولى هُناءة، من الأزد من أهل جُرجان، وُلِّيَ على مصر في شعبان سنة 133هـ باستخلاف صالح بن علي، حتى ورد الكتاب بولاية صالح بن علي على مصر وفلسطين وإفريقية في ربيع الآخر سنة 136هـ، فولّى أبا عون جيوش المغرب، ثم استخلفه صالح بن علي للمرة الثانية على مصر في رمضان سنة 137هـ، في خلافة أبي جعفر المنصور، وذلك حتى ربيع الأول سنة 141هـ، الكندي، كتاب الولاة، ص 101 ، 105، 106 (المترجم).

(2) تبعًا للمقريزي ج1 / ص304، بنيت العَسْكَر بعد رحيل صالح، لكن موسى بن عيسى العباسي قام بتوسعتها وترميمها بعد أربعين عامًا لاحقة. Cf. Lane, Cairo Fifty Years Ago, 7 ff.

(3) حَاتِم بن هَرْثَمة بن أَعْين، وليها من قِبَل الأمين سنة 194هـ، إلى أن صرف عنها في جمادى الآخرة سنة 195هـ، الكندي، كتاب الولاة، ص 147 (المترجم).

فـي مصـر منذ القـرن الثامن إلى القرن العاشـر، رغم أنه بعـد مجيء الإمام الشـافعي إلى الفُسْـطاط، في بداية القرن التاسـع، بدأ الشـافعيون تدريجيًّا ينالون الغلبة التي مازالوا ينعمون بها في مصر - كانت العداوة المريرة بين الشيعة والسـنة، بين مؤيدي إمامة عائلة عليّ في الخلافـة وبين المدافعين عن الخليفة الذي يمتلك السـلطة في ذلك الوقت، وهذه الخلافات بالفعل قد مزّقت المسلمين[1].

بـل إن مؤيـدي ذرية (علـيّ) لتولي الخلافـة، و كذا الخـوارج[2]، وهـم طائفة من المتزمتين الذين كان لهم نصيب كبير في سقوط علي نفسه، كانوا مُمثَّلِين بقوة في مصر، وكانت القبائل العربية التي جيء بها إلى الحَوْف في حالـة ثـورة على نحو متواصل، ففي عـام 137هـ/ 754م أُكْـرِهَ أبو عَوْن - القائد العسـكري لصالح، الذي كان يقـود حملة ضد البربر في بَرْقَة - على إخماد ثورة عظيمة للخوارج في مصر، وكانت النتيجة إرسال أكثر من ثلاثة آلاف مـن رؤوس الثـوار للفُسْـطاط. وفي عام 142هــ/ 759م كانت هناك حملـة أخرى في بَرْقَة، حيث اشـترك الخوارج مع البربر ومؤيدي السـلالة الأمويـة الأخيـرة في دِعواهـم، وهُـزِمَ الجيش المصـري. اسـتمر الحاكم التالـي (حُمَيْـد)[3]، الـذي جَلب مَعه عشـرين ألـف رجُلٍ، وسُـرعَان ما تم

(1) عن الشيعة انظر الباب الرابع (المترجم).

(2) انظر المزيد عن طوائف الخوارج وعقائدهم: الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: أمير علي مهنا، و علي حسن فاعور، ص 131: 159، وعن حركة الخوارج: لطيفة البكاي، حركة الخوارج نشأتها وتطورها، بيروت 2001م (المترجم).

(3) حُمَيْدُ بن قُحْطُبَة بن شَبيب بن خَالِد بن مَعدان بن شَمْس، وليها من قِبَل أبي جعفر المنصور فدخلها لخمس خَلَوْنَ من رمضان سنة 143هـ إلى أن صرف عنها في ذي القعدة سنة 144هـ، الكندي، كتاب الولاة، ص 110، 111 (المترجم).

تعزيزةَ بالمزيد في الحرب، فنجح بعد كَر وفر في هزيمة الثوار وقتل القائد الخوارجي. تـلا ذلك ظهـور أنصار العلويين من زمرة عليّ في المشـهد، حتـى دنـا واحدٌ من العائلة (عليّ بن محمد بن عبد الله) من أن يصير خليفة على مصر، إلى أن تولى الخليفة العباسـيّ أبـي جَعْفَر المَنْصُور الحكم بعد أن استطاع الفتك بثائر آخر من العائلة في البَصْرَة؛ حيث تبنَّى وسيلة الردع التي تقتضي إرسال رأس الضحية للعرض في جامع الفُسْطَاط، وهو ما ثبَّطَ همـة العلويين بالتأكيد على إخفـاق حركتهم[1] رغم ذلك فـإن الهرج بلغ مـن الخطورة قدرًا منع الوالي يَزِيد بن حَاتِم[2] من الحج السـنوي إلى مكة عام 147هـ/ 764م، و فـي العام التالـي اضطر إلى إخماد عصيان مسـلح للخوارج في الحَبَشَـة، وكمكافـأة لخدماته ضُمَّت مقاطعـة بَرْقَة لأول مرة إلى حاكم مصر عام 149هـ/ 766م.



شكل (6) صنجة زجاجية ليزيد بن حاتم سنة (761م).



شكل (7) صنجة زجاجية لمحمد بن سعيد سنة (769م).

---

(1) راجع مزيدًا عن ثورات العلويين في ظل الدولة العباسية: أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، تحقيق: السيد أحمد صقر، بيروت، ص 166 وما يليها، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، بيروت 2004م، ج24 / 213 : 226 ، ج25 / ص3 : 45 (المترجم).

(2) يَزِيد بن حَاتِم بن قُبيصة بن الـمُهَلّب بن أبي صُفْرة، وليها من قِبَل أبي جعفر المنصور فقدمها في يوم الاثنين للنصف من ذي القعدة سنة 144هـ إلى أن صرف عنها في ربيع الآخر سنة 152هـ الكندي، كتاب الولاة، ص 111: 117 (المترجم).

والآن حان دور الأقباط، الذين ثاروا مرتين في سَمَنُّود الواقعة في الدلتا، وفي عام 150هـ/ 767م تمردوا في سَخَا؛ حيث قاموا بهزيمة قوات الوالي مرتين، وطردوا جابي الضرائب. وهناك مقاطعة كبيرة في مصر السفلى كانت في حالة عصيان مسلح استمر لعدة سنوات لاحقة، فكانت النتيجة الطبيعية مزيدًا من القمع الصارم والاضطهاد. وما لبث أن رجع الاستقرار لفترة من الزمن تحت الحكم الدمث لمُوسَى بن عليّ[1]، الذي عامل الناس بالحسنى وحرص على الخطبة والصلاة في المسجد، حتى لوحظ تدينه العميق. لكنه ما لبث أن استُبدل[2] بالوالي العنيف أبو صالح، المعروف بابن ممدود عام 162هـ/ 779م، وهو الوالي الأول من السلالة التركية، والذي كان حاكمًا كفئًا ونشيطًا، رغم صرامته وقسوته[3]. لقد وَجد الطرقات تعج بناهبي عرب قَيْس من الحَوْف، وسرعان ما وضع حدًّا لنهبهم بالإعدام العاجل، فوفقًا لنظريته لا مكان للسرقة تحت حكمه، ولذلك أَصدر الأوامر بمنع غلق البوابات وأبواب المنازل، حتى الحانات

(1) هو موسى بن عيسى بن موسى العباسي، ولي مصر من قِبَل هارون الرشيد في ربيع الأول سنة 171هـ، إلى أن صرف عنها في رمضان سنة 172هـ، ثم وليها للمرة الثانية في صفر سنة 175هـ حتى صفر 176هـ، وللمرة الثالثة من رمضان 179هـ حتى جمادى الآخرة سنة 180هـ، المصدر السابق، ص 132، 134، 137 (المترجم).

(2) لم يستبدل موسى بن عيسى بأبي ممدود، الذي ولي مصر قبله بنحو عشر سنين، انظر الهامش القادم (المترجم).

(3) هو أبو صالح الخرسي يحيى بن داوود الشهير بابن ممدود، ولي مصر من قِبَل المهدي في ذي الحجة سنة 162هـ حتى شهر المحرم سنة 164هـ، كان أبو جعفر المنصور إذا ذكره قال: «هو رجل يخافني ولا يخاف الله»، الكندي، كتاب الولاة، ص 122، المقريزي، الخطط، ج1/ ص849 (المترجم).

ينبغي أن تبقى مفتوحة ليلًا، فاعتاد الناس أن يمدوا الشباك أمام أبوابهم المفتوحة لمنع الكلاب. وقد حرَّمَ توظيف الحرس في الحمامات العامة، وأعلن بأنه إذا سُرِقَ شيء فعليه أداؤه، فكان الرجل يدخل إلى الحمام، فيضع ثيابه ويقول: «يا أبا صالح احفظها»[1]. ويذهب ليستحم في ثقة كاملة بأنه لن يجرؤ أحد على المساس بها. لكن صرامة ابن ممدود سببت خوفًا أكثر مما هدأت الآلام، وقوانينه السخيفة المحدِّدة للنفقات، وفرض أغطية رأس خاصة للقضاة والموظفين الآخرين، فضلًا عن تدخله المستمر، كل ذلك تسبب في مضايقات بالغة للعامة حتى أنهم استحسنوا إقالته تمامًا.

وقعت ثورة سياسية خطيرة عام 165هـ/ 782م في الصعيد؛ حيث أَعلن دِحْيَة بن مُصْعَب الأُمَوي[2] نفسه خليفة، فانضم له معظم صعيد مصر، واستطاعوا صد القوات التابعة للوالي، فتم تعيين والٍ آخر، بدأ حكمه بتغريم سلفه مبلغ ثلاثمائة وخمسين ألف دينار لفشله في إخماد الثورة، وبعد ذلك اتخذ منهجًا غريبًا في الحكم بمضاعفة ضريبة الأرض، وفرض رسوم جديدة على الأسواق والدواب. هكذا جعل مُوسَى[3] من نفسه شخصًا ممقوتًا بشكل عام حتى كرهه الجند ونابذوه. اغتنمت القبائل العربية في الحوف الفرصة للتمرد مرة أخرى، فكانت النتيجة هزيمة الوالي

---

(1) انظر: الكندي، كتاب الولاة والقضاة، ص 132 (المترجم).

(2) هو دِحْية بن مُصْعَب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان، انظر: المصدر السابق، ص 124 وما يليها (المترجم).

(3) موسى بن مصعب الخثعمي، وليها من قبل المهدي يوم السبت لسبع خلون من ذي الحجة سنة 167هـ، حتى قتل لتسع خلون من شوال سنة 168هـ المصدر السابق، ص 124: 128 (المترجم).

وقتلـه، ولـم يكـن خلفـه أكثر حظًا فقـد أخفق فـي إخضـاع المتمردين في الصعيـد، إلا أن هـذه الحملـة جديرة بالذكر لحادث غريـب، حيث تحدى شـقيق الحاكـم قائـد المتمردين في مبـارزة فردية، فطعـن كل منهما الآخر وقُتلا معًا، وفر الجيشـان منهزمين. لم تكن تلك الثورة الواسـعة الانتشـار لتخمـد حتى تولـى الأمر الفَضْل بن صَالِـح[1]، الفاتح العَباسـي لِمِصْر. لم يلجـأ الفضل إلى أنصاف الحلول، فقد جلب جيشًـا مواليًا من سـوريا ربح به سلسـلة من الانتصارات في الصعيد ومن ثمّ أسـر دِحْيَة، حيث أُعدِم في الفسطاط و صُلِبَ ثم أُرسِلَ رأسه للخليفة في بغداد.



شكل (8) صنجة زجاجية للفضل بن صالح سنة (785م)

للأسـف ازداد الإطـراء على الفضل كثيرًا لانتصاره حتـى وصل الأمر إلى طرده وابـن أخيـه الـذي نجح هو الآخـر، فعلـى الرغـم مـن كونـه رجـلًا عـادلًا وخيِّـرًا (باستثناء نحو الأقباط الذين هَدَّم كنائسهم)[2] إلا أنه تلقى استدعاءً مشابهًا

(1) هو الفضل بن صالح بن علي العباسي، ولي مصر من قِبَل المهدي في شهر المحرم سنة 169هـ وأقره موسى بن المهدي عندما بويع بالخلافة وظل حتى شوال من نفس العام، المصدر السابق، ص 129 (المترجم).

(2) هو علـي بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس، الذي تولى من قِبَل الهادي في شوال عام 169هـ يقول عنه المقريزي: إنه «أظهر في ولايته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنع الملاهي والخمور، وهدم الكنائس المحدثة بمصر، وبُذِلَ له في تركها خمسون ألف دينار فامتنع «الكندي، كتاب الولاة، ص 131، المقريزي، الخطط، ج1/ ص 851 (المترجم).

من قِبَل هارون الرَّشيد بعد ما أبداه من خطوات طموحة. كان كلا الرجلين عضوين في الأسرة العباسية، وبالتالي تم التخلص منهما لمراعاة أحلام ترشيحهما للخلافة، التي لم تكن في ذلك الوقت وراثية بشكل كامل. وقد اكتُشِفَ نفس الطموح في الوالي التالي مُوسَى بن عِيسَى العَبَّاسيّ، الذي كان يمتلك خبرة إدارية كبيرة، وذا صدر رحب نحو الأقباط؛ حيث سمح لهم بإعادة بناء كنائسهم المهدمة. وحين بلغ الرَّشيد أنه يدبر له المكائد، هتف بتقلبه المعتاد «والله لا أعزله إلا بأخس من على بابي». حينئذٍ أتى عُمَر كاتب الخَيْزُران أم الخليفة، ممتطيًا بغلة. فسأله جَعْفَر وزير الرَّشيد: «أتولى مصر؟» قال عمر: «نعم». وسرعان ما تم التنفيذ؛ حيث سار إليها فدخلها وخلفه غلام على بغل للثقل، فقصد دار مُوسَى بن عِيسَى فجلس في أخريات الناس، فلما انفض المجلس قال مُوسَى: ألك حاجة؛ فرمى إليه بالكتاب، فلما قرأه قال: لَعَنَ اللَّهُ فِرْعَونَ حيث قال: « أليس لي مُلْك مِصْر»، وعلى الفور سلَّمَ حكم مِصْر لـ «أحقر شخص»[1]. القصة أشبه ما تكون برواية هزلية لا يمكن تصديقها بشكل من الأشكال، إلا أنها على الأقل تؤكد أن موسى قد أُقيل عام 176هـ/ 792م.

واصل عرب الحوف تمردهم خلال تغييرات الولاة تلك، ففي عامي 186، 187هـ/ 802، 806م دار قتالٌ شديدٌ؛ ورفض البدو أن يدفعوا الضرائب، فنهبوا المسافرين وسرقوا الماشية، وقاموا بغارات داخل فلسطين بمساندة عرب الحدود. وقد أمكن كبح جماح بعض رؤسائهم عام 188هـ/ 807م إلى حين عن طريق طُعْم، لكن النزاع على الخلافة

(1) رواها ابن الأثير في أحداث سنة 176 هـ الكامل، ج5 / ص 175، 176 (المترجم).

الذي نشأ عند وفاة هارون عام 189هـ/ 808م بين ابنيه الأمين والمأمون، كان قد قَسَّم ولاء المصريين وقاد لثورات جديدة في الحوف، فعين كل منهما حاكمين تنافسا فيما بينهما، حيث رَشح الأمين بدهاء قائد عرب قَيْس للوظيفة، هكذا أَمِنَ دعم الفريق الأكثر سُخطًا على الحكومة، وعلى إثر ذلك هُزِمَ مُمَثِّل المأمون وتم قتله[1].

مع هذا الإقرار الرسمي لعرب الحوف، أضاف لهم وصول أكثر من خمسة عشر ألف أندلسي إلى الإسْكَندرية في 182هـ/ 798م – غير النساء والأطفال – مصدرًا جديدًا للقوة، بعد أن تم نفي هؤلاء اللاجئين من إسبانيا من قِبَل الأمير الأُمَوي الحَكَم، نتيجة لثورة حدثت في قُرْطُبَة Cordova[2] كادت أن تُطِيحَ بمُلْكه[3][4]. ولقد سُمِحَ لهم بالمسير دون أن يُسمح لهم

(1) مزيدًا عن أحداث الفتنة بين الأمين والمأمون، انظر: الطبري، ج8 / ص 364 : 387، ابن الاثير، ج5 / ص 359 : 402 (المترجم).

(2) هي أعظم مدن الأندلس، وحاضرة دولة بني أمية، تقع على نهر الوادي الكبير، وتعد أهم مدن أوروبا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي؛ حيث نافست بغداد حاضرة المشرق الإسلامي لما تميزت به من علم وفن وثقافة، ظلت أهم مدن الغرب الإسلامي حتى سقطت في يد النصارى القشتاليين سنة 633هـ/ 1235م، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 324 ، الحميري، الروض المعطار، ص 456: 459، عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، (جزءان)، الإسكندرية 1984م (المترجم).

(3) Hist. des Musulmans d'Espagne, ii. 68-76; Quatremere, Mem sur l'Egypte,i Dozy.

(4) يذهب د.عبد العزيز سالم، مؤيدًا في ذلك ليفي بروفنسال و د.سعد زغلول عبد الحميد، إلى أن ثورة الربض بقرطبة كانت في رمضان من عام 202هـ وهو ما يوافق مارس 818م، أما الوافدون الأندلسيون فقد وفدوا إلى الإسكندرية في عام 199هـ/ 815م، وليس كما ذكر المؤلف عام 182هـ/ 798م، وهذا يعني أن هؤلاء الأندلسيين كانوا غزاة بحريين وأن الغزو كان حرفتهم وصناعتهم، انظر: ليفي =

بدخول الإسْكَندرية، وقد أعانوا أنفسهم بما كان في استطاعتهم من تجارة البحر، وسرعان ما صاروا عاملًا مهمًّا في الموقف السياسي، فمع اتحادهم مع قبيلةَ لخْم العربية القوية، استطاعوا الاستيلاء على الإسْكندرية عام 199هـ/ 815م. هكذا حاربوا وتفاوضوا مع الحكومة ومع التمرد الواقع في الحوف بالتناوب، حتى أوكلت في النهاية مهمة قمع هذه الجالية المنبوذة لرجل قوي.

لقد أَرسل الخليفة المَأْمُون، عَبْد اللَّه بن طَاهِر[1] - أحد أكثر القادة العسكريين شهرة في ذلك العصر - إلى مصر عام 211هـ/ 826م، مع جيش يقوده محاربون محنكون موضع ثقة من خُراسان، ولقد أثمر حصار الإسْكَندرية الذي استمر لأربعة عشر يومًا عن قبول الإسْكَندرية للشروط؛ حيث وافق الأندلسيون أن يركبوا سفنهم ويأخذوا كل مَن ينتمي إليهم، حُرًّا وعبدًا وامرأة وطفلًا، وإلا هُدرت دماؤهم. وبالفعل أبحروا إلى جزيرة كريت؛ حيث استقروا هناك وحكموا الجزيرة حتى استعادها الإمبراطور البيزنطي عام 350هـ/ 961م[2].

= بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة: عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، الإسكندرية 1990م، ص10، عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، الإسكندرية 2000م، ص223 ، تاريخ إسكندرية... إلخ، ص 133 (المترجم).

(1) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان الخزاعي، ولي مصر من ربيع الأول سنة 211هـ ، حتى رجب سنة 212هـ، وتوفي بمرو سنة 230هـ، انظر ترجمته وسيره إلى مصر: الكندي، كتاب الولاة، ص 180 ، الطبري، ج5 / ص 170، ابن خلكان، ج3 / ص 83 : 89 ، النويري، نهاية الأرب، ج22 / ص 160 (المترجم).

(2) أطلق العرب على جزيرة كريت اليونانية (إقريطش)، التي نزلها الأندلسيون وافتتحوها بين عامي 212 – 230هـ بعد جلائهم عن الإسكندرية، وكانت تابعة=

تولى ابن طاهر مهمة صعبة، فقد حارب الوالي عُبَيْد اللَّه بن السَّريّ[1]، الـذي رفـض قبـول العزل حتى حاصـره ابن طاهر فـي الفُسْـطاط قبل نفي الأندلسيين. وفي محاولة أخيرة أرسل إلى مُحاصِرِه في الليل عارضًا «ألف وصيـف ووصيفة مع كل وصيف ألف دينار في كيس حرير، فرد ذلك عليه عبـد اللـه وكتب إليه: لـو قَبِلت هديتك نهـارًا لقبلتها ليلًا بـل أنتم بهديتكم تفرحـون، ارجـع إليهـم فلنأتينهم بجنـود لا قِبَل لهم بهـا ولنخرجنهم منها أذلـةً وهم صاغرون» فحينئذٍ طلب الأمان منه وخرج إليه[2]. بعد استسـلام الفُسْـطاط وطرد الأندلسيين من الإسْكَندرية، استعاد القائد المظفر – الذي أطلق عليه الخليفة بشـكل يشبه التنبؤ «المنتصر» – النظام في كل مكان في البـلاد؛ حيث أعـاد تنظيم الجيـش، وأعاد ولاء مصر للخلافـة مرة أخرى. وفـي مقابـل خدماته العظيمة سَـمح لـه الخليفـة أن ينعم بالدخـل الكامل

= قبـل ذلك للإمبراطورية البيزنطية، وبعد سـيطرتهم عليها دخلوا في طاعة الخلافة العباسـية، وأصبحـت الجزيـرة تابعـة لولايـة مـصر تبعًـا للتقسـيم الإداري للدولة العباسـية، وظلت تابعة لمصر زمن الطولونيين والإخشيديين إلى أن تمكن البيزنطيون بقيـادة نقفور فوكاس من اسـتعادتها مـرة اخرى عام 350هـ انظـر: ياقوت، معجم البلـدان، ج1/ ص 236؛ أحمـد العـدوي، إقريطـش بـين المسـلمين والبيزنطيـين في القـرن التاسـع الميـلادي، المجلة المصريـة التاريخيـة، المجلـد الثالث (العـدد الثاني) 1950م، ص 53؛ أسـمت غنيم، الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسـلامية، القاهرة 1983م (المترجم).

(1) ولي مصر لتسع خَلَوْن من شعبان سنة 206هـ حتى عزله ابن طاهر سنة 211هـ، توفي بِسُرَّ مَنْ رَأى سنة 251هـ، الكندي، كتاب الولاة، ص 173: 183 (المترجم).

(2) نص رواية الطبري، ج5 / ص 172 (المترجم).

لمصـر، وهـو ما يصل إلـى ثلاثة ملايين دينـار[1]. هكذا وُصِـفَ بأنه حاكم عـادل وإنسـاني، رجل ذو ثقافة وعلـم، وصديق مقرب للشـعراء الذين لـم تَخْلُ منهم حاشـيته. حُفِظ اسـمه أيضًا من خلال بطيخ «العَبْدلاّوي»[2] في مصر، والذي قُدِّم له خصيصًا.

انتهـت الراحـة القصيـرة التـي تَنعْمت بها البـلاد تحت حكمـه القوي والحصيف بعد مغادرته إلى مقاطعته الخاصة في خراسـان، شـمال شـرق فارس. وسـرعان ما جدد عرب الحوف اعتداءاتهم والتقدم نحو العاصمة، فـي المَطَرِيَّة، هازمين الوالي الجديد، الذي أشـعل النار في أمتعته واحتمى خلف أسـوار الفُسْطَاط، وحين أتى المُعْتَصِم - شقيق الخليفة والذي صار لاحقًا خليفة - للنجدة مع أربعة آلاف من القوات التركية، وجد أن المدينة مُحاصَـرَةٌ من العرب؛ ورغم أنه اسـتطاع تفرقتهم عام 214هـ/ 829م وقتل زعمائهم، إلا أنه بمجرد عودته إلى بغداد، بعد خمسـة أشـهر لاحقة (سائقًا حشـدًا من السجناء البؤسـاء حفاة الأقدام أمام فرسانه المتوحشين)، اندلع العصيان المسلح مرة أُخرى، وانتشر بين الأقباط؛ وفي النهاية عَزم الخليفة على أن يذهب بنفسه إلى مِصْر.

---

(1) لا يمكن أن تكون الـ3.000.000 دينار إجمالي الدخل غير الصافي، لكنه قد يكون المبلغ الوارد من ضريبة الأرض، ومع ذلك فمع معرفة أن ضريبة الأرض في ذلك الوقت وصلت بالإجمال إلى 4.857.000 دينار، يكون الاحتمال الأكبر أن الـ 3.000.000 دينار تمثل فائض الدخل بعد تكلفة الإدارة (بعد دفع مصاريف الجيش، والموظفين، إلى غير ذلك)، والذي كان وفق المعتاد يُرسَل إلى الخليفة.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3 / ص 88 (المترجم).



شكل (9) دينار (عملة ذهبية) للخليفة المأمون ضرب في مصر (الفسطاط) سنة (814م)

كانت تلك هي المرة الأولى التي يزور فيها خليفة عباسي أرض النيل[1]، متلقيًا مديح الشعراء واطراءهم الذي كان على الدوام بمثابة الطعام لأذنيه؛ وحين عاين المَأْمُون المشهد من «قبة الهواء»، خاب رجاؤه وصاح قائلًا «لعن الله فرعون، حين قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾[2] فماذا لو رأى العراق ومروجها؟ رد أحد الشيوخ قائلًا: «لا تقل هذا»، «لأنه مكتوب أيضًا: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[3]، فماذا عن الأشياء التي دمرها الله إن كانت تلك هي مجرد آثارها!». ولقد أخزى الخليفةُ آنذاك الوالي العاجز، وقطع رأس قائد الثورة؛ ومن ثمّ أرسل جيشًا تحت قيادة التركي (الأفشين) إلى الحوف، حيث ذُبِحَ الأقباط المتمردون بدم بارد وأُحرِقَت قراهم، وبيعت زوجاتهم ونسائهم كإماء. هكذا سَحق هذا القمع الصارم نشاط الأقباط، ولم نسمع

(1) قَدِمَ المأمون إلى مصر في الخامس من شهر المحرم سنة 217هـ ورحل عنها في 18 صفر بعد أن أقام بأعمالها تسعة وأربعين يومًا، انظر: ابن الأثير، الكامل، حوادث عام 217هـ ج5/ ص 494، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج2 / ص 263، 264 (المترجم).

(2) الزخرف: 51.

(3) الأعراف: 137.

لهـم بعـد ذلك عـن انتفاضات قوميـة، فقد أسـلم الكثير منهـم، ومنذ ذلك التاريخ بدأ التفوق العددي للمسـلمين على النصارى في مصر، واسـتوطن العرب القرى والأرض، بدلًا من اقتصارهم على المدن الكبرى حتى ذلك الوقت، لقد صارت مصر الآن لأول مرة بلدًا إسلاميًّا قلبًا وقالبًا.

في غضون ذلك، زار الخليفةُ الإسْكَندرية وسَخَا؛ وهنا ذُكرت خرافة لم ترتكز على أي مصدر مبكر؛ هي أنه حاول فتح الهرم الأكبر في الجِيزَة بحثًا عن كنز، لكنه كف عن ذلك عندما وجد أن عماله لم يقدموا له أية معلومات يمكن من خلالها التعرف على تلك الكتلة الضخمة[1]. وبعد أن مكث لأكثر من شهر، عاد المَأْمُون إلى بَغْداد، وترك البلد في حالة من السلام، لم يعكرها لسنين سوى القليل من الثورات المحدودة من قبل عرب لَخْم في الدلتا. مهما كانت الخلافات التي نشأت فقد سببتها الاختلافات الفقهية بين المسلمين أنفسهم، هكذا أَحدث فرض المَأْمُون لمذهب خلق القرآن اختبارًا[2]، ليس لقاضٍ أن يزاول مهامه دون اجتيازه، فقد خَلقت هذه الفتنة قدرًا من الاستياء أكثر بكثير مما يستحقه هذا الموضوع. فقد جُزَّت لحية

(1) عبد اللطيف (البغدادي)، 176 .

and de Sacy's Note, 219; Wütenfeld Statthalter, 43 n.

(2) يروي الطبري أن الخليفة المأمون قد أظهر القول بخلق القرآن عام 212هـ، إلا أنه لم يحمل الناس على اتباعه إلا قبيل وفاته عام 218هـ ويذكر الكندي أنه في ولاية كيدر (217 – 219هـ) ورد كتاب المعتصم صاحب إقطاع مصر في جمادى الآخرة عام 218هـ يأمره أن يمتحن الناس في أمر خلق القرآن وأولهم قاضي مصر هارون ابن عبد الله الزهري، إلا أن مصر لم تتعرض لما تعرضت له العراق من أثر هذه الفتنة، ولهذا فالأرجح أنه لم تكن هناك معارضة كبيرة لهذا الأمر في مصر كما كان في العراق موطن الفقهاء والعلماء في ذلك الوقت من أمثال أحمد بن حنبل، انظر: الطبري، ج10/ 279، الكندي، كتاب الولاة، ص 193، ص 445 : 447 (المترجم).

رئيس القضاة الذي لم يُطَبق المذهب الجديد، وضرب بالسياط وسيق عبر المدينة راكبًا حمارًا، واستمر تابعه في ضربه بالسياط بمعدل عشرين جلدة يوميًا، حتى انتزع البقشيش المطلوب. وطُرِد على إثر ذلكَ تابعو الفِرَق الدينية التقليدية من الحنيفيين والشافعيين خارج الجامع. وكانت كذلك أي ذلّة مريبة في قراءة القرآن تسفر عن الجلد.

شكل (10) صنجة زجاجية لأشناس، سنة (834م)

لَحق الأقباط بعد فترة وجيزة نظام مماثل من التدخل. حيث أُعلِنَت سلسلة من تنظيمات الخليفة المُتَوكِّل الجديدة في كل مكان من أقاليم مصر عام 235هـ/ 850م[1]، أُمِرَ من خلالها

---

(1) لم يكن المتوكل أول مَن أعلن عن مثل هذه التنظيمات التي تخص الأقباط، حيث نُسبت تنظيمات مشابهة للخليفة عمر بن الخطاب، وقد قام عمر بن عبد العزيز بعد ذلك بتفعيل تلك التنظيمات التي تخص أهل الذمة بعد أن تهاون معظم الخلفاء في تطبيقها، وقد ذكر القاضي أبو يوسف، (ت 183هـ/ 799م) صاحب كتاب الخراج، نص كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أحد عماله والذي يذكر فيه تفصيليًا نوع التنظيمات التي يجب اتباعها مع أهل الذمة من غير المسلمين، ويأتي في هذا الكتاب على سبيل المثال: (فلا تدع صليبًا إلا كُسر ومُحق، ولا يركبن يهوديّ ولا نصرانيّ على سرج وليركب على إكاف، ولا تركبن امرأة من نسائهم على راحلة وليكن ركوبها على إكاف... إلخ)، انظر: أبو يوسف، كتاب الخراج، بيروت 1979م، ص 73، وبالرجوع إلى شروط الخليفة عمر لمصالحة نصارى الشام نجد أن عمر بن عبد العزيز لم يزد عليها وإنما أراد إحياءها، وقد نقل الصباغ، أبو البلاغ عبد الغني، (ت 840هـ/ 1436م)، تلك الشروط في رسالته القصيرة (شروط عمر بن الخطاب المحفوظة بدار الكتب =

= المصرية مخطوط رقم 1090 ، هذا فضلًا عن القلقشندي الذي ذكرها في كتابه صبح الأعشى (ج13 / ص 357 : 360) عن الإمام الحافظ جمال الدين أبو صادق محمد الذي رواها في كتابه (الزبد المجموعة في الحكايات والأشعار والأخبار المسموعة)، وقد تناقلت كتب السنن نفس الرواية مما يثبت صحتها، فقد ذكرها الإمام البيهقي (ت 458هـ/ 1065م) نصًا في كتابه السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي (رقم 19186، ج9 / ص 202)، وجاء فيها أن عمر بن الخطاب صالح نصارى الشام على شروط بعثوها إليه في خطاب جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هو كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدايننا ولا فيما حولنا ديرًا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحيي ما كان منها في خطط المسلمين، ولا نمنع كنايسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمار وابن السبيل، وأن ننزل مَن نزلنا من المسلمين ثلث (ثلاث) ليال نطعمهم، ولا نئوى في منازلنا ولا كنايسنا جاسوسًا، ولا نكتم غشًا للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركًا، ولا ندعو إليه أحد من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أراد، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم في مجالسنا إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكناهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نَجُذَّ مقادم روسنا، وأن نلزم ديننا حيث ما كنا، وأن نشد زنانيرنا على أوساطنا، وأن لا نظهر الصلب على كنايسنا، ولا نظهر صلباننا وكتبنا في شيء من طرف المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب بنواقيسنا في كنايسنا إلا ضربًا خفيفًا، ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنايسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نَخرج سَعَانين ولا باعُوثًا، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولانجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، ولا نطّلع عليهم في منازلهم»، ثم قال راوي الأثر: (فلما أتيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالكتاب زاد فيه: =

النصارى أن يرتدوا ثيابًا بلون العسل مع رُقع مُمَيِّزَة، وأن يستخدموا ركابًا خشبية، وأن يضعوا صورًا خشبية لشيطان أو قرد أو كلب على أبوابهم؛ وتم منع النساء من لبس الزنار رمز الأنوثة، وأُمِرَ الرجال أن يرتدوه بدلًا منهن؛ وكذا لم يسمح لهم بإظهار الصُلبان ولا أضواء المواكب في الشوارع، وأما قبورهم فلا تكون مُميَّزَة عن الأرض من حولها، كما أنهم مُنعوا من ركوب الخيل. هكذا لا يمكن أن يكون مثل هذا الضطهاد السخيف إلا من أجل توفير ذريعة للعصيان، ومن ثم للغرامات والابتزاز.

كانت الشخصية الحرة للقاضي، الذي جُلِدَ لعدم إذعانه للأوامر العليا، أمرًا نموذجيًّا لطبقته ومنصبه. ففي فترة جشع الحكام وابتزاز الأموال، حين عم الفساد والظلم في كل مكان من الإدارة، كان يمكن دائمًا الوثوق في قاضي القضاة أو السيد قاضي قضاة مصر، في الحفاظ على القانون الديني (الشريعة)، رغم التهديدات والرشاوى. هكذا ينبغي أن يكون القانون دقيقًا، وأن يكون القاضي مُتعصِّبًا، رغم أنه نال قدرًا من التعليم، وتدرب على التشريعات الإسلامية، وبوجه عام كان ذا شخصية رفيعة ومستقيمة. أما منصبه فذو أهمية كبيرة وذو تأثير كبير، حتى أنه حين كان يتم تغيير الوزراء مع التعاقب السريع للولاة، فإن القاضي كثيرًا ما كان يظل في منصبه مع تتابع سلسلة من الإدارات[1]، وحتى عند عزله، كثيرًا ما أعاده الوالي التالي

= ولا نضرب أحدًا من المسلمين، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منّا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق) (المترجم).

(1) راجع: الكندي، كتاب الولاة والقضاة، آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص 396: 493، أحمد أمين، ظهر الإسلام، القاهرة، 1966م، ج2/ ص 249: 257 (المترجم).

أو الخليفة، وسرعان ما كان يتخلى عن منصبه بدلًا من أن يقبل بأي تدخل في قضائه الشرعي، وكثيرٌ من هؤلاء القضاة حاز على درجة كبيرة من الحب، حتى أن الحاكم كان يعيد التفكير قبل أن يُجازِف بخسارة شعبيته عقب أي تدخل في سلطتهم القضائية. ومن النادر في العصر العباسي أنْ نجد من لديه المقدرة على عزلهم، فمنذ وقت ابن لَهِيعَة[1] - والذي عُيِّنَ قاضيًا من قبل الخليفة المنصور سنة 155هـ/ 771 - 772م - يبدو أن التعيين في هذا المنصب كان يتم في بغداد، وأن المرتب كان يحدد من قِبَل الخليفة، إن لم يقم أيضًا بدفعه. كان مرتب ابن لَهِيعَة ثلاثين دينارًا شهريًّا، لكن في 212هـ/ 827م تلقى عِيسَى بن المُنْكَدِر[2] أربعة آلاف درهمًا في الشهر (أو ثلاثمائة دينار)، ورسمًا مقداره ألف دينار. كان القاضي غَوْث[3] 168هـ/ 785م نموذجًا للاستقامة، وسهل المنال لأية التماسات؛ وكان يحضر جلسات عامة مع المحامين في مطلع كل شهر عربي. أما خَلَفه

(1) هو عَبْد الله بن لَهِيعَة الحَضْرَميّ، ولي قضاء مصر من قِبَل المنصور سنة 155هـ، وهو أول قاضٍ ولي مصر من قِبَل الخليفة، وصرف عنها في ربيع الآخر سنة 164هـ الكندي، كتاب الولاة، ص 368: 370 (المترجم).

(2) ولي القضاء بها من قِبَل عبد الله بن طاهر يوم الاثنين لعشر خَلَوْنَ من رجب سنة 212هـ إلى أن صرف في رمضان سنة 214هـ، المصدر السابق، ص 433: 441 (المترجم).

(3) هو غَوْث بن سُلَيْمان الحَضْرَميّ، ولي قضاء مصر لأول مرة من قِبَل أبي عَوْن في رمضان سنة 135هـ حتى جمادى الآخرة سنة 140هـ، ثم خلفه ابن بلال إلى أن مات في ذي القعدة من نفس العام، فعاد غَوْث للمرة الثانية إلى أن صرف في رمضان سنة 144هـ، ثم ولي للمرة الثالثة من قِبَل المهدي في جمادى الأولى سنة 167هـ إلى أن توفي في جمادى الآخرة سنة 168هـ انظر المصدر السابق، ص 356: 359، 360: 362، 373: 376 (المترجم).

المُفضَّل[1] فكان أيضًا شخصية رفيعة، فهو أول مَن أصر على الإصلاح الخاص بالحفاظ على سجلات كاملة للدعاوى القضائية. لقد كان منصبًا شاقًّا، يتطلب بجانب الجلسات القضائية تنظيم الأعياد الدينية، والحفاظ على التقويم، والوعظ في الجامع في كثير من الأحيان وغير ذلك من المهام، لذلك نقرأ عن العديد من الرجال الذين قاموا برفض هذا المنصب الذي يستنفد طاقتهم واستقامتهم بشكل صارم. هكذا لم يوافق عليه أبو خُزَيمة إلا بعد أن أرسل إليه الوالي الفأس والنطع إشارة إلى الإعدام. كان هذا القاضي صانعًا للحبال؛ لذا سأله أحد معارفه يومًا عن حبل وهو على منصة القضاء، فذهب الرجل الصالح على الفور ليجلب واحدًا من منزله، ثم استأنف نظر الدعوى في المحكمة. هكذا أثمر خليط البساطة البالغة والإحسان مع الحفاظ الصارم على جلال شريعة الإسلام، عن شعبية واسعة له.

كان عَنْبَسة[2] آخر ولاة العرب على مصر، وأفضلهم جميعًا، فكان رجلًا قويًّا عادلًا أحكم قبضته على موظفيه، وأظهر لرعيته ودًّا لم يألفوه من قبل. ولعزوفه عن التفاخر، دائمًا ما كان يسير على قدميه من مقر الحكومة الكائن في العسكر إلى المسجد؛ ولحزمه في واجباته الدينية لم يضعف

(1) هو المُفضَّل بن فَضالة القِتْبانّي، ولي القضاء من قِبَل الأمير مُوسَى بن مُصْعَب بكتاب من المهدي بعد موت غوث سنة 168هـ إلى أن صرف عنها في شوال سنة 169هـ ثم وليها للمرة الثانية في رجب سن 174هـ حتى صفر سنة 177هـ المصدر السابق، ص 377: 383 ، 385: 387 (المترجم).

(2) وليها عَنْبَسَة بن إسْحَاق الضَبْيّ من قِبَل المنتصر لخمس خَلَوْنَّ من ربيع الآخر سنة 238هـ إلى مستهل رجب سنة 242هـ، المصدر السابق، ص 200: 202 (المترجم).

أبدًا عن التقيد بصيام رمضان بكل قوته. لم يكن فحسب الوالي الأخير من دم عربي؛ إلا أنه كان أيضًا آخر أمير يصلي بالناس في الجامع، وهي بالطبع مهمة الحاكم في غياب الخليفة إمام الدين.

كان تولي عَنْبَسة للمنصب جديرًا بالذكر بالتزامن مع عدوانين على مصر من أطراف متقابلة، ففي مايو 238هـ/ 853م، وبينما كان الحاكم يحتفل بعيد الأضحى في الفُسْطاط، أمر معظم الجنود في حامية دِمْياط وتِنِّيس[1]، بل وحتى في الإسْكندرية، بالمشاركة في الاستعراض الكبير، ووصلت الأنباء بأن الروم أغاروا على الساحل ووجدوا دِمْياط مهجورة فأحرقوها، آسرين ستمائة من النساء والأطفال. مع وصول عَنْبَسة للمدينة وجد أنهم قد غادروا عن طريق البحر نحو تِنِّيس، وحين لاحقهم أبحروا عائدين لموطنهم. وكإجراء احترازي من مثل هذه المفاجآت شُيِّدَ حِصْنٌ لحراسة الطريق الموصل لدِمْياط، وهو الحصن الذى اكتشفه الصليبيون بعد فترة طويلة، و كذا تم تحصين تِنِّيس بصورة مماثلة.

---

(1) تقع بالقرب من مدينة بورسَعيد الحالية، كانت من أهم الموانئ المصرية في العصر الإسلامي، قال عنها ياقوت: إنها جزيرة في بحر مصر، قريبة من البر ما بين الفَرَمَا ودِمْياط، والفَرَمَا في شرقها، بها تعمل الثياب الملونة والفرش والبوقلمون، ويقول المقريزي إنه ليس في الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ منه - وهو ساذج بغير ذهب - مائة دينار غير طراز تِنيس ودِمْياط، وذكر الحميري أن بها تحاك ثياب الشروب التي لا يصنع مثلها في الدنيا، تعرضت للغزو إبان الحروب الصليبية، مما حدا بالسلطان الكامل الأيوبي بتدميرها وتهجير أهلها عام 624هـ/ 1227م، حتى لا يستطيع الصليبيون النفاذ من خلالها، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج2/ ص 51، المقريزي، الخطط، ج1/ ص 499 ، الحميري، الروض المعطار، ص 137 (المترجم).

وقـع الهجـوم الآخر من السـودان، حيث تنصل أهل النوبـة والصحراء الشـرقية فـي 239هــ/ 854م مـن دفـع الجزيـة السـنوية، المكونـة مـن أربعمائة عبد من الجنسـين، فضلًا عن عدد مـن الجمال وفيلين وزرافتين، والتـي أُجبِـروا علـى إرسـالها إلـى مصـر منـذ حملة عـام 31هــ/ 652م، وقَتلوا بسـيوفهم الموظفين المصرييـن وعاملـي المناجم فـي جبال الزمرد Emerald Mountains، وبعدهـا هاجمـوا الصعيد على غرة، ونهبوا إِسْـنا وأُدْفو وغيرها من الأماكن، ودفعوا السكان للفرار هَلَعًا. كان أمرًا عظيمًا قام عَنْبَسـة على أثره بمراسلة الخليفة في بَغْداد يطلب تعليماته. رغم الروايات المروعة التي قدمها الرحالة عن وحشـية البلد وضراوة (البُجَة) [1] من أهل النُّوبَة، فقـد قرر الخليفة المتوكل إعادتهم للطاعـة. هكذا أُجرِيت ترتيبات كبيرة في مصر؛ حيث جُمِعَت كميات كبيرة من الذخائر والأسـلحة، فضلًا عن الخيل والجمال، وحُشِدَ الجُند في كل من قِفْط و إِسْنا و أَرْمَنت و أُسْوان على النيل، والقُصَير على ساحل البحر الأحمر. أبحرت سبع سفن مُحمَّلة بالذخائـر من القُلْـزُم إلى صَنْجة Sanga قـرب عَيْذاب[2]، المرفأ الرئيسـي

(1) ذكر المقريزي أنهم يسكنون البلاد من صحراء قوص وحتى أول بلاد الحبشة في الجنوب، عنهم راجع: المقريزي، الخطط، ج1/ ص 545؛ مصطفى محمد سعد، البجة والعرب في العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة، 1959م (المترجم).

(2) من أهم الموانئ على الساحل الغربي للبحر الأحمر في العصر الإسلامي، حيث ظل الميناء الرئيسي للحجاج من القرن العاشر حتى الرابع عشر الميلادي خاصة بعد أن أغلق الصليبيون طريق الحج عبر الشام، ويذكر ياقوت أنه كان يربط الصعيد بموانئ اليمن وأهمها عدن؛ وذكر الحميري أن منها المجاز إلى جدة، وهي تقابل من الصعيد الأعلى مدينة قُوص وقِفْط، ومنها تسير القوافل إلى مدينة سَواكِن، وهي من أحفل مراسي الدنيا، تختلف إليها مراكب الهند واليمن، ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 171 ، الحميري، الروض المعطار، ص 423 (المترجم).

على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر في ذلك الوقت. زحف القائد محمد القُمْيّ من قُوص بسبعة آلاف جُندِي، عابرًا الصحراء إلى مناجم الزمرد حتى دنا من دُنْقُلة. انتشرت أخبار تقدمه في أرجاء السودان، فجمع ملكها (عليّ بابا) جيشًا ضخمًا لمقاومته.

ولحسن حظ المسلمين كان أولئك السودان مجردين تمامًا من الدروع، ومسلحين فقط بحراب قصيرة، بينما كانت جمالهم رديئة التدريب وعصية على الانقياد مثل راكبيها. وحين رأوا أسلحة العرب وخيولهم، عرفوا انعدام فرصتهم في الفوز بالمعركة؛ لكنهم أملوا عن طريق مناورتهم ومناوشتهم من مكان لآخر أن يُنهِكوهم ويستنفدوا مؤنهم. وبالفعل كادوا أن ينجحوا في مسعاهم، لولا أن جاءت سبع سفن من القُلْزُم وظهرت بعيدًا عن الشاطئ.

اضطُرَّ السودانيون للهجوم مهما بلغت الخسائر لقطع العرب عن مواردهم، ومع ذلك فقد عَلَّق قائد العرب أجراس الجِمَال على أعناق خيله، وترك السودانيين حتى صاروا على مسافة رمح تقريبًا؛ حينئذٍ ومع صياحه الصيحة العظيمة «الله أكبر»، أمر بهجمة شاملة وسط ضجيج يصُمُّ الآذان من الأجراس والطبول؛ مما أرهبِ جمال العدو لدرجة أنها طَرحت مَن يركبها أرضًا وفرت فرارًا جماعيًا حتى اكتسى السهل بالجِيَف، أما عليّ بابا الذي هرب، فقد خالجه السرور لعقد السلام ودفع متأخرات الجزية، وحينئذٍ تلقاه القائد المُسْلم مُظهِرًا أمارات الاحترام، وأجلسه على بساطه الخاص وأعطاه هدايا متواضعة، وحدثه ليس فحسب عن زيارة للفُسْطَاط، بل بالذهاب إلى الخليفة في بغداد، إلا أنه قد سَمَحَ له بالعودة سالمًا إلى قومه، فكان ذلك من حُسن شيم المسلمين[1].

(1) ابن مسكويه، (ت 421هـ، كتاب تجارب الأمم) ed. de Goeje, 550 ff.

استُدعِيَ عَنْبَسَة بعد أربعة أعوام من الحكم الجيد والخدمة الباسلة، ومن بعده أساء سلسلة من الحكام الأتراك حكم البلاد. لقد حابوا الأقباط من فرط كراهيتهم للعرب وبُغْضِهم للعِرق، وأعادوا العديد من أراضي وممتلكات الأقباط المُصادَرَة بدعم من الخليفة المُستَعِين، وسمحوا لهم أن يعيدوا بناء كنائسهم. هكذا أظهروا بغضهم الشديد للعرب، فكان المسلمون ضحايا لغرابة أطوارهم، حتى أن أحدهم وهو يزيد[1]، أضمر مقتًا شديدًا للعبيد الخصيان، فجلدهم وأمر بإخراجهم من المدينة؛ كَرِهَ أيضًا صوت عويل النساء في الجنازات، وعَطّل رهان الخيل.

وقد أُسِّسَ في فترة حُكمِه مقياس النيل الثاني في الرُّوضة، وسلب مُهِمَّة قياس ارتفاع النهر من الأقباط، التي دائمًا ما أوكلت إليهم[2]. وكان لديه شيطان عبقري في منصب خازن بيت المال، هو ابن المُدَبِّر الذي ابتكر ضرائب جديدة، وعلاوة على الخَراج (ضريبة الأرض) والهلالي وهي

(1) هو يزيد بن عبد الله التركي، وليها من قِبَل المنتصر ولي عهد أبيه يوم الاثنين لعشر بقين من رجب سنة 242هـ إلى أن صرف عنها يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من شوال سنة 255هـ الكندي، كتاب الولاة، ص 202: 208 (المترجم).

(2) حتى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، شغل الأقباط مناصب إدارية عدة في حكومة مصر، ويذكر الكندي أنه في خلافة عمر بن عبد العزيز نزع القبط عن (الكور) أو رئاسة القرى واستعمل المسلمين عليها، يؤيده في ذلك ساويرس ويضيف أنه أرسل كتابًا يأمر فيه الأقباط بالتخلي عن أعمالهم في الدولة ماداموا على دينهم، ولهذا أسلم الأقباط ما بيدهم من الأعمال والوظائف إلى المسلمين، إلا أن هذا الأمر لم يستمر كثيرًا بعد الخليفة عمر حيث تظهر لنا المصادر أن الأقباط ظلوا يشغلون كثيرًا من مناصب الدولة، وخاصة منصب قياس مستوى النهر، انظر: الكندي، كتاب الولاة والقضاء، ص 69، ساويرس، سير الآباء البطاركة، ص 71، 72 (المترجم).

(رسوم شهرية على الحوانيت والتجارة... إلخ)، فقد قام باحتكارات حكومية في مناجم النطرون ومصايد الأسماك، وفرض ضرائب على علف الماشية وحوانيت الخمر. أعقب ذلك الاضطرابات المعتادة؛ كان أولها ثورة في الإسكندرية ثم في الحوف، التي لم تكد تُخمَد حتى حدثت أُخرَى في الجيزة، ورابعة في الفيوم. هكذا اجتاحت الفوضى البلد بأكمله، وتلا ذلك الكثير من إراقة الدماء والاعتقال، وتعرض الناس لقمع وحشي غير عادي. أُمِرَ النِّساءُ عُشرًا بالمكوث في ديارهن؛ فلم يتمكن حتى من زيارة المقابر أو الذهاب للاستحمام. سُجِنَ مؤدو العروض العامة والمحترفون الذين كانوا يحتفظون بنساء لخدمتهم.

لم يَكُن لأحد حتى أن يرفع صوته في الجامع قائلًا «بسم الله» -وهو موضع اختبار في المذهب - أو أن ينحرف شبرًا عن صفوف المصلين المنظمة؛ حيث وقف تُركِي بسوطه ليصف جماعة المصلين، ويحافظ على الصفوف كرقيب عسكري. وقد أثار سخط الناس مجموعة من القواعد الطائشة والتغييرات في الشعائر والعادات. وأخيرًا جاء تُركي آخر على علم بأمور الحكم اسمه أحمد بن طولون، يتطلب هو وأسرته الحاكمة فصلًا مستقلًّا.

الجداول التالية تقدم قوائم بالخلفاء والولاة، مصحوبين برؤساء أقسام الحرب (صاحب الشرطة)، الموارد المالية (خازن بيت المال)، العدل (قاضي القضاة). أما قائمة الوزراء فهي ناقصة بلا ريب؛ لكن قدرًا كبيرًا من الثغرات يفسره أن الوالي كثيرًا ما كان هو نفسه المسئول عن الموارد المالية، وأحيانًا قائد الجيش أيضًا. تعقيد أسماء سلاسل علم الأنساب ضروري لتعيين الهوية، والأسماء القبلية (مثل: البَجَلي، الكَلْبي، الأَزْدي)

مثيـرة للاهتمـام من حيـث عـرض أصولهم. سـيلاحظ بشـكل واضح أنه كانت هناك سـلالات من طبقة وظيفية معينة؛ لأن نفس الأسـماء أو أسماء العائـلات كثيرًا ما كانـت تتكرر، فالذي كان قائدًا للجيـش قد يصير بدوره قاضيًا أو واليًا، وكانت بعض أسـماء الولاة والخازنين تظهر على العملات والصنـج الزجاجيـة، والأختام المطبوعة علـى المكاييل، والتـي يبدو أنها كانت غريبة عن مصر، والعديد من الأمثلة المقدمة منها نُشِرَت من المتحف البريطاني، والمكتبة الخديوية ، ومجموعة د. فوكيت Dr. Fouquet الرائعة في القاهرة.

* * *

حُكّام مصر
تحت حكم الخلفاء الراشدين

الخلفاء	الولاة	قادة الحرب	المالية	القضاء	نائب الوالي
- أبو بَكر 11هـ/ 632م.					
- عُمَر 13هـ / 634م.	- عَمْرو ابن العَاص 19هـ/ 640م.	- خَارِجَة بن حُذَيْفَة. - السَّائِبُ ابن هِشَام.		- عُثْمان ابن قَيس[2].	
- عُثْمان 23هـ/ 644م.	- عَبْد اللَّه بن سعد 23هـ / 644م.	"	- سُلَيم ابن عِتْر التُجِيبي.	"	- عُقْبة ابن عامِر الجُهَنِيّ.
- عَليّ 35هـ / 656م	- قَيْسُ بن سَعْد 35هـ/ 656م.	"			
	- مُحَمَّدُ بن أبي بَكْر[1] 36هـ / 657م.	"			
	- مَالِك بن الحَارِث الأَشْتَر 37هـ/ 658م.				

(1) ذكر زامباور في معجمه، أن عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد تولى مرة ثانية بعد قيس ابن عبادة في نفس عام 35هـ ثم تلاه محمد بن أبي بكر عام 36هـ انظر: زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ج1 / ص 38 (المترجم).

(2) وفقًا لرواية الكندي، أول مَن تولى قضاء مصر هو قيس بن أبي العاص عام 23 هـ ثم تلاه كعب بن يسار، ثم عثمان بن قيس بن أبي العاص في نفس عام 23هـ وحتى عام 35هـ (المترجم).

تحت حكم الخلفاء الأمويين

الخلفاء	الولاة	قادة الحرب	المالية	القضاء	نائب الوالي
- مُعاوية بن أبي سُفْيان 41هـ/ 661م.	- عَمْرو بن العَاص (للمرة الثانية) 38هـ/ 658م. - عَبْدُ اللَّه ابن عَمْرو 43هـ/ 664م[1]. - عُتْبَة بن أبي سُفْيان 44هـ/ 664م[2]. - عُقْبَةُ بن عَامِر الجُهَنِيّ 45هـ/ 665م. - مَسْلَمَةُ بن مَخْلَد 47هـ/ 667م[3].	- مُعاوِية ابن حُدَيْج. - السَّائِبُ ابن هِشَام.		- سُلَيم ابن عِتْر. - السَّائِبُ بن هِشَام[4].	- خَارِجَة ابن حُذَيْفَة. - عَبْدُ اللّه ابن قَيْس ابن الحَارِث. - السَّائب ابن هِشَام.

(1) لم يذكر زامباور، عبد الله بن عمرو، فجعل عتبة بن أبي سفيان تاليًا لعمرو بن العاص في ذي القعدة 43هـ، ج1 / ص 38 (المترجم).

(2) هو شقيق الخليفة معاوية، وقد جعل الطبري في روايته، عبد الله يخلف والده عمرو عام 664م، ويتولى حكم مصر حتى عام 667م (47هـ)، ثم تم استبداله بمعاوية بن حديج (47 – 50هـ)، الذي تبعه مسلمة في 670م (50هـ)، حيث تجاهل الطبري عتبة وعقبة، وقد اعتمد كل من البلاذري وأبو المحاسن على هذه الرواية. إلا أن الخلل الوحيد الذي يشوب رواية الطبري هو ملاحظاته القليلة عن ولاة مصر، وتنطبق هذه الملاحظة أيضًا على المؤرخ التالي له، ابن الأثير.

(3) ذكر زامباور، محمد بن مسلمة تاليًا لمسلمة بن مخلد بعد أن توفي في 25 رجب عام 62هـ، ثم تبعه سعيد بن زيد في رمضان من نفس العام، ج1/ ص 38 (المترجم).

(4) وفقاً لرواية الكندي، تولى عابس بن سعيد القضاء في ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري، وليس السائب بن هشام (المترجم).

- يَزِيدُ بن مُعاوية، (عَبْدُ اللَّه ابن الزُّبَيْر) 60هـ/ 680م.	- سَعِيدُ بن يَزِيد الأَزْدِيّ 62هـ/ 682م.	- عَابس.		- عَابس.	
- مَرْوان بن الحَكَم 63هـ/ 683م.	- عَبْدُ الرَّحْمَن ابن عُتْبَة ابن جَحْدَم القُرَشيّ 64هـ/ 684م(1).	"		"	
- عَبْدُ المَلِك ابن مَرْوان 65هـ/ 685م.	- عَبْدُ العَزِيز بن مَرْوان 65هـ/ 685م(2).	- عَمْرو ابن سَعِيد. - يُونُس بن عَطِيَّة. - عَبْد الرَّحْمَن ابن مُعاوية.	- عَبْد الرَّحْمَن ابن حُجَيْرة الخَوْلاني.	- بَشِير بن النَّضْر. - عَبْد الرَّحْمَن بن حُجَيْرة. - مَالِك بن شُرَحْبِيل. - يُونُس بن عَطِيَّة(3). - عَبْد الرَّحْمَن بن مُعاوية بن حُدَيْج.	
	- عَبْدُ اللَّه بن عَبْد المَلِك 86هـ/ 705م(4).	- عِمْرَان بن شُرَحْبِيل.		- عِمْرَان بن شُرَحْبِيل.	- عَبْدُ الرَّحْمَن ابن عَمْرو.

(1) تولى من قِبَل عبد الله بن الزبير، انظر: زامباور، ج1/ ص 38 (المترجم).

(2) هو شقيق الخليفة عبد الملك بن مروان.

(3) وفقًا لرواية الكندي، تولى بعد يونس القضاء، أوس بن عبد الله بن عطية عام 86هـ، ثم تلاه عبد الرحمن بن معاوية في نفس العام (المترجم).

(4) هو ابن الخليفة عبد الملك.

- الوَليدُ بن عَبْد المَلِك 86هـ / 705م.	- قُرَّة بن شَريك العَبْسِيّ 90هـ / 709م[1]. - عَبْد المَلِك بن رِفَاعَة الفَهْمي 96هـ / 714م.	- عَبْدُ الأَعْلَى ابن خَالِد. - الوَلِيدُ ابن رِفاعَة.	- أُسَامة بن زَيد[2].	- عَبْدُ الأَعْلَى بن خالِد. - عَبْدُ اللَّه ابن عَبْد الرَّحْمَن بن حُجَيرة. - عِياض بن عُبَيْد اللَّه ابن حُجَيرة (مرة أخرى)[3].	

(1) عُثر على ختم زجاجي (لقياس السعة) باسم قرّة بن شريك، تم نشره بواسطة كزانوفا Casanova في كتاب (Mem.de la Miss. Archeol. De Caire,vi. P. 367).

(2) توجد صنج زجاجية باسم أسامة بن زيد بالمتحف البريطاني(Lane-Poole, Catalogue of Arabic Glass Weights in the B M., No. 2)، وقد تم ذكر أسامة بن زيد كوالٍ لمصر في 102هـ (720 – 721م) من قِبَل ابن الأثير، إلا أن بعض المؤرخين لا يعتبرونه واليًا في هذه السنة.

(3) عبارة (مرة أخرى) هنا من قِبَل المؤلف تعني على الأرجح عام 99هـ أي أثناء حكم الخليفة سليمان بن عبد الملك، لأن عياض كان قد تولى القضاء لأول مرة عام 93هـ وتبعاً لرواية الكندي تولى عبد الله بن حجيرة القضاء مرة أخرى عام 97هـ أثناء ولاية عبد الملك الفهمي لمصر، ثم تبعه عياض بعد ذلك، الكندي، كتاب الولاة والقضاة، ص 332 ، 333 (المترجم).

- سُلَيْمان بن عَبْد المَلك 96هـ/ 715م.					
- عُمَر بن عَبْد العَزيز 99هـ/ 717م.	- أَيُّوب بن شُرَحْبيل الأَصْبُحيّ 99هـ/ 717م.	- الحَسَنُ ابن يَزيد.	- حَيّان بن شُرَيْح[1].	- ....[2]	
- يَزيد الثاني (ابن عَبْد المَلك) 101هـ/ 720م.	- بِشْرُ بن صَفْوان الكَلْبِي 101هـ/ 720م.	- شُعَيْب ابن الحُمَيْد.			
	- حَنْظَلَة بن صَفْوان 102هـ/ 721م.	"	- عُبَيْدُ اللّه بن الحَبْحاب[3].	- يَحْيى بن مَيْمون.	- عُقْبَةُ بن مَسْلَمَة.
- هِشامُ بن عَبْد المَلك 105هـ/ 724م.	- مُحَمَّدُ بن عَبْد المَلك بن مَرْوان 105هـ/ 724م.	- حَفْصُ ابن الوَليد.	"	"	
	- الحُرّ بن يُوسُف 105هـ/ 742م.	"	"	"	- حَفْصُ بن الوَليد.
	- حَفْصُ بن الوَليد 108هـ/ 727م.		"	"	

(1) توجد صنج زجاجية باسم حيّان بن شُريح بالمتحف البريطاني.

(2) لم يذكر المؤلف متولي القضاء في عهد الخليفة عمر على الرغم من ذكره في رواية الكندي، يقول الكندي: « ثم ولي القضاء بها عبد الله بن يزيد بن خزامر من قِبَل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز....وقال: كان وفد من أهل مصر وفدوا على سليمان ابن عبد الملك وفيهم ابن خزامر الصناعيّ مولى سبأ، فسألهم سليمان عن شيء من أهل المغرب فأخبروه وأبى ابن خزامر أن يتكلم، فلما خرجوا قال له عمر بن عبد العزيز: ما منعك من الكلام يا أبا مسعود؟ قال: خفت الله أن أكذب. فعرفها له عمر، فلما وليَ كتب إلى أيوب بن شرحبيل بولاية ابن خزامر القضاء فوليه من سنة مائة إلى سنة خمس ومائة»، الكندي، كتاب الولاة، ص 337 ، 338 (المترجم).

(3) توجد العديد من الصنج والأختام الزجاجية باسم عبيد الله بن الحبحاب، بالمتحف البريطاني، منها ما هو مؤرخ بسنة 111هـ (729 – 730م) (Catal, B.M., p. 108).

- تابع... هِشَام	- عَبْـدُ المَلِـك ابـن رفَـاعَة (للمرة الثانيـة) 109هـ/ 727م.		- عُبَيْدُ اللَّه بن الحَبْحَاب.	- يَحْيَى بن مَيْمون.	
	- الوَلِيد بن رِفَاعَة الفَهْمِيّ 109هـ/ 727م.	- عَبْدُ اللَّه ابن سُمَير الفَهْمِيّ.	‘‘	‘‘	
		- عَبْـدُ الرَّحْمَـن ابن خَـالِد الفَهْمِيّ.	‘‘	- الخَيار بن خَالِد[3].	
			- وَهيب بن اليَحْصُبِي.	- تَوْبَـة ابن نَمِر.	
	- عَبْـدُ الرَّحْمَـن ابن خَالِد الفَهْمِيّ 117هـ/ 735م.	- عَبْد الله ابن يسار الفَهْمِيّ.		‘‘	
	- حَنْظَلَة بن صَفْوان (للمـرة الثانيـة) 119هـ/ 737م.	- عِياض ابن حُرِيبة الكَلْبِيّ.	- القَاسِمُ بن عُبَيْدُ اللَّه بن الحَبْحَاب[2].	‘‘	
	- حَفْصُ بن الوَلِيد (للمـرة الثانيـة) 124هـ/ 742م[1].	- عُقْبَـة ابن نُعَيْم الرُّعَيْنِي.		- خَيْـر ابن نُعَيْم. ‘‘	- خَيْـر بن نُعَيْم. - عُقْبَـة بن نُعَيْم.
- الوَلِيـد الثـاني (ابـن يَـزِيـد) 125هـ/ 743م.					

(1) الأختام الزجاجية والصنج باسم حفص بن الوليد نشرت في (B.M. Catalogue, and Casanova, Collection Fouquet).

(2) وفقًا للمقريزي تولى بين عامي 114 – 116هـ، بينما تعطى الصنج والأختام الزجاجية المحفوظة في المتحف البريطاني (رقم 4) تاريخ 119 – 122هـ والذي يوافق 733 – 740م.

(3) تبعًا لرواية الكندي، تولى يزيد بن عبد الله بن خزامر القضاء للمرة الثانية قبل الخيار ابن خالد عام 114هـ (المترجم).

- يَزِيد الثالث (ابن الوَلِيد 126هـ/ 744م.			- عِيسَى بن أبي عَطاء.	- خَيْرُ ابن نُعَيْم.	
- إبْراهيم (ابن الوَلِيد) 126هـ/ 744م.				"	
- مَرْوانُ الثاني (ابن مُحَمَّد) 127هـ/ 744م.	- حَسَّانُ بن عَتاهِية التُجيبي 127هـ/ 745م.			"	
	- حَفْصُ بن الوَلِيد (للمرة الثالثة) 127هـ/ 745م.			"	
	- الحَوْثَرةُ بن سُهَيْل البَاهِلي 128هـ/ 745م.		"	-عَبْدُالرَّحْمَن ابن سَالِم.	- حَسَّان بن عَتاهِية.
	- المُغِيرَة بن عُبَيْد اللّه الفَزَارِيّ 131هـ/ 749م.	- عَبْدُ اللَّه بن المُغِيرَة.		"	
		- عَبْدُ اللّه ابن عَبْد الرَّحْمَن ابن حُدَيْج.	- عَبْدُ المَلِك ابن مَرْوان.	"	
	- [1]عَبْدُ المَلِك ابن مَرْوان (بن مُوسَى بن نُصَيْر) اللَخْميّ 123هـ/ 750م[2].	- مَرْوان بن مَرْوان. - عِكْرِمَة ابن عَبْد الله.		"	

(1) بجانب الصنج الزجاجية والأختام التي تحمل اسم عبد الملك، هناك أيضًا نقود تحمل اسمه في المتحف البريطاني فضلاً عن مصر، البعض من هذه النقود يحمل اسم مصر على أحد الوجوه، وعلى الوجه الآخر اسم الفسطاط، وأخرى تحمل اسم مصر وعلى الوجه الآخر الإسكندرية، Lane – Poole, Cat.Ar. Coins in Khediv. Coll. Pp. 114, 115.

(2) أختام زجاجية وصنج تحمل أسماء هؤلاء الموظفين، تم نشرها في: (B.M. Cat-logue, and Casanova, Collection Fouquet).

تحت حكم الخلفاء العباسيين

الخلفاء	الولاة	قادة الحرب	المالية	القضاء	نائب الوالي
-(أبو العَبَاس) الشَفَّاح 132هـ/750م.	- صَالِح بن عليّ العَبَّاسِيّ 133هـ/750م[1].	- يَزِيدُ بن هَانِئ.	-عَبْدُالرَّحْمَن ابن سَالِم.	- خَيْرُ ابن نُعَيْم.	
	- أبو عَوْن ابن عَبْد المَلِك 133هـ/751م.	- عِكْرِمَةُ بن عَبْد اللَّه[3].	- عَطاء بن شُرَحْبِيل.	- غَوْث بن سَلَيْمان.	- عِكْرِمَةُ ابن عَبْداللَّه.
	- صَالِح بن عَليّ (للمرة الثانية) 136هـ/753م.	"	"	"	- الفَضْلُ ابن صَالِح ابن عَليّ[1].
- (أبو جَعْفَر) المَنْصُور 136هـ/754م.	- أبو عَوْن (للمرة الثانية) 137هـ/754م.	"	"	-أبو خُزَيْمَة.	
	- مُوسَى ابن كَعْب التَمِيمِيّ 141هـ/758م[1].	"	- نُوفَل بن الفُرات[1].	"	- خَالِد ابن حَبِيب.
	- مُحَمَّد بن الأَشْعَث الخُزَاعِيّ 141هـ/759م[1].	- المُهَاجِر ابن عُثْمان[1].	"	"	
	- حُمَيْد بن قَحْطَبَة الطَائِيّ 143هـ/760م[2].	- مُحَمد بن مُعاوية.	"	- غَوْث.	
	- يَزِيد بن حَاتِم المُهَلَّبِيّ 144هـ/762م.	- عَبْد الله بن عَبْدالرَّحْمَن ابن حُدَيْج.	- مُعاوية بن مَرْوان.	-أبو خُزَيْمَة.	- عَبْدُ اللَّه ابن عَبْد الرَّحْمَن ابن حُدَيْج.

(1) صنج زجاجية وأختام تحمل أسماء هؤلاء الموظفين، تم نشرها في (B.M. Catalogue, and Casanova, Collection Fouquet).

(2) ذكر زامباور أن ولاية حُميد بدأت في رمضان من عام 143هـ، بعد نوفل بن الفرات الذي تولى قبله عام 142هـ، وفي رواية الكندي تولى حميد بعد محمد بن الأشعث عام 143هـ (المترجم).

(3) كان يزيد قائداً في (العسكر)، بينما كان عكرمة في الفسطاط.

- تابع... المنصور	- عَبْدُ اللَّه ابن مُعاوية ابن حُدَيْج 152هـ/ 769م[1].			- أبو خُزَيْمَة.	- مُحَمَّد بن عَبْدالرَّحْمَن ابن حُدَيْج.
				- عَبْدُ اللَّه ابن لَهِيعَة.	
	- مُحَمَّدُ بن عَبْد الرَّحْمَن 155هـ/ 772م.	- العَبَّاس ابن عَبْد الرَّحْمَن.		،،	
	- مُوسَى بن عَلِيّ اللَّخمي 155هـ/ 772م[2].	- أبو الصَّهْبَاء ابن حَسَّان الكَلْبِيّ.		،،	
- المَهْدِي 158هـ/ 775م.	- عِيسَى بن لُقْمَان 161هـ/ 778م[3].			،،	
	- وَاضِحُ[4]. (مَوْلَى المَهْدِي) 162هـ/ 779م[5].	- مُوسَى بن زُرَيق.		،،	
	- مَنْصُور بن يزيد الرُّعَيْني 162هـ/ 779م.	- هَاشِم بن عَبْد اللَّه.			
		- عَبْدُ الأَعْلَى ابن سَعيد.		،،	
	- أبو صَالح يَحْيَى (ابن ممدود) 162هـ/ 779م.	- عَسَّامة بن عَمْرو.		،،	

(1) وفقًا لزامباور، تولى محمد بن سعيد بعد يزيد بن حاتم في ربيع الثاني عام 152هـ، ثم تبعه عبد الله بن حديج في 18 ربيع الثاني من نفس العام (المترجم).

(2) وفقًا لزامباور، تولى قبله في نفس العام عبد الصمد بن علـيّ بن عبد الله بن العباس (المترجم).

(3) وفقًا لزامباور، تولى قبله في نفس العام، (مطر) مولى المنصور، ثم أبو ضمرة محمد ابن سليمان (المترجم).

(4) وفقا لزامباور، تولى قبله في نفس العام، أبو ضمرة للمرة الثانية، ثم سلمة بن رجا (المترجم).

(5) العديد من الصنج الزجاجية والأختام التي تحمل أسماء هؤلاء الموظفين، قد تم نشرها في: (B.M. Catalogue, Collection Fouquet).

-تابع...المَهْدِي	- سَالِم بن سَوادة التَّميميّ 164هـ/ 780م.	- الأَخْضَر ابن مَرْوان.	- أبو قطيفة إسماعيل[2].	-إسْماعيل ابن اليَسَع. - غَوْث.	
	- إبْراهيم ابن صَالِح ابن عليّ العَبَّاسي 165هـ/ 781م[1].	- عَشَّامة بن عَمْرو.		“	
	- مُوسَى بن مُصْعَب 167هـ/ 784م.	“		“	
	- عَسَّامة بن عَمْرو 168هـ/ 785م.			- المُفَضْل ابن فَضالة.	
	- الفَضْل بن صَالِح بن عليّ العَبَّاسي 169هـ/ 785م[2].	“		- أبو طَاهِر الأَعْرَج.	
- الهَادِي 169هـ/ 785م.	- عليّ بن سُلَيْمان بن عليّ العَبَّاسي 169هـ/ 786م.	-عَبْدُالرَّحْمَن ابن مُوسَى (اللَّخمي). - الحَسَنُ بن يَزيد (الكِنْديّ).		“	

(1) توجد عملة باسم إبراهيم ضربت في عام 167هـ/ 783م، قد تم نشرها في: (Cat. Cairo, 863) وأيضًا صنج وأختام زجاجية في (B.M., Fouquet).

(2) العديد من الصنج الزجاجية والأختام التي تحمل أسماء هؤلاء الموظفين، قد تم نشرها في: (B.M. Catalogue, Collection Fouquet).

- الرَّشيد 170هـ/ 786م.	- مُوسَى بن عِيسَى العَباسيّ 171هـ/ 787م.	- إسْماعيل بن عِيسَى. - عَسَّامة ابن عَمْرو.		- أبو طَاهِر الأَعْرَج.	
	- مَسْلَمَة بن يَحْيَى البَجَليّ 172هـ/ 789م.	- عَبْدُ الرَّحْمَن بن مَسْلَمَة.		"	
	- مُحَمَّد بن زُهَير الأَزْديّ 173هـ/ 789م.	- حَبيب ابن أَبان (البَجَلي).	- عُمَر ابن غِيلان.	"	
	- داوُد بن يَزيد ابن حَاتِم المُهَلَّبيّ 174هـ/ 790م.	- عَمَّارُ ابن مُسْلِم (الطائيّ).	- إبْراهيم ابن صَالح.	" - المُفَضَّل ابن فَضَالَة.	
	- مُوسَى بن عِيسَى العَبَّاسيّ (للمرة الثانية) 175هـ/ 791م.		- نَصْر بن كُلْثوم.	"	
	- إبْراهيم بن صَالح العَبَّاسيّ (للمرة الثانية) 176هـ/ 792م.	- خَالِد ابن يَزيد (المُهلبيّ).	"	"	- عَسَّامة ابن عَمْرو.
	- عَبْدُ اللّه ابن المُسَيَّب (الضَّبيّ) 176هـ/ 793م.	- أبو المكيس.		" - مُحَمَّد ابن مَسروق (الكِنْدي).	
	- إسْحَاق بن سُلَيْمان بن علىّ العَبَّاسيّ 177هـ/ 793م.	- مُسْلِم ابن بكّار العُقَيْليّ.		"	

-تابع... الرَّشيد	- هَرْثَمَة بن أَعْيَن 178هـ/ 794م.			"	
	- عَبْد المَلِك ابن صالح بن عليّ العباسيّ (حاكم فخري) 178هـ/ 794م.			"	- عَبْدُ اللَّه بن المُسَيَّب.
	- عُبَيْدُ اللَّه ابن المَهْدي العَبَّاسيّ (للمرة الثانية) 179هـ/ 795م.				
	-مُوسَى بن عِيسَى (للمرة الثالثة) 179هـ/ 796هـ	- عَمَّار بن مُسْلِم.		"	
	- عُبَيْدُ اللَّه ابن المَهْدي (للمرة الثانية) 180هـ/ 796م.	- سُلَيْمان ابن الصِمَّة (المُهلَّبيّ).		"	- دَاوُد بن حبيث.
	- إسْماعيل ابن صَالح ابن عليّ العَبَّاسيّ 181هـ/797م[1].			"	- عَوْن بن وَهْب.
	- إسْماعيل بن عيسَى بن مُوسَى العَبَّاسي 182هـ/ 798م.	- زَيْد بن عَبْد العَزيز (الغَسَّانيّ).		"	
	- اللَّيْث بن الفَضْل 182هـ/ 799م.	- عليّ ابن الفَضْل.	- مَحْفُوظ ابن سُلَيم.	- إسْحَاق بن الفُرات.	- عليّ بن الفَضْل.

(1) توجد صنجة زجاجية باسم إسماعيل في المتحف البريطاني (Cat, 23)، لكنها ترجع إلى الوقت الذي كان فيه محتسبًا لمصر في عهد الخليفة المهديّ.

- تابع... الرّشيد				- عَبْدُ الرَّحْمَن ابن عَبْد الله.	- هَاشِم بن عَبْد الله.
	- أَحْمَد بن إسْماعيل بن عليّ العَبَّاسيّ 187هـ/ 803م.	- مُعَاوية ابن صُرَد.			- عَبْد الرَحْمَن ابن مُوسَى.
				"	
	- عُبَيْدُ الله (ابن زينب) العَبَّاسيّ 189هـ/ 805م.	- أَحْمَد ابن مُوسَى.		"	- هَاشِم بن عَبْد الله.
		- مُحَمَّد ابن عَسَّامة.		"	
	- الحُسَين ابن جَميل 190هـ/ 806م.	- الكَامِل الهُنائي.		"	
	- مَالِك بن دَلْهَم الكَلْبيّ 192هـ/ 807م.	- مُحَمَّد ابن تَوْبَة.		"	- العَلاء بن عَاصِم.
	- الحَسَنُ ابن التَّختاح 193هـ/ 809م.	- مُحَمَّد ابن خَالِد.	- مُحَمَّد بن زياد.		
- الأمين 193هـ/ 809م.		- صَالِح بن عَبْد الكريم.			- عَوْف بن وَهيب.
	- حَاتِم بن هَرْثَمَة بن أعْيَن 194هـ/ 810م.	- سُلَيْمَان ابن غَالِب.		"	
		- عليّ ابن المُثَنَّى.			
	- جَابِرُ بن الأَشْعَث الطَّائيّ 195هـ/ 812م.	- عُبَيْد الله الطَرسُوسي.		- قَاسِم البَكْري.	
				- إبْراهيم ابن البَكّاء (البَجَليّ).	
	- عَبَّاد البَلْخيّ(1). 196هـ/ 812م(2).	- هُبَيرة ابن هَاشِم ابن خديج.		- لَهيعَة الحَضْرميّ.	

(1) توجد عملات ذهبية باسم (عبّاد) مؤرخة بأعوام 196، 197، 198هـ (812 – 813م) بمجموعة القاهرة.

(2) وفقاً لزامباور، تولى عبّاد البَلْخي من قِبَل المأمون في 8 رجب عام 196هـ بعد ربيعة ابن قيس الذي تولى من قِبَل الأمين في نفس العام (المترجم).

- المَأمُون 198هـ/ 813م.	- المُطَّلب الخُزَاعيّ 198هـ/813م[1].	"		"	
	- العَبَّاس بن مُوسَى بن عِيسَى العَبَّاسيّ 198هـ/814م[2].	"		"	
	- المُطَّلب (للمرة الثانية) 199هـ/ 815م.	"		"	
	- السَّرِيّ بن الحَكَم 200هـ/ 816م[3].	- مُحَمد ابن عَسَّامة.		"	
	- سُلَيْمان بن غَالب البَجَليّ 200هـ/ 816م[4].	- أبو بكْر ابن جُنَادة. - العَبَّاس ابن لَهِيعَة.		"	
	- السَّريّ (للمرة الثانية) 201هـ/ 817م.	- مُحَمد ابن عَسَّامة. - الحَارث ابن زُرْعَة. - مَيمُون ابن السَّريّ. - ابن المُخَارق (التميميّ).		" - إبراهيم ابن إسْحَاق. - إبراهيم ابن الجَرَّاح.	
	- مُحَمد بن السَّريّ 205هـ[5].	- مُحَمَّد بن قَابس[6].		"	

(1) توجد عملات ذهبية باسم (المطلب)، مؤرخة بعامي 198هـ 199هـ (813-815م)، وأخرى فضية مؤرخة بعام 199هـ في المتحف البريطاني ومجموعة القاهرة.
(2) توجد عملة ذهبية باسم (العباس) مؤرخة بعام 198هـ بمجموعة القاهرة.
(3) توجد عملة ذهبية باسم (السري) مؤرخة بأعوام 200، 201، 202، 203، 204، 205هـ (815- 820م) في المتحف البريطاني وبالقاهرة أو في مجموعة أرتين باشا.
(4) لم يذكره زامباور فيمن تولى منصب الولاية، حيث جعل محمد بن السري بعد السري ابن الحكم مباشرة (المترجم).
(5) توجد عملات ذهبية باسم محمد بن السري مؤرخة بأعوام 205، 206هـ (820 - 822م) في المتحف البريطاني، وبالقاهرة، ومجموعة الأرميتاج.
(6) في رواية الكندي، محمد بن قشاش، (كتاب الولاة، ص172)، أما في رواية أبي المحاسن، محمد بن قابس (النجوم الزاهرة، ج1/ ص 589) (المترجم).

- تابع... المأمون	- عُبَيْدُ اللَّه ابن السَّريّ 206هـ[1].	- عُبَيْدُ اللَّه ابن السَّريّ. - محمد (المَعافري)[2].		- إبراهيم ابن الجَرَّاح.	
	- عَبْدُ اللَّه ابن طَاهر 211هـ/ 826م.	- مُعاذ ابن عَزيز. - عَبْدَوَيْه ابن جَبَلَة.		- عيسَى بن المُنْكَدِر.	
	- عِيسَى الجُلُوديّ 213هـ/ 827.	- مُحَمَّد بن عِيسَى الجُلُوديّ.	- صالح بن شيرزاد.	،،	- المُعْتَصِم.
	- عُمَيْر بن الوَليد التَّميميّ 214هـ/ 829م.	- مُحَمَّد ابن عُمَير.		،،	
	- عيسَى بن يَزيد (للمرة الثانية) 214هـ/ 829م.			،،	
	- المُعْتَصِم العَبَّاسيّ 214هـ/ 829م.			- (لا يوجد قاضٍ).	
	- عَبْدَوَيْه بن جَبَلَة 215هـ/ 830م.	- ابن عَبْدَوَيْه.			
	- عِيسَى بن مَنْصور 216هـ/ 831م.	- يُونُس[3].			
	- المَأْمُون (الخليفة) 217هـ/ 832م.				
	- نَصْر بن عَبْد الله (كَيْدَر) 217هـ/ 832م.	- ابن إسنديار. - المُظَفَّر ابن كَيْدَر.			- هارون الزُّهَريّ.

(1) توجد عملات ذهبية باسم (عبيد الله)، مؤرخة بأعوام 206، 207، 208، 209، 210هـ (821 - 826م)، بالمتحف البريطاني ومجموعة القاهرة.

(2) ورد باسم محمد بن عقبة، في النجوم الزاهرة، ج1/ ص 593، وفي رواية الكندي باسم محمد بن عُتبة، كتاب الولاة ص 173 (المترجم).

(3) كان يونس هو صاحب الشرطة في ولاية عيسى بن منصور تبعًا لرواية أبي المحاسن، أما في رواية الكندي فكان أبا مغيث موسى بن ابراهيم، انظر: كتاب الولاة ص 190، النجوم الزاهرة ج1/ ص 633 (المترجم) .

- المُعْتَصِم 218هـ/ 833م.	- المُظَفَّر بن كَيْدَر 219هـ/ 834م.			”	- أشناس[1].
	- مُوسَى الحَنَفِيّ 219هـ/ 834م.			”	
	- مَالِك بن كَيْدَر 224هـ/ 839م.				
	- عليّ بن يَحْيَى الأَرْمَنِيّ 226هـ/ 841م.		- أبو الوزير.	- مُحَمد ابن أبي اللَيث	
- الوَاثِق 227هـ/ 842م.	- عِيسَى بن المَنْصُور (للمرة الثانية) 229هـ/ 843م.			”	
- المُتَوكِّل 232هـ/ 847م.	- هَرْثَمَة بن النَّضْر 233هـ/ 847م.	- أبو قتيبة.		”	- إيتاش[2].
	- حَاتِم بن هَرْثَمَة 234هـ/ 849م.			”	
	- عليّ بن يَحْيَى (للمرة الثانية) 234هـ/ 849م.	- مُعَاوية ابن نُعَيْم.			- المُنْتَصر.
	- إسْحَاق ابن يَحْيَى 235هـ/ 850م.	- الحَجَّاجي.		”	
	- عَبْد الواحد ابن يَحْيَى 236هـ/ 851م.	- مُحَمد بن سُلَيْمان البَجَلي.		- الحارث ابن مسكين.	

(1) صنجة زجاجية باسم أشناس، تم ختمها رسميًا في مصر، مؤرخة بعام 223هـ (838م)، موجودة بالمتحف البريطاني (Cat,.2, g).

(2) ذكر في بعض المصادر (إيتاخ) (المترجم).

- تابع... المُتَوَكِّل	- عَنْبَسة ابن إسْحاق 238هـ/ 852م.	- مُحَمَّد القُمّيّ.	- أَحْمَد بن خَالِد.	،،	
	- يَزِيد بن عَبْد اللَّه التركيّ 242هـ/ 856م.		- أَحْمَد بن المُدَبِّر.	-بَكَّار ابن قُتَيبة.	
- المُنْتَصِر 247هـ/ 861م.					- الفَتْحُ بن خاقان.
- المُسْتَعِين 248هـ/ 862م.					
- المُعْتَز 252هـ/ 866م.	- مُزاحِم ابن خاقان (التركيّ) 253هـ/ 867م.	- أَرْجوز ابن أولغ طَرْخان.	،،	،،	
	- أَحْمَد بن مُزاحِم 254هـ/ 868م.		،،	،،	
	- أَرْجوز طَرْخان 254هـ/ 868م.		،،	،،	- بَكْباك.

الفصل الثالث
الطُّولُونِيُّون والإخْشِيدِيُّون

254-358هـ/ 868-969م

العبيد الأتراك - أحمد بن طولون - القطائع - منشآت ابن طولون - ضم سوريا - توسع الحدود - تمرد عباس - الصراع مع الموفق - موت ابن طولون - شخصيته - خمارويه - الانتصار في العراق - رفاهية خمارويه - جيش بن خمارويه - هارون وشيبان - الفتح العباسي - تمرد خلنجي - الولاة العباسيون - الغزو الفاطمي - الارتباك في مصر - محمد الإخشيد - الحرب في سوريا - العلاقات مع الخليفة - الحرب مع الحمدانيين - المسعودي في مصر - أبناء الإخشيد - كافور - رفاهية البلاط - استرجاع - الأدب.



الفصل الثالث
الطُّولونيُّون والإخْشِيديُّون
254-358هـ/ 868-969م

المصــادر[1]: المســعودي[2]، جمــال الديــن الحلبــي[3]، ابــن الأثير[4]، ابن خلكان، المقريزي، أبو المحاسن، السيوطي، ابن خلدون[5].

---

(1) أهم المؤرخين الذين عاصروا الدولة الطولونية وكتبوا بإسهاب عنها كان أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية (ت 339هـ/ 951م)؛ حيث كانت له عدة مؤلفات منها: سيرة أحمد بن طولون وسيرة خمارويه بن أحمد وسيرة هارون بن خمارويه، ولكن للأسف فُقدت كل هذه المؤلفات عدا كتاب سيرة أحمد بن طولون الذي وصلنا عن طريق ابن سعيد الأندلسيّ (ت 685هـ/ 1286م) في كتابه (المغرب في حلـيّ المغرب) تحت عنوان: (كتاب الدر المكنون في حلى دولة بني طولون)، ثم يأتي كتاب (سيرة أحمد بن طولون) لمؤلفه عبد الله بن محمد المديني البلوي (ت في القرن الرابع الهجري) والذي حققه ونشره لأول مرة الأستاذ محمد كرد علـيّ عام 1939م، إلا أن هذا الكتاب أيضًا قد اعتمد اعتمادًا مباشرًا على كتاب ابن الدَّاية ونقل معظم رواياته. (المترجم).

(2) المسعودي، أبو الحسن علـيّ بن الحسين (ت 346هـ/ 957م)، كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر (المترجم).

(3) ابن ظافر، جمال الدين علـيّ بن ظافر الأزديّ (ت 612هـ/ 1215م)، كتاب أخبار الدول المنقطعة (المترجم).

(4) ابن الأثير الجزريّ، أبو الحسن علـيّ بن محمد (ت 630هـ/ 1233م)، كتاب الكامل في التاريخ (المترجم).

(5) ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/ 1406م)، كتاب العبر (تاريخ ابن خلدون). (المترجم).

آثـار: جامـع ابن طولـون، قناطر المياه جنـوب القاهـرة، مقياس جديد للنيل في الروضة.

نقوش: جامع، مقياس للنيل، شـواهد قبور، وثيقتيّ ملكية حانوتين من الخشب (راجع: فان بيرشيم، Corpus inscr. Arab.).

عملات: دار ضرب: مدينة مصر (الفسـطاط)، دمشـق، حلب، حمص، أنطاكية، حرَّان، الرافقة، فلسطين (الرملة).

أصبـح ولاة مِصْـر أتراكًا منـذ عام 223هــ/ 836م، ومنذ عشـرين عامًا خلت من هذا التاريخ، اسـتمر منح الإقليم كإقطـاع للأتراك المتعاقبين في بَغْـداد، والذيـن عَينوا الـولاة ليقوموا بـإدارة البلاد بالنيابة عنهـم. كان هذا التغيير من الحكم العربيّ إلى التركيّ جزءًا من ثورة عم الشـعور بها أغلب أرجاء الخلافة، والتي أدت بدورها إلى القضاء على السـلطة الدنيوية لأمير المؤمنيـن. فمنذ ذلك الوقت الذي دخل فيـه العرب في اتصال مع الأتراك عنـد جَيْحُون Oxus (أو ما وراء النهر) وحملوهـم تحت لوائهم، علا تقدير العبيـد الأتـراك إلى أقصى مـدى في بيوت المسـلمين[1].. حـازت قوتهم البدنية ووسـامتهم وشـجاعتهم وإخلاصهم على ثقة الأمراء الكبار، خاصة الخلفـاء الذين اعتقدوا أنهم يسـتطيعون أن يعتمدوا بصـورة أكثر أمنًا على تفانـي هؤلاء الغربـاء المماليك، أكثر من اعتمادهـم علـى العرب الغيورين المنتميـن إليهـم، أو الفرس الذين قطنوا بينهـم، والذين كان لهم حتى ذلك

(1) راجع: و. بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، هيئة الكتاب – القاهرة 1996م، آدم متز، ص 295 : 318 (المترجم).

الوقت نصيب كبير في إدارة الإمبراطورية[1]. عادة ما نال العبد التركي الشاب الذي خدم سيده بإخلاص حريته وشغل مناصب رفيعة في البلاط، فكثيرًا ما عجز الخلفاء عن تهدئة الجانب التمرديّ من شخصيات الأمراء المحليين إلا عن طريق منحهم امتيازات خاصة وحقوق إقليمية؛ مما قاد تدريجيًّا إلى خطأ عكسيّ أدى إلى إبعاد الخلفاء لرعاياهم الأكثر قوة، ومنح كل ثقتهم لأولئك العبيد الغرباء، والذين نالوا بهذه الطريقة السيطرة الكاملة على الشئون الداخلية للقصر. سُرعان ما صار هؤلاء العبيد البيض الأميين الذين اتسموا بالهمجية (أو المماليك) - المندرجين الآن داخل مجتمع من الحكام المتعلمين لإمبراطورية كبيرة - مُلِمِّين بالشريعة القرآنية. لقد تبنوا لغة ودين أسيادهم و درسوا العلوم والسياسة؛ لذا كان يتم تحريرهم إذا صاروا مؤهلين لتولي المهام الأكثر صعوبة أو لشغل الوظائف الأكثر بروزًا في البلاط؛ ومن ثمَّ كانوا يعينون بواحد من المناصب الحكومية العديدة طبقًا للمواهب التي أبرزوها. هكذا فإن الأتراك المحررين لم يُعينوا فحسب في المناصب الرئيسية للقصر، بل في حكم بعض الأقاليم البالغة الأهمية في الإمبراطورية[2]. ليس هذا فحسب، بل تم تأليف حاشية

---

(1) ازداد نفوذ الفرس في بلاط الخلافة في العصر العباسي، فكان منهم معظم الإداريين والوزراء الذين استبدوا بسلطتي السيف والقلم، مزيدًا عن هذا الموضوع، راجع: أحمد أمين، ضحى الإسلام، القاهرة 1997م، ج1/ ص 35 : 67، 180 : 247، حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفرس والترك، الدار الثقافية للنشر - القاهرة 2001م، عبد المجيد الصغير، المعرفة والسلطة في التجربة الإسلامية، هيئة الكتاب - القاهرة 2010م، ص 88: 92 (المترجم).

(2) E. T. Rogers, Coins of Tülüni Dynasty (Numism. Orient. Iv.) 2.

خاصة منهم بواسطة الخليفة المعتصم بن هارون الرَّشيد، ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا كان لهم الدور الرئيسيّ في تنصيب وخلع الخلفاء؛ ومن ثمّ أبقوا على عهد قائم على الإرهاب والترويع في بغداد.

كان طُولُـون[1] أحد أولئك العبيـد - وهو تركيٌّ من قبيلة تغازغان Ta-Hazghan - الذين تم إرسالهم إلى بَغْداد مع آخرين، بواسطة حاكم بُخَارَى كهدية إلى الخليفة المَأْمُون عام 200هـ/ 815م، وقد ارتقى لمرتبة عالية في البـلاط[2]. وُلِـدَ ابنه (الحقيقي أو المُتبنى) أَحْمَد[3] - حاكم مِصْر مُسـتقبلًا - في رمضان سـنة 220هـ/ سـبتمبر 835م، وتلقى التعليـم الدقيق المعتاد فـي هذا العصر، ليس بدراسـة العربية والقرآن فحسـب، بل أيضًا الشـريعة والتوحيد طبقًا لتعاليم مدرسـة الإمام المسـلم الكبير أبي حَنيفة. ومع عدم الاكتفاء بالأسـاتذة البارعين في بَغْداد، زار طَرْسُوس Tarsus[4] عدة مرات

---

(1) انظر: ابن خلكان، ج1 / ص 173 ، 174.

(2) عندما مات طُولُون عام 240هـ، فوض الخليفة المتوكل ابنه أحمد فيما كان لأبيه من مكانة في الحرس الخلافي، انظر: البلوي، سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد كرد علي، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، ص 35 (المترجم).

(3) انظر ترجمته: الكندي، كتاب الولاة، ص 212: 233، ابن خلكان، ج 1 / ص 173، المقريزي، المقفى الكبير، ج1 / ص 220: 270 (المترجم).

(4) هي مدينة تقع جنوب تركيا الحالية على ساحل البحر المتوسط، كانت لها أهمية إستراتيجية في العصر الإسلامي نظرًا لوقوعها على تخوم الروم، ذكرها ياقوت أنها مدينة أحدثها الخليفة الرشيد في سنة نيف وتسعين ومائة، بثغور الشام بين أَنْطَاكية وحَلَب وبلاد الروم، وقد استولى عليها نَقْفور ملك الروم عام 354هـ، وذكر الحميري أن الذي ابتناها هو أبو مُسْلم فَرَج الخصي التركي مولى هارون الرشيد في جمادى سنة 170هـ، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 28، الحميري، الروض المعطار، ص 388 (المترجم).

للدراسة على يد معلمين خصوصيين، حتى صار هو نفسه مرجعًا في النقد والعقيدة[1]. وبالإضافة إلى ثقافته، فقد سعى بحب ومثابرة عظيمة في مسار التعليم العسكريّ المُقدَّم لصغار الأتراك في سامراء، مقر الخليفة الجديد على نهر دِجْلَة Tigris. وفي إحدى رحلاته من طَرْسُوس استطاع أن يهزم بعض اللصوص العرب وأن يُنقذ كنزًا ضخمًا أُحضِرَ من القُسْطَنْطِينية خصيصًا إلى الخليفة[2]؛ ولاحقًا تم اختياره لمصاحبة الخليفة المعزول (المُسْتَعين) إلى منفاه في واسِط. وقد رفض أَحْمَد ساخطًا حين عُرِضَت عليه رشوة كبيرة للتخلص من الخليفة، رغم ذلك لم يسفر ولاؤه عن أي بغض من قِبَل الأتراك، وحين تم تقديم الأمير باكْباك - الذي تزوج أرملة طُولُون في 240هـ/ 854م - لإقطاع مصر، أرسل ابن زوجته أَحْمَد كممثل له.

دخل أبو العَبَّاس أَحْمَد بن طُولون، الفُسْطاط في شوال 254هـ/ سبتمبر 868م عن عمر يناهز ثلاثة وثلاثين عامًا؛ حيث قَدم له صديق ثري مبلغ عشرة آلاف دينار للوفاء بنفقاته، فمن الظاهر أن الحاكم الجديد كان مفلسًا؛ ولأنه لم يتول أي منصب سابق فلم يتمرس على الوسائل الرسمية لابتزاز رعاياه، رغم ذلك فقد كان رجلًا يتمتع بقدرات عظيمة، وبصيرة نافذة للحكم على

(1) لم تكن زيارته للتعليم فقط، فقد ذكر المؤرخون أنه تولى بعض الأعمال العسكرية والإدارية في طَرْسُوس، وذلك عندما أراد الوزير عَبْد الله بن يَحْيَى بن خاقان استخدام عامل مخلص في هذه البلاد، إلا أنه عاد بعد مقتل الخليفة المتوكل وولاية المستعين عام 248هـ انظر: البلوي، ص 36، أبو المحاسن، ج3/ ص3 : 5 (المترجم).

(2) لم ينس الخليفة المستعين لابن طولون هذا الصنيع، فقربه إليه ووثق به، حتى أنه لما خُلع وَنُفيَ إلى واسط وطلب إليه أن يختار من الأتراك مَن يصاحبه في منفاه لم يختر إلا أحمد بن طولون، انظر: أبي المحاسن، ج3/ ص6 (المترجم).

الرجال، وسـرعان ما استطاع تفعيل سـلطته بصورة ملموسة. لقد كان لديه طوال فترة حكمه مسـاعدًا بارعًا في وزارته هو أحمد الواسـطي، لكن كان عليـه أولًا أن يتعامل مع خازن بيت المال (ابـن المُدَبِّر) المُختلِس الماكر، والـذي تمتـع بحرية التصـرف في الدخل لعدة سـنوات، فضلًا عن تمتعه بمنزلة فاق بها منزلة الحاكم، فقد كان يتبعه دائمًا حرس من الفرسـان بلغوا مائة من شـباب العبيد الأقوياء أبهياء الطلعة، مرتدين ملابس مُبهْرَجَة متقنة فـي تفصيلها، وعباءات فارسـية وسـياط مُزخرَفة بالفضـة. وطبقًا لمعاييره ورؤيته للحاكم الجديد، أرسـل الخازن عشـرة آلاف دينار كبقشيش صغير لابـن طُولون، إلا أنـه فوجئ بإعادتهم إليه، وسـرعان ما أبلغـه ابن طُولون أنه سـيقبل بالحرس بدلًا من المال، فاضطر خازن بيت المال أن يرسـل له مُرافقيه من العبيد. هكذا وعندما وجد أن سـلطته تتلاشـى مع أبهته، ناشـد الخليفـة أن يبعد ذلـك الحاكم الداهيـة؛ إلا أن ابن طُولون ظـل في مكانه. وبجانـب خصومه في الـوزارة كان لديه آخـرون، فقد ثـار العلويون غرب الإسـكندرية في 255هـ/ 869م؛ وحمل علويون آخرون السيف والنار في مقاطعة إسْـنا في الصعيد. وقد اسـتطاع إخماد المتمردين، لكن ليس بدون قتال عنيف؛ حيث تم إخراجهم بعد ذلك إلى الواحات.

خـلال ذلك الوقـت، قُطِعَـت رأس الحاكم الاسـميّ لمصـر (صاحب إقطاع مصر) زوج أم ابن طُولون؛ لكن لحسـن الحظ مُنِحَ المنصب للأمير يارجـوخ، الـذي كانـت ابنتـه زوجة ابـن طولون. لـم يقم الحاكـم الجديد بإطلاق يد صهره في مصر فقط، - حيث كتب ببسـاطة: «تسـلَّم من نَفْسِكَ لِنَفْسِـكَ»[1] - لكنـه أيضًا سـلَّم تحـت رعايتـه مدينة الإسـكندرية وأماكن

(1) البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص 46 (المترجم).

أخرى لم تكن مندرجة في امتياز الحكم الأصلي[1]. سَيطر ابن طُولون على حكم الميناء الكبير في 256هـ/ 870م، لكنه تصرف بحكمه حين ترك حاكمه السابق في منصبه. أصبحت سلطته الآن بالغة الرسوخ لدرجة أنه حين تغيّر الحاكم الاسميّ للإقليم عام 258هـ/ 872م، تجشم العناء بالكاد حتى يتلقى الإقرار الرسميّ بالرئيس الجديد، وهو المُوَفَّق شقيق الخليفة[2] وهكذا تم استدعاؤه للمثول أمام الخليفة في قصره بسامراء الواقع على نهر دِجْلَة ليقدم تقريرًا بشأن إدارته لأمور المقاطعة. قوبلت تلك المناورة بالغة الوضوح من خصومه ببساطة شديدة بعد إرسال وزيره الكثير من الرشاوى وأموال الجزية، مما أفضى في النهاية إلى تعزيز موقفه[3]. ولقد استطاع

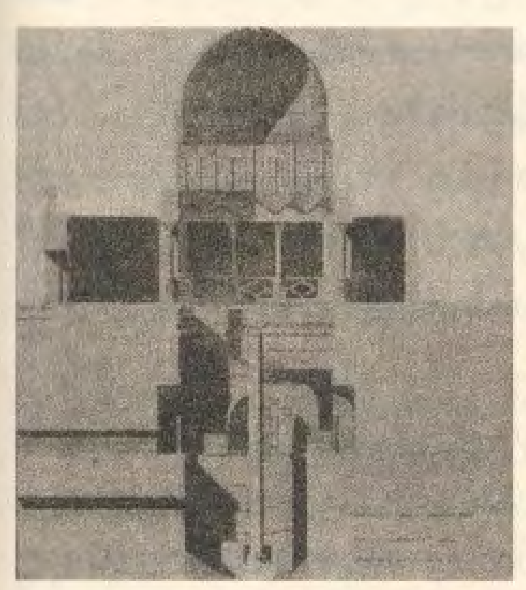
---

(1) كان (إسحاق بن دينار) واليًا على الإسكندرية عندما تولى أحمد بن طولون، فلم تكن المدينة حينئذٍ تابعة لوالي مصر بشكل مباشر، فمنذ العهد اليوناني حتى قيام الدولة الإخْشيدِيَّة في القرن الرابع الهجريّ كانت الإسكندرية في معظم الأحيان تعتبر عملًا مستقلًا بذاته عن مصر، انظر: المصدر السابق، ص 246 (المترجم).

(2) اختلف المؤرخون عن الشخص الذي انتقل إليه إقطاع مصر بعد موت يارجوخ صهر ابن طولون عام 258هـ، فالمؤلف ذهب إلى أنه المُوَفَّق شقيق المُعْتَمِد، لكن الدلائل تشير إلى أنه كان وليّ العهد جَعْفَر بن المُعْتَمِد، بعد أن قسم المعتمد الدولة بين ابنه وأخيه فكان للموفق الجزء الشرقي ولجعفر الجزء الغربي وفيه مصر، انظر: سيدة كاشف، أحمد بن طولون، القاهرة 1965م، ص 70 (المترجم).

(3) ذكر ابن سعيد أن أماجور أخاف المعتمد من نفوذ ابن طولون المتزايد في مصر وأوعز إليه عزله، فاستجاب الخليفة وأرسل لابن طولون يطلب منه القدوم لتولي منصبًا هامًّا في دار الخلافة، فأدرك ابن طولون أنها مؤامرة للتخلص منه، فبعث الواسطي إلى العاصمة محملًا بالهدايا، واستطاع بمساعدة صهره ونفوذه أن يثبت بقاءه في مصر، ومن دلائل هذا التثبيت موافقة الخليفة على أن يلحق به أولاده وحريمه، انظر: ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب (القسم الخاص بمصر)، تحقيق: زكي محمد حسن، وشوقي ضيف، وسيدة كاشف، القاهرة 1953م، ص 84 (المترجم).

التخلص من خصميه الرئيسيين السوريين في مصر، فقد روَّعت أحدهما التهديدات لدرجة أنه عاد إلى منزله ومات على أثر ذلك[1]، أما الآخر، خازن بيت المال (ابن المُدَبِّر)، فقد سره أن يستبدل وظيفته في مصر مقابل بيت مال سوريا[2].



شكل (11) قطاع من مقياس النيل بجزيرة الروضة، القرن 9م

شغل الآن ابن طُولُون منزلة ملكية في مصر، وقد ضاق مقر الحكم في العسكر - الضاحية الرسمية للفُسْطاط - أن يتسع لحاشيته وجيشه الوفيرين، وعلاوة على ذلك لم يكن ليقنع بقصر الحكم. هكذا اختار عام 256هـ/ 870م موقعًا على هضبة يَشْكُر، بين الفُسْطاط وهضبة المُقطَّم حيث سوَّى قبور النصارى

(1) المقصود هو شقير صاحب البريد مولى أم الخليفة المعتز، ولقد استطاع ابن طولون القضاء عليه بعد مقتل المعتز وزوال سلطان أمه (المترجم).

(2) ظل الصراع قائمًا بين ابن طولون وابن المدبر إلى أن كتب الخليفة المعتمد إلى ابن طولون في حاجته إلى أن يحمل إليه خراج مصر سرًا بعيدًا عن نفوذ أخيه الموفق، فانتهز ابن طولون الفرصة ووعده بتنفيذ ذلك إذا أُسندت إليه عمالة الخراج رسميًا، وهكذا استبعد ابن المدبر من خراج مصر ليتولى خراج الشام، انظر: البلوي، ص73، أبو المحاسن، ج3/ ص43 (المترجم).

هناك، وأسس ضاحية القطائع الملكية، هكذا أُطلِقَ عليها بسبب تخصيص أماكن معينة لكل طبقة أو قومية منفصلة مثل (غلمانه وغيرهم من اليونانيين والسودان). امتدت المدينة الجديدة من الرُّمَيْلَة بجانب القلعة - في الوقت الحاضر - إلى مقام زَيْن العابدين، وغطت مساحة ميلًا مربعًا. أما القصر الجديد[1] فقد بُني تحت «قُبّة الهَواء» القديمة، وجَعَلَ له حديقة ضخمة وميدانًا فسيحًا بمحاذاتها، يلحق بهذا الميدان بناء خاص بتربية الخيول وآخر لعرضها؛ وكانت دار الإمارة جنوبي الجامع الكبير، الذي لايزال قائمًا حتى الآن، وكان لها ممرٌ خاصٌ يقود إلى مُصلَّى الأمير. أما الحريم فكان لهن قصر منفصل. وسرعان ما عمرت هذه المدينة وأقيمت فيها حمامات فخمة وأسواق، فضلًا عن كافة سبل البذخ والترفيه. لم يُبْدأ في بناء المسجد الكبير حتى عام 262 - 263هـ/ 876 - 877م[2]، حيث استغرق عامين في البناء. ومن اللافت للنظر أنه (لأول مرة في المساجد) استخدمت دعامات القرميد (الآجر)، بدلًا من الأعمدة الحجرية التي أُخِذَت من الآثار السابقة، وكان أول مثال مُؤَرَّخ (يُحتمَل أن العقود المدببة لمقياس النيل الثاني بجزيرة الرَّوْضَة أسبق بعدة سنوات) للعقود المدببة المنتشرة

(1) عن القصر، انظر: البلوي، ص 54 (المترجم).

(2) اختلف المؤرخون في العام الذي بدأ فيه ابن طولون بناء جامعه، فقد ذكر ابن دقماق عام 259هـ أما المقريزي فيذكر عام 264هـ / 877م، أما تاريخ الانتهاء من عمارته فلا خلاف عليه؛ إذ تم تسجيله بالخط الكوفي في لوحة حجرية مثبتة على إحدى دعامات الجامع، وهو رمضان سنة 265هـ، الموافق مايو 879م، انظر: أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل)، ص 103، 104 (المترجم).

بداخله، والتي كانت على الأقل أسبق بقرنين عن أي مما في إنجلترا[1]. كان مهندسه المعماري قبطيًا، وقد تم منحه مائة ألف دينار لبناء المسجد، وعشرة آلاف لنفسه، مع مبلغ دوري كبير مدى الحياة[2]. وهناك عمل رائع آخر لنفس المهندس المعماري القبطيّ هو قناة لتوصيل الماء إلى القصر

---

(1) يعد جامع ابن طولون أقدم المساجد الجامعة القائمة في مصر وأعظمها قيمة أثرية وأكثرها اتساعًا فهو يشغل مساحة قدرها ستة أفدنة ونصف فدان، وتمتاز عمارة هذا المسجد ببنائه كلِّه من الآجر المكسو بالجص، وباستخدام الدعامات في حمل العقود ورفع السقف لأول مرة في مصر بدلًا من الأعمدة، كما نراه من قبل في جوامع العراق، أما المأذنة فهي العنصر الوحيد من عناصر الجامع التي استخدم في بنائها الحجر وليس الآجر، وقد اشتهرت باسم المنارة الملوية لأنها بنيت على غرار منارة المسجد الجامع في سامراء مما يشير إلى التأثيرات العراقية، إلا أنها لاقت جدلًا واسعًا بين المتخصصين عن كونها أصلية أم أعيد بناؤها في التجديدات التي حدثت عام 696هـ من قِبَل السلطان لاجين المملوكي، والرأي المتفق عليه حاليًا أن المأذنة الحالية قد أعيد بناؤها على مثال ما كانت عليه من قبل وذلك عام 696هـ فيماعدا بعض التعديلات، والدليل على ذلك المبخرة المضلعة في قمتها وهي على طراز المآذن المملوكية، كما تم ربطها بسطح مؤخرة المسجد عن طريق قنطرة أقيمت على عقدين منفوخين على أسلوب العقود في المغرب والأندلس، وهي تأثيرات وفدت على العمارة المصرية في العصر المملوكي، انظر: أحمد فكري، (المدخل)، ص 104: 136، السيد عبد العزيز سالم، المآذن المصرية، ص 15: 17 (المترجم).

(2) قصة أصل البرج الحلزوني اللافت للنظر أو المنارة معروفة، وهي التفاف قطعة طويلة من الورق حول إصبع، رغم ذلك فعلى ما يبدو أن الأصل الحقيقي كان هو البرج الحلزوني المشابه في سامراء، والذي رآه ابن طولون في شبابه بلا شك، ومع ذلك فإن المهندسين المعماريين تخالجهم الشكوك بشأن قِدَم منارة ابن طولون.

من عين في الصحراء الجنوبية[1]. قام ابن طُولُون أيضًا برفع الوحل من قاع قناة الإسكندرية وقام بتنظيفها، وأصلح مقياس النيل بجزيرة الرَّوْضَة وشيد حِصنًا هناك.

---

(1) هناك قصة تروى عن بعض المعارضة التي حدثت بشأن الماء الذي تنقله هذه القناة، فبعث ابن طولون في طلب الفقيه مُحَمد بن عَبْد الحَكَم، وقد روى هذا الفقيه تلك القصة حيث قال: «كنت ليلة في داري إذ طُرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون فقال لي: الأمير يدعوك، فأيقنت بالهلاك وقلت للخادم: الله الله فيّ فإني شيخٌ كبيرٌ مضعفٌ مسنٌ، فتدري (كذا) ما يراد مني؟ فارحمني، فقال لي: حذار أن يكون لك في السقاية قول. وسرت معه وإذا بالمشاعل في الصحراء وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية وبين يديه الشمع، فنزلت وسلمت ، فلم يرد عليّ، فقلت: أيها الأمير إن الرسول أعنتني وكدّني وقد عطشت، أيأذن لي الأمير في الشرب؟ فأراد الغلمان أن يسقوني، فقلت: أنا آخذ لنفسي، فاستقيت وهو يراني، وشربت وازددت في الشرب حتى كدت أشق ثم قلت: أيها الأمير سقاك الله من الجنة، فلقد أرويت وأغنيت، ولا أدري ما أصف، أطيب ماء في حلاوته وبرده أم صفائه؟ أم طيب ريح السقاية؟ فنظر إليّ وقال: أريدك لأمر ليس هذا وقته فاصرفوه، فانصرفت فقال لي الخادم: أصبت، فقلت: أحسن الله جزاءك فلولاك لهلكت» (المقريزي، الخطط).



شكل (12) جامع أحمد بن طولون بالقاهرة، سنة 877 - 879م

يُشار إلى أنه في عام 256هـ/ 870م أَرسل خازن بيت المال سبعمائة وخمسين ألف دينار كجزية للخليفة، وخلال أربع سنوات أرسل مليونين ومائتي ألف دينار؛ فضلًا عن أن بعض المباني الجديدة في القطائع قد تكلفت ما يقرب من نصف مليون، وأن ابن طُولُون قد أعطى الفقراء على الأقل ألف دينار بعد شهر من الزكاة المفروضة، علاوة على أنه أبقى بيته مفتوحًا وأنفق ألف دينار يوميًا على مائدته، وكان سخيًّا مع العلماء، فضلًا عن جيش ضخم وبيوت كثيرة تنتظر إنفاقه، وحصون على الحدود تحتاج تكلفة كبيرة لصيانتها، ومما يستعصي على التصديق أنه استطاع الإيفاء بكل هذه النفقات من دخل بلغ أربعة ملايين وثلاثمائة دينار سنويًّا[1]؛ والرواية التي تتحدث عن أنه أنفق على مسجده من كنز عثر عليه في باطن الأرض تبدو واقعية[2]، فضلًا عن احتمال تغريمه للبطريرك القبطيّ بين الحين والآخر بغرامات شاقة، كما يزعم الكتّاب النصارى، رغم أنه لم يفرض ضرائب جائرة على السكان الأقباط، الذين تمتعوا بإعفاء نادر من الاضطهاد في ظل حكمه. رغم ذلك فإن الإنفاق المتزايد بشكل مطرد أدى إلى انقطاع الفائض السنوي الذي كان يُرسل لشقيق الخليفة. هكذا أعد المُوَفَّق جيشًا لعزل نائب الحاكم بالغ القوة، لكن لم يسفر ذلك عن شيء؛

(1) يذكر جمال الدين، الذي يقدم هذه التفاصيل، الخراج أو ضريبة الأرض فقط، والتي (كما يقول) ارتفعت من 800.000 تحت ابن المدبر إلى 4.300.000 تحت ابن طولون، لكن على ما يبدو أنه قد أضيف إلى هذا ضريبة الرأس (الجزية) على غير المسلمين، فضلًا عن الإسهامات والضرائب الأخرى.

(2) البلوي، ص 76 (المترجم).

إذ لـم يتعـد الجيش مدينـة الرَّقَّة[1]؛ حيث توقف لاحتياجـه إلى المال، هذا ولم تكن ثورتا الصعيد وبَرْقَة أكثر توفيقًا.



شكل (13) النص التأسيسي بجامع ابن طولون، سنة 879م

مدَّ ابن طُولُون حدوده متشجعًا بحصانته، وكان قبـل ذلـك على وشـك ضم سـوريا بناءً على رغبة الخليفـة، ورغـم توليـة حاكم آخر فيمـا بعـد، إلا أنـه تمسك بدعواه السـابقة في الإقليم. وعند وفاة هذا الحاكـم المدعـو أماجـور - الذي قـد برهـن علـى أن غيرتـه كانـت عقبـة فـي طريق تقدمـه - ألغى ابن طُولُـون لقب ابنه الذي وُلِّيَ مكانه؛ ومن ثـمّ تخلـص من كافـة مظاهر الطاعة للخليفة، وزحف في رجب 264هـ/ إبريل 878م نحو دِمَشْـق؛ حيـث تلقـى الولاء الفوريّ للموظفين والسكان؛ ومن ثم أحـرز تقدمًا في سوريا، متقبلًا ولاء المدن الرئيسية من أمثال طَرْسُوس، مكان دراسته. وقد

(1) تقع على نهر الفرات شمال الشام على مسافة 160كم شرقي حلب، ذكر ياقوت أن بينها وبين حران ثلاثة أيام، وهي معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي؛ ويقول الحميري: إن من مدنها الرها وسروج وشمشاط ورأس العين، وقد فتحها عياض بن غنم سنة 18هـ غدت في العصر العباسي مركزًا علميًا وثقافيًا هامًا، ياقوت، معجم البلدان، ج3/ ص 58 ، الحميري، الروض المعطار، ص 270 (المترجم).

قاومت مدينة أَنْطَاكية Antioch[1] وحدها تحت حكم سيما الطَّويل، وبعد القصف بالمنجنيق فضلًا عن الخيانة في الداخل، تم اقتحامها ونهبها في سبتمبر[2]. وأعقب ذلك غزو مدينتيّ المِصيِّصَة[3] وأَذِنَة[4]، لكن طَرْسُوس صدت هجومه في ذلك الوقت. هكذا امتدت سيادته حينذاك من الفرات وحدود الإمبراطورية البيزنطية إلى بَرْقَة على البحر المتوسط، وأُسْوان

---

(1) تقع على الضفة الغربية لنهر العاصي أقصى شمال الشام، على مسافة 30كم من البحر المتوسط، ضمن لواء الإسكندرونة الواقع الآن تحت السيادة التركية، كانت ذات أهمية كبيرة قبل الإسلام، خاصة من الناحية الدينية، فكنيستها واحدة من الكنائس العظمى؛ إذ تضم أحد الكراسي الروسيلة مثل الإسكندرية وروما والقدس والقسطنطينية، فتحها المسلمون أثناء فتحهم للشام عام 16هـ/ 637م، إلا أن الإمبراطور البيزنطي نقفور فوكاس استعادها عام 353هـ/ 964م، ثم استرجعها السلاجقة عام 477هـ/ 1085م، ثم استطاع الصليبيون أثناء حملاتهم على الشام احتلالها وتكوين إمارة أنطاكية عام 489هـ/ 1096م أولى الإمارات الصليبية في المشرق، وبقيت في أيديهم إلى أن حررها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عام 666هـ/ 1268م، ياقوت، معجم البلدان، ج1/ ص 266: 270، الحميري، الروض المعطار، ص 38 (المترجم).

(2) البلوي، ص 94 (المترجم).

(3) هي ثغر من ثغور الشام بالقرب من أنطاكية والمصيصة، وهما مدينتان بينهما نهر عظيم يقال له جيحان يخرج من بلاد الروم حتى يصل المصيصة، بينها وبين البحر اثنا عشر ميلًا، أمر أبو جعفر المنصور، صالح بن علي ببنائها سنة 140هـ، ففرغ منها سنة 141هـ وأنزلها الناس، ياقوت، معجم البلدان، ج5/ ص 144، 145، الحميري، الروض المعطار، ص 544 (المترجم).

(4) تقع على نهر جيحان بين طرسوس والمصيصة، بينها وبين المصيصة اثنا عشر ميلًا، بناها الرشيد وأتمها الأمين، وبها كانت منازل ولاة الثغور لسعتها، ياقوت، معجم البلدان، ج1/ ص 132، 133، الحميري، الروض المعطار، ص 20 (المترجم).

عنـد الشـلال الأول للنيل[1]، تاركًا كتائب قوية في كل مـن الرَّقَّة و حَرَّان[2] ودِمَشْق للإبقاء على أملاكه الجديدة، وحاملًا معه ستمائة ألف دينار انتزعها من خصمه القديم ابن المُدَبِّر، خازن بيت مال سـوريا، وسـارع بالعودة إلى مصـر للتعامل مـع أكبر أبنائه (العَبَّاس)، الذي انتهـز فرصة ارتقائه المؤقت لمنصب نائب الحاكم للتخلص من سلطة أبيه بعد عام فقط من غيابه، رغم ذلك فَقَدَ العَبَّاسَ جرأته مع تقدم والده، وانسحب إلى بَرْقَة ناقلًا كل الكنوز وآلات الحـرب التي اسـتطاع أن يسـتولي عليها، فضلًا عـن ثمانمائة فرس وعشرة آلاف جندي مشـاة من السودان ذوي الشهرة الذين ينتمون لوالده. حـاول ابن طُولُون إقناع ابنه، فأرسـل القاضي بـكَّار[3] للتفاوض معه، لكن

(1) بدأ ابن طولون في وضع اسمه على العملة بعد هذه الحملة، فحتى ذلك الوقت كانت العملات التي سُكَّت بواسطته في مصر تحمل اسم الخليفة؛ لكن في عام 266هـ (879 – 880م) بدأت دنانير مصر يظهر عليها اسم أحمد بن طولون بالإضافة إلى اسم الخليفة، هذا ولم يحذف ابن طولون اسم الخليفة أبدًا، لكنه لم يضف (كما فعل حكام الأقاليم الأخرى) اسم الوصيّ على العرش وهو الموفق. أُصدِرَت عملاته في مصر في أعوام 266، 267، 268، 269، 270هـ (عام وفاته)، وفي الرافقة أعوام 267، 268، 270هـ؛ وفي دمشق عام 270هـ.

(2) هي مدينة قديمة ببلاد ما بين النهرين، تقع الآن جنوب تركيا عند منبع نهر البليخ أحد روافد نهر الفرات، فتحها المسلمون سنة 18هـ، ذكر ياقوت أن بينها وبين الرها يومًا وبين الرقة يومين، وهي على طريق الموصل والشام والروم، ياقوت، معجم البلدان، ج2/ ص 235، الحميري، الروض المعطار، ص 191 (المترجم).

(3) هو القاضي أبي بَكْرة بَكَّار بن قُتَيْبَة الثَّقَفي، حنفي المذهب، تولى القضاء بمصر عام 249هـ لمدة تزيد على أربعة وعشرين عامًا، توفي بمصر عام 270هـ انظر ترجمته في: الكندي، الولاة والقضاة، ص 476، ابن خلكان، ج1/ ص 279، المقريزي، المقفى الكبير، ج2 / ص 442 : 454 (المترجم).

بلا جدوى فقد رفض الشاب الأحمق كل العروض، وحلم بتكوين مملكة في شـمال أفريقيـا، بل إنه حاصـر طَرَابُلُس ونهب لَبْـدَة[1]، حتى أُجبر على الفـرار بعـد خسـارة ثقيلة على يـد أمير تونـس الأغلبي. وبعـد التهرب من مطارديـه لمدة عامين، هُزِم وأُسِـرَ من قبل قوات والده، وجُلِبَ للفُسْـطاط حيث شَـهد (البعض يقول إنه أُرغِم على الاشـتراك) تعذيب وإعدام رفاقه من الثوار، وتلقى هو نفسه مائة جلدة، وقضى بقية حياته في الأسر.

اتسعت هوة العلاقات بين ابن طُولون ورئيسه الاسميّ (المُوَفَّق) شقيق الخليفة[2]، حين اشترى الأخير ولاء لُؤْلُؤْ، قائد القوة المصرية على الحدود فـي الرَّقَّة[3]. فقد ذهب لؤلؤ بكامل جيشـه للعدو، بل إنـه طَرد ابن صفوان نائـب ابن طُولون، من قَرْقيسِـيا[4] على الفـرات. كان المُوَفَّق الأمير الأكثر

(1) هي مدينة قديمة من مدن الشمال الإفريقي تبعد حوالي 120كم شرقي مدينة طرابلس الغرب، ذكر الحميري أنها كانت عظيمة الشأن مبنية بالرخام، سكانها قوم من هوارة البربر، الحميري، الروض المعطار، ص 508 (المترجم).

(2) عن العلاقة بين ابن طولون والموفق، انظر: البلوي، ص 80 : 91 ، ابن الأثير، ج6/ ص 328، سيدة كاشف، أحمد بن طولون، ص 77: 87 (المترجم).

(3) يحمل دينار تم سكه في الرافقة (ضاحية الرقة) في 268هـ اسم لؤلؤ تحت اسم أحمد بن طولون (Lane-Poole, Cat. Cairo Collection, no. 905)، وفي السنة التالية انشق لؤلؤ عن ابن طولون وانضم لفريق الموفق. وهناك دينار عام 270هـ من الرافقة يحمل اسم ابن طولون بدون اسم لؤلؤ. (Lavoix, Cat. Monn. Or., Egypte, no. 3).

(4) بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طَوْق على ستة فراسخ، وعندها مصب نهر الخابور في الفرات، فهي في مثلث بين الخابور والفرات، لما فتح عياض بن غنم الجزيرة سنة 19هـ، وجه حبيب بن مسلمة الفهري إلى قرقيسيا ففتحها على مثل صلح أهل الرقة، ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 328 (المترجم).

قـوة في العـراق، وقد مارس قوتـه تلك بصورة سيئة نحو أخيـه المُعْتَمِد، لدرجـة أنه في 269هـ/ 882م حاول الخليفة العاجز الفرار إلى ابن طُولُون الـذي عرض عليـه الحمايـة[1]، وكان ذلك بـلا ريب بهدف توفيـر الجزية السنوية من ناحية، ومـن ناحية أخرى للانتقـاص من نفـوذ المُوَفَّق. ومما لاشك فيه سيزيد وجود الخليفة تحت هيمنة ابن طُولُون في مصر من مقام الحاكم الطموح، وقد يُغيّر ذلك ضمن إطار معين مسـتقبل كل من الخلافة ومصر؛ لكن لسـوء الحظ تم القبض على الخليفة الهارب في طريقه وأُعِيدَ إلى سَـامَرَّاء. أُحبِطَـت أيضًا محاولة ابن طُولُون السـيطرة علـى مدينة مَكة المُكَرَّمَة؛ وذلك للارتقاء أكثر بمكانته، ولكن سـرعان ما طُرِد جنوده ولُعِن على المنبر في المسجد المقدس.

أَزعجت تلك التصرفات حاكم مصر، وسرعان ما أظهر استياءه من خلال قطع اسم المُوَفَّق - الوصيّ على العرش - من دعاء صلاة الجمعة والذي يشكل (مع العملات) في الدول الإسلامية ولاءً رسميًا للسلطات ذات السيادة. بل إنه عقد جلسات مع القضاة والفقهاء



شكل (14) دينار أحمد بن طولون، مصر، 881م

---

(1) لم يحدث ذلك كما يروي البلوي إلا بعد كتاب أرسله ابن طولون للخليفة جاء فيه: «وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان أنجاد، وأنا أرى لسيدي أمير المؤمنين الانجذاب إلى مصر فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز، ولا يتهيأ لأخيه فيه شيء مما يخافه عليه منه في كل لحظة»، البلوي، ص 280 (المترجم).

في دِمَشْق، الذين نادوا بخلع الوصيّ عن العرش واستبعاده من الخلافة بدعوى سوء معاملته لأخيه الخليفة. إلا أن بكَّارًا ذا الضمير اليقظ والذي كان قاضيًا لمصر لأكثر من عشرين عامًا، رفض توقيع الإعلان المشكوك في أسبابه وشرعيته؛ ولأجل ذلك أُلقِيَ في السجن حتى وفاته، محتفظًا بمكانته الرفيعة، ومواصلًا تعليم تلاميذه من نافذة السجن. وكانت النتيجة الوحيدة لهذه الإجراءات العقيمة هي أن الخليفة أُجبِر من قِبَل أخيه المستبد على إصدار أوامره بلعن ابن طولون على منابر الخطبة في كل المساجد الخاضعة لسيادته. ومن الجائز أنه إن لم يكن قد أُرهق المُوَفَّق لأقصى درجة في التعامل مع الثورة الخطيرة للزَّنْج[1] – أو العبيد الشرق إفريقيين الذين استقروا في أسفل بلاد العراق – لعوقبت وقاحة ابن طولون بشكل أكثر قسوة.

لقد حالفه الحظ أكثر على الحدود الشمالية الغربية؛ حيث تبدلت صلاته الودية مع الإمبراطور إلى عداء. قام (خَلَفْ) – قائده في طَرْسُوس – عام 267هـ/ 881م بغارة ناجحة وعاد بالكثير من الغنائم. ومرة أخرى في

(1) قامت حركة الزَّنْج التي تعد أطول ثورات العصر العباسي وأشدها خطرًا عام 255هـ/ 869م واستمرت حتى عام 270هـ/ 883م تحت زعامة عليّ بن محمد الفارسيّ الأصل الذي ادعى النسب العلويّ لحشد الجموع ضد الحكم العباسيّ، مستغلًا في ذلك الأوضاع المتردية للعبيد السود، هكذا استطاع عليّ بن محمد السيطرة على رقعة واسعة تمتد فيها بين الأهواز ومدينة واسط حتى هدد بغداد نفسها، ولقد استنزفت هذه الثورة موارد الخلافة وشغلتها عن الحركات الاستقلالية التي بدأت في الظهور في بعض الأمصار، إلا أن الموفق شقيق الخليفة استطاع القضاء على الثورة وقتل زعيمها عام 270هـ انظر: الطبري، ج9 / ص 431 : 437، 470 : 473، 481 : 488، 520 : 526، 603: 606، 622: 661، ابن الاثير، ج6 / ص 206: 331 (المترجم).

269هـ/ 883م عانى الروم تحت حكم كيستا ستيبيوتيس Kesta Stypiotes من هزيمة كارثية في كريسوبولون Chrysobullon[1] قرب طَرْسُوس على أيدي قوات ابن طولون؛ حيث تحدثت الأنباء عن سقوط ما لا يقل عن ستين ألف نصراني، غير سَلْب غنائم ثمينة من الذهب والفضة وصلبان مزخرفة بالجواهر، وأوعية مقدسة وأردية كهنوتية، بالإضافة إلى خمسة عشر ألف جواد. وبلغ ابتهاج الخصيّ الذي كان على رأس الجيش المنتصر مبلغًا جعله يتخلص من تبعية سيده، فاضطُرَّ ابن طولون للزحف بنفسه لإخضاع نائبه. وكان الشتاء قارسًا حين أقام خصمه سدًا على النهر تسبب في إغراق الأراضي بالماء، وأوشك أن يُغرق الجيش المُحَاصِر في أَذَنَة. عندئذ اضطر ابن طولون للانسحاب إلى أَنْطَاكية؛ حيث شرب الكثير من اللبن على أثر ما شعر به من جوع وإجهاد في المعركة؛ مما أسفر عن مرضه بالديزنتاريا dysentery (الزُّحار). فحُمِلَ إلى الفُسْطاط؛ حيث ازدادت حالته سوءًا[2]. وقد كان الأمير الشرس في مرضه مصدر فزع لأطبائه، فقد رفض أن يتبع أوامرهم، ولم يلق بالًا للحِمية الغذائية الموصوفة لعلاجه،

(1) Theophanis Contin., pp. 286-8 (ed. Bonn); George the Monk, p.847 (ed. Bonn).

(2) يروي البلوي أن ابن طولون قد راسل يازمان يدعوه إلى طاعته، ثم سار إلى (أذنة) وراسله مرة أخرى فلم يجد بدًّا من أن يسير إلى طرسوس ليضع حدًّا لهذه الفتنة، فلما حوصرت المدينة قام يازمان بإطلاق مياه نهر (البردان) وكان الوقت شتاءً، فغرق المعسكر واضطر ابن طولون إلى الانسحاب بعد أن تكبد خسائر فادحة، وأقام بالمصيصة زمنًا ثم حمل منها إلى مصر مريضًا يصارع الموت، انظر: البلوي ص 311، 312، حسن أحمد محمود، حضارة مصر الإسلامية (العصر الطولوني)، دار الفكر العربي - القاهرة، ص 85 (المترجم)

وحين زادت علته أطاح برؤوسهم أو جلدهم حتى الموت، في حين ذهبت سدى صلوات المسلمين واليهود والنصارى من أجل شفائه. هكذا لم ينقذه القرآن الكريم ولا التوراة ولا الإنجيل من حلول أجله، فتوفي في ذي القعدة 270هـ/ مايو 884م قبل أن يبلغ الخمسين من العمر.



شكل (15) اللقب المُسْنَد، محفور (على خشب) سنة 882م

وصِفَ أحمد ابن طُولُون من قِبَل ابن خلكان، الذي أخذ عن ابن الدَّاية أكثر السير مُعاصَرَةً لابن طُولُون؛ حيث قال: «كان أحمد عادلًا جوادًا شجاعًا متواضعًا حسن السيرة صادق الفراسة، يباشر الأمور بنفسه ويعمر البلاد ويتفقد أحوال رعاياه ويحب أهل العلم، وكانت له مائدة يحضرها كل يوم الخاص والعام، وكان له ألف دينار في كل شهر للصدقة، فأتاه وكيله يومًا فقال: إني تأتيني المرأة وعليها الإزار وفي يدها خاتم الذهب فتطلب مني، أفأعطيها ؟ فقال له: مَن مَدَّ يده إليك فأعطه»[1]. إلا أنه مع كل هذه المناقب كان سفاكًا للدماء، فَيُروى أن عدد مَن قتلهم صبرًا أو ماتوا في حبسه بلغ ثمانية عشر ألفًا. كان ابن طُولُون حافظًا للقرآن الكريم، جميل الصوت، ومِنْ أَدْرس الناس للقرآن. وقد أَبْطَل ضرائب ابن المُدَبِّر

(1) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1/ ص 173 ، المقريزي، الخطط، ج1 / ص 872 (المترجم).

الجديدة،[1] رغم ضرورة وجود دخل ضخم لإمداد سبل مخططاته العظيمة ومبانيه الفخمة ومجلسه المُتَّسِم بالإسراف، وذلك من جمع الضرائب، وشجَّع المِلْكِية للفلاحين وأمَّن الحيازات، واستخدم وسائل جديدة؛ مما جعل دخله مستمدًا من تحسين طرق الزراعة أكثر من المصادرة. هكذا ترك عشرة ملايين دينار في خزانة بيت المال، و من سبعة إلى عشرة آلاف فارس مملوكي، وأربعة وعشرين ألف عبد من الحرس الخاص، وثلاثمائة جواد، وآلاف البغال والحمير والجمال، ومائة سفينة حربية. لقد كان على الأقل أول مسلم يعيد القوة إلى مصر ويجمل عاصمتها منذ الفتح العربي.

خلف أبو الجَيْش خُمارَوَيْه[2][3] أباه، وهو الابن الثاني لأحمد من أبنائه السبعة عشر (فضلًا عن الست عشرة ابنة). كان الابن الأكبر لا يزال في

---

(1) تفنن ابن المدبر في فرض الضرائب ووسائل جباية المال حتى أنه فرض ضريبة على الكلأ وسماها ضريبة المراعي، كما فرض ضريبة على المصايد، وفرض أيضًا ضرائب على أشجار النخيل والسنط واللبخ، انظر: ابن سعيد، ص 85 (المترجم).

(2) أُصدِرَت عملات خُمَارَوَيْه – التي كان أغلبها من الذهب مثل باقي العملات الطُولونية – في مصر عام 271هـ (884 – 885م) وذلك كل عام على التعاقب حتى عام 282هـ (895 – 896م)؛ الرَّافِقة أعوام 270، 273، 275، 276، 278، 279هـ؛ دِمَشْق أعوام 272، 275، 276، 277، 281هـ؛ حِمْص عام 274هـ؛ حَرَّان عام 276هـ؛ أَنْطَاكية أعوام 276، 278، 279هـ؛ حَلَب عام 281هـ؛ فِلَسْطين (أو الرَّمْلَة) عامَيّ 277، 278هـ.

(3) ولد بسامراء سنة 250هـ، قدم إلى مصر في أول سنة 257هـ فأقام في كنف أبيه إلى أن خرج إلى الشام في صفر سنة 269هـ، فاستخلفه على الفسطاط إلى أن عاد وهو مريض في جمادى الآخرة سنة 270هـ، بويع بعد وفاة أبيه في ذي القعدة سنة 270هـ فمكث حتى مقتله في ذي القعدة سنة 282هـ انظر ترجمته في: الكندي، كتاب الولاة، ص 233: 241، ابن خلكان، ج2 / ص 249: 251، المقريزي، المقفى الكبير، ج3/ ص 811 : 833 (المترجم).

السجن بسبب تمرده، إلا أن سجّانه أجهز عليه لتجنب المنازعات. لقد كان خُمارَوَيْه الشاب ذو العشرين ربيعًا - التواق للانغماس في الملذات، الذي لا يمتلك أدنى خبرة في الحرب أو الحكم - يبدو كفريسة سهلة لمن هو أكثر دهاءً؛ فقد كلفه الأمر تعلم درس أو درسين شديدين لإفاقته والوصول به لدرجة النشاط المطلوبة للحفاظ على مملكته؛ مما كشف الكثير عن شخصيته وعن قدرته على التعافي من المواقف المهينة الأولى، فضلًا عن الحفاظ على إرثه وتوسعته أيضًا.

لقد انضم خصمان كبيران وهما الحاكمان التركيان للمَوْصِل والأَنْبَار[1] - على نهريّ دِجْلَة والفُرات - للقائم على دِمَشْق لإسقاط السيادة المصرية عن سوريا، وإعادة أملاك خُمارَوَيْه الآسيوية للخليفة، أو بالأحرى لأخيه النشط (المُوَفَّق). وكانت لديهم ذريعة واضحة لذلك؛ إذ لم يكن لخُمارَوَيْه حق شرعي رسميّ في حكم مصر، في حين تلقى حاكم المَوْصِل إسْحاق بن كِنْداج، إقرار الخليفة بذلك؛ إذ لم يكن هناك حق شرعيّ بالوراثة في ذلك العهد.

هكذا قاموا باحتلال سوريا، مدعومين بابن المُوَفَّق (أبو العَبَّاس)، الذي دخل دِمَشْق في شعبان 271هـ/ فبراير 885م. أَرسل خُمارَوَيْه بالفعل القوات برًا وبحرًا لمقاومتهم، فحوصِرَت قوة مصرية وهُزِمَت في شَيْزر[2]،

(1) هي مدينة على الفرات غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ، كان يقال لها الأهراء فلما دخلها العرب عربتها فقالت الأنبار، فتحت أيام أبي بكر الصديق سنة 12هـ على يد خالد ابن الوليد، جددها أبو العباس السفاح أول خلفاء بني العباس وبنى بها قصور، فصارت ذات شأن في العصر العباسي، ياقوت، معجم البلدان، ج1/ ص 257 (المترجم).

(2) هي قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم، في وسطها نهر الأردن عليه قنطرة في وسط المدينة أوله من جبل لبنان، تعد من كورة حمص وهي =

علـى نهـر العاصي. ومـن ثمّ قاد جيشًـا جديدًا من سـبعين ألـف رجل إلى داخـل فِلَسْـطين؛ حيث واجه قوة صغيـرة من العدو بقيادة أبـي العَبَّاس في الطَّواحين على نهر أبي بُطْرُس قرب الرَّمْلَة[1]. وللأسف ولأن خُمارَوَيْه لم يشهد معركة ضارية من قبل، فقد أسَرَه الذُعْر وفر مسرعًا نحو مصر متبوعًا بالسـواد الأعظم من جيشه، في حين ثبت الاحتياطيّ بقوة تحت قيادة سَعْد الأَعْصَر، وبينما كان أميرهم ورفاقه يتنافسـون أيهم سـيبلغ الأمان في مصر أولًا، ناضلت تلك البقية العنيدة الأعداء الذين انكبوا على نهب المعسـكر المصري، وهزموهم هزيمة منكرة. وقد بحث سَعْد بلا جدوى عن سيده - الذي كان من الصعب تصديق نبأ فراره - ثم زحف على دِمَشْق، وأرسل من عاصمة سوريا المستردة رسالة عاجلة إلى سيده المرتعد مُعلِنًا الأخبار غير المتوقعـة عن هذا الانتصار الرائع. ومع مكوث خُمارَوَيْه في مِصْر مكتوف الأيدي عامًا كاملًا - تميز بزلزال عنيف، هُدمت على إثره المنازل، وأصيب جامـع عَمْرو بالضرر، ونجم عنه مقتل ألف شـخص في الفُسْـطاط في يوم واحد - تأكد الانطباع عن جبنه، هكذا رفض سَعْد في دِمَشْق أن يخدم سيدًا كهذا. وعند إعلانه الاستقلال، تحرك خُمارَوَيْه أخيرًا؛ ومن ثمّ أحرز نصرًا حاسمًا على تابعه المتمرد، ودخل دِمَشْق في ذي الحجة 272هـ/ يونيو 886م.

= قديمة، بعد فتح حماة صلحًا سار أبو عبيدة بن الجراح إلى شيزر فتلقاه أهلها وسألوه الصلح على مثل صلح حماة ففعل، وذلك سنة 17هـ، ياقوت، معجم البلدان، ج3/ ص 383 (المترجم).

(1) قال ياقوت: هو موضع قرب الرملة من أرض فلسطين بالشام، كان عنده الوقعة المشهورة بين خمارويه والمعتضد بالله سنة 271هـ انصرف كل منهما مفلولًا، كانت أولًا على خمارويه ثم كانت على المعتضد، ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 45 (المترجم).

وأثناء سيره قابل ابن كِنْدَاج حاكم المَوْصِل في معركة ضارية، وحقق انسحابًا مُظهِـرًا الكثير من الشـجاعة الشـخصية، دافعًا العدو المرتبك إلى سـامراء علـى نهـر دِجْلَـة. هكذا عَقَدَ السـلام مع المُوَفَّـق، بعد أن أكـد على كفاءته كقائـد حربي؛ ومن ثَمّ تم إرسـال تقليد موقع مـن قِبَل الخليفة وأخيه وولي عهده لخمارويه بحكم مصر وسـوريا والحـدود الرومية لمدة ثلاثين عامًا.

قَبِـلَ خُمارَوَيْه في خضم نجاحاته، مناشـدته التدخـل في قتال كان دائرًا عندئذٍ بين ابن أبي السَّاج حاكم الأَنْبَار وحليفه السابق ابن كِنْدَاج، وأسفرت تلـك الحملة في العِرَاق عن الاسـتيلاء على الرَّقَّة[1]، والإقـرار بأمير مِصْر كوصيّ وحاكم للمَوْصِل والجزيرة في الخطبة. رغم ذلك فإن تابعه الجديد ابن أبي السَّـاج أثبت عدم ولائه بغزوه لسوريا، وأظهر خُمارَوَيْه مرة أخرى كفاءتـه الحربيـة بالانتصار عليه فـي ذي الحجة 274هـ/ مايـو 888م قرب دِمَشْق، ومطاردته بعيدًا إلى بُلَيْد على نهر دِجْلَة، على الضفة التي بنى عليها عرشًـا فخمًا؛ حيث مكث لحضور الانتصار. لقـد أبقته حروب الأمراء في العراق وسوريا لأكثر من عام. وكان من بين نتائج تعزيز سمعته ولاء يازمان أو بَزْمان – والي طَرْسُوس الخَصيّ – الذي تنصل من سلطة الطولونيين منذ عـام 270هــ/ 883م، لكنه ما لبث أن أعرب عن ولائـه بهدايا بلغت ثلاثين ألـف دينار، وألف رداء فضلًا عن الأسـلحة، ثم أَتبع ذلك بـخمسـين ألف دينـار إضافية. ولقد تم شـن العديد مـن الغارات من طَرْسُـوس إلى داخل الأراضي الرُّومية بين عاميّ 278 – 281هـ/ 891 – 894م.

---

(1) تحمل عملات الرَّافِقَة (أو الرَّقَّة) عامي 273 و275هـ اسم خُمارَوَيْه، لكن إحداها عام 274هـ (887 – 888م) تُسقِط اسمه؛ إذ لا شك أن تلك العملة قد سُكّت أثناء غزو ابن كِنْدَاج للرَّقَّة.

أدى مـوت المُوَفَّق عام 278هــ/ 891م، متبوعًا بابن كِنْدَاج، والخليفة المُعْتَمِـد فـي 279هــ/ 892م، إلـى تفاهم أقرب بيـن مِصْر وبَغْـداد؛ حيث جُـدِّدَت مبايعـة الخليفـة السـابقة لثلاثين عامًا أخـرى، وعـرض خُمارَوَيْه أن يـزوج ابنته قَطْر النَّـدَى إلى ابن الخليفة، ومع ذلك فـإن المُعْتَضِد فضَّل أن يتزوجهـا هـو. بلغت العروس بالكاد عشـرة أعوام مـن العمر، لذلك تم تأجيل الزفاف حتى عام 281هـ/ 895م، حين بلغت اثني عشـر عامًا تقريبًا. سـبق الزواج تبادل الهدايا النفيسـة؛ فقد اشـتملت بائنة الخليفة على مليون درهم، وعطور نادرة من الصين والهند، والعديد من الأشـياء الثمينة؛ هكذا حُمِلَـت العـروس من مصـر إلى العراق؛ حيـث بُني لها على طـول الطريق قصـرًا علـى رأس كل منزل تنزل فيه في كل ليلة، اشـتمل على كل وسـائل التـرف الممكنـة. أمـا بائنتها فقد اشـتملت علـى أربعة آلاف نطـاق محلى بالمجوهرات، وعشـرة صناديق حديديـة للنفائس من المجوهرات، وألف هاون من الذهب لدق عطور زينتها الرفيعة.

كَلَّـف هذا التحالـف الأرسـتقراطي خُمارَوَيْه مليونًا مـن الدنانير؛ لكن في المقابل تأكدت سـلطته مرة أخرى على الأراضي الخاضعة لسيادته من الفرات إلى بَرْقَة على البحر المتوسـط، وحُدِّدَت الجزية السـنوية بثلاثمائة ألـف دينار. وقد بلـغ الأجر السـنويّ لقواته في مصر تسـعمائة ألف دينار؛ والمطبـخ وحـده تكلف ثلاثة وعشـرين ألـف دينار شـهريًا، هكذا شـاهد الخليفـة راضيًـا افتقار تابعه القوي، الذي ازداد إسـرافه عامًـا بعد عام. لقد تشـارك كل من ابن طُولُون وابنه في الحب الشـديد لإقامة المباني الفخمة؛ حيث وسَّـع خُمارَوَيْه القصر في القطائع، وحـوَّل الميدان إلى حديقة مليئة

بأنواع شتى من الأزهار جميلة الرائحة، والتي تم زرعها في شكل جمل وتصميمات مختلفة مع أشجار نادرة ونخيل مذهب مرصع بمزاريب الماء، هذا غير قفص كبير مملوء بالطيور الجميلة.

وقد زين «بيته الذهبي» بصور مرسومة له ولزوجاته ومطربيه، رغم تحامل المسلمين ضد الصور الآدمية. ولتلطيف لياليه الأرقة وضَعَ فراشًا هوائيًا على بِرْكَة من الزئبق[1] - تقريبًا مائة قدم مربع - ليتأرجح الفراش في سلاسة، مربوطًا بحبال حريرية إلى أعمدة فضية، بينما وُضع أسد أليف لحراسة سيده أثناء النوم[2].

لم يفلح الأسد ولا الحرس الخاص المكوَّن من شباب العرب الأقوياء من الخَوْف، في نَجْدَة الأمير من غيرة حريمه، ففي عام 282هـ/ أوائل 896م انتهت مكيدة عائلية بمقتله على يد عبيده، بينما كان في زيارة إلى دِمَشْق، ومن ثمّ صُلِبَ قاتلوه وسط العويل، ودُفِنَ جسده جوار أبيه ليس بعيدًا عن قصره الفخم تحت جبل المُقَطم. وقد انهمك سبعة من مرتلي القرآن في تلاوته عند قبر ابن طُولُون، بينما جاء مَن يحمل جسد خُمارَوَيْه وبدأوا في إنزاله داخل القبر؛ حيث وافق ذلك ترديد الآية القرآنية القائلة: ﴿ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾[3].

---

(1) وُجِدَت آثارٌ للزئبق في الأعوام اللاحقة عند الكشف الأثري للأرض بعد دمار القصر.

(2) انظر الوصف التفصيلي في: المقريزي، الخطط، ج1/ ص 316، 317؛ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج3 / ص 53 ، 54 (المترجم).

(3) الدخان: 47.

كان ابنه الكبير، أبو العَسَاكِر جَيْش[1][2]، فتىً في الرابعة عشر من عمره، عاجـزًا تمامًـا عن اتخـاذ أي قرار، بسـبب انشـغاله في ملـذات وحماقات عمره. هكذا تنصلت سوريا والحدود الشمالية من سلطته، وأُهمِلَ الجيش والحكومة وفرغ بيت المال؛ وبعد مقتل ثلاثة من أعمامه اغتيل الشاب نفسه على يد قواته بعد شهور قليلة من إساءة استخدامه للسلطة، وكانت آخر أعماله العامة إلقاء رأسـيّ عميه المقتولين للمتمرديـن صائحًا، «ها هم أمراؤكم».

هكذا نُصِّب أخاه الأصغر أبو مُوسَى هارون[3][4] مع (ابن أبالي) كوصيّ علـى العرش؛ لكن الأميـر كان في نفس طيش وعجز أخيه، أما الوصيّ فلم يكـن رجل دولة على الإطلاق، ففعل الأتراك بسـبب ذلـك ما بدا لهم. قاد عـم أبي العَسَـاكِر جَيْش قوة من المتمردين إلى الفُسْـطاط لكنـه هُزِم؛ ولـم تكن سـوريا وطَرْسُـوس تحت أي نوع من السـلطة، رغـم أن الخليفة مَنح هارون تقليدًا بولاية كل من سـوريا ومصر، بشـرط دفع جزية سنوية قدرها أربعمائة وخمسـين ألف دينار والتخلي عن المقاطعات الشـمالية لسوريا.

(1) تحمل إحدى العملات التي ضربت في مصر عام 283هـ (896م)، اسم جيش ابن خمارويه.

(2) بويع يوم الأحد لليلة بقيت من ذي القعدة سنة 282هـ بدمشق، فمكث إلى أن خلع يوم الأحد لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة 283هـ، ثم سجن فمات بعد أيام، انظر ترجمته: الكندي، كتاب الولاة، ص 241، 242، المقريزي، المقفى الكبير، ج3 / ص 116 ، 117 (المترجم).

(3) سُكّت عملات هارون في مصر، فيما بين عامي 283 - 292هـ؛ وفي دمشق عامي 284، 288هـ؛ وحلب عام 285هـ وفلسطين أعوام 285، 290، 291هـ.

(4) بويع يوم خلع جيش، في جمادى الآخرة سنة 283هـ، فمكث إلى أن قتل في صفر سنة 292هـ الكندي، كتاب الولاة، ص 242: 246 (المترجم).

هكذا اجتاح القَرَامِطة[1] سوريا وحاصروا دِمَشْق، وعانى الجيش المصري من خسائر خطيرة، وأخيرًا رأى الخليفة ضرورة التدخل، فأرسل - مؤيدًا من بعض الأمراء المصريين في سوريا - أسطولًا من طَرْسُوس إلى دِمْياط وجيشًا عن طريق البر إلى عَبّاسَة[2]، وهي مدينة صغيرة على الحدود السورية مسيرة أيام من بِلْبَيس، نشأت عن أحد منازل الراحة التي شُيدت على طريق عُرس «قَطْر النَّدى» إلى بَغْداد.

هنا حشد هارون قواته فاترة الحماس، وأثناء ذلك وخلال رقاده ثملًا على الفراش، دخل اثنين من أعمامه خيمته وأزهقا حياته العقيمة[3]. أخذ القاتل شَيْبان[4] - بن أحمد بن طُولُون - حُكم ابن أخيه، وانسحب بالجيش بحصافة إلى مصر؛ حيث جاهد رغم خزانة المال المستنزفة؛ ليظفر بالشعبية من خلال الوعود والهدايا، في حين تابع القائد الحربي للخليفة، مُحَمد بن

---

(1) عن القرامطة انظر هوامش الفصل الرابع (المترجم).

(2) هي بليدة أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية، يقول ياقوت: إنها عمرت في زمانه لأن الملك الكامل الأيوبي جعلها من متنزهاته، وبينها وبين القاهرة خمسة عشر فرسخًا، سميت بعباسة بنت أحمد بن طولون، حين بنت في هذا الموضع قصرًا وبرزت إليه لوداع بنت أختها قطر الندى وهي خارجة من مصر إلى العراق، فلما سارت عُمّر ذلك الموضع وصار بلدًا لأنه في أول أودية مصر من جهة الشام، فكان يقال له قصر عباسة، وأصبح فيها بعد عباسة، ياقوت، معجم البلدان، ج 4/ ص 75 (المترجم).

(3) في 29 - 30 ديسمبر، تعزو روايات أخرى اغتياله على أيدي عبيدة، بناءً على أوامر من عمه، أو على يد جندي مغربي في شجار داخل أحد المعسكرات.

(4) بويع لعشر بقين من صفر سنة 292هـ، إلى خروجه ليلة الخميس لليلة خلت من ربيع الأول من نفس العام، الكندي، كتاب الولاة، ص 246: 258 (المترجم).

سُلَيْمان تقدمه، وبعد مقاومة وجيزة استسلم شَيْبان وفق شروط وترك جيشه لمصيره. دخل مُحَمد القطائع في العاشر من يناير؛ حيث قام بقتل معظم الجنود الطولونيين من السودان وأحرق أحياءهم، ودمر المدينة الجميلة التي بناها ابن طُولُون بشكل كامل فيما عدا المسجد، ونُهبت المنازل وهُدمت، وفُتِّحَت البوابات وانتُهكت حرمات النساء، وعومل الناس بكل وحشية كما لو كانوا من الوثنيين.

وبعد موجة من الدمار والنهب والمصادرة، وهو ما استمر لأربعة أشهر، انسحب جيش الخليفة آخذًا شَيْبان وبقية أعضاء عائلة طولون كمساجين إلى بَغْداد. استمرت هذه الأسرة في الحكم لسبعة وثلاثين عامًا وأربعة أشهر، استردت خلالها مصر الكثير من أهميتها القديمة، ووصلت عاصمتها إلى درجة من الثراء والترف لم يسبق لها مثيل منذ الفتح العربي.



شكل (16) دينار هارون
ابن خمارويه، مصر، 904م

الإخشــيــديّون

المصــادر[1]: المســعودي[2]، جمــال الديــن، ابــن الأثير، ابــن خلكان،

(1) أهم المؤرخين الذين كتبوا عن الدولة الإخشيدية من واقع معاصرتهم لها هم: ابن يُونُس الصَّدفي المصري (ت 347هـ / 958م)، والذي كتب عن تاريخ مصر من خلال تراجم لأهلها ولمن دخلها من الغرباء حتى عصره. وكان الكِنْدي المصري (ت 350هـ/ 961م) من أهم مؤرخي تلك الفترة، فهو أول من ألف كتابًا في الخطط المصرية لم يصلنا منه إلا ما تناقله المؤرخون المتأخرون من أمثال المقريزي وابن دُقْماق، وأعظم مؤلفات الكندي وأكثرها أهمية كتابه الذي وصلنا كاملًا (كتاب الولاة والقضاة)، والذي يعد مرجعًا أساسيًّا لمن جاء بعده من المؤرخين لتناول تاريخ مصر من الفتح وحتى وفاة الإخْشِيد من خلال ولاتها وقضاتها. ويأتي بعد ذلك أبو محمد الحسن بن إبراهيم المعروف بابن زُولاق (ت 387هـ/ 997م)، الذي ساعده اتصاله بالبلاط الإخشيدي على تدوين تاريخ تلك الفترة بكل دقة، أما عن أهم أعماله فكانت كتابته ذيلًا لكتاب الكندي استكمل فيه تاريخ الولاة والقضاة من حيث انتهى الكندي حتى عام 374هـ وكتاب (سيرة الإخشيد) الذي لم يصلنا إلا عن طريق المؤرخ المغربي ابن سَعيد في كتابه (المغرب في حلى المغرب) تحت عنوان: كتاب (العيون الدعج في حلى دولة بني طغج)، وكتاب (أخبار سيبويه المصري) وهو عن نوادرأحد زملاء ابن زولاق، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى استعراضه دون قصد للكثير من جوانب الحياة الاجتماعية والأدبية في مصر خلال العصر الإخشيدي. وقد عاصر تلك الفترة أيضًا طبيبًا وبطريركًا قبطيًّا هو سعيد بن بطريك الذي كتب (التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق)، وهو من كتب التاريخ العام التي لم تختص بتاريخ مصر، فقد تناول فيه التاريخ منذ بدء الخليقة حتى عصره بوجهة نظر قبطية. ولا ننسى بالطبع بعض المصادر الأدبية التي وصلتنا من هذا العصر وكان أهمها ديوان الشاعر الفحل، أبي الطَّيِّب الـمُتَنَبِّي (ت 354هـ / 965م)، الذي زار مصر وذكرها من جوانب شتى في شعره. (المترجم).

(2) يعتبر الـمَسْعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، (ت 346هـ/ 957م)، من المؤرخين المعاصرين للدولة الإخشيدية رغم كونه غير مصري إلا أنه زار مصر=

المقريزي[1]، أبو المحاسن، السيوطي، الإسحاقي[2].

نقوش: عن كافور على الحائط الشرقي للحرم القدسي.

عملات: تم سكها في مدينة مِصْر (الفُسْطاط)، فِلَسْطين (الرَّمْلَة)، دِمَشْق، حِمْص، وطَبَرِيّة.

ظلت مصر في حالة من عدم الاستقرار لثلاثين عامًا بعد سقوط البيت الطولوني، لقد صارت مرة أخرى ولاية تابعة، إلا أن الخلفاء صاروا في غاية الضعف في ممارسة سلطاتهم، أما الحكومة فكانت في أيدي الجند الأتراك. لقد أملت الجيوش التي تم إرسالها من بَغْداد - لإبقاء مصر بعيدة عن أي تمرد داخليّ أوغزو أجنبيّ - شروطها الخاصة على الولاة المتعاقبين، واستُلزِمَ على مَن يحكم الولاية أن يحوز أولًا على رضى تلك القوات، التي كان ولاؤها على قدر ما يدفع لها. لقد تلا خازن بيت المال، القادة الحربيين من حيث القوة؛ إذ احتفظت عائلة واحدة بهذا المنصب خلال فترة عدم الاستقرار، وهم (الماذرائيون) نسبة إلى ماذَرَايا[3] مسقط

= عدة مرات قبل وفاته عام 346هـ وتعرض لها في مؤلفيه (مروج الذهب) و(التنبيه والإشراف) (المترجم).

(1) نقل المقريزي في كتابه (الخطط)، معظم تاريخ الدولة الإخشيدية عن كتاب الولاة والقضاة للكندي، وعن الذيل الذي كتبه ابن زولاق، وأما كتابه (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا) فقد تعرض فيه لعلاقة الإخشيديين بالفاطميين حتى دخولهم إلى مصر. (المترجم).

(2) الإسْحَاقي، محمد بن عبد المعطي (ت 1060هـ/ 1650م)، كتاب أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول. (المترجم).

(3) يقول ياقوت: إنها قرية بالبصرة ينسب إليها الماذرائيون كتاب الطولونية بمصر، إلا أن ذلك فيه نظر - كما يقول - والصحيح أن ماذرايا قرية في واسط من أعمال فم الصلح مقابل نهر سايس، ياقوت، معجم البلدان، ج5/ ص 34 (المترجم).

رأسهم، والتي تقع بالقرب من البَصْرَة على نهر الفُرات، وقد استحوذ الماذرائيون تدريجيًّا على كل شيء في مصر عدا السلطة العليا[1]. أما الموظفون الآخرون فكانوا أقل أهمية تحت هذا الاستبداد العسكري مما كانوا عليه في الفترة المبكرة للحكومة المحلية، لذلك كان من هؤلاء قاضٍ واحد يستحق الذكر، هو القاضي الكبير ابن حَرْبويه[2]، آخر مَن ركب إليه الأمراء؛ إذ كان لا يقوم للأمير إذا أتاه.

تَظهر السيطرة الضعيفة التي احتفظ بها ولاة الخلفاء على الدولة، من خلال الاستيلاء الناجح على السلطة من قِبَل شاب مغمور لكنه مفعم بالحيوية يُدعى مُحَمَّد الخَلَنْجي[3]، والذي جمع في فِلَسْطين مجموعة من المصريين ممن تعاطفوا مع البيت الطولوني المنهار؛ حيث استولى

(1) الماذرائيون هم أسرة فارسية الأصل، نزحت من العراق إلى مصر حيث تمتعوا بنفوذ كبير أيام الطولونيين وبعد أيام الطولونيين، وقد ظهر هذا النفوذ الواسع في تقلدهم بعض الوظائف الرئيسية في البلاد، وقد اشتهر منهم أبو على الحسن الماذرائي المعروف بأبي زنبور، الذي تولى منصب عامل الخراج في مصر بعد عودتها إلى حظيرة الخلافة العباسية، وهكذا سيطر الماذرائيون في ذلك الوقت على الحياة الاقتصادية والنشاط المالي في مصر والشام، وجمعوا من وراء ذلك ثروة طائلة، الأمر الذي جعل منهم قوة لها حسابها ووزنها في تاريخ مصر عند قيام الدولة الإخشيدية، انظر: سيدة كاشف، مصر في عهد الإخشيديين، القاهرة 1950م، ص 133 ، 134 (المترجم).

(2) هو علىّ بن الحسين بن حَرْب (ت 319هـ/ 931م)، ذكر الكندي أنه قدم من بغداد فتولى قضاء مصر عام 293هـ، ولم يزل واليًا عليها حتى عزل في 311هـ، انظر: الكندي، كتاب الولاة والقضاة، ص 481، السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، 1968م، ج2 / ص 101 ، آدم متز، ج2 / ص 399، 400 (المترجم).

(3) كان يعرف بابن الخليج، انظر: المقريزي، الخطط، ج1 / ص 903، أبو المحاسن، ج3/ ص 147 (المترجم).

علـى الرملـة ومن ثم دعـا في الخطبة لثلاثـة: أولهم الخليفـة بصفته زعيمًا دينيًا للدولة، ثم إبراهيم (وهو ابن مأسـور لخُمارَوَيْه) كوالٍ، وأخيرًا لنفسه كنائـبٍ للوالـي. هكذا استمع النـاس بتريث واهتمـام لهـؤلاء المغامرين اللافتيـن المطروديـن من البيـت والوطن بـلا أي مورد لاكتسـاب الرزق.

انسـحبت القـوات المضـادة لهـم بواسـطة عِيسَـى – الـذي أخذ حكم مصـر مـن القائـد الحربـيّ العباسـيّ – شـيئًا فشـيئًا، وفـي ذي القعـدة 292هــ/ سـبتمبر 905م دخـل خَلَنْجـي الفُسْـطاط، وفـي الخطبـة ذكـر نفـس الأسـماء الثلاثـة التـي تـم ذكرهـا فـي الرَّمْلَـة. هكـذا ابتهـج الناس الذيـن لـم ينسـوا أيـام ابـن طُولُـون المجيـدة باسـتعادة ظـل دولتـه، وفي أوج حماسـتهم قامـوا بطلاء أنفسـهم وجيادهـم بلون الزعفـران الأصفر.

هكـذا عَيـن ذلـك المُغامِـر الموظفيـن الضرورييـن لـلإدارة، واتخـذ مقـرَّه فـي دار الإمـارة دون معارضـة، فـازدادت شـعبيته وكثـر مؤيـدوه فضـلًا عـن حصانتـه. لقد وَجـد خزانة بيت المـال خاوية، بعد أن اسـتطاع عِيسَـى نقـل المـال العـام مـع كل سـجلات الحسـابات ومعظـم الكتبـة، ليكـون مـن المتعـذر اكتشـاف تقييمـات الرسـوم لدافعـيّ الضرائـب.

لكن خَلَنْجي لم يزعج نفسه كثيرًا بشأن النواحي القانونية، وأمر جامعي الضرائب استخلاص الإيرادات بأقصى ما في وسعهم، مغطيًا ابتزازهم عن طريق توزيع منظم لما يثبت المبالغ المستحقة، ووعود بسداد التعويضات عند استرداد سـجلات الضرائب المفقودة. بعد ذلك أرسـل ذلك الشـاب الجنود عن طريق البر والبحر إلى الإسكندرية (رغم أن حاكم مصر الحقيقي خيَّـم بالقرب منها)؛ ومن ثمّ اسـتولى على المدينـة، وأعاد في غمرة النصر ليس فقط الكنز الذي بحوزة الحاكم، بل أيضًا بعض المحاسبين المفقودين.

في غضون ذلك أرسل الخليفة - الذي لم يعترف بالحاكم الذي نصب نفسه بنفسه - جيشًا من العراق ليعيده إلى صوابه، لكن خَلَنْجي طردهم من العريش بعد قتل الكثير منهم، إلا أن وقت الحساب كان وشيكًا، فقد تبع هزيمة جزء من جيش خَلَنْجي على يد عِيسَى، وصول قوات أكثر قوة بالبحر والبر من قبل الخليفة توحدت مع قوات عِيسَى؛ وبعد سلسلة من المعارك الفاصلة، أُرغِمَ خَلَنْجي على الرجوع إلى الفُسْطاط؛ حيث خانه أصدقاؤه لصالح الحكومة؛ ومن ثمّ تم إرساله إلى الخليفة في بَغْداد ليتم عرضه على جَمَل أمام المدينة بأكملها كمثال يعتبر به، ثم أُعدِم في رجب 293هـ/ مايو 906م. هكذا كانت سيطرة مغامر صغير على عاصمة مصر، وتحدي جيوش الخليفة لثمانية أشهر، تعليق بالغ الدلالة على درجة الضعف التي وصلت إليها الحكومة[1].

---

(1) ما يلي لائحة لحكام مصر منذ سقوط الدولة الطولونية إلى ارتقاء الإخشيد للحكم:

الخلفاء		الولاة
المكتفي	292هـ/ 905م	عيسى بن محمد النوشوري
		استيلاء الخلنجي على الحكم، سبتمبر 905م – مايو 906م
المقتدر	295هـ/ 908م	
	297هـ/ 910م	تكين الخاصّة الخزري
	303هـ/ 915م	ذكا الروميّ
	307هـ/ 919م	تكين (للمرة الثانية)
	309هـ/ 921م	محمود بن حمل (لثلاثة أيام)
	309هـ/ 921م	تكين (للمرة الثالثة) (لبضع أيام)
	309هـ/ 921م	هلال بن بدر
	311هـ/ 923م	أحمد بن كيْغَلغ =

ومما أضاف إلى الفوضى وصول خطر الغزو الأجنبي؛ حيث بدأت السلالة الحاكمة الشهيرة من الخلفاء الفاطميين - أقوى سلطة شيعية في تاريخ القرون الوسطى - غزوها لشمال إفريقيا. ففي عام 296هـ/ 909م فر بيت الأغالبة التونسيّ - الذي كان قويًا - إلى مصر، ولم يكن مطاردوه على مسافة بعيدة، فقد دخل حُبَاسة[1] - القائد العسكرى الفاطمي - إلى بَرْقَة عام 301هـ / 913-914م، مرتكبًا أعمالًا وحشية نكراء؛ وفي ذي الحجة 301هـ/ يوليو 914م ومع انضمام القائم - ابن أول خليفة فاطميّ (المَهْدي) - إليه احتل الإسكندرية دون مقاومة، حيث فر السكان في ذعر إلى مراكبهم، ومن هناك تقدم بعيدًا إلى الفيوم متجنبًا الفُسْطاط؛ حيث تمت مهاجمة الغزاة وهزيمتهم من قِبَل الجيش المصرى - المعزز بقوة من بَغْداد - وتم طردهم خارج مصر. إلا أنهم عادوا بعد خمسة أعوام لاحقة لهذا الهجوم؛

=		311هـ/ 924م	تكين (للمرة الرابعة)
320هـ/ 932م	القاهر		
		321هـ/ 933م	محمد بن تكين
322هـ/ 933م	الراضي		
		321هـ/ 933م	محمد بن طغج الإخشيد (غائب)
		321هـ/ 933م	أحمد بن كيغلغ (للمرة الثانية)
		322هـ/ 934م	استيلاء محمد بن تكين على الحكم، يونيو- يوليو.
		323هـ/ 935م	الإخشيد

كثيرًا ما تغير القادة الحربيون تحت حكم هؤلاء الولاة؛ فكان محمد بن طاهر الأبرز والأكثر أهمية. وكان قاضي القضاة تحت حكم أول سبعة ولاة حتى عام 924م هو ابن حربويه. وكان خازن بيت المال أبي زنبور الماذرائي، وخلفه محمد الماذرائي.

(1) هو حُبَاسةُ بن يُوسُف الكُتَامِيّ، أحد قواد عبيد الله المهدي، انظر: الكندي، كتاب الولاة، ص 267، ابن الأثير، الكامل، أحداث سنة 302هـ ج6/ ص 486، المقريزي، المقفى الكبير، ج3 / ص 151 : 155 (المترجم).

فاتجه أهل الإسكندرية مرة أخرى إلى البحر؛ حيث نُهبت مدينتهم وبعدها تـم اجتياح الفيوم، حيث احتدمت المعارك بعيدًا وصولًا إلى الأُشْـمونَيْن.

في غضون ذلك رسـا الأسـطول الفاطمي المكون من خمسـة وثمانين مركبًا في ميناء الإسكندرية، في حين استطاع أمراء بحر الخليفة جمع عشرين سـفينة فحسب في طَرْسُوس وإرسـالها للتصدي، وبمهارة فائقة استطاعوا إحراق معظم سـفن العدو بواسـطة النفـط، وقَتْل طواقمهـم وجنودهم أو جلبهم كأسرى إلى الفُسْطاط. ولكن من جهة البر كان المشهد أكثر تعقيدًا؛ حيـث لاقـى دُوكَاس اليونانـي (ذَكَا الرُّومي)[1] - الذي كان آنـذاك واليًا - مشـقة جمة في تحريك الجنود المصريين لضرورة رشـوتهم بالمال، حتى أثنـاء قيامهم على اسـتحياء بتطويق معسـكرهم في الجِيزة بواسـطة خندق للحيلولة دون مباغتتهم بالهجوم.

وفي هذه اللحظة الحاسمة مات دوكاس، وكان خلفه تكين[2] - لحسن الحظ - مقبولًا من قِبَل الجنود، فضلًا عن أنه قد بث بعض الثقة بين السكان المصابيـن بالذعـر. علاوة على ذلـك فإن الغزاة قد عانوا بشـكل خطير في

(1) هو ذكا الأعور، وليها من قِبَل المقتدر يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر سنة 303هـ حتى وفاته لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة 307هـ، الكندي، كتاب الولاة، ص 373: 376 (المترجم).

(2) هو الأمير أبو منصور تكين الخاصَّة الخزري، ولي مصر لأول مرة من قِبَل المقتدر يوم الجمعة لإحدى عشرة خلت من شوال سنة 297هـ إلى أن صرف في ذي القعدة سنة 302هـ، والمرة الثانية من شعبان 307هـ حتى ربيع الأول سنة 309هـ، وأخيرًا من ذي القعدة 311هـ، إلى أن توفي لستة عشرة خلت من ربيع الأول سنة 321هـ، الكندي، كتاب الولاة، ص 267: 273، 276: 278، 280، 281، المقريزي، المقفى الكبير، ج1 / ص 601 : 604 (المترجم).

الفيوم جراء المجاعة والطاعون الناجمين عن تجاوزاتهم. وقد تم صد هجومهم على معسكر الجِيزة - الذي يحميه الآن خندقان - تقريبًا في نفس اليوم الذي أُحرِزَ فيه الانتصار في الإسْكندرية؛ لكنهم كانوا لايزالون يحتفظون بمصر العليا، وقد شق على تكين طردهم، حتى بعد دعمه بثلاثة آلاف من قوات المدد المُرسَلَة من بغداد، فقد عرقلته المؤامرات الداخلية؛ حيث اكتُشِفَت خيانات عبر مراسلات من قِبَل القاضي والماذرائي خازن بيت المال، بالإضافة إلى شخصيات قيادية أخرى مع الخليفة الفاطمي، أظهرت حرصهما على الترحيب به في الفُسْطاط.

مع الخيانة في العاصمة ووقوع الإسكندرية في أيدي العدو، أخذ تكين موقفًا دفاعيًّا، حتى أتت فرقة ثانية من العراق لنجدته، ثم أخيرًا في ربيع 307هـ/ 920م زحف الجيش المصري على الغزاة، وآلت سلسلة من الاشتباكات في الفَيوم والإسكندرية قبل نهاية العام إلى انسحاب الفاطميين إلى بلاد البربر[1].

عمت البلاد حالة من الفوضى بعد طردهم، حتى سيطر مُؤْنِس الخَصيّ - الذي كان قائدًا للقوات المرسلة من بَغْداد - على الوضع في مصر لبعض الوقت، قام فيه بعزل وتنصيب الحكام متى وكيف شاء، حتى تم استدعاؤه في النهاية عام 309هـ/ 921م، إلا أن الجند استمروا في الهيمنة على الحكومة، فأغارت القوات المُسرَّحة على البلاد ونهبت وقتلت

(1) عن محاولات الفاطميين فتح مصر، انظر على سبيل المثال: الطبري، ج10/ ص149، 150، ابن الأثير، ج6/ ص 483: 486، 501، عماد الدين إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار)، تحقيق: محمد اليعلاوي، ص 176 : 190 (المترجم).

العامة؛ وكانت الفوضى كبيرة لدرجة أن تكين حين عُيِّنَ واليًا للمرة الرابعة - لأنه لم يكن بإمكان أحد غيره استمالة الجيش - وجد أنه من الضروري للسلامة عزل قواته داخل قصره الخاص. هكذا استُعِيدَ بعض النظام أخيرًا، لكن بعد وفاته في ربيع الأول سنة 321هـ/ مارس 933م، طارد الجيش ابنه خارج البلاد مطالبينه بالأجور المتأخرة؛ وفي ذلك الوقت كان الماذرائي - خازن بيت المال - مختبئًا؛ في حين تبارى الحكام المتنافسون من أجل السلطة، فحشدوا جنودهم واشتبكوا في كافة أنحاء البلاد؛ وزاد من رعب العامة زلزال رهيب، أطاح بالعديد من البيوت والقرى، متبوعًا بوابل هائل من النيازك.

في تلك الحالة اليائسة تولى الإخْشِيد[1] شئون مصر في رمضان 323هـ/ أغسطس 935م؛ حيث كانت البلاد في أمسِّ الحاجة لرجل فائق القوة لمواجهة الحالة الطارئة، وبالفعل أثبت الإخْشِيد كفاءته للموقف. أتى مُحَمد بن طُغْج[2] من أسرة أميرية في فَرْغَانة فيما وراء النهر، والذي

---

(1) سُمِحَ له أن يستخدم لقب سلفه بتصريح خاص من الخليفة بعد أربعة أعوام من وصوله إلى مصر، كان الأغلب الأعم من عملاته - مثل تلك الخاصة بالطولونيين - من الذهب، وتم سكها في دار ضرب مدينة مصر (أي الفسطاط) في 328هـ (939-940م) و333هـ (944- 945م)؛ فلسطين (الرملة)، 331، 332، 333هـ؛ دمشق، 333، 334هـ.

(2) هو محمد بن طغج بن جف بن يلتكين بن فوران بن فوري بن خاقان، ولد ببغداد سنة 268هـ، ولاه المقتدر دمشق سنة 318هـ ولم يزل بها إلى أن ولاه القاهر مصر بعد الأمير تكين في رمضان سنة 321هـ مدة اثنين وثلاثين يومًا، ثم أعيد إليها من قِبَل الراضي في رمضان سنة 323هـ، إلى أن مات بدمشق لثمان بقين من ذي الحجة سنة 334هـ انظر ترجمته في: الكندي، كتاب الولاة، ص 281، 282، 286: 293، ابن خلكان، ج5/ ص 56 : 63 ، المقريزي، المقفى الكبير، ج5/ ص 745 : 752 (المترجم).

حمل لقب الإخْشيد[1] على نمط ملوك فارس وطبرستان الذين حملوا لقب كِسْرى وأصبَهْبُذ. كان جده (جِفْ) ضمن الموظفين الأتراك الذين تم جلبهم للعراق بواسطة الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد؛ وخدم والده الأمير طُغْج[2]، بامتياز في جيوش خُمارَوَيْه، وحارب ضد الروم حين كان عاملًا على طَرْسُوس؛ ومن ثمّ كُوفئ بحكم سوريا[3]. هكذا تسبب له خيلاء النجاح في العقاب؛ حيث أنهى حياته في سجن دِمَشْق، إلا أن ابنه محمد - الحاكم المستقبلي لمصر والذي شاركه الأسر - تم إطلاق سراحه، وبعد حين من التقلبات خدم تحت حكم تكين، الذي نَصَّبه حاكمًا لمقاطعة الحَوْف المُتَّسِمة بالتحريض على الفتنة في مصر السفلى، وبعد توليه العديد من المناصب في سوريا - حيث نال استحسان الخليفة - صار

---

(1) عن اللقب انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة دار الكتب - القاهرة، 1914م، ج5 / ص 484 (المترجم).

(2) ترجمته في: المقريزي، المقفى الكبير، ج4 / ص 17 : 21 (المترجم).

(3) كان جِفْ جد الإخشيد من بين نفر من فرسان فرغانة الذين قدموا على الخليفة العباسي المعتصم فعني بهم ليتخذهم عونًا، فأقطعهم قطائع في مدينة سامراء، ولما توفي المعتصم انتقل جف إلى خدمة ابنه الواثق، ولما مات عام 232هـ صحب جف أخاه المتوكل حتى توفي في بغداد في الليلة التي قتل فيها المتوكل عام 247هـ أما طغج ابن جف فقد التحق بعد وفاة أبيه بخدمة أحمد بن طولون، وفي عهد هرون بن خمارويه أصبح حاكمًا على الشام، وبعد مقتل هرون انضم للجيش العباسي الذي سار إلى مصر للقضاء على حكم بني طولون، وعندما غادر القائد العباسي محمد بن سليمان مصر صحب معه إلى بغداد طغج بن جف وولده وأخاه، وقد حبسه الخليفة المكتفي ومعه ابناه محمد وعبيد الله، وظل طغج محبوسًا إلى أن توفي عام 294هـ حيث أطلق سراح ابنيه، انظر: سيدة كاشف، مصر في عهد الإخشيديين، ص 57: 60 (المترجم).

حاكمًا لدمشق في 318هـ/ 930م. بعد ثلاثة أعوام بعثه القاهر لحكم مصر، لكن حالة سوريا لم تسمح بمغادرته، وعلى الرغم من ذلك تم الإقرار به كحاكم لمصر في الخطبة بالفُسْطاط عام 321هـ/ 933م؛ ومن ثمّ أَرسل نائبًا يمثله شغل منصب الحاكم بصفة مؤقته، حتى أتى بنفسه في تعيين آخر بواسطة الخليفة الرَّاضي عام 323هـ/ 935م. لقد حَرَّض الحاكم الفعلي لمصر - وهو خازن بيت المال الماذرائي - الوالي لمقاومة ذلك التَّنْصِيب ومعارضة دخول الإِخْشيد. رغم ذلك فقد هُزموا هزيمة منكرة في الفَرَمَا، وحكم الأسطول القادم من سوريا - والذي أبحر عن طريق النيل من تِنِّيس إلى الجِيزَة - العاصمة حتى جلب الإِخْشيد جيشه وقام باستلام السلطة.

كانت أغلب الفوضى السابقة قد نشأت بسبب عجز وغيرة الحكام وموظفيهم، وهو أمر واضح إذا نظرنا خلال الأحد عشر عامًا لحكم الإِخْشيد الراسخ؛ حيث لم نسمع عن أي عصيان مسلح أو اضطراب، فقد أقر الجيش بسيده، وأرهبت القوات السورية أي عصيان يمكن أن يحدث من قِبَل المصريين. لقد كان الإِخْشيد حاكمًا نشطًا رغم حذره، دفعت قوته الهائلة على الاحترام، فلم يقدر أحد على جَذْب قوسه. ومع ذلك يقال إنه خوفًا على حياته، اتخذ تدابير وقائية غير عادية ضد الاغتيال. لقد فضَّل السلام على الحرب، فكان يميل لعقد معاهدة أو الإقدام على خسارة أرض؛ بل وحتى على دفع الجزية، على أن يواصل نضالًا مشكوكًا فيه. لم يمنع جيشه الضخم المكوّن من أربعمائة ألف رجل - من بينهم ثمانية آلاف حرسًا خاصًّا له - من أيِّ محاولة خطيرة للفاطميين لتجديد غزواتهم فحسب، بعد أن تم طردهم من الإسكندرية في العام الأول لحكمه، لكنه أيضًا منح

ثقلًا في المناوشـات؛ ومن ثمّ المقدرة على حماية الخلافة المتداعية، فقد غابت بالفعل السلطة الفعلية لأمير المؤمنين، بعد أن أحرز الكثير من حكام الولايات سـلطات سيادية، فقد بسـط البويهيون سلطتهم على بلاد فارس، والسـامانيون على بـلاد ما وراء النهر، والـحمدانيـون[1] على الجزيرة فيما بيـن النهرين، وناضـل عدد من الأمراء الأتـراك الطموحين لامتلاك بغداد، ليكونـوا بمثابـة حرس على قيد إمام المسـلمين (الخليفـة) المغلوب على أمره، هكذا وُجِّهَت جهود الإخْشـيد بشكل رئيسـي نحو الاحتفاظ بإقليمه السوري ضد أي عدوان من قِبَل هؤلاء الجيران المتمردين. كان أول نزاع له مع الأمير ابن رائق[2]، الذي اسـتولى بلا سبب على حِمْص واحتل دِمَشْق.

(1) استطاع الحمدانيون العرب الشيعة أن يؤسسوا دولة مستقلة عن نفوذ الخلافة العباسية حكمت كلًا من حلب والموصل شمالي الشام والجزيرة بين عامي (277 – 393هـ/ 890 – 1003م)، ولقد انتزع الحمدانيون حلب من الإخشيديين عام 333هـ/ 942م، لينقلوا عاصمتهم إليها ويصبح سيف الدولة الحمداني حاكمًا وأميرًا عليها، ومع مجاورة الدولة لحدود الدولة البيزنطية جنوبي آسيا الصغرى نشطوا في جهادهم ضد البيزنطيين وأصبحوا بمثابة حائط صد أمام الهجمات البيزنطية على الأراضي الإسلامية لاسيما مع الضعف المستمر للخلافة العباسية، وكانت نهاية الدولة الحمدانية على يد الدولة الفاطمية التي استطاعت الاستيلاء على حلب عام 393هـ/ 1003م، كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت 1968م، ص 240: 243؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، القاهرة، 1996م، ج3 / ص 120: 130 (المترجم).

(2) هو محمد بن رائق أبو بكر (ت 330هـ/ 941م)، كان أبوه من مماليك المعتضد، ولي ابن رائق في عهد المقتدر شرطة بغداد فأبلى بلاءً حسنًا، فولي واسط والبصرة، ثم ولّاه الراضي بالله إمرة الأمراء سنة 324هـ، فمسك بزمام الأمور في الخلافة، هكذا توجه ابن رائق إلى الشام ودخل دمشق وادعى أن المتقي ولّاه عليها، فالتقى هو =

وبعد هزيمة مصرية على الأرجح على الحدود عند العَريش، ومعركة دموية ولكن غير حاسـمة في اللجون - على بعد عشرين ميلًا من طَبَرِيّة[1] - عُقِد السلام بشـروط ابن رائق التى اقتضت الاحتفاظ بالأراضي السورية شمال الرَّمْلَـة[2]، فضلًا عن تلقي جزية سـنوية قدرها مائـة وأربعين ألف دينار من الإخْشـيد. يرجع جزء من هذا التفاهم إلى الشعور الطيب الناتج عن مروءة ابن رائق، الذي آلمه أن يجد جثمان أحد إخوة الإخْشـيد بين المقتولين في اللجـون، لدرجـة أنه بعث بابنه إلى خصمه يفعل به ما يشـاء، وذلك تكفيرًا منـه عمـا حدث. وحتـى لا يتفوق عليه في الكرم، كسـا الإخْشـيد الضحية

= وصاحب مصر محمد بن طغج فهزمه الإخشيد، فرجع إلى دمشق ومكث بها أكثر من سنة رجع بعدها إلى العراق؛ حيث قتل في الموصل على يد أميرها ناصر الدولة بن حمدان عـام 330هـ، انظـر: ابن الأثيـر، ج8 / ص 322، المقـريزى، المقفى الكبيـر، ج5/ ص 654 : 659 (المترجم).

(1) هي من بلاد الأردن بالشام بينها وبين عكا يومان وبينها وبين دمشق والقدس ثلاثة أيام، تقع على بحيرة طبرية التي يخرج منها نهر الأردن، فتحت صلحًا على يد شرحبيل بن حسنة سنة 13هـ ، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 17: 19، الحميري، الروض المعطار، ص 385، 386 (المترجم).

(2) مدينة من أعمال فلسطين على مسافة 38كم شمال غربي القدس، أما الرملة القديمة فكانت ذات أهمية إستراتيجية من الناحية التجارية والعسكرية نظرًا لأنها ممر واصل بين يافا الساحلية والقدس، أسسها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك سنة 96هـ/ 715م، وقعت بيد الإفرنج أثناء الحروب الصليبية ثم استنقذها صلاح الدين عام 583هـ وخربها عام 587هـ خوفًا من استيلاء الإفرنج عليها مرة أخرى، ياقوت، معجم البلدان، ج 3/ ص 69، الحميري، الروض المعطار، ص 25 (المترجم).

المعنيـة بثيـاب الحفاوة والتكريم على سـبيل المجاملة وأرسـله عائدًا إلى والده. بالطبع تزوج الشـاب من ابنة مضيفه النبيل، وعندئذٍ جمعتهم روابط وديـة من التحالـف والمصاهرة. لكن تمخضت سلسـلة من الأحداث عن تناقض لكثير من الأعمال الوحشية الحادثة في ذلك الوقت.

بعد عامين لاحقين من وفاة ابن رائق، اسـتعاد الإخْشـيد سـوريا ودخل دِمَشْـق مرة أخـرى دون أن يقـوم بأية اعتـداءات، وعندئذٍ أضـاف الخليفة المُتَّقي إلى سـوريا ومصر حكم المدينتين المقدسـتين مَكة والمدينة. وقد أرسـى الإخشيد مبدأ التوريث حين جعل قادة وجنود جيشه يُقرون بالولاء لابنه الأكبر كأمير مستقبليّ. مع تقلبه بين الأسرة الحمدانية الحاكمة القوية والأميرين المتنافسـين تُوزُون والبَريدي، سعى الخليفة المرهق - المطرود مـن بَغْـداد - للنجدة من الإخْشـيد، الذي أتى شـمالًا لاسـتعادة حَلَب من الحمدانيين العدوانيين، وبعد تسـوية شئونه قام الإخْشيد بمقابلة مع إمامه الروحي على الفرات في مقابل الرَّقَّة، وحثه للجوء معه إلى سوريا أو مصر، إلا أن خـوف الخليفـة الشـديد مـن الأمـراء الآخريـن منعه مـن المجازفة بمثـل هذه الخطوة الخطيرة، ولم يقبل حتـى عرضًا لإمداده بالقوات، رغم حصولـه علـى إعانة من الذهـب، ومبلغ ضخم من المال مـر من بين أيدي رجـال البلاط. هكذا سَـمح لتابعه النبيل أن يغادر، بعـد أن أظهر له معروفًا استثنائيًا ومؤثرًا، وبعد أن منحه التثبيت على مصر وسوريا له ولخلفه لمدة ثلاثين عامًا، هكذا ائتمن الخليفةُ توزونَ على نفسه وذمته بعد شهر لاحق،



شكل (17) دينار محمد الإخشيد، فلسطين، 943م

إلا أن توزون ما لبث أن سمل عينيه وخلعه، وحينئذٍ تلاشت صرخات الضحية وزوجاته وسط التهليل وقرع الطبول لمن خلفه[1].

---

(1) كان أبو عبد الله البريدي واليًا على إقليم الأهواز، فاستبد به واستأثر بخراجه؛ ومن ثمّ استفحلت قوته وامتد سلطانه، ولما بويع المتقي بالخلافة عام 329هـ كان السلطان في بغداد لأمير الأمراء (بجكم)، فنشب النزاع بينه وبين البريدي، واستعان بجكم على حربه بقائده (توزون)، وبالفعل انتصر توزون على البريدي، ثم اغتيل بعد ذلك بجكم عام 329هـ وبعد أن نشب النزاع بين الترك والديلم في بغداد ورجحت كفة الديلم وعُين قائدهم (كورتكين) أميرًا للأمراء لجأ الخليفة إلى ابن رائق للتخلص من كورتكين، فخرج ابن رائق من دمشق في رمضان 329هـ وهزم كورتكين وبعدها تم منحه لقب أمير الأمراء للمرة الثانية، ولكن البريدي احتل إقليم واسط فخرج ابن رائق لقتاله حتى عقد الصلح بينهما، وسرعان ما تخلى الترك عن ابن رائق فأرسل البريدي جيشًا إلى بغداد فاضطر الخليفة وابن رائق إلى الخروج إلى الموصل؛ حيث كان ناصر الدولة بن حمدان الذي اغتال ابن رائق ليحل محله في منصب أمير الأمراء عام 330هـ وبعد عام تقريبًا من مقاومة الترك اضطر إلى الرحيل عنها حيث اختار الخليفة القائد توزون أميرًا للأمراء في رمضان 331هـ وما لبثت العلاقات أن توترت بين توزون والخليفة إلى أقصى حد، فاضطر الخليفة للاستنجاد بالإخشيد حيث خرج للقائه في الرقة، وبالفعل وافاه الإخشيد هناك في 332هـ لكن الخليفة فضّل الرجوع إلى بغداد بعد أن استأمن توزون، إلا أن توزون غدر به حيث سمل عينيه وخلعه وعين مكانه المستكفي بالله، انظر: ابن الأثير، ج8/ ص 149؛ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج3/ ص 253؛ سيدة كاشف، مصر في عهد الإخشيديين، ص 85 : 88 (المترجم).

كان الإخْشيد لا يزال بعيدًا عن تأمين حدوده الشمالية، فقد أُعيد احتلال حَلَب بواسطة القائد الحمداني (سَيْفُ الدَّولة) قبل نهاية العام، هكذا تقابل جيش تم إرساله من مصر بقيادة الخصيين كافور ويانِس في الرَّسْتَن[1] على نهر العاصي؛ حيث هُزم هزيمة منكرة مع خسارة أربعة آلاف ممن تم أسرهم، فضلًا عن المقتولين والغارقين؛ تقدم سَيْف الدّولة إلى ضواحي دِمَشْق، وأُجبِرَ الإخْشيد على السير لملاقاته شخصيًا مصحوبًا بجيش كبير، فتقابلوا قرب قِنِّسْرين[2]؛ حيث وضع الإخْشيد قواته الخفيفة المسلحة برماح قصيرة في الأمام، وأبقى على مجموعة من عشرة آلاف رجل تم اختيارهم، أُطلقَ عليهم «الصامدون» في المؤخرة.

سُحِقَت القوات الخفيفة بسرعة مع هجوم الحمدانيين، ومع اعتقاد العدو أنه قد أُحرِزَ النصر انكب على جمع الغنائم، وعندئذٍ زج الإخْشيد «بصامديه» إليهم محرزًا نصرًا حاسمًا؛ حيث تم تفريقهم في كل حدب وصوب. دخل أمير مِصْر حَلَب مرة أخرى ومن بعدها دِمَشْق؛ حيث فاوض على عقد معاهدة متخاذلة بشكل غريب مع عدوه المهزوم؛ وافق

---

(1) تقع شمال مدينة حمص بنحو 20كم، وجنوب مدينة حماة بنحو 21كم، ذكر ياقوت أنها بليدة قديمة على نهر العاصي بين حماة وحمص، وهي خراب ليس بها مرعى وهي في علو يشرف على العاصي، ياقوت، معجم البلدان، ج3/ ص 43 (المترجم).

(2) هي مدينة قديمة جنوبي حلب بحوالي 40كم، ذكر ياقوت أنها كورة بالشام منها حلب، فتحت على يد أبي عبيدة بن الجراح سنة 17هـ، وكانت حمص وقنسرين شيئًا واحدًا، ومازالت عامرة إلى أن كانت سنة 351هـ عندما غلبت الروم على مدينة حلب وقتلت جميع ما كان فيها، فخاف أهل قنسرين وتفرقوا في البلاد، وليس بها اليوم - أي في زمانه - إلا خان ينزله القوافل، ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 403، 404 (المترجم).

من خلالها على التخلي عن حَلَب وشمال سوريا للحمدانيين، وأن يدفع لهم جزية سنوية في مقابل امتلاك دمشق. ويبدو أن تفسير ذلك هو أن الإخشيد وجد أن حراسة شمال سوريا شأنٌ مزعجٌ في عمره الذي بلغ الرابعة والستين. هكذا ظل على قيد الحياة لعام واحد بعد تلك الحملة؛ إذ توفي في دِمَشْق في ذي الحجة 334هـ / يوليو 946م، ودُفِنَ في القُدْس حيث يرقد خلفه أيضًا.

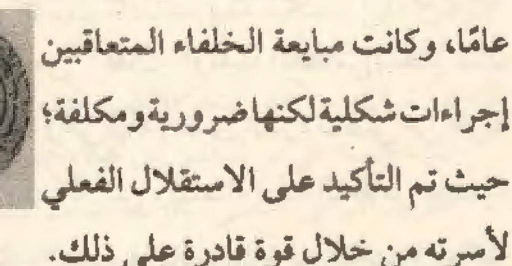
لقد تم تسجيل القليل فيما يتعلق بحكمه لمصر، ورغم أنه كان مثل ابن طُولُون، كثير البناء والتشييد - حيث شيد قصرًا جميلًا في بستان رائع يطلق عليه «البُسْتان الكَافُوريّ»، يقع غرب سوق النحَّاسين الحالي - ليس هناك من أثر باقٍ لمبانيه. وقد شُغِلَ المؤرخ المَسْعودي، الذي زار مصر خلال حكمه، بالأهرامات والعجائب الأخرى أكثر من المباني المعاصرة أو الناس، فهو لا يعطي أي وصف للقصر أو البلاط وسيده، ولا يلقي أي ضوء على حالة السكان، رغم ذلك فإنه يعطي بعض الوصف لنظام الري، ويصف فتح سدود القنوات في الرابع عشر من سبتمبر، وإغلاقها (في الدلتا) في يناير.

وكتب عن الاحتفال بليلة الغِطاس[1] فقال: «ولليلة الغِطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها، وهي ليلة إحدى عشرة تمضي من طوبة وستة من يناير، ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر، والإخْشيد محمد بن طُغج في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل مطيف بها. وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، وقد حضر

(1) عن عيد الغِطاس انظر: المقريزي، الخطط، ج2/ ص359؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2/ ص 289، 290 (المترجم).

النيل في تلك الليلة مئات الآلاف من الناس المسلمين والنصارى، منهم في الزوارق، ومنهم في الدور الدانية من النيل، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون، ويحضرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والقصف. وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورًا ولا تغلق فيها الدروب، ويغطس أكثرهم في النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ من الداء»[1].

ويتحدث أيضًا عن أن الإخْشيد أعطى للناس الإذن بالحفر بحثًا عن الكنوز التي ورد ذكرها في مخطوطات قديمة، غير أنهم لم يجدوا سوى بضعة كهوف وسراديب مليئة بالتماثيل والأجسام البالية، إشارة مبكرة للمومياوات[2]. مع معرفتنا القليل عن الشئون الداخلية لمصر تحت حكم الإخْشيد، إلا أنه من الواضح على أقل تقدير أنه جلب الهدوء لحالة البلاد المضطربة، وأنه أسس لأول مرة إمارة موروثة معترف بها من قِبَل الخليفة، مما يشير عمليًا إلى الاستقلال. كانت مدة الولاية بالفعل محدودة بثلاثين



عامًا، وكانت مبايعة الخلفاء المتعاقبين إجراءات شكلية لكنها ضرورية ومكلفة؛ حيث تم التأكيد على الاستقلال الفعلي لأسرته من خلال قوة قادرة على ذلك.



شكل (18) درهم أبو القاسم ابن الإخشيد، دمشق، 949م

---

(1) كان عيد الغِطاس المسيحي، في ذكرى معمودية المسيح (أبو صالح، ص 129)؛ المسعودي، مروج الذهب، ج 2/ 364 - 365.

(2) المصدر السابق، ج 2/ ص 419.

سـواء كان ابنا الإخْشيد أبو القاسِم أُونوجُور[1] (335 - 349هـ/ 946-961م)[2] وأبو الحسن عليّ[3] (355-359هـ/ 961-965م) - اللذان خلفاه اسـميًّا[4] - قادرين على الحكم أو غيـر قادرين، لم تتح لهما فرصة لإثبات ذلـك، فقد بلغ الأكبر أربعة عشـر عامًا فحسـب عند وفاة والـده، ورغم أن الأصغـر وصـل إلى عمـر الثالثة والعشـرين حينما جـاء دوره ليتمتع بصفة الحاكـم، لكنه احتفـظ بحالة التبعية - كأخيه - للخَصيّ الأسـود كافور[5]،

---

(1) وليها باستخلاف أبيه بعد موته في شهر المحرم سنة 335هـ، حتى وفاته في ذي القعدة سنة 349هـ، انظر: الكندي، كتاب الولاة، ص 294: 296، المقريزي، المقفى الكبير، ج2 / ص 313 : 319 (المترجم).

(2) سُكَّت العملات التي تحمل اسم أبي القاسم في مدينة مصر منذ عام 335هـ (946 - 947م)، أعوام: 337، 339، 341، 342هـ؛ وفي فلسطين أعوام: 335، 336، 337، 339، 341، 345، 346، 347هـ (958 - 959م)؛ ودمشق عام 338هـ (949 - 950م)؛ وحمص عام 336هـ؛ وطبرية عام 337هـ (948 - 949م).

(3) وليها في ذي القعدة سنة 349هـ، والمستولي على الدولة كافور، إلى وفاته في شهر المحرم سنة 355هـ، الكندى، كتاب الولاة، ص 269 (المترجم).

(4) سُكَّت العملات التي تحمل اسم علـيّ بن الإخشيد في مدينة مصر أعوام 350، 351، 352، 353، 354هـ (961 - 965م)؛ وفلسطين أعوام 350، 351، 352، 353، 355هـ؛ الأخيرة لابد أنها سُكَّت خلال الأحد عشر يومًا من وفاته في 11 محرم 355هـ (7 فبراير 965م).

(5) هو أبو المِسْك كافور بن عبد الله الإخْشيدي، كان عبدًا لبعض أهل مصر ثم اشتراه أبو بكر محمد بن طُغج الإخشيد سنة 312هـ بمصر، استبد كافور بالأمور بعد موت علـيّ بن الإخشيد ودعي باسمه على المنابر في المحرم سنة 355هـ إلى أن توفي في جمادى الأولى سنة 357هـ انظر ترجمته: الكندي، كتاب الولاة، ص 297، ابن خلكان، ج4/ ص 99 : 106، حسن إبراهيم حسن، كافور الإخشيد، مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول، المجلد السادس، مايو 1946م، ص 23 : 46 (المترجم).

الـذي تصرف في الأمور كوصـيّ على عرش ما يمكـن أن يطلق عليه الآن مملكـة مصـر. هكذا تـم منحهمـا مخصصات وافيـة بلغـت أربعمائة ألف دينـار، وذلك لانغماسـهما فـي الترف وعـدم تدخلهما في شـئون الدولة. هكذا خضعا بلا مقاومة تذكر، فتمتعا بالنسـاء أو بتلاوة القرآن طبقًا لميول كل منهما، ثم ماتا في ظل هذا الترف بشـكل غامض؛ حيث ارتقى وصيهما الأسـود العـرش عام 355هـ / 965م بموافقة الخليفة، « كسـيد» (أسـتاذ) لمصر والأقاليم التابعة لها[1].

كان أبو المِسـك كافور عبدًا حبشيًا تم شراؤه من بائع زيت في مقابل ما يعادل أقل من عشرة جنيهات بواسطة الإخْشيد، وحينما اكتشف كفاءته جعله وليًا على ابنيه. اسـتمرت العلاقة بين المعلم وتابعه القاصر طوال حياتهما. لقد كان كافور بلا شـك خادمًا ممتازًا، رغـم أنه لم يكن دائمًا قائدًا ناجحًا؛ لكنه حين تولى السلطة أظهر شغفًا كبيرًا لوسائل الراحة والرفاهية التي تميز بها ذلك المنصب. أزعجته القليل من المصاعب الخارجية؛ فبعد حملة ضد الحمدانيين دائمي التعدي، انتصر شـقيق الإخْشـيد النشـط (الحَسَن)[2] - بموافقة كافور - انتصارين بارزين على سَيْف الدَّولة، قرب اللجون في مَرْج عَذْراء عند دِمَشْـق، ودخل الجيش المصري حَلَب، حيث عُقِد السلام على نفس قواعد عام 333هـ/ 945م، باسـتثناء توقف الجزية المفروضة آنذاك.

أُحرِزَت موافقة الخليفة (أو القيم عليه) على ارتقاء الأميرين الصغيرين لحكم كل من مصر وسـوريا والمدينتين المقدسـتين بسـهولة، وفي الجزء

(1) لا توجد عملات تحمل اسم كافور؛ حيث كانت العملات المتداولة أثناء حكمه تحمل اسم الخليفة بمفرده.

(2) ترجمته في: المقريزي، المقفى الكبير، ج3 / ص 334 : 337 (المترجم).

الأخير من إدارة كافور، لم تكن دِمَشْق فحسب تحت الحكم المصري، بل ضُمت سوريا بأكملها حتى حَلَب وطَرْسُوس.

علاوة على الاضطرابات المؤقتة التي أصابت رحلات الحج إلى مَكة بين عامي 342 - 344هـ/ 953 - 955م، وغارة القرامطة على سوريا عام 352هـ/ 963م، واستيلاؤهم على قافلة الحج المصرية الكبيرة المكونة من عشرين ألف جمل عام 356هـ/ 966م، كان هناك القليل من الاضطرابات داخل مصر وخارجها، وعلى الرغم من حدوث سلسلة من الزلازل الرهيبة، واشتعال نيران هائلة دمرت ألف وسبعمائة منزل في الفسطاط، فضلًا عن سوء حالة النهر ونقص المؤن وما تبع ذلك من محن، يبدو أن الناس ظلوا على هدوئهم بشكل غريب. حتى بعد ظهور النوبيين، الذين حملوا السيف والنار، وحدوث مذابح ومجاعات على طول الصعيد عام 352هـ/ 963م، لم تقم ثورة.



شكل (19) دينار أبو القاسم ابن الإخشيد، مصر، 950م

هكذا حمل الإخْشيد المصريين على النظام، وعرف الخَصيّ الأسود كافور بجلاء كيف يحافظ عليه. لقد صار كافوز بعد ذلك «الوكولاس» Lucullus و«ميسيناس» Maecenas (قادة رومانيين اشتهروا بالانغماس في الملذات) عصره، ذلك أنه نال قسطًا لا بأس به من الثقافة والمعرفة، شأنه في ذلك شأن أغلب العبيد الأذكياء. كما أنه كان شغوفًا بأن يحيط

نفسه دائمًا بالشعراء والنقاد، الذين استمع لمناقشاتهم في المساء، أو طلب منهم أن يقصوا عليه تاريخ الخلفاء الأولين. وكان يحب الموسيقى شأنه في ذلك شأن جميع السودان، كما كان يمتلك أموالًا ضخمة، أنفق منها بسعة على أصدقائه الأدباء، ولم يكن ينال منهم سوى المديح الذي كان أساسه التملق. كان المُتَنبِّي، الشاعر الشهير ضمن أصدقائه المقربين طوال عامين، وضمن قصائده الشعرية نجد واحدة تمدح كافور، إلا أن شعره تحول بعد ذلك إلى هجاء ساخر لصاحبه. وحين نظم شاعر آخر، قصيدة قال فيها إن الزلازل المتكررة في ذلك الوقت لم تكن سوى رقص مصر فرحًا بفضائل كافور، تملك ذلك الحبشي السرور وألقى للشاعر بألف دينار. وذات مرة حين التَقَط شَريف من نسل الرسول ﷺ، سوط الامتطاء الخاص به، وجد ذلك الشريف نفسه يمتلك قافلة تساوي خمسة عشر ألف دينار.

أما فيما يتعلق بالطعام فقد كان كافور سخيًّا؛ حيث بلغت المؤن اليومية لمطبخه مائة خروف، ومائة حمل، ومائتين وخمسين إوزة، وخمسمائة دجاجة، وألف حمامة، وغير ذلك من الطيور، هذا غير مائة جَرَّة من الحلوى. وكان الاستهلاك اليومي يربو على ألف وسبعمائة رطل من اللحم، بجانب الدجاج والحلوى، وخمسين وعاء من النبيذ المخصص للخدم وحدهم. وكان عصير التفاح في ذلك الوقت من الشراب المفضل؛ لذا كان قاضي أسيوط يرسل إلى كافور خمسين ألف تفاحة كل موسم.

عند وفاة كافور في جمادى الأولى سنة 357هـ/ إبريل 968م - بعد تسعة عشر عامًا من الحكم الفعلي وثلاثة من الحكم الشرفي - اجتمع الموظفون الرئيسيون في البلاط على الفور لانتخاب أمير، على أن يوافق

الأقلية على اختيار الأغلبية. لم يسبق أن حدثت مثل هذه السابقة في مصر، والتي أظهرت كيف تم تجاهل سلطة الخليفة المالك الأسمى. هكذا وقع الاختيار على طفل يبلغ من العمر أحد عشر عامًا هو أبو الفَوَارِس أحمد ابن عليّ الإخْشيد[1][2]، والذي ما لبث أن اعتُرف به في الخطبة على الفور كحاكم لمصر وسوريا والمدن المقدسة، مع ابن عمه الثاني، الحُسين بن عُبَيْد الله بن طُغْج، كوريث من بعده. تولى ابن الفُرات[3] الموارد المالية، وتجرأ صامويل - الذي كان يتولى البريد - على المنصب الحربي. وقد أدت المصادرات فضلًا عن بخل الأول وعجز الثاني إلى ثورة عسكرية؛ حيث تولى الحُسين الوصاية على العرش[4]. إلا أن ذلك لم يدم طويلًا، فالحالة المتردية التي وصل إليها الحكم لم تغب عن فطنة المعز - الخليفة الفاطمي الرابع في إفريقية - الذي انتعش طموحه مرة ثانية لسيادة مصر بعد أن ترك ذلك الأمر منذ ارتقاء الإخْشيد للحكم. بددت غارات القرامطة في سوريا وحالة الفوضى في العراق، الخوف من أي تدخل يمكن أن يأتي من

(1) أُرِّخَت عملات أحمد بعام 358هـ (968 - 969م) في مدينة مصر وفلسطين.

(2) أجمع الرأي بعد وفاة كافور على ولاية أبي الفوارس أحمد بن عليّ بن الإخشيد، فبقي حتى دخول الفاطميين بقيادة جَوْهر يوم الثلاثاء سابع عشر من شعبان سنة 358هـ، الكندي، كتاب الولاة، ص 297، 298 (المترجم).

(3) هو جَعْفَر بن الفَضْل بن الفُرات، البغدادي الأصل، المصري الدار والوفاة، ولد عام 308هـ وزر أبوه للمقتدر العباسي عام 320هـ وولاه الأمير أبو القاسم أونوجور بن الإخشيد وزارة مصر بعد الحسن بن محمد بن عليّ الماذرائي سنة 335هـ توفي عام 392هـ انظر ترجمته كاملة في: المقريزي، المقفى الكبير، ج3 / ص 41 : 50 (المترجم).

(4) سُكَّت عملة تحمل اسم الحسين بن عبيد الله عام 358هـ في فلسطين (الرملة)، التي كان حاكمًا لها (Lavoix, Cat., Egypte, 64).

جهة الشرق؛ لذلك لم يكن من الممكن إهمال تلك الفرصة. فبعد مرور عام وأكثر على وفاة كافور، دخل الجيش الفاطمي الفُسْطاط، ومع سقوط آخر إخشيدي توقف اعتبار مصر ضمن أقاليم الخليفة الشرقي.

مر ثلاثمائة وثلاثون عامًا منذ فَتَح المسلمون الأوائل وادي النيل، اتخذ فيها الناس - بسهولة انقياد تقليدية - ديانة حاكميهم بشكل حرفي، فشكل المسلمون الغالبية العظمى من السكان. امتزج العرب والسكان المحليون بنفس العِرق البشري الذي يمكن أن نطلق عليه الآن (مصريون)؛ لكن حتى ذلك الوقت لم يفرز ذلك الخليط أحدًا من العظماء، فقد كانت الشخصيات القيادية القليلة من بين الحكام أمثال ابن طُولون والإخْشيد وكافور من الأجانب، وحتى هؤلاء لم يرتقوا إلى منزلة أعلى من الموظف الاعتيادي، فلم يحاولوا مد الأراضي الخاضعة لسيادتهم؛ أو القضاء على جيرانهم ذوي الخطورة من أمثال جماعة الفاطميين المنشقة؛ ورغم أنهم امتلكوا واستخدموا الأساطيل، لم يغامروا بأية رحلات إلى أوروبا.

من الصعب القول إن الناس قد ربحوا شيئًا منذ الفتح العربي، وذلك إذا نظرنا إلى الأمر من منظور مادي، فلا شك أن نظام الزراعة والري القديمين قد استمرا كما كانا دائمًا؛ ودانا بالقليل لمشاريع الحكام أو نشاطهم العام؛ حيث ترك هؤلاء الري والزراعة واهتموا بأنفسهم، فكان اهتمامهم الرئيسي يتعلق دائمًا بكسب الدخل، هكذا عَكَسَ التناقص في ضريبة الأرض الذي يسجله المقريزي بصورة وافية إهمال الحكام، فقد اقتصرت أعمالهم العامة بصورة شبه كاملة على العاصمة، التي وسعوها وزينوها بالقصور والمباني المختلفة والحدائق والميادين، لمتعهم الخاصة. لابد أن وسائل

الرفاهية لهؤلاء الأمراء من أمثال خُمارَوَيْه قد أفادت سكان المدن لبعض الوقت، ولكن كان ذلك على حساب دافعي الضرائب من الريف.

من ناحية أخرى جذب بلاط رجال من أمثال ابن طُولون وكافور رجال العلم من أماكن أخرى في الخلافة، وقد حظيت مدينة مِصْر تدريجيًّا بشهرة كمركز للتنوير، لكنه حتى ذلك الوقت كانت بعيدة كل البعد عن بَغْداد ودِمَشْق وقُرْطُبة؛ لم تكن جامعة الأَزْهَر قد تأسست، ولم يكن مسلمو مصر قد أخرجوا بعد شاعرًا أو مؤرخًا أو ناقدًا من الدرجة الأولى في الأدب العربي.

وعلى صعيد آخر ينبغي أن نتذكر أن التاريخ الجغرافي والنقد الأدبي كانا لا يزالان في مرحلة غير تامة النضج في جميع أنحاء الأراضي الإسلامية؛ لم يقم الطَّبري الشهير - المعاصر لخُمارَوَيْه - بأكثر من مجرد جمع للأحداث دون محاولة تنسيقها أو نقدها؛ أما المَسْعودي الذي عاصر الإخْشيد، فكان بشكل رئيسي جامعًا للنوادر وغرائب التاريخ؛ وكان الشعراء أو ناظمو الخليفة بصورة أساسية منتجًا اصطناعيًّا للبلاط؛ حيث كانت مواهبهم تعرض بشكل أفضل في العاصمة الأغنى أو حيثما وجد المال، فلم يعد شعر الصحراء الأصيل إلهامًا حيًّا على الإطلاق، ولكن أصبح عادة متوارثة تقليدية. وقد بدأ الآن فحسب أدب المعرفة الواسعة وتجميع النصوص والوثائق.

* * *

الفصل الرابع
الثَّوْرَةُ الشِّيعية
358هـ - 969م

الانشقاق العلوي - الدعاية الشيعية - النجاح بين البربر - المهدي - إمبراطورية شمال إفريقيا - الفاطميون الأوائل - الخليفة المعز - الوضع في مصر - جوهر يغزو مصر - تأسيس القاهرة - جوهر يحكم - حملة سوريا - القرامطة في مصر - هزيمة القرامطة - دخول المعز - قصور القاهرة - قصور الفاطميين - ثروة الخليفة - الأسطول الفاطمي - غزو القرامطة - موت المعز - فترة حكمه.



الفصل الرابع
الثَّوْرَةُ الشِّيعية
358هـ - 969م

المصادر[1]:

(1) تعد الفترة السابقة لإعلان الخلافة الفاطمية في المغرب من الفترات التي يكتنفها الغموض فيما يخص أسرة من أهم الأسرات التي وصلت إلى الحكم في التاريخ الإسلامي وهم العبيديون أو الفاطميون، وهذا بالطبع يرجع لطبيعة دعوتهم (الإسماعيلية) المناهضة للخلافة العباسية السنية الحاكمة في بغداد، لذلك كان عليهم التخفي والحذر خاصة من قِبَل الدعاة والأئمة الفاطميين، ومع قلة المصادر التي تحدثت عن هذه الفترة اختلفت الآراء وتضاربت حول طبيعتها وطبيعة الدعوة الإسماعيلية التي مهدت لظهور الفاطميين، هذا فضلًا عن صحة انتساب الفاطميين أصلًا للأصل العلوي الذي هو أساس المذهب الشيعي، ويرجع ذلك أولًا لصمت المصادر المبكرة غير الشيعية وأهمها تاريخ الطبري عن الحديث عن تلك الفترة الهامة من تاريخ الدعوة الإسماعيلية إلا من بعض الإشارات العابرة عن بدايات القرامطة، وهذا يضطرنا في النهاية إلى الاستعانة بمؤلفات علماء الشيعة المبكرة وحدهم؛ مما يقودنا بالطبع إلى عدم التيقن من تلك المعلومات، خاصة إذا كان كاتبها يتبنى وجهة النظر الفاطمية الرسمية آنذاك، وأهم هؤلاء الكتّاب كان القاضي النعمان بن محمد ابن حَيّوة (ت 363هـ/ 973م)، المقرب لدى الفاطميين وكتابيه: (رسالة افتتاح الدعوة) و (المجالس والمسايرات). وكذلك القُمِّي، (ت 300هـ/ 913م)، وكتابه (المقالات والفرق)، والنَّوْبختي، (ت 310هـ/ 922م) وكتابه (فرق الشيعة). ومن أهم المتأخرين من الشيعة الذين تناولوا التاريخ العام للإسماعيليين هو عماد الدين =

- عُريب القرطبيّ[1]، ابن الأثير، ابن خلكان، ابن خلدون، المقريزي.

Quatremère, Vie de Moèss; Wüstenfeld, Geschichte der Fatimed.n Chalifen.

نشأت الثورة الكبيرة التي اكتسحت شمال إفريقيا - منذ ستين عامًا خلت، وامتدت الآن إلى مصر - من الخلاف القديم على شرعية الخلافة. لقد توفي الرسول محمد ﷺ دون أن يحدد خليفته على نحو واضح، وبذلك ورَّث نزاعًا لا متناه بين تابعيه، هكذا تم تقديم مبدأ الانتخاب؛ ومن ثمّ وصل عن طريقه الخلفاء الثلاثة الأُوَل - أبو بَكْر وعُمَر وعُثْمان - لمنصب الخلافة في المدينة؛ في وقت احتفظت فيه أقلية قوية بذلك «الحق الديني» الذي ظل مع عليّ. أول مَن أسلم، وزوج فاطمة، ابنة الرسول ﷺ، والوحيد الذي أنجب الذكور من ذرية محمد ﷺ. وحين أتى دور عليّ ليكون رابع الخلفاء، أصبح هدفًا للغيرة والمكائد وأخيرًا للاغتيال؛ ثم أُقصي أولاده - أحفاد الرسول ﷺ - عن الخلافة؛ وتم اضطهاد عائلته بقسوة من الأُمويين، منافسيهم الناجحين الذين حظوا

= إدريس (ت 872هـ/ 1467م) وكتابه (عيون الأخبار وفنون الآثار)، ولقد استقى هذا المؤلف معلوماته من خلال اطلاعه على سجلات الأئمة الفاطميين؛ مما يجعله إلى كونه إسماعيليًّا متبنيًّا وجهة النظر الرسمية لهم، إلا أنه قد وصلنا كتاب هام لأحد فقهاء السُّنة من القرن الخامس الهجري هو الحمادي المعافري وكتابه (كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة)، وترجع أهمية هذا الكتاب زيادة على كونه من وجهة نظر سُنية، أن مؤلفه قد استقى معلوماته من واقع معاصرته بعد أن تمكن من الاندساس بين قرامطة اليمن والاطلاع على خفاياهم. ومن أهم الكتب التي تتناول الفترة الفاطمية في المغرب كتاب (سيرة الأستاذ جَوْذَر) لمؤلفه الجَوْذَري، (ت 386هـ/ 996م). (المترجم).

(1) القرطبيّ، عُريب بن سعد (ت 369هـ/ 980م)، كتاب صلة تاريخ الطبريّ. (المترجم).

بمنصب الخلافة؛ وطَبعت مأساة كَرْبَلاء[1] ومقتل الحُسَين ختم الشهادة على الأسرة المقدسة، وأثار كل ذلك عاطفة انفعالية لا تزال تثير حماسًا شديدًا في الأداء السنوي لمسرحية الغضب الفارسية[2].

هكذا لم يتم رأب ذلك الصدع الذي حدث في الإسلام أبدًا، وحتى يومنا هذا لا يزال البغض قائمًا بين السُّنة والشيعة - بين الاختيار الشعبي والحق المقدس - أكثر مرارة من الحادث بين البروتستانت والكاثوليك أيام الاضطهاد. لقد كانت تنحية عليّ أساس الشقاق الكبير - المتعذر علاجه - الذي قسَّم المسلمين، وأنهى أي ممارسة ممكنة للمودة بين أعضاء العقيدة المشتركة، وكذلك عرَّض أسس العقيدة للخطر. وفي الخارج أَضعف ذلك بالضرورة نَشْر الإيمان، بسبب اختلاف الرأي في الأدلة التي قُدمت لغير المسلمين، والنزاع والهجمات اللفظية بين المعلمين أنفسهم. أما في الداخل، فقد وَضع ذلك الأمر الخلفاءَ في موضع زائف بعد أن مَثَّلوا مشهدًا غير اعتيادي للقادة الدينيين، الذين أصبح الدفاع عن ادعاءاتهم غير العادلة في السلطة متعذرًا من خلال اضطهاد ذرية الرسول ﷺ أساس إيمانهم ومؤسس ملكهم، ولِمَحْو مقدار هذا التناقض اضطروا للدعاء لتلك العائلة التي عن طريق استبعادها فقط تمتعوا بشرف أداء الخطبة. هكذا نَفَرت قلوب قسم كبير من الناس من زعيمهم الروحي والدنيوي؛ حيث نثرت

(1) قُتل الحسين بن عليّ بن أبي طالب في معركة كَرْبَلاء التي وقعت بالعراق من قبل جيش يزيد بن معاوية الأموي، وذلك في العاشر من محرم عام 61هـ، انظر المزيد عن معركة كربلاء: الطبري، ج5 / ص 381 : 467 (المترجم).

(2) يشير المؤلف إلى احتفالات الشيعة في ذكرى مقتل الحسين في شهر المحرم من كل عام (المترجم).

البذور التي لا يمكن استئصالها من التحريض على الفتنة والتمرد والثورة؛ ووضعت أساسًا لاغتصاب عرش متداعٍ يمكن أن يكون عرضة لأي مُدَّعٍ في أي وقت؛ ليحكم أناسًا منقسمين بصولجان مكسور[1].

يمكننا أن نقرأ تاريخ الانشقاق العلوي أو التشيع في مكان آخر[2]؛ أما هنا فلا يمكننا إلا أن نتناول ما يخص الفتح الفاطمي لمصر. لقد امتلك أنصار سلالة عليّ - رغم أنهم لم يمتلكوا عمومًا صفات القادة الكبار - مثابرة الشهداء وإخلاصهم، وضاعفت معاناتهم من حماسة وتعصب مؤيديهم، فقد باءت كل محاولات استعادة السلطة الزائلة بالفشل، ولجأ العلويون إلى السلطة الدينية للمرشحين المتعاقبين من آل البيت، الذين أعلنوا أنهم أئمة أو قادة روحيين للمؤمنين. اكتسب مذهب الإمامية[3] تدريجيًّا معنًى

---

(1) Nicholson, Establ. Of Fat. Dyu., 7, 8.

(2) See, for example, Dozy, Hist. de l'Islamisme, Trans. Chauvin, ch. Ix.

(3) الشيعة الإمامية هم القائلون بإمامة عليّ بعد النبي ﷺ نصًّا ظاهرًا، من غير تعريض بالوصف بل إشارة إليه بالعين، وقالوا: وما كان في الدين والإسلام أمر أهم من تعيين الإمام، وتخطت الإمامة هذه الدرجة إلى الوقيعة بين كبار الصحابة طعنًا وتكفيرًا، ثم إن الإمامية لم يثبتوا في تعيين الأئمة بعد الحسن والحسين، بل اختلافاتهم أكثر من اختلافات الفرق كلها، وهم متفقون في الإمامة وسوقها إلى جعفر الصادق (ت 148هـ)، ومختلفون في المنصوص عليه بعده من أولاده، فالإسماعيلية قالوا: إن الإمام بعد جعفر هو إسماعيل، إلا إنهم اختلفوا في موته في حياة أبيه، فمنهم مَن قال: لم يمت إلا أنه أظهر موته تقية من خلفاء بني العباس، ومنهم من قال: موته صحيح، ومنهم مَن وقف على محمد بن اسماعيل وقال برجعته بعد غيبته، ومنهم من ساق الإمامة في المستورين منهم، ثم في الظاهرين القائمين من بعدهم وهم الباطنية، أما الاثنا عشرية فهم مَن قطع بموت موسى الكاظم بن جعفر الصادق وساقوا الإمامة في أولاده حتى الإمام الثاني عشر وهو الإمام محمد المنتظر، انظر: الشهرستاني، =

أكثر غموضًا، مُدعَّمًا بتفسير مجازيٍّ للقرآن؛ وتأثير غامض للإمام - رغم استتاره بسبب اضطهاد أعدائه - إلا أن تقديمه في شخصية المهدي المنتظر بشكل علني منذ ذلك الحين، سيطغى على فساد الخلافة المبتدعة، ويُسَلِّط الضوء على الذرية الطاهرة للرسول ﷺ[1]. يَعتقد كل أتباع محمد ﷺ بقدوم

= الملل والنحل، تحقيق: أمير علي مهنا، وعلي حسن فاعور، دار المعرفة - بيروت، ص 189: 198، ص 226 : 228. ويقول فخر الدين الرازي، (ت 606هـ/ 1209م)، إن الإمامية يقولون: إن عبد الرحمن بن ملجم لم يقتل عليًا، بل المقتول جنيّ يُرى في صورة عليّ، وصعد عليّ إلى السماء وسينزل وسيجيء أبو بكر وعمر وينتقم منهما، ويزعمون أن الرعد صوت عليّ والبرق سوطه، أما عن تسمية الشيعة بالروافض فيقول: إنهم سموا بالروافض لأن زيد بن عليّ بن الحسن بن عليّ خرج على هشام عبد الملك فطعن عسكره في أبي بكر فمنعهم من ذلك فرفضوه ولم يبق معه إلا مائتا فارس. فقال لهم - أي زيد بن علي - رفضتموني. قالوا: نعم، فبقي عليهم هذا الاسم، انظر: الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحرير: علي سامي النشار، القاهرة 1938م، ص 52، 53، راجع ترتيب أئمة الشيعة في نهاية هذا الفصل (المترجم).

(1) كان التشيع في بادئ الأمر سياسيًا بحتًا لا دخل للدين فيه، حتى أننا لا نعلم بالضبط كيف ومتى اعتنق مؤيدو ذرية عليّ تلك الخرافات المنسوبة للشيعة، فحتى وقعة فخ التي حدثت بالحجاز عام 169هـ وقتل فيها الكثير من العلويين من آل البيت بواسطة العباسيين لم نسمع عن أي تجاوز أو انحراف في العقيدة للأئمة العلويين أنفسهم أو تابعيهم، بل على العكس كانوا دائمًا مضرب الأمثال في الفقه والزهد والورع، وذلك مع الأخذ في الاعتبار كثرة الثورات العلوية التي شهدها التاريخ الإسلامي منذ ثورة الحسين عام 61هـ، وأغلب الظن أن ذلك الانحراف العقائدي لم يكن له أية صلة بالعائلة العلوية، وإنما كان الانتساب لهذه العائلة وما صحبه من انحراف في الفكر والعقيدة ذريعة دينية كانت بمثابة غطاء للأطماع السياسية. انظر عن الشيعة في صدر الإسلام: يوليوس فلهوزن، أحزاب المعارضة السياسية في صدر الإسلام (الخوارج والشيعة)، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، القاهرة 1958م، محمد ضياء الدين الريس، النظريات السياسية الإسلامية، القاهرة 1960م (المترجم).

المَهْدي، وهو المَسـيح الذي سيعيد الحق ويعد للظهور الثاني لمحمد ﷺ وحسـاب اليوم الآخر، لكن الشـيعة حوَّلوا ذلك التوقع إلـى رواية خاصة، فهـم يعلمـون أن الإمـام الحقيقي - رغـم اسـتتاره - فهو حيٌّ أبـدًا؛ هكذا تنبأوا بالظهور العاجل للمَهْدي، حتى يُبقوا أنصارهم على أهبة الاسـتعداد لحمـل السـلاح في خدمتـه. ومن خـلال وجهة نظرهـم في مقدمـه أقاموا تنظيمًا تآمريًّا تم نشـره من خلال مجتمع سـري مع مراحل بدء مُعدة بعناية؛ ومن ثمّ اسـتخدموا مذاهب كافة الأديان والطوائف كأسـلحة في دعايتهم، وأرسـلوا دعاتهم في كل مكان من أقاليم الإسـلام لزيـادة تابعيهم ولتمهيد الطريق للثورة العظيمـة. هكذا نرى نجاحهم الجزئي في الأفعال التخريبية للقرامطـة، الذيـن كانـوا بالفعل الآبـاء الحقيقيين للفاطميين[1]. لم يكن

(1) القرامطة هم طائفة سياسية اعتمدت على المذهب الإمامي الشيعيّ الذي يدعو إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، نسبة إلى قَرْمَط أحد دعاتها، وقد نجح القرامطة في إقامة دولة في البحرين في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، هكذا مثَّل القرامطة منذ ذلك الوقت محنة حقيقية للخلافة العباسية في بغداد، خاصة بعد أن بدأوا في التغلغل والنهب والقتل في جنوبي بلاد ما بين النهرين في غارات متجددة على الدوام، فضلًا عن مهاجمة قوافل الحجاج، ولم تستطع جيوش الخلافة الصمود أمامهم رغم تفوقها العددي في معظم الأوقات، وفي عام 316هـ/ 928م نجت بغداد بالكاد من الوقوع في قبضة القرامطة وتمكنوا بعد ذلك من احتلال مكة وقاموا بمذبحة رهيبة للسكان والحجيج على حد سواء؛ ومن ثمّ اقتلعوا الحجر الأسود من الكعبة واستولوا عليه، وهذا بالطبع يعد انتهاكًا للمقدسات لا نجد له مثيلًا في تاريخ الإسلام، وهذا يؤكد ما ذهب إليه البعض في أن هؤلاء القرامطة ومعتنقي الباطنية عمومًا ليس لهم علاقة بالإسلام؛ حيث كشفت أفعالهم عن الوجه الحقيقي للهرطقة الإسماعيلية التي عادة ما كانت تخفي نفسها وراء الإخلاص والولاء لآل البيت من أجل كسب المؤيدين والنجاة من الاضطهاد على أيدي المؤمنين، فهم في الظاهر كانوا =

للقادة ودعاتهم الرئيسـيين أي قاسم مشترك مع الدين الإسلامي، فقد كانوا فيما بين أنفسهم زنادقة. كما أن أهدافهم كانت سياسية محضة، لذلك قاموا باستخدام الدين في أية صورة وكيفوه على جميع الأوجه لحماية حماسة متبعيهم حيث نقلوا إليهم ما بوسعهم احتماله فحسب من مذهبهم. كان أولئك الرجال مزودين «بأسلحة من حماس الهداية»، ربما في أعلى صورة اكتمال معروفة في التاريخ، فقد كانوا يناشدون الحماسة وحُجج العقل، هذا فضلًا عن «الوقود لأعنف انفعالات بشرية، والأوقات التي يمكن أن تثار فيها». لقد جمعوا حقًّا البراعة العقلية والتجرد من المبادئ الخلقية المنسوبة لليسوعيّ The Jesuit، مع مواهب المنظمات الإجرامية. لم يكن هدفهم الحقيقي دينيًّا أو بنَّاءً، ولكن هدفهم كان عدميًّا خالصًا. فقد استخدموا دعوى عائلة عليّ ليس لأنهم اعتقدوا بأي حق ديني لهم أو حق

= يظهرون العقيدة الشيعية وفي الباطن كانوا يضمرون الكفر التام، وقد أكد على هذا الرأي كثير من علماء السنة آنذاك من أمثال القاضي أبي بكر الباقلاني، وابن حزم الذي قال: إن «الإسماعيلية والقرامطة هما طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة» (الفصل في الملل، ج2 / ص 274)، وعندما قامت بعد عقدين دولة الفاطميين في المغرب ربطتهم صلات المودة بهم؛ حيث أقر قرامطة البحرين بالإمامة للخليفة الفاطمي في المغرب، وجمعتهما في ذلك الوقت الأغراض السياسية، حتى أن الفريقين كانا قد تعاونا ضد الدولة العباسية لتحجيم نفوذها، وظلت سياسة التعاون قائمة حتى دخل الفاطميون مصر عام 358هـ فتضاربت المصالح بين الفريقين وتحول ذلك إلى عداء سافر وصدام مسلح. انظر: الطبري، ج10/ ص 23: 27، 121: 128، 130: 134، ج11/ ص 119، و. ماد لويغ، الفاطميون وقرامطة البحرين، ضمن كتاب: الإسماعيليون في العصر الوسيط، ترجمة: سيف الدين القصير، بيروت 1999م، ص 35: 82 ، ل. ا سيمينوفا، تاريخ مصر الفاطمية، ترجمة وتحقيق: حسن بيومي، القاهرة 2001م، ص 40 : 46 ، سهيل زكار، تاريخ أخبار القرامطة، بيروت، 1971م (المترجم).

في الخلافة، بل لأنه كان ينبغي التلويح براية ما من أجل استثارة الناس.

ارتحل أحد أولئك الدعاة متنكرًا في هيئة تاجر، عاد إلى إفريقية عام 280هـ/ 893م مع بعض المسافرين من البربر الذين أدوا المناسك الدينية في مَكة[1]. هكذا رحبت به قبيلة كُتامة الكبيرة، وسرعان ما كان تأثيره غير عادي على البربر – وهو عِرق ميال للخرافات – الذين تأثروا بسهولة بالطقوس الغامضة والطريقة الانفعالية للداعية، هذا بالطبع إلى جانب الظلم الذي وقع على أسرة الرسول ﷺ، والنصر المرتقب للمَهْدي. ومن ناحية أخرى لم يتعلق البربر كثيرًا بالخلافة، فلمدة قرن كانوا مستقلين فعليًا عن السلالة الحاكمة الأغلبية، والتي أبعد ملوكها المتعاقبين البربر من رعاياهم، علاوة على ذلك فإن العلويين وطدوا أنفسهم في السلالة

(1) هو أبو عبد الله الشيعي، المؤسس الأول للدولة الفاطمية بالمغرب. كان الأئمة الإسماعيليون قد اتخذوا مدينة (سلمية) من أعمال حماة بالشام مركزًا لدعوتهم، ومنها يوفدون دعاتهم إلى سائر الأمصار، وكانت اليمن من تلك الأقطار التي ارتكزت عليها الدعوة الإسماعيلية، والتي تولاها الداعيان الكبيران ابن حوشب وعليّ بن فضل منذ عام 268هـ، ومن اليمن امتدت الدعوة إلى كثير من الأقطار الإسلامية، وقد رأى الإمام الإسماعيلي آنذاك نشر الدعوة في بلاد المغرب، فهي بعيدة عن أنظار العباسيين من ناحية ومن ناحية أخرى أرض خصبة يمكن أن تنشر فيها دعاوى مثل الدعوة الشيعية، فاختار لهذا الغرض (أبا عبد الله الشيعي)، وبعثه إلى ابن حوشب باليمن لتدريبه على وسائل الدعوة عام 278هـ، ومنها ذهب إلى المغرب، انظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين الشيال، ومحمد حلمي محمد أحمد، القاهرة 1996م، ج1/ ص 60: 73، المقفى الكبير، ج3/ ص 483: 494، علي حسني الخربوطلي، أبو عبد الله الشيعي، القاهرة 1972م، حسن إبراهيم حسن و طه أحمد شرف، عبيد الله المهدي، القاهرة 1947م.(المترجم).

الحاكمة للإدريسيين[1] في المغـرب منذ نهاية القرن الثامـن، هكذا كانت البلاد في كل مكان عرضة للثورة، وكان نجاح أبي عَبْد اللَّه الشِّيعي - الداعية الجديـد - سـريعًا بصورة غير عاديـة، ففي خلال أعوام قليلـة كان لديه من التابعين نحو مائتي ألف رجل مسـلح، وبعد سلسلة من المعارك طُرد زيادة اللـه - آخـر أمير أغلبيّ - من الدولـة عام 296هـ/ 908م[2]؛ ومن ثَمَّ أَعلن

(1) أسس دولة الأدارسة (172 – 363هـ/ 788 – 974م)، إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علـيّ بن أبي طالب، الذي فر من مذابح العباسيين - بعد موقعة فخ بالقرب من المدينة عام 169هـ - إلى المغرب الأقصى حيث أسس إمارة مستقلة جنوبي سبتة وطنجة وهناك شرع في بناء مدينة فاس عام 172هـ لتكون حاضرة لدولته. ومن الملاحظ أن هذه الدولة رغم أن مؤسسها علويّ النسب إلا أنه لم يدن بالمذاهب الشيعية المعروفة التي تنهج منهجًا مغايرًا في العقيدة عن أهل السنة، بل إنه كان سببًا في انتشار مذهب الإمام مالك بين أهل المغرب، وهذا يثبت تبرئة سلالة علـيّ وآل البيت من تهم التشيع والانحرافات الفكرية التي تبنتها تلك الطوائف لأغراض سياسية. انظر عن دولة الأدارسة: لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام (القسم الثالث)، تحقيق وتعليق: أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء 1964م، ص 188: 218، السلاوي الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الجزء الأول، الدار البيضاء 1954م، سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف بالإسكندرية، ج2 / ص 419 : 478 (المترجم).

(2) سَمح العباسيون منذ أواخر القرن الثاني الهجري بنشوء سلالة حاكمة شبه مستقلة أو موالية اسميًّا لهم في المغرب الأدنى (إفريقية)، حكمها بنو الأغلب (184 – 296هـ/ 800 – 908م)، وذلك حتى تكون ذراعًا لهم في بلاد المغرب البعيدة، وفي نفس الوقت حائط صد ضد مَن خرج على طاعة العباسيين في المغرب الأوسط والأقصى مثل الرستميين الخوارج والأدارسة العلويين، وكان الأغالبة يمتلكون قوة بحرية كبيرة مكنتهم من غزو صقلية ومالقة وسواحل إيطاليا الجنوبية، =

الداعية آنـذاك أن الإمـام عبيد اللَّه[1] هـو الخليفة الحقيقـيّ والقائد الديني للإسـلام. وسواءً كان عبيد اللَّه هذا واحدًا من سلالة علي أم لا[2]، لـم يكن

= إلا إنهم لم يكن لهم نفوذ كبير داخل إفريقية، وقد أدى ذلك علاوة على سياسة الإقصاء التي اتبعوها تجاه البربر إلى سرعة نمو دعوة الفاطميين. عن دولة الأغالبة انظر: لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 14: 37، سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ج2/ ص 25: 286 ، أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية – بيروت، ص 226، جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة: محمود عبد الصمد هيكل، الإسكندرية 1996م (المترجم).

(1) انظر ترجمة المهدي والقول في نسبه: المقريزي، المقفى الكبير، ج4 / ص 523: 571، اتعاظ الحنفا، ج1 / ص 60: 73 حسن إبراهيم و طه أحمد، عبيد الله المهدي، ص 92: 143 (المترجم).

(2) كان مزعومًا أنه أخو الإمام الثاني عشر، الذي اختفى بغموض في سامراء؛ أو ابن أحد الأئمة «المستترين»، الذي (طبقًا للإسماعيليين) اتبع اتجاه الدين بعد وفاة الإمام السابع، لكن كان هناك على الأقل ثمانية أنساب مختلفة مجهزة لعبيد الله، وهذا التناقض ضمن مؤيديه أنفسهم هو حجة قوية ضد هذا السليل المزعوم من علـيّ والأئمة الآخرين، خاصة مع الأخذ في الاعتبار الفخر والعناية التي يوليها العرب لسلاسل أنسابهم. زعم من جانب آخر خصوم الفاطميين (أو العبيديين كما فضلوا أن يطلق عليهم) أن اسم عبيد الله الحقيقي كان سعيد؛ البعض قال إنه كان يهوديًا وتتبعوا نسبه – أو ذلك من أبيه المتبني – إلى طبيب عيون فارسي. أما المؤرخون العرب فهم منقسمون بشدة حول هذه النقطة، لكن آراءهم متحيزة جزئيًا بسبب التأثيرات الدينية والسياسية. كان المقريزي وابن خلدون أكثر المؤيدين المشهورين لشرعية عبيد الله الفاطمي، بينما كان كل من: جمال الدين الحلبي، ابن خلكان، المكين، أبي الفدا، السيوطي، أبي المحاسن، ضمن آخرين يعتبرونه مدعيًا. من المؤرخين الأوروبيين، تبنى دي ساسي De Sacy الأولى، وكواتريمير Quatremère وجهة النظر الثانية.

مُستعدًّا بعناية للدور؛ حيث وصل إلى المغرب متنكرًا في صعوبة وسرية تامة، تطارده شكوك الخليفة العباسيّ، الذي أَرسل في ذُعر شديد أوامر متكررة باعتقاله[1]. وبالفعل كان على الداعية المنتصر أن ينقذ القائد الديني من السجن القذر في سِجِلْمَاسَة[2]، حيث سجد أمامه في تواضع وحيّاه كأنه المَهْدي المُنْتَظر، وفي جمادى الأول 297هـ/ يناير 910م، كان يدعو له في جامع القَيْرَوَان بصفته «الإِمَام عُبَيْدُ اللَّهِ المَهْدي، أمير المؤمنين»[3].

---

(1) وقع عبيد الله المهدي بالفعل في يد أمير سجلماسة الذي قام بحبسه إلى أن خلصه أبو عبد الله الشيعي عام 296هـ/ 908م، ابن الأثير، ج8 / ص 13، 14، المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج1 / ص 64: 67، و راجع عن رحلة المهدي إلى المغرب: محمد اليماني، سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج المهدي صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سلمية إلى سجلماسة وخروجه منها إلى رقادة، تحقيق: و. إيفانونف، مجلة كلية الآداب – جامعة فؤاد الأول، المجلد الرابع عام 1936م، ص 107: 133(المترجم).

(2) تقع جنوب الأطلس الكبير شرقي دولة المغرب الحالية، كانت عاصمة لأول دولة مستقلة في المغرب الإسلامي عن الخلافة في المشرق وهي إمارة بني مدرار الخارجية، يقول الحميري إنها بنيت سنة 140هـ بواسطة مدرار بن عبد الله وهو رجل من أهل الحديث، وهي على طرف الصحراء بينها وبين غانة في الصحراء مسيرة شهرين في رمال وجبال غير عامرة، وبها كان قيام الدعوة العبيدية، الحميري، الروض المعطار، ص 306 (المترجم).

(3) اختلف مفهوم الخلافة عند الشيعة عنه عند السنة، لذلك من الملاحظ أن الفاطميين لا يستعملون المصطلح المعروف (الخلافة)، وإنما يؤثرون استعمال لفظ (الإمامة) التي هي أساس المذهب الإسماعيلي، فالشيعة الإسماعيلية يعتقدون أن الإمامة هي ركن الدين وهي قاعدة الإسلام، لذلك كانت الوثائق الصادرة عن الدولة تذكر دائما الحاكم بصيغة (الإمام) عكس العباسيين الذين استخدموا في مكاتباتهم وخطبهم لفظة (خليفة). انظر: جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، القاهرة 2002م، ص 22، 23، أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية 1968، ص 54 (المترجم).

كانت أعداد البربر الذين استجابوا للدعوة الشيعية كبيرة للغاية بما لا يشجع على أية مقاومة، وقد تم قتل أو اعتقال القليل ممن استجابوا لرفاهية التردد الذي يمليه الضمير، وهكذا ظهر المَهْدي بالفعل آمنًا في السلطة لدرجة أنه أثار غِيرة مكتشفه، هكذا وجد الداعية أبو عبد الله نفسه آنذاك بلا قيمة، بينما كان الأهم منذ شهر مضى، لقد كانت استعادة الفاطمية له مجرد وسيلة لغاية معينة؛ حيث استَخدم لقب عبيد الله كمحرك للثورة، ناويًا بذلك التقدم إلى أقصى حدود فلسفته، إلى فوضى اجتماعية وسياسية شاملة، تحوي بين طياتها دمار الإسلام، فضلًا عن حيازة الأراضي والنساء، وكل متعة مبنية على الفجور المتحرر من كافة الأصفاد، لكن تهاوت كل تلك المكائد بتهميشه.

من هنا بدأ في تدبير الخيانات وفي التلميح إلى الشك في حقيقة المهدي، الذي طبقًا للنبوءة يُتوقع أن يقوم بالمعجزات ويُظهِر أدلة أخرى على مهمته الدينية، هكذا بدأ الناس في طلب «علامة»، فكان الرد هو أَمْر المَهْدي بقتل داعيته.

كان الخليفة الفاطمي الأول - رغم عدم خبرته - حاكمًا نشطًا لدرجة أنه استطاع أن يستغني عن الدعم الخطير لداعيته. لقد احتفظ بالعرش لربع قرن وطد فيه سلطته - بصورة كثرت أو قلت - بشكل مستمر على العرب والقبائل البربرية والمدن المأهولة من حدود مصر إلى فاس[1] بالمغرب،

(1) هي مدينة كبيرة بالمغرب الأقصى، ذكر الحميري أنها مدينتان مقترنتان يشق بينهما نهر، وهي قطب بلاد المغرب الأقصى ويسكن حولها قبائل البربر لكنهم يتكلمون بالعربية، ومدينة فاس محدثة، أسست عدوة الأندلسيين سنة 192هـ وعدوة القرويين سنة 193هـ في ولاية إدريس بن إدريس الفاطمي، وكانت فاس دار مملكة بني إدريس العلويين وملكوا منها بلاد المغرب كلها إلى أقصى بلاد السوس، ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 230، الحميري، الروض المعطار، ص 434 (المترجم).

وتلقى ولاء الحاكم الإسلامي لصقلية، وبعث بحملتين إلى مصر، والتي كان سيغزوها على الأرجح بشكل مستمر إن لم يعقه العصيان المسلح الدائم للبربر. كان الولاة البعيدون وكثيرًا من قبائل البربر في حالة من الثورة المستمرة[1]، وأدت المجاعة الكارثية عام 316هـ/ 928 - 929م - التي اقترن بها الطاعون الآسيوي الذي جلبه جنوده معهم من مصر - إلى اضطرابات عامة وكثير من العصيان المسلح الذي شغل الأعوام الأخيرة من حكمه بشكل كامل.

(1) كانت قبيلة كتامة البربرية هي الأساس الذي قامت عليه بناء الدولة الفاطمية، وهذا ما جعلها تستأثر بالنفوذ والحظوة والمناصب في تلك الدولة، هكذا وقعت الدولة الفاطمية فيما وقعت فيه من قِبَل الدولتين الأموية والعباسية في تفضيل عنصر معين في الإدارة والمناصب وتنحية باقي العناصر مما تسبب في إثارتها وانقلابها على الدولة، وهذا ما حدث للدولة الفاطمية بالمغرب؛ إذ استمرت الثورات على الحكم الفاطمي؛ وهذا ما أدى في النهاية إلى إنهاء النفوذ الفاطمي الفعلي والروحي في إفريقية في منتصف القرن الخامس الهجري - بعد أقل من قرن على انتقال الخلافة الفاطمية من المغرب إلى مصر - والدعاء للخليفة العباسي في بغداد. ويرى ابن خلدون أن الناس قد حُملوا حَملًا على المذهب الشيعي في إفريقية، وذكر أن الوالي الفاطمي على تاهرت سنة 298هـ (أمحى في مؤامراتها الإباضية من لماية وازدلجة ولواية ومكناسة ومطماطة، وحملهم على دين الرافضة)، ومع كل تلك المحاولات لم ينجح الفاطميون في نشر مذهبهم بين أهل إفريقية، وهذا يرجع أولًا إلى أن المذهب المالكي السني كان راسخًا بقوة بين أهلها، مما كان له تأثير كبير في اعتماد الدولة بقوة على أنصارها من الكتاميين، انظر: لقبال محمد موسى، دور قبيلة كتامة في قيام الخلافة الفاطمية، الجزائر 1979م، محمود إسماعيل، المالكية والشيعة بإفريقية إبان قيام الدولة الفاطمية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد 23 عام 1976م، ص 73 : 106 (المترجم).

وكثيرًا ما تخلصت الأقاليم الغربية، من تاهرت[1] ونكّور[2] إلى فاس وما بعدها، من أي مظهر للولاء. هكذا تأسست سلطته على الخوف أكثر من الحماس الديني، برغم أن حماسة قضية العلويين كان لها نصيبها الوافي من نجاحه الأصلي؛ حيث فُرِضَت القوة بحد السيف على «المذاهب الشرقية»، كما كان يطلق عليها، ونُفِّذَت الأمثلة المروعة على أولئك الذين غامروا بانتهاج السبل القديمة. ولم يشجع حتى المفكرين الأحرار من المدن

(1) هي مدينة بالمغرب الأوسط بين تلمسان وقلعة بني حماد، كانت مركزًا من مراكز الخوارج الإباضية قبل قيام الدولة الفاطمية، فقد نجح الخوارج في الدعاية لمذهبهم في المغرب بعيدًا عن قبضة الخلفاء في المشرق، فاعتنقته قبائل من أمثال هوارة ولماية ولواتة ونفوسة في المغرب الأوسط، وبعد معارك بينهم وبين العباسيين استطاعوا إقامة إمارة في المغرب الأوسط أقاموا عليها عبد الرحمن بن رستم الفارسي الأصل الذي نسبت إليه الدولة، وذلك عام 144هـ، ومن ثمّ شرع في بناء مدينة تاهرت التي اتخذها قاعدة لدولته التي انتهت على يد الفاطميين عام 296هـ، وقد ذكر الحميري أن تاهرت الحديثة في قبليها لواتة وهوارة في قرارات، وبغربيها زواغة وبجوفيها مطماطة وزناتة ومكناسة، وفي شرقيها حصن هو تاهرت القديمة، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج2/ ص 7؛ الحميري، الروض المعطار، ص 126؛ محمد بن تاويت التطواني، دولة الرستميين أصحاب تاهرت، مجلة المعهد المصري بمدريد، عام 1957م، ص 105: 129؛ محمود إسماعيل عبد الرازق، الخوارج في بلاد المغرب، دار الثقافة - الدار البيضاء 1985م (المترجم).

(2) هي مدينة تقع بريف المغرب الأقصى بالقرب من مدينة مليلة، ذكر الحميري أن بينها وبين البحر عشرة أميال أو خمسة، وهي مدينة قديمة افتتحها الأمير سعيد بن إدريس ابن صالح الحميري أو بناها وذلك أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان في الافتتاح الأول قبل موسى بن نصير، وعلى يديه أسلم البربر المجاورون لهذه المدينة وهم صنهاجة وغمارة، انظر: الحميري، الروض المعطار، ص 576 ، 577 (المترجم).

الكبرى، الذين شاركوا في مبادئ الدعاية السرية. لقد كان المَهْدي - ظاهريًّا على الأقل - مسلمًا على نحو صارم، فعندما بدأ الناس في القَيْرَوان في وضع نظريات الدعاية المتقدمة قيد الممارسة العملية، بالسخرية من جميع قواعد الإسلام؛ لينغمسوا في الحب المتحرر ولحم الخنزير والخمر، تم إعادتهم للنظام بقوة. وقد أشيعت القوى الغامضة المتوقعة للمَهْدي بصورة واظب عليها البربر سريعو التصديق، رغم أنه لم تُعرض لهم أي معجزة بشكل فعليّ؛ وتم الحصول على طاعة الأقاليم التي تم غزوها من خلال اعتداءات فظيعة وأعمال وحشية؛ حيث لم يجرؤ الناس الفزعون بسببها أن يُظهروا أي بادرة عصيان بين أيدي قادة المَهْدي المتوحشين.

ارتقى ابنه الأكبر أبو القاسم - الذي قاد الحملات مرتين إلى مصر - الخلافة بلقب القائم (322 - 335هـ/ 934 - 946م)[1]. بدأ حكمه بنشاط حربي واسع؛ حيث أرسل أسطولًا عام 322هـ/ 934م أو 323هـ/ 935م، غزا به الساحل الجنوبي لفرنسا وحاصر جِنْوة واستولى عليها، وأبحر بمحاذاة كالابريا Calabria ينهب ويقتل ويحرق السفن، ويسبي العبيد أينما ضرب. في نفس الوقت أرسل جيشًا ثالثًا إلى مصرْ؛ لكن بعد أن أمسكت يد الإخْشيد القوية بالحكم؛ حيث طَرد أخوه عُبَيْدُ اللَّه - برفقة خمسة عشر ألف فارس - العدو من الإسْكندرية وألحق بهم هزيمة ساحقة في طريق عودتهم، رغم ذلك كان القائم في أكثر أوقات حكمه دفاعيًّا، محاربًا من أجل الوجود ضد محاولات اغتصاب عرشه ممن يُدْعَى أبا يزيد، الذي

(1) انظر ترجمته: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5 / ص 19، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ ص 74 (المترجم).

أنكر التشيع ولعن المَهْدي وخلفه، وأثـار معظم المغرب وبلاد البربر ضد حكـم القائـم، وما لبث أن طـرده من عاصمتـه، واقترب مـن أن يضع حدًّا للخلافـة الفاطميـة[1]. إلا أنـه بعد سـبع سـنوات فقط من الحـرب الأهلية المسـتمرة انتهى عصيانه المسـلح الكبير، تحت الإدارة الصلبة والسياسـية في نفس الوقت للخليفة الثالث، المَنْصُور (335 – 341هـ/ 946 – 953م)[2]، وهـو رجل شـجاع عَرِف متى يضرب ومتى يكون كريمًا. وأخيرًا عُثِرَ على أبي يزيد، مسلوخ ومحشو بالقش، ومعروض في قفص مع زوج من القردة المضحكة كتحذير للساخطين.

تقلدت الفاطمية حتى الآن شخصية وحشية همجية، فلا يبدو أنهم قاموا بتشـجيع الأدب أو العلم، ويفسر هذا بشكل جزئي حقيقة أن الثقافة انتمت بصـورة رئيسـية للخلافـة التقليديـة، التي لم يكـن لرجالهـا المتعلمين أي تعاملات مع المُدَّعِي المبتدع. ولقد احتفظت مدينة القَيْرَوان – التي ترجع إلى الفتح العربي في القرن الثامن – ببقايا بعض المباني الفخمة، لكن ليس مـن عواصمهـم الأخرى أو مقارهـم الملكية: المَهْدية (أُسِّسَـت بين عامي

(1) كانت ثورة أبي يزيد مخلد، أخطر الثورات التي قامت ضد الحكم الفاطمي بإفريقية وأطولها، وينتسب أبو يزيد لقبيلة (زنانة) المغربية؛ حيث اعتنق المذهب الإباضي الخوارجي الذي انتشر في تلك النواحي من المغرب قبل قيام الدولة الفاطمية، وقد استغل مذهبه الديني في إثارة القبائل التي تتفق معه في المذهب، ودعا إلى مجاهدة الشيعة الأعداء اللدودين للخوارج بوجه عام، واستطاع بالفعل اقتطاع المدن المغربية من الخلافة الفاطمية حتى وصل إلى القيروان نفسها، انظر: ابن الأثير، ج8/ ص 165، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1 / ص 75 : 87 (المترجم).

(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1 / ص 88 : 92 (المترجم).

300-306هـ/ 913-918م)، المُحَمَّدِيَّة (312هـ/ 924م)، والمَنْصُوريَّة (صبرا العتيقة، التي جُدِّدَت وأُعِيدَ تسميتها عام 336هـ/ 948م)، ويلاحظ أن المدينتين الأخيرتين هما مجرد ضاحيتين للقَيْرَوَان، واللتين لم يبق بهما أي أثر للفن أو المعمار الذي يمكن أن يشهد على ذوق المؤسسين؛ حيث بدأ بعضها في الزوال عندما تم بناء مدن أخرى.

رغم ذلك، فإنه مع الخليفة الرابع (المُعِزّ)[1] فاتح مصر (341-365هـ/ 953-975م)[2]، دخل الفاطميون في حالة جديدة. كان المعز سياسيًّا بارعًا، ورجل دولة من الطراز الأول، قادرًا على الإلمام بشروط النجاح وعلى استغلال كل نقطة لصالحه، فضلًا عن ذلك فقد حظيَ بتعليم رفيع. لم يكتب المعز الشعر العربي إلا أنه تمتع بأدبه، ودرس اللغة اليونانية، وأتقن البربرية واللهجات السودانية، بل يقال إنه تعلم السلافية ليتحدث مع عبيده

(1) كان اسمه الكامل ولقبه: الإمام أبو تَمِيم مَعَد الـمُعِزّ لدين الله، وكانت عملات المعز متعددة بشكل واضح، سُكَّت في الـمَهْدية والـمَنْصورية وصقلية؛ وبعد غزو مصر سكت في (الفُسْطاط) منذ 358هـ (969م)، وفِلَسْطين (الرَّمْلَة) منذ 359هـ وصُور عام 361هـ، وطَرَابلس عام 364هـ (974-975م). وتحمل عملة فريدة في المكتبة الخديوية بالقاهرة النقوش المعتادة للمعز ومكان السك وتاريخه، مدينة مصر عام 341هـ وهو عام ارتقائه للحكم؛ حيث لم تكن هناك أى حملات فاطمية داخل مصر في ذلك العام، لذلك فإن هذه العملة قد سجلت ادعاء بتوقع فتح مصر بعد 18 عامًا لاحقة، أو أنها تظهر خطًّا في النقش.

(2) انظر: ابن خلكان، ج5 / ص 224 : 229 ، لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 55: 61 ، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1 / ص 93 : 235 (المترجم).

من شرق أوروبا[1]. كانت فصاحته تثير البكاء في جمهور سامعيه، وأضاف إلـى إلمامه بإدارة شـئون الدولة كرمًا شـديدًا، أما حبه للعـدل فكان ضمن أكثر صفاته نبلًا. وبقدر ما كانت تظهر ممارساته، كان مسلمًا صارمًا ينتمي للطائفـة الشـيعية، ويبـدو أن عبارة خصومـه التي وصفته بالإلحـاد، كانت ترتكز فحسـب على اعتقاد مفـاده أن كافة الفاطميين قـد اعتنقوا المذاهب الباطنية للدعاة الإسماعيليين.

كانت له سياسته الفعلية التي لـم يُضع الوقت في حملها قيد التنفيذ حين ارتقى العرش في ذي الحجة عام 341هـ/ إبريل 953م. لقد قام أولًا بالتجول خلال الأراضي الخاضعة لسـيادته، زائـرًا كل مدينة وباحثًا عن احتياجاتها، وموفرًا لها السـلام والازدهار. تحدث إلى الثوار في معاقلهم الجبلية؛ حتى وضعوا أسـلحتهم وخروا تحت قدميه. استمال الرؤسـاء والحكام بالهدايا

(1) أُطلق عليهم الصقالبة، ولقد استخدم العنصر الصقلبي بكثافة في غرب العالم الإسلامي، بعكس المشرق الذي اعتمد على العنصر التركي، حيث استخدم الأمويون في الأندلس مماليكهم من الصقالبة في الإدارة والجيش، وذلك للحد من الأرستقراطية العربية في الحكم، وإضعاف سيطرة الجند العرب والبربر، وعندما قامت الدولة الفاطمية على أنقاض الأغالبة في المغرب، سارت على نفس سياستها في اتخاذ المماليك من الصقالبة وغيرهم، إلى جانب اعتمادها على قوة أهل البلاد من المغاربة، واستمر الفاطميون في ذلك حتى بعد انتقالهم إلى مصر، وليس أدل على إكثار الفاطميين من الصقالبة من تسمية أحد الشوارع الفاطمية في القاهرة باسمهم، وهو الشارع الممتد بين حارة زويلة وخان أبو طاقية، انظر: أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية – بيروت 1986م، ص 60، 61 ، 68، 69، الصقالبة في إسبانيا، مدريد 1953م (المترجم).

والمناصب، فعاد عليه ذلك بولائهم. نَصَّب على رأس وزرائه جَوْهَر[1] «الرُّومانيّ» - وهو عبد مملوك من الإمبراطورية البيزنطية - ارتقى لمنصب أمين الخليفة السابق (والد المُعِزّ)، ورقاه ابنه بعد ذلك إلى مرتبة وزير وقائد للقوات. لقد تم إرسال جَوْهَر عام 347هـ/ 958م ليحوز على ولاء المَغْرب دائمة العصيان، فحازت حملته على نجاح كبير؛ حيث سيطر على سِجْلِمَاسَة وفاس، ثم وصل أخيرًا إلى شاطئ المحيط الأطلسي. وعلى أثر ذلك وصلت جرار من الأسماك الحية والطحالب البحرية إلى العاصمة، لتثبت للخليفة أن إمبراطوريته وصلت إلى المحيط الذي لا عمارة بعده، هكذا اعترف كل الأفارقة الساحليين من المحيط الأطلسي إلى حدود مصر (باستثناء مدينة سِبْتة Ceuta الإسبانية) بحكم الخليفة الفاطميّ[2].

كانت النتيجة راجعة بشكل جزئي للإنهاك الذي سببه الكفاح الطويل طوال فترات الحكم السابقة، ومن ناحية أخرى للتنازلات السياسية والتأثير الشخصي للحاكم الشاب ذي الكفاءة، فقد كان سخيًّا واسترضائيًا تجاه الأقاليم البعيدة، لكنه كان صارمًا تجاه عرب العاصمة؛ حيث عجت القَيْرَوَان بالساخطين من رجال الدين والمتدينين على المبتدعة الفاطميين، وكانوا

---

(1) هو القائد أبو الحسن جوهر بن عبد الله، المعروف بالكاتب الرُّوميّ، كان من موالي المُعِزّ بن المَنْصور، سيره المعز لفتح مصر في ربيع الأول سنة 358هـ تسلم مصر في شعبان من نفس السنة، انظر ترجمته في: ابن خلكان، ج1 / ص 375: 380، المقريزي، المقفى الكبير، ج3/ ص 83: 112، علي إبراهيم حسن، جوهر الصقلي، القاهرة 1934م (المترجم).

(2) انظر لمزيد من التفاصيل: أحمد مختار العبادي، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، مجلة المعهد المصري بمدريد، المجلد الخامس 1957م، ص 193: 227 (المترجم).

على استعداد دائم لإثارة الشغب. هكذا عَزم المُعِزّ على ألا يمنحهم أية فرصة، فكانت إحدى تدابير قمعه حظر التجوال الذي يسري مع غروب الشمس حين يدوي صوت بوق، ومَن يُعثر عليه بعدها في الطريق يصبح عرضة للقتل. رغم ذلك طالما تمتع الناس بالهدوء، حكمهم بالعدل وسعى لنيل تأييدهم.

وفي مقابلة شخصية (سجلها المقريزي) عرض نفسه على وفد من الشيوخ، مرتديًا أبسط الثياب، حيث جلس أمام أدوات كتابته في حجرة بسيطة محاطًا بالكتب. لقد رغب من خلال ذلك أن يزيل توهمهم بفكرة عيشه في حياة خاصة مترفة منغمسة في الملذات؛ حيث قال: «يا إخواننا أصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد فقلت لأم الأمراء وإنها الآن بحيث تسمع كلامي، أترى إخواننا يظنون أن في مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب في المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء كما يفعل أرباب الدنيا، ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم لتشاهدوا حالي إذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم، وإني لا أفضلكم في أحوالكم إلا بما لا بد لي منه من دنياكم، وبما خصني الله به من إمامتكم، وإني مشغول بكتب ترد عليَّ من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطي، وإني لا أشتغل بشيء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون أرواحكم ويعمر بلادكم ويذل أعداءكم ويقمع أضدادكم».

ثم أعطاهم نصائح كثيرة جيدة، أهمها أن يحتفظوا بزوجة واحدة: «الزموا الواحدة التي تكون لكم، ولا تشرهوا إلى التكثر منهن والرغبة فيهن فينغص عيشكم وتعدو المضرة عليكم»، كما قال خاتمًا: «رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم»[1].

---

(1) نص رواية المقريزي، الخطط، ج2 / ص 34 ، 35 ، اتعاظ الحنفا، ج1 / ص 95، 96 (المترجم).

كان فتح مِصْر هو حقًّا هدف حياته، فلم يكن حكم بلاد المَغْرب الفقيرة ولا قبائلها الثائرة تناسب رجل في مقدرته، كانت مِصْر هي منتهى ما تصبو إليه نفسه، بثروتها وتجارتها وموانئها العظيم، وسكانها الطيعين على الانقياد. وفي غضون عامين حفر الآبار وأقام منازل للاستراحة على الطريق إلى الإسْكَندرية، في وقت هدأ المَغْرب فيه ودان له بالطاعة، علاوة على أن جيوش القرامطة المخربة كانت قد وقفت بين مِصْر وأي أمل للعون من الخليفة الشرقي، هكذا غرقت مِصْر في ذلك الوقت في فوضى بائسة، بعد أن مات كافور وجلس على عرشه طفل صغير، وأصبح الوزير ابن الفُرات بغيضًا لدى الناس من خلال الاعتقالات والمصادرات، أما الجند أنفسهم فكانوا في حالة من الثورة، فقد تمرد تابعو البلاط من الأتراك وقاموا بنهب قصر الوزير، بل وبدأوا في التفاوض مع المُعِزّ.

حاول حُسَين – ابن شقيق الإخْشيد – أن يستعيد النظام العام، لكن بعد ثلاثة أشهر من التأرجح والحكومات غير الشعبية عاد إلى إقليمه الخاص بفلسطين ليضع حدًّا للقرامطة. وقد أضاف إلى بؤس البلاد حالة المجاعة، وانخفاض مستوى النهر الاستثنائي عام 356هـ/ 967م، و كالمألوف تبع ذلك الطاعون، فتوفي على إثره أكثر من ستمائة ألف في الفُسْطاط وما حولها، وبدأ السكان البائسون النزوح في يأس إلى أراضٍ أفضل حالًا.

لقد تم إبلاغ المُعِزّ بكل تلك الأحوال بواسطة اليهودي المتحول، يَعْقُوب بن كِلِّس[1]، أحد المقربين لدى كافور، والذي تم إخراجه من

(1) هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلس، كان يهوديًّا ولد ونشأ في بغداد، جاء إلى مصر مع والده عام 331هـ، اتصل بكافور ولم تزل أحواله تتزايد معه حتى تقدم كافور إلى سائر الدواوين ألا يمضي دينار ولا درهم =

مصر بواسطة الوزير الغيور ابن الفُرات، حيث كان ابن كِلِّس شديد المعرفة بالحالة السياسية والاقتصادية لوادي النيل، هكذا أكد ممثلوه قرار الخليفة الفاطمي؛ الذي استدعى القبائل العربية إلى مقره. وهكذا تم جمع ثروة هائلة بلغت أربعة وعشرين مليون دينار من الذهب طبقًا للمقريزي، أُنفِقَت بأكملها على الحملة، حيث وُزِّعَت العطايا بسخاء على الجيش؛ وزحف جَوْهَر على رأس أكثر من مائة ألف جندي تاميّ التجهيز والتسليح، مصحوبين بألف جَمَل وحشد من الجياد التي تحمل المال والمؤن والعتاد.

سار جَوْهَر من القَيْرَوَان في ربيع الثاني 358هـ/ فبراير 969م؛ حيث استعرض الخليفة الجنود بنفسه، وقَبَّلَ جَوْهَر يد الخليفةَ وحافر فرسه، ثم مر جميع الأمراء والحاشية في وقار سيرًا على الأقدام أمام القائد المُكرَّم للجيش الفاتح، والذي تلقى - كدليل آخر على الحظوة - هدية من أردية سيده وفرسه القتالي. كان على كل ولاة المدن أن يأتوا



شكل (20) دينار المعز، مصر، 969م

= إلا بتوقيعه، أسلم سنة 356هـ وبعد موت كافور قبض عليه جعفر بن الفرات مع جميع الكتّاب وأصحاب الدواوين، فلم يزل يبذل الأموال حتى أفرج عنه، فلما خرج سار إلى بلاد المغرب فلقي القائد جوهر وهو متوجه بالعسكر إلى الديار المصرية، فرجع إلى مصر ولم يزل يترقى إلى أن ولي الوزارة للعزيز نزار بن المعز سنة 368هـ إلى أن مات في 380هـ انظر ترجمته وأخباره في: ابن الصيرفيّ، الإشارة لمن نال الوزارة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية 1990م، ص 47: 52، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7 / ص 27 : 35 (المترجم)

سيرًا على أقدامهم أمام جَوْهَر الممتطي ركابه، في حين عَرض أحدهم عبثًا رشوة ضخمة كي يُعفى من هذه الإهانة[1].

أصـاب تقدم قـوات جَوْهَـر الهائلـة الـوزراء المصـريين بالرعـب، واقتصـر تفكيرهـم على نيل شـروط مواتيـة، هكذا توجه وفد مـن البارزين على رأسهم أبي جَعْفَر مُسْلم - أحد الأشراف (أو آل البيت) - للقاء جَوْهَر قرب الإسْكَندرية حيث طالبوا باستسلام مشروط، فوافق القائد بلا تحفظ، ومنحهـم عهدًا بكل ما طلبـوه[2]. لم تصغ القوات في الفُسْـطاط لمثل هذا الإذلال، وكان هنـاك فريـق قـوي مؤيدًا للحـرب بين المواطنيـن، وهذا ما مـال إليه بعـض الوزراء أيضًـا. اسـتعدت المدينة للمقاومـة؛ حيث وقعت مناوشـات مع جيش جَوْهَر، والذي وصل فـي غضون ذلك إلى الجِيزَة في يوليو، ونجح في عبور النهر بمسـاعدة بعض القـوارب التي أمده بها جنود مصريـون؛ حيـث فاجأ الغـزاة الجيش المقـاوم الذي اصطـف على الضفة الأخرى، وهزموهم هزيمة سـاحقة، ففر الجنود من الفُسْـطاط ذُعرًا، وكذا النسـاء من البيوت، وما لبثوا أن هرعوا مرة أخرى إلى الشـريف وطلبوا منه التوسط لدى القائد، فما لبث أن جدَّد جَوْهَر وعوده السابقة - فقد كان مثل سيده دائم الميل إلى التساهل السياسي - ومنح العفو العام لكل من استسلم.

هكـذا أطاحت الجماهير المسـرورة بـرؤوس بعض قـادة المقاومة في غمرة حماسـهم، وأرسـلوها للمعسـكر كعلامـة على الـولاء، فانطلق مناد يحمل علمًا أبيض يجوب شـوارع الفُسْـطاط معلنًا عن العفـو العام وحَظْر السَّلب، وفي الخامس من أغسطس دخل الجيش الفاطمي العاصمة بكامل أبهته بالطبول والرايات.

---

(1) ذكر ابن خلكان أن الخليفة أمر والي برقة بالترجل لقائده عند مروره، ولم يقبل منه مائة ألف دينار مقابل أن يعفى من ذلك، ابن خلكان، ج1 / ص 148 : 154 (المترجم).
(2) انظر نص العهد في: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1 / ص 102 : 107 (المترجم).

لقد وضع جَوْهَر في نفس الليلة أساس مدينة جديدة، أو بالأحرى قصر حصين، وذلك لاستقبال سيده العظيم. وفي أرض قفر رملية امتدت شمال شرق الفُسْطاط على الطريق إلى عَيْن شَمْس - على مسافة ميل تقريبًا من النهر -عَيَّن جَوْهَر حدود العاصمة الجديدة؛ حيث لم تعترض خططه أي مبان، باستناء «دَيْر العِظام» القديم، ولا أي زراعة باستثناء «البُسْتَان الكَافوريّ»[1].

عُيِّنَت الحدود بواسطة السواري على مساحة تزيد بعض الشيء عن الميل في كل اتجاه، وتشاور المُنَجِّمون المغاربة معًا - وهم مَن وضع فيهم المُعِزّ ثقته المفرطة - لتحديد أفضل الأوقات لبدء العمل بالبناء، «فاختار المنجمون طالعًا لوضع الأساس وطالعًا لوضع السور، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمين حبل به أجراس، وقالوا للعمَّال: إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة. وكان أن وقف غراب على حبل من تلك الحبال فتحركت الأجراس ودقت، وظن العمال أن المنجمين قد حركوها فألقوا الطين والحجارة وبدأوا العمل، وكان كوكب القاهِر في الطالع فسميت القاهِرة، وقيل إن المريخ كان في الطالع - وهو قاهِر الفلك - فسميت القاهِرة»[2].

لقد كانت ساعة نحس، حيث كان كوكب المريخ (القاهِر) في الطالع؛ إلا أنه لم يكن من الممكن الرجوع عن ذلك، فسُمِّيَ المكان باسم الكوكب

(1) انظرعن بناء القاهرة الفاطمية: المقريزي، الخطط، ج2 / ص 54 : 60، اتعاظ الحنفا، ج1/ ص 102 : 119 (المترجم).

(2) نص رواية أبي المحاسن، النجوم الزاهرة، ج2 / ص 41، انظر أيضًا: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1 / ص 112 (المترجم).

العدائـي (القَاهِـرة) أو «المُنْتَصِرة»[1]، على أمل أن الفأل السـيئ سـيتحول إلـى انتصـار[2]. ويُمكـن أن يُقال بإنصـاف أن القاهرة عَمَّـرَت أكثر من كل تصورات المنجمين[3]. هكذا حُذِفَ اسـم الخليفة العباسـي على الفور من خُطبة الجمعة في جامع عمرو القديم بالفسـطاط؛ وحُرِّمَت الثياب السوداء العباسية، حيث ألقى الخطيب - في ثوب أبيض نقي - الخطبة باسم الإمام المعز أمير المؤمنين، ودعا لأجداده عليّ وفاطمة ولكل آل البيت، وتم رفع الأذان من المنارات طبقًا للمذهب الشيعي. هكذا أُرسِلَت الأخبار السعيدة إلى الخليفة الفاطمي على جمال عربية سـريعة، مصحوبة برؤوس القتلى، وسُـكَّت العملات وفقًـا لصيغة العقيدة الفاطمية - «علـيّ أفضل الوصيين ووزير خير المرسـلين»، «دَعا الإمام مَعَد لتَوحيـد الإله الصَّمَد»، بالإضافة إلـى المبـادئ المعروفة للدين الإسـلامي. هكذا أقرت المسـاجد الجامعة ودار السك لقرنين من الزمان بشعارات الشيعة.

---

(1) نسب بعض المؤرخين هذه القصة للإسكندر الأكبر عند بنائه للإسكندرية مما يدل على عدم صحتها، انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج1 / ص 215 (المترجم).

(2) يُضيف (المقريزي) 384، أن القاهرة قد سُمِّيَت أيضًا بالمنصورية (على الأرجح على غرار المدينة أو ضاحية القيروان التي بناها المنصور الفاطمي)، انظر: Lane's Cairo 6 - 23. يظهر اسم القاهرة لأول مرة على عملة عام 394هـ (1003- 1004م)، مع لقب المحروسة: لكنه لا يعاود الظهور لأكثر من قرن لاحق، 508 - 524هـ، عندما يصبح الاسم: القاهرة المعزية. يُفسِّر الظهور النادر للاسم أن دار سك الحاضرة لازالت تُدَار - كما سبق - من الفسطاط. تحمل العملات اسم القاهرة بانتظام بعد حرق الفسطاط عام 563هـ/ 1168م وارتقاء صلاح الدين.

(3) انظرعن تطور مدينة القاهرة: حسن عبد الوهاب، تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها، منشورات المجمع العلمي المصري 1955م، أندريه ريمون، القاهرة تاريخ حاضرة، ترجمة: لطيف فرج، القاهرة 1994م، ستانلي لينبول، سيرة القاهرة (المترجم).

شَحذ جَوْهَر جهوده على الفور لاستعادة الهدوء وتخفيف المعاناة عن كاهل الناس الذين أصابتهم المجاعة، هذا فضلًا عن المُعِزّ الذي أرسل بحصافة سفن القمح لإنقاذهم من المحنة، ومع ذلك استمر سعر الخبز مرتفعًا بنفس معدلات المجاعة؛ لذلك جلد جَوْهَر الطحَّانين، وأسس مكانًا مركزيًّا لبيع القمح، أَجبر فيه الناس على أن يبيعوا قمحهم تحت عين (المُحْتَسِب) مفتش الحكومة، و بالرغم من جهوده استمرت المجاعة لعامين؛ حيث انتشر الوباء بصورة خطيرة، لدرجة أن الجُثث التي لم يتم دفنها بسرعة كافية، تم إلقاؤها في النيل؛ واستمر الوضع حتى شتاء 360هـ/ 971-972م حين عاد الرخاء واختفى الوباء.

وكالعادة اشترك نائب الملك شخصيًّا في كل الأعمال العامة، حيث جلس كل سبت في المحكمة، يُساعده الوزير ابن الفرات والقاضي وباقي الفقهاء، لسماع الدعاوى القضائية والعرائض لإقامة العدل. وسعيًا لتأمين النزاهة، قام بتعيين موظف مصري وآخر مغربي في كل قسم من أقسام الدولة.

هكذا بحكمه العادل والحازم ضَمِنَ السلام والنظام؛ ولم يضف قصره الكبير الذي كان يقوم ببنائه فضلًا عن الجامع الجديد (الأَزْهَر) - الذي أسسه في 359هـ/ 970م وأتم بناءه في 361هـ/ 972م - إلى جمال العاصمة فحسب، بل وأيضًا أتاح الوظائف لأعداد كبيرة من الحرفيين يصعب حصرها[1].

---

(1) انظرعن تاريخ الجامع الأزهر: أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، (الجزء الأول، العصر الفاطمي)، دار المعارف بمصر 1965م، ص 41: 59، كريزويل، العمارة الإسلامية في مصر (المجلد الأول)، ص 43: 72، حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ج1 / ص 47 (المترجم).

قَبِلَ سكان مصر النظام الجديد بلا مبالاتهم المألوفة. وقد حَرَّض موظف إخْشيدي في إقليم البُشْمُور[1] في مصر السفلى الناس على الثورة، لكن لم يكن مصيره مُشجِّعًا للآخرين؛ حيث تمت مطاردته إلى خارج مصر؛ ومن ثمّ أُسِرَ على شاطئ فِلَسْطين، ثم أُرغم على شرب زيت السمسم لمدة شهر حتى تجرد من جلده، ثم حُشِيَ بالقش وعُلِّقَ على سارية كرسالة تذكير لمن يجرؤ على الاعتراض[2]. فيما خلا هذا الاستثناء الصغير، لا نقرأ عن أي أحداث شغب أو ثورات طائفية، واكتمل الاستسلام العام حين أَلقى الأنصار الباقون للأسرة الحاكمة المخلوعة – الذين بلغ عددهم نحو خمسة آلاف – أسلحتهم. ولقد اسُتقبل سفير فاطمي من قِبَل جُورج ملك النوبة دعاه لاعتناق الإسلام، وطالبه بدفع الجزية المألوفة، فبادر الملك بلطف على دفع المال إلا أنه أعرض عن دعوته للهداية.

وقد ردت المدن المقدسة الحجازية – حيث وُزِّع ذهب المُعِزّ منذ بضع سنين خلت – على كرمه ونجاحه بإعلان ولائها في المساجد؛ وأظهر الأمير الحمداني الذي ملك شمال سوريا ولاءً مماثلًا للخليفة الفاطمي في حَلَب، بعد أن كان معترفًا بالعباسيين حتى ذلك الوقت. رغم ذلك فإن جنوب سوريا، الذي شكل جزءًا من مملكة الإخْشيد، لم يقبل بمغتصبي العرش دون كفاح.

---

(1) هي المنطقة الرملية الساحلية بين فرعي دمياط ورشيد، وذكرها ياقوت أنها كورة بمصر قرب دمياط فيها قرى وريف وغياض، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج 1/ ص 428 (المترجم).

(2) راجع عن السلخ عند الفاطميين: آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2/ ص 194، 195 (المترجم).

كان حسين لا يزال مستقلًا في الرملة، واضطُرَ القائد الأول لَجوْهَر، جَعْفَر بن فَلاح[1]، أن يدخل معه في معركة، هُزِمَ على إثرها حُسَين وعُرِضَ حاسر الرأس لإهانات الناس في الفُسْطاط، حتى تم إرساله أخيرًا مع باقي عائلة الإخْشيد إلى سجن بالمَغْرب. وتمت السيطرة على دِمَشْق - موطن المذهب التقليدي - بعد صراع بواسطة جَعْفَر؛ حيث نُشِرَ مذهب الفاطميين وسط اشمئزاز وسخط السكان السنيين[2].

سرعان ما ابتُلِيَت سوريا ببلاء أسوأ من الغزو الفاطمي، عندما عزم القائد القَرْمَطي الحَسَن بن أَحْمَد الملقب بالأَعْصَم[3]، أن ينتزع بقوة السلاح الأموال التي كان يتلقاها من دِمَشْق، والتي سرعان ما توقفت بعد دخول الفاطميين[4]. حقًّا لقد انبثق الفاطميون من نفس الحركة، ومارس مؤسس دولتهم نفس

---

(1) هو أبو الفضل جعفر بن فلاح بن مروان الكتامي، من أشراف قبيلة كتامة البربرية، وفد إلى مصر مع القائد جوهر، قُتل بالشام أثناء حربه مع القرامطة عام 360هـ، ترجمته في: ابن خلكان، ج1 / ص 361 ، المقريزي، المقفى الكبير، ج3 / ص 50 : 59 (المترجم).

(2) راجع التفاصيل في: درويش النخيلي، فتح الفاطميين للشام في مرحلته الأولى، الإسكندرية 1979م (المترجم).

(3) هو الحسن بن أحمد بن الحسن بن بهرام، أبو علي وقيل أبو محمد، بن أبي منصور ابن أبي سعيد الجنابي، ويعرف بالأعصم القرمطي، ولد بالإحساء سنة 278هـ وتوفي بالرملة سنة 366هـ انظر ترجمته في: المقريزي، المقفى الكبير، ج3 / ص 287: 303 (المترجم).

(4) كان القرامطة يتقاضون نحو 300.000 دينار سنويًّا من الإخشيديين في أواخر عهدهم، وذلك مقابل تأمين القوافل المارة من سوريا والشام إلى الحجاز، فتم قطع هذه الأموال بالطبع عند دخول الفاطميين إلى دمشق عام 360هـ؛ مما تسبب في الحرب بين الفريقين، ابن الأثير، الكامل، ج8 / ص 452 (المترجم).

الفلسفة السياسية والمارقة التي مارسها الحسن؛ لكن هذا لم يكن عقبة تقف في طريقه، فإن معرفته بأصولهم جعلته أقل ميلًا لتقديم ولائه للادعاءات الدينية للأئمة الجدد، الذين لقبهم بازدراء بالمشعوذين وأعداء الإسلام.

هكذا حاول كسب دعم الخليفة العباسي، فكان رد (الخليفة المُطيع) أنه لا فارق عنده بين الفاطميين والقرامطة. رغم ذلك فإن أمير العراق البويهي قد أمد الحسن بالسلاح والمال؛ وأسهم أبو تَغْلِب - الحاكم الحمداني لرحبة على الفرات - بالرجال؛ وزحف الحسن مُدعَّمًا بالقبائل العربية من عقيل وطيء وغيرهم، على دِمَشْق حيث هُزِمَ الفاطميون وقُتل قائدهم جَعْفَر، وعلى الفور لُعِنَ المُعِزّ على منابر العاصمة السورية، وسط ابتهاج ورضًى من السكان.

زحف الحسن بعد ذلك مباشرة إلى الرَّمْلَة، ومن ذلك المكان ترك الجيش الفاطمي المكون من أحد عشر ألف شخص محتجزين في يافا، وقام بغزو مصر، فباغت جنوده القُلْزُم عند رأس البحر الأحمر، والفَرَمَا قرب البحر المتوسط، على طرفي الحدود المصرية؛ ومن ثَمّ أُعلِنَت تِنِّيس مدينة مناوئة للفاطميين، وظهر الحسن في عَيْن شَمْس في شهر المحرم عام 361هـ/ أكتوبر 971م.

هكذا حَصَّنَ جَوْهَر العاصمة الجديدة بخندق عميق، تاركًا مدخلًا واحدًا فحسب أغلقه ببوابة حديدية، وقام بتسليح القوات المصرية بالإضافة إلى الإفريقية، وكَلَّف جاسوسًا بمراقبة الوزير ابن الفُرات خشية أن يقع في الخيانة. واستُدعِيَ أشراف عائلة عليّ للمخيم كرهائن لضمان سلوك السكان. في غضون ذلك تم إغواء قادة العدو بالرشاوى، فقد مكثوا أمام القاهرة لشهرين، أعقب ذلك مناوشات غير حاسمة انقض بعدها الحسن

على البوابة ثم عبر الخندق وهاجم المصريين بقوة على أرضهم، لكن تم صده بعنف فانسحب تحت ستار الليل إلى القُلْزُم بعد أن ترك معسكره وأمتعته نهبًا للفاطميين، الذين أعاقهم دخول الليل عن مطاردته.

أظهر المتطوعون المصريون بسالة غير متوقعة في القتال، وأُسِرَ العديد من أنصار السلالة الحاكمة الأخيرة الذين حالفوا العدو، هكذا لم يقابَل الخطر الجدي - الذي كاد ينهي الفترة القصيرة للاحتلال الفاطمي لمصر - بالإصرار فحسب، بل إنه تحول إلى ميزة لصالح الفاطميين؛ فلم يعد هناك مكائد من قِبَل الإخْشيديين، وتم استعادة تِنِّيس التي غزتها تعزيزات سريعة من قِبَل المُعِزّ تحت قيادة ابن عَمَّار لمعاونة جَوْهَر؛ واضطُرَّ أسطول القرامطة الذي حاول استعادة هذا الحصن إلى الانسحاب تاركًا سبع سفن وخمسمائة أسير. وحُرِّرَت يافا - التي صمدت بقوة ضد العرب المُحاصِرِين - بواسطة تعزيزات من القوات الإفريقية من القاهرة، والتي أعادت الحامية لكنها لم تجرؤ على احتلال الموقع؛ ومن ثمّ تراجع العدو إلى دِمَشْق وتفرق قادته.

شكل (21) دينار المعز، فلسطين، 974م

رغم ذلك لم ينسحق زعيم القرامطة إثر هزيمته، ففي العام التالي كان يقوم بجمع السفن والعرب من أجل غزو جديد. هنا أشار جَوْهَر - الذي ألح طويلًا على سيده كي يأتي لحماية الأرض المفتتحة - إلى الخطر الشديد من هجوم آخر للعدو، الذي نجح بالفعل في شق طريقه بقوة وشجاعة

إلى بوابة القاهرة. كان المُعِزّ قد أجَّل رحلته لعدم ثقته في وضع أقاليمه الغربية أثناء غيابه؛ لكن عند استلامه الأخبار الخطيرة، قام بتعيين يُوسُف بُلُّكين بن زيري[1] – من بربر صنهاجة – نائبًا له في إفريقية، وغادر سردانيا – التي هي فونتينبلو Fontainebleau القَيْرَوَان، والمَنْصُورية هي فرساي Versailles الخاصة بها[2]– في صفر 362هـ/ نوفمبر 972م، و تقدم بروية على طريق قابس، طرابلس، أجدابيا، برقة، حتى وصل إلى الإسكندرية في شهر مايو التالي. هنا استقبل الخليفة وفدًا يتكون من قاضي الفسطاط وبعض الأشخاص البارزين، الذين أثار دمعهم ببلاغته وعفاف حديثه. وبعد شهر لاحق أقام مخيمًا في حدائق الدير قرب الجِيزة؛ حيث رحَّب به خادمه جَوْهَر، راضيًا بطمس هويته في ظل سيده[3].

كان دخول الخليفة الجديد إلى عاصمته الجديدة مشهدًا مهيبًا؛ حيث صحبه جميع أولاده وإخوته وأقاربه، وحُمِلَت أمامه توابيت أسلافه. أنيرت الفُسْطاط وزُيِّنَت لاستقباله، لكن المُعِزّ لم يكن ليدخل عاصمة الخلفاء المُغْتَصِبين للسلطة القديمة؛ لذلك عَبَر من الرَّوْضَة بواسطة جسر جَوْهَر الجديد، وتقدم مباشرة إلى القاهرة، المدينة القَصْر؛ حيث خر راكعًا وأناب.

---

(1) استخلفه المعز على إفريقية عام 361هـ فوليها حتى وفاته عام 372هـ، فخلفه ابنه المنصور، انظر: ابن خلكان، ج1 / ص 286، 287 ، لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 66 (المترجم).

(2) يقارنها المؤلف ببعض المقار الملكية الفرنسية في العصر الحديث (المترجم).

(3) من الواضح أن جوهر لم يكن له دورٌ واضحٌ في الحكم أو الحملات العسكرية بعد وصول المعز، وفي أكتوبر 974م جُرِّدَ من كل مناصبه دون سبب معروف، لكن من المحتمل أن المعز كان قد شعر أنه حتى الولاء الكامل لا يعدل دائمًا خطر الشعبية، ومع ذلك فإننا نسمع عن القائد الكبير مرة ثانية في فترة الحكم التالية.

كانت لا تزال هناك محنة ينبغي على المُعِزّ اجتيازها قبل أن يعتبر نفسه في مأمن. لقد كانت مصر موطنًا للعديد من الأشراف (سلالة عليّ)، الذين أتوا بجرأة - يترأسهم ممثل عن عائلة طَباطبا الشهيرة - لفحص إثبات نسبه، وحينئذٍ كان على المُعِزّ أن يثبت لقبه الديني للإمامة الموروثة من عليّ بما يرضي أولئك الخبراء في علم الأنساب. ووفقًا للرواية، دعا الخليفة جمعًا كبيرًا من الناس، و كذلك دعا الأشراف، ثم استل نصف سيفه وقال: «هذا نَسَبِي»، ثم نثر الذهب على الحضور وأضاف: «هذا حَسَبي». ربما كانت هذه الحجج أفضل ما يمكن أن يقدمه. أكد الأشراف كامل رضاهم بهذا الدليل المقنع، ومن المؤكد أنهم قد فكروا بشكل ما في ادعاء الخليفة، لكنهم مع ذلك لم يناقشوه. ملئت جدران العاصمة بالدعايا للمُعِزّ مصحوبة بمدح عليّ، وهتف الناس له واحتشدوا لأول مناظرة عامة كان فيها.

ومن بين الهدايا التي قُدمت له، كانت تلك الهدايا الرائعة التي قدمها جَوْهَر، ونستطيع أن نستدل على ارتفاع قيمتها من السجلات التي توضح ثروة الفاطميين الهائلة. لقد اشتملت على خمسمائة جواد مجهزين بالسُّرُج واللُّجُم المكسوة بالذهب والكهرمان والأحجار النفيسة، وخيام من الحرير وثياب من الذهب محمولة على جمال وبغال، وصناديق حديدية للنفائس مزخرفة بالتخريم ومملوءة بالأوعية الذهبية والفضية، وسيوف مطعمة بالذهب، وعلب جواهر من الفضة المزيَّنة بالنقوش المطعمة بالأحجار الكريمة، وعمامة مزينة بالمجوهرات، وتسعمائة صندوق مملوءة بعينات من جميع البضائع التي تنتجها مصر.

أدى الخليفة الصلاة بنفسه على رأس جماعة المصلين في يوم عيد الفطر، ثم ألقى الخطبة من على المنبر، فلمست مواهبه الدينية وطلاوته المصطنعة

قلوب مستمعيه. وحين انتهت الشعائر عاد المعز على رأس جنوده، مرافقًا أبناءه الأربعة في درعه يتقدمه فيلان حيث أقام وليمة لضيوفه في القصر.

وقد بُنِيَ هذا القصر - الذي يشابه المدينة، نواة القاهرة المعاصرة - كما رأينا، على مسافة قصيرة من العاصمة القديمة الفُسْطاط، ورغم أنه أُطلق عليه أحيانًا (المدينة)، فقد كان حقًّا قصرًا ملكيًّا هائلًا، إلا أنه كان مخصصًا لاستخدام الخليفة وحرمه وحرسه الكثر، ثم وجوه جنوده المختارين وموظفي حكومته.

كان السياج الفسيح للقصر أرضًا محظورة على العامة، وكذا سفراء الدول الأجنبية - كان الأباطرة البيزنطيون يرسلون سفراء لجَوْهَر وكذلك للمُعِزّ - حيث كان يُطلب منهم أن يترجلوا بالخارج ومَن معهم للحضور بين الجنود، بنفس الطريقة المتبعة في القصور البيزنطية والعثمانية.

كانت المباني الرئيسية للقصر الشرقي الكبير (أو قصر المعز) مقر الخليفة الشخصي، حيث احتفظ بنسائه وأولاده وعبيده وخصيانه، المقدر عددهم ما بين ثمانية عشر إلى ثلاثين ألف شخص. أما القصر الغربي الصغير، فيفتح على البستان الكافوري الرحب، حيث يوجد ميدان لممارسة التدريبات خاص بالبلاط، وقد فصل بين الاثنين ساحة يُطلق عليها «بَيْنَ القَصْرين»؛ حيث يمكن لما يقدر بعشرة آلاف جندي أن يؤدوا استعراضًا عسكريًّا، ولا يزال هذا الاسم يطلق على جزء من سوق النَحَّاسين.

وقد ربط ممر تحت سطح الأرض بين القصرين، فأمكن للخليفة بواسطته أن يمر دون انتهاك تلك العزلة الغامضة التي كانت جزءًا من شخصيته الدينية. وبالقرب من هناك استقرت في ضريح عظام أسلافه الفاطميين التي جُلِبَت من القَيْرَوَان، فضلًا عن الجامع الأَزْهَر حيث اعتاد الخليفة أن يؤم صلوات الجمعة كأمير وقائد للمؤمنين.

يتحدث المؤرخون العرب عن حجم وروعة القصر الكبير؛ حيث نقرأ عن أربعة آلاف حجرة؛ وعن البوابة الذهبية التي تفتح على البهو الذهبي، وعن الاستراحة الفخمة التي كان يجلس فيها الخليفة فوق عرشه الذهبي، محاطًا بحُجَّابه وأتباعه (عادة كانوا يونانيين أو سودان)، حيث كان يشاهد احتفالات الإسلام من خلف ستار مخرم ذي زخارف ذهبية. وكذلك قاعة الزمرد بأعمدتها الرخامية الجميلة، والإيوان الكبير الذي كان يوجد تحت القبة؛ حيث كان يجلس الخليفة عند النافذة في أيام الاثنين والخميس، وعلى الشرفة كل مساء؛ حيث يستمع لأحزان المضطهدين والمظلومين ممن استغاثوا بعقيدة الشيعة، ويعوضهم بالمال[1].



شكل (22) باب الجامع الأزهر، سنة 972م

ينطبق هذا الوصف على القصر الفاطمي في الأزمنة المتأخرة، لكنه يشمل أيضًا أغلب قاهرة المُعِزّ، التي خُطِّطَت كل مبانيها بواسطته حتى أدق التفاصيل؛ حيث عمل جَوْهَر لأكثر من ثلاثة أعوام ليحقق تصاميم سيده. يمكن استنتاج وفرة الثروة وعظم تكلفة هذا القصر من عدة دلالات: لقد تركت إحدى بنات المُعِزّ عند موتها خمسة أكياس من الزمرد وكمية مذهلة

(1) Lane – poole, *Life of Saladin*, 112-114.

من الأحجار الكريمة من كافة الأنواع، و ثلاثة آلاف آنية فضية مطعمة ومزينة بالنقوش، وثلاثين ألف قطعة من التطريز الصقلي، وتسعين حوضًا وإبريقًا من الكريستال النقي؛ و ما يعادل أربعين رطلًا انجليزيًا من الشمع استُخدم لختم الحجرات والصناديق. توفيت ابنة أخرى تاركة ما يساوي مليونين وسبعمائة ألف دينار، واثني عشر ألف قطعة من الثياب المختلفة.

وقد بَنَتْ زوجته مسجدًا في القرافة، وأنفقت بسخاء مبالغ ضخمة على زخرفته، حيث قام معماري فارسي بتصميمه، وقام بطلاء الأسقف والحوائط فنانون من البصرة. وقد أمر المُعِزّ بنفسه أن تصنع قطعة من الحرير في مدينة تُستَر Tustar[1] الفارسية، رُسم عليها خريطة العالم بالذهب والألوان، مما كلفه اثنين وعشرين ألف دينار.

إن كانت الهرطقة الفاطمية قد ثبطت العزيمة عن التعلم والأدب، فقد حفزت للفن؛ حيث أثَّر التحامل على تصوير الكائنات الحية الذي قَيَّد الرسامين السُّنيين، على حدوث انشقاق من قِبَل الذين تبنوا بسهولة الأفكار الفارسية. فقد حض الوزير الفاطمي اليازوري، اثنين من المصورين على التنافس؛ فقام القصير برسم فتاة راقصة في ثوب أبيض، بدت وكأنها داخلة في حنية سوداء، وجعل منافسه ابن عزيز فتاته في ثوب قرمزي تبدو بارزة من حنية صفراء خلفها[2].

---

(1) هي مدينة فارسية تقع بخوزستان شمالي مدينة الأحواز بحوالي 92كم، فتحها أبو موسى الأشعري، وبعد فتح فارس جعلها الخليفة عمر من أرض البصرة لقربها منها، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج2/ ص 29، الحميري، الروض المعطار، ص 140 (المترجم).

(2) المقريزي، الخطط.

Cp. Lane- Poole, *Art of the Saracens in Egypt*, 9, 10, 163, 201, 241.

لـم يكـن لمثل هذا التصميم أن يجاز من قِبَل خليفة عباسـي. ولا شـك أنه قد سـاد نشاط فني كبير تحت الحكم الفاطمي، والذي تطور في صِقِلِّية فضلًا عن مصر.

الصناديـق العاجيـة Bayeux الشـهيرة ذات الغطـاء، المطعمـة بالفضة والمزينـة ببغـاوات وطيـور أخـرى، وتحمـل نقوشًـا فاطميـة، فضلًا عن صنـدوق عاج مـؤرخ بعام 359هــ/ 970م، فـي متحف فكتوريـا وألبرت، مـن المحتمـل أن يكون راجعًـا لصنَّاعهـم. وتحمل زهرية من الكريسـتال الصخري في خزانة St. Mark في ڤينيسيا اسم العَزيز بن المُعِزّ، وكذلك تم تصنيع الآنية الفخارية ذات البريق المعدني والآنية الزجاجية.

وكان النسـج علـى النـول من الصناعات التي اشـتهرت بهـا مِصْر، فقد صنَّعـت كل من الإسـكندرية والقاهرة الحرير بجـودة عالية لدرجة أنه كان يمكن تمرير ثوب بأكمله خلال خاتم إصبع؛ وكانت أَسْيوط شهيرة بقماش العمائـم الصوفـي، والبَهْنَسـا بالمنسـوجات الصوفيـة البيضـاء، ودِمْيـاط بالقمـاش القطني (الدِمْياطي)؛ و في تِنِّيس كانت منتجات المصنع الملكي محجوزة لأهل البيت الفاطمي، بجانب النسـيج الكمبريكي الملون بألوان قوس قزح الجميلة والذي أطلق عليه بوقلمون Bukalamun، أو «الحِرباء»، المستخدم لقماش السُّرُج الملكية والمحفَّات. وبجانب الصنَّاع المحليين، كان هناك طلبًا شديدًا في القاهرة على العمل الفني الفارسي، بجانب عمل آسيا الصغرى وصقلية[1].

رغم ذلك لـم يكن المُعِزّ منغمسًـا في الترف، فقد جمع مع حب الأشياء الجميلة تيقُّظًا حذرًا لحفظ وتطوير دولته. لقد ورث أسطولًا في صِقِلِّية أغار

(1) راجع لمزيد من المعلومات حول التحف والصناعات الفاطمية: زكي محمد حسن، كنوز الفاطميين، القاهرة 1937م (المترجم).

به على شواطئ إسبانيا عام 344هـ/ 955م؛ حيث جلب غنائم وأسرى، فكان رد خليفة قُرْطُبة عَبْد الرَّحْمَن النَّاصر[1]، أن أَرْسَل سفنه إلى تونس؛ حيث قامت بإحراق ميناءٍ صغيرٍ قرب بونة فضلًا عن نهب الساحل البربري. وقاد امتلاك الموانئ المصرية إلى خطط بحرية أكبر، فقد تم بناء حوض سفن في المَقْس – ميناء القاهرة السابق لبولاق – صنعت به ستمائة سفينة[2]، فكان بمثابة أكبر أسطول مصري تمت مشاهدته منذ الفتح العربي.

أما الجيش فقد تمت العناية به حتى يظل على كفاءته العالية، هكذا لم يهمل الخليفة أي وسيلة ليظفر باحترام رعاياه الجدد. كانت محاكمه شهيرة بالعدل، وتدخل بنفسه في كل تفاصيل الإدارة، أعلن عن مستوى ارتفاع النهر كما سجَّلته مقاييس النيل، وترأس بنفسه فتح خليج القاهرة، وأثار سرور الناس بالكسوة الحريرية الرائعة المزخرفة بالذهب (شمسية) التي أعدها للكعبة في مَكة، والتي سُمِحَ للعالم كله أن يراها في عيد

(1) تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد الأموي إمارة الأندلس عام 300هـ/ 913م بعد وفاة جده الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن، وهو أول مَن تلقب بالخلافة فيها، وذلك عام 316هـ حتى ينافس الخلافة الفاطمية الشيعية في المغرب، امتدت فترة حكمه خمسون عامًا شهدت ازدهارًا في كافة الميادين حتى غدا من أعظم حكام عصره، استطاع فيها أيضًا إرهاب أعدائه من الفاطميين في الجنوب والنصارى في الشمال، توفي في رمضان سنة 350هـ/ 961م، انظر مزيدًا عنه: محمد عبد الله عنان، تراجم إسلامية، هيئة الكتاب – القاهرة 2000م، ص 167: 198، علي أدهم، عبد الرحمن الناصر، هيئة الكتاب – القاهرة 1972م، رينهرت دوزي، المسلمون في الأندلس، ترجمة: حسن حبشي، هيئة الكتاب – القاهرة 1994م، ج1 / ص 217 (المترجم).

(2) عن الأسطول الفاطمي، انظر: العبادي وسالم، تاريخ البحرية الإسلامية، ج1/ ص 79 وما يليها، عبد العزيز سالم، البحرية المصرية في العصر الفاطمي، ضمن كتاب: تاريخ البحرية المصرية، مطبوعات جامعة الإسكندرية، ص 465 وما يليها (المترجم).

الأَضْحَى، لقد كانت أكبر أربع مرات من أي كسوة أمر بإعدادها العباسيون أو حتى كافور. من الواضح أن الناس قد ظنوا أن هذا الخليفة كان نموذجًا رائعًا للتقوى.

وخلال هذا الوقت كان غزو القرامطة المُهدِّد لايزال باقيًا، فقد قاموا بمحاولة فاشلة على تِنِّيس، لم تكن لهم أية محاولات أخرى غيرها. حاول المُعِزّ أن يتفاوض مع رئيسهم، فأجاب الحَسَن بن الأَعْصَم بما نصه: «من الحسن بن أحمد القرمطي الأعصم: بسم الله الرحمن الرحيم وصل إلينا كتابك الذي كثر تفصيله وقل تحصيله ونحن سائرون على إثره والسلام وحسبنا الله ونعم الوكيل»[1]. كان بارعًا ككلماته، ففي ربيع 363هـ/ 974م ظهر القرامطة ثانية في عَيْن شَمْس، حيث انتشروا مصحوبين بمواليهم الإخْشيديين والعلويين المنافسين في كل أنحاء مصر تصاحبهم موجة من الدمار.

كان المُعِزّ مستعدًّا لهم، لكن لم تكن قواته كافية للدفاع. كان لابنه عبد الله - بصحبة أربعة آلاف - بعض الاشتباكات الناجحة مع المجموعات المتفرقة للعدو في الدلتا، لكنه لم يستطع منع المجموعة الرئيسية من الاقتراب من القاهرة، والتي استطاعت الزج بالمدافعين عن الخندق داخل «المدينة» حيث تم حبسهم. لم يكن جنود الخليفة قادرين على أن يتقدموا ضد العرب، حتى احتال المُعِزّ لرشوة رئيس بنو طيء - أقوى حليف للقرامطة - بمبلغ مائة ألف دينار مصنوعة من الرصاص المطلي بالذهب؛

(1) نص رواية المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1 / ص 200، 201 (المترجم).

حيث لم يكن هناك ذهب كاف في بيت المال. خذل البدوي الغادر القائد في المعركة التالية؛ فاضطر الحسن إلى الفرار، حيث نُهب مخيمه وذُبِحَ ألف وخمسمائة من تابعيه. تم إرسال عشرة آلاف رجل على عجل إلى سوريا، حيث أصاب القرامطة الضعف - لحسن الحظ - بسبب غيرة قائديهم.

هكذا سَلَّم أحدهما الآخر إلى الفاطميين الذين وضعوه وابنه في قفصين خشبيين وأرسلوهما إلى مصر. وقد ظل وباء القرامطة على حاله، فكانت دِمَشْق فريسة للشِقاق والفوضى لعدة سنين. لم يكن الخَصي رَيان Rayan - الذي غزا طرابلس من قِبَل المُعِزّ من الرومان؛ حيث تم إرساله إلى دِمَشْق ليخلص المدينة من الأمير التركي (أفتكين) الذي أعاد اسم الخليفة العباسي، ومنح العاصمة السورية والإقليم المحيط بها قدرًا من السلام والحكم الرشيد. وخلال هذا الوقت استولى خصي آخر على بيروت مع الجنود الفاطميين، فأظهر أفتكين الولاء على الفور وقام بإبرام معاهدة؛ لكن ريان هجم بغتة على طرابلس وحقق هزيمة ساحقة، انسحب على إثرها البيزنطيون.

كانت أخبار هذا الانتصار ومعاودة الدعاء له على منابر مَكة والمدينة، قد خففت على الخليفة المُعِزّ أيامه الأخيرة؛ حيث توفي عام 364هـ/ 975م في عامه السادس والأربعين[1]. تميزت إقامته في القاهرة لسنتين بالعديد من الإصلاحات. لقد عين اليهودي ابن كِلِّس وعُسْلوج كمديرين عامين

(1) توفي ابنه الأكبر عبد الله قبله بحوالي عام، لكن ظل أبناؤه الثلاثة على قيد الحياة، وهم: نزار، تميم، وعقيل، مع بناته السبعة.

للأرض، وأبطل مرة واحدة كافة السلطات المحدودة وأرباح جامعي الضرائب. هكذا جلس هذان الموظفان يوميًا في مقر الأمير المجاور لجامع ابن طولون، لتحديد ضريبة العُشر وتقدير ضرائب الأراضي، فضلًا عن مراقبة الضرائب والرسوم الجمركية والأعشار والجزية والأوقاف وكافة فروع الدخل الأخرى؛ مُطالبين بالمتأخرات، وفاحصين بدقة كل الشكاوى والطلبات.

فكانت النتيجة زيادة كبيرة في الدخل، وكان ينبغي أن تُدفَع كل الضرائب بالعملة الفاطمية الحالية والدينار المُعِزِّي المقدر بـ $15\frac{1}{2}$ درهم؛ مما أطاح تمامًا بالدينار العباسي للإخْشيديين؛ وتسبب في خسائر فادحة للسكان. علاوة على ذلك فقد تمت جباية الضرائب بشكل صارم؛ حيث كان المُعِز توّاقًا لاسترداد المبلغ الهائل الذي أنفقه على غزو مصر، والذي لم يفِ حتى الآن بتوقعات منجم ذهبه. ومع ذلك بلغت الضرائب في يوم واحد في الفُسْطاط خمسين ألف دينار، وأحيانًا وصلت إلى مائة وعشرين ألف دينار؛ وذات مرة قدَّمت تِنِّيس ودِمْياط والأُشْمونَيْن مائتي ألف دينار في يوم واحد.

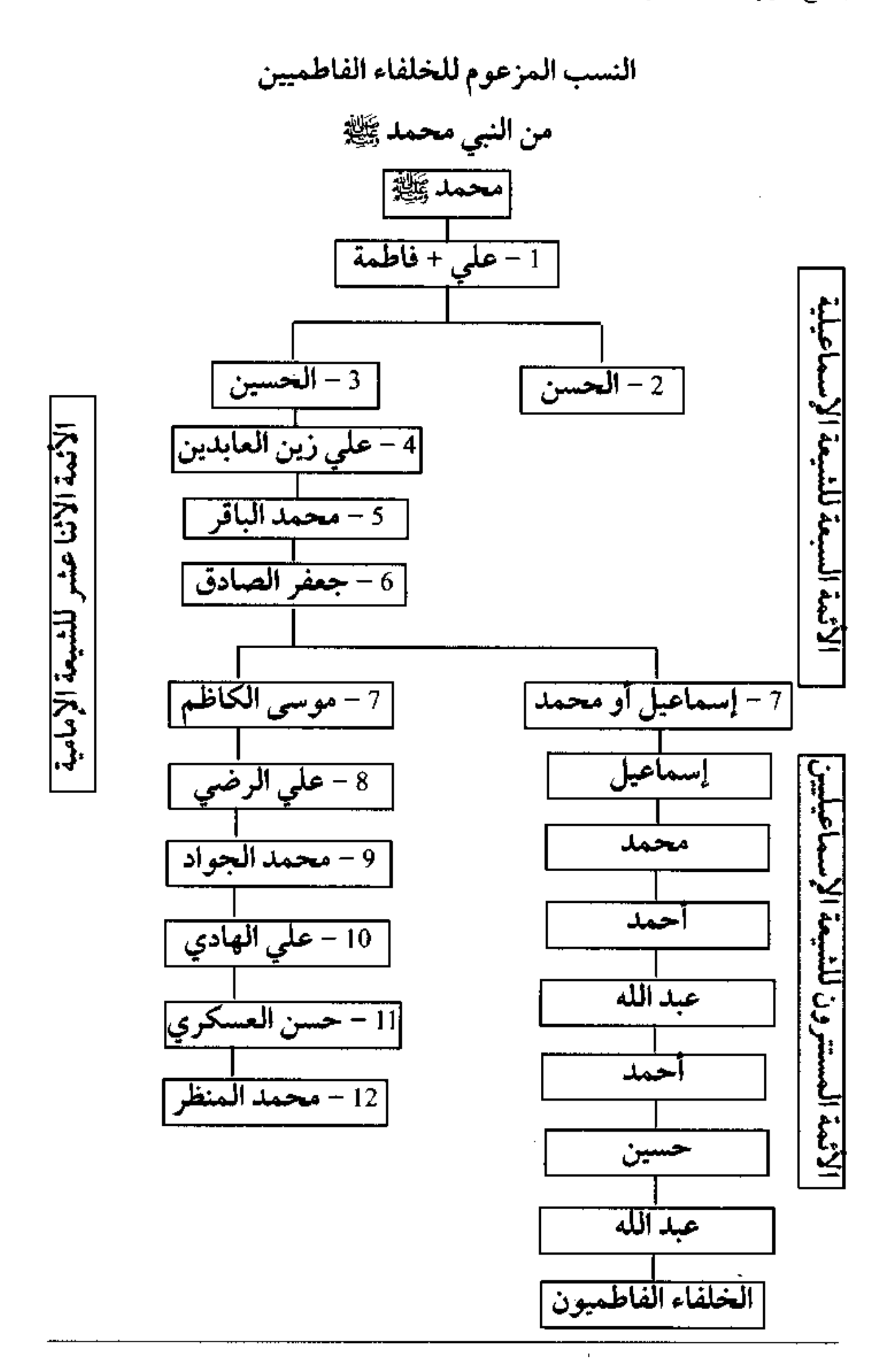
أظهر المُعِز في إدارته الوجيزة للعناصر المختلطة من رعاياه في مِصْر القضاء والعدل. وقد حظر على قواته الإفريقية مخالطة السكان في العاصمة، وأسكنهم في الخندق قرب عَيْن شَمْس لمنع الاشتباكات. لم يمكن إقصاؤهم خارج الفُسْطاط أثناء النهار، لكن مع حلول المساء طاف منادٍ كل ليلة ينذرهم بمغادرة المدينة قبل حلول الظلام. لم يكن المُعِزّ

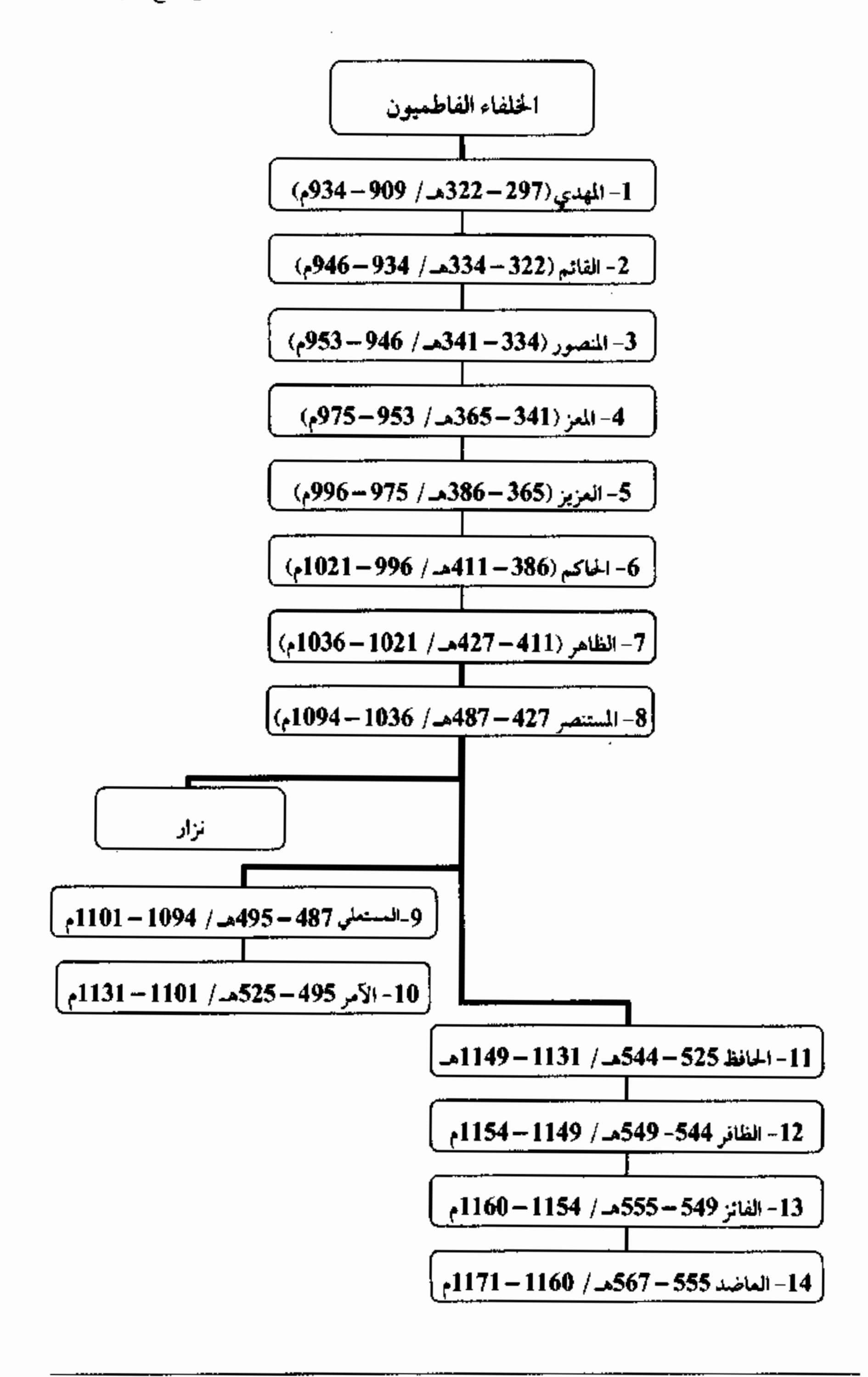
معاديًا للأقباط، وعَين أحدهم رئيسًا لإدارة الجمارك، في مصر أولًا ثم في فِلَسْطين حيث ظل في حظوة لدى الخليفة.

توطدت مكانة الشيعة بشكل طبيعي بالنجاحات الفاطمية، واحتفلوا باستشهاد الحسين في العاشر من شهر المحرم - وهو يوم تهابه الشرطة في بومباي حتى يومنا هذا - مع دعاية غير مألوفة في القاهرة عام 362هـ/973م؛ حيث قاموا بزيارة أضرحة السيدة نفيسة وأم كلثوم (من آل البيت) في حشود ضخمة، وأهانوا أتباع المذهب السُّني بالمحال من فرط حماسهم. وقد مُنِعَت معارك الشوارع من خلال إغلاق البوابات التي تفصل بين المساكن المختلفة في الوقت المناسب. هكذا أظهرت تلك الحادثة أنه لا يزال هناك قسم كبير من الناس مستاءً من ذلك الانشقاق الشيعي، حتى أنه بعد قرنين لاحقين تم استعادة العقيدة السُّنيَّة الراشدة بإجماع مدهش.

* * *

النسب المزعوم للخلفاء الفاطميين
من النبي محمد ﷺ





الخلفاء الفاطميون
1- المهدي (297 – 322هـ / 909 – 934م)
2- القائم (322 – 334هـ / 934 – 946م)
3- المنصور (334 – 341هـ / 946 – 953م)
4- المعز (341 – 365هـ / 953 – 975م)
5- العزيز (365 – 386هـ / 975 – 996م)
6- الحاكم (386 – 411هـ / 996 – 1021م)
7- الظاهر (411 – 427هـ / 1021 – 1036م)
8- المستنصر 427 – 487هـ / 1036 – 1094م)
نزار
9- المستعلي 487 – 495هـ / 1094 – 1101م
10- الآمر 495 – 525هـ / 1101 – 1131م
11- الحافظ 525 – 544هـ / 1131 – 1149هـ
12- الظافر 544 - 549هـ / 1149 – 1154م
13- الفائز 549 – 555هـ / 1154 – 1160م
14- العاضد 555 – 567هـ / 1160 – 1171م



الفصل الخامس

الخُلَفاءُ الـفَاطِميُّون

الدولـة الفاطميـة – الخليفـة العزيـز – النصـارى فـي البـلاط – الوزير ابن كلس – الثروة والترف – إصلاحات العزيز – الخليفة الحاكم – برجوان وصيًا على العرش – غرابة أطوار الحاكم – اضطهاد النصارى – النصارى في السلطة – تمرد أبو ركوة – دار العلم – مرصد الحاكم – ادعاء الألوهية – ثـورة الأتراك – لغز الخليفـة الحاكم – أميرات الخلافة – الخليفة الظاهر – الأرملة السـوداء – ضياع صقلية وبلاد البربر – الولاء لبغداد – القاهرة عام 1046م – قطـع القنـاة – الوزيـر اليـازوري – العلاقات مع القسـطنطينية – اضطهـاد الأقبـاط – الخليفة المسـتنصر – مجاعة السـبع سـنوات – ضياع الكنوز – المكتبة الكبرى – بدر الجمالي – إعادة الازدهار – السـور الثاني وبوابات القاهرة – الإدارة الفاطمية – الجيش والأسطول – موظفو الدولة – الحكومة المحلية.

الفصل الخامس

الخُلَفاءُ الفَاطِميُّون

المصـادر[1]: جمال الدين الحلبي، أبو صالـح، ابن الأثير، ابن خلكان،

(1) تنوعت وتعددت مصادر التاريخ الفاطمي، كان أهمها بالطبع الوثائق التي كتبت في عصر تلك الدولة وحملت الكثير من أخبارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والتي لم يصل إلينا منها سوى ما تناقله المؤرخون، هذا فضلًا عن الكتب التي خطها مَن عاصر أحداث تلك الدولة أو انخرط في العمل بمرافقها ودواوينها ومصالحها، ولكن مع الأسف لم يصل إلينا كل ما تمت كتابته في تلك الفترة الهامة من تاريخ مصر، إلا أنه قد تم حفظ بعضه عن طريق كتابات المتأخرين. من أهم المؤلفات التي وضعت في التاريخ الفاطمي غير التي ذكرناها في هامش الفصل السابق، كان كتاب (أخبار مصر وفضائلها وعجائبها وطوائفها وغرائبها) للأمير المسبحي، (ت 420هـ/ 1029م)، وهو بمثابة مذكرات يومية لهذا الأمير تشتمل على جزء من خلافة العزيز وكل خلافة الحاكم والسنوات الأولى من خلافة الظاهر، لم يصلنا منه سوى الجزء الأربعين، وقد نقل المتأخرون كثيرًا عن هذا الكتاب المفصل، ومن كتب التاريخ العام الهامة كتاب (تجارب الأمم وتعاقب الهمم)، لمسكويه، (ت 421هـ/ 1030م)، الذي نقل فيه أخبار الفاطميين في أوائل حكمهم لمصر، وأعقبه الروزاوردي المعروف بأبي شجاع بكتاب (ذيل تجارب الأمم)، تحدث فيه عن الحوادث حتى عام 389هـ، فأسهب فيه الكلام عن العزيز وأوائل حكم الحاكم، وترجع أهمية هذين الكتابين غير معاصرتها للأحداث أن كاتبيهما كانا من السُّنة، أما كتاب (سفرنامة) للرحالة الفارسي ناصر خسرو (ت 445هـ/ 1063م)، الذي زار مصر بين عامي=

= 437 – 444هـ/ 1045 – 1052م، فيعد مصدرًا أساسيًّا للحياة الاجتماعية في مصر الفاطمي، وهناك المؤيد في الدين الشيرازي (ت 470هـ/ 1174م)، وكتابه (سيرة المؤيد)، وهو من كتب السير الشخصية تناول فيه المؤلف – وهو من كبار دعاة الإسماعيلية – تاريخ مصر من خلال الأحداث التي شارك فيها، ومن المصادر الهامة كتابان لعلي بن منجب المعروف بابن الصيرفي (ت 542هـ/ 1147م)، الذي عمل في دواوين الفاطميين، هما: (القانون في ديوان الرسائل) و(الإشارة إلى من نال الوزارة) الذي تتبع فيه أخبار وتراجم وزراء الدولة الفاطمية إلى عهد الخليفة الآمر، أما الفترة المتأخرة من تاريخ الفاطميين فقد عاصرها ثلاثة مؤرخين كتبوا عن تلك الفترة هم: ابن القلانسي، (ت 569هـ/ 1174م)، الذي كتب (ذيل تاريخ دمشق)؛ حيث ركز فيه على سياسة الفاطميين ووضعهم في الشام واحتكاكهم بالسلاجقة والصليبيين، ثم كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ (ت 584هـ/ 1174م)، الذي سجل التاريخ من خلال سيرته الذاتية؛ حيث تحدث عن المكائد في القصور الفاطمية، فضلًا عن كثير من تفاصيل الحياة الأخرى، أما عمارة اليمني (ت 569هـ/ 1174م)، فكتب كتاب (النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية)، الذي تناول وزراء مصر وحياتهم. وكتب ابن مماتي، (ت 606هـ/ 1209م)، كتابه (قوانين الدواوين)، من واقع عمله بالدواوين المصرية، وكتب أبو شامة، (ت 665هـ/ 1267م)، كتابه (الروضتين في أخبار الدولتين)، الذي تناول فيه الفترة الفاطمية المتأخرة من خلال حديثه عن الدولتين النورية والصلاحية. هذا وقد وصلتنا من العصر المملوكي الكثير من المؤلفات عن الدولة الفاطمية لكنها لا تمثل أهمية سوى من خلال ما نقلته من المصادر الضائعة، وكان أهمها على الإطلاق مؤلفات تقي الدين المقريزي، مثل الخطط وكتابه الهام الجامع لتاريخ الفاطميين (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا)، وكتابه (المقفى الكبير) الذي جاء في تراجمه بمعلومات هامة وجديدة، وكتاب النويري (نهاية الأرب في فنون الأدب) الذي خصص جزءه الثامن والعشرين للفاطميين، وابن أيبك الدَّواداري (ت 736هـ/ 1335م) في الجزء السادس من كتابه (كنز الدرر وجامع الغرر)، الذي خصصه للتاريخ الفاطمي تحت اسم (الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية) (المترجم).

ابن خلدون، القلقشندي[1]، المقريزي.

Wiistenfeld, Gesch. D. Fatimiden Chal. Quatremère, Mé-Moires sur l'Egypte, ii.

آثـار: جوامـع: الأزهر (359-361هـ/ 970-972م)، الحاكم (380-393هـ/ 990- 1003م)، الجيوشـي (478هـ/ 1085م)؛ السـور الثانـي للقاهـرة (480هـ/ 1087م) والأبـواب الثلاثة: النصر والفتـوح (480هـ/ 1087م)، وزويلـة (484هـ/ 1091م)؛ جوامـع: الأقمر (519هـ/ 1125م)، الفكهانـي (543هـ/ 1148م، لكنـه مجدد)، الصالح ابـن رزيك (555هـ/ 1160م).

نقوش: النقش التأسيسـي للأزهر، وجامـع الحاكم (الذي اختفى، لكنه مسـجل بواسـطة هامر Hammer, Journ. As., III. V. 388)، ونقوش كل من: باب النصر، السور الثاني للقاهرة، مسجد السيدة نفيسة، مقياس النيل، جامـع ابن طولون (النص الخاص بالترميم)، صخرة بالربوة قرب دمشـق. Van Berchem, Notes, Journ. As., 1891, and Corpus Inscr.) .(Arab.; Kay, J. R. A. S., N. S., xviii.

عمـلات: دور الضـرب في مصـر: مدينة مصـر (الفسـطاط)، والقاهرة (393-394هـ/ 1003- 1004، 507هـ/ 1114م)، والإسـكندرية، وقوص (517-518هـ/ 1123- 1124م). وفـي إفريقيـة (تونـس)، والمنصوريـة، والمهديـة (حتـى 456هـ/ 1064م)، زويلـة، وصقليـة (حتـى 446هـ/

(1) القَلْقَشندي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علـيّ، (ت 821هـ/ 1418م)، كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا (المترجم).

1054م)، مكـة (365-366هـ/ 976-977م)، المدينـة (453هـ/ 1061م)، في سـوريا، وفلسـطين (الرملة)، ودمشـق (حتـى 459هــ/ 1067م)، عكا، عسقلان، طبرية، طرابلس، صور، وحلب (442-447هـ/ 1050- 1055).

صنج زجاجية: تحمل أسماء جميع الخلفاء، وفي بعض الأحيان تحمل تواريـخ، وهـي بالغة الوفرة (Lane-Poole, Cat. Ar. Wts., Casanova, Coll. Fouquet).

اسـتمر الحكم الفاطمي الذي وطده المعز في مصر لقرنين من الزمان، دون أية إنجازات واضحة من قِبَل الحكام أو إخلاص من قبل المحكومين. لقـد انغمس معظم الخلفاء في متعهم الشـخصية فـآل الحكم إلى الوزراء، الذيـن تقلبوا في السـلطة وفقًا لقوتهـم، أو نجاحهم وإخفاقهـم في الإيفاء بمطالبـات الجيـش الدائمة بمزيـد من المال. لـم تجد الأفـكار الكبيرة أو المشاريع الطموحة مكانًا في سياستهم، وسرعان ما تقلصت الإمبراطورية التي اشتملت أيام المُعِز على كامل شمال إفريقيا وصقلية وسوريا والحجاز، إلى أكثر قليلًا من الإقليم المصري. لقد انتقلت الأقاليم الإفريقية من مجرد علاقة تبعية إلى اسـتقلال صريح عـام 438هـ/ 1046م، وعادت إلى ولائها القديم (الاسميّ) لخلفاء بَغْداد، أما سوريا فلم تكن السيطرة عليها ثابتة؛ إذ كانت مسرحًا للثورات المتكررة والحروب الأهلية[1].

نال الفاطميون نفوذًا متزايدًا في الجزيرة العربية فقط، إلا إن ذلك النفوذ لـم يكن نتيجـة لجهودهم، إنما كان نتيجة للدعاية الشّـيعية التي اسـتمرت بصـورة مسـتقلة عـن قيادتهم. وفي مصر لـم تسـتند سـلطتهم على أسـاس

(1) أرجأنا الحديث عن تقلبات الحكم الفاطمي في الشام إلى الفصل التالي.

منصف من تطبيق عام للمبادئ الشيعية، ولا على نسبهم المشكوك فيه، والذي دحضه الفقهاء السنيون والشيعة على حد سواء مرارًا وتكرارًا[1]؛ بل تم تأسيس ملكهم على الخوف، واستمر بواسطة إرهاب فيالقهم الأجنبية. فقد كان الجنود البربر الذين يتم تجنيدهم على الدوام من مسقط رأسهم في الغرب، والمرتزقة الأتراك سواء بشرائهم أو قدومهم متطوعين من الشرق، والسودان الدمويين من الجنوب، هم حِصن الخلافة المصرية والسبب الوحيد لطول بقائها. على الرغم من ذلك وفي وجه هذا الاستبداد العسكري، يمكن الشك في مقدرة شعب آخر - غير المصريين الذين تمتعوا بالصبر - في الخضوع كل هذا الوقت الطويل لمثل هذا النير الذي لا يطاق.

في الحقيقة لم يعط بداية هذا الظلم الطويل مؤشرًا بعبثه القادم، فقد كان العَزيز[2] بن المُعِز (365 - 386هـ/ 975 - 996م)[3]، الذي خلف

(1) كان هناك على الأقل ثلاث إنكارات رسمية لنسبهم المزعوم إلى الرسول، تم وضعها في بغداد، ووقّع عليها علماء الشريعة من كافة المذاهب، وتداولتها الأيدي في أنحاء سوريا، وبلغت حتى الخلفاء الفاطميين أنفسهم..

(2) الاسم الكامل واللقب: الإمام نِزار أبو مَنْصور العَزيز بالله أمير المؤمنين. أُصدِرَت عملاته في مدينة مصر (الفسطاط) بين عامي 365هـ (976م) – 386هـ (996م)؛ وفلسطين (الرملة) 368–383هـ؛ والمدينة 370–384هـ، والمنصورية في إفريقية 367–386هـ؛ وصقلية 366–377هـ؛ وطرابلس الشام 374هـ ومكة 366هـ. واستمر سك عملات مدينة مصر بشكل سنوي، لكن يبدو أنه قد أُصدِرَت عملات من دور الضرب الأخرى على فترات متفاوتة غير منتظمة، وذلك حسب الحاجة. نفس الملحوظة تنطبق على الإصدارات الفاطمية المتأخرة. العملات التي وصلت إلينا كلها تقريبًا من الذهب، لكن لابد من وجود النقد الفضي، الذي كان متداولًا بكثرة.

(3) ترجمته في: ابن خلكان، ج5 / ص 371: 376، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ ص 236: 299 (المترجم).

أبـاه في ربيع الأول 365هـ/ ديسـمبر 975م - إلا أنه لم يُعلَن ذلك بشـكل رسـمي حتـى عيـد الأضحى فـي ذي الحجـة 365هـ/ أغسـطس 976م - حاكمًا ممتازًا. كان شخصًا جليلًا، شجاعًا، ووسيمًا، ورغم شَعْره الضارب إلـى الحمـرة وعينيـه الزرقاوين، كان مُهابًـا من العرب على الـدوام، وكان صائدًا شـجاعًا وقائدًا جسـورًا، له ميولٌ إنسـانية ويحب اسـترضاء الناس، كارهًـا للمبادرة بالهجـوم، ونافرًا من إراقة الدماء. كانـت عقيدة الفاطميين (أو سياستهم) تميل نحو التسامح الديني وعدم الاكتراث بالدين أو العِرْق؛ لكن في حالة العزيز مارست زوجته النصرانية تأثيرًا خاصًّا، فهي - بمنتهى الغرابة - أم لذلك الوحش (الحاكم بأمر اللَّه)[1].

وبنـاء علـى أمـر صريح - رغـم كونه غير رسـمي - تـم تعييـن أخويها بطريركين ملكانيين للإسْـكندرية والقُدْس، ولـم يتمتع النصارى أبدًا بمثل هـذا التسـامح كمـا تمتعوا فـي ظل حكمـه. فقد حظـي البطريـرك القبطي (إفْرايـم) علـى موضـع متميز فـي بلاطه، ونال إذنًـا لإعادة بناء كنيسـة أبي سَـيْفَيْن (St. Mercurius) المتهدمة خارج الفُسْـطاط، وأُخمِدَت معارضة المسلمين - الذين حوَّلوها إلى مستودع للسكر - بسرعة من قِبَل الخليفة[2].

مـع اعتبار فضـول المضاربة اللافت للنظر لدى الفاطميين، فقد شـجع العزيز، (سـاويرس) أسقف الأشمونين، لمناقشة أسـس العقيدة مع الأئمة

(1) ترجمته في: ابن خلكان، ج 5 / ص 292 : 298، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2 / ص 3: 123، انظر أيضًا: محمد عبد الله عنان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مكتبة الخانكي - القاهرة 1983م (المترجم).

(2) أبو صالح، ff. 34b-36.

المسلمين، مثل القاضي ابن النُّعمان[1] الشهير، إمام الصلاة ومُتَولِّي دار الضرب والأوزان والمقاييس لأربعة عشر عامًا؛ بل إن الخليفة قد رفض أن يضطهد مسلمًا ارتد إلى النصرانية، مع أن القتل كان هو حد الرِّدَّة. وقد امتد كرمه لأعدائه؛ وعَرِف كيف يحترم الشجاع منهم، فحين غُرِّرَ بالقائد الشجاع التركي أفتكين، عندما أثار سوريا كلها ضده وتفوق على القائد المحنك جوهر، منحه الخليفة منصبًا مرموقًا في البلاط وغمره بالمكافآت لشجاعته في الميدان.

كان ابن كِلِّس - ذلك اليهودي الذي أسلم - هو كبير الوزراء لخمسة عشر عامًا، قام خلالها بخدمة المعز على أكمل وجه وصار اليد اليمنى لابنه، ويرجع ذلك في المقام الأول لحكمته في إدارة شئون الدولة؛ حيث تمتعت مصر في عهده بفترة طويلة من الاستقرار، فضلًا عن امتلاء بيت المال بالثروة. تولى الوزارة أيضًا في العامين الأخيرين من حكم العَزيز، عِيسَى بن نَسْطورس النصراني، وأصبح



شكل (23) دينار العزيز، مصر، 976م

(1) هو أبو حَنيفة النُّعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن أحمد بن حيون، كان مالكيًا ثم انتقل إلى مذهب الإمامية، صنف كتاب (ابتداء تاريخ الدعوة للعبيديين)، وكتاب الأخبار في الفقه، كان قاضيًا للمعز لدين الله ولازمًا صحبته، دخل معه مصر وتوفي بها سنة 363هـ، انظر الكندي، كتاب الولاة والقضاة، ص 583، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5 / ص 415 : 423 (المترجم).

مِنَشّا اليهوديّ نائبًا على الشَّام[1]. ولقد أثارت هذه التعيينات حفيظة المسلمين، الذين وجدوا أنفسهم في وضع أسوأ تحت السيادة الإسلامية منه تحت سيادة «الكفار».

هكذا كتب الشعراء قصائد تهكمية، وَسُلِّمتْ اعتراضات للخليفة أثناء سيره في الطرقات. فحاول الخليفة أن يُهدِّئ من روع الناس بطرد هؤلاء الموظفين من مناصبهم، لكن في حالة ابن نَسْطورس على الأقل، كان تأثير الحريم أكثر قوة؛ حيث تمكنت ابنة الخليفة الأثيرة والبارعة (سِتْ المُلْك[2] من إعادة النصراني إلى منصبه. وفي الحقيقة لم يكن ممكنًا للعَزيز الاستغناء عن هؤلاء الموظفين الأكفاء، والذين كانوا بوضوح أكثر

(1) من المرجح أنه بعد وفاة ابن كلس وزير العزيز عام 380هـ، قسم أعماله بين كبار رجال دولته، فعهد بإدارة الشئون المالية للبلاد إلى عيسى بن نسطورس النصراني، ثم ما لبث أن رفعه إلى منصب الوساطة التي حلت محل الوزارة حينئذٍ، فأشرف على كل دواوين الدولة وأحكم سيطرته عليها، كما عين العزيز منشا بن الفزاز اليهودي نائبًا له على الشام، وقد اتبع كل منهما سياسة التعصب لبني ملته، فعين ابن نسطورس النصارى في الإدارة والدواوين وعزل الكتاب وجباة الضرائب المسلمين، وفي الشام كانت فترة الأربع سنوات التي حَكَم فيها مِنَشّا دمشق عصرًا ذهبيًّا ليهود الشام؛ إذ فتح أمامهم أبواب المناصب العليا وقدمهم على غيرهم، وأبعد المسلمين العاملين بالدواوين وأغلق أبواب العمل أمامهم، هكذا تركت هذه السياسة أثرها السيئ على الشعب، انظر: النويري، نهاية الأرب، ج28 / ص 105، سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، هيئة الكتاب – القاهرة 1995م، ص 59: 61 (المترجم).

(2) تسمت أيضًا في بعض المصادر بسَيدة المُلْك وسِتّ المُلوك (359 – 414هـ / 970- 1023م)، انظر ترجمتها في: محمد عبد الله عنان، تراجم إسلامية، ص 31: 37 (المترجم).

كفاءة من زملائهم المسلمين في إدارة العمل[1].

حيـن أُلقِيَ بابـن كِلِّس في السـجن لمجرد الغيرة، افتقد سـيده التركي أفتكيـن نصائحه بشـدة، لدرجة أنه أعـاده إلى منصبه خـلال أربعين يومًا. وفي العام التالي (373هـ/ 983م) جُرِّد نفس الوزير من منصبه، إلا أنه عاد إليه بنفس السـرعة تقريبًا. لا شـك أن الإدارة الحازمة والعادلة المدعومة بجيش قوي، عملت على اسـترضاء السكان المسلمين بعض الشيء، بعد ما رآه هؤلاء المسلمون من تحيز غير طبيعي؛ حيث كان استياؤهم جاهزًا للتحول إلى عداء حقيقي عند أي اسـتفزاز. خلال الحرب مع الإمبراطور

(1) يفتقر المؤلف إلى الموضوعية أثناء حديثه عن دور النصارى، فيزعم أنه لا غنى عنهم في الإدارة لتفوق كفاءتهم على نظرائهم من المسلمين، وهذا كلام يفتقد إلى الدليل خاصة إذا علمنا أن الإدارة الإسلامية قد وصلت إلى قمة نضوجها منذ القرن الرابع الهجري، وذلك في كافة أنحاء العالم الإسلامي بعد تبلورها عن تأثيرات الحضارات التي احتك بها المسلمون أعقاب الفتوحات الإسلامية، بل وزيادة على ذلك بدأت في التأثير على نظم الإدارة في الدول الأخرى خاصة الأوروبية عن طريق الأندلس والمعابر الحضارية المختلفة. أما عن سبب استخدام الفاطميين لأهل الذمة بشكل عام في كثير من الوظائف فيرجع غالبًا إلى فشلهم في تحويل أهل مصر إلى المذهب الإسماعيلي، فاستعاضوا بذلك بكسب ود أهل الذمة؛ لأن وضع هؤلاء كذميين ضَمِن ولاءهم للحاكم بما يفوق الأكثرية السنية، فما كان من اليهود والنصارى إلا إثبات الولاء والإخلاص للحاكم مما كفل لهم ذلك الاندماج الحقيقي في الحياة السياسية العامة للدولة، واستطاعوا بالفعل الوصول إلى أعلى المناصب، انظر: أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد)، هيئة الكتاب – القاهرة 2007م، ص 154، 155، انظر مزيدًا عن أهل الذمة في ذلك العصر: سلام شافعي، أهل الذمة إلخ، فاطمة مصطفى عامر، تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، جزءان، هيئة الكتاب – القاهرة 2000م (المترجم).

باسيل[1] عام 386هـ/ 996م - التي بنى العَزيز من أجلها أسطولًا رائعًا يتكون من ستمائة مركب شراعي - أُضرِمَت النيران في أحد عشر مركبًا من أكبر المراكب التي كانت راسية في ميناء المَقْس على النيل (ميناء القاهرة آنذاك)، حيث قام البحارة وحشد من الناس - بعد أن نسبوا الكارثة إلى السكان المجاورين من اليونانيين - بذبح العديد منهم ونهب بضاعتهم ولعب الكرة برءوسهم. رغم ذلك أستُعِيدَ النظام على الفور، وخلال ثلاثة أشهر أَنتج نشاط ابن نَسْطورس ستة مراكب جديدة من الطراز الأول[2].

مع براعة هؤلاء الوزراء، فقد شاركوا سيدهم شغفًا بالثروة والترف؛ حيث تمتع ابن كِلِّس - الذي توفي عام 380هـ/ 991م - بمرتب قدره مائة ألف دينار، وترك ثروة أميرية من الأراضي والبيوت والمتاجر والعبيد والجياد والأثاث والثياب والمجوهرات تُقدَّر بأربعة ملايين دينار، بجانب صداق ابنته البالغ مائتي ألف دينار. لقد أبقى على ثمانمائة امرأة في الحريم، بجانب الخدم وحراسه المكونين من أربعة آلاف شاب، من البيض والسود على السواء. كان بيته «قصر الوزراء» مُحصَّنًا ومنعزلًا كالقلعة. فاق حمامه

(1) هو الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني Basil II (365- 416هـ/ 976 – 1025م)، الذي شهدت الدولة البيزنطية في عهده طفرة في القوة والنهوض، انظر عن الدولة البيزنطية في عهده: محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية 2000م، ص 211 : 227 (المترجم).

(2) يقول ناصر خسرو، إنه قد رأى عام 1046م سبعًا من سفن المعز الشراعية على ضفة النيل، حيث تم سحبهم عند الغزو منذ ثلاثة أرباع قرن، كان مقاسهم 150 في 60 ذراعًا عند العارضة (Safar, Nüma, ed. Schefer, 126)، هذا على الأرجح يمثل حوالي 275 في 115 قدمًا.

الزاجـل المُختار بعناية مثيله الخاص بالخليفة[1]. وقد حضر العزيز بنفسـه جنازتـه (التي كانت تعادل في ترفها فخامة حياته اليومية)؛ حيث قام بتوفير الحَنُوط والعطور من الكافور والمسـك وماء الورد، وخمسـين ثوبًا فاخرًا لتكفيـن الجثمـان. هكـذا رَكـب الخليفـة بأناة إلى بيـت مستشـاره الوفي، مُمتطيًـا بغلًا ورافضًا مظلـة الدولة المألوفة؛ حيث وقف أمـام النعش باكيًا يقرأ الأدعية على المتوفى، ثم بيديه وضع الحجر على مدخل القبر.

لم يبسط الخليفة لثلاث أيام مائدة الطعام، وكذا لم يستقبل أي ضيوف، فـي حين توقفـت جميع الأعمال وأغلقـت دواوين الحكومة لثمانية عشـر يومًـا. ولمـدة شـهر ظل القبـر مكانًا للزيـارة؛ حيث سـرد الشـعراء مناقب الراحل على نفقة الخليفة، ورتَّل جمع غفير من المرتلين القرآن نهارًا وليلًا، ووقفـت الجواري على مقربة بأكواب فضية وملاعـق لتقديم الأطايب من النبيذ والحلوى لحشد الزائرين.

قام الخليفة بعتق جميع مماليك الوزير المتوفى، وأوفى ديونه المعلقة، وسـوَّى الرواتـب وعَنى ببيته الفسـيح. وعلى النقيض من هـذا، حين توفي القائـد العظيـم جَوْهَـر في العـام التالـي - مع الغمـوض النسـبي لأعوامه الأخيـرة - قَـدّم الخليفـة لعائلتـه هدية قدرها خمسـة آلاف دينار فحسـب كدليل على الاحترام.

لقد أرسى العَزيز مثالًا للرفاهية، فقد جعل سجلات الثروة الفاطمية لا تُصدَّق على وجه التقريب لأولئك الذين لا يدركون الشغف الشرقي

(1) راجع: إبراهيم العدوي، الحمام الزاجل في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثاني (العدد الأول) 1949م، ص 131 : 138 (المترجم).

للحُلـيّ. كان الخليفة خبيرًا في الأحجار الكريمة وأصناف الطُرفات الفنية[1]. ويَنسب المؤرخ جمال الدين الحلبي[2]، عددًا من الأشياء التي تتمتع بالأناقة غير المألوفة لفترة الحكم تلك، من أمثلة العمامات المتعددة الألوان المزخرفة بالذهب الثقيل، بطولها البالغ ستين ياردة، والمصنوعة من القماش الثمين المنسوج في المصانع الملكية في دَبْيَق[3]؛ وثياب وأغطية من قماش بَغْداد (التابي)، أو أمتعة الرَّمْلَة وطَرابُلس الملونة، أو سقلاطون القاهرة؛ وأغطية وعتاد الخيل المزخرف بالجواهر والمعطر بالعنبر، إلى الدروع المكفتة بالذهب.

وكانت رفاهية المرء متماشية مع رفاهية مائدته، حيث جُلِبَ السمك طازجًا من البحر إلى القاهرة، وهو ما لم يُعرف من قبل؛ وبُحِثَ عن الكمأة على مسافة أميال من المقطم، حيث تم بيعها في الأسواق بكميات كبيرة فصارت رخيصة ومتوفرة. وتسبب الشغف بالأشياء النادرة في جلب الحيوانات والطيور الغريبة إلى القاهرة؛ مثل إناث الأفيال التي اعتنى بها النوبيون، وأنواعٍ من وحيد القرن الذي أبهج الناس مشاهدته.

ولقد أثقلت تكلفة هذه الطرف على بيت المال؛ حيث تم الإيفاء بها فقط من خلال الرقابة المالية الصارمة من قِبَل العَزيز الذي أحكم يده

---

(1) يُقال إن إناء زجاجي في مجموعة St. Mark في ڤينيسيا تحمل اسم العزيز؛ وإناء St. Denis في اللوفر، راجع Lane-Poole, Art of the Saracens, 163, Makrizi, I, 409 ff.، إلخ.

(2) منقول عن وستنفيلد Wüstenfeld, 162- 164

(3) هي مدينة تقع بين الفرما وتنيس على بحيرة المنزلة، وتقع الآن في الشمال الشرقي لقرية صان الحجر، كانت تشتهر في العصر الفاطمي بصناعة الأقمشة خاصة التي يستخدمها الخلفاء الفاطميون، حيث أطلق على الأقمشة التي صنعت بها الأقمشة الديبقية (المترجم).

على خزانة دولته، فحظر بحزم كل الرشاوى والهدايا؛ حتى أنه لم يكن من الممكن التصرف بشيء دون أمر كتابيّ. رغم ذلك لم تُنفَق الأموال كلها على وسائل الترف، فقد شَهِدَ حكمه العديد من الإنجازات المعمارية والهندسية في القاهرة، مثل قَصْر الذَّهب، وقَصْر اللُّؤْلُؤَة، ومسجد والدته عند مدفن القرافة، وتأسيس الجامع الكبير عام 381هـ/ 991م المسمى بجامع الحاكِم[1] (الذي كان آنذاك خارج باب الفتوح)، وبعض القنوات والكباري والأحواض البحرية الهامة.

كان العَزيز رجلًا ذا عقل مُنظَّم، قام بالعديد من الإصلاحات في المراسم والإدارة، وكان أول من رتب المواكب في الدولة أيام الجمعة في رمضان شهر الصيام؛ حيث قام بالخدمة المفروضة في حضور الناس كإمام أعلى؛ وكان أول مَن منح رواتب ثابتة لموظفيه وتابعيه وأشرف على أزياء عملهم؛ وأول مَن قام في الفاطميين بتبني سياسة تفضيل القوات التركية الكارثية[2].

(1) انظر عن جامع الحاكم: أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ج1 / ص 63 : 85، سعاد ماهر، مساجد مصر، ج1 / ص 228 : 240، كريزويل، العمارة الإسلامية في مصر، ج1/ ص 77: 116 (المترجم).

(2) كان اعتماد جيش الفاطميين منذ دخولهم إلى مصر على قوات المغاربة من بربر كتامة وزويلة فضلًا عن العبيد الصقالبة من أمثال القائد جوهر كما تقدم، إلا أنه منذ عهد العزيز بالله بدأت دخول عناصر أخرى إلى الجيش مما أدى إلى بداية التنافس والتشاحن بين هذه الطوائف المختلفة، مما أثر على الأحوال الداخلية في مصر الفاطمية، وكانت أبرز العناصر التي أدخلها العزيز هم الأتراك والديالمة، وكان ذلك عقب انتصاره على جيوش أفتكين التركي في فلسطين؛ حيث لمس العزيز تفوق الأتراك على البربر في الكفاءة القتالية، إلا أن كل خليفة من الخلفاء بعد ذلك كان يميل إلى طائفة معينة ويظهرها على باقي الطوائف فيتسبب في إثارة الغيرة والحنق ضد هذه الطائفة، =
= وكان ينتهي ذلك عادة بالاقتتال فيما بين الطوائف، فعندما تولى الحاكم قرَّب إليه

مع كل دهائه وثقافته الواسعة وميله للشعر، ظن نفسه بالفعل متنبئًا، فقد كان ذلك جزءًا من الادعاء الفاطمي بمعرفة الغيب، والذى تسبب له في بعض السخرية. وذات مرة مضى يهجو الخليفة الأموي في قُرْطُبة بخطاب مهين، لكنه تلقى ردًّا سريعًا ساحقًا: «عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لهجوناك»[1]. رغم ذلك فقد كان العزيز الأكثر حكمة وإحسانًا من جميع خلفاء مصر الفاطميين. أفضل شاهد على ذلك هو الرخاء المتواصل الذي تمتعت به البلاد في عهده؛ ورغم أن إفريقية قد قطعت صلاتها بمصر، وتم الاحتفاظ بسوريا فقط بقوة السلاح، تم الدعاء للعزيز في المساجد الجامعة من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر، وفي اليمن، وفي الحرم المكي[2]، ومرة على منابر المَوْصل عام 382هـ/ 992م. وفي النهاية قضت مضاعفات مرضيّة مؤلمة على هذا الحاكم الكبير في بِلْبَيس - في رمضان

الكتاميين في بداية عهده ثم انحرف عنهم واعتمد على المرتزقة من الأتراك والسودان، وحذا ابنه الظاهر حذوه في الاعتماد على الأتراك فضعف بذلك شأن الكتاميين، ثم تلاشى أمرهم في عهد المستنصر، الذي استكثر من الأتراك، على حين استكثرت أمه من العبيد السودان من جنسها، حتى بلغ عددهم خمسين ألفًا، وهذا ما أدى إلى العديد من الحروب الأهلية بين الفرق وبعضها البعض طوال العصر الفاطمي، انظر: محمد جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي - القاهرة، ص 93، عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دار الفكر العربي - القاهرة 1994م، ص 308: 314، أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر، ص 665 : 667 (المترجم).

(1) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5 / ص 372 (المترجم).

(2) تحمل عملة تم سكها في مكة سنة 366هـ (976 - 977م) اسم العزيز (B. M. Cat., iv., p. ix).

386هـ/ أكتوبر 996م، بعد مقابلة مؤثرة مع ابنه الصغير[1]، ورغم توهمه بالتنبؤ، لم يعلم بالشر الذي سيلحقه هذا الصبي في مملكة والده التي تولاها ببالغ العناية.

بلغ الحاكِم[2] (386-411هـ/ 996- 1021م) - الابن الوحيد لهذا الأب الحكيم والأم النصرانية - من العمر أحد عشر عامًا حين سقط العَزيز ميتًا في حمامه في بِلْبَيس؛ حيث أحضره الأمير بَرْجَوان[3] من أعلى شجرة جميز، ومن ثمّ وضع العمامة المحلاة بالجوهر على رأسه على عجل، وجاء به أمام الناس الذين قبلّوا الأرض بين يدي إمامهم الجديد. وفي اليوم التالي - ممسكًا برمح في يده ومعلقًا سيفًا على كتفه - تَبِعَ الصبي الصغير البعير الذي حمل جثمان والده في طريق العودة إلى القاهرة؛ وفي اليوم التالي تُوِّجَ في القصر الكبير بحضور رجال البلاط، مصفوفين حسب رتبهم. وبشكل طبيعي ظل في الأعوام القليلة الأولى تحت الوصاية، وكان الوصيّ هو الأستاذ الذي عينه العَزيز، السّلافي الخَصي (بَرْجَوان)،

---

(1) انظر: ابن خلكان، 529 ، iii.

(2) المنصور أبو عليّ الحاكم بأمر الله، سُكَّت عملاته في مدينة مصر، والمنصورية، والمهدية، وزويلة (مرة)، وصقلية، ودمشق، وفلسطين (الرملة)، وصور (مرة)، وطرابلس (مرة)، ومرة في القاهرة مع لقب «المحروسة» (القاهرة المحروسة). أما الصنج الزجاجية (لاختبار الدنانير والدراهم، وكسورها ومضاعفاتها) التي تحمل اسم الحاكم وأحيانًا التاريخ، فكانت كثيرة.

(3) هو الأستاذ أبو الفتوح برجوان الخادم، كان خصيًا صقليًا نشأ في بلاط العزيز، استبد بالسلطة منذ أن تولى الحاكم إلى أن قتل في 16 ربيع الآخر سنة 390هـ، انظر ترجمته في: ابن الصيرفي، الإشارة، ص 57، 58، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1 / ص 270، 271، المقريزي، الخطط، ج2 / ص 373 (المترجم).

الـذي لا يزال اســمه يطلق علـى إحدى حـارات القاهرة؛ ومُنِــحَ المغربي (ابن عَمَّـار) [1] قيادة القوات، مع لقب «الوسـيط»[2] ولقب أمين الدولة[3]؛ بينمـا استمر ابـن نسـطورس النصرانـي فـي التحكـم بالاقتصـاد حتى تم إعدامـه. كان القائد المغربي بشـكل عملي وصيًّا على العرش، واسـتخدم سـلطته في تعزيز مصالح قبيلته كتامة، وإخضاع الفريق التركي الذي أتى به العزيز. وفقًا لذلك، ازداد البربر غطرسة، فنهبوا وأساءوا معاملة المصريين، وحاربوا الجند الأتراك في الطرقات. لقد صار كفاحًا بين الشرق والغرب، ربح فيه الشـرق حين هُزِمَت قبيلة كُتَامـة؛ وجُرِّدَ ابن عَمَّار من منصبه فضلًا عن نهب الأتراك لقصره، وحين غامر بالمجيء إلى البلاط، ذبحوه وقدموا رأسه إلى الخليفة الصغير المبتهج.

---

(1) هو أمين الدولة أبو محمد الحسن بن عمَّار بن أبي الحسن، شيخ كتامة وأول مَن تلقب من المغاربة، انظر فى ترجمته: ابن الصيرفي، الإشارة، ص 56، 57، المقريزي، المقفى الكبير، ج3 / ص 433 : 440 (المترجم).

(2) الوساطة منصب دون الوزارة في الرتبة، وقد حل محل الوزارة في بعض الأوقات، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج3 / ص 489 (المترجم).

(3) كان أول مغربي يتلقى لقبًا شرفيًّا في مصر، أما عن ابتكار الأسماء والألقاب الشهيرة الخاصة بالوزراء في هذه السلالة الحاكمة المتسمة بالفخامة، فيعود تاريخه إلى ذلك الوقت، والأمثلة هي لقب «قائد القواد»، الممنوح لخلف برجوان، الحسين بن جوهر؛ وأُطلق على صالح «ثقة ثقات السيف والقلم»؛ وعلى ابن عبدون، الكافي؛ وزرعة بن نسطورس، «الشافي»؛ والحسين بن طاهر، «أمين الأمناء»؛ وعلـيّ ابن جعفر الفلاحي، «ذو الرياستين»، إلى آخره. ومنذ عام 531هـ/ 1137م، أخذ الوزراء الفاطميون لقب ملك.



شكل (24) دينار الحاكم، صقلية، 1004م

انغمس بَرْجَوان - الذي عاش بهدوء حتى الآن في القصر، وصار وصيًا على العرش - في الملذات كلية من فرط ما أثملته السلطة المفاجئة والثراء. لقد أمضى وقته مستمتعًا بصحبة جمع من المطربين، مستمعًا إلى الموسيقى التي أحبها في قصر اللُّؤْلُؤة الذي بناه العزيز قرب بوابة الجسر، مُطِلًا على حدائق كافور الجميلة من جانب، ومن الجانب الآخر مُطِلًا من أعلى على قناة الماء وصولًا إلى النيل والأهرامات. مع انغماسه في الترف لم يعمل أي حساب للسلطة. هكذا غادر الحاكم - دون أي رقابة - وبدأ في إظهار نفسه، والاستخفاف بوصيه، الذي على غرار المُعلم، أطلق نعوتًا على تلميذه. هكذا بدأ الصبي بسرعة كبيرة نشاطه من سفك الدماء باغتيال بَرْجَوان. احتشد الناس من فرط صدمة مقتل القائد ذي الشعبية، متوعدين عند القصر؛ لكن الخليفة تملص منهم بالأكاذيب وناشدهم أن يساندوه في حداثة سنه، فتفرق الحشد وانتهت الأزمة الخطيرة، وكان درسًا في السلوك لم ينسه الحاكم أبدًا[1].

---

(1) أمر الحاكم بكتابة سجل يُقرأ على المصريين من منابر المساجد في العاصمة وضواحيها يبرر فيه للناس قتله لوزيره برجوان، جاء فيه: «إن برجوان كان فيما مضى ناصحًا أرضى أمير المؤمنين حينئذ فاستخدمه كما يشاء، فيما يشاء وفعل به ما شاء»، «ولقد كان أمير المؤمنين ملَّكه، فلما أساء ألبسه النقم»؛ انظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2 / ص 27: 29، جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص 144: 148 (المترجم).

بدأت أطوار شخصية الخليفة الغريبة في الظهور مع ظهوره أكثر أمام الجمهور، حيث أخاف الناس بوجهه الغريب، وعينيه الزرقاء الرهيبة؛ فضلًا عن صوته الجهوري الذي أرعدهم. لقد أطلق عليه معلمه لقب «سِحْلية»، بسبب طريقته المروعة في التسلل بين رعاياه. كان يهوى الظلام، حتى أنه كان يدعو مجلسه للانعقاد ليلًا، وينطلق في الشوارع هنا وهناك على حماره الرمادي كل ليلة، مستطلعًا حال الناس وآراءهم بذريعة معاينة أوزان ومقاييس السوق. تحول الليل إلى نهار بأمره، فصارت جميع الأعمال والمعاملات التجارية تؤدى ليلًا. كان على الحوانيت أن تُفتح والمنازل أن تُضَاء تبعًا لهواه، وحين أفرط الفقراء في العبث والمجون في الساعات غير المألوفة، فرض قوانين رادعة تحظر على النساء مغادرة المنازل، كما نهى الرجال عن الجلوس في الحوانيت. هذا فضلًا عن منعه الأساكفة من عمل أحذية خروج للنساء، حتى لا يمتلكن وسيلة التنقل خارج البيت. ولم يُحظر على سيدات القاهرة الظهور عند النافذة فقط، بل وحتى على أسطح دورهن. ولقد أُصدِرَت القوانين الصارمة بشأن الطعام والشراب؛ حيث كان الحاكم زاهدًا متحمِّسًا كما كان يتوقع من جميع المسلمين، فقد مُنِعَت الجعة، وصودِرَ الخمر، وتم إتلاف أشجار الكروم، حتى الزبيب المجفف أصبح سلعة مُهرَّبَة؛ ولم يسمح بأكل الملوخيا، حتى العسل قام بصبه في النيل. وقد حُظِرَت الألعاب مثل الشطرنج المصري، الذي أُحرقت رقعه. وقُتِلَت الكلاب في الشوارع أينما وُجِدَت، ولم يسمح بذبح الماشية السالمة من العيب إلا في عيد الأضحى. هكذا جُلِدَ وضُرِبَت أعناق الذين غامروا بعصيان تلك الأحكام، أو تم إعدامهم ببعض صور

التعذيب الجديدة التي سر الخليفة البارع أن يبتكرها. لا شك أن الكثير من تلك التنظيمات الجديدة أوحت بشخصية إصلاحية، لكنها كانت شخصية إصلاحية مجنونة. لقد احتاجت سيدات القاهرة دائمًا ليد قوية تحجمهن، ولكن مَن كان يتوقع أن السبيل إلى ذلك هو مصادرة أحذيتهن. أما حظر الخمر والميسر وغير ذلك من وسائل التسلية العامة فكان متماشيًا مع شخصية المتزمت القاسي، الذي ينتوي من غير ريب تحسين السلوك الأخلاقي بنفس درجة تحجيم نفوس رعاياه. إلا أن التجوّلات الليلية، والقيود غير الضرورية والأحكام التعسفية الصارمة المتعلقة بالتفاصيل غير الهامة، كانت تنم على عقل غير متزن. ربما كان ما نواه الحاكم جيدًا وفقًا لأنواره الخاصة، لكنها كانت أنوار تشع ببريق غريب.

تمتع النصارى واليهود بالحصانة خلال العشر سنوات الأولى من حكمه، هذا فضلًا عن الامتيازات التي نالوها تحت حكم العَزيز المتسامح؛ لكن مع مرور الوقت لاقوا نصيبهم من الاضطهاد غير المعقول[1]. فقد أُجبِروا على ارتداء ثياب سوداء كزيٍّ مميز، أما في الحمامات – ولأن الناس متشابهون دون ثياب – فقد أُجبِرَ النصارى على أن يميزوا أنفسهم بارتداء صُلبَان كبيرة وثقيلة، في حين كان على اليهود ارتداء الأجراس، وفي الشوارع كان عليهم عرض صورة خشبية لعِجْل، كتلميح لأحداث مُخزِيَة في تاريخهم المبكر. ثم أُصدِرَ أمر عام بتدمير جميع الكنائس في مصر، ومصادرة أراضيها وممتلكاتها، وقد استمرت أعمال الهدم لخمسة أعوام

(1) قيل إن ما أثار الخليفة ضد النصارى هو أحد الرهبان، انتقامًا منه لرفضه أن يكون بطريركًا لواحدة من الأسقفيات، انظر: Renaudot, Hist. Patr., 388.

على الأقل (397-402هـ/ 1007- 1012م). وخُيّر النصارى بين الدخول في الإسلام أو مغادرة البلاد، أو ارتداء صلبان ثقيلة كعلامة مميزة على خزيهم. هكذا قَبِلَ العديد منهم - خاصة بين الفلاحين - الدين الإسلامي سعيًا للهروب من الاضطهاد، لدرجة محاصرتهم مكان تلقي طلبات الدخول في الإسلام ليومين في الأسبوع، حتى أن بعضهم مات حشرًا تحت الأقدام، أما أولئك الذين ظلوا أوفياء لدينهم فقد تعرضوا لكثير من الإذلال، وحُظِرَ عليهم امتطاء الخيل، أو الاحتفاظ بخدم من المسلمين، أو التنقل بمراكب المسلمين، هذا فضلًا عن منعهم من شراء العبيد[1].



شكل (25) دينار الحاكم، مصر، 1015م. وشكل (26) صنجة زجاجية للحاكم، 1012م.

رغم ذلك كانت العقوبات التي لحقت بالنصارى في الحقيقة جزءًا من ازدراء عام للناس، أكثر منها علامة على كراهية خاصة لفئة معينة. وبينما كانت تصدر هذه القوانين، كان النصارى ما زالوا يُعَيَّنون بأعلى المناصب، وذلك بلا شك بفضل قدراتهم المالية الفائقة. كان ابن عَبْدون، الوزير الذي اضطُر لتوقيع مرسوم هدم كنيسة قُمامة في القُدْس، نصرانيًا، وكان خلفه

(1) بعض تلك القيود يصعب أن تكون سببًا للضيق على الإطلاق، لأن النصارى كانوا قد اتخذوا طوعًا الرداء الأسود منذ قرنين سابقين (أبو صالح، 52a)، ولقد صار امتطاء الخيل علامة مميزة للجُندي، حتى أن الحاكم نفسه كان يركب حمارًا. أما عن أحقية شراء العبيد، فيمكن للنصارى شراء عبيد من النصارى فقط.

نصرانيًا آخر، هو زُرْعَة[1] «الواثق»، ابن الوزير السابق الهَرم ابن نَسْطورس، الذي توفي عام 403هـ/ 1012م. وبالفعل فإن «طريقهم للمجد لم يقدهم سوى للقبر»، فقد قُتِلَ وزراء الحاكم بصرامة، سواءً كانوا نصارى أو مسلمين. قُتِلَ فَهْد، كبير الوزراء المسلم[2]، عام 393هـ/ 1003م، وأُعدِمَ خلفه بعد شهر لاحق؛ وقُتِلَ ابن عَبْدون عام 401هـ/ 1010م، وفي نفس العام قُتِلَ قائد القواد الحُسَين بن جَوْهَر[3] بصورة شنيعة في القصر بواسطة خليفته الغادر بعد إعطائه الأمان، وبعد تجريده من رتبته وإجباره على الهرب، ثم إعادته لمنصبه والخلع عليه. لقد عُذِّب الموظفين وقُتِلُوا كالذباب؛ حيث بُتِرَت الأذرع، وقُطِعَت الألسن، هذا غير إصابتهم بمختلف وسائل الوحشية. لذلك تم تأسيس ديوان خاص تابع للحكومة هو (ديوان مُفرد)، لإدارة الممتلكات المُصادَرَة الخاصة بالموظفين الذين تم قتلهم أو طردهم.

---

(1) رُدّ النظر إليه والسفارة في محرم سنة 401هـ، ولقب (الشافي) في شهر ربيع الآخر منها، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي بمصر في صفر سنة 403هـ. ابن الصيرفي، الإشارة، ص 59 (المترجم).

(2) انظر: المصدر السابق، ص 58 (المترجم).

(3) خلع عليه العزيز بعد موت أبيه وجعله في رتبته، وبعد وفاة العزيز قلده الحاكم البريد والإنشاء سنة 386هـ ولما قتل برجوان خلع عليه الحاكم سنة 390هـ، ورد إليه التوقيعات وتدبير شئون الدولة، وظل حتى هرب من القاهرة عام 401هـ خوفًا من غدر الحاكم الذي تنكر لكثير من قواده، فكتب له الحاكم بالأمان فلما رجع أمر بقتله في 12 جمادى الآخرة عام 401هـ. انظر: الكندي، الولاة والقضاة، ص 603، ابن الصيرفي، الإشارة، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1/ ص 380، ص 58، المقريزي، المقفى الكبير، ج3/ ص 495، 497 (المترجم).

تم الشعور بالنزوات القاتلة للخليفة بأقصى حدتها في القاهرة، لكن أوامره الخيالية جرت على طول الأراضي الخاضعة لسيادته، فعانت منها كافة أرجاء البلاد. وقد زاد من المحنة انخفاض النيل لثلاثة أعوام، وهو ما اعتبروه مشيئة الله التي حلت بسبب شرور ذلك العصر. ولم يكن من العجب ظهور مُغامر قادر على أن يثير الدولة ويتحدى الجيوش الفاطمية لعامين، وذلك حين نَصَّبَ عضوٌ من العائلة الحاكمة الأموية - هاربًا من إسبانيا - نفسه خليفة، وحاز على بَرْقَة بنُصرَة عرب بني قُرّة وبربر كتامة، الذين لم يصفحوا أبدًا عن الإذلال الذي لاقوه على أيدي الأتراك في القاهرة، وقام بهزيمة الجيوش الفاطمية التي أُرسِلَت لمحاربته، ومن ثمّ قام باجتياح مصر. هكذا تغلب أبو رَكْوَة[1][2]، - كما كان يُطلَق عليه، من قِربَة الماء التي كان يحملها على طريقة الدراويش الصوفية - على جيش الخليفة مرة ثانية في الجيزة؛ حيث عسكر بجانب الأهرامات تلافيًا للخطر. وحين تم سحقه في معركة دموية، وأُسِرَ في النوبة، أُرسِلَ رأسه مع ثلاثين ألفًا أخرى لأتباعه في موكب مر خلال مدن سوريا على ظهر مائة بعير؛ حيث تم إلقاؤها بعد ذلك في نهر الفُرات. حصد القائد فاضل - الذي

(1) كانت ألقابه التي اتخذها: الطاهر بأمر الله، والمنتصر من أعداء الله، وكلاهما من الألقاب المفضلة لدى الشيعة المزعومين، لكنها غريبة على أموي.

(2) هو أبو رَكْوَة الوَليد بن هِشَام بن عَبْد المَلِك، ولد ونشأ بقرطبة وكان أحد أمراء الأمويين بها، ترك الأندلس ورحل إلى مصر حيث اشتغل بالحديث، ثار على الفاطميين في شعبان 395هـ في عهد الحاكم، قضى على ثورته حين قتل عند مسجد تبر خارج القاهرة في الثاني من جمادى الآخرة سنة 396هـ، عن ثورته راجع: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ ص 60: 66 (المترجم).

خلّـص الخليفـة من منافسـه - مكافأة قاسـية على خدمته، فكان من سـوء حظـه دخولـه على الحاكم أثنـاء انهماكه في تقطيع جسـد صبي صغير قتله للتو بسكينه. لـم يتمكن الفاضل من السيطرة على رعبه، لكنه أدرك العاقبة؛ فذهب مباشـرة لبيته وكتب وصيته، وأفسـح المجـال لجلادي الخليفة بعد ساعة لاحقة لأنه قد رأى بالفعل أكثر مما ينبغي.

مـع كل مـا قدمه الحاكم من وحشـية محمومـة، كان لديـه ومضات من الـذكاء وبالتأكيد تقـوى؛ ولـم يكن حكمه ينقصه الأعمـال الدينية أو العامة. فكانت أكثر مبانيه شهرة هو جامعٌ لا يزال يحمل اسمه، قرب البوابة الشمالية أو باب النصر، بدأ أبوه في تأسيسه عام 381هـ/ 991م، وتم الانتهاء منه عام 393هـ/ 1003م، باستثناء تعلية المنارة. بنى أيضًا جامع راشِدَة، الذي صلى فيه كثيرًا أيام الجُمعة؛ وفي المَقْس أسس جامعًا آخر، فضلًا عن مبنى صغير يطـل علـى منظر رائع، قـرب ضفة النهـر. رغم هذا فـإن أكثـر المباني التي أسسـها أصالة هـي «دار العِلْم» أو «دار الحِكْمة»[1]، والتي تم تشـييدها عام 395هـ/ 1005م بصورة أساسـية لنشر المذهب الشيعي وكافة أنواع الزندقة الأخرى، لكنها كانت أيضًا من أجل دعم العلوم بصفة عامة، مثل علم الفلك، وصناعـة المعاجم، وعلوم النحو والشـعر والنقد والقانـون والطب. كانت منشـأة مُهيئة بتـرف، تم تزويدها بمكتبة عظيمة مـن القصور الملكية فتحت أبوابها للجميع، فضلًا عن تجهيزها بكل وسائل الدراسة الضرورية[2]. وقد

---

(1) راجع عن دار العلم: المقريزي، الخطط، ج2 / ص 245، أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص 583: 590 (المترجم).

(2) كانت المبالغ المالية المُخصصة لدار العلم تبدو صغيرة بالمقارنة مع رفاهية ذلك العصر، فقد كانت المنحة السنوية لأوراق النسخ تسعين دينارًا؛ وللحبر =

اعتـاد كل رجال العلـم في القاهرة وغيرهم من الـزوار التقابل هناك، وذات مرة تم دعوتهم جميعًا إلى القصر؛ حيث فوجئوا بإعادتهم مكسـوين بثياب الإجلال بدلًا من أن يفقدوا رؤوسهم.



شكل (27) جامع الحاكم، 991 - 1003م.

رغم ذلك، فحتى مبانيه كانت تحمل شـيئًا مريبًـا. فحيـن أقـام مخزنًـا كبيرًا للحبـوب علـى تـلال المقطـم، وملأه بالحطب المستخدم في الإشعال، ظن النـاس أنه قد عـزم على صنـع محرقة عامـة، ولـم يطمئنوا إلا عقـب صدور إعـلان رسـمي. كانـت منحـدرات صحـراء المقطـم مـكان ملازمته المفضـل؛ حيث يوجـد مرصده – غير آخر لم يكتمل في القرافة – الذي تابع مـن خلالـه الحسـابات الفلكيـة، التي حظرها بشدة على رعاياه. كان يمتطي حمـاره الرمـادي إلى هنـاك قبل بزوغ الضـوء، مرتديـا ثيابًا بالغة البسـاطة

= والأقلام، إلخ 12 دينارًا؛ ولترميم وإصلاح الكتب 12 دينارًا؛ وللوسائد والسجاد وستائر الشتاء 19 دينارًا؛ وللماء 12 دينارًا؛ ولمرتبات أمين المكتبة والخدم 63 دينارًا. هكذا كان إجمالي المنحة 275 دينارًا. (المقريزي، الخطط، I ، 409) أُغلِقَت دار العلم عام 513هـ/ 1119م بواسطة الوزير الأفضل، كنتيجة لاستخدامها بواسطة المعلمين المهرطقين؛ لكن بُنِيَت دارعلم جديدة قرب القصر الكبير وتم افتتاحها عام 517هـ/ 1123م بأمر من خلفه، الوزير المأمون.

اتخذهـا بديـلًا عن أبهة وروعة أسـلافه، فكان ثوبه بسـيطًا مـن لون واحد، دون حتـى جوهرة علـى العمامة. وكان يذهب إلى هناك مع تابع أو تابعين، وفـي أحـوال كثيرة كان يذهب بمفـرده. ينبغي الإقرار بأنـه كان على درجة كبيـرة من الشـجاعة، فحين أثار البُغْـض من كل الأطـراف، وَقتل عائلات بأكملهـا لمجرد الاشـتباه، وأثار كل عاطفـة انتقامية، استمر في الانطلاق بمفـرده، ونادرًا مـا صاحبه أحد فـي الصحاري أو الشـوارع المزدحمة في النهـار أو الليل، مُطلِقًا العنان لأهوائه أو متطفلًا على أحوال رعاياه، وكثيرًا ما كانت هذه الجولات ذات عواقب دموية. الشـيء الوحيد الذي أنقذه من التعرض لخطر الاغتيال على مدار الساعة، ضراوته القاتلة فضلًا عن شعور غامـض بالرهبة منـه، فلم تحدث ولو حتـى محاولة واحـدة للاعتداء عليه لربع قرن، وبالفعل كانت لديه شـرطة سـرية متواجدة بقوة، ومشـتملة على جواسيس من النساء اللاتي خدمنه جيدًا داخل تجمعات الحريم.

ازدادت الأمور سوءًا مع تقدم الخليفة في العمر؛ حيث صارت عمليات الإعدام والمصادرة أكثر تواترًا، ومُنِحَت الأراضي الخاصة بكثيرٍ من الناس بشـكل عشـوائي للجنود والبحارة أوغيرهم. هكذا بدأ الناس في الفرار من البلد؛ حيث أُغلِقَت أسواق الفُسْطاط، وتوقفت الأعمال بشكل كامل. لـم تُرَ امرأة واحدة في الطرقات لسـبع سنوات. كل شيء كان ينذر بالثورة. كانت الإسْـكندرية مسـتقلة تحت حكم عرب قُرّة، وفي القاهرة تم وضع مجسم لامرأة بسخرية في الطريق، وعندما أَمسك الخليفة – وهو في قمة الغضب – بالمرأة المفترضة، ظهر أنها من الورق، عندئذٍ وفي إحدى ثورات انفعاله صعبـة المراس، أرسـل قواته السـودانية لحرق الفُسْـطاط. انطلق السـكان

لحمل السلاح؛ فدار القتال في الشوارع لثلاثة أيام، أما الجامع فقد امتلأ بصراخ المتوسلين، فقد تم نهب أو إحراق نصف المدينة، وأُخذ الكثير من نسائها سبايا، ومع ذلك ظل الناس على احتمالهم. وفي ذلك الوقت أمسك هَوَس جديد بالخليفة المتخبط، فتصور نفسه تجسيدًا للإله، وأجبر الكل على عبادته، لقد كان ذلك حصيلة منطقية للمذهب الشِّيعي الباطني المتطرف، ومع ذلك وَجد دعمًا من ذلك الذي يدعى حسن، المعروف بـ«الأَخْرم»، الذي جاء من فَرْغَانة[1] البعيدة وبشر بألوهية الحاكم، إلا أنه قُتل على يد فرد من العامة، والذي تم إعدامه بعد ذلك، فقام أهل السنة بتعظيم قبره. وفي ذلك الوقت أتى حمزة من سوسان في فارس، لنشر المذهب الجديد، واستمال العديد من الأنصار، الذين لَقبوا أنفسهم بألقاب غريبة. انطلق بعض أولئك المتعصبين داخل جامع عَمْرو العتيق في الفُسْطاط، وبدأوا في التبشير وسط تصفيق وإطراء من تابعيهم. توافد الناس لرؤية ذلك المشهد، لكن فاق ما سمعوه حدود الاحتمال حين خاطب أحد المبشرين القاضي بقوله: «بسم الحاكم الرحمن الرحيم»؛ عندها عم الهرج والمرج، وسارع الناس لقتل هؤلاء الكُفَّار، ومن ثمّ تم جر أجسادهم في الشوارع وإحراقهم.

---

(1) مدينة بها وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان على يمين القاصد لبلاد الترك، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخًا، قال الإصطخري: فرغانة اسم الإقليم قصبتها أخسيكث، وقال الحميري: بناها أنوشروان ونقل إليها من كل بيت قومًا، وهي على نهر الشاش على أرض مستوية، هي الآن مركز ولاية فرغانة الواقعة شرقي أوزبكستان على نحو 420كم شرقي العاصمة الأوزبكية طشقند، ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 253، الحميري، الروض المعطار، ص 440 (المترجم).

لم يكن الحاكم قبل ذلك الوقت بهذا القرب من الثورة، فقد حُوصِرَ قصره مـن قِبَل الجنود الأتراك بحثًا عن الـدُّرْزي - زعيم الطائفة الدينية الجديدة - الذي التجأ إلى هناك، لكن الحاكم - بشـجاعته الفجة - أخبرهم من خلال الشرفة عن عدم تواجده في المكان وأنه في عداد الأموات، لقد كذب بالفعل لكنه لم يُسـلمه. هكذا فرَّ الدُّرْزِي ليؤسس الديانة الدُّرْزِية في لُبْنان[1]. أخفى

(1) يفسر الدكتور محمد كامل حسين ادعاء الحاكم الألوهية، بأن دعاة هذا المذهب كانوا إلى جانبه قبل إعلان هذا الأمر بوقت طويل، وهذا ما لم تتحدث عنه كتب التاريخ، لذلك لا نعرف شيئًا عن حركاتهم ووسائلهم التي اتخذوها قبل إعلان الدعوة عام 408هـ فالأرجح أنهم كانوا من حاشية الحاكم الذين لم يفارقوه مدة الوصاية عليه، خاصة حمزة بن علـيّ الذي استأثر بكل شيء، ويظهر أن الحاكم كان متأثرًا به تأثرًا تامًا، وربما كان حمزة هذا الذي أوحى إلى الحاكم بكل ما قام به من أعمال ومن ادعاء الألوهية، ويستدرك الدكتور محمد كامل قائلًا: إن المؤرخين ذكروا خطأ أن محمد ابن إسماعيل الدرزي وفد على مصر عام 408هـ، وخدم الحاكم فأحسن إليه وأنعم عليه وقربه وأنه في هذه السنة أظهر دعوة التأليه، ولكني أرى غير ذلك كله، فالدرزي كان بمصر قبل هذا التاريخ الذي حدده المؤرخون واتصل بحمزة بن علي مدة طويلة قبل إظهار الدعوة وعملا معًا في رسم خططها، وعندما فر إلى لبنان كان يدعمه الحاكم لنشر دعوته الجديدة، ونفهم من كتب الدروز المقدسة أن حمزة بدأ في تعيين الدعاة في الأقاليم والجزر مقتديًا في ذلك بنظام الدعوة الفاطمية، إلا أنه بعد اختفاء الحاكم عام 417هـ قام ابنه باضطهاد كل مَن يتكلم بهذه الدعوة، هكذا لم تنتشر الدعوة في مصر وانتشرت في الشام حيث فر الدرزي، انظر: محمد كامل حسين، طائفة الدروز تاريخها وعقائدها، دار المعارف بمصر 1962م، ص 75: 85. أما عن عقيدتهم التي مازال الكثير يتبعها في الشام حتى الآن، فهم يخالفون في عقائدهم عقائد الفرق من أرباب الديانات ويتظاهرون بالتبعية لمن يكونون تبعًا له، وأما في الباطن فإنهم ينكرون الأنبياء عليهم السلام وينسبونهم إلى الجهل وأنهم كانوا يشيرون إلى توحيد العدم وما عرفوا المولى، ويشنعون بالطعن على جميع أرباب الديانات من المسلمين والنصارى واليهود، والديانة الحقة عندهم هي توحيد الحاكم، انظر: محمد كرد علي، خطط الشام، دمشق 1938م، ج6 / ص 270 (المترجم).

الحاكم غضبه لبعض الوقت، لكن في عزلة القصر كان يُدبِّر خططًا للانتقام. بعد شـهر أو ما قارب ذلك من التكتُّم المُنْذِر بالسـوء، أُرسِلَ الجند السودان مرة ثانية إلى الفُسْـطاط؛ حيث بدأت الثورة. لقـد ذهبوا بهدوء في جماعات منفصلـة، لكن بمجرد وصولهم إلـى هناك، عاثوا نهبًـا وتخريبًا في المدينة، فاندفعـوا داخل البيـوت وحتـى الحمامات، سـائقين الفتيـات الصغيرات، ومرتكبيـن كافة أنواع الوحشـية التي يوحي بها الدم الأسـود[1]. أتى الخليفة منطلقًـا على حمـاره كالمعتـاد، واحتشـد الناس اليائسـون أمامه متوسـلين لإنقاذهم من الجند المتوحشين، إلا أن الحاكم لم يُجِبهم بكلمة واحدة.

كانت إحدى نتائج ادعاء الألوهية، التساهل في العديد من أحكام الإسلام المفروضـة. فبصفته الجديدة، أبطل الحاكم أحـكام الصيام والحج؛ حيث أُوِّلَـت أحـكام القرآن مجازيًّا، وترك هو شـخصيًّا عـادات الصلاة والصيام غير الضرورية. وقد أسـهمت فيما يبدو هذه الروح المتحررة من الدين في سـخط رعاياه من المسـلمين المنكوبين، وتسـببت أيضًا فـي إلغاء عقوباته للنصارى، حيث سمح لهم بمتابعة عبادتهم، فضلًا عن إعادة بناء كنائسهم. هكذا ارتد العديد من المسلمين اسميًّا بشكل علني إلى عقيدتهم الحقيقية، وجُـدِّدَت الكنائس لأفضل من حالتها السـابقة. على الجانب الآخر عُومِلَ المسلمون بوحشية زائدة؛ فلم يأمن أحد من الجند السودان، وصلى الناس في المساجد وصرخوا عاليًا، دون أن يأت أحد لنجدتهم.

---

(1) يظهر في كلام المؤلف بعض العنصرية عند كلامه عن السود، وهذا يدلنا على تفكير العقل الإنجليزى خاصة والأوروبي عامة في زمن المؤلف، عندما سيطر الرجل الأبيض على الأعراق الملونة، واعتبرها أجناسًا تقل عنه في المرتبة الإنسانية. (المترجم).

أخيـرًا اتخـذ الجنـد من الأتـراك وبربر كتامـة موقفًا حين تـم إهمالهم، فأصبحـوا يـدًا واحـدة ضد الجنـد السـودان، وخلال سلسـلة مـن معارك الشـوارع اسـتطاعوا تحطيم قوتهـم، واسـتعادوا بعض النظام فـي المدينة المشـتتة. لأول مـرة لـم يسـتطع الحاكـم أن يرفع رأسـه أمـام مقاومة الجند السـاخطين. علاوة على ذلـك فقد أثار عدوًّا قويًّا في أهـل بيته، وهي أخته الأميـرة سِـتّ المُلْك - ذات الشـخصية النقيـة والذكاء الشـديد - التي لـم تفلـت مـن ضغائن ذلـك المجنون. لقد وبخته بشـجاعة علـى ويلاته؛ فرد بافتراء مشين ضد عفتها، سعيًا لإنقاذ مملكة أبيها لحفيد أبيها[1]، ومن أجل حِفْظ طهارتها من تلك المحنة البغيضة، قررت التخلي عن شقيقها البائس والانضمـام للمؤامرة المتصاعدة؛ حيث دخلت فـي مفاوضات مع زعماء البربر، وسُرعان ما شوهدت النتيجة.

امتطـى الحاكـم ركوبته المعتادة تجاه تلال المقطم في 27 شـوال سـنة 411هــ/ 13 فبرايـر سـنة 1021م، وتجـول هنا وهنـاك طـوال الليل، وفي الصباح أذن لتابعيه بالانصراف، وذهب وحيدًا في الصحراء كما سـبق وأن فعل كثيرًا. عُثِرَ على حماره بعد بضعة أيام مشوَّهًا على التلال؛ ثم عثر على سـترته ذات السـبعة ألوان، مع علامات تدل على طعنات خِنْجَر؛ حيث لـم يُكشَـف عـن جثته أبـدًا. وبعد أربعة أعـوام اعترف رجل بقتلـه، «نُصرَة لله

(1) حَرَم الحاكم عام 1013م ابنه الوحيد الظاهر - الذي سيخلفه مستقبلًا - من ولاية العهد، وأعلن أن خليفته هو مَن يدعى عبد الرحمن، ابن حفيد المهدي، تم الإقرار بهذا الشخص في حينه في الخطبة والصلاة وعلى العملات، والعملات التي تحمل اسمه تم سكها في مدن: مصر، ودمشق، والمنصورية، وعثر عليها منذ عام 1012 حتى 1021م، مع لقب «وريث عهد المسلمين» وحين خلف الظاهر أبيه، فر عبد الرحمن سرًّا.

وللإسلام»، لكن ظل اللغز حول اختفاء الخليفة المجنون؛ حيث رفض الناس تصديق خبر موته، وانتُظِرَت عودته بقلق. وبدأ ظهور مَن يَدَّعي أنه الحاكم المفقود، وحتى يومنا هذا يتعبد الدروز في لبنان للحق الإلهي مُمثَّلًا في شخصه الحقير، ويعتقدون أنه يومًا ما سيأتي مرة ثانية في جلاله ويكشف عن الحقيقة والعدل.

لم يكن ممكنًا إبطال تأثير ذلك الربع قرن الرهيب بسرعة، ولم يكن ابن الحاكم الوحيد، الفتى ذو الستة عشر عامًا، والذي تم إعلانه خليفة باسم الظَّاهر[1] (411–427هـ/ 1021– 1036م)[2]، الرجل المناسب لهذه الأزمة. فقد أدارت عمته، الأميرة سِتّ المُلْك، شئون الدولة لأربعة أعوام، لكنها اضطرت للتعامل مع حكم أقلية عسكرية، فضلًا عن مواجهتهم بنفس أسلحتهم البشعة، فقُتِلَ البربري قائد الثورة ضد الحاكم غدرًا في القصر بأمرها، وتلاه إعدام وزيرين. وبعد موتها[3] سَقط الحُكم في أيدي زُمْرَة من رجال القصر، الذين أبعدوا المستشارين الأكثر حكمة من جانب الخليفة، وشجعوا حماقته وانغماسه في الملذات، سعيًا وراء الحفاظ

(1) أبو الحسن عليّ الظَّاهر لإعْزَاز دِين الله، أُصدِرَت عملاته من دور سك مدينة مصر، والمنصورية، والمهدية، وزويلة (مرة)، وصقلية، وفلسطين (الرملة)، وصور، وتظهر الإسكندرية لأول مرة كدار سك فاطمية في عام 423 هـ (1032م). زيادة على ذلك يوجد عدد وفير من الصنج الزجاجية، كثير منها مؤرخ.

(2) ترجمته في: ابن خلكان، ج5 / ص 229: 231، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2 / ص 124: 184 (المترجم).

(3) ماتت في مستهل جمادى الآخرة عام 415هـ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2 / ص 174 (المترجم).

على سلطتهم. وقد زار الشيوخ الثلاثة الذين شكلوا هذه الزمرة[1]، الفتى الملكي مرة في اليوم وفق إجراءاتهم، إلا أن كل الشئون الخطيرة للحكومة تم تنظيمها دون موافقته. تفاقمت أحوال الناس - رغم ارتياحهم بإلغاء قيود الحاكم البغيضة - بسبب انخفاض خطير لمستوى الفيضان، تبعه نقص كبير في المؤن وارتفاع الأسعار، حتى بيع رأس البقر بخمسين دينارًا، ومُنع الناس من ذبحها للحيلولة دون فنائها، وصارت جمال الأحمال نادرة، حتى الدجاج - اللحم الشائع في مصر - لم يُقْدر عليه، وعَرض الناس أمتعتهم للبيع فلم يجدوا مَن يشتريها، ففشت الأمراض وكثر الموت من قلة الطعام، وتحول الأقوى إلى قطع الطريق ونهب القوافل، حتى قوافل الحجيج، وعَجَّت الطرق باللصوص، واجتاح المتمردون السوريون المدن الحدودية. واحتشد الناس أمام القصر صائحين: «الجوع.. الجوع يا أمير المؤمنين، لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك، فالله الله في أمرنا!»[2]، لقد افتقر القصر نفسه إلى الطعام، حتى أنه لما بُسِطَ سماط عيد النحر، كَبَس العبيد على السماط ونهبوا سائر ما كان عليه. كان بيت المال فارغًا، والضرائب متأخرة. اندفع العبيد ثائرين، فأقام الناس لجانًا للأمن، حيث سُمِحَ بقتلهم دفاعًا عن النفس. وُضِعَت المتاريس لإبقاء الثوار بالخارج. وكان الوزير

---

(1) في عام 415هـ قرر كل من الشريف الكبير العجمي والشيخ نجيب الدولة الجَرْجَرائي والشيخ العميد محسن بن بدروس مع القائد معضاد، ألا يدخل على الظاهر أحد غيرهم، وذلك حتى لا يتم لغيرهم تصريف سائر أمور الدولة، انظر: المقريزي، الخطط، ج2 / ص 39 ، 40، اتعاظ الحنفا،ج 2 / ص 141، 142 (المترجم).

(2) المقريزي، الخطط، ج2 / ص 40، اتعاظ الحنفا، ج 169 (المترجم).

الجَرْجَرائي(1) أسير بيته. كان الموقف خطيرًا؛ لكن مع استعادة النيل ارتفاعه عام 418هـ/ 1027م، ومع إغاثات المجاعة، هدأت الاضطرابات.



شكل (28) دينار الظاهر، مصر، 1030م

بجانب الحرب السورية (انظر الفصل السادس)، فإن أكثر الأحداث الجديرة بالذكر في حكم الظاهر البالغ خمسة عشر عامًا، هو اضطهاد ديني وحيد حدث عام 416هـ/ 1025م، حين نُفِيَ كل التابعين للمذهب المالكي من مصر، لكن القاعدة كانت التسامح الديني الكامل للطوائف الدينية الإسلامية، فلم يتم إزعاج أهل السُّنة في ممارستهم الحرة لطقوسهم الدينية. وقد أبرمت معاهدة مع الإمبراطور البيزنطي، قسطنطين الثامن، الذي سَمح بالدعاء للظاهر في الجوامع التابعة لسيادته، وأن يتم تجديد المسجد الجامع بالقُسْطَنطِينية، في مقابل سماح الخليفة بإعادة بناء كنيسة قُمَامة في القُدْس(2). استغرق الظاهر تمامًا في ملذاته

---

(1) هو الوزير أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي، تولى الوزارة للظاهر عام 418هـ وهو أقطع اليدين، قطعهما الخليفة الحاكم عام 404هـ بعد أن ظهرت عليه خيانة وهو يتولى بعض الدواوين، وقد تولى بعد ذلك للحاكم ديوان النفقات عام 409هـ، وقد استمر وزيرًا للظاهر منذ عينه حتى وفاة الظاهر عام 427هـ انظر ترجمته: ابن الصيرفي، الإشارة، ص 68، 69، المقريزي، المقفى الكبير، ج5/ ص 278، وسجل توليته في: جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص 149 : 152 (المترجم).

(2) المقريزي، I . 355. تم تجديد هذه الاتفاقية عام 1037– 1038م، حين حرر الإمبراطور ميخائيل الرابع خمسة آلاف من الأسرى المسلمين، وأرسل المهندسين المعماريين إلى القدس. أبو الفدا، iii. 96.

وفـي تدريـب حرسـه المملوكي، لكـن جمع حبـه للموسـيقى والراقصين قسوة وحشية برهنت على أنه حقًّا ابن أبيه، فذات مرة دعا كل فتيات القصر الصغيـرات للهو، فأَتَيْنَ في أفضـل أزيائهن، في حين تم قيادتهن إلى داخل الجامع لانتظار الاحتفـال. عندئذٍ أُغلِقَـت الأبواب وأُحِيطَـت بحائط من القرميد، فهلكت 2660 فتاة من الجوع. تضيف كتب التاريخ أن أجسـادهن ظلت لسـتة أشـهر راقدة هناك غير مدفونـة، ومن قبيـل الترويح مات ذلك الشـخص الرهيب نفسـه، الذي خطط لهـذه الهمجية الوحشـية بالوباء في شعبان عام 427هـ/ يونيو 1036م.

تلاه ابنه مَعَد الذي يبلغ من العمر سـبعة أعوام (427-487هـ/ 1036-1094م)[1]؛ حيث أُعلِنَ خليفة تحت اسم المُسْتَنْصر[2]. إن حكمه الذي امتد لسـتين سـنة قمرية وأربعة أشـهر هو على الأرجح أطول فترة حكم مسجلة

(1) انظر: المقريزي، الخطط، ج2/ ص42، اتعاظ الحنفا، ج2/ ص184: 334، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5/ ص 229، وأيضًا: عبد المنعم ماجد، الإمام المستنصر بالله الفاطمي، القاهرة 1961م (المترجم).

(2) أبو تميم مَعَد الـمُسْتَنْصر بالله. كانت هناك سلسلة متعاقبة من الإصدارات السنوية لعملات المستنصر - باستثناء خمسة أعوام (أربعة منها، .1070 FFم، وقعت أثناء أو بعد المجاعة العظمى مباشرة) - صدرت من دار سك مصر منذ عام 427هـ حتى486هـ (1036-1093م). كانت دور سكها الأخرى: الإسكندرية (خاصة أثناء العشرين السنة الأخيرة من حكمه، إلى 488هـ/ 1095م)، والبسطة، والمنصورية (حتى 1036-1037م)، والمهدية (حتى 1065م)، وصقلية (حتى 1054-1055م)، وفلسطين (الرملة)، ودمشق، وطبرية، وعكا، وصور، وطرابلس، وحلب (1050-1055م)، والمدينة (1061م)، وبغداد (مدينة السلام، 1058م). أما صنجه الزجاجية فكانت كثيرة.

لحاكم إسلامي. ونجد للمرة الثالثة في تاريخ الفاطميين تأثيرًا لامرأة يكاد يكون مطلقًا: الزوجة النصرانية للعزيز، ثم الأخت السياسية للحاكم، وتلتهم الأم السوداء لمَعَد. لقد كانت أمةً سوداء تم شراؤها من يهودي من تُستَر، تمتعت هي وأبو سعيد بائعها اليهودي، بأغلب السلطة أثناء طفولة الخليفة. فعن طريق جهودهما عُزِلَ الوزير الجديد الذي تلى الجَرْجَرائي عام 435هـ/ 1044م وتم إعدامه، وعُيِّنَ مكانه (صَدَقَة) اليهودي المرتد، ومع ذلك عندما وَجد المرتد أن تدخل أبي سعيد غير محتمل، انقلب على راعيه ورتب لاغتياله بواسطة الحرس التركي؛ حيث تأثرت وليدة (الأرملة الغنية، أو زوجة الخليفة) باغتيال الوزير. سعى الوزير التالي لموازنة القوة المفرطة للأتراك من خلال جلب جنود سودان، لكنه عُزِلَ أيضًا، وتولى خلفه المنصب لثلاثة شهور فحسب. بعدئذٍ وفي عام 442هـ/ 1050م باشر اليازوري[1] الوزارة التي امتدت لثمانية أعوام.





شكل (29) صنجة زجاجية للمستنصر. شكل (30) دينار المستنصر، مصر، 1047م.

(1) أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري، تولى الوزارة سنة 442هـ إلى أن قتل في 450هـ ترجمته وفترة وزارته في: ابن الصيرفي، الإشارة ص 73: 81 (المترجم).

تناقصت سيادة الفاطميين على الصعيد الإقليمي إلى القليل بجانب مصر نفسها، وقاومت سوريا سلطتهم طويلًا (انظر الفصل السادس). مع كون شمال إفريقيا قد تبع لأربعة حكام متتاليين من بربر صنهاجة مقرهم في المَهْدية، فقد أقروا بسيادة الفاطميين من خلال ذكر أسماء الخلفاء في الخطبة وعلى العملات، فضلًا عن دفع جزية سنوية واستقبال تنصيب رسمي لكل حاكم يرتقي الحكم من قِبَل الخليفة؛ لكن في حوالي 436هـ/ 1044م ومع انضمام المُعِز[1]، الأمير القائم بالحكم، لطائفة السُّنيين الملتزمين والتبرؤ من الفاطميين، فقد قَبِلَ تنصيبه من قِبَل الخليفة العباسي عام 438هـ/ 1046م[2][3]. هكذا ثار شيعة الغرب ضد المُعِز، وفي

(1) هو المُعز بن باديس رابع أمراء بني زيري على إفريقية، وأول من خرج على الخلافة الشيعية منهم وتحول إلى الولاء للخلافة السُّنية في بغداد، انظر ترجمته في: ابن خلكان، ج5 / ص 233، لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 72 (المترجم).

(2) آخر عملة للمنصورية (القيروان) تحمل اسم الخليفة الفاطمي كانت في عام 438هـ (1046 – 1047م)، رغم ذلك فقد سُكت العديد من العملات في المهدية بين عامي 1062 – 1065م، باسم المستنصر، مُظهِرَة عودة مؤقتة لولاء الدولة.

(3) يقول د. أحمد مختار العبادي: إن هذه السنة ليست مؤكدة، فقد اختلف المؤرخون حول تحديد انفصال المعز أمير إفريقية عن الدولة الفاطمية فجعلوه في سنوات: 435، 440، 443هـ ويذكر أن لين بول (مؤلف هذا الكتاب) حدد تاريخ الانفصال بعام 438هـ، معتمدًا بذلك على آخر عملة نقدية تحمل اسم الخليفة الفاطمي في مدينة المنصورية (انظر الهامش السابق)، ثم يعقب: وأغلب الظن أن التاريخ الصحيح لهذا الانفصال السياسي هو عام 443هـ كما ورد في كتاب اتعاظ الحنفا للمقريزي، والدليل على ذلك هو وزارة محمد اليازوري التي بدأت عام 442هـ، والتي كانت من دواعي هذا الانفصال نظرًا للنزاع الذي دب بين اليازوري والمعز بن باديس، انظر: العبادي، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، ص 218، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، هامش رقم 2، ص 70، 71.

نفس الوقت أَرسـلت السلطات المصرية من الشرق قبيلة بني هلال العربية الكبيـرة ليعيدوه إلى ولائه. احتلـت قبيلة هلال بَرْقَة وطَرابُلس واسـتقرت هنـاك؛ لكـن المُعِزّ رغم هزيمته حافظ على اسـتقلاله في المَهْدية، سـامحًا للولايـات الثانويـة الأخرى في الظهور غربًا[1]. وسـقطت صِقِلّية[2]، حيث

---

(1) سياسة الانتقام التي سلكتها الدولة الفاطمية نحو الدولة الزيرية لها نفس الطابع التقليدي الذي سارت عليه من قديم، ألا وهو إثارة المنافسة بين القبائل وضرب بعضها بالبعض الآخر، فوزير المستنصر أبو محمد اليازوري يرى أن القبائل العربية المقيمة على حدود مصر الشرقية بالوجه القبلي مثل بني هلال وسليم وعلى حدودها الغربية بالوجه البحري مثل زغبة ورياح كانت دائبة على إثارة الشغب والفساد في الأراضي المصرية، فيغريهم بالسير إلى القيروان ويمدهم بالمال والأسلحة، وهكذا يضرب عصفورين بحجر واحد، وبالفعل اجتاحت القبائل العربية بلاد برقة وطرابلس وإفريقية وطردت البربر منها وعاثت فسادًا وتخريبًا، فخرج إليهم المعز بجيوشه حيث التحم الفريقان بالقرب من القيروان، وانتهى القتال بهزيمة المعز واستيلاء العرب على مدينة القيروان وتخريبها عام 449هـ، بعدها اقتسم العرب بلاد شمال أفريقيا فاستقرت قبائل زغبة ورياح في برقة وطرابلس، كما استقر بنو هلال وبنو سليم في منطقة تونس وما يليها غربًا، أما المعز بن باديس فقد انسحب بعد الهزيمة إلى مدينة المهدية وهناك ثار عليه أقرباؤه من بني حماد الذين استقلوا بمنطقة بجاية فتضاءل بذلك نفوذه، وتوفي بعد ذلك عام 453هـ/ 1062م، انظر: المرجع السابق، ص 219، 220، ابن الخطيب، ص 71 : 76 (المترجم).

(2) دخلت صقلية تحت الحكم الفاطمي بعد انتهاء حكم الأغالبة في إفريقية وقيام الدولة الفاطمية عام 296هـ / 909م، وظل الحكم الفاطمي قائمًا في صقلية حتى بدأ فصل جديد في تاريخ الجزيرة منذ قضاء الفاطميين على ثورة أبي يزيد مخلد الخوارجي عام 336هـ / 947م، حيث استعمل الخليفة الجديد المنصور على الجزيرة الحسن ابن علي الكلبي لمعالجة أمر القائمين في الجزيرة، وقد أدت ولايته إلى تأسيس أسرة شبه مستقلة من أمراء الكلبيين حكمت الجزيرة أكثر من تسعين عامًا، ومع انتقال =

أقرَّ أمراء الكلبيين بالسيادة للنورمان عام 463هـ/ 1071م[1]. ومن الآن فصاعدًا لم تمتد سلطة حكام مصر أبعد من ذلك غربًا، فيما عدا سيادة متقطعة لهم على بَرْقَة.

من ناحية أخرى، فقد تلقوا إضافة غير متوقعة لسلطتهم في شبه الجزيرة العربية من خلال الولاء الطوعي لشيعي جديد هو عليّ الصُّلَيْحي[2]، الذي أخضع اليمن والحجاز من حضرموت إلى مكة بحلول عام 455هـ/ 1063م، وخطب للخليفة الفاطمي على المنابر. زيادة على ذلك حدث تطور أكثر إثارة للدهشة، حين تم الدعاء للمُسْتَنْصِر، ليس فقط في المدن المقدسة التي شهدت ميلاد الإسلام، بل وحتى في بَغْداد نفسها، معقل

= العاصمة الفاطمية من المهدية إلى القاهرة في عهد المعز لدين الله، حظي الكلبيون في صقلية بمزيد من الاستقلال، فالأمير الزيري بلكين في إفريقية لم يُمنح سلطة على صقلية، وأخذت سلطتهم تستقل أكثر فأكثر وصولًا إلى الفترة بين عامي 445هـ/ 1053م – 452هـ/ 1060م، حيث ظهر محمد بن إبراهيم بن الثُمنة الذي سيطر على سرقوسة وجعل الخطبة تتلى باسمه في باليرمو، إلا أنه قد حدث تنافس على السلطة في الجزيرة انتهى بتدخل النورمان وسقوط الجزيرة في أيديهم عام 463هـ / 1071م، راجع: عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب 1980م (المترجم).

(1) أصدر أمراء صقلية عملاتهم بأسماء الخلفاء الفاطميين وحدهم، وكانت آخر الإصدارات مؤرخة عام 446 و448هـ (1054 - 1057م).

(2) هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الصليحي، توفي سنة 473هـ، انظر ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3 / ص 411: 415، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ ص 222 (المترجم).

الخلافة السُّـنية[1]. ذلك أن النجاح المؤقت للقائد التركي، البَساسِـيري[2]، كان السـبب في كسـب هذا الشـرف الـذي لا مثيـل له، وحين اكتشـف هذا المغامر أن أفضل سياسـة يمكن أن يتبعها هي الخضوع للقوة السَّـلْجُوقية[3]

---

(1) توجد عملة من بغداد (مدينة السلام) سُكَّت عام 450هـ (1058 - 1059م) باسم المستنصر، مسجلة بواسطة فراهن Frähn (Inedita Asiat. Mus., 1847).

(2) هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري التركي، مقدم الأتراك ببغداد، يقال: إنه كان مملوك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه، وقد خرج على الخليفة العباسي القائم بأمر الله وأخرجه من بغداد، وخطب للمستنصر الفاطمي حتى جاء طغرلبك السلجوقي وقاتل البساسيري وقتله وعاد القائم إلى بغداد عام 451هـ، انظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج1 / ص 192، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2 / ص 252 : 258 ، راجع أيضًا: محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، دار الفكر العربي - القاهرة 1957م، ص 98: 100، عبد الجبار ناجي، ثورة البساسيري في بغداد، مجلة كلية الآداب - جامعة البصرة، عام 1971م، ص 42 : 78 (المترجم).

(3) السلاجقة هم مجموعة من قبائل الترك الأوغور أو (الغز) التي سكنت وسط آسيا، نسبوا إلى سَلْجُوق بن دَقَاق الذي وحدهم تحت زعامته في نهاية القرن الرابع الهجري، لكن السلاجقة لم يظهروا على مسرح التاريخ إلا من خلال طُغْرل بك أحد أحفاد سَلْجُوق الذي هزم السلطان الغزنوي مسعود جنوبي تركستان في موقعة (دندانقان)، وهي معركة فاصلة بدأوا بعدها في التقدم غربًا على حساب الأسر الديلمية الشيعية الموجودة في فارس حتى نجحوا عام 447هـ/ 1055م في تحرير الخلافة العباسية من سيطرة البويهيين الشيعة، ومنذ ذلك الوقت بدأوا في مناهضة البيزنطيين والتوسع في الأناضول حتى معركة ملاذكرد الحاسمة عام 463هـ/ 1071م، التي كانت بمثابة بداية النهاية للوجود البيزنطي في الأناضول، وبداية تكاثف التواجد التركي الإسلامي حتى تحولت آسيا الصغرى كلها إلى الإسلام، انظر: البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، مطبعة الموسوعات بمصر عام 1318هـ/ 1900م، ص 3: 9، محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص 104: 113 (المترجم).

الصاعدة خير من أن يبني آماله على دعم الحكم الفاطمي، عادت بغداد إلى ولائها العباسي القديم. رغم ذلك فقد سبب دوي جوامع «مدينة السَّلام» لأربعين جمعة باسم ولقب الخليفة المصري، فضلًا عن نقل عباءة وعمامة وعرش الإمام العباسي إلى القصر في القاهرة[1]، حماسًا بالغًا؛ جعل المدينة وكأنها في عيد، حيث أنفق المستنصر مليوني دينار على تجهيز «القصر الغربي الصغير» – الذي بناه العزيز أصلًا للأميرة سِتّ المُلْك – ليكون بمثابة قفص ذهبي للخليفة العباسي، الذي توقع بثقة أن يمسك به سجينًا لديه. ولفترة طويلة عُرِفَت الأرض المجاورة للنيل قرب بوابة «النهر» أو «الحديد» «بأرض الطَّبَّالة»[2] تيمنًا بحيازة أرض وهبها المُسْتَنصر لمغنية ارتجلت بعض الأبيات عن ذلك الانتصار المذهل للفاطميين، وغنتها بمرافقة طبلتها[3].

لحسن الحظ تم حفظ وصف هام لمدينة القاهرة وأماكن أخرى في مصر عن طريق الرحالة الفارسي ناصر خسرو[4]. كانت المدينة الملكية،

(1) لقد ظلوا هناك حتى استعادة المذهب القويم بواسطة صلاح الدين، الذي أعاد العمامة والعباءة إلى بغداد، واحتُفِظَ بالعرش الحديدي أو المنبر، والذي تم وضعه أخيرًا في جامع بيبرس الثاني.

(2) موقعها اليوم المنطقة التي تحدها من الشمال شارع الظاهر وامتداده، ومن الشرق شارع الخليج أو صلاح سالم، ومن الغرب شارع غمرة إلى ميدان باب الحديد أو رمسيس، ومن الجنوب شارع الفجالة، راجع: المقريزي، الخطط، ج2 / ص 656: 658 (المترجم).

(3) الأبيات ذكرها المقريزي: الخطط، ج2 / ص 657، اتعاظ الحنفا، ج2 / ص 253 (المترجم).

يا بني العباس ردّوا مَلَكَ الأمر مَعَد ... مُلككُم ملك مُعار والعواري تُسترَدّ

(4) Sefer Nameh: relation du voyage de Nassiri Khorsau, ed. & tr. Ch. Schefer, 1881, pp. 110-162.

القاهرة نفسـها (أُطلِقَ عليها آنذاك القاهـرة المُعزِّيَّة)، مدينة كبيرة جدًّا حين رآهـا بين عامي 438-441هـ/ 1046- 1049م؛ فقد بُنِيَـت المنازل البالغ عددهـا مـا يقارب عشـرين ألفًـا، بصورة أساسـية مـن الآجر الـذي وضع متلاصقًـا بعنايـة حتى بدا كالحجر المربع، بارتفاع خمسـة أو سـتة طوابق، يفصـل تلـك المنازل عـن بعضها البعض حدائق وبسـاتين جميلـة، ترويها الآبـار والسـواقي. وقد بلغ إيجـار بيت متوسـط الحجم مـن أربعة طوابق أحد عشـر دينارًا في الشهر (حوالي سبعين جنيهًا سنويًّا)، وقد رفض مالك البيـت الـذي نزل به الرحالـة تأجير الطابق العلوي بخمسـة دنانير شـهريًّا. كانـت ملكيـة منازل القاهرة تخـص الخليفة، لذلك جُمِعَـت إيجاراتها كل شـهر بشـكل دوري. و كذلـك كانت الحوانيـت التي قُدِّرَ عددها بعشـرين ألفًـا؛ حيـث كانت تؤجر بدينارين إلى عشـرة دنانير شـهريًّا، وهـو ما يمثل - حتى مع حسـاب متوسـط منخفض كخمسـة دنانير - دخلًا شـهريًّا يقدر بحوالي ستمائة وخمسين ألف جنيه. لم يكن السـور القديم للمدينة قائمًا عام 438هـ/ 1046م، و لم يكن بعد قد شُرِع في بناء السور الثاني، مع ذلك أَدهشت الأسوار العالية البيضاء للمنازل الرحالة الفارسي، بل ودُهِش أكثر بأسـوار القصـر التي بنيت من الحجر المنحـوت بدقة حتى تقول إنها قدت مـن صخر واحد. أما وصفـه للتصميم الداخلي فجاء مخيبًا لشـدة إيجازه، مع ذلك يذكر حجرة العرش الشـهيرة، مع عرشـها ذي المنحوتات الذهبية التي تمثل مشـاهد صيد، محاطًا بسـتار ذهبي، ويُرقى إليه بواسطة درجات فضيـة. لقد تـم إخباره أن القصر يحتـوي على ثلاثين ألف شـخص، منهم اثني عشـر ألف خـادم، وأن الحرس كانوا يتألفـون كل ليلة من ألف فارس

وراجـل. وقد فَصَل مدينة مِصْر (الفُسْـطاط) عن القاهرة مسـافة ميل تقريبًا كان مغطى بالحدائق، يغمره النيل عند الفيضان حتى يبدو كالبحر في فصل الصَيـف. وقد كانت «بِرْكَـة الحَبَش»[1] الشـهيرة والمحبوبـة، مع حدائقها المحيطة، منتجع القاهريين المفضل، أشار إليها ابن سعيد بقوله:

يا بركة الحبش التي يومي بها	طـول الزمـان مبارك وسـعيد
حـتـى كأنك في البسيطة جنة	وكأن دهـري كلـه بـك عيـد
يا أحـسـن ما يبدو بـك الكتـا	ن فـي نــواره أوزره معقــود
والمـاء منك سيوفـه مسـلـولة	والقرط فيك رواقـه ممـدود[2]

(1) موقع بركة الحبش حتى منتصف القرن العشرين كان يمثله أراضي زراعية كانت تقع في زمام قرية دير الطين (حي دار السلام حاليًا)، وزمام قرية البساتين (حي البساتين حاليًا)، وكانت تقدر بألفين ومائتي فدان منها مائتان وثلاثة عشر فدانًا كانت تتبع قرية دير الطين، والباقي في زمام البساتين ، وكانت هذه المنطقة تحد من الجنوب بأراضي ناحية البساتين ومن الشرق قرية البساتين ومن الشمال جبانة مصر التي كانت تسمى بالقرافة الكبرى، وجبل الرصد وتعرف حاليًا بإسطبل عنتر وأرض قرية أثر النبي في الحد الفاصل بينها وبين دير الطين (دار السلام) ومن الغرب كان يحدها جسر النيل الواصل بين دير الطين (دار السلام) وبين المعادي ويمثله اليوم الطريق الزراعي. وقد قدر «ياقوت الحموي» طول بركة الحبش بنحو ميل، بينما ذكر «ابن دقماق» أن البعض قدر مساحتها بألف فدان، ويرجع الاختلاف في مساحتها لتذبذب مستوى الماء فيها من وقت لآخر تبعًا لحالة الفيضان، انظر: محمد الششتاوي، متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني، دار الآفاق العربية - القاهرة 1999م، ص 92: 94، انظر أيضًا: المقريزي، الخطط، ج2 / ص 723: 732 (المترجم).

(2) نقلًا عن المقريزي، الخطط، ج2 / ص 731 (المترجم).

كان ديـر القديـس يوحنا St. John قريبًا جدًّا مـع حدائقه الجميلة، التي خططها تَميم ابن الخليفة المُعِزّ، وصارت فيما بعد البقعة المفضلة للخليفة الحافظ؛ و«بِئْر الدَّرَج» الذي تظله شـجرة جميز عملاقة[1]. لقد بُنِيَت مدينة مصر على مرتفع لتلافي الماء، وبدت للرحالة الفارسـي من بعيد كالجبل، مع منازلها المكونة من سبعة إلى أربعة عشر طابقًا؛ حيث أقيم كل منها على مسـاحة ثلاثين ذراعًا مربعًا، وقادرة على أن تسع ثلاثمائة وثلاثين شخصًا. كانت بعض الشوارع مغطاة، ومضاءة بالمصابيح. وكان هناك سبعة جوامع في مدينة مصر وثمانية في القاهرة؛ وقُدِّرَ عدد الوكالات بمائتين. وقد ربط جسـر من ثلاثة وسـتين قاربًـا مدينة مِصْر بـ«الرَّوْضَـة»، لكن لم يكن هناك جسر يربط الجزيرة بالجيزة، غير مجرد معدية.

لقـد ذُهـل الرحالـة مـن سـوق المصابيـح فـي مدينـة مصر علـى وجه الخصـوص، حيـث رأى تشـكيلات وأعمالًا فنية لم ير مثلهـا في أي مدينة أخـرى، وأذهلتـه وفـرة الفاكهـة والخضراوات في الأسـواق الشـرقية. إنه يصف الأواني الفخارية المصنوعة في الفُسْطاط بكونها بالغة الدقة، لدرجة يمكنك معها أن ترى يدك من خلالها، ويلاحظ البريق المعدني الذي لا يزال يُرى في الشـقف المعثـور عليه في أكوام الركام التي تشـغل موقع المدينة. لقد رأى أيضًا بعض الزجاج الأخضر الشفاف الصافي المصنوع هناك. أما أصحاب المتاجر فكانوا يبيعون بضاعتهم بأسـعار ثابتة، وإذا كذب أحدهم علـى مشـترٍ، وُضِع علـى بعير يطوف بـه المدينة وهـو يقرع جرسًـا معترفًا بخطئه. وقـد امتطى التجار، الحميـر التي كانت تؤجر فـي كافة الطرقات، والبالغ عددها خمسين ألفًا، أما الخيل فلا يركبها إلا الجند والعسكر.

---

(1) أبو صالح، ff. 7b, 40b.

وجد ناصر خسرو مصر في أقصى حالة من الهدوء والرخاء؛ حيث يقول عن حوانيت الصائغين والصيارفة إنها كانت تترك مفتوحة باستثناء حبل (ربما شبكة، كما في يومنا الحالي) يوضع أمام المدخل، وكان الناس جميعًا يثقون ثقة كاملة في الحكومة وفي الخليفة الودود. لقد رأى المُسْتَنْصر ممتطيًا بغلته في عيد فتح الخليج؛ فهو شاب يافع حليق الشعر لطيف المظهر، مرتديًا قميصًا وعمامة في غاية البساطة، مع مظلة مُزخرَفة بالأحجار الكريمة واللآلئ يحملها موظف رفيع[1]، يسير أمامه ثلاثمائة راجل ديلمي، مسلحين بالمطارد والفئوس، وعلى جانبيه أحرق الخصيان بخور العنبر والعود، وأُلقي الناس على وجوههم ساجدين وهم يدعون بالبركات للخليفة. تلاهم قاضي القضاة وحشد من الأطباء والموظفين، أما المرافقون فكانوا عشرين ألف فارس كتامي من البربر، وعشرة آلاف من الباطليين[2]، وعشرين ألفًا من المصامدة السود، وعشرة آلاف من المشارقة (أتراك وفرس)، وثلاثين ألفًا من العبيد المماليك، وخمسة عشر ألفًا من البدو الحجازيين، وثلاثين ألفًا من العبيد السود والبيض، خدم وحُجّاب[3]،

(1) المظلة التي تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه هي قبة على هيئة خيمة على رأس عمود، ولها عندهم مكانة كبيرة لعلوها رأس الخليفة وحاملها من أكابر الأمراء، وله عندهم التقدم والرفعة لحمل ما يعلو رأس الخليفة، مزيدًا عنها انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج3 / ص 469، 479 (المترجم).

(2) يذكر ناصر خسرو أنهم رجال من المغرب دخلوا مصر قبل مجيء السلطان (الخليفة) إليها، لكنه ذكر أن عددهم كان خمسة عشر ألفًا، انظر: ناصر خسرو، سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب، هيئة الكتاب - القاهرة 1993م، ص 109 (المترجم).

(3) ذكر أنهم كانوا ضمن فرقة تسمى (الأستاذيين)، كلهم خدم بيض وسود، اشتروا للخدمة، انظر: ناصر خسرو، ص 110 (المترجم).

وعشـرة آلاف من العبيد السـرائيين[1]، وثلاثين ألفًا مـن الزنوج المحاربين بالسـيف[2]. بجانب هؤلاء (والذين شكلوا الجيش بأكمله، وعلى الأرجح كانوا مُمثَّلين فحسـب بفِرَق مُختَارَة)، اشتملت حاشية الخليفة على العديد من الأمـراء الزائريـن للبلاط، من المغـرب، واليمن، والروم، والسـلاف، والجورجييـن، والنوبيين، والحبش، وحتى التتار من تركسـتان وأبناء ملك دلهي. ولقد حضر الشـعراء والأدباء بأمر من الخليفة؛ واحتشـدت القاهرة ومدينة مصر كلها بما في ذلك النصارى، ليشـاهدوا شـق الجسـر بواسـطة الخليفة، بجانب سـرادق السقارة الذي بناه سلفه العزيز قرب مصب النهر؛ وبعدئذٍ للإبحار في النيل. كانت حمولة القارب المتقدم من الصُّم والبُكم، حتـى يكونوا فألًا طيبًـا عند افتتاح الاحتفال. ورغم أن وصفه ارتبط بصورة أساسـية بالعاصمـة، إلا أن الرحالة الفارسـي سـجل مـا فيه الكفاية بشـأن الأقاليم من تِنِّيس إلى أُسْوان، ليؤكد الانطباع على أنها لـم تختلف كثيرًا من حيث المظهر العام والزراعي عن مصر اليوم.

اتصفـت إدارة اليـازوري (442 - 450 هــ/ 1050- 1058م) - وهو رجـل نشـأ في أسـرة بحـار متواضع في يـازور قـرب يافا، وصـار قاضيًا لمصـر ثـم وزيرًا - برغبـة صادقة في تحسـين حالة الفلاحيـن وفي نفس

---

(1) هم فرقة تسمى (السرائيين)، وهم مشاة جاءوا من كل ولاية، لهم قائد خاص يتولى رعايتهم، كل منهم يستعمل سلاح ولايته، وعددهم عشرة آلاف رجل، المصدر السابق، ص 110 (المترجم).

(2) مزيدًا عن طوائف الأجناد في الجيش الفاطمي، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج3 / ص 478 (المترجم).

الوقت زيادة الدخل المتناقص[1]. يَعرض تقرير رسمي عام أثناء وزارة اليازوري إجمالي الإيرادات والنفقات في كل مقاطعات المملكة، ويظهر الدخل من ضريبة الأرض (الخراج) على أنه مليون دينار فحسب لمصر ونفس المبلغ بالنسبة لسوريا (المقريزي، I، 99، 100). حاول اليازوري عمل إصلاحات اقتصادية، حكيمة وحمقاء على حد سواء. فكانت أولى خطوة له بيع مدخرات الحكومة من القمح (التي تساوي مائة ألف دينار كل عام) بأقل سعر متداول، بدلًا من الانتظار - كما سبق من قبل - لسوق يرتفع فيه الثمن. يبدو أنه استنكر مضاربة الحكومة في ضروريات الحياة. هكذا لم تكن النتيجة خسارة بالغة لخزانة المال فقط، بل تسبب مستوى النيل المنخفض أيضًا في مجاعة جاءت سريعًا، بسبب عدم وجود احتياطي للقمح يمكن الاعتماد عليه. وكالعادة جاء الوباء بعد المجاعة، حتى يُقال إنه قد مات ألف إنسان في اليوم. في هذا الكرب تعاونت الحكومة مع الإمبراطور قُسْطَنطين لتوفير مليوني بشل من القمح؛ إلا أن وفاة قسطنطين مونوماخوس Constantine Monomachus عام 447هـ/ 1055م، والشروط التي فرضتها ثيودورا Theodora، مشتملة على حلف هجومي ودفاعي بين الإمبراطوريتين، تسببت في منع الإمدادت الضرورية وإلى أعمال عدائية في شمال سوريا. اكتشف البيزنطيون - مثل البَساسِيري - أن السَّلاجقَة أجدر بالاستمالة من المصريين، هكذا تم الدعاء باسم الخليفة العباسي بناء

(1) يقول السيوطي أنه قد سُمح له لمدة شهر إضافة اسمه على العملات بجانب اسم الخليفة، لكن لم يثبت ذلك عن طريق القطع النقدية التي تم العثور عليها.

على طلب السلطان السلجوقي طغْرلْبَك[1] في مسجد القسطنطينية. لذلك وضع المُسْتَنْصِر يديه انتقامًا على الثروة التي تكدست في كنيسة قُمامة المجددة حديثًا في القُدْس.

مع الحذر الذي نشأ عن إخفاقه، أخذ اليازوري فرصة ساعده عليها مستوى النيل الجيد لإرساء نظام مختلف فيما يتصل بالفلاحين. لقد وضع نهاية للممارسات الضارة التي سمحت للتجار والمُرابين بشراء المحاصيل القائمة بسعر منخفض؛ مما يتسبب في إفلاس الفلاحين، ومثل جوزيف الثاني، ادخر مستودعات هائلة من القمح في الفُسْطاط للحيلولة دون وقوع مجاعة[2]. ومع الأسف لم يكن هو نفسه فوق شُبهَة التضخم غير القانوني، هذا فضلًا عن ابتزازاته الجائرة للأقباط على وجه الخصوص.

---

(1) هو أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، الملقب ركن الدين طغرلبك، أول ملوك السلاجقة، توفي بالعراق عام 455هـ انظر ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5 / ص 63: 68 (المترجم).

(2) يقدم ابن مماتي الذي توفي عام 1209م، الإحصاءات التالية للضرائب على أنواع مختلفة من الأرض، حيث دُفعَ على أرض القمح والشعير 3 أرادب (15 بشل) لكل أكر (دونم)، بلغت 1127 وفيما بعد 2.5؛ والفول 3 إلى 4.5 أرادب لكل أكر؛ والبازلاء والحمص والعدس 2.5؛ أما الكتان فكان متباينًا حيث وصل أعلى مبلغ إلى 3 دنانير لكل أكر؛ والبرسيم دينارًا واحدًا؛ والترمس 1.25 دينار؛والبطيخ والفاصوليا البيضاء 3 دنانير؛ والقمح دينارًا واحدًا؛ وقصب السكر للزرعة الأولى 5 دنانير، وللزروع اللاحقة 2.25 دينار؛ والقلقاس 5 دنانير؛ والباذنجان 3 دنانير؛ والنيلة 3 دنانير؛ والكروم وأشجار الفاكهة في العام الرابع 3 دنانير. ليس هناك ذكر للأرز أو الذرة في القائمة؛ لكنه لا يقر بأن القائمة كاملة. متوسط قيمة محاصيل الشتاء حاليًّا سبعة جنيهات لكل أكر.

لقد قام بإلقاء البطريرك كريستودولوس Christodulus في السجن لاشتباه كاذب بأنه قام بالتأثير على ملك النوبة النصراني كي يمنع الجزية السنوية. وقد انتُزِعَت العديد من الغرامات من الأقباط بذرائع واهية، وصاحب تلك الابتزازات في دمرو إغلاق عام للكنائس، في حين تم تدمير بعضها. وحين مُحِيَ نقش باسم الثالوث من على باب البطريرك، كان رده: «لا يمكنك محوه من قلبي» بعد ذلك بفترة وجيزة أُمِرَ بإغلاق كل كنائس مصر، وسُجن البطريرك والأساقفة، فضلًا عن غرامة قدرها سبعين ألف دينار. وقد مات اليازوري مسمومًا عام 450هـ/ 1058م، مع الاشتباه في مؤامرة تتعلق ببغداد. لا ريب أن ثروته المفرطة قد أسهمت في سقوطه. كان رجلًا ذا ذوق رفيع، عاشقًا للصور بشدة، وراعيًا جوادًا للعلماء.

تعاقب عدة وزراء بعد اليازوري، كما هو الحال في الجمهوريات الحديثة. لقد حدث أربعون تغييرًا في تسعة أعوام؛ فبحلول ذلك الوقت اكتُشِفَ أنه ليس من الضروري أبدًا قتل الوزير المعزول، وصار من المعتاد منحُهُ وظيفة ما أدنى، وكثيرًا ما ارتقى ثانية إلى المرتبة الأعلى. تولى بعض أولئك الوزراء هذه الوظيفة ثلاث أو أربع مرات، ولم يستلزم تغيير الوزارة بالضرورة وقوع مذبحة. وقد جاءت هذه التغييرات المتكررة نظرًا لعجز الخليفة، فضلًا عن التركيبة الفئوية للبلاط والجيش. لقد وقع المُسْتَنْصر في يد زمرة من الأراذل، قدموا له نصائح متضاربة، وقاموا بإلهاء موظفيه المتمرسين، وتركوه في أقصى درجات الحيرة. وقد شهد ثمانمائة خطاب يوميّ على ظلم رعاياه وعلى ضعف سيادتهم، التي تركت الكثير من

الانطباعـات والتأثيـرات المختلفة. تُـروى قصة غريبة عن سـرعة انفعاله، فبينما أصبح ذات يوم يراقب الجلد العنيف لأحد الوزراء، احتجت العجوز السـوداء وأخبرت ابنها أن قَتْل رجل ليس هو الطريقة المثلى لإجباره على إخراج ثروته، وأنها تعرف كيف تضغط عليه إن سـلَّمَها إياه. نهض الخليفة لتـوه فـي غضب عـارم وسـار نحو جامـع عَمْرو، وتبعـه حُجَّابه متسـائلين عمـا يمكن أن يُعنِيه هـذا الفعل. أخبرهـم المُسْـتَنْصر أن الجميع قد خذلوه وتركوه تحركه الأهواء، لذلك فقد عزم على التخلي عن الحكم والاعتزال فـي المسـجد وتكريس ما تبقـى من حياته للديـن. رغم ذلـك أعادته فكرة السلب الذي سيدمر قصره الجميل إلى صوابه على الفور، وأقنعه الحُجَّاب بالعـودة. لم تكن مشـاعره الدينيـة متأصلة بما فيه الكفايـة، إن صحت هذه القصة فقد شـيَّد في قصوره في عَيْن شَمْس سُرادِقًا محاكيًا للكعبة في مَكة، وخـط بِرْكَة مليئة بالخمـر تمثل بِئْر زَمزم؛ حيث كان يجلس ويشـرب على أصوات الموسـيقى والمطربين، ويتهكم على الحجر الأسـود ومياه زمزم. لقد واسـى نفسـه بمثل هذه المُتَع لافتقاره للسـلطة الفعلية والكرامة. على الرغم من ذلك يتبين عدم رغبته في الشعور الكريم من خلال القصة التالية. لقد وضعت أمامه قائمة المعاشات المعتادة كل عام، والتي تبلغ ما بين مائة ألـف ومائتي ألـف دينار لمراجعتهـا، وفي إحدى المرات لم يسـتطع إزالة اسم واحد لمتقاعد، وقام بتوقيع القائمة بيده معلقًا بما مفاده أن الفقر مؤلم لـذا فهو يظهر اهتمامه بهؤلاء مـن خلال إكرامهم في العطاء، وأن ما يملكه سيفنى وما يقدم لله باق للأبد.

في غضـون ذلك نمت الغيرة بين الجنود الأتراك وفرق السـودان، التي دعَّمتهـا مواطنتهم أم الخليفة، ونمَّتها إلى مسـتويات خطيرة. هكذا أفضت مشاجرة إلى اشتباك عام، حيث قام الأتراك مدعومين بكتامة والبربر الآخرين بطـرد السـودان البالغ عددهم خمسـينَ ألفًا مـن القاهرة إلـى الصعيد، بعد أن بـادروا مـرارًا لعدة أعوام عبـر البر والبحر بالهجوم علـى عدوهم. رغم ذلـك فإن الأتـراك كان لهم اليد العليا فـي العاصمة برغـم مكائد العجوز، واسـتخدموا سـلطتهم فـي نهب القصـر وإفـراغ الخزانة وترهيـب الوزراء المتعاقبيـن، فضـلًا عـن معاملـة الخليفـة بـازدراء، صـاروا الآن يتقاضون أربعمائـة ألف دينـار بدلًا من ثمانية وعشـرين ألف دينار شـهريًّا من خزانة المـال كأجور ومُخصَّصـات. وعالج قائدهم، ناصِر الدَّولـة بن حَمْدَان[1]، القائـد العام للجيش الفاطمي، الأمور بدرجة مـن التعالي وصلت به أخيرًا إلى إبعاد زملائه وموظفيه، الذين أقنعوا الخليفة العاجز بطرده من وظيفته. هكذا جعلهم القائد المعزول يدفعون ثمنًا باهظًا جزاءً على ثورتهم. ورغم أنـه اضطُـرَّ للفرار مـن أعدائه في القاهـرة، إلا أن الإسـكندرية ظلت تحت سـلطته، وسـرعان ما حصل علـى دعم بعض القبائـل من بربـر لواتة. كان الخليفـة قد أظهر بعض العزم أثناء الاضطراب، حتـى أنه ظهر مُتقلدًا دِرعًا أثنـاء قيادة ما تبقى من الجنـود الذين ظلوا موالين له، والذين بمسـاعدتهم تمكـن مـن هزيمة ناصر الدولة؛ إلا أن سـلطته الآن صـارت مقصورة على العاصمـة. أحكمـت كتائـب الجنـد السـودان قبضتهـا علـى كامـل صعيد

(1) هو الأمير ناصر الدولة الحسين بن الحسن بن الحسين بن الحسن بن عبد الله بن حمدان ابن حمدون التغلبي الحمداني، الملقب سلطان الجيوش، قُتل سنة 465هـ، انظر ترجمته في: المقريزي، المقفى الكبير، ج3/ ص 500: 505 (المترجم).

مصـر، واجتاح الدلتا أربعون ألفًا من فرسـان لواتة؛ حيـث تركوا الحواجز والقنوات للدمار بغية تجويع السـكان. وبالفعـل حين انقطعت الإمدادات عن القاهرة والفُسْـطاط، فبدأت مجاعة رهيبة مع مسـتوى النيل المنخفض عـام 457هـ / 1065م، واسـتمرت بشـكل متواصل لسـبعة أعـوام (458-464هـ / 1066- 1072م)، وصلت فيها البلاد إلى أقصى درجات البؤس. لـم يجرؤ الفلاحـون على مواصلة عملهـم خوفًا من العصابات المسـلحة التـي اجتاحـت الأرض، فاسـتمر الأثـر المعتـاد لانخفاض مسـتوى النيل لأعـوام متعاقبة. وصلـت المجاعة إلى أقصى درجاتها فـي العاصمة، التي فَقـدت الاتصال بالأقاليم، حيث بيعت كِسرَة الخبز بخمسـة عشـر دينارًا، رغم أن أردب (خُمس بشـل) القمح كان يمكن أن يُشترى بمائة دينار، وتم مبادلة بيت في مقابل عشرين رطلًا من القمح، وبيضة بدينار. أُكِلَت الخيل والحمير، واشـترى كَلْب بخمسـة دنانير، وقِطْة بثلاثـة دنانير، حتى اختفت جميع الحيوانات. حوى إسْـطَبل الخليفة - الذي اتسـع فيما مضى لعشـرة آلاف من الخيل والبغال - ثلاثة خيول، وحين امتُطي خارجًا أُصيب مُرافقه المترجل بالإغماء من فرط الجوع. وأخيرًا بدأ الناس يأكلون بعضهم بعضًا، حيث انتُشل الناس من الشوارع بواسطة كلاليب مُدلاة من النوافذ، ومن ثمّ يتـم قتلهم وطبخهـم، حتى صار اللحم البشـري يباع علانية. لقد سـجلت حكايـات رهيبة عن فظائـع ذلك العهد، ورغم التنكيـل ببعض المجرمين، إلا أن الحكومة الضعيفة لـم يكن بمقدورها فعل شـيء تجاه الجماهير التي اعتراها الخبـل. أتى الوباء لينهي ما بدأته المجاعة، فأُفرِغَت بيوت بأكملها من الأحياء في غضون يوم واحد.

عانى الأغنياء تقريبًا مثلما عانى الفقراء؛ حيث سعى رجال الحاشية أصحاب المقام الرفيع للعمل كسائسين وكناسين. فحين ذهب رجل إلى الحمام، سأله المسئول إن كان يُفضِّل الحصول على خدمته من قبل عز الدولة، أو فخر الدولة، أو سعد الدولة، وهم ثلاثة من الأمراء الكبار الذين اضطلعوا بخدمة الغسيل بالماء. حاولت السيدات ذوات المنزلة عبثًا أن يبعن مجوهراتهن في مقابل الخبز، وألقين لآلئهن وزمردهن عديم الجدوى في الشارع. احتالت إحدى السيدات بصعوبة شديدة من أجل الحصول على حفنة من الدقيق في مقابل عقد قيمته ألف دينار، حيث صَنعت منها كعكة صغيرة ثم لوَّحَت بها أمام الحشود صائحة، «يا أهل القاهرة، ادْعُوا لمولانا المستنصر، الذي أسْعَد اللهُ الناسَ بأيامه، وأعاد عليهم بركات حُسْن نظره، حتى تَقوَّمت عليَّ هذه القرصة بألف دينار»[1]. أفاق المستنصر للحظة من حالة الثُبات التي استغرق فيها، وأَجبر التجار الذين سيطروا على متاجر القمح على بيعه للناس بسعر معتدل؛ لكن ما بوسعه عمله كان قليلًا. لقد استُنفِدَت موارده الضخمة، التي لم يضاهيه فيها أحد من الخلفاء. فقد تُوفيت أميرتان هرمتان للغاية، من بنات سلفه المُعِزّ عام 442هـ/ 1050م، وتركتا له كنوزًا تلهَّف عليها أربعة خلفاء متعاقبين، فقد بلغت ثروتهما الملايين. تُقرأ قوائم الجرد الخاصة بكنوز المستنصر التي سجلها المقريزي كخرافة في

---

(1) نص رواية المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ ص 299 (المترجم).

«ألف ليلة وليلة»[1]؛ ومع ذلك فقد تبددت كل تلك الأعمال الرائعة التي لا

(1) بعض تلك الأشياء يثير الاهتمام كدليل على الفن والرفاهية، فبغض النظر عن الأحجار الكريمة (مثل صندوق يحتوي على سبعة مد أو عشرة أرطال من الزمرد، تساوي 300.000 دينار؛ و 250 رطلا، من اللآلئ الرائعة، والخواتم والياقوت،إلخ)، اشتملت قائمة الجرد على الآلاف من الأوعية البلّورية الكبيرة، بعضها منقوش عليه اسم العزيز؛ وأدوات مائدة ذهبية مرصعة ومطلية بالألوان، وأكواب من الكهرمان، وقوارير للمِسك؛ وأحواض استحمام كبيرة بثلاثة أرجل على صورة حيوانات، تساوي كل قطعة منها ألف دينار؛ وبيض صيني أبيض (ربما لتدفئة الأيدي)؛ والفِراش الذهبي الذي نام عليه الخليفة المأمون في مناسبة هامة؛ وأدوات مائدة مطلية مقدمة من الإمبراطور البيزنطي للعزيز؛ ومرايا من الصلب؛ وأوانٍ زجاجية وفخارية لا تُحصَى؛ ومظلات خفيفة ذات عُصي ذهبية وفضية؛ وأوانٍ فضية مزينة ومُطعَّمَة بكل الأشكال؛ ورُقَاع شطرنج موشاة على الحرير بالذهب، مع بيادق من الفضة والعاج وخشب الأبنوس؛ و4000 مزهرية من الذهب لأزهار النرجس، و2000 للبنفسج؛ وفواكه صناعية وألعاب أخرى مصنوعة من الكهرمان والكافور؛ وعمامة مزينة بالجواهر قيمتها 130.000 دينار وزنت أحجارها 17 رطلًا؛ وعطور بكميات ضخمة؛ وطاووس من الذهب له عينان من الياقوت وريش من المعدن؛ وديك من الذهب له عرف وعينان من الياقوت؛ وظبي مرصع باللالئ؛ ومنضدة من العقيق؛ ونخلة من الذهب بها بلح من الأحجار الكريمة. ولقد اشتملت سفن النيل الثمانية والثلاثين الخاصة بالدولة أو الدهبيات، على واحدة صنعت للخليفة بأمر الوزير الجرجرائي بتكلفة 13000 دينار، وواحدة صنعت من الفضة قدمتها العجوز السوداء، من أبي سعيد مالكها السابق. وقطع حريرية مطرزة، ومخامل، وأشياء أخرى مشتملة على الدِمَقس الأحمر الموشى بالذهب على شكل ميادين تجول بها الأفيال؛ وقطع حريرية مزخرفة بتاريخ السلالات الحاكمة في المشرق، فضلا عن صور لرجال مشهورين، مع تواريخهم وأعمالهم؛ وسجادة مصنوعة للمعز في تستر، مصور عليها خريطة العالم، جباله وأنهاره ومدنه؛ حيث تظهر مكة والمدينة مميزتين بوضوح؛ وأشياء لا تحصى ولا تقدر بثمن من ديبق، وقلمون، والبهنسا،ودمشق، والصين، ومجموعة هائلة =

تقدر بثمن بين الأتراك الهمج أثناء طُغيان نَاصِر الدَّولة. لقد أجبروا الخليفة على بيع كل شيء، واشتروا الكنوز بسعر قسري سخيف. بيعت الجواهر التي تكلفت ستمائة ألف دينار، بعشرين ألف دينار، وذهب زمرد قيمته ثلثمائة ألف دينار إلى قائد تركي مقابل خمسمائة دينار، في أحوال كثيرة لم يكن هناك حتى تظاهر بالبيع الذي حل محله مشهد من النهب الصريح. صَرَّح أحد المُقيِّمين أن أقل تقدير للكنوز التي بيعت في أسبوعين فحسب من صفر 460هـ/ ديسمبر 1067م، قيمتها ثلاثون مليون دينار. وقد دُمِّرَت مجموعات «خَزَانة البُنُود»[1] النفيسة بمشعل أسقطه مرافق أحد الأتراك،

= من الخناجر، والسيوف، والحراب، والرماح المزينة بالمجوهرات، وغيرها من أنواع الأسلحة، التي تشتمل على سيف عمر بن معد يكرب الخاص بالمعز، وسيف القائم، ودِرع الحسين، ودِرع حمزة، وحتى «ذو الفقار» سيف الرسول الشهير. شغلت خيام من القماش الذهبي والحرير أحيانًا بصور رجال وحيوانات وطيور، وكانت أوتادها من الذهب؛ وكانت أحد الخيام الكبيرة، التي صُنِعَت لليازوري بتكلفة 30.000 دينار، يبلغ طول عمودها 65 ذراعًا، ومحيطها 500 ذراع، واحتاجت لمائة جمل لنقلها مع أثاثها. كانت هذه الخيمة مغطاة بالنقوش البديعة التي استغرق صنعها تسع سنوات من قِبَل خمسين فنانًا. أما خيمة الخليفة الظاهر فكانت من خيوط الذهب الخالص، قائمة على دعامات فضية؛ وأخرى مصنوعة في حلب بتكلفة 30.000 دينار، دعمت بالجزء الأعلى من سارية من سفن البندقية الشراعية؛ وأخرى أطلق عليها «القاتول» لأنها قتلت رجل أو اثنين أثناء نصبها. - المقريزي.

(1) البنود هي الرايات والأعلام، كانت ملاصقة للقصر الكبير، بناها الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، كان فيها ثلاثة آلاف صانع في مختلف الصنائع، بعد أن احترقت جعل مكانها سجنًا للأمراء والوزراء والأعيان إلى أن زالت الدولة فاتخذها ملوك بني أيوب أيضًا سجنًا يعتقل فيه الأمراء والمماليك، المقريزي، الخطط، ج2/ ص 196 (المترجم).

والتي كانت قد تشكلت بتكلفة سبعين ألف أو ثمانين ألف دينار في العام لقرن مضى.

وكانت أكبر خسارة لا يمكن تعويضها من عصر النهب ضياع مكتبة الخلفاء المكونة من أكثر من مائة ألف مجلد في مختلف فروع العلم والأدب والمعرفة العربية، كانت مخزنة في خزانات مغلقة داخل الغرف، مع رُقع تشير لمحتويات كل خزانة. يبدو أن هيئة المكتبة كانت تتألف من أمين للمكتبة ونسَّاخين وخدم. كان من بين هذه الكتب ألفان وأربعمائة نسخة مزخرفة للقرآن الكريم، وكتب بخط ابن مُقْلة[1] وغيره من الخطاطين المشهورين، وثلاثون نسخة من المُعجَم العربي الكبير الذي يُدعى (العَيْن)[2]، وعشرون نسخة من تاريخ الطَّبري، بينها نسخة بخطه، ومائة نسخة من جمهرة ابن دُرَيْد[3]، وأعمال لا تحصى ذات قيمة

(1) هو أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة، كان في أول أمره يتولى بعض أعمال فارس ويجبي خراجها، ثم استوزره الخليفة المقتدر العباسي عام 316هـ، ثم نفاه إلى فارس عام 318هـ، فاستوزره الإمام القاهر بالله عام 320هـ، ومن بعده الراضي عام 322هـ، كان من أشهر الكتبة والخطاطين في العصر العباسي، له إسهامات هامة في تطوير الخط الكوفي وأسلوب كتابته، خط القرآن بخطه أكثر من مرة، توفي ببغداد عام 328هـ، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5 / ص 113: 118 ، ياقوت، معجم الأدباء، ج6/ ص 2574: 2576 (المترجم).

(2) هو أول معجم يؤلف في اللغة العربية، وضعه عالم اللغة ومؤسس علم العروض الشهير، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 173 هـ/ 791م)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2/ ص 244 (المترجم).

(3) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، الأزدي اللغوي البصري إمام عصره في اللغة والآداب والشعر، قال عنه المسعودي أنه قام مقام الخليل بن أحمد في اللغة وأورد =

لا تُضاهى. بيع كُلُّ ذلك بواسطة الأتراك بحجة متأخرات الأجر، باستثناء مكتبة الحريم الخاصة فقط. ذهبت المخطوطات النادرة - التي في سبيل امتلاكها الآن يبذل العلماء الغالي والنفيس - لإشعال النار؛ أما أغلفتها فرتقت أحذية عبيد الموظفين الأتراك. ألقيت العديد من المجلدات الممزقة جانبًا ودُفِنَت تحت الرمال، وبقيت «تلال الكتب» طويلًا قرب أَبْيار. كان أسعد تلك المخطوطات نصيبًا ما تم تصديره للبلدان الأخرى. وعلى الرغم من هذا الدمار المؤسف نرى حماسة الفاطميين الأدبية حين بدأوا في جمع الكتب بنشاط شديد؛ بحيث أن صلاح الدين قد عثر على مائة وعشرين ألف مجلد على الأقل في مكتبتهم بعد قرن لاحق.

جعلت تلك المبيعات القسرية وسرقات كنوز الخليفة المُسْتَنْصر، تعاسته تتردى إلى أعماق البؤس. حاصر ناصر الدولة الخليفة وبقية الحامية في القاهرة والفسطاط، حتى وصلت درجات المجاعة والخوف بالجنود إلى نهب البيوت، أما الناس فقد فروا ليلًا، فضلًا عن أهل بيت الخليفة نفسه الذين توفوا أو لاذوا بالفرار. وفي عام 464هـ/ 0701م حاولت بنات الخليفة وأمهاتهن اتخاذ ملاذٍ ولو ببغداد، هربًا من المجاعة. لم يكن هناك حل لهذا سوى الوصول لاتفاق مع المتمردين، ولكن حتى ذلك الوقت كان الأتراك مختلفين فيما بينهم، وأحرق ناصر الدولة ونهب جزءًا من الفُسْطاط، ودخل القاهرة بعد هزيمة جيش المُسْتَنْصِر الصغير الذي أبلى بلاءً حسنًا في القتال. عَثر رسول الثوار على الخليفة في قصره الفارغ،

= أشياء فيها لم توجد في كتب المتقدمين، وكان لابن دريد من التصانيف المشهورة كتاب (الجمهرة) وهو من الكتب المعتبرة في اللغة، توفي ببغداد عام 321هـ، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4 / ص 323: 329 (المترجم).

جالسًا على حصيرة وضيعة، بصحبة ثلاثة من العبيد. وكانت ابنة النحوي الشهير ابن بابشاذ، ترسل له رغيفين يوميًا إحسانًا منها. هكذا وإلى مثل هذا التردي أوصلت المجاعةُ فضلًا عن اللصوص الأتراك، أمير المؤمنينَ.

أخيرًا بدأت الحالة - التي لا يمكن أن تسوء أكثر من ذلك - في التحسن، بعد أن وضع حصاد عام 465هـ/ 1073م الوافر نهاية للمجاعة التي أفقرت مصر لسبعة أعوام. اغتيل ناصر الدولة في نفس العام من قِبَل بعض خصومه الغيورين؛ حيث أُرسِل جسده مقطَّعًا إلى العديد من مدن الدولة. لم يُحدث انتقال الأمر من تركي لآخر إلا قليلًا من التحسن على حكومة البلاد، لكن حين قام الخليفة - في غمرة ذكاء - بالإرسال إلى حاكم عَكْا[1] لتولي القيادة، طرأ تغير كامل على الأمور. ارتقى بَدْر الدّين[2]، العبد الأرمني للأمير جمال الدولة ابن عَمَّار، إلى منصب رفيع في

(1) هي مدينة قديمة على ساحل فلسطين، شمال غرب القدس بحوالي 181كم، فتحها المسلمون سنة 16هـ فأصبحت من أهم موانئ الشام في العصر الإسلامي وأحصنها، ذكرها ياقوت عكة، استولى عليها الصليبيون للمرة الأولى عام 497هـ حتى استنقذها صلاح الدين عام 583هـ، والمرة الثانية عام 587هـ حتى حررها السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون عام 690هـ، ودمر أسوارها وحصونها خوفًا من عودة الصليبيين إليها، ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 143، 144، الحميري، الروض المعطار، ص 410 (المترجم).

(2) أبو النجم بدر الجمالي، المنعوت بالسيد الأجل أمير الجيوش، كان مملوكًا أرمنيًا لجمال الدولة أبي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس الشام، ولي دمشق من قِبَل المستنصر في 23 من ربيع الآخر سنة 455هـ، كان بعكا حين انتهكت حرمة المستنصر فكتب إلى أمير الجيوش كتابًا يستدعيه للقدوم عليه وإنجاده، فسار من عكا حتى دخل على المستنصر لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة 466هـ وشرع في تدبير الأحوال =

الحروب السورية؛ حيث تم تعيينه حاكمًا لدمشق مرتين، وحارب الأتراك بنجاح حتى صار القائد الأكثر قوة في سوريا. لقد قبِلَ مناشدة المُستَنصر، بشرط واحد هو جلب قواته السورية القوية معه، «المشارقة» كما كان يُطلَق عليهم، تمييزًا لهم عن كتائب الجند التركية والبربرية والسودانية في مصر. لقد أبحر مُستخِفًّا بمخاطر رحلة بحرية في الشتاء، في وقت ندر أن يجرؤ فيه أحد على الإبحار قبالة هذا الساحل، هكذا أبحر من عكا في ربيع الثاني 466هـ/ ديسمبر 1073م، ووصل تِنِّيس خلال أربعة أيام مع الريح العاتية، ثم رسا قبالة دِمْياط. وعند اقترابه استجمع الخليفة شجاعته للقبض على القائد التركي إلْدِكِز، هكذا دخل بدر القاهرة في بداية فبراير؛ حيث استقبله الأتراك بود، مع جهلهم أنه قد أُرسِلَ للتخلص منهم. لقد أصبح كل قائد تركي ضحية لأحد الجند السوريين، وفي الصباح التالي مَثُل هؤلاء أمام بَدْر- كما كان مرتَّبًا - يحمل كل واحد منهم رأس تركي في يده. هكذا أُبطِلَ الطغيان المقيت في ليلة واحدة.



شكل (31) نقش بدر الجمالي بجامع ابن طولون، 1077م

= واستبد بأمور الدولة، ولم يزل على قوة وسداد من أمره إلى أن مات سنة 487هـ راجع ترجمته وأخباره في، ابن الصيرفي، الإشارة، ص 94 : 97، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2 / ص 448 : 450، المقريزي، المقفى الكبير، ج2 / ص 394 : 402، اتعاظ الحنفا، ج2 / ص 311 : 329 (المترجم)

مع ابتهاج الخليفة بتحرره من مضطهديه، غمر منقذه بالمكافآت؛ حيث منحه لقب أمير الجيوش، ثم أعطاه زمام كل الوظائف المدنية في الدولة. لقد مُنِحَ في الواقع زمام الحكم بشكل كامل، وأصبح صنو الخليفة. أقام بَدْر في حارة بَرْجَوان، وعمل نحو استعادة النظام وإعدام كل الخصوم المحتملين، وإعادة ما أمكن من ممتلكات القصر لسيده. بعد ذلك بدأ في إخضاع الأقاليم؛ حيث قتل أو أخضع بربر لواتة في الدلتا، وسيطر على الإسْكَندرية؛ ثم زحف إلى الصعيد الذي فعل فيه السودان والقبائل العربية ما بدا لهم لفترة طويلة، هكذا استعاد سلطة الخليفة وصولًا إلى أُسْوان. لقد كثر عدد الأسرى حتى أمكن شراء امرأة بدينار، وحصان بنصف هذا الثمن. بعد هذه البداية القاسية الدموية هدأ كل شيء، وسرعان ما بدأ الفلاحون تحت حكمه القوي العادل والحصيف، في التمتع بأمن ورخاء لم يعرفوه لسنين. وفي عام 483هـ/ 1090م أدت الضرائب التي أعاد بَدْر الجمالي فرضها، إلى ارتفاع دخل مصر وسوريا من المبلغ المعتاد وهو 2.000.000 أو بحد أقصى 2.800.000 إلى 3.100.000 دينار[1]. بالفعل

(1) إن كان يشير ذلك إلى ضريبة أرض مصر فقط، فهو على الأرجح نفس الدخل الذي ذكره أبو صالح (ff. 8a-9a) بأنه قد حدث "في أيام القاضي القحَّال" (أي، ابن القحال، 1090م)، أما تفاصيله (الخاصة بـ1276 مقاطعة و890 قرية) فهي كما يلي:

المقاطعات الشمالية	دينار	المقاطعات الجنوبية	دينار
الشرقية	694.121	الجيزية	129.641
المرتاحية	70.358	الأطفيحية	39.449
الدقهلية	53.761	البوصيرية	39.390
الأبوانية	4.700	الفيومية	145.152
جزيرة قوسانية	159.664	البهنساوية	234. 801 =

لم تشـهد العشـرون عامًا الباقية من حكم المُسْتَنْصر سوى السلام والرخاء فـي مصر، رغم الحرب المسـتمرة في الشـام، والتي هـددت أحيانًا بخرق الحـدود. ولأول مرة منذ حكم العزيز، صارت القاهرة موطنًا للمعماريين؛ حيث شُـيِّدَ سـور جديد من الحجـر حول المدينـة القصر؛ وشـيدت ثلاثة أبـواب حجريـة ضخمة هي: بـاب النصر، وبـاب الفتـوح (1087م) وباب زويلـة (1091م)، متخـذة مظهرهـا المهيب الباقـي حتى اليـوم. يروى أن

= الغربية	430.955	الأشمونين وطحا	127.676
السمنودية	200.657	السيوطية، إلخ	[304.834]
المنوفيتين	140.933		
------------	------------		
فوة، إلخ	6.080	الإجمالي 1.020.953	
النستراوية	14.910		
------------	------------		
رشيد، إلخ	3.000	إجمالي الشمال والجنوب	
جزيرة بني نصر	62.508	3.060.993 دينارًا	
البحيرة	193.313		
حوف رمسيس	[59.080]		

	الإجمالي 2.040.040		

أشار هذا التقدير بأنه يستثنى دخل الإسكندرية، ودمياط، وتنيس على الساحل الشمالي، وقفط ونقادة (أي المقاطعات القوصية والأخميمية) في مصر العليا، والتي تقدر دخولها بستين ألف دينار. يضيف أبو صالح أنه في حكم الأمير فُرِضَت ضريبة رأس قدرها 3/ 11 دينار، والتي زادت لدينارين بواسطة رضوان وزير الحافظ، المعروف باضطهاده للنصارى.

البوابات الثلاثة كانت من عمل ثلاثة معماريين أشقاء من الرُّها Edessa[1]؛ بنى كل منهم بابًا[2]. وبناءً على ما تم من قبل، من توظيف اليازوري وغيره لفنانين من بلاد ما بين النهرين والعراق، فليس من المستبعد جلْب بَدْر للمعماريين من الرُّها، التي كانت مليئة بأبناء وطنه من الأرمن. رغم ذلك، ووفقًا لأبي صالح، تم تصميم البوابات والسور الجديد بواسطة «الراهب يوحنا» (f. 5Ia)؛ لكن كلمة تخطيط أو تصميم لا تشتمل على البناء، ومن المحتمل أن ذلك الراهب قد تعاون مع معماريي الرُّها. أصل الرُّها يفسر أنه ليس هناك مصدر قبطي يمكنه عمل ذلك بمفرده، فضلًا عن المظهر البيزنطي لتلك البوابات الضخمة. لقد كانت الرُّها لأمد طويل القاعدة الأمامية للإمبراطورية البيزنطية ضد الخلفاء، ولابد أن معمارييها خبروا فن العمارة العسكرية البيزنطة. ولايمكن لبَدْر الدِّين نفسه، بعد حروبه الطويلة في الشام، أن يكون جاهلًا بمباني العصور الوسطى الرومانية[3].

---

(1) هي مدينة إديسا اليونانية القديمة، والآن مدينة أورفة التي تقع جنوبي تركيا، كانت من المراكز الدينية والثقافية الهامة في العصر المسيحي قبل انتشار الإسلام، فتحها المسلمون سنة 17هـ/ 638م، أصبحت عام 491هـ/ 1098م مركزًا لإمارة الرها الصليبية التي استمرت حتى سقوطها عام 539هـ/ 1144م على يد عماد الدين زنكي، قال عنها ياقوت إنها مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام سميت باسم من استحدثها وهو الرهاء بن البلندي بن مالك بن دعر، ياقوت، معجم البلدان، ج3/ ص 106، الحميري، الروض المعطار، ص 232 (المترجم).

(2) المقريزي، I. 381.

(3) See M. van Berchem, Notes D' Archeologie Arabe, in Journ. Asiat., 1891.



شكل (32) باب زويلة، القاهرة، 1091م

لقد أبقى ذلك الأرمني العظيم الذي أنقذ المُسْتنصر، على مُلْك الخليفة الضعيف - الذي انغمس في الملذات - لمدة عشرين عامًا. وحين مات بَدْر الجمالي في ربيع 487هـ / 1094م عن عمر يناهز الثمانين، خلفه ابنه أبو القاسم شاهنشاه بلقب الأفْضَل[1]. لم يظل الخليفة الذي شهد تقلبات الدهر الرهيبة، واستحق كل متاعبه، على قيد الحياة مع وزيره موضع الثقة. فقد مات المُسْتنصر في نهاية[2] ديسمبر، في عامه الثامن والستين، والواحد والستين من حكمه المخزي.

قَبْل رواية الأسباب التي أدت إلى سقوط الخلافة الفاطمية، لابد من تقديم تقرير عن آليات إدارتهم. إن المؤرخين العرب عادة ما كان لديهم قصورٌ في مثل هذا النوع من المعلومات، لأنهم يعتبرونها مألوفة لدى قُرّائهم بشكل قاطع؛ فمن الصعب الحصول على أي بيان دقيق حول تفاصيل حكم العرب والأتراك الأوائل. رغم ذلك فقد وصلنا موجزٌ عن النظام العسكري والإداري للعصر الفاطمي، الذي على قدر انتهائه يعتبر مفيدًا[3].

(1) هو أبو القاسم شاهنشاه الملقب الملك الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي، تولى الوزارة في حياة أبيه لما اشتد مرضه في ربيع الأول عام 487هـ، هو الذي أقام الآمر ابن المستعلي موضع أبيه بعد وفاته، ودبر دولته وحجر عليه ومنعه من ارتكاب الشهوات، فحمله ذلك على أن عمل على قتله، فأوثب عليه جماعة قتلوه في سلخ رمضان سنة 515هـ، ترجمته وأخباره في: ابن الصيرفي، الإشارة، ص 97 : 103، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2 / ص 448 : 451 (المترجم).

(2) 18 من ذي الحجة عام 487هـ، الموافق 29 ديسمبر 1094م. هناك عملة ضربت بالإسكندرية تحمل عام 488هـ لابد أنها قد أُصدِرَت على الأرجح في الأول من يناير، قبل أن يُعرف خبر موت الخليفة هناك.

(3) القلقشندي، ترجمه وستنفيلد, Wustenfeld ، Die Geographie und Verwaltung von Aegypten (1879م)، ص. 171 - 222. كان القلقشندي معاصرًا للمقريزي، =

قُسِّم الجيش إلى ثلاث مراتب رئيسية هي: أولًا: الأمراء، وهم على ثلاث مراتب: (أ) مرتبة الأمراء المطوَّقين[1]، وهم أعلى مرتبة؛ (ب) حاملو السيف[2]، الذين يرافقون الخليفة على ظهور الخيل؛ (جـ) الأمراء العاديون[3]. ثانيًا: ضباط الحرس، ويتألفون من: (أ) الأستاذون أو الخصيان، الذين حظوا بمكانة رفيعة ومُنِحوا وظائف هامة؛ (ب) «الحرس الصغير»[4]، وهم خمسمائة شاب مختارين؛ (جـ) جنود ثكنات الخليفة[5]، الذين يصل عددهم إلى خمسة آلاف. ثالثًا: طوائف الجند، أطلق على كل منها اسم خليفة أو وزير أو نُسبوا لبلدهم الأصلي، مثل: الحافظية، الجيوشية، الرومية (الرومان، أي اليونانيون)، الصقالبة (العبيد)،

= لكن الأخير كان متاحًا له عددٌ هائلٌ من المراجع والوثائق التي ترجع للعصر الفاطمي. إنه أيضًا يقدم تقريرًا طويلًا وغريبًا حول مراسم ومواكب القصر العديدة.

(1) وهم الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب في أعناقهم، وهم بمثابة أمراء مقدمي الألوف في العصر المملوكي، القلقشندي، صبح الأعشى، ج3/ ص 480 (المترجم).

(2) أمراء القُضُب أو السيوف، وهم الذين يركبون في المواكب بالقُضُب الفضة التي يخرجها لهم الخليفة من خزانة التجمُّل، وهم أمراء الطبلخانة في العصر المملوكي، المصدر السابق، ج3 / ص 480 (المترجم).

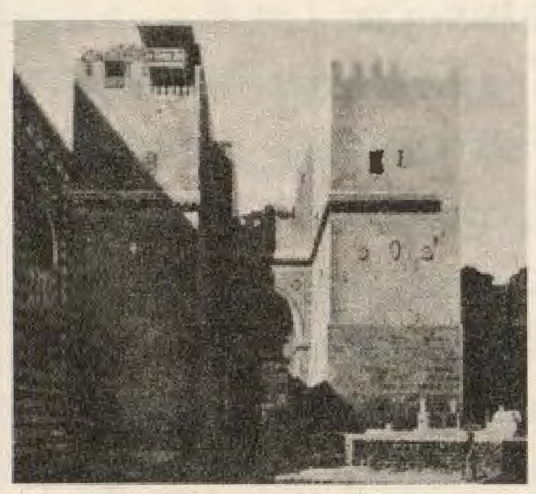
(3) وهم أدوان الأمراء ممن لم يؤهل لحمل السيف، وهم بمثابة أمراء العشرات والخمسات في العصر المملوكي، المصدر السابق، ج3 / ص 480 (المترجم).

(4) أو صِبْيان الخاص، وهم جماعة من أخصاء الخليفة نحو خمسمائة نفر منهم أمراء وغيرهم، وهم مَن يعرفون بالخاصكية في العصر المملوكي، المصدر السابق، ج3 / ص 481 (المترجم).

(5) أطلق عليهم: صِبْيان الحُجَر، وهم جماعة من الشباب يناهزون خمسة آلاف نفر، مقيمون في حُجَر منفردة لكل حُجْرة منها اسم يخصها، يضاهون مماليك الطباق السلطانية في العصر المملوكي، المصدر السابق، ج3 / ص 481 (المترجم).

السودانية (السود). كان عدد فرق الجند كبيرًا للغاية، ومتنوعًا تبعًا للأوقات المختلفة. وقد تراوح أجرهم بين دينارين وعشرين دينارًا شهريًا.

كان الأسطول الذي تمركز في الإسكَندرية ودِمْياط وعَسْقَلان[1]، والموانئ السورية الأخرى، وعَيْذَاب على البحر الأحمر، يزيد على خمسٍ وسبعين سفينة من نوع (جالي Galley)، وعشر سفن نقل، وعشر من نوع (جاليس Galleasse)، تحت إمرة أمير بحر عالٍ.



شكل (33) باب النصر، القاهرة، 1087م

(1) تعتبر عسقلان من أهم وأكبر مدن فلسطين، تقع على بعد حوالي 65كم غربي القدس، و25كم شمال شرق غزة على ساحل البحر المتوسط، أسسها الكنعانيون في الألف الثالث ق.م، عرفت في التوراة باسم (أشقلون)، كانت مركزًا لفلسطين حين فتحها عمرو بن العاص أثناء فتحه للشام، قال عنها ياقوت إنها مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، يقال لها عروس الشام، لم تزل عامرة حتى استولى عليها الإفرنج في 27 من جمادى الآخرة عام 548هـ / 1153م، وبقيت في أيديهم إلى أن استنقذها صلاح الدين منهم عام 583هـ/ 1187م، إلا أن ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا استطاع احتلالها مرة أخرى عام 588هـ/ 1192م، لذلك أمر صلاح الدين بهدم أسوارها وتخريبها حتى لا تكون حصنًا للفرنجة يقطع الطريق بين مصر والشام، ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 122، الحميري، الروض المعطار، ص 420 (المترجم).

قُسِّمَ الوزراء الرسميون للخلافة إلى طبقتين، «أرباب السيف» و«أرباب القلم». أدار أرباب السيف الجيش والوظائف الحربية، والتي تمثلت في: أولًا: الوزير (إلا إذا كان رجلًا مدنيًّا من رجال القلم). ثانيًا: «صاحب الباب»، أو الحاجب العالي، الذي كان يقف بجانب الوزير، ويطلق عليه في بعض الأحيان الوزير الأصغر، حيث حظي بشرف تقديم السفراء. ثالثًا: (اسفهسلار)[1] أو القائد العام للجيش، الذي اختص بقيادة القوات، فضلًا عن حماية القصر. رابعًا: حامل المظلة، وهو أمير جليل، يقوم بحمل مظلة الدولة فوق رأس الخليفة. خامسًا: حامل السيف. سادسًا: حامل الرمح. سابعًا: المُرافقين[2]. ثامنًا: والي القاهرة. تاسعًا: والي مدينة مِصْر (الفُسْطاط)[3]. وقد انتمى لرجال السيف أيضًا مَن يرافق أهل بيت الخليفة وهم: القهرمان، والحاجب، وحامل الدواة، وغيرهم من موظفي البلاط.

اشتمل أرباب القلم (بجانب الوزير، إلا إذا كان ينتمي للطبقة العسكرية) على، أولًا: قاضي القضاة، الذي تمتع بصلاحيات كبيرة، فكان على رأس القانون، ومديرًا لدار الضرب، وكان يعقد مجلسه بجامع عَمْرو

---

(1) اسفهسلار: كلمة تركية ذات أصل فارسي تتكون من مقطعين، اسفه وتعني المقدم، وسلار وتعني العسكر، وكانت تطلق على قائد الجيش، راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، ج3/ ص 483 (المترجم).

(2) وهم مَن يحملون السلاح حول الخليفة في المواكب، ويسمون أيضًا الركابية أو صبيان الركاب الخاص، وكانوا يعرفون في العصر المملوكي بالسِّلاح دارية و الطَّبَرْدارية، وكانت عدتهم تزيد على ألفي رجل، ولهم اثنا عشر مقدمًا، وهم أصحاب ركاب الخليفة، المصدر السابق، ج3 / ص 484 (المترجم).

(3) وهي دون ولاية القاهرة في الرتبة، المصدر السابق، ج3 / ص 484 (المترجم).

يومي السبت والثلاثاء، جالسًا على أريكة بصحبة دواته، حيث اصطف الشهود على الجانبين وفقًا لترتيب دعواهم القضائية، وفي الأمام كان يجلس أربعة محامين، هذا فضلًا عن خمسة حجَّاب للحفاظ على النظام. ثانيًا: داعي الدعاة[1]، الذي ترأس دار العلم. ثالثًا: مفتش الأسواق (المُحْتَسِب)، الذي احتفظ بسلطة غير محدودة على الأسواق والطرقات، يعاونه نائبان من القاهرة ومدينة مصر، وكان يشرف على الأوزان والمقاييس والأسعار والتجارة بشكل عام، ويقوم بمعاقبة الغشاشين والمهملين. رابعًا: خازن بيت المال، الذي ترأس بيت المال أو الخزانة العامة للدولة، بجانب مهام أخرى عديدة، مثل عتق العبيد وزواجهم، وعمل العقود لبناء السفن وغير ذلك. خامسًا: نائب الحاجب، الذي كان يشارك «صاحب الباب» في تقديم السفير للخليفة، حيث يمسك كل واحد منهما بإحدى يديه ولا يدعها. سادسًا: القارئ[2]، الذي كان يتلو القرآن الكريم للخليفة في المواسم وغير ذلك.

اشتمل قسم أدنى من أرباب القلم على هيئة من موظفي الخدمة المدنية، مُلحَقين بالأقسام التالية: أولًا: الوزارة (إلا إذا كان الوزير رجل سيف).

---

(1) وكان عندهم يلي قاضي القضاة في الرتبة، وموضعه عندهم أنه يقرأ عليه مذاهب أهل البيت بدار تعرف بدار العلم، ويأخذ العهد على مَن ينتقل إلى مذهبهم، المصدر السابق، ج3 / ص 487(المترجم).

(2) كان يطبق عليهم قرّاء الحضرة، كانوا يأتون في قراءتهم في المجالس ومواكب الركوب بآيات مناسبة للموقف، وكان ذلك يقع منهم موقع الاستحسان عند الخليفة والحاضرين، فعلى سبيل المثال عندما غضب أحد الخلفاء على أمير فأمر باعتقاله، قرأ قارئ الحضرة: (خُذْ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِين)، فاستحسن ذلك وأطلقه، المصدر السابق، ج3 / ص 489 (المترجم).

ثانيًا: ديوان الإنشاء، وهو مقسم إلى أمانة السر وفرعين آخرين، السجل أو سجل أعمال الخليفة، واحد منهما لوضع وصياغة أوامره، والآخر لكتابتها في نسخة رسمية. ثالثًا: ديوان الجيش، والذي عني أيضًا بالمطايا اللائقة وإمداد الجنود. رابعًا: بيت المال، مقسمًا إلى أربعة عشر قسمًا، يتعامل مع كل فرع من الموارد المالية، الحسابات والمُخصصات والهدايا والمعاش والجزية ووراثة التاج والمصانع الملكية، فضلًا عن قسم خاص من الموظفين بمصر والإسكندرية، إلخ. شكَّل أيضًا الأطباء الذين احتفظ الخليفة بأربعة أو خمسة منهم على نحو دائم، فضلًا عن حشد الشعراء، طبقات منفصلة من أرباب القلم ملحقة بالبلاط.

كان الموظفون خارج البلاط موظفين محليين، وهم الذين حكموا الأقسام الثلاثة للإمبراطورية، مصر، وسوريا، وحدود آسيا الصغرى. وكانت مصر تدار من قِبَل حكام قُوص[1] الأربعة أو صعيد مصر، والشرقية (بِلْبَيس، قَلْيوب، أَشْمون)، والغربية (المَحَلَّة، مُنوف، وأَبْيار)، والإسكندرية (مشتملة على كامل البُحَيْرة). احتل حاكم مصر العليا منزلة تلي منزلة الوزير على وجه التقريب، وكان لديه العديد من النواب تحت سلطته في الأقاليم المختلفة. وتحت هؤلاء كان مسئولو المقاطعات ورؤساء المدن والقُرى.

---

(1) هي الآن مدينة ومركز محافظة قنا في صعيد مصر، على مسافة حوالى 645كم جنوبي القاهرة، تقع على الضفة الشرقية للنيل، قال عنها ياقوت إنها قصبة صعيد مصر، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يومًا، وهي محط التجار القادمين من عدن وأكثرهم من هذه المدينة، ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 413 ، الحميري، الروض المعطار، ص 484 (المترجم).

وكانت إدارة جميع الشئون المحلية موكلة إلى السلطات المحلية، بما في ذلك الحفاظ على القوات، وتوفير عمالة السخرة لقنوات الري والسدود التابعة للمنطقة أو القرية على وجه الخصوص، أما العقبات الأكبر التي لم يكن من الممكن إرجاؤها لسلطة محلية واحدة، فقد أُدِيرت بمفتشين من القاهرة يعينون سنويًّا، مع هيئة كبيرة من المُساعدِين المهرة. يبدو أن النظام كان جيدًا بشكله النظري، لكن عمليًّا كان هناك بلا ريب الكثير من الفساد والاختلاس. رغم ذلك، فإن الشهادة العامة للمؤرخين العرب، تشير إلى معاملة معتدلة بل وجيدة مع الفلاحين، وذلك وفقًا للسياسة العامة المتبعة من قبل الحكم الفاطمي.

* * *

الفصل السادس

الهُجُوم مِنَ الشَّرْق

358-566هـ/ 969 - 1171م

الحملات البيزنطية – أنوشتكين في الشام – الغزو السلجوقي – الوزير الأفضل – الحملة الصليبية الأولى – ضياع فلسطين – الخليفة الآمر – الإمام المنتظر – الخليفة الحافظ – الوزير رضوان – التسامح مع النصارى – ابن السلار – عمليات الاغتيال – طلائع بن رزيك – نور الدين – مصر وسوريا – ضرغام وشاور – حملات شيركوه – سفارة في بلاط الخليفة – معركة البابان – صلاح الدين في الإسكندرية – معاهدة السلام – حرق الفسطاط – حملة شيركوه الثالثة – الوزير شيركوه – الأدب الفاطمي – الآثار الفاطمية.

الفصل السادس
الهُجُوم مِنَ الشَّرْق
358-566هـ/ 969 - 1171م

المصادر: كما سبق؛ فضلًا عن: أسامة[1]، بهاء الدين ابن شداد[2]، وليم الصوري[3].

آثار، نقوش، عملات، إلخ: انظر الفصل السابق.

---

(1) أسامة بن منقذ، مؤيد الدولة المظفر أسامة بن مرشد الشيزري، (ت 584هـ/ 1188م)، كتاب الاعتبار (المترجم).

(2) ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع، (ت 632هـ / 1239م)، كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين (المترجم).

(3) وليم الصوري William of Tyre (ت 581هـ/ 1185م)، هو مؤرخ صليبي ولد في بيت المقدس حوالي عام 1130م لأسرة صليبية، شغل منصب قس في كاتدرائية عكا، ثم أصبح رئيسًا لأساقفة صور، ثم عين عام 1174م مستشارًا للملك بلدوين الرابع Baldwin IV ملك مملكة بيت المقدس الصليبية (570 - 579هـ / 1174 - 1183م)، كان تاريخه الذي كتبه باللغة اللاتينية تحت عنوان: (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار) من أهم المصادر التي كتبت عن الحروب الصليبية وتاريخ الممالك والإمارات الصليبية في المشرق، راجع: عمر كمال توفيق، المؤرخ وليم الصوري، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، مجلد 12، عام 1967م (المترجم).

كانت الشـام تابعة لمصر منذ زمن ابن طُولُون، باسـتثناء بعض الفترات القصيـرة، إلا أن العلاقـة بينهما صارت أكثر توتـرًا تحت حكم الفاطميين. فقد أنكر السـكان السـنيون الهرطقـة الشِّـيعية بفاعلية، خاصة في دِمَشْـق، وقـد تم إقناعهم عـن طريق القوة فقـط للاعتراف بخلفاء مصـر. تلا الغزو الفاطمـي بواسـطة جَعْفـر بن فَلاح عـام 358هــ/ 969م ثورة علـى الفور، وأدى تدخل الـقرامطة عمليًّا إلى فصل الشام عن مِصْر على مدى السنوات الثمانيـة المقبلـة، حتى بعد أن قـاد الخليفة العَزيز بنفسـه حملة ناجحة عام 366هـ/ 977م، وسـحق العصيان المسـلح بقيادة أفتكين، لم تستمر دِمَشْق تحت الحكم المصري إلا اسـميًّا فقط؛ حيث تم إخضاع العاصمة السورية لفتـرة خلال عـام 378هـ/ 988م فقـط. كانت طُرابُلـس[1] وقتذاك هي أهم مدن الدولة الفاطمية التي تقع بأقصى الشـمال؛ حيث كانت أَنْطاكية لاتزال تتبـع الإمبراطوريـة البيزنطيـة؛ وكانت حَلَـب لا تزال في قبضـة آخر حكام الحمدانيين الخصوم الدائمين لمصر، هذا فضلًا عن حمايتها من قِبَل الروم كدعامة ضرورية لأنطاكية، والتي اسـتعادها الإمبراطور نيقفوروس مؤخرًا مـن العرب عام 358هـ/ 969م حين حاصـر مَنْجوتكين[2] القائد الفاطمي،

---

(1) أولى العملات الفاطمية في طرابلس مؤرخة بعام 974-975م؛ وآخرها كانت في 1101 – 1102م. وصلتنا العملات السورية للفاطميين بصورة متقطعة (أو عثر منها على نماذج قليلة للغاية) حتى يمكن اتخاذها كدليل للتسلسل الزمني. وكانت أكثر دور السك انتظامًا هي: فلسطين (أي الرملة)، وصور، وطرابلس. أما تحت حكم الآمر، حين وقعت سوريا بأكملها تقريبًا في قبضة الصليبيين، صارت عسقلان هي دار السك الشامية للفاطميين، 1109 – 1117م.

(2) تولى الشام من قِبَل العزيز بالله عام 380هـ، راجع: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ ص 269: 275 (المترجم).

حلب لثلاثة عشر شهرًا في 383 - 384هـ/ 993 - 994م، بعد هزيمة جيش من خمسين ألف جندي موفدين لنجدتها من قبل حاكم أَنْطاكية الرُّومي، أتى الإمبراطور باسيل الثاني بنفسه، متخليًا عن حملة ضد البلغار لدعمها. وعند اقترابه انسحب المصريون من دِمَشْق، ونهب الإمبراطور حِمْص وشيزر وأحرز هجومًا ناجحًا على طرابلس. هكذا كان استعراض مائتين وخمسين أسيرًا روميًّا في القاهرة هي فرحة النصر الوحيدة التي سر بها الخليفة العزيز في هذه المناسبة.

عُقِدَ السلام مع الإمبراطور لعشرة أعوام خلال عهد الحاكم، وذلك بعد انتصارين على الروم، أحدهما عن طريق البحر مقابل صُور، والآخر عن طريق البر قرب أَفَامِيَة Apamea[1]، إلا أن الشام ظلت في ثورة دائمة. كان لابد من سحق صور، هذا فضلًا عن عائلة جَرَّاح في الرَّمْلَة، التي جعلت من شريف مكة خليفة منافسًا لُقِّبَ بالرَّشيد؛ قام بهزيمة الجيش الفاطمي قرب الدَّاروم Darum[2]؛ إلا أنهم حُمِلوا بصعوبة على درجة من الطاعة بواسطة

(1) هي مدينة سورية قديمة تقع على مسافة 60كم شمالي مدينة حماة، دخلت تحت الحكم الإسلامي عام 17هـ/ 638م، استطاع الصليبيون الاستيلاء عليها زمن الحروب الصليبية حيث ضُمت لإمارة أنطاكية، إلا أن نور الدين زنكي قام باسترجاعها بعد زلزال عام 547هـ/ 1152م الذي أتى عليها، قال عنها ياقوت إنها مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص، ياقوت، معجم البلدان، ج1 / ص 227 (المترجم).

(2) هي مدينة دير البلح الحالية الواقعة بقطاع غزة جنوب فلسطين، تقع على ساحل البحر المتوسط على مسافة 90كم من القدس، كانت تعرف قديمًا باسم الداروم وتعني الجنوب، يقول عنها ياقوت إنها قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر بينها وبين البحر فرسخ، خربها صلاح الدين لما ملك الساحل سنة 584هـ، انظر: المصدر السابق، ج2/ ص 424 (المترجم).

الدبلوماسية والرشاوى الحكيمة. هذا وقد نال الخليفة المصري بعض المكانة الاسمية، عن طريق الإقرار بسيادته في مساجد وادي الفرات من المَوْصِل إلى الكُوفة، بواسطة قِرْوَاش زعيم العرب العقيليين، لكن انقطع هذا الالتحام المؤقت بسرعة بواسطة سلطان العراق البويهي، وكذلك لم تكن هناك قيمة كبيرة لحكم حَلَب القصير من قِبَل الفاطميين عام 401هـ/ 1011م، حين طُرِدَ الحَمَدانيون بواسطة من حرَّروه، وهو ابن لُؤْلُؤ[1]. هكذا كان مثل هذا الولاء في الواقع نوعًا من طلب المساعدة ضد خطر مُلِح.

نادرًا ما تم المساس بالسلطة المصرية في الشام بعد ارتقاء الظاهر للعرش؛ حيث اضطر قائد جيشهم البارع أَنُوشْتَكين الدِّزْبِري[2] حاكم قَيْصَرِيَّة[3]، إلى أن يواجه عصيانًا مسلَّحًا تحت قيادة حسَّان بن دَغْفَل في

(1) هو مرتضى الدولة ابن لؤلؤ الجراحي، غلام أبي الأفضل ابن سعد الدولة نصر بن سيف الدولة بن حمدان، راجع: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2/ ص 487 (المترجم).

(2) هو أنوشتكين أبو منصور الدزبري التركي الختني، ولد بختن من بلاد ما وراء النهر، وسبي فبيع بكاشغر حتى جلب إلى الشام عام 400هـ، دخل القاهرة عام 403هـ ومثل بحضرة الحاكم فجعله من جملة الغلمان الحجرية، ثم طوقه الحاكم وسوَّره وجعله قائدًا وبعثه إلى الشام عام 406هـ ثم ولي بعلبك ثم فلسطين من قِبَل الظاهر عام 414هـ، عينه الوزير الجرجرائي وأقامه على العسكر سنة 419هـ وأرسله إلى الشام لما تغلب عليها العربان فعظم شأنه هناك، توفي عام 433هـ المقريزي، المقفى الكبير، ج2/ ص 302: 306 (المترجم).

(3) يُطلق هذا الاسم على مدينتين، الأولى على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، ذكر الحميري أن بينها وبين يافا ثلاثين ميلًا، وكانت من أمنع مدن فلسطين، افتتحها معاوية في خلافة عمر، والثانية كما يقول ياقوت مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم وهي كرسي مُلك بني سلجوق ملوك الروم أولاد =

فِلَسطين، وآخر تحت قيادة سِنَان في دِمَشْق، هذا فضلًا عن عداء صَالِح ابن مِرْداس[1]، الذي استولى على حَلَب عام 417هـ/ 1025م من فَيْرُوز العبد الهندي، الذي أمسك بالمدينة على مدى الأعوام الثلاثة الأخيرة. أخيرًا تمكن أَنوشْتَكين من هزيمة صالح وقتله في معركة الأقْحُوانَة[2] قرب طَبَرية، ودفع حسَّان للهرب إلى البيزنطيين، واستعاد معظم سوريا باستثناء الشمال الذي كان بحوزة الخليفة المصري. ولقد تسببت هزيمة

= قليج أرسلان، تقع الآن في تركيا وكانت قبل الإسلام من أهم مدن الإمبراطورية البيزنطية وأعظمها، تسمت بلقب قيصر الروم، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 421 ، الحميري، الروض المعطار، ص 486 (المترجم).

(1) هو أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس بن إدريس الكلابي، أول ملوك بني مرداس المتملكين لحلب، قتل في معركة الأقحوانة في جمادى الأولى سنة 419هـ، انظر ترجمته: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2/ ص 487، 488 (المترجم).

(2) استطاع صالح بن مرداس الكلابي، الاستيلاء على حلب عام 417هـ/ 1025م من ابن لؤلؤ حاكم حلب من قِبَل الخليفة الفاطمي الظاهر، في وقت طمع فيه بنو الجراح في إقامة حكم لهم في فلسطين، هذا فضلًا عن سنان بن عليان الذي كان يريد إقامة ملكًا في بلاد الشام، لذلك قام حلف بين صالح بن مرداس وحسان بن الجراح وسنان بن عليان لإخراج الفاطميين واقتسام البلاد؛ بحيث يصبح المرداسيون في بلاد الشام، ولبني الجراح من الرملة إلى حدود مصر، أما دمشق وما حولها فتكون لسنان وجماعته، هكذا أرسل الخليفة الظاهر جيشًا عام 419هـ/ 1028م بقيادة أنوشتكين الدزبري حاكم دمشق، الذي التقى بقوات ذلك الحلف عند الأقحوانة جنوبي مدينة طبرية على نهر الأردن، فانتصر الدزبري، وقتل صالح بن مرداس، وهرب حسان ابن الجراح إلى البيزنطيين، وبذلك النصر استرد الفاطميون جنوب ووسط سوريا، انظر: محمد سهيل طقوش، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، دار النفائس - بيروت 2009م، ص 56: 59 (المترجم).

أخرى للعرب المرداسيين على نهر العاصي قرب شَيْزر، بتقديم حَلَب[1] وباقي شمال سوريا - باستثناء الأراضي البيزنطية - إلى المستنصر الخليفة الطفل، ولم يحافظ الحاكم القوي أنُوشْتَكين على السلام والنظام في دِمَشْق فحسب، بل أيضًا أقنع حاكم حَرَّان على الفرات، أن يعلن ولاءه للخلافة الفاطمية في مساجد حَرَّان، وسَروج، والرَّقَّة. وأثناء ذلك أُبرم السلام لمدة عشرة أعوام مع الإمبراطور ميخائيل الرابع Michael IV، الذي سُمِحَ له بإتمام تجديد كنيسة قُمَامة المهدمة عام 439هـ/ 1048م.

مَثَّلت حكومة أنُوشْتَكين مدًّا في العلاقات الفاطمية مع الشام. ومنذ عام 434هـ/ 1043م تراجعت قوتهم سريعًا؛ حيث وجد الحاكم الجديد، نَاصِر الدّولة بن حَمْدان - سيئ السمعة بعد ذلك في مصر - نفسه عاجزًا في دِمَشْق؛ هذا فضلًا عن ثورة ثانية شهدتها فِلَسْطين تحت حكم حسَّان؛ وبرهنت محاولتان لاستعادة حَلَب من المرداسيين عامي 440هـ/ 1048 و441هـ/ 1049م عن عدم جدواهما، رغم أنه قد أُرسِلَ ثلاثون ألفًا من الجند المصريين في العام الثاني. والحقيقة أن مُعِزّ الدّولة المِرْداسيّ قد استسلم بعد ذلك، وأَرسل للخليفة أربعين ألف دينار، ثم أقام في القاهرة بعد ذلك بوقت قصير[2]؛ لكن واصل ابن أخيه الكفاح عام 452هـ/ 1060م، ومنذ ذلك الحين لم تعد حلب مدينة فاطمية.

---

(1) توجد عملة من حلب تحمل تاريخ 429هـ (1037 - 1038 م)، عليها اسم المستنصر، في المكتبة الوطنية Bibliotheque national بباريس.

(2) تحمل عملات من حلب من عام 1050 إلى 1055م اسم الخليفة المستنصر.

رغم ذلك، كانت هناك قوة أكبر تتقدم بسرعة نحو الشرق، أدت إلى تحويل كل النزاعات الصغيرة إلى كفاح من أجل مجرد البقاء. لقد أخضع السَّلاجِقة التركمان فارس، وفي عام 447هـ/ 1055م تم الإقرار بقائدهم طُغْرُلْبك في بَغْداد في صلوات الجمعة كقائد عسكري للخليفة، أو بمعنى آخر كسيد. كان السلاجقة شديدي الاتباع للمذهب السني وبالغي الحماسة للدين، لذلك اعتبروا أن واجبهم المقدس هو القضاء على الهرطقة المصرية. ولم يكن إخضاع الشام كخطوة أولى، مهمة صعبة مع حالتها المنقسمة الثائرة. لقد غزا القائد السلجوقي أَتْسِز[1]، فلسطين ودخل القُدْس عام 463هـ/ 1071م، وبعد حصار دِمَشْق لمدة خمس سنوات وتدمير المحاصيل حولها، استولى على المدينة أخيرًا عام 468هـ/ 1076م، على مرأى ومسمع من أحد أحزابها الراسخة. هكذا لم تتبع دِمَشْق الفاطميين مرة أخرى[2]. كان بَدْر الجمالي القائد الكفء الوحيد في مصر، مشغولًا تمامًا باستعادة وادي النيل لصالح سيده المستكين، ولم تكن لديه قوة كافية لسوريا، فقام برشوة أَتْسِز ليمتنع عن عبور الحدود؛ حيث تقدم وصولًا إلى غزة والعريش المدينة الحدودية، وفي غضون ذلك تم إعداد القوارب لنقل البلاط الفاطمي إلى الإسكندرية إن حدث ما هو أسوأ. فربما وقعت مخاوف الوزير الكبير إن كان أَتْسِز مدعومًا بصورة كافية من الشرق، وبهذا يكون السلاجقة قد قضوا على السلالة الحاكمة الشيعية

---

(1) هو أتسز بن أوق الخوارزمي التركي مقدم الأتراك، هو أول مَن ملك دمشق من الأتراك، وقطع منها دعوة الفاطميين وأعاد دعوة خلفاء بني العباس، انظر مزيدًا عن أخباره في: المقريزي، المقفى الكبير، ج2 / 220: 223، اتعاظ الحنفا، ج2 / من ص 317 (المترجم).

(2) آخر عملة فاطمية ضربت في دمشق تحمل عام 1066 – 1067م.

قبل سـقوطها الحقيقي بمائـة عام. وبمجرد أن عاد الهـدوء إلى مصر، كان بإمـكان الجنود العمل في الشـام، فحُوصِرَت دِمَشْـق علـى الفور. واضطر المصريون للانسـحاب عند تقدم تُتُش[1] (شـقيق ملكشـاه، أكبر السلاطين السـلاجقة)، والذي عُيِّنَ نائبًا في الشام ودخل دِمَشْق عام 471هـ/ 1079م. قـاد بـدر - الذي لا يـزال مقدامًا رغم أعوام عمره السـبعين - بنفسـه حملة جديـدة ضد الغزاة عام 478هـ/ 1085م، لكن حصاره لدمشـق كان عقيمًا. لقـد عاش رغم ذلك ليرى بعض النجاحات الصغيرة على السـاحل؛ حيث اسـتولت الجيوش الفاطمية المرسَـلة بأمره على صُور، التي ظلت في ثورة لعدة سنوات، وأعاد غزو عَكا وجُبَيْل.

لـم تُحـدث وفـاة بَـدْر الجَمالـي والخليفـة المُسْـتَنْصِر فارقًا كبيـرًا في الموقـف، فقد خلـف بَدْر في الوزارة ابنـه الأَفْضَل شَاهِنْشـاه، الذي نَصَّب علـى عجـل أصغر أبنـاء الخليفـة المتوفـى السـبعة على العـرش مع لقب المُسْـتَعْلي[2] (487 - 495هـ/ 1094- 1101م)[3]، لقد اعتقد بأن شـابا في

(1) هو تاج الدولة أبو سعيد تُتُش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، كان صاحب البلاد الشرقية، فلما حاصر أمير الجيوش بدر الجمالي مدينة دمشق، وكان صاحب دمشق يومئذٍ أتسز بن أوق، سير أتسز المذكور إلى تتش فاستنجد به فأنجده وسار إليه بنفسه، فلما وصل إلى دمشق خرج إليه أتسز، فقبض عليه تتش وقتله واستولى على مملكته وذلك عام 471هـ، ثم تملك حلب سنة 478هـ، واستولى على البلاد الشامية، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1 / ص 295 (المترجم).

(2) سك أبو القاسم أحمد المستعلي بالله عملات في مدينة مصر (1095 - 1100 - 1101م)، والإسكندرية، وعكا، وصور، وطرابلس (1101م).

(3) ترجمته وأخباره في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1 / ص 178، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3 / من ص 11 (المترجم).

عامه الثامن عشر أكثر استعدادًا للانقياد من رجل ناضج. استاء الابن الأكبر نِزار - الذي قارب الخمسين - بشكل طبيعي من هذا الإحلال، لذلك أعلن بالإسكندرية - بموافقة حاكمها - عن نفسه إمامًا[1]؛ وعلى الرغم من أنه أُجبِرَ على الاستسلام بعد عام واختفى في سجون أخيه، إلا أنه قد اعتُرف به طويلًا من قبل الإسماعيليين كإمام حقيقي ورئيس للشيعة، خاصة من قِبَل «حَشَّاشِين» فارس[2]. وبعد موت المُسْتَعْلي في نهاية عام

---

(1) الإمام المصطفى لدين الله، أُصدِرَت عملات باسمه من قبل حشاشين آلموت، الذين ادعوا أنهم من ذريته؛ توجد واحدة في الهرميتاج Hermitage بسان بطرسبرج St. Petersburg، تحمل "العرش الذهبي"، وتاريخ 594 هـ. يُقَال أن ابنًا شهيرًا لنزار كان قد سك عملات كخليفة في اليمن مع لقب الإمام محمد بن نزار، وقد صُلِبَ في القاهرة مع الوزير السابق المأمون وأشقائه الخمسة عام 1128م. وثار ابن آخر هو الحسن، في المغرب (ربما في برقة) بواسطة أحد الجيوش، إلا أنه هُزِمَ وقُتِلَ من قِبَل جنود الحافظ.

(2) لم ينته حد الخلاف السياسي الذي حدث جراء استبعاد نزار عند هذا الحد، وإنما ترتبت عليه نتائج بعيدة المدى في تاريخ الدعوة الإسماعيلية برمتها؛ وذلك بسبب الانشقاق الذي حدث في تبعية الإمام؛ حيث خرج فريق كبير من الشيعة الإسماعيلية مؤيدًا لحق نزار في الإمامة وهم مَن تسموا بعد ذلك بالنزارية، وعلى رأسهم إسماعيلية فارس بقيادة الحسن بن صبّاح الذين تسموا بالحشاشين أو الحشيشية، مزيدًا عن هذه الفرقة، انظر: المقريزي، المقفى الكبير، ج3 / ص 327: 334، محمد السعيد جمال الدين، دولة الإسماعيلية في إيران، الدار الثقافية للنشر - بيروت 1999م، برنارد لويس، الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، تعريب: محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي - القاهرة 2006م، فرهاد دفتري، حسن الصباح وأصول الحركة الإسماعيلية النزارية، ضمن كتاب: الإسماعيليون في العصر الوسيط، ص 185 (المترجم).

495هـ/ 1101م تُوِّجَ ابنه الآمر[1] (495 – 525هـ/ 1101- 1131م)[2] في حينه – وهو طفل يبلغ من العمر خمسة أعوام – بواسطة الأفضل، الذي أعد له كُرسيًا صغيرًا فوق مقدمِ سرْجِه، ثم انطلق به عبر القاهرة وهو جالس في المقدمة. أصبحت الآن سلطة الوزير مُطلقَة، فحكم مصر لعشرين عامًا كيفما شاء، مثلما فعل أبوه من قبل. هكذا كان هذان الأرمينيان الكبيران منذ عام 466هـ/ 1074 وحتى 515هـ/ 1121م، مَلِكَين على مصر في كل شيء فيما عدا الاسم؛ حيث دانت الدولة لمدة نصف قرن للهدوء الداخلي والازدهار بسبب حكمهما العادل المعتدل، بنفس قدر نشاطهما وسيطرتهما الحازمة.





شكل (34) دينار المستعلي طرابلس 1101م، وشكل (35) صنجة زجاجية للآمر.

---

(1) أبو علي المنصور الآمر بأحكام الله، أُصدِرَت عملاته في مدينة مصر (1101 – 1130م)، والقاهرة المعزية (القاهرة، 1114 – 1130م)، والإسكندرية (1101 – 1130م)، وقوص (1123 – 1124م)، وعسقلان (1109 – 1116م)، وصور (1102 – 1123م). لقب المُعِزِّيَة الذي استعمل مع القاهرة، تم استخدامه أيضًا من قِبَل ناصر خسرو عام 1046م.

(2) ترجمته وأخباره في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5 / ص 299: 301 ، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3 / ص 31: 133 ، انظر سجل توليته في، جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص 44 (المترجم).

كان الخطر الذي لاح من الشرق هو الأمر الذي استحوذ على التفكير في حكم الأَفْضَل، لكنه لم يكن خطر السَّلاجقة، ذلك لأنه عند موت ملكشاه عام 485هـ/ 1092م وتُتُش عام 488هـ/ 1095م، تقطَّعت إمبراطوريتهم إلى أجزاء، فالحرب التي شلَّت نفوذهم في فارس، كان صداها منافسة أقل بين أبناء تُتُش؛ حيث أمسك أحدهم وهو دَقَّاق بدِمَشْق، بينما حكم الآخر وهو رِضْوَان حَلَب، حتى إنه دعا في المساجد للخليفة الفاطمي أملًا في كسب الدعم المصري ضد أخيه. ورغم أن قوة السَّلاجِقة قد انكسرت في الشام، إلا أن الباعث الذي جلبهم نحو الغرب كان لا يزال قويًّا، فقد تجمَّعَت أعداد من جماعات التركمان الأقوياء، الذين تدربوا من قَبْل في الحروب السَّلْجوقية، وكانوا على استعداد لمباشرة غزوات جديدة متى ظهر قائد جديد يستطيع توحيدهم لهدف مُشتَرَك. في غضون ذلك، وأثناء فترة الهدوء بين الإعصار السَّلْجوقي وتجمع العاصفة التي كانت على وشك الانقضاض على مصر بواسطة جيوش نُور الدِّين[1]، ظهرت قوة

---

(1) أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، الملقب بالملك العادل نور الدين، كان أبوه عماد الدين زنكي من الأمراء المقدمين، فوض إليه السلطان محمود السلجوقي ولاية بغداد في 521هـ، ومن بعدها الموصل في نفس العام، ولما تقلد زنكي الموصل سلم إليه السلطان محمود ولديه لتربيتهما؛ لذا أطلق عليه (أتابك) وهو الذي يربي أولاد الملوك. استولى زنكي على ما والي الموصل من البلاد، وفتح الرها عام 539هـ، وبعد أن قُتل في 541هـ تولى ابنه نور الدين محمود، الذي استطاع أن يستولي على حلب في نفس العام، ثم دمشق في 549هـ واستطاع الاستيلاء على ما تبقى من بلاد الشام من حماة وبعلبك، وافتتح من بلاد الروم عدة حصون منها مرعش وبهسنا في 568هـ، وفتح ما يزيد على خمسين حصنًا، توفي في دمشق عام 569هـ بعد أن أرسى قواعد دولة قوية استطاعت أن تنازل الصليبيين في الشام؛ حيث أكمل مسيرته بعد ذلك الملك الناصر صلاح الدين، انظر: ابن الاثير، الكامل، من حوادث =

جديدة هددت باكتساح الكل أمامها. وقد أعطى الفرصة لغزو خارجي، ذلك الشلل المؤقت للسلالات الإسلامية الحاكمة في فارس وسوريا، فضلًا عن ترف وتدهور الفاطميين في مصر. ففي عام 489هـ/ 1096م بدأت أولى الحملات الصليبية زحفها إلى الشرق، وخلال عام 491هـ/ 1098م استولت على المدن الكُبرَى، الرُّها و أَنْطاكية والعديد من الحصون الأخرى؛ وفي عام 492هـ/ 1099م استولى الصليبيون على بَيْت المَقْدس نفسه. وفي الأعوام القليلة التالية سقط الجزء الأكبر من فِلَسْطين وساحل الشام، فسقطت طَرْطُوس وعَكّا وطَرابُلس وصَيْدا Sidon [1] عام 502هـ/ 1110م في أيدي الصليبيين، وكان الاستيلاء على صُور عام 518هـ/ 1124م هو ذروة قوتهم. لقد كانت لحظة دقيقة تلك التي تحقق فيها غزو ناجح من قِبَل أوروبا، بعد أن كانت قوة السَّلاجقة منيعة في الجيل السابق. أما الجيل اللاحق، فقد كان زنكي أو نور الدين، قد توطد بقوة في مقاعد

= عام 521هـ ج9 / ص 541، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2 / ص 327: 329، ج5 / ص 184: 189، ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال وحسنين محمد ربيع، القاهرة 1960 - 1977م، ج1 (المترجم).

(1) هي مدينة ساحلية تقع بجنوب لبنان الحالية، شمال صور بحوالي 40كم وجنوب غرب بيروت بحوالي 50كم، فتحها يزيد بن أبي سفيان في مقدمة مدن الساحل الشامي بعد أن استخلفه أبو عبيد بن الجراح على دمشق، ذكرها ياقوت بأنها مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما فرسخ، استولى عليها الصليبيون عام 502هـ / 1110م، فأصبحت قاعدة بحرية هامة لهم أسهمت في احتلال صور وعسقلان، بقيت في أيديهم إلى أن استعادها صلاح الدين عام 583هـ/ 1187م، لكنهم استطاعوا استرجاعها مرة أخرى عام 626هـ/ 1228م، حتى تمكن المماليك من تحريرها عام 691هـ/ 1291م، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج3/ ص 437، عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، الإسكندرية 1986م (المترجم).

السلاجقة السورية، وقادرًا على الأرجح أن يسوق الغزاة نحو البحر. قاد حُسْن الحظ، دعاة الحملة الصليبيّة الأولى إلى اغتنام تلك الفرصة التي أدركوا أهميتها بصعوبة. فقد اختار بُطْرس الناسك Peter the Hermit وأُورْبان الثاني Urban II[1]، اللحظة الجديرة بالنجاح بحصافة لا تُخطئ، كما لو كانا قد قاما بدراسة عميقة للسياسة الآسيوية. هكذا توغلت الحملة

---

(1) كان للبابا أوربان الثاني (ت 492هـ/ 1099م) وبطرس الناسك (ت 509هـ/ 1115م)، فضل كبير في انطلاق ما يسمى بالحملات الصليبية بصفة عامة، وبالدعوة للحملة الصليبية الأولى وتوجيهها والترويج لها على وجه الخصوص، فلم يكن البابا أوربان يلي منصب البابوية حتى حدث تقارب مع الكنسية الشرقية بهدف الوقوف أمام خطر السلاجقة الزاحف على الأناضول البيزنطي، وفي مجمع كليرمونت الديني في نوفمبر عام 1095م وجه البابا دعوته إلى المسيحيين جميعًا للاتحاد لاستخلاص الأراضي المقدسة من المسلمين، وذلك في خطبة بليغة قال عنها المؤرخون إنها أساس فكرة الحروب الصليبية، ولم يكتف أوربان الثاني بما قاله في كليرمونت، وإنما أخذ يتنقل بين المدن والبلدان داعيًا للحرب الصليبية، وبالفعل استجاب لندائه الكثير من الأمراء والنبلاء فضلًا عن الفقراء الذين وجدوا في تلك الحملات متنفسًا لحالتهم الاجتماعية المتردية. هكذا أثارت دعوة البابا حركة شعبية ضخمة ترتبط في التاريخ عادة باسم بطرس الناسك الذي كان من الدعاة الذين استجابوا لنداء البابا فكان له تأثير كبير في انطلاق الحملات، ويبدو أن حماسة بطرس الناسك وفصاحته وهيئته الغريبة بثيابه الرثة وقدميه العاريتين وحماره الأعرج جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العامة والدهماء في غرب أوروبا؛ بحيث إنهم كانوا لا يكادون يستمعون لحديثه حتى تغلب عليهم الحماسة فيجتمعون في سرعة غريبة ويسرعون في الزحف صوب الشرق، انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، القاهرة 1975م، ج1/ ص 125: 133، جوناثان ريلي – سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، القاهرة 1993م، جوزيف نسيم يوسف، الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية، مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية 1962م، وراجع خطاب أوربان في: فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد العسلي، دار الشروق – القاهرة 1990م، ص 32 (المترجم).

الصليبية كإسفين بين الخشب القديم والجديد، وبدت لوهلة أنها تشق جذع الدولة الإسلامية إلى شظايا[1].

حين وصلت أخبار الحملة الصليبية القريبة إلى مصر، رحَّبَ بها الأَفْضَل على أنها مصدر للقوة ضد السَّلاجقة، ويبدو أنه توقَّع حِلْفًا مع النصارى ضد العدو المشترك[2]. هكذا زحف إلى فِلَسْطين بشجاعة أكثر إزاء هذا الاحتمال، وأخذ بيت المَقْدس من قادتها السَّلاجقة، الأخوين سَكْمان وايلغازي[3]، بعد أكثر من شهر من الحصار. وكان طَرْد هؤلاء المدافعين الشُجعان فحسب هو الذي مهد الطريق للصليبيين، وحين ذَبَح الغزاة الصليبيون سبعين ألفًا من المسلمين العزل في المدينة المقدسة، فَهِمَ الأَفْضَل أخيرًا ما كان عليه أن يتوقعه من الحلفاء المفترضين. وقد تلقَّى درسًا آخر حين باغته الفرنجة أمام عَسْقلان، ومع هجومهم على المصريين، برغم عَلَم الهُدْنَة، فقد هزموهم هزيمة منكرة بكل معنى الكلمة، ومن ثمّ استولوا على مخيماتهم وأمتعتهم، وأشعلوا النار بأشجار احتمى بها العديد من الهاربين. هكذا أبحر الأَفْضَل مُسرِعًا إلى مِصْر، ودفعت عَسْقلان رشوة إلى الفرنجة لتركها وشأنها. رغم ذلك شن الوزير الأرمنّي الحرب ضد الغزاة فيما تبقى له من عمر. انتصر الصليبيون ثانية قرب يافا عام 495هـ/ 1101م، لكن في عام 496هـ/ 1102م أخذ جيش

---

(1) Lane-Poole, Saladin, 24, 25.

(2) ربما أيضًا اعتزم أن يصير مسيحيًا من أجل أن يقوي ذلك الحِلف: Cp. Hist. Occ. des Croisades, iv. 48, 78.

(3) أسسوا بعد ذلك سلالة أرتقد الحاكمة في ماردين Maridin وكيفا Keyfa في ديار بكر، والتي ظلت إحداها حتى وقت تيمور.

مصري - مُشكَّلًا على الأرجح من بعض محاربي بَدْر القدامى - انتقامه كاملًا قرب عَسْقلان؛ حيث قام بهزيمة بالدوين Baldwin [1] وسبعمائة من الفرسان، وأجبروا ملك بَيْت المَقْدس على الهرب؛ حيث تمت محاصرته ومطاردته حتى يافا. وصارت الرَّمْلَة مرة أُخرَى مدينة عربية إسلامية. وقعت العديد من المعارك في العام التالي، فأرسل الأَفْضَل ابنه الذي هزم الفرنجة في يَازُور Yazur[2] (حين اختبأ بالْدوين في كومة قَشْ)؛ حيث استحوذ على الرَّمْلَة؛ ومن ثمّ أرسل ثلاثمائة فارس كأسرى إلى مصر بعد قتل البقية. أُرسِلَت قوة من أربعة آلاف فارس مصري إلى يافا مدعومين بأسطول في نفس العام؛ لكن الصليبيين أيضًا تم تعزيزهم، ولم يكن

---

(1) هو الملك بالدوين الأول (493 – 512هـ/ 1100 – 1118م)، أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية، كان واحدًا من قادة الحملة الصليبية الأولى وشقيق جودفري دي بويلون Godfrey of Bouillon أول حاكم للدولة الصليبية في القدس، كان قد انفصل عن الحملة الصليبية الرئيسية في آسيا الصغرى قبل وصولها إلى أنطاكيا وزحف شرقًا نحو الرها حيث تآمر على أميرها طوروس الأرمني الذي كان قد استغاث به لينجده من المسلمين فأطاح به وأسس إمارة الرها عام 491هـ/ 1098م، وهي أول إمارة صليبية في الشرق وحكمها فترة جاوزت العامين، استدعي بعدها إلى القدس ليتولى عرشها إثر وفاة شقيقه، توفى أثناء حملته إلى مصر عام 512هـ/ 1118م، راجع: عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة: فيليب صابر سيف، القاهرة 1990م، ص 46: 51 ، فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 8، 9 (المترجم).

(2) هي مدينة فلسطينية تقع شرقي مدينة يافا بحوالي ستة كيلومترات، كانت في العصر الإسلامي بليدة بسواحل الرملة كما ذكرها ياقوت في معجمه، فضلًا عن أنها شهدت مولد العديد من الشخصيات الهامة خاصة في العصر الفاطمي، مثل الوزير الفاطمي الحسن بن علي اليازوري، ياقوت، معجم البلدان، ج5/ ص 425 (المترجم).

بمقـدور أي محاولة للمصريـين أن تكبح تقدمهم. وبحلـول عام 497هـ/ 1104م كانت معظم فِلَسْـطين في أيدٍ صليبية، باسـتثناء القليل من الحصون السـاحلية، والتي سقطت منها عكا وجُبَيْل في ذلك العام. لقد تركز الكفاح حول الرَّمْلَة لبعض الوقت، وجعل الحاكم الأتابكي أو السَّلْجوقي لدِمَشْق محاولـة إنقـاذ مـا تبقى مـن القوة الإسـلامية فـي الأرض المقدسـة قضية مشـتركة بينهـم وبيـن الفاطميـن؛ وكان ذلك بعـد معركة غير حاسـمة بين يافـا وعَسْـقَلان في ذي الحجـة 497هـ/ سـبتمبر 1104م؛ حيث انسـحب كلا الطرفيـن منهكيـن. وبعد عام 502هــ/ 1109م حين سـقطت طرابلس بعـد مدة من الحصار، صارت صور أمل الإسـلام وقاومت كل محاولات الصليبيين حتى 518هـ/ 1124م، في حين ظلت عَسْـقَلان القاعدة الأمامية الشـمالية لمصر، وتقريبًا الأثر الوحيد لحكمها السـابق في الشام. وفي عام 511هــ/ 1117م غزا الملك بالدوين حتى مصر نفسـها؛ حيث أَحرق جزءًا مـن الفَرَمَا ووصل إلـى تِنِّيس، حين أجبرَه مرضـه المُمِيت على العودة. لم يحـاول المصريـون الانتقام، ومـن الآن فصاعـدًا حتى نهاية حكـم الدولة الفاطمية، كانت السياسـة السائدة لوزرائها هي الدبلوماسية الدفاعيَّة[1].

---

(1) راجع تفاصيل الوقائع، على سبيل المثال: ابن الاثير، الكامل، حوادث عام 496هـ وما بعدها، سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية في الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، العدد 16، 1969م، ص 15: 66 ، الحركة الصليبية، جـ1، صلاح الدين محمد عبد القادر نوار، سياسة الخلافة الفاطمية في الشام في عهد الوزير بدر الجمالي وابنه الأفضل، رسالة ماجستير غير منشورة – جامعة الإسكندرية 1984م (المترجم).

بلغ الحكم الحصيف للأَفْضَل نهايته حين غضب سيده - الذي صار رجلًا - من سيطرته، هكذا اغتيل الوزير الكبير في الطريق نهاية عام 1121م الموافق لعام 515هـ. زار الخليفة الرجل المحتضر وأظهر أعمق مشاعر التعاطف؛ وبمجرد أن أغلقت عيناه، قضى أربعين يومًا في نهب كنوز بيته التي كان قد جمعها أثناء إدارته الطويلة. أعلن المؤرخ جمال الدين، الذي كان على صلة بأحد موظفي الأَفْضَل، أن ثروة الوزير بلغت ستة ملايين دينار من الذهب، و مائتين وخمسين كيسًا (كل منها 5 بشل) من الدراهم المصرية الفضِّيَّة، وسبعمائة وخمسين ألف ثوب أطلسي (ساتان)، وثلاثين جملًا محملًا بالذهب من العراق، إلخ. مضافًا إليها إطارًا من الكهرمان أو هيكلًا لعرض ثياب الدولة. أما قطعانه الضخمة فكان يتم حَلْبها أثناء عامه الأخير مقابل ثلاثين ألف دينار. ضمن مؤسساته كان هناك نوع من نظام الفروسية، عبارة عن مجموعة من الشباب زود كل منهم بجواد وأسلحة، تعهدوا بتنفيذ أوامره دون أي تردد، وتم ترقِيَة المتميزين منهم إلى رتبة أمير. لم يستطع خلفه، ابن البَطائحي المُلقَّب بالمَأْمُون[1] - رغم كونه خبيرًا ماليًا ووزيرًا متسامحًا - أن يملأ مكانه؛ لقد سُجِنَ عام 519هـ/

(1) محمد بن فاتك بن مختار بن حسن بن تمام، المعروف بابن البطائحي، الأحول الشيعي الإمامي، اتصل بخدمة الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي عام 501هـ، خلع عليه الخليفة الآمر عام 515هـ بعد مقتل الأفضل، قُبض عليه عام 519هـ بعد أن مكث في الوزارة ثلاث سنين وتسعة أشهر ويومين ولم يزل إلى أن قتل عام 522هـ، ترجمته وأخباره في: ابن الصيرفي، الإشارة، ص 103: 107 ، المقريزي، المقفى الكبير، ج6 / ص 478، 479 ، الخطط، ج2 / ص 283: 285 (المترجم).

1125م ثم صُلِبَ[1]. وعلى أثر ذلك حاول الخليفة أن يكون وزيرًا لنفسه، يعاونه فحسب الرَّاهب أبي نَجَاح بن قَنا[2] الذي جمع ضرائب من النصارى بلغت مائة ألف دينار. صار الرَّاهب المسئول العام عن جمع الدخل، لكنه أظهر إمارات تجبر جعلت الخليفة يجلده بالسياط حتى الموت. وقد جعل الحكم المنفرد للآمِر منه شخصًا ممقوتًا بشكل عام. لقد أظهر القمع بكل أنواعه فضلًا عن الإعدامات الوحشية، قسوة طبيعته الفطرية، وفي ذي القعدة 524هـ/ نوفمبر 1130م، حين انطلق عائدًا من الهودج[3] - منزل للمتعة فى جزيرة الرَّوْضَة، بناه لخليلته البدوية الأثيرة، والذي نافس حدائق الورد الفاتنة في قَلْيوب - هاجمه عشرة من الحَشَّاشِين الإسْماعيليين، فمات متأثرًا بجراحه في نفس الليلة. وإلى جانب ولعه بالورود، فإن أكثر الحقائق جدارة بالذكر حول حياته الخاصة هو استهلاك خمسة آلاف خروف في مطبخه شهريًا، بسعر ثلاثة دنانير للرأس.

---

(1) بنى الجامع الأَقْمَر عام 1121 - 1122م، والذي لاتزال بقاياه موجودة في بين القصرين.

(2) عند ابن خلكان، أبو شجاع بن قسا، كان ابتداء أمره يخدم ولي الدولة أبا البركات ابن يحيى بن أبي الليث، ثم اتصل بالآمر وبذل له في مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم وتسلسل الحال إلى أن عم البلاد جميع رؤساء مصر وقضاتها وكتّابها وشهودها وسوقتها إلى أن صادر رجلًا جمَّالًا فأخذ عشرين دينارًا ثمن جمل باعه لم يكن يملك سواه، وأقام كذلك إلى أن قُتل عام 523هـ على يد المقداد الوالي بمصر، راجع: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5 / ص 299، 300، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3 / ص 117 : 127 (المترجم).

(3) عن الهودج، انظر: المقريزي، الخطط، ج2 / ص 335 (المترجم).



شكل (36) دينار الآمر، قوص، 1123م أو 1125م. شكل (37) دينار المهدي المنتظر، القاهرة، 1131م.

لم يَترك الآمِر من بعده أي أبناء، فخَلَفَه في البداية ابن أخيه عَبْد المَجِيد الحَافِظ[1] (525 – 544هـ / 1131– 1149م)[2]، كوصي على العرش، في انتظار وضع إحدى زوجات الخليفة، التي كانت في حالة حَمْل، إلا أنها لسوء الحظ وضعت أنثى، ولكن قبل أن يصير الوصي على العرش خليفة بشكل فعلي، جرت فترة خلا فيها العرش بطريقة غريبة. كان أبو عليّ ابن الأَفْضَل، الملقب بكُتَيْفات[3] – الذي أصبح وزيرًا بقوة الجيش – قوي الجانب في المذهب الإمامي أو الاثني عشري، مؤمنًا بعودة المَهْدي،

---

(1) أبوالميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله، ضرب نقوده في مدينة مصر (الفسطاط) والإسكندرية فقط، بين عامى 1131 م / 1148– 1149م.

(2) انظر عن الحافظ وإمامته: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3 / ص 235 ، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3 / ص137 : 192 ، راجع أيضًا سجل توليته في، القلقشندي، صبح الأعشى، ج9/ ص 291: 297 ، وتحليله في: الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية. (المترجم).

(3) هو أحمد بن شاهنشاه بن بدر الجمالي، الملقب كتيفات، كان أصغر أولاد الأفضل، لم يتعرض له الآمر بعد أن قتل إخوته، تولى الوزارة في خلافة الحافظ عام 524هـ إلى أن قتل في السادس عشر من محرم سنة 526هـ انظر ترجمته في: ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص 41، 42، المقريزي، المقفى الكبير، ج1 / 394 : 398 (المترجم).

ومتشـككًا في الادعاء الفاطمي في الخلافة. لقد ألزم الوصي على العرش بالبقـاء فـي القصر، ومنع ذكر اسـم أي حاكـم على قيد الحيـاة في الصلاة وعلـى العملات غير المَهْـدي المنتظر أو الإمام المُنْتَظَر[1]. اسـتمرت هذه المهزلـة لعـام، مـارس خلالهـا كُتَيْفَات العديـد من السـلطات. رغم ذلك لم يكن حاكمًا سـيئًا، فقد انتهج أسـلوب الحكم الجيد الـذي كان قويًا في عائلتـه، فـكان عادلًا وخيـرًا، متسـامحًا وكريمًا مـع الأقباط، ومحبًّـا كبيرًا للشعر. لم تكن أوتوقراطيته (حكم الفرد) لتدوم طويلًا رغم ذلك، مع تآمر الخليفة الشـرعي ضده في القصر؛ وفي شهر المحرم سنة 526هـ/ ديسمبر 1131م، وبينمـا كان يركـب للعـب البولو، تـم اغتياله من قِبَـل بعض فيالق الخليفة الخاصة أو «صِبْيان الخَاص».

دخل عَبْد المَجِيد الآن في خلافته الحقيقية متخذًا لقب «الحافظ»، عن عمر يناهز سبعة وخمسـين عامًا، بصحبة يَانِس[2]، العبد الأرمنّي للأَفْضَل،

(1) سُكّت العملات التي تحمل اسم «الإمام محمد أبو القاسم المنتظر لأمر الله، أمير المؤمنين»، في القاهرة المعزية، ومدينة مصر (أي الفسطاط)، والإسكندرية في 525هـ (1131م)، ولا تحمل أخرى سُكّت في مدينة مصر عام 526هـ (نوفمبر- ديسمبر 1131م؛ حيث تم اغتيال الوزير في 8 من ديسمبر) ألقاب «الإمام المهدي القائم بأمر الله حجة الله على العالمين» فقط، وهي التي تُظهر نفس الشخصية المتنبأ بها كالمنتظر، وإنما تحمل أيضًا اسم «الأفضل أبو علي أحمد» كـ«نائبه والخليفة»، وهي ألقاب تُظهر تطور في ادعاءات الوزير. انظر: المقريزي، الخطط، i . 406.؛ Lane-Poole, Cat. of Or. Coins in the British Museum, vol. iv., pp. ix.-xiii., 55-6; Sau-Vaire and Lane-Poole, The Twelfth Imam on the Coinage of Egypt, J.R.A.S.., N.S., vii. 140-151.

(2) هو أمير الجيوش سيف الإسلام أبو الفتح يانس الحافظي، كان غلامًا أرمنيًّا للأفضل، تدرج حتى وصل إلى الوزارة الصغرى أو(صاحب الباب)، قام بدور كبير=

كوزير لـه. كان يانِـس انضباطيّـا صارمًـا، رجـلًا صلبًـا، مسـتقيمًا، زكيًّـا، وممقوتًا. وخلال تسـعة أشـهر ظهرت عليه سـيماء الغطرسـة بشكل كبير، فسـممه الخليفة بواسـطة طبيب البلاط. وربما من أجل تجنب إثارة الغيرة بيـن الجنـود، أو للإفلات من اسـتبداد وزيـر قوي، حـاول الحافظ الحكم لبعض الوقت دون وزير، فأثبت عدم سـوء إدارته، حتى أسـفرت النزاعات بيـن أبنائه حول ولايـة العهد حربًا أهلية بين الفرقة الرَّيْحانية المتنافسـة مع فرقة السـودان الجيوشـية؛ مما اضطر الخليفة أن يضحي لهـم بابنه الأكبر. احتشـد الجيوشـية المنتصـرون البالغ عددهم عشـرة آلاف في سـاحة بين القصرين، وطالبوا برأس الأمير حَسَـن[1]، الذي تسـبب في وفاة العديد من الأمراء. استدعى الخليفة العاجز طبيبيّ البلاط، أبي مَنْصُور اليهوديّ الذي رفض أداء المهمة، في حين قام زميله النصراني ابن قِرْقَة، بمزج جرعة قاتلة أُجبِرَ حَسَـن على شـربها. كان ابن قِرْقَة رجل الإنجازات المهمة في مجال العلـوم، فبغض النظر عن معرفته العملية بعلـم السـموم؛ فقد شـغل العديد مـن مناصـب البلاط المربحة، مثل آمـر خزانة الملابـس، وكان يملك دارًا رائعة على الخليج؛ لكن الخليفة لـم يحتمله بعد أن قام بتسـميم ابنه، فأُلقِيَ بالطبيب الخاضع في السجن، حيث أُعدِمَ بعدَ ضحيته بوقت قصير.

= في القضاء على الأفضل ومبايعة الحافظ، ومع ذلك أمضى في الوزارة أقل من عام، حيث اعتقل في ذي القعدة، وتوفي في 26 ذى الحجة 526هـ انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج9 / ص 297، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3 / ص 144، 145 (المترجم).

(1) راجع: المقريزي، المقفى الكبير، ج3 / ص 415: 419، اتعاظ الحنفا، ج3 / ص 149، الخطط، ج2 / ص 402 (المترجم).

شـوهت النزاعـات المسـتمرة للـوزراء المتنافسـين، الأعـوام المتبقية للحكـم الفاطمـي في مصر، وذلـك بدعم فئات من الجيـش. نَصَّب الجند بَهْرام[1] كوزير، وهو أرمنّي نصراني، وبرغم ذلك لُقِّبَ « بسـيف الإسلام»، مع أنه قام بتعيين مواطنيه بكثافة في كل مناصب الدولة، و ترتب على ذلك تساهل مع النصارى؛ مما أدى إلى إبعاده بصحبة ألفين من أتباعه الأرمن[2]، فسلك في النهاية حياة الرهبانية[3]. وكان خلفه، رِضْوان[4]، جنديًّا شجاعًا،

(1) هو بهرام بن أسيد الأرمني، أول نصراني يتولى وزارة تفويض للفاطميين وهو على دينه، وذلك في 16 جمادى الآخرة 529هـ، جاء ضمن الأرمن الذين وصلوا إلى مصر مع بدر الجمالي، توفي عام 535هـ، وبوفاته انتهت سيطرة العنصر الأرمنّي التي بدأت بدخول بدر الجمالي إلى مصر في عهد المستنصر، راجع ترجمته في: المقريزي، المقفى الكبير، ج2/ ص 512 : 516 (المترجم).

(2) ربما يكون الرقم مبالغًا فيه، لكن ينبغي ملاحظة أن بدر الجمالي لابد قد جلب معه حاشيته الأرمنية إلى القاهرة، وأن حكومة الدولة كانت لنصف قرن في أيد أرمنية؛ وقد أدى ذلك للزيادة الكبيرة والتضخم الذي شهدته تلك الجالية.

(3) أبو صالح، f. 84a.

(4) هو رضوان بن وَلَخْشي، كان واليًا للغربية عندما كتب له المصريون لإنقاذهم من عسف وسيطرة النصارى، وعندما فر بهرام من القاهرة ودخلها رضوان قلده الحافظ الوزارة بضغط من الأمراء في 11 جمادى الأولى 531هـ فكان أول وزير سني للفاطميين، وبداية النهاية للنفوذ الشيعي في مصر؛ حيث بنى (المدرسة الحافظية)، أول مدرسة مالكية في مصر عام 532هـ في مدينة الإسكندرية، انظر سجل توليته في: القلقشندي، صبح الأعشى، ج 8 / ص 342: 346، وراجع: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3/ ص 167 (المترجم).

شاعرًا، وأول مَن لُقِّب بالملك[1]، ذلك اللقب الذي اتخذه بعد ذلك جميع الوزراء الفاطميين، فكان لقبه المَلِك الأَفْضَل والسَّيْد الأَجَلْ، إلا أن ألقابه لم تنقذه من السقوط، حيث أُلقِيَ به في السجن، ورغم أنه بعد عشر سنوات احتال ليحفر طريقًا له عبر سور السجن، بواسطة مسمار حديدي صار مضربًا للأمثال، وقام بجمع حشد من الأتباع في الجامع الأقْمَر أمام قصر الخليفة الكبير، إلا أنه قُطِّع وأُلقِيَ برأسه في حجر زوجته. وقد رويت قصة رهيبة عن تقطيع جسده لأجزاء صغيرة قام الجند الشباب بالتهامها، اعتقادًا أنهم بذلك يستوعبون لبه وشجاعته.

مَر العام الأخير من حكم الخليفة العجوز، إن أمكن تسميته حكمًا، حين امتدت سلطته بالكاد خارج القصر، ودافع عنها الحرس السودان الثملون فقط، في مشهد متواصل من الاضطراب والشغب؛ حيث فُقِد الأمن من الطرقات، وعاش الناس في رعب دائم. بلغ الخليفة الآن خمسة وسبعين عامًا، وكان كثير المرض بعلة القولنج، لذلك ابتكر طبيبه طبل رُكِّب ببراعة من المعادن السبعة والكواكب السبعة في إشراقها كل واحد منها في وقته؛ وكلما قُرِعَ هذا الطبل السحري، سكن انتفاخ الخليفة. كانت هذه الآلة المثيرة للاهتمام موجودة في القصر لما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية؛

---

(1) ذكر المقريزي أنه أول مَن تلقب بلقب ملك من الوزراء الفاطميين، إلا أن ذلك اللقب لم يرد في سجل التولية الذي ذكره القلقشندي: «السيد الأجل الأفضل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين، أبي الفتح رضوان الحافظي»، راجع: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3/ ص 218، القلقشندي، صبح الأعشى، ج8 / ص 342 (المترجم).

حيث قرعها أحد جنـوده الأَكْراد بلا مبالاة، جاهلًا بخواصها الغريبة، فكان التأثير مذهلًا لدرجة أن الرجل أسقط الطبلة مرتبكًا فتحطمت.

لا ريـب أنه أثناء حكـم الفاطميين على الإجمـال، عُومِلَ نصارى مصر بمراعـاة نـادرة، أكثـر بكثير مما كان عليـه الحال فيمن تلاهـم من الحكام. وإذا ما نحَّينا اضطهاد الحاكم، الذي كان مجرد جزء من اسـتبداد عام، فلم يسـبق للأقباط والأرمن أن تلقوا كل هذا الإحسان من قِبَل حكَّام مسلمين. لقد كانوا مفضلين تحت حكم العَزيز أكثر من المسـلمين أنفسـهم، وعُيِّنُوا بأعلـى مناصـب الدولة. أما تحـت حكم المُسْـتَنصر وخلفائـه، فقد حمى الأرمن مواطنيهم (سواء أقباطًا أم غير اقباط)، فضلًا عن النصارى الآخرين، أثنـاء الفترة الطويلة التي اسـتأثروا فيها بالوزارة. وكانـت معظم المناصب الماليـة فـي الحكومة آنـذاكٍ - مثلما كانت دائمًا - في حـوزة الأقباط. فقد كانـوا جامعين للضرائب، ومُراقبين للحسـابات؛ فأصبـح من غير الممكن الاسـتغناء عنهم بسـبب قدراتهم. ونقرأ بشكل متواصل أثناء حكم الخلفاء السـابقين عن بناء وترميم للكنائس، مسجلًا بواسطة النصراني أبي صالح؛ حيث يعكس تاريخها المعاصر بدقة حالة مصر عند نهاية الحكم الفاطمي. لقـد رحب الخليفة الحافظ حتى بالبطريرك الأرمنّي، في اسـتقبالاته العامة المعتادة يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع، ليتلقى دروسه في التاريخ، واسـتمر فـي ذلك حتى وفاتـه. وكان الحافـظ مولعًا بزيـارة الأديرة؛ حيث شُيِّدَت مناظر[1] تطل أحيانًا على حدائق منعزلة وتشرف على مشهد «للنيل

---

(1) جمع منظرة، انظرعن مناظر الخلفاء الفاطميين: المقريزي، الخطط، ج2 / ص 290 (المترجم).

المبـارك»، واعتاد هو وابنه الظافر، والخليفة الأخير العاضد، لهذا السـبب أن يترددوا على كنيسـة العَذْراء بالعَدَوِيَّة التي تبعد ثمانية عشـر ميلًا جنوبي القاهرة؛ حيث أسـهموا في دعمها مقابل حُسـن ضيافتهم من قِبَل الرهبان. استمتع الخليفة الآمر - العاشق للحدائق - في دير نَهْيَا غربي الجيزة؛ حيث قام بتشـييد إحدى المناظر واعتاد الذهـاب للصيد. و كان في كل مرة يزور فيهـا الديـر يَمنح رهبانـه ألف درهـم. لقد تسـلى بالوقوف مـكان القَسْ في الكنيسـة، لكنـه رفض أن ينحني من أجل أن يلـج الباب المنخفض، وأنهى الأمر بالانخفاض والسير إلى الخلف[1]. وكانت عائدات الكنائس المصرية مستمدة بشكل كبير من الهدايا الفاطمية؛ حيث بلغت عام 576هـ/ 1180م، 2923 دينارًا، و4826 كيسًا (من 5 بشل) من القمح، فضلًا عن امتلاك 915 فدانًا من الأرض.

عنـد موت الحَافِظ في جمادى الآخرة سـنة 544 هــ/ أكتوبر 1149م، نُصِّـب ابنـه الأصغـر الظَّافِـر[2] (544 - 549هــ / 1149 - 1154م) علـى العرش[3]. كان شـابًا مرحًا، أنيقًا، وطائشًـا، بلغ من العمر سـتة عشـر عامًا، شـغل تفكيـره بالفتيـات والأغاني أكثر مـن الحرب والسياسـة، هكذا وقع

(1) أبو صالح، ff. 2b, 7a, 46b, 61-62، إلخ.

(2) سك أبو منصور إسماعيل الظافر لدين الله عملاته في مدينتي مصر والإسكندرية فقط، مؤرخة بين أعوام 1149 - 1150م / 1153 - 1154م.

(3) انظر ترجمته وأخباره في: المقريزي، المقفى الكبير، ج2 / ص 121، 122، اتعاظ الحنفا، ج3 / ص 193 : 210، وسجل توليته في: القلقشندي، صبح الأعشى، ج9/ ص 286 : 291 (المترجم).

تحت التأثير الكامل للوزير الداهية ابن السَّلار[1]، الكُرْدي والسُّني الملتزم، والذي لُقِّبَ بالملك العادل. لقد أَبعد ابن مصال، مُرشح الخليفة للمنصب، وهكذا صار مكروهًا من قِبَل الظافر (الذي قمع «الحرس الصغير» وأبادهم تقريبًا عام 545هـ/ 1150م)، وبالمثل من قِبَل الناس، الذين لم تكن حياتهم آمنة على الإطلاق من جلاديه. كان اغتياله من قِبَل نَصْر، حفيد زوجته - وتلاه مقتل الخليفة بنفس الأيدي الغادرة - ينتمي إلى أحد أحلك فصول التاريخ المصري. لقد وصلت إلينا القصة عن طريق قلم معاصر للأحداث، هو قلم القائد العربي أُسَامة[2]، الذي اعتاد أن يصطاد الكركي والبلشون بالصقور في بلاط الحَافِظ؛ حيث حل ضيفًا على ابن السَّلار، وكان وثيق

---

(1) أبو الحسن علي بن السَّلار، المنعوت بالملك العادل سيف الدين، تولى الوزارة للظافر عام 543هـ بعد أن كان واليًا على الإسكندرية والبحيرة، وكان سنيًّا على المذهب الشافعي، قُتل في السادس من محرم عام 548هـ، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3 / ص 416 : 419، المقريزي، إتعاظ الحنفا، ج3 / ص 196 (المترجم).

(2) هو أبو المظفر أسامة بن منقذ الكناني، له تصانيف عديدة في فنون الآداب، وهو من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر بالشام، وقد ذكر ابن خلكان أنه انتقل إلى مصر واتصل بالبلاط الفاطمي، وذلك حتى أيام الصالح بن رزيك، ثم عاد إلى الشام وسكن دمشق حتى ملك السلطان صلاح الدين، وأهم أعماله على الإطلاق كتابه (الاعتبار) الذي يعرض فيه سيرته الشخصية ومن خلال ذلك تناول أحداثًا سياسية في مصر والشام غاية في الأهمية، توفي في دمشق عام 584هـ انظر: عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، (قسم شعراء الشام)، تحقيق: شكري فيصل، المطبعة الهاشمية بدمشق 1955م، ج1/ ص 498 : 547، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1/ ص 195: 199، أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، اعتنى بتصحيحه: هرتويغ درنبرغ، طبعة ليدن 1883م، المقريزي، المقفى الكبير، ج2/ ص 41: 49 (المترجم).

الصلـة إن لـم يكن المحرض على اغتياله[1]. لقـد وُضِعَت رأس الوزير في خزانـة الرؤوس ببيت المال بواسـطة الخليفة المبتهـج، الذي أعطى القاتل الشـاب الوسـيم عشـرين صحيفة فضية على كل منها عشـرين ألف دينار، وشـجعه علـى مواصلة تجربته الأولـى لهذا الفن الرائـع. كان الاقتراح هو أن يفـر مع أبيـه عباس زميله في المؤامرة[2]، الـذي خلف زوج أمه المغتال - ابن السـلار - فـي الوزارة. لم يكن نصـر نافرًا من الجريمـة الثانية، ومع استشـعار عباس بالخطر استعد لتسـميم ابنه. سكنت الحالة المسببة للتوتر باغتيـال الخليفـة المفعـم بالثقـة، أثناء حفـل ودي في بيت الشـاب الغادر (نصر). جلس أسـامة فـي اليوم التالي فـي رواق القصر، حين سـمع فجأة

---

(1) See: H. Derenbourg, *Vie d' Ousâma*, 205-260.

(2) عباس بن أبي الفتوح بن أبي طاهر يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، لما مات أبوه تزوجت أمه من العادل بن السلار فعلا شأنه وقدمه الخليفة الحافظ وجعله صاحب الباب، ولما قوي الإفرنج على عسقلان، جهز العادل بن السلار العساكر وسيرها مع عباس، فخرج ومَن معه من الأمراء وكان منهم أسامة بن منقذ الذي كان مقربًا منه، فهيأ له عند نزولهم إلى بلبيس أن يعمل في أخذ الوزارة من العادل بأن يبعث ابنه ناصر الدين نصر بن عباس إلى القاهرة ليتحدث إلى الخليفة الظافر في ذلك، فوافق لهذا غرض عباس، فبعث ابنه فكان من قتل العادل بن السلار، فكتب الظافر إلى العباس فحضر من بلبيس وتقلد الوزارة بعد العادل في 7 محرم 548هـ واستبد عباس بأمر الدولة إلى أن قَتل ابنه نصر الخليفة الظافر في شهر المحرم 549هـ، فأقام مكانه عيسى بن الظافر بلقب الفائز وهو لم يبلغ الخمس سنوات، انظر: المقريزي، المقفى الكبير، ج4 / ص 42: 45 ، اتعاظ الحنفا، ج3 / ص 204، 214 ، الخطط، ج2/ ص 430 (المترجم).

وَقْـع السـيوف، فما كان إلا صديقـه عَبّاس مع ألف مبارز، أتـوا إلى القصر بحجة الاستعلام عن الخليفة الغائب؛ ومن ثمّ قام بذبح إخوة الخليفة، بعد أن ادعـى ثقته بتورطهم في الجريمة الغامضة. عُـرِضَ الوريث الطفل على البـلاط المُنْتَحِب مُعتليًا كتـف الوزير؛ حيث صاح الجند بولائهم. لقد كان المشـهد مروِّعًـا لدرجـة أن أحد بوابـي القصر مات من الرعـب خلف بابه وهو ممسكٌ المفتاح في يده. قامت القاهرة ثائرة، فدار القتال في الشوارع، وألَقت سـيدات وأطفال الحرملك الأحجار من النوافذ على رجال الوزير، الذيـن سُـرعان ما انسـحبوا على الفور. هكذا لم يسـتطع عَبّـاس أن يصمد أمـام وابل السُـخط والانتقام، ففر إلى الشـام[1]. إلا أنه بوغِـتَ في الطريق وقُتِـلَ على يد الـفرنجة، ومن المحتمل أن هؤلاء الذين كانوا من الشَّـوْبَك أو من الكَرَك على البحر الميت، ذهبوا في إثره عن طريق أخت من أخوات الخليفة الذي تم اغتياله. وقد تم بيع سـبب هذه المأسـاة، نَصْر المتوحش، من قِبَل فِرْسان المَعْبد Templars للمُنتقمين مقابل ستين ألف دينار؛ حيث أُرسِـلَ إلى القاهرة في قفص حديدي؛ ومن ثمّ عُذِّبَ بواسطة نساء القصر، وطيـف بـه في شـوارع المدينـة دون أنـف أو أذن، ثم صُلِبَ حيًّـا عند باب زُوَيْلة، وتُرِكَ مُعلَّقًا هناك لعدة أشهر.

---

(1) لقد قدَّم أسامة شاهد العيان وصفًا نابضًا بالحياة، فربما كان بمثابة إياجو Iago المأساة (إياجو هو الشخصية الشريرة في مأساة شكسبير، والذي خدع عطيل حتى يقتل زوجته) (Derenbourg, Vie, 238-358).




شكل (38) صنجة زجاجية للظافر. شكل (39) دينار الظافر، مصر، 1149م.

لُقِّب الطفل الصغير المسكين، البالغ من العمر أربعة أعوام - الذي دخل خلافته وسط كل هذه الأهوال، موشكًا أن يموت من الرعب يوم ارتقائه العرش - بلقب الفَائِز[1] (549 - 555هـ / 1154- 1160م)[2]. قامت نساء القصر بقص شعورهن في صباح الفتنة الذي تلت اغتيال قريبه وأرسلنه - وهو أقوى علامات التوسل من قِبَل النساء المسلمات - إلى الأمير طَلائع ابن رُزِّيك[3]، حاكم الأُشْمونَيْن، يناشدنه أن يأتي لنجدتهن. لقد كان تقدمه مدعومًا بالقبائل العربية في الصحراء، وانضم إليه جنود أهل البيت السودان،

---

(1) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3 / ص 491: 494، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3 / ص 213: 239 (المترجم).

(2) سُكَّت عملات أبو القاسم عيسى الفائز بنصر الله في دور سك مدينة مصر والإسكندرية، أعوام 1154 - 1155م حتى 1160م.

(3) هو آخر وزراء الفاطميين الأقوياء، تولى الوزارة في 19 ربيع الأول 549هـ إلى أن قتل في 19 رمضان 556هـ انظر ترجمته في: عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر، (قسم مصر)، نشره: أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس، طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة 1951م ، ج1 / ص 173: 186، عمارة اليمني، النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، تحقيق: هرتويغ درنبرغ، طبعة شالوم 1897م، ص 1: 67، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2 / ص 526: 530، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3 / ص 215 (المترجم).

والعديد من الأمراء، وحشود العامة في القاهرة، وهو الذي أجبر عَبّاس على الفرار الفوري. دخل ابن رُزيك القاهرة مُلوِّحًا بغدائر شعر النساء على رمحه حيث استولى على دار المَأْمُون، وقصر عَبّاس الفخم، وأمامه القصر الخاص بابن البَطائِحي[1]. ذهب إلى حجرة القاتل نَصْر، ورفع سارية علم مُشيرًا إلى الأرض، وهناك عُثِرَ على جثة الظافِر الذي تم اغتياله؛ ومن ثمّ دفنها في ضريح الخلفاء وسط عويل شامل. بعد ذلك بدأ في استعادة النظام ومعاقبة المذنبين؛ حيث قام بإعدام القادة الوحشيين الذين سببوا اضطرابات عنيفة في القاهرة لسنوات عدة، مؤسسًا حكمه على القانون.

كان المَلِك الصَّالِح - كما لُقِّبَ - رجلًا قويًّا، وكانت مصر في ذلك الوقت في حاجة ماسة إلى رجال أقوياء. لقد ضاعت عَسْقَلان، قاعدتها الأمامية الأخيرة في فِلَسْطين، أثناء الانقسامات والفوضى التي أعقبت اغتيال ابن السَّلار، فقد ظلت لفترة طويلةٍ مصدرًا لاهتمام عظيم؛ حيث تم مهاجمتها كثيرًا من قِبَل ملوك بَيْت المَقْدس، وتم الدفاع عنها بإصرار من قِبَل الحامية الكبيرة التي تم تجديدها من مِصْر مرتين في العام. تركت العودة المتعجلة لأحد أولئك القادة - وهو القائد عَبّاس - المدينة دون حماية إلى حد ما لمدة ستة أشهر - حيث انتهز الصليبيون الفرصة - وذلك حتى يتمتع بثمرات اغتيال زوج أمه، ومع الاستيلاء على عَسْقَلان في صيف 548هـ/ 1153م، ضاع آخر معقل للفاطميين في فِلَسْطين. ويرجع سبب عدم امتداد الحكم الصليبي إلى مصر على الأغلب إلى القوة المتنامية

(1) تم تحويله بواسطة صلاح الدين عام 1177م إلى مكان حنفي المذهب «المدرسة السيوفية» ، (المقريزي ii. 6-365).

للدول التركية في الشرق. وكان مَلِك بَيْت المَقْدس مشغولًا للغاية، أولًا بالهجمات الضارية من قبل زَنْكي أتابك الموصل، الذي ضم حَلَب إلى سيادته على دجلة والفرات، وغزا الشام وهزم الصليبيين في مذبحة كبيرة في الأَثَارِب[1] عام 524هـ/ 1130م، وأخيرًا استولى على الرُّهَا، «فتح الفتوح»، عام 538هـ/ 1144م[2]. وبعد عامين لاحقين من موت زَنْكي، نجح ابنه نُور الدّين من خلال منصبه أن يكون بطل الإسلام في الشام، وعزز مركزه بشكل كبير من خلال ضم دِمَشْق عام 549هـ/ 1154م، والتي ظلت لمدة طويلة في حلف دفاعي مع الصليبيين. لقد أدى إخفاق الحملة الصليبية الثانية[3] بقيادة الإمبراطور كونراد Conrad ولويس السابع Louis VII

(1) كانت قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ، تحت جبلها قرية تسمى باسمها، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج1/ ص 89 (المترجم).

(2) انظر مختصر سيرة زنكي في: Lane-Poole, Life of Saladin, 53-61.

(3) انطلقت الحملة الصليبية الثانية من أوروبا عام 540هـ/ 1145م كرد فعل على سقوط مملكة الرها الصليبية، قاد الحملة لويس السابع Louis VII (1137 - 1180م) ملك فرنسا، وكونراد الثالث Conrad III (1138 – 1152م) إمبراطور ألمانيا، بمساعدة عدد من نبلاء أوروبا، وصلت الحملة إلى الأناضول حيث تم هزيمتها من قبل السلاجقة، وصلت بعدها شراذم الجيش بصحبة لويس وكونراد إلى القدس عام 543هـ/ 1148م، وكان من نتائج الحملة بداية ضعف الصليبيين مما أدى إلى انهزامهم بعد ذلك في موقعة حطين الفاصلة بقيادة صلاح الدين 583هـ/ 1187م، واسترداد بيت المقدس من قِبَل المسلمين؛ مما أدى إلى قيام الحملة الصليبية الثالثة، انظر: عليه عبد السميع الجنزوري، إمارة الرها الصليبية، القاهرة 2001م، وليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة 1994م، ج2 / ص 269 وما يليها، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق 1995م، ج7، ص 2972 وما يليها، ستيفن رينسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: نور الدين خليل، القاهرة 2000م، ج2 / ص419 (المترجم).

إلــى تثبيط همم الـفرنجة وخيبة أملهم، أما توطيد سـلطة قوية كتلك الخاصة بمملكة نور الدين في حَلَب ودِمَشْق الواقعتين مباشرة في الشمال والشرق، فقـد جعـل مملكة القُـدْس غير آمنـة بالمـرة. وإذا كانت مصـر قوية وعلى نفس العقيدة السُّـنية، لسـاق اتحادها مع دِمَشْـق، الصليبييـنَ بلا ريب نحو السـاحل، كما حدث بعد ذلك بقليل. أدرك الـوزراء المصريون تمامًا قيمة دعم نور الدين، فبدأ ابن السَّلار المفاوضات معه من خلال وساطة أُسَامة، الـذي كان معروفًا فـي البلاطين، إلا أن نقطة ضعف نور الدين كانت حذره المفرط، وقناعته بالسيادة الكبيرة التي حازها، دون المخاطرة بخطط أوسع. علاوة على ذلك، فبينما كان ملزَمًا كمسـلم تقي على خوض حرب مقدسـة ضد الكفار، أثار تقواه وازع ضد أي تحالف مع خليفة مصر المهرطق. وبينما ألجم الخوف الـفرنجة من غزو نور الدين لمصر[1]، فإن الخوف من الهرطقة أوقف سلطان دِمَشْق عن التعاون مع مصر ضد العدو المشترك.

لم تتحمل دمشق أو القدس وقوع مصر في يد أي منهما، لذلك صارت القاهرة مركز نشـاط دبلوماسـي. كان الوزير صَالح بـن رُزيك توَّاقًا لحلف مع نور الدين، كما عَبّر شـعراؤه في شِـعر عربي رائع موجه لصديقه أُسَامة، الذي كان في دمشق للمرة الثانية، وأسهب في انتصار الجيش المصري على الـفرنجة بقيادة ضِرْغـام[2] قرب غزة في صفر 553هـ/ مارس 1158م، لقد

(1) قام الأسطول الصقلي بإنزال في تنيس عام 1153م، ومرة أخرى في 1155م، لكن بعد نهب المدن الساحلية لم يقم بأية محاولة جدية لاحتلال البلاد.

(2) أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوَّار الملقب بفارس المسلمين اللخمي، كان واحدًا من أمراء (البرقية)، الذين أنشأهم طلائع بن رزيك في وزارته وترقى حتى صار صاحب الباب، ثار على شاور بعد تسعة أشهر من وزارته سنة 558هـ، وأخرجه من =

أشـاد ببسالة وأعداد القوات والسـفن المصرية، وحث نور الدين على بذل جهود مماثلة، واضعًا مخطَّطًا لحملة مجيدة مفادها انتصارات مشـتركة.[1] إلا أنه لم يحصل سوى على ردود مُراوِغَة، مُصاغة بمجازات شعرية مبهمة من قِبَل أسـامة؛ فمن الواضح أن نور الديـن ارتاب في العروض المصرية. لقد أرسل ابن رُزيك سفيرًا رسميًّا في أكتوبر إلى دِمَشْق حاملًا هدايا رائعة، وعارضًا سبعين ألف دينار من أجل الحرب المقدسة، لكن ذهب كل ذلك دون جدوى.

مع فشـله في سياسـته الخاصة بالمعركة الموحدة ضـد الصليبيين، كان ابـن رُزيك رغم ذلـك ناجحًا في الحفاظ على النظام في مِصْر نفسـها. فقد كان تميزه نابعًا من جدارته الشخصية، كما يقول ابن خَلِّكان: « كان فاضلًا، سـمحًا في العطاء، سـهلًا في اللقاء، محبًّا لأهل الفضائل، جيد الشعر»[2]. جُمِعَ شـعره في مجلدين، وكان له عادة سـيئة بقراءته على أصدقائه. شـيَّد - مثـل الوزراء الآخريـن - جامعًا، يمكن رؤية بقايـاه حتى الآن قرب باب زويلـة، رغم أن الكثير من زخرفته تنسـب لتجديد متأخـر[3]. رغم ذلك لم

= القاهرة؛ ومن ثمّ استقر ضرغام في وزارة الخليفة العاضد بعد شاور وتلقب بالملك المنصور، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2 / ص 440، المقريزي، الخطط، ج2/ ص 391: 393، اتعاظ الحنفا، ج3 / ص 26 (المترجم).

(1) انظر المراسلات الشعرية في السيرة الذاتية لأسامة: Derenbourg Vie d'Ousâma, 285-295.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2 / ص 526 (المترجم).

(3) لايزال مسجد الصالح طلائع ماثلًا خارج أسوار القاهرة، أمام باب زويلة، وقد ذكر ابن عبد الظاهر أنه لما خيف على مشهد الإمام الحسين من قِبَل الصالح طلائع =

يكـن منزهًا عن الطمع، فقد قام بجمع مقررات وفقًا لأعلى المزايدين على حيـازة أراض لمدة سـتة أشـهر؛ مما أدى إلى ضرر بالـغ بالفلاحين. وربما ظل طويلًا على قيد الحياة رغم استيائهم، إلا أنه خاض مخاطرة أكبر عندما فـرض نظامًـا صارمًا على أهل بيـت الخليفة. توفي الخليفـة الصغير الفَائِز في رجب 555هـ/ يوليو 1160م، عن عمر يناهز أحد عشـر عامًا، بعد ستة أعوام من أسـره الافتراضي ونوبات الصرع المستمرة. بلغ خلفه العَاضد[1] (555 – 567هـ/ 1160- 1171م)[2] – آخر الخلفاء الفاطميين – من العمر تسـعة أعوام، وتـم اختياره من بين العديـد من الورثة المحتملين ببسـاطة، بسـبب طفولته التي جعلته سهل الانقياد. لكن كان على الوزير أن يضع في اعتباره نسـاء القصـر اللاَّتي كرهن سـيطرته الصارمة؛ حيـث نجحت عمة

= إذ كان بعسقلان من هجمة الفرنج، عزم على نقله لذا بنى هذا الجامع ليدفنه فيه، فلما فرغ منه لم يمكنه الخليفة من ذلك وقال لا يكون إلا داخل القصور الزاهرة، وبنى المشهد الموجود الآن ودفن فيه. ورغم أنه قد فرغ من بنائه عام 555هـ/ 1160م إلا أنه لم يصبح مسجدًا جامعًا إلا في عهد أول سلاطين المماليك المعز أيبك التركماني في سنة بضع وخمسين وستمائة، ويعتبر أول الجوامع المعلقة بمصر، راجع: ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، بيروت 1996م، ص 74، 75، أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ج1/ ص110: 121 (المترجم).

(1) أبو محمد عبد الله العاضد لدين الله. سُكَّت عملاته القليلة في مدينة مصر (1161 و1164 - 1165م)، والقاهرة (1160، 1167 - 1171م)، والإسكندرية (1167 - 1171م).

(2) راجع فترة خلافته في: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3/ ص 243: 334 (المترجم).

للخليفة[1] في تدبير اغتيال الرجل العظيم. ومع لفظ ابن رُزيك لأنفاسه الأخيرة، توصل إلى الطفل أن ينزل بالمرأة المُذنِبَة العقاب، وبالفعل تم إعدامها أمام عينيه. أما آخر كلماته فكانت أسفه على أنه لم يعمل على غزو بَيْت المَقْدس واستئصال شأفة الفرنجة، وتحذيره لابنه كي يحترس من شَاوَر[2]، الحاكم العربي لصعيد مصر. وبالفعل كان الندم والتحذير لهما ما يبررهما، فقد عَزل شَاوَر، ابن الوزير - العادل رُزيك - وأعدمه في بداية سنة 558هـ/ 1163م، وخلال عام كان مَلِك بَيْت المَقْدس الصليبي في مصر.




شكل (40) صنجة زجاجية للعاضد. شكل (41) دينار العاضد، القاهرة، 1168م.

---

(1) هي السيدة العمة سِتّ القُصور، أخت الظافر الصغرى، راجع: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2 / ص 528، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3 / ص 246: 248 (المترجم).

(2) أبو شجاع بن مجير بن نزار بن عشائر بن شأس، كان قد تمكن من الصعيد قبل وفاة الصالح طلائع وانتقال الأمر لابنه العادل، وقد استطاع دخول القاهرة مع أنصاره في 22 من محرم عام 558هـ؛ حيث قتل العادل وأخذ موضعه من الوزارة، انظر: عمارة اليمني، النكت العصرية، ص 68 وما يليها، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2/ ص 439: 448، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3 / ص 260 وما بعدها (المترجم).

كان تدخـل عَمُوري Amalric[1] نتيجـة لتغيير جديد في الوزارة؛ حيث أُجبِرَ شَاوَر على مغادرة القاهرة من قبل ضِرْغام، صاحب الشعبية، وهو عربي لَخْمـي قاد القوات بنجاح ضد الصليبيين في غزة، وتولى منصب قائد فرقة البرقية و«صاحب الباب» وهو منصب يلي الوزير في المرتبة. هرب شُـاوَر إلى نُور الدين والتمس مسـاعدته. ولم يعرض عليه فحسب أن يدفع تكلفة الحملـة، لكنه وعد بثلث دخـل مصر في صورة جزية سـنوية[2]. كان ملك سوريا مباليًا بأهمية الاستيلاء على مصر؛ فكان يدرك أنها المفتاح الرئيسي للوضـع السياسـي وستشـكل مصدرًا وافـرًا للدخـل، لكنه تـردد في قبول عروض شَاوَر، بسبب انعدام الثقة في الرجل نفسه، فضلًا عن التخوف من المخاطـر التي قد تتعرض لها الحملة أثنـاء زحفها خلال الصحراء بجانب الصليبييـن، ولكـن تطورت الأحداث بسـرعة بالنسـبة لحذره. لقـد تنازع ضِرْغـام مع عَمُوري على الإعانة المالية السـنوية (التي دُفِعَت على ما يبدو مـن وزراء مصـر إلى الـفرنجة لتجنب الغزو الصليبـي)[3]، وغزا ملك بيت

---

(1) هو عموري الأول ملك مملكة بيت المقدس الصليبية (558 - 569هـ / 1163 - 1174م)، وخامس مَن تولاها من الملوك الصليبيين، كان الابن الثاني لفولك Fulk ملك بيت المقدس (525 - 537هـ/ 1131 - 1143م)، استلم العرش بعد وفاة أخيه الملك بالدوين الثالث Baldwin III (537 – 558هـ/ 1143 – 1163م)، شغل منصب كونت يافا قبل توليه الملك، عن فترة حكمه انظر: ستيفن رينسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2/ ص419 ، محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية، الإسكندرية 2000م، ص 109 (المترجم).

(2) الوصف التالي لغزو مصر من قِبَل جيوش نور الدين، مختصر قليلًا من: /
Lane-Poole, Life of Saladin, pp. 81-97

(3) يطلق عليه وليم الصوري Annuam Tribute Pensionem (Hist., xix. 5)، ويذكر آخرون المبلغ على أنه 33.000 دينار. لابد أن هذه الإتاوة أو الابتزاز قد بدأ دفعها =

المقـدس الجديـد مصر بناءً على قرار عاجل؛ حيـث تجنب ضِرْغام هزيمة شـاملة بطريقـة بارعة، بعد هزيمة قاسـية قـرب بِلْبَيْس، عـن طريق تحطيم السـدود والجسـور وإغراق البلاد بمياه النيل المتجمعـة، التي كانت آنذاك فـي أوج ارتفاعها. انسـحب عَمُوري بالفعل إلى فِلَسْـطين غير راض تمامًا بعد تسوية من نوع ما، وعندما سمع ضِرْغام عن مباحثات شَاوَر في دِمَشْق، أدرك خطأه في عدم اسـترضاء الملك اللاتيني، فعَجَّلَ بعرض تحالف دائم تعـززه زيـادة الجزية. لابد أن هـذه الخطوة كانت معروفة لـدى نور الدين، وسُـرعَان مـا طرح شـكوكه السـابقة للريح مُتحصِّنًـا باستشـارة مباركة من القـرآن، وقبل أن يسـتطع عَمُوري التدخل، كان شَـاوَر يزحـف إلى مِصْر، مُدعَّمًا بقوة ضخمة من الـتركمان من دِمَشْق يقودها شيركوه[1]، مع ابن أخيه صلاح الدين[2].

= مؤخرًا، لأن ابن رزيك، الذي مات في 1161م، بالتأكيد لم يكن ليدفع مثل هذه الإعانة المالية «للكفار». وعلى الأرجح بدأ شاور دفعها عام 1162م، مع العلم أنه لا يمكن إثبات هذه الحقيقة.

(1) أبو الحارث شيركوه بن شاذي الملقب بالملك المنصور أسد الدين، عم السلطان صلاح الدين، أرسله نور الدين إلى مصر أول مرة عام 558هـ على رأس العساكر النورية عندما استنجد به شاور، وصل شيركوه إلى منصب الوزارة في مصر في 27 ربيع الآخر عام 564هـ، وأقام بها شهرين وخمسة أيام ثم توفي فجأة في 23 جمادى الآخرة عام 564هـ؛ حيث تولى مكانه ابن أخيه صلاح الدين، راجع أخباره في: ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة 1964م، ص 75: 80، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2/ ص 479: 480، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1 / ص 137: 143، 148: 152، 155: 168 (المترجم).

(2) أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي، الملقب بالملك الناصر صلاح الدين، أصله من الأكراد الروادية، من بلدة دُوين من أعمال أذربيجان، إلا أنه ولد بقلعة تكريت =

هُزِمَ المصريون في بِلْبَيْس، لكنهم استجمعوا قواهم مرة أخرى قبالة أسوار القاهرة، وجرت معارك غير حاسمة لعدة أيام، حيث استحوذ شَاوَر على الفسطاط، والآخر على قلعة القاهرة. ومن أجل زيادة مدخراته استحوذ ضِرْغام على الوقف «مال الأيتام»، وعلى الفور بدأ الناس في التخلي عنه، والأسوأ من ذلك تخلَّى عنه الجيش والخليفة. هكذا نادى لتجميع الجنود لآخر مرة، وعبثًا قُرِعَت الطبول ودوَّت الأبواق من على الاستحكامات

= بالعراق عام 532هـ، تولى وزارة آخر الخلفاء الفاطميين العاضد بعد موت عمه شيركوه عام 564هـ، وفي عام 567هـ قضى على الدولة الفاطمية وأعاد الخطبة في مصر لبني العباس ومن ثمّ تملك الديار المصرية، ولما توفي نور الدين محمود عام 569هـ، بدأ صلاح الدين في العمل على ضم الشام، وبعد أن قويت شوكته بدأ في مواجهة الفرنجة حتى استطاع إسقاط مملكة بيت المقدس الصليبية بعد موقعة حطين الفاصلة عام 583هـ والتي كانت بمثابة بداية نهاية الوجود الصليبي في المشرق، توفي عام 589هـ بعد أن أسس دعائم دولة الأيوبيين القوية في مصر والشام والحجاز واليمن وأجزاء من العراق، راجع عنه: عماد الدين الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، القاهرة 2004م، ابن شداد، النوادر السلطانية، أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت 2002م، ج2 / ص 76 وما يليها، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7 / ص 139: 219، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1 / من ص 168، المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت 1997م، ج1 / ص 148: 227، راجع أيضًا: ستانلي لين بول، صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس، ترجمة: فاروق سعد أبو جابر، القاهرة 1995م، فايد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، القاهرة (د.ت)، قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، بيروت 1992م، أحمد الشامي، صلاح الدين والصليبيون، القاهرة 1991م، علي بيومي، قيام الدولة الأيوبية في مصر، القاهرة 1952م (المترجم).

تنادي: «ما شاء الله!»، ولم يستجب أحد. عبثًا وقف الأمير اليائس، مُحاطًا بحرسه المكون من خمسمائة فارس، وهو كل ما تبقى من جيشه القوي، متوسِّلًا أمام قصر الخليفة ليوم كامل، إلى ما بعد أذان المغرب، وناشده بذكرى أجداده أن يقف أمام النافذة ويبارك دعواه، ولم يجب أحد؛ وتفرَّقَ الحرس أنفسهم تدريجيًّا، حتى لم يبق سوى ثلاثين فارسًا فحسب. وفجأة سمع صيحة تحذير تقول: «انظر إلى نفسك وانقذ حياتك!» وعندها سُمِعَت أصوات أبواق وطبول شَاوَر وهي تدخل من بوابة الجسر. وفي النهاية انطلق القائد وحيدًا خارج بوابة زُوَيْلة، فقطع القوم المتقلبون رأسه، وحملوها في انتصار عبر الطرقات؛ وتركوا جسده لنهش الكلاب. تلك كانت النهاية المأساوية للرجل النبيل الشاعر البطل.

كان شَـاوَر - الذي أُعِيدَ إلى السـلطة - توَّاقًا ليرى الخلفاء الذين كانوا سببًا في إعادته لمكانته السابقة في إعراض عنه. لقد أبعد شيركوه بحذر عن مدينـة القاهرة المحصنة وأبقاه في الضواحي. ولاعتقاده أنه في أمان داخل أسـواره الحصينة، تحدى حليفه وقطع كل وعـوده ورفض دفع التعويض، إلا أن شـيركوه لم يكن ذلك الرجل الـذى يتخلى عن حقوقه أو يصفح عن نقـض العهود؛ هكذا أَرسـل صلاح الدين لاحتلال بِلْبَيْس وشـرقي البلاد. أجبـرت هـذه الحركة العدائية شـاور بدوره علـى اللجوء لعَمُـوري. وعند وصـول الصليبييـن حَصَّن الجيش السـوري نفسـه في بِلْبَيْـس؛ حيث قاوم هجمات عَمُوري لثلاثة أشهر. أخيرًا وقع تحولٌ لحسن الحظ أدى لنجدته. فقد كان نور الدين يشـن حملة ناجحة في فِلَسْطين، وبعد ارتداد على أيدي جلبرت دي لاسي Gilbert de Lacy وروبرت مانسل Robert Mansel ،

أحكـم قبضته على حَـارِم Harenc[1]، وحاصـر قَيْصَرية؛ لذلـك كان على عَمُـوري معـاودة أدراجـه لحماية مملكتـه التي كانت دومًـا عرضة للخطر الشـديد عند حدودها الشـرقية. ولم يكن شـيركوه أقل تلهُّفًا على تخليص نفسـه مـن هـذا الوضع؛ حيـث كان يتعـرض للهجـوم يوميًّا طـوال النهار، محبوسًـا وراء سـدود ترابية ضعيفة، ومع قرب نفاد الطعام، لم يكن وضعه آمنًـا ولا ملائمًا، فتم إبرام هُدنَة وفقًا لذلك ووصل الطرفان لشـروط. وفي السابع والعشـرين من أكتوبر، زحف السوريون خارج معسكرهم وتقدموا بين خطوط الحلفاء الصليبيين والمصريين، وكان شيركوه نفسه يقود قوات المؤخرة، حاملًا فأس حرب في يده.

انتهت الحملة على مصر دون انتصار، لكنها أحرزت هدفها باسـتطلاع الأرض. واسـتطاع شـيركوه تقديم تقريـر إيجابي عن إمكانيـة وفوائد ضم البـلاد. فقـد كانت مصر كما قـال: «مملكة بغير رجال، تمشـي الأمور فيها بمجـرد الإيهام والمحال»[2]. أغرت ثرواتها وعـدم الدفاع عنها بالعدوان. لقـد دفعت الرغبة القائد الطموح بـأن يكون نائب الملك في القاهرة، ومنذ ذلـك الوقـت فصاعدًا ألح مثابرًا على نور الدين بـأن يأذن له في فتح مصر.

---

(1) حارم مدينة سورية تقع في نطاق محافظة إدلب الحالية على الشريط الحدودي مع تركيا، وتبعد حوالي 67 كم غربي مدينة حلب، وحوالي 41كم عن مدينة أنطاكية، برزت أهمية المدينة أثناء الحروب الصليبية نتيجة لإستراتيجية موقعها، ذكرها ياقوت بأنها حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية من أعمال حلب، ياقوت، معجم البلدان، ج2/ ص205، راجع أيضًا: مهجة السيد عبد العال محمود، حارم ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي في بلاد الشام، رسالة دكتوراه – جامعة الإسكندرية، 1995م (المترجم).

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7 / ص 147 (المترجم).

وقد دعم إلحاحه الشخصيات الأكثر جرأة في البلاط، أما خليفة بغداد فقد منحه مباركته وتشجيعه للمشروع الذى ينطوي على خلع منافسه المهرطق. قاوم نور الدين - الحَذِر دائمًا - تلك المؤثرات لفترة من الوقت، لكنه استسلم أخيرًا، ربما بسبب الشائعات التي وصلته عن اتحاد قريب بين شاور والفرنجة، والتي سُرعان ما أثبتت صحتها.

لقد كان في الواقع سباقًا من أجل نهر النيل، بدأه شيركوه أولًا في عام 562هـ الموافق لعام 1167م، بصحبة ألفين من الفرسان المختارين، واتخذ طريق الصحراء قرب وادي الغزلان لتفادي الصدام مع الفرنجة، لكنه واجه في الطريق عاصفة رملية عنيفة ومدمرة، حتى وصل لنهر النيل عند أَطْفِيح[1]، التي تبعد تقريبًا أربعين ميلًا جنوبي القاهرة؛ حيث يمكنه المرور للضفة الغربية دون خوف من أي اعتراض. رغم ذلك استطاع بالكاد نقل جيشه، حين ظهر عَمُوري على الجانب الشرقي، بعد أن أسرع من فِلَسْطين حال سماعه بتحركات العدو. في غضون ذلك اغتنم عَمُوري فرصة ميول الوزير الودية لوضع تحالفهما في صورة أكثر رسمية. واقتناعًا منه بالشخصية غير المستقرة للوزير، عَزم على تصديق الخليفة بنفسه على المعاهدة. وكانت الشروط أن تدفع مصر للملك مائتي ألف قطعة ذهبية على الفور، فضلًا عن مبلغ مماثل في وقت لاحق، في مقابل معاونته على

---

(1) هي حاليًّا إحدى مراكز محافظة الجيزة، تقع على الضفة الشرقية للنيل، كانت تعرف في العصر المملوكي بالأعمال الأطفيحية، قال عنها ياقوت إنها بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ النيل في شرقيه، ياقوت، معجم البلدان، ج1/ ص 218 (المترجم).

طـرد العـدو. وبناء على هذا الاتفـاق صافح عَمُوري بيـده ممثلي الخليفة، وطالب بتصديق مماثل من الخليفة نفسه.

كان إدخال السـفراء النصارى إلى الحضرة المقدسة (الخليفة) - حيث نال هذه الحظوة فقط القليل من علاة المسـلمين قدرًا - أمرًا غير مسـبوق؛ لكـن عَمُـوري كان في وضع يتيح له إملاء شـروطه. هكذا مُنِحَ الإذن، وتم اختيار هيو Hugh القيسـري وجودفري فولتشـر Geoffrey Fulcher وهو من فرسـان المعبـد، للسـفارة المتميـزة. أطلعهمـا الوزير بنفسـه على كل تفاصيل المراسم المشرقية، وعرض لهما القصر الفاطمي الكبير، وقادهما عبـر دهاليز سـرية وأبواب عليها حـرس؛ حيث قام السـودان الأقوياء بأداء التحية بواسطة السـيوف. ومن ثمّ وصلا إلى فناء فسـيح مكشوف، مُحاطًا ببوائك مرتكزة على أعمدة رخامية؛ وأسقف محاطة بأطر منحوتة ومطعمة بالذهب والألوان، أما الأرض فكانت من الفسيفساء النفيسة. انفتحت أعين الفارسـين - التي لم تألف ذلك - على سـعتها دهشـة من الذوق والتحضر الذي لاقياه في كل خطوة؛ فقد رأوا نافورات رخامية، وطيور ذات أصوات كثيـرة وريش عجيب غريبة على العالم الغربي؛ وهناك في قاعة أخرى أكثر روعـة مـن الأولـى، حيوانات متنوعـة بقدر ما تحـب يد الفنـان البارعة أن تصـور، أو مـا قد يسـمح به إبداع شـاعر، أو ما قد يسـتحضره عقل نائم في رؤى الليـل، ومثل هذا فـي الواقع ما كانت تنتجه أقاليم الشـرق والجنوب ولا يـراه الغرب أبـدًا ونادرًا ما كان يسـمع عنه. وأخيرًا - بعـد اجتياز تلك الدهاليـز الملتويـة - وصلا إلى حجرة العرش؛ حيث نادت حشـود الخدم

بأزيائهم الفخمة معلنين عن إشراق سيدهم، وسجد الوزير على الأرض ثلاثًا، واضعًا سيفه في غمده، وكأنه يظهر خضوعًا لربه، ثم بسرعة خاطفة أزيحت الستائر السميكة المزينة بالذهب واللآلئ جانبًا كاشفة عن عرش ذهبي، جلس عليه الخليفة مُظهرًا ثوب الجلال الملكي.

قَدَّمَ الوزير الفارسين الأجنبيين بتواضع، وعَرض في كلمات قليلة الخطر المحدق من الخارج، والصداقة العظيمة لملك بيت المقدس. أجاب الخليفة الشاب داكن البشرة بدماثة بالغة ونبل قائلًا: إنه يرغب في تعزيز الارتباطات مع حليفه الحبيب بأفضل الطرق. لكن حين طُلب منه المصافحة باليد كعهد يثبت إخلاصه تردد في ذلك، في حين صُدم أعضاء الحاشية الحاضرون بالبلاط من وقاحة ذلك الغريب. رغم ذلك، مد الخليفة يده بعد برهة مغطاة بالقفاز كما هي لسير هيو. وعندها تحدث الفارس الفظ إليه مباشرة قائلًا: «سيدي، لا يُعقد عهد بناء على حسن نية الأمراء، فحين يُعقد العهد بإخلاص حقيقي يجب أن يكون كل شيء واضحًا بلا غطاء». وأخيرًا وعلى مضض، كما لو كان انتقاصًا من منزلته، نزع الخليفة قفازه مع ابتسامة متكلفة، ووضع يده في يد هيو، مقسِمًا بالكلمة تلو الكلمة على الوفاء بالعهد بأمانة وبكل إخلاص[1].

بعد التصديق على المعاهدة حاول عَمُوري أن يبني جسرًا من القوارب عبر نهر النيل؛ إلا أن وجود العدو على الجهة الأخرى أفسد خطته، فالتجأ

(1) وليم الصوري، Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum, lib. xix., cap. 19, 20. لم تسجل هذه السفارة من قِبَل المؤرخين العرب.

إلى خطة أخرى. سار مع انحدار النهر إلى حيث يتفرع إلى فرعين رئيسيين، ونقل جيشه للدلتا ليلًا، ثم عَبْر القوارب إلى الجانب الآخر. اكتشف شيركوه التحرك متأخرًا جدًّا لاعتراضه، وحين وجد العدو قد استقر على اليابسة تراجع إلى صَعيد مصر. أدركه الملك المُطَارِد له عند «البابان»، التي تبعد عشرة أميال جنوبي المنيا. وهناك كان يوجد سهل، على حدوده تتجاور الصحراء مع الأراضي الخصبة؛ لذا قامت التلال الرملية الكثيرة بحجب المقاتلين. قام قادة شيركوه أولًا بنصيحته بعدم المخاطرة بمعركة؛ في حين وقف أحدهم وقال بشجاعة إن أولئك الذين يخشون الموت أو الأسر لا يصلحون لخدمة الملوك، فدعهم يحرثون الأرض، أو يظلون في البيوت مع زوجاتهم. أشاد صلاح الدين والآخرون بقوله؛ ومن ثمّ أقدم شيركوه على خوض معركة في 26 جمادىٰ الآخرة 562هـ/ 18 أبريل 1167م، وهو الذي كان دائمًا مستعدًّا للصعاب. لقد وضع الأمتعة في الوسط، تحميها قوات صلاح الدين التي ستتحمل وطأة الضربة الأولى. كانت أوامر صلاح الدين تقضي بالتقهقر أثناء الضغط عليه؛ ومن ثمّ إرغام العدو على ملاحقته، ثم يضغط عليهم في المقابل حين يَسمح القتال بذلك. أخذ شيركوه نفسه زمام قيادة الجناح الأيمن، المؤلف من نخبة من الفرسان، والذي كان عليه أن يقطع مؤخرة العدو المؤلفة من المصريين الأقل معرفة بالحرب. وبالفعل وَقَع ما توقعه، فقد استدرج صلاح الدين الفرنجة بعيدًا، أما المصريون فقد تمت هزيمتهم وتفرقتهم؛ وحين وجد الصليبيون بعد عودتهم من المطاردة أن حلفاءهم قد هربوا، انسحبوا بسرعة مماثلة تاركين أمتعتهم فضلًا عن هيو القيسري ضمن

الأسرى[1]. رغم ذلك لم يكن المنتصرون يمتلكون القوة التي تمكنهم من متابعة النجاح في الزحف نحو القاهرة ومطاردة شَاوَر وعَمُوري. هكذا توجه شيركوه شمالًا عبر طريق الصحراء الأقل خطورة ودخل الإسْكَندرية دون مقاومة. وهناك تم تعيين صلاح الدين حاكمًا بصحبة نصف جيشه، بينما تحول جنوبًا مرة أخرى مع النصف الآخر لتحصيل الضرائب في مصر العليا.

هكذا حاصرت القوات المشتركة من الفرنجة والمصريين، الإسْكَندرية في ذلك الوقت، بينما أمَّنَ الأسطول الصليبي الساحل. كان الدفاع عن المدينة أول الأمر مستقلًا بيد صلاح الدين الذي تولاه جيدًا. كان لديه ألف جندي، ضمن سكان مختلطين مع كثير من الأجانب، الذين من فرط استيائهم لم يأسفوا على العمل ضد حكومة ضعيفة، أو الدفاع عن مدينتهم ضد الفرنجة الوحشيين المتعطشين للدماء، على الرغم من ذلك؛ ولكونهم تجارًا وحرفيين، لم يستطيعوا إخفاء رعبهم من آلات الحصار والمُحركات الجهنمية التي جلبها «الكفار» قبالة أسوارهم، علاوة على ذلك، كانت المؤن قليلة وحصة الطعام صغيرة. وفي النهاية قاموا

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 548؛ وفقًا لقادته كان ذلك منذ شهر سابق. والأعداد التي اشتبكت في القتال متفاوتة التقدير. يقدر المؤرخون العرب قوات شيركوه بألفي فارس فقط. على الجانب الآخر، يُقدِّر وليم الصوري (xix. 25) القوة الإسلامية بتسعة آلاف رجل يلبسون الدروع (Loricis Galeisque)، وثلاثة آلاف رامي سهام، وعلى الأقل عشرة آلاف عربي مُسلَّحِين بالرماح. أما اللاتين فكان لديهم - كما يقول - 374 فارسًا فحسب، وعدد غير مؤكد من المشاة خفيفة التسليح (Turcopoles)، وجماعة من المصريين كانوا عبئًا أكثر منهم عونًا.

باضطرابات وأعلنوا الرغبة في الاستسلام. في غضون ذلك أرسل صلاح الدين إلى عمه طالبًا المساعدة، فأسرع شيركوه من قُوص مُحمَّلًا بالكنوز. أنعشت الأخبار الجديدة الأمل في قلوب الناس، الذين حفزتهم مواعظ صلاح الدين الحماسية والوعود بإرسال تعزيزات، أو أوصلهم الرعب لشجاعة يائسة بسبب حكاياته عن الأعمال الوحشية الرهيبة التي أنزلها الفرنجة بالمهزومين. لقد تماسكوا لخمسة وسبعين يومًا، برغم الجوع والهجمات المتواصلة، حتى علموا أن شيركوه عند بِرْكَة الحَبَش، يفرض حصارًا على القاهرة. عند ذاك أقلع عَمُوري عن أفكاره بشأن الإسْكَندرية، وعقد سلام وافق فيه الطرفان على ترك مصر للمصريين، في حين استسلمت الإسْكَندرية لشَاوَر، وتمت مبادلة الأسرى؛ ومن ثمّ قاد شيركوه البقية المنهكة من جنوده - البالغ عددهم ألفين - عائدًا إلى دِمَشْق.

ادعى الصليبيون أن الحملة قد آلت إلى النصر، وأن جلاء الإسْكندرية كان استسلامًا؛ لكن إذا صح قول المؤرخين العرب في أن عَمُوري دفع لشيركوة خمسين ألف قطعة ذهبية حتى يرحل، فيبدو أن الكفة كانت تميل لصالح المسلمين. على الجانب الآخر، لم يقم الفرنجة فحسب بترك (مندوب) في القاهرة في انتهاك - على ما يبدو - لاتفاقهم، لكنهم أصروا أيضًا على تزويد بوابات المدينة بحرس من جنودهم؛ بل زادوا أيضًا الإعانة المالية السنوية التي يجب أن يدفعها شَاوَر إلى ملك بَيْت المَقْدس إلى مائة ألف قطعة ذهبية. ومع عدم الرضا عن هذه السيطرة، بدأ العديد من المتهورين من بين مستشاري عَمُوري في الإلحاح على غزو كامل لمصر، ودعمت الحامية التي تركوها في القاهرة والفُسْطاط هذا الرأي

بقوة؛ حيث كان لهم بشكل طبيعي الفضل في اكتشاف نقاط الضعف في وسائل الدفاع. هكذا زحف ملك بيت المقدس ثانية إلى مصر، لكنه دخل الآن دخول الأعداء بعد أن دُعِيَ كحليف في السابق. وصل بِلْبَيْس في أول صفر 564هـ/ 3 نوفمبر 1168م، وأضاف إلى خيانته جريمة مذبحة عامة، لم تستثنِ عمرًا ولا نوعًا في البلدة المنكوبة، كما يقول المؤرخ اللاتيني.

على الفور صَفَّ هذا العمل الوحشي المصريين إلى جانب نور الدين، وألهمهم جهودًا بطولية. لقد استغلوا التلكؤ الأحمق لدى الصليبيين لتنظيم قواتهم ودعم دفاعاتهم. أُضرِمت النيران بأوامر من شَاوَر في مدينة الفُسْطاط القديمة، والتي ظلت عاصمة لمصر لثلاثمائة عام ولا تزال ضاحية مأهولة بكثافة في القاهرة، حتى لا تصير ملتجأ للفرنجة. هكذا تم إشعال عشرين ألف برميل من النفط وعشرة آلاف شُعلَة، استمرت مشتعلة أربعة وخمسين يومًا، وحتى الآن يمكن العثور على آثارها في أكوام الرمال الممتدة لأميال من النفايات المدفونة في الجانب الجنوبي من القاهرة[1]. فَرّ الناس «كما لو كان من قبورهم نفسها»، وتخلى الأب عن أولاده، والأخ عن توأمه، واندفع الجميع إلى القاهرة فرارًا بحياتهم الغالية. تكلفت أجرة النقل على بعير لميل أو ميلين ثلاثين قطعة ذهبية. شهدت العاصمة نفسها اضطرابات استعدادًا للهجوم، لكن تم تأجيل ذلك عن طريق المفاوضات التي دَبَّر لها شَاوَر بدهاء؛ حيث استطاع رشوة مهاجميه الطامعين. لقد غلب التظاهر على دبلوماسيته أكثر من الإخلاص، لأنه قام بإرسال الرسل

(1) أعاد السكان شغل المدينة المحترقة إلى حد ما لقرن، أما هجرها الأخير وتدميرها فيعود لحكم بيبرس (القلقشندي، 58).

في نفس اللحظة إلى دِمَشْق مناشدًا المساعدة من نور الدين. وكتب خليفة مصر الصغير بنفسه، بل وأرفق بعض شعر زوجاته كعلامة على التضرع لا يستطيع أن يقاومها نبيل.

هذه المرة لم يتردد ملك سوريا، فقد كان مستاءً من النتائج الضعيفة للحملتين السابقتين، وساخطًا على الفرنجة لما اعتبره خرقًا أثيمًا للوفاء بالعهد. لذلك ربما كان سيذهب بنفسه إن لم يكن قد شُغل بالحالة المضطربة لبلاد العراق، رغم ذلك لم يضع وقتًا في إرسال قوة من ألفي فارس مختارين من حرسه الخاص، مع ستة آلاف من التركمان المشهود لهم بالبسالة تحت قيادة شيركوه، بدعم فريق كبير من الأمراء المتنافسين. راقب نور الدين بنفسه تنظيم الجيش عند رَأْس النَّبْع، التي تبعد مسيرة يوم عن دِمَشْق، ومنح كل رجل عشرين قطعة ذهبية كعطاء، بينما سلَّم شيركوه مائتي ألف دينار لخزانته العسكرية.

بدأت الحملة الثالثة مسيرتها إلى مصر في 15 ربيع الأول 564هـ/ 17 ديسمبر 1168م مرة أخرى، والتي كانت اسميًّا لنجدة شاور، أما في الواقع فكانت تحمل خططًا أكبر من ذلك بكثير. كان عَمُوري - دائم الطمع والجشع - لا يزال ينتظر أمام القاهرة للحصول على المزيد من الذهب الذي وَعد به الوزير، عندما اتصل شيركوه فجأة بالمصريين في 7 ربيع الثاني 564هـ/ 8 يناير 1169م، متجنبًا جيش الفرنجة الذي خرج ليعترض تقدمه. هكذا خدعه شَاوَر، وتفوق عليه شيركوه في المناورات ببراعة، فانسحب الملك المحبط إلى فِلَسْطين دون خوض معارك؛ حيث عاد - كما يقول المثل السائر - بلا شيء سوى «خُفي حنين». دخل السوريون

القاهـرة منتصريـن، فكانوا موضع ترحيب كمحررين؛ حيـث قابل الخليفةُ الممتن شـيركوه وقَلده خُلع التكريم، التي ذهـب على الفور لعرضها على الجيش. انطلق شَـاوَر الذي افترسته الغيرة واستشـعار الخطر سرًّا، خارجًا كل يوم للمعسـكر السـوري في أبهة عظيمة، مع كل راياته وطبوله وأبواقه؛ حيـث أكد للقائد على إخلاصه؛ لكنه في غضون ذلك لم يقم بأية خطوات لتنفيـذ تعهداتـه لنـور الدين، إلا أنه قـد عزم فـي الواقع على اعتقـال غادر لشـيركوه وضباطـه في مأدبة ودية. سـرعان ما قـرر القادة السـوريون عدم الوثـوق به؛ ومن ثمّ اعتـزم صلاح الدين وجُورديـك[1] على التخلص منه. فبينمـا انطلق الوزير راكبًا لزيارة القائد، الـذي كان في زيارة لضريح الإمام الشافعي، سحبه صلاح الدين ورجاله من على جواده ووضعوه في الأسر. وأيًّا كانت الشـكوك في نية شـيركوه فيمـا يتعلق بمصير شَـاوَر، فقد انتهت بالأمـر الحاسـم للخليفة نفسـه الـذي طالب بـرأس الوزير. هكـذا انتهت السـيرة الموجـزة والمتقلبة لوزيـر داهية جدير بالملاحظـة، وقائد عربي له نسـب قديم فيمـا يخص الجرأة البدوية وحب الأسـلاف للشـعر، حتى أنه ذات مـرة ملأ فم عِمَارة بالذهب لإعجابه بإحـدى القصائد، هذا فضلًا عن إضافة حصة كاملة إلى رصيده من خيانة العرب وخداعهم.

---

(1) هو الأمير عز الدين جورديك من أكابر الأمراء النورية، نال حظوة لدى صلاح الدين، وقد استنابه على القدس حين افتتحها، وكان يسند إليه المهمات الكبار فيسدها بنفسه وشجاعته، لما ولي الأفضل عزله عن القدس فترك بلاد الشام وانتقل إلى الموصل فمات بها سنة 594هـ، ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة 1998م، ج16 / ص 683 (المترجم).

سُـرعان ما عَيَّـن الخليفة العاضد - الـذي تأثر للغاية بشـهامة منقذيه - شـيركوه في المنصب الشـاغر، وألبسـه لبـاس الوزير، ومنحـه صلاحيات مطلقـة، وأعطـاه ألقاب الملـك الناصر والقائـد العام. كان النـاس في مثل سرور خليفتهم، لقد أحبوا ذلك الجندي المرح وهو يجول في طول البلاد منـذ عام ونصف عام خلت مع أنه كان جابيًا للضرائب، إلا أن أهل القاهرة قدروا السخاء الذي أنفق به من صندوقه العسكري الثقيل، وإنعاشهم بغنائم قصر شَـاوَر؛ حتى لـم يتركوا وسادة لخلفه المسرف يجلس عليها. لقد رأى الشـاعر العربي بوضوح أكثر حين أشـار إلى أن مخالب «الأسد» أُحكِمَت الآن على فريسـته. رغم ذلك، فإن «أسـد الدين» لم يعش بعد ذلك أكثر من شـهرين لينعـم بطريدتـه، فقد مات فجأة فـي 22 جمادى الآخـرة 564هـ/ 23 مـارس 1169م. وخَلَفَـه ابن أخيـه صلاح الدين الشـهير؛ حيث أُلغيت الخلافة الفاطمية بعد عامين لاحقين.

والجدير بالذكر أنه على الرغم من أن العديد من الخلفاء الفاطميين كانوا رجالًا ذوي ثقافة فكرية، ولديهم تقديرًا للمواهب الأدبية، إلا أن فترة حكمهم كانت فقيرة من الكُتّاب ذوي الجدارة الاستثنائية. لم يكن ذلك افتقارًا للرعاية، فقد كان وزراء مصر فضلًا عن بعض الخلفاء، في أغلب الأحيان أسخياء في عطاياهم للعلماء والشعراء ورجال الدين. لقد اعتاد الوزير ابن كِلِّس أن يعقد لقاءات ليلة الخميس حين يقوم بقراءة مؤلفاته في حضور الخطباء والنحويين ورجال الدين المجتمعين، وحيث يُلقِي الشعراء قصائدهم، التي عادة ما تكون في صورة مدائح لمُضِيفهم. لقد وظَّفَ هيئة دائمة لنسخ المخطوطات، وبسط كل يوم مائدة كبيرة للعلماء الذين

أُلحِقوا بأهل بيته وغيرهم من الضيوف. لقد كان التَميمي المَقْدسيّ طبيب الخليفة، عالمًا حقيقيًّا، أما أمين مكتبته الشابشتي قام بكتابة تاريخ للأديرة. وكان أبو الرَّقَعْمَق الأنطاكي (1008- 1009م)، الذي وصفه الثعلبي بقوله: «هو نادرة الزمان، وجملة الإحسان، وممن تصرف بالشعر في أنواع الجد والهزل، وأحرز قصب الخصل، وهو أحد المداح المجيدين، والشعراء المحسنين، وهو بالشام كابن حجاج بالعراق»[1]، من المدَّاحين الذين حضروا استقبال ابن كِلِّس، وكَتب قصائد الإطراء عليه وعلى الخلفاء، المُعِز والعَزيز والحاكِم. وقد عاش الكِنْدي[2]، المؤرخ والطبوغرافي المصري (350هـ/ 961م) في الفُسْطاط، تبعه ابن زُولاق[3] (387هـ/ 997م)، المصريّ الذي كتب أيضًا تاريخًا عن القضاة. لكن أكثر الرجال شهرة في أول العصر الفاطمي كان القاضي النُّعْمَان[4]، وأبناؤه وأحفاده، الذين تولوا أعلى المناصب الشرعية والدينية لأربعين عامًا، منذ فتح مصر

---

(1) راجع ترجمة: أبي حامد أحمد بن محمد الإنطاكي المنبوز بأبي الرقعمق، الشاعر المشهور في: ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج1 / ص 131 ، 132 (المترجم).

(2) أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي المصري، المؤرخ والفقيه وأحد أقطاب العلماء والمحدثين في عصره، صاحب كتاب الولاة والقضاة، انظر: مقدمة محقق كتاب الكندي الولاة والقضاة، المقريزي، المقفى الكبير، ج7/ ص 489، عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ص 21: 33 (المترجم).

(3) أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن زولاق الليثي المصري، درس الرواية التاريخية على أبي عمر الكندي، وكتب ذيلًا لكتابه القضاة استكمل فيه ما كتبه الكندي من عام 246هـ حتى عام 386هـ انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2 / ص 91 ، عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ص 34: 48 (المترجم).

(4) سبق ترجمته في الفصل الخامس (المترجم).

إلى منتصف حُكم الحاكم الذي منحهم امتيازات خاصة. لم يكن أولئك القضاة، كأغلب مَن في رتبتهم، مجرد قضاة بارعين وعالمين بالشريعة، بل كانوا أيضًا رجالًا على أعلى مستوى من التعليم في هذا العصر، وذوي معرفة بكل فروع الأدب العربي، فضلًا عن كونهم مؤرخين وشعراء. كان المُسَبِّحي[1] موظفًا مدنيًا آخر (رغم أنه كان يرتدي الزي الرسمي) يرجع لعهد الحاكم، مصري المولد، كتب تاريخ بلاده في ثلاثة عشر ألف ورقة، ومصنفات أخرى في الدين والشعر وعلم التنجيم، وطرائف الأدب والتاريخ، فضلًا عن المائدة، في نطاق خمسة وثلاثين ألف صفحة إضافية. لقد جذبت ثروة البلاط الفاطمي، فضلًا عن التشجيع الممنوح للعلوم الرفيعة، العديد من الأجانب إلى القاهرة. وكان القُضَاعِيّ[2]، المؤرخ

(1) هو الأمير المختار عز الملك محمد بن أبي القاسم عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل ابن عبد العزيز، المعروف بالمسبحي، من أهم مؤرخي العصر الفاطمي نظرًا لاتصاله بالبلاط منذ عهد الحاكم بأمر الله، توفي عام 420هـ/ 1029م، راجع ترجمته في: وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج4/ ص 377 : 380 ، المقريزي، المقفى الكبير، ج6/ ص 163، عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ص 49: 54 (المترجم).

(2) أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون بن إبراهيم بن محمد بن مسلم القضاعي، الفقيه الشافعي، له عدة تصانيف منها كتاب الشهاب وكتاب مناقب الإمام الشافعي، وتواريخ الخلفاء، وكتاب عيون المعراف وفنون أخبار الخلائف المسمى تاريخ القضاعي، مع كونه سني المذهب عمل كاتبًا للوزير الفاطمي الجرجرائي، وتولى القضاء على المذهب الشافعي زمن الخليفة المستنصر وظل في وظيفته حتى وفاته عام 454هـ، راجع ترجمته في: القضاعي، عيون المعارف، تحقيق: جميل عبد الله محمد المصري، مكة المكرمة 1995م، ص 15 : 44، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4 / ص 212، 213 ، المقريزي، المقفى الكبير، ج5 / ص 710، عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ص 55: 61 (المترجم).

والفقيه (454هـ/ 1062م)، وابن بَابَشاذ النحوي[1] (469هـ/ 1077م)، وأبو يَعْقُوب النَّجَيْرميّ[2] (520هـ/ 1126م) البَصْري الفقيه الشهير باللغة، ضمن أولئك الزائرين، أما المخطوطات العربية في فقه اللغة والشعر وأيام العرب، التي نُسِخَت بالقلم الدقيق لذلك الأخير في مقابل سعر معتدل، أو أمليت شفهيًا عن طريق إملائه الدقيق، فقد بقيت لفترة طويلة ضمن النصوص الرائجة في مصر. أما الشاعر ابن الخَلَّال (566هـ/ 1171م)، الذي وصفه معاصره عماد الدين (وزير صلاح الدين)، بأنه «هو ناظر مصر، وإنسان ناظرها، وجامع مفاخرها»، فكان في وقت الحافظ، يرأس ديوان المكاتبات؛ حيث تمت العناية بفن كتابة الرسائل. وعندما سئل أحد المرشحين عن المؤهلات التي امتلكها لفن المراسلة، كان رده: «ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة». قال ابن الخلال: «في هذا بلاغ»[3]، لقد كان كما لو أنه إنجليزي يستطيع أن يقرأ غيبًا كل من الكتاب المقدس و«الخزانة الذهبية» كاملين. وكان الوزير ابن السَّلار مسلمًا مخلصًا على المذهب الشافعي، وإضافة على ذلك كان

(1) أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ، إمام عصره في علم النحو، من أعماله: المقدمة المشهورة وشرحها، وشرح الجمل للزجاجي، وشرح كتاب الأصول لابن سراج، انظر ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2 / ص 515 : 517 (المترجم)

(2) أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن خُرّزاذ النَّجيرمي، اللغوي البصري نزيل مصر، أخذ النحو عن ابن بابشاذ، انظر ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7 / ص 75: 77، ياقوت، معجم الأدباء، ج4/ ص 1455: 1456 (المترجم).

(3) راجع: عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر، (قسم مصر)، ج1 / ص 235 : 237، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7 / ص 219: 225 (المترجم).

حاكمًا مستبدًّا. كان على رأس المدرسة التي أسسها في الإسْكَندرية لنشر تعاليم المدرسة الفكرية الدينية التي بدأها الإمام الشافعي، رجلًا رائعًا هو رجل الدين البارز، السِّلَفيّ الأَصْفَهَانِيّ[1] (576هـ/ 1180م)، وكان ضمن تلاميذه ابن الجَرَّاح (616هـ/ 1219م)، الشاعر والخطَّاط ومزخرف المراسلات. لقد وضع لغزًا يتطلب حله ثلاث ورقات رباعية كبيرة. وكان ضمن أصدقاء ابن السَّلار الآخرين، القاضي الرَّشيد بن الزُّبَير[2] (561هـ/ 1166م)، وهو شاعر وأديب بارع.

---

(1) الحافظ صدر الدين أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم السلفي الأصفهاني، فقيه ومحدث رحل من أصفهان لطلب الحديث، وصل الإسكندرية عام 511هـ؛ حيث عاصر بها العالم الشهير أبا بكر الطرطوشي (ت 520هـ/ 1126م)، أنشأ له الأمير العادل ابن السلار وزير الظافر مدرسة في الإسكندرية على المذهب الشافعي عام 544هـ، سميت بالمدرسة السلفية، كانت ثاني المدارس التي أنشئت بمصر، ظل يعمل فيها حتى وفاته عام 576هـ، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1/ ص 105، محمد محمود زيتون، الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان، الإسكندرية 1973م، ص 25 وما يليها، جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، القاهرة 2001م، ص 130: 159 (المترجم).

(2) القاضي الرشيد أبو الحسن أحمد ابن القاضي الرشيد أبي الحسن علي ابن القاضي الرشيد أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الأسواني، صنف كتاب (جنان الجنان ورياض الأذهان)، وله ديوان شعر، ذكره الحافظ أبو طاهر السلفي في بعض تعاليقه فقال: ولى النظر بثغر الإسكندرية في الدواوين السلطانية بغير اختياره سنة 559هـ، ثم قتل ظلمًا وعدوانًا في المحرم سنة 563هـ، وذكره أيضًا العماد في كتابه (السيل والذيل) الذي ذيل به على الخريدة، فقال إنه قُتل ظلمًا على يد شاور لميله إلى أسد الدين شيركوه، انظر: عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر (قسم مصر)، ج1/ ص 200، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1/ ص 160 (المترجم).

يرجع عدم وجود عدد أكبر من العلماء المشهورين خلال قرنين من الحكم الفاطمي في مصر إلى حد ما إلى انعدام الأمن في الحياة، فعلى سبيل المثال قُطِعَ رأس شاعر البلاط عَبْد الغَفَّار بلا رحمة بأمر من الحاكم، كما هو الحال مع بعض قضاة النُّعْمَان المشهورين، لكن يرجع ذلك بشكل أكبر بكثير إلى الشخصية المهرطقة للأسرة الحاكمة، فقد نأى المسلمون السنيون عن بلاط الخلفاء الذين أُنكِرَت مذاهبهم وادعاءاتهم تمامًا. رغم ذلك فإن قدرًا كبيرًا من النشاط الفكري عارضته صفوف الطلاب في القاهرة أثناء هذه الفترة، ورغم أنه لم تكن جامعة الأزهر قد بلغت بعد الشهرة التي اكتسبتها تحت الحكم السُّني للأسر الحاكمة المتعاقبة، فقد كان هناك بالفعل نواة لمدرسة دينية عظيمة. وقد بدأ عهد الجامعات المصرية بحكم صلاح الدين.

أما في الفن – كما ذُكِرَ آنفًا – فقد مالت الثروة الهائلة للفاطميين إلى تشجيع إنتاج وسائل الترف النفيسة ذات الجمال، وكان الخلفاء ووزراؤهم بناة بارزين. فلايزال جامعا الأزهر (رغم أنه قد تم تجديده فأصبح بعيدًا كل البعد عن التصميم الأصلي) والحاكم الكبيران يشهدان على حماستهم، وبقايا الجوامع الصغيرة مثل الأَقْمَر والصَالِح ابن رُزِّيك، التي تحمل تصميمات جريئة رائعة ونقوش كوفية صارمة اشتهر بها الفن الفاطمي. أما البوابات الضخمة للقاهرة، التي بناها معماريون رومانيون وتشابهت من حيث التخطيط والتفاصيل مع البوابات الثقيلة للحصون البيزنطية،

فهـي ضمن أكثر الآثار بقاءً للحكم الشّيعي في مِصْـر، ومن الجدير بالذكر أن النقـش الدينـي بالحـروف الكوفية الجميلة علـى بوابة النصـر بالصيغة المهرطقة[1]، والذي يرجع لحكم المسـتنصر، قد بقي لثمانية قرون في ظل العقيدة السنية السائدة.

* * *

(1) من تلك النصوص: (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، محمد رسول الله، علـيّ ولي الله، صلى الله عليهما وعلى الأئمة من ذريتهما أجمعين) راجع: فرج حسين فرج الحسيني، النقوش الكتابية الفاطمية على العمائر في مصر، مكتبة الإسكندرية 2007م، ص 199: 205 (المترجم).

الفصل السابع
صَلاحُ الدِّين
564-589هـ/ 1169- 1193م

شباب صلاح الدين – صلاح الدين وزير مصر – نهاية الفاطميين – سياسة صلاح الدين – اتساع القاهرة – غيرة نور الدين – السودان وبلاد العرب – الغزو النورماني – صلاح الدين في الشام – الانتصارات في الشام – قلعة القاهرة – المدرسة – القاضي الفاضل – الحرب مع بالدوين – فتح العراق – فتح القدس – صور وعكا – الحملة الصليبية الثالثة – سلام الرملة.

الفصل السابع
صَلاحُ الدّين
564-589هـ/ 1169- 1193م

المصادر[1]:

(1) تعد الفترة الأيوبية مع قصرها من أهم فترات التاريخ الإسلامي لارتباطها ارتباطًا وثيقًا بالجهاد ضد الوجود الصليبي على الأراضي الإسلامية؛ لذا اهتم بها المؤرخون العرب في مؤلفاتهم التاريخية فتعددت لذلك مصادر التاريخ الأيوبي التي وصلت إلينا من المؤرخين المعاصرين للأحداث في تلك الفترة، ومن هذه المؤلفات، كتاب الأصفهاني (ت 597هـ/ 1200م)، (الفتح القسي في الفتح القدسي)، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن مؤلفه عمل مشرفًا بديوان الإنشاء لدى نور الدين في دمشق، وصاحبه في كل تنقلاته حتى اعتبر مؤرخه الحربي، وقد تناول الكتاب حروب صلاح الدين مع الفرنجة وبخاصة استرداد بيت المقدس، ومن المصادر الأدبية الهامة كتابه خريدة القصر وجريدة أهل العصر، وهو مؤلف ضخم به تراجم لشعراء الشام ومصر في تلك الفترة. ومن أهم مَن عاصر بداية الدولة الأيوبية وفترة حكم صلاح الدين كان أبو الفرج بن الجوزي (ت 597هـ/ 1200م)، الذي كتب (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم)، أما سبط ابن الجوزي (ت 654هـ/ 1256م) فقد عاصر انتهاء الدولة الأيوبية وأرخ لذلك في كتابه (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان). وقد اهتم ابن الأثير (ت 630هـ/ 1232م) الذي عاصر معظم أحداث العصر الأيوبي بأحداث تلك الفترة في كتابه العام (الكامل في التاريخ)، إلا أنه خصص كتابًا أصغر سماه (التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية)، لتاريخ أتابكية الموصل خاصة بعد تفكك الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين وما يتصل بذلك من أحداث، ومن أهم الكتب الأخرى، كتاب بهاء الدين بن شداد (ت 632هـ/ 1234م) المقرب لدى صلاح =

بهاء الدين، ابن الأثير، عماد الدين[1]، أبو صالح، أبو شامة[2]، ابن خلكان، المقريزي، وليم الصوري، أرنول[3].

= الدين مما مكنه من إنجاز كتابه الهام (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) أو ما يسمى بسيرة صلاح الدين، تناول فيه كل ما يخص صلاح الدين وسيرته وأعماله وفتوحاته، وكتاب أبي شامة، (ت 665هـ/ 1267م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، وكتابه الذيل على الروضتين، الذي تناول فيه تراجم لأعلام القرنين السادس والسابع، أما كتاب ابن واصل (ت 697هـ/ 1297م)، الذي عاصر السلطان نجم الدين أيوب وكان شاهدًا على حملة لويس التاسع على مصر، كتب كتاب من أهم مصادر التاريخ الأيوبي هو (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب)، فتناول فيه تاريخهم حتى عهد السلطان بيبرس المملوكي، ومن أهم كتب التراجم كان كتاب ابن خلكان، (وفيات الأعيان)، أما عن أهم المصادر التي وصلتنا من العصر المملوكي، كان كتاب القلقشندي (صبح الأعشى) الذي احتوى على نصوص ووثائق هامة تتعلق بتلك الفترة، وكتاب المقريزي (السلوك)، الذي تناول فيه أحداث الدولتين الأيوبية والمملوكية، وكتاب العيني (ت 855هـ/ 1452م)، (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان) وكتاب أبي المحاسن (النجوم الزاهرة)، والسيوطي (حسن المحاضرة)، والجزء السادس من كتاب ابن أيبك الدّواداري، كنز الدرر، المسمى (الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب)، هذا بالطبع غير المصادر اللاتينية التي عاصرت الأحداث في الشرق وأهمها كتاب وليم الصوري (المترجم).

(1) عماد الدين الكاتب، أبو عبد الله محمد بن محمد الأصفهاني، (ت 597هـ/ 1200م)، الفتح القسي في الفتح القدسي (المترجم).

(2) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، (ت 665هـ/ 1267م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (المترجم).

(3) كتب وليم الصوري أحداث الحروب الصليبية حتى قبيل وفاته سنة 581هـ/ 1185م أثناء مقدمات معركة حطين، فقام بالتذييل على تاريخه مؤرخ لاتيني آخر غطى الأحداث منذ معركة حطين وما أعقبها من أحداث الحملة الصليبية الثالثة حتى عام 629هـ/ 1232م، هذا المؤرخ هو أرنول الذي كتب ذيول تاريخ وليم الصوري =

Itineraium Regis Ricardi; Lane - Poole's Life of Saladin (1898).

آثار: قلعة القاهرة، والسور الثالث للمدينة.

نقوش: مرسوم ري في دمشق عام 574هـ؛ لوح عليه نقش ترميم الجامع الكبير بدمشق عام 575هـ (اختفى الاثنان، لكنهما مسجلان بواسطة وادينجتون وفان بيرشيم)؛ قلعة القاهرة عام 579هـ (Casanova, Mém. Miss. Arch., vi. 569)؛ المسجد الأقصى بالقدس (de Vogüé, Temple de Jer., 101)؛ قبة الصخرة بالقدس 585هـ (de Vogüe, 91)؛ قبة يوسف بالقدس؛ كنيسة القديسة حنة St. Anne بالقدس 588هـ (de Vogüé, Églises de la Terre Sainte, 244, van Berchem, Inscr. Ar. De Syrie, Mém. de l' Inst. Egypt, 1897, Pl. v. fig. 10)، قبر صلاح الدين بدمشق (اختفى نقشه، لكنه سجل عن طريق ابن خلكان في: الجزء الرابع ص 547).

عملات : سُكت في القاهرة، ومدينة مصر، والإسكندرية، ودمشق، وحماة، وحلب.

صنج زجاجية : تحمل اسمي الخليفتين العباسيين المُستضيء والناصر، بدون اسم صلاح الدين وبدون تاريخ (Lane-Poole, Cat. Arab. Glass Weights in B.M., 36-8).

= الذي عرف بتاريخ هرقل ويسمى عادة بتاريخ أرنول أو برنارد الخازن، ويعتبر هذا الكتاب مصدرًا رئيسيًا للحملات والإمارات الصليبية في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر الميلادي (المترجم)

كان عهد صلاح الدين رغم قصره، الأكثر مجدًا في تاريخ سيطرة المسلمين على مصر؛ لكنه يدين بمجده هذا لأسباب خارجية. قَضَى صلاح الدين[1] من حكمه الذي امتد لأربعة وعشرين عامًا، ثمانية أعوام فحسب في القاهرة؛ وقضى الستة عشر عامًا الأخرى في حملات في سوريا والعراق وفلسطين. يمكننا وصف الحروب الخارجية هنا فقط بصورة مقتضبة؛ حيث ينبغي إعطاء الأولوية الرئيسية لما يتعلق بشئون مِصْر الخاصة[2]. وُلِدَ صلاح الدين في تَكْرِيت[3] عام 532هـ/ 1137-1138م، وهو ابن أيوب الموظف الكردي الذي عمل في خدمة خليفة بَغْداد وبعد ذلك أتابك زَنْكي في المَوْصِل. لم يكن شبابه مُميَّزًا على الإطلاق؛ وحين صار أبوه حاكمًا لدمشق، عاش صلاح الدين لعشرة أعوام في بلاط نور الدين دون إحداث أية تأثير. لم يشارك - على ما يبدو - في حملات عمه شيركوه السورية، وهو القائد الحربي الرئيسي لنور الدين؛ فقد آثر العزوف، وظل حتى بلغ الخامسة والعشرين شخصًا مغمورًا تمامًا. لقد صاحب الحملات إلى مصر عامي 559 و 562هـ/ 1164 و1167م،

(1) Saladin هو الشكل الأوروبي المخفف من Salāh-ed-din، كان اسمه الكامل ولقبه: الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب.

(2) يمكن تعويض هذا الاختصار الضروري بالرجوع إلى: حياة صلاح الدين Life of Saladin المنشور مؤخرًا للمؤلف، حيث تم اختصار الصفحات التالية جزئيًا منه.

(3) هي مدينة آشورية قديمة، تقع على نهر دجلة بالعراق على مسافة 160كم شمال غرب بغداد، ذكرها ياقوت على أنها بلدة مشهورة بين بغداد والموصل وهي إلى بغداد أقرب، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة، وهي غربي دجلة، افتتحها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب سنة 16هـ، ياقوت، معجم البلدان، ج2/ ص 38 ، الحميري، الروض المعطار، ص 133 (المترجم).

وبـرز فـي معركة البابان والدفاع عن الإسْـكَندرية؛ لكنه انضم على مضض للحملة الثالثة عام 563هـ/ 1168م، والتي كانت بمثابة نقطة الانطلاق نحو الإمبراطورية. كانت وراثته لمنصب وزير الخليفة الفاطمي عند موت عمه في جمـادى الآخـرة 564هـ/ مـارس 1169م، ترجع على نحو مـا لقرابته بلا شـك، ولكن في الأسـاس لاعتقاد البلاط المصري سهولة إدارة مَن هو في مثل سـنه من الشـباب، فضلًا عن بعـده كل البعد - علـى مايبدو - عن الطموح. لقد استاء رفاقه أنفسهم من التعيين، ورغم أن الأغلبية تم إقناعها بالدبلوماسـية والهدايـا، إلا إن عـددًا كبيرًا من المحاربين القدامى شـعروا بالغيرة وانسحبوا إلى سوريا.

كان وضع الوزير الشـاب شـاذًّا على نحو غريب، فقد كان كبير الوزراء لخليفة مهرطق (شـيعي) وقائدًا لملك سُنِّي. وفي تناقض كبير، كان الدعاء يتردد كل جمعة في المسـاجد للاسمين معًا. لقد انتمى السكان المسلمون لكِلتـا العقيدتيـن، لكن يمكـن افتراض أن قرنيـن من الحكـم الفاطمي قد أعطيـا بعـض الغلبة للمذهب الشـيعي. كان هدف صـلاح الدين الأول أن يظفر بولاء الناس، من أجل اكتساب القوة أمام الغيرة الواضحة لسيده ملك سوريا، وتمهيد الطريق لإنهاء الخلافة الشيعية وتأسيس نظام ملكي مستقل في مصر.

سُرعَان ما اكتسب كرم صلاح الدين وجاذبيته الشخصية ثقة المصريين، وعـزز موقفـه وضع أبيـه وإخوته - تلـك العائلـة القديرة الباسـلة - محل موظفـي البـلاط المشـبوهين. كُبِحَـت ثـورة لجنـد الخليفة السـودان بعد قتـال عنيف في الشـوارع، وتم إبعادهـم إلى الصعيد، هكـذا كمنت الثورة

لعدة أعوام. وبمجرد أن كُبِحَت ثورة السودان هُوجِمَت دِمْياط من قِبَل الأساطيل المتحدة للإمبراطور البيزنطي وملك بَيْت المَقْدس، والتي بلغت مائتين وعشرين سفينة شراعية. كان لدى صلاح الدين الوقت الكافي فقط لتقوية الحامية، وهو ما برهن على كونه كفئًا لصد حتى المنجنيق القوي وأبراج الحصار القابلة للحركة الخاصة بالعدو، بينما أرهقهم جيش القاهرة بالخارج. وجاءت المجاعة والعاصفة لنجدة المسلمين، فأَبرم الغزاة الجياع شبه الغارقين السلام وعادوا في انكسار إلى فِلَسْطين. كانت تلك هي نقطة التحول في الصراع الإفرنجي- المصري. ومن الآن فصاعدًا أُجبِرَ ملك بَيْت المَقْدس على أن يظل في موضع الدفاع بدلًا من أن يخرج للهجوم.

أعقب صلاح الدين نجاحه بغارة في فِلَسْطين حيث نهب مدينة غَزة، وفي نفس العام أخذ أَيْلَة، على رأس خليج العَقَبَة، مفتاح طريق البحر الأحمر لحجاج مكة. ولتنفيذ هذا العمل لجأ إلى حيلة استُخدمت مرارًا بعد ذلك من قِبَل خصومه؛ لقد بنى سفنًا من أجزاء في القاهرة، وحمل الأجزاء برًّا إلى البحر الأحمر حيث تم تركيبها. أحدثت تلك الانتصارات ضد «الكفار» قدرًا من الشعبية في مصر، شَعر معه صلاح الدين بالقوة الكافية لاتخاذ خطوة حاسمة. وكمسلم سُني، ساءه إقراره القسري بالخليفة المهرطق، وقَبِل بالموقف فقط لعدم تأكده من الدعم الشعبي. ولتوعية الرأي العام قام بتأسيس ثلاث مدارس سُنِّيَّة عام 565هـ/ 1170م؛ وبالإضافة إلى «الحرب المقدسة» التي شنَّها بنجاح في فِلَسْطين، دعا

للخليفة العباسي في الجوامع بدلًا من نظيره الفاطمي في يوم الجمعة الثامن من محرم 567هـ/ 10 سبتمبر 1171م. مرت هذه الثورة العقائدية بلا تذمر؛ حيث بدت الدهشة فحسب على جموع المصلين. ولحسن الحظ لم يعلم آخر الخلفاء الفاطميين بذلك أبدًا، فقد كان منعزلًا في قصره منذ وصول صلاح الدين، وعندما أُسقط اسمه كان في حالة احتضار، في حين حجبت عنه الأخبار رحمة به؛ فكان الأخير من أسرته الحاكمة الشهيرة، التي مُنِحَت فرص عظيمة أسيء استخدامها باستهتار، ومات بعد ثلاثة أيام لاحقة جاهلًا بسقوطه[1]. تم التحفظ على عائلته وأسرته في أسْر يشبه القفص الذهبي، وتم توزيع عبيده وخدمه البالغ عددهم ثمانية عشر ألف شخص. لم يُبق صلاح الدين لنفسه شيئًا من الكنوز التي عثر عليها في القصور. لقد أعطى بعضها لتابعيه، وقدَّم البعض الآخر لسيده نور الدين؛ وأعطى المكتبة المكونة من مائة وعشرين ألف مخطوط لقاضيه العالم،

(1) ترك الخليفة العاضد أحد عشر ابنًا، وأربع أخوات، وأربع زوجات، وأقارب آخرين بلغوا 152 شخصًا، أغلق عليهم قراقوش في مبان مختلفة من القصر، فاصلًا الجنسين، ومطلقًا لهم العنان لكل أنواع وسائل الترف باستثناء الذرية، ومع ذلك فقد أوجدوا الوسيلة لتربية أحفاد الخليفة، ولم تنقرض العائلة حتى عام 1260م. يحمل كأس سحري غريب من القاهرة، مؤرخًا بعام 571هـ (1175 - 1176م) اسم «الإمام المستعصم بالله أبو العباس الظاهر، القمر في برج السرطان»، وربما يشير هذا لأحد أبناء العاضد، الذي ربما تم دعمه من قِبَل الفريق المؤيد للفاطميين، الذين استمروا في التآمر لعدة أعوام آملين باستعادة الأسرة الحاكمة التي سقطت أو بالاستفادة من استعادتها الاسمية. انظر:

Casanova, Les Derniers Fatimides, in Mém, de la Miss. Arch., vi. 415-445.

القاضي الفَاضِل[1]، وتم بيع الباقي لصالح بيت المال. ولم يلائم نمط حياته البسيطة المتقشفة أن يقيم في القاعات الفخمة للخليفة الراحل؛ لذا ظل في «بيـت الوزير» وتنازل عن القصور لضبـاط الجيش. آلت قصور الفاطميين الفخمة إلى الزوال بعد انتهاء وظيفتها كمقر ملكي، ولم يُحافظ لها على أي أثر. بكاها عِمَارة[2] الشاعر قائلًا:

يـا عاذلـي فـي هـوى أبـنـاء فاطمة لـك الملامة إن قـصـرت في عذلي

بالله در ساحة الـقصرين وابك معي عليهمـا لا علـى صِفِّيـن والجَمَـل

---

(1) أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي بن القاضي السعيد أبي محمد الحسن بن الحسن اللخمي، العسقلاني المولد المصري الدار، المعروف بالقاضي الفاضل، كان قاضيًا ومستشارًا ووزيرًا للسلطان صلاح الدين، وبعد وفاته استمر على ما كان عليه عند ولده الملك العزيز عثمان، ثم في عهد ولده المنصور كذلك، ولم يزل حتى تولى الملك العادل؛ حيث توفي ليلة دخوله القاهرة في 17 ربيع الآخر عام 596هـ ذكره السبكي في طبقات الشافعية، انظر: عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر (قسم مصر)، ج1/ ص 35، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3/ ص 158 (المترجم).

(2) أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي اليمني، المعروف بعمارة اليمني، الشاعر والفقيه المشهور، وفد إلى مصر زمن الفائز، واتصل بالبلاط الفاطمي ومدح الخلفاء والوزراء بشعره مع كونه سني المذهب، وهو صاحب كتاب (أخبار اليمن)، وكتاب (النكت العصرية)، أمر السلطان صلاح الدين بصلبه في القاهرة سنة 569هـ في جملة جماعة نسب إليهم تدبير المكائد ومكاتبة الفرنج واستدعاؤهم، انظر: عمارة اليمني، النكت العصرية، عماد الدين الكاتب، خريدة القصر (قسم الشام)، ج3 / ص 101: 141، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3 / ص 431: 436، ابن واصل مفرج الكروب، ج1/ ص 251: 257 (المترجم).



شكل (42) صنجة زجاجية للخليفة المستضيء، أصدرها صلاح الدين، 1171م.

منذ ارتقاء صلاح الدين للسلطة، شهد حكمه ثلاث فترات بارزة، يمكن أن يطلق عليها على التوالي الفترة المصرية والفترة السورية والفترة الفلسطينية فيما يتعلق بمسرح الأحداث الرئيسي، أو الدفاعية والتعزيزية والهجومية فيما يتصل بسياسته.

لقد نذر نفسه منذ اليوم الذي صار فيه حاكمًا لمصر للحرب المقدسة، حرب القضاء على الفرنجة. ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا وُجِّهت سياسته بأكملها إلى تلك الغاية العظيمة. أثناء الفترة الأولى أو الفترة المصرية (564 – 569هـ/ 1169 – 1174م) اتخذ موقفًا دفاعيًا، ليس فحسب ضد الصليبيين، بل أيضًا ضد أصدقائه من الفاطميين، وحتى ضد حليفه وسيده ملك سوريا. كانت سياسة هذه الفترة تسعى لمقاومة الهجمات الداخلية والخارجية، وتجنب الصدام مع نور الدين، فضلًا عن تدعيم مركزه في القاهرة بكل الوسائل المتاحة، السياسية والعسكرية. وعمل صلاح الدين في الفترة الثانية أو الفترة السورية (569 – 582هـ/ 1174– 1186م)، ابتداء بوفاة نور الدين القائد المسلم الحاكم للشرق الأدنى، على توسيع دائرة نفوذه في سوريا وبلاد العراق، وتوحيد كل ما هو متاح من قوى الإسلام للصراع النهائي ضد «الكفار». أما الفترة الثالثة أو الفلسطينية (582 – 589هـ/ 1186– 1193م) فكانت مكرسة برمتها للحرب المقدسة ضد الصليبيين، حيث انتهت بالسلام في الرَّمْلَة، وأعقبها بعد أشهر قليلة وفاة

بطـل الإسـلام. لقد ظـل بثبات على هـدف واحد خلال الفتـرات الثلاث، ووُجِّـهَ بشـكل تام أي حملـة أو عمل سياسـي لتلك الغاية الرئيسـية، وهي تكويـن إمبراطورية إسـلامية موحـدة قوية بمـا يكفي لدفـع الـفرنجة نحو السـاحل، إن لم يكن إلى جوف البحر. مهما كان الطموح الشـخصي الذي اختلط دون وعي بهذا، فقد عنت نهضة صلاح الدين في المقام الأول - إن لم يكن بشكل كلي - بانتصار الإسلام على «الكفار».

بدأت الفترة الأولى أو المصرية بشكل جيد، فلم يجرؤ الصليبيون على إعـادة الهجوم بـرًّا، ومُنِيَ الغزو عن طريق البحر بالإخفاق التام. وقد انتهى تمـرد فرق السـودان بالقاهـرة - أعظم الأخطـار الداخليـة - بطردهم إلى صَعيـد مصر، وأُبطِلَت الخلافـة الفاطمية دون أية بادرة لاعتراض شـعبي. كانت الخطوة التالية هي تحصين نفسـه سـواء من الثورة الداخلية أوالغزو الخارجي، فقد اكتفى الفاطميون بقصر مُحَصَّن على السهل، وأدرك صلاح الديـن بعين الجندي ضعـف هذا الموقع، فاختار موقعًـا أفضل لغايته. لقد سعَت كل أسرة حاكمة متعاقبة في مصر حتى ذلك الوقت بتوسيع العاصمة عن طريق مدها في صورة ضواحي أو قصور ضخمة تجاه الشمال الشرقي. وبدلًا من مواصلة هذه الخطة، سعى صلاح الدين لتوحيد مواقع العواصم الأربـع وبنـاء قلعة، هي «قَلْعـة الجَبَل»[1] الشـهيرة، في أقصـى غرب جبل

---

(1) انظر عن قلعة الجبل، على سبيل المثال: المقريزي، الخطط، ج3 / ص 34، بول كزانوفا، تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ترجمة: أحمد السيد دراج، القاهرة 1974م، كريزويل، وصف قلعة الجبل، ترجمة: جمال محمد محرز، القاهرة 1974م، عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، القاهرة 1960م، أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها (العصر الأيوبي)، ج2 / ص 22: 29 (المترجم).

المُقَطم، لتصبح مركزًا للحكم وفي نفس الوقت تشكل معقلًا عسكريًا قادرًا على الإشراف على كامل المدينة ومقاومة أي هجمات من الخارج. وكانت خطته تقتضي ربط هذه القلعة بواسطة سور مُحصَّن مع التحصينات القديمة «للمدينة الفاطمية»، وأن يمده بحيث يطوِّق موقع الفُسْطاط والقَطائع، وهكذا يندفع بشكل دائري إلى النهر؛ لكن الخطة لم تكتمل، وحتى القلعة لم تنته حتى بعد وفاته بزمن طويل. صاحب توسعة صلاح الدين للمدينة هَدْم ضواح بأكملها بين المدينة القديمة وضريح السيدة نفيسة؛ حيث تم استبدالها بحدائق خلوية، فأصبح من الممكن رؤية بوابة زُوَيْلة العالية من لدن مدخل جامع ابن طُولُون. لقد وجدت جيهان ثيناود Jehan Thenaud، التي رافقت سفارة لويس الثاني عشر Louis XII إلى القاهرة في فترة لاحقة، أن تلك الحدائق ما زالت من السمات البارزة للمدينة: «الكثير من الحدائق الكبيرة والفخمة مليئة ببساتين من جميع أنواع الفاكهة، كأشجار الليمون الأضاليا والبنزهير واليقطين والبرتقال والمشمش والعنب والتفاح، أو تفاح آدم لأنه يقال إنها الفاكهة التي عصى آدم بسببها أمر الله، كانت تلك الحدائق تُروى صباحًا ومساءً بمياه النيل التي ترفعها الثيران والخيول»[1]. ويمكن حتى الآن مشاهدة آثار تلك الحدائق الخلوية من شُرفات القلعة.

ساد الاعتقاد بأن صلاح الدين قد صمم قلعة القاهرة لحماية نفسه من أي عصيان مسلح لأنصار الأسرة الحاكمة الأخيرة. ومع ذلك نرى

(1) Le Voyage et Itinaire de Oultre Mer Faict far Frère Jehan Thenaud, Cited in Schefer's Nassiri Khosrau, 133.

التفسير الوافي لذلك في تاريخه المبكر؛ حيث نجد بكل مدينة سورية قلعة أو حصن خاص بها، وقد أثبتت التجربة مرارًا أنه ربما يتم الاستيلاء على المدينة في حين تظل القلعة منيعة، ملجًا للناس ووسيلة للاسترداد. وربما يكون في حاجة لها قريبًا كحصن دفاعي ضد سيده وحليفه نور الدين نفسه. لقد استرضى صلاح الدين ملك سوريا بالهدايا من كنوز قصر الفاطميين؛ وردد الدعاء له كل جمعة في الجوامع بصفته السيد صاحب الأمر، وقبل كل شيء في جامع الحاكم الكبير، الذي حل مؤقتًا محل الأزهر كجامع رئيسي للمدينة[1]؛ وظهر اسمه على العملات التي سكها صلاح الدين في القاهرة. لكن برغم ذلك الخضوع الاسمي وغياب كل رموز السيادة الشخصية، فقد كان صلاح الدين فعليًا سيد نفسه؛ وحين دعمه جيش قوي يقوده إخوته وأبناء أخيه، أصبح في الواقع ملكًا لمصر. وقد أدرك نور الدين ذلك جيدًا، لكن لم تَترك له الصعاب التي لاقاها مع الفرنجة وسلطان الروم السلجوقي، فضلًا عن العديد من الحكام المعادين له في العراق، مجالًا لقص أجنحة تابعه في مصر. بل لم يمكنه حتى الاعتماد على تعاونه في الحرب المقدسة؛ لأن صلاح الدين كان مقتنعًا أنه إذا أُتيحَت لسيده فرصة واحدة للإمساك به ستكون نهاية سلطته؛ فلا شيء يمكن أن يقنعه بالمجازفة حتى يصبح في متناول نور الدين. ليس هذا فحسب، بل يبدو

---

(1) كان الأزهر منذ تأسيسه مركزًا لنشر الدعوة والفكر الشيعي في العالم الإسلامي، وبعد أن استطاع صلاح الدين إسقاط الخلافة الفاطمية والدعاء للخليفة العباسي السني قام بإغلاقه، وذلك حتى يعمل على إعادة نشر المذهب السني والدعوة له مرة أخرى عن طريق المدارس التي بدأ في إنشائها، وخلال هذه الفترة أصبح جامع الحاكم بأمر الله هو الجامع الرئيسي للمدينة. (المترجم).

أن خوفـه قد حملـه بعيدًا حتى أنه فضَّل وجود الـفرنجة على حدوده كعقبة لتقدم نور الدين[1].



شكل (43) دينار نور الدين، أصدره صلاح الدين، 1173م

يمثل هذا الخوف إلى حد ما هجماته المتقطعة والفاترة على الشَّوْبَك والكَرك، قرب البحـر الميـت، عامـي 566 و568هـ/ 1171 و 1173م، ويمكن التخمين مع احتمال كبيـر أن هدف قيامـه بحملات نحو الجنوب عام 569هـ/ 1173- 1174م كانَ من أجل توفير مكانٍ للانسحاب في حالة تنفيذ نور الدين تهديده بغزو مصر. وقـد فتح قسـم من جيش صـلاح الديـن بالفعل السـاحل الإفريقي مـن بَرْقَة إلى قَابِس Gabes[2] عام 568هـ/ 1172- 1173م؛ لكن لم تقدم هذه المسـاحة الضيقة من السـاحل موقعًا إستراتيجيًا للدفاع. وقد انطلقت حملة إلى السـودان بسبب ضرورة معاقبة السودان المنسحبين مع استمرار تمردهم، لكن كان الهدف الآخر المحتمل فحص موارد تلك البلاد كملاذ

(1) لين بول، صلاح الدين، 118 - 120.

(2) هي مدينة تونسية ذات موقع إستراتيجي هام على البحر المتوسط، تبعد حوالى 405كم عن تونس العاصمة، ذكرها ياقوت على أنها مدينة بين طرابلس وصفاقس ثم المهدية على ساحل البحر، وكان فتحها مع فتح القيروان سنة 27هـ، وقال عنها البكرى إنها مدينة جليلة مسوّرة بالصخر الجليل من بنيان الأُول ذات حصن حصين، وساحل مدينة قابس مرفأ للسفن من كل مكان، وحولها قبائل من البربر، ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 289 (المترجم).

يمكن اللجوء إليه. وقد استولى أخو صلاح الدين الأكبر تُورانشاه[1]، على مدينة إبْرِيم (بريمس Primis الرومانية) قرب كُروسكو Korosko[2] بعد مطاردة السودان داخل النوبة، وسلب كنيسة النصارى اليعاقبة، وتَعْذيب الأسقف، وأرضى نفسه كمسلم بذبح سبعمائة من الخنازير التي تكاثرت هناك[3]. لكن كان تقريره عن الطقس ومحاصيل السودان محبطًا، فأرسله صلاح الدين إلى الجزيرة العربية للبحث عن بلد أفضل. هكذا أخضع تورانشاه اليمن بأكملها، بمدنها صَنْعَاء وعَدَن وزَبِيْد وجُنَيْد، ومن ثمّ أسس حكمه في تَعْز، واستمرت من بعدها اليمن تُحكم بأفراد من أسرة صلاح الدين لخمسة وخمسين عامًا.

كان غياب القائد النبيل مع جيش كبير في اليمن فرصة لأنصار الفاطميين الذين مازالوا يأملون في طرد «المملوك» الشاب - كما أطلقوا على صلاح الدين - من مقره، وإعادة تأسيس النظام القديم، الواعد بمنافع أفضل لأولئك المتعلقين بالبلاط الفاطمي. نُسِبَت المؤامرة عامة للشاعر العربي عِمَارة، لكن مهما كان المُحرِّض الأصلي فقد لاقى دعمًا واسعًا. انضم ضباط مصريون وسودانيون للمؤامرة يحرِّضهم حتى بعض تركمان

(1) هو تورانشاه بن أيوب بن شادي، أخو السلطان صلاح الدين لأبيه، سيره صلاح الدين إلى اليمن فأخضعها عام 569هـ وصلاح الدين على حصار حلب، وصل بعدها إلى دمشق عام 571هـ فاستخلفه صلاح الدين فيها فأقام بها حتى انتقل إلى مصر عام 574هـ، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1/ ص 99 (المترجم).

(2) مدينتان من أعمال النوبة (المترجم).

(3) أبو صالح، F 96.

صلاح الدين الذين شعروا بالغيرة، وقد تم استقطاب مَلِكَا صِقِلِّية وبَيْت المُقْدس للتعاون عن طريق وعود بالذهب والأراضي، فضلًا عن دعوة زعيم الحَشَّاشِين لإرسال بعض قتلته السريين؛ وأُعِدَّت التجهيزات لهجوم موحد بالبحر والبر حتى يقع صلاح الدين في الشَرَك. لكن لحسن الحظ أدركت الضحية المقصودة ما يجري سرًّا، فتم اعتقال المتآمرين الرئيسيين، بما في ذلك الشاعر السياسي، وتم صلبهم جميعًا ونفي الأقل مرتبة منهم إلى صَعيد مِصْر[1].

لم يقع الهجوم الذي كان مقررًا عن طريق البحر، لدعم مؤامرة القاهرة، حتى أواخر الصيف. ولم يتحرك الفرنجة من فِلَسْطين حين سمعوا بفشل المؤامرة، إلّا أن مَلِك صِقِلِّية[2] - الأقل اطلاعًا - أرسل أسطولًا ضخمًا مكونًا من 282 سفينة، وصل الإسْكَندرية في الثامن والعشرين من يوليو. وعلى الرغم من مفاجأة الحامية الصغيرة إلا أنها حاوت مقاومة الرسو، الذي

---

(1) علم صلاح الدين بتفاصيل المؤامرة قبل وقوعها عن طريق الفقيه زين الدين علي ابن نجا، الذي أطلعه المتآمرون على سرهم للاشتراك معهم، إلا أنه سارع بإبلاغ صلاح الدين الذي ما لبث أن قبض على المتآمرين وصلب زعماءهم، راجع عن تفاصيل هذه المؤامرة: ابن الأثير، الكامل، حوادث عام 569هـ ج10/ ص 53، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 80، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1 / ص 248، المقريزي، السلوك، ج1/ ص 162 (المترجم).

(2) هو وليم الثاني William II ملك صقلية (560- 585هـ / 1166 – 1189م)، عرف باسم وليم الطيب، استلم العرش بعد والده وليم الأول وهو لم يتجاوز من العمر أحد عشر عامًا فوضع تحت وصاية والدته، حتى استبد بعد ذلك بتدبير المملكة، انظر: المقريزي، السلوك، ج1/ ص 164 (المترجم).

حدث رغم ذلك قرب جزيرة فاروس[1]، وسُرعان ما عبثت المنجنيقات والمقالع التي أحضرها النورمان Normans بستائر أسوار المدينة، وأُجبِرَ المدافعون على أن يقاتلوا بيأس طوال اليوم الأول حتى هبوط الليل لمقاومة المجموعات المقتحمة. دَفع الصليبيون في اليوم التالي آلاتهم قرب الأسوار، إلا أن التعزيزات أتت للحامية من القرى المجاورة، وتم صد الهجوم مرة أخرى. وفي اليوم الثالث حدثت غارة قوية من قِبَل الحامية المحاصَرة أحرقت الآلات، فكانت خسارة العدو كبيرة وعادت الحامية منتصرة. وبمجرد دخولهم البوابات، وصلت رسالة من صلاح الدين، بعد أن أرسلوا طالبين مساعدته. لقد انطلق حامل البريد من القاهرة في نفس ذلك اليوم مع تبديل الجياد، وعند وصوله إلى الإسْكَندرية بين الثالثة والرابعة بعد الظهر، أُعلن مدويًّا اقتراب جيش صلاح الدين. هكذا أنعشت تلك الأخبار المدافعين، فهرعوا للخروج مرة أخرى في الظلمة الحالكة وانقضوا على معسكر النورمان، دافعين بعضهم إلى السفن والبعض الآخر إلى البحر. خَتمت أخبار زحف صلاح الدين الإخفاق التام للنورمان، الذين سحبوا مراسيهم وفروا بنفس السرعة والمفاجأة التي وصلوا بها. تلاشت أعجوبة الأيام الثلاثة من الأفق، وتنفست الإسْكَندرية الصعداء[2].

---

(1) كانت جزيرة تقع في مواجهة ساحل مدينة الإسكندرية، ربطها الإسكندر الأكبر باليابسة عن طريق جسر قسَّم شاطئ الإسكندرية إلى قسمين، بنى عليها بعد ذلك في العصر البطلمي فنار الإسكندرية الشهير، وبعد سقوطه في العصر المملوكي بنى مكانه قلعة قايتباي التي لاتزال قائمة حتى الآن، راجع: عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها (المترجم).

(2) لين بول، صلاح الدين، 127- 128.

قُمِعت المؤامرة في القاهرة في شـهر أبريل؛ وتـم صد غزو النورمان في يوليو، وفي نفس الشـهر مات عَمُوري ملك بَيْت المَقْدس، وخلفه بالْدوين الطفـل المَجْـذُوم؛ لكن في غضـون ذلك أُزِيلَ العائـق الأكبر لتقدم صلاح الدين بوفاة نور الدين – سـلطان سـوريا النبيل – في مايو. لقد صار صلاح الديـن مع هـذا الحدث عظيم الأثـر مُلزَمًا على الفور بقيادة المسـلمين في الشـرق الأدنى. كان منافسـاه المحتملان في سـوريا هم: ابـن نور الدين[1] وهو مجرد طفل؛ وابن شقيق نور الدين وهو سَيْف الدين صاحب المَوْصِل ورأس عائلة زَنْكي[2]؛ والسـلطان السَّلْجُوقي للروم أو آسيا الصغرى، ولم يكـن لدى أيٍّ من هؤلاء قوة أو قدرة عسـكرية مكافئـة. كان ينبغي لمقاومة الصليبيين بنجاح أن يكون هناك ملك واحد ودولة إسـلامية موحدة، لذلك كان عليه إخضاع تلك الإمارات المتعددة حتى تشكل صفًّا واحدًا في إطار نهضة عامة. هكذا بدأت الفترة الثانية السورية أو التعزيزية من حكمه.

---

(1) هو الملك الصالح إسماعيل بن محمود بن زنكي، وريث نور الدين في حلب ودمشق، بويع له في دمشق بعد وفاة أبيه نور الدين عام 569هـ وهو لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وصار مدبر دولته، توفي عام 577هـ وعهد بملكه لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج10/ ص 58 ، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2/ ص 1 وما بعدها (المترجم).

(2) هو أتابك الموصل سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي، تقلد حكم الموصل بعد وفاة أبيه مودود، أقام في المملكة عشر سنين وشهورًا، وتوفي عام 576هـ، وتولى بعده أخوه عز الدين مسعود، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج10/ ص59، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4/ ص 4، ابن واصل، مفرج الركوب، ج1/ ص 116 (المترجم).

تعامـل صلاح الديـن مع كل منها علـى حدة. كانت سـوريا بالطبع هي هدفـه الأول، فقـد كان ملكهـا الطفل في أيـدي عصابة، بينمـا كان الأمراء الماكرون يعقدون شـروطًا مـع الفرنجة. إلا أن النداء الذي أتاه من دِمَشْـق قدَّم التبرير اللازم للخطوة الأولى؛ حيث انطلق صلاح الدين عبر الصحراء إلى العاصمة السورية مع سبعمائة من خيرة الفرسان واستحوذ عليها باسم الملـك الطفل. وبعد عبوره خلال حِمْص وحَمَاة، وصل إلى حَلَب؛ حيث كان وريـث نور الدين، أو بالأحرى وزيره - الذي أغلق البوابة في وجهه - حذرًا منه، لعدم تصديق تأكيدات صلاح الدين على ولائه لابن سيده القديم، وجـرت محاولـة لاغتيالـه عن طريـق مبعوثين من قِبَـل «شَـيْخ الجَبَل»[1]، بينما قـام الفرنجة تحت قيادة الكونت رِيمُونـد Count Raymond[2] أمير طَرابُلس، بتحويل الموقف لصالح حليفهم المسلم، وبناءً عليه رفع صلاح الدين الحصار عن حَلَب. لقد كان عليه أن يقنع في ذلك الوقت بامتلاك كل ما يقع جنوبي حَلَب من سـوريا. ولـم يكن مسموحًا له حتى أن يحتفظ بهذا دون تدخـل. لقد بعث أتابك المَوْصِل جيشًـا من العراق لينضم لجيش ابن

(1) هو راشد الدين سنان بن سلمان، الملقب بشيخ الجبل، مقدم الباطنية بالشام، تلك الفرقة التي كانت تعرف بالحشيشية أو الحشاشين بسبب تعاطيهم الحشيش، انظر: ابن الأثير، الكامل، أحداث عام 571هـ ج10/ ص 76 ، عنان، تراجم إسلامية، ص 55: 60 (المترجم).

(2) هو ريموند الثالث كونت طرابلس Raymond III, Count of Toulouse (547-583هـ/ 1152- 1187م)، تولى حكم إمارة طرابلس بعد موت أبيه ريموند الثاني عام 1152م، انظر ترجمته في: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ج7/ ص 378 وما يليها (المترجم).

عمه الآتي من حَلَب، وزحفت القوات المشتركة على حَمَاة. حاول صلاح الديـن فـي وجه هذا الهجوم الهائل أن يصل إلـى اتفاق، لكن مع رفض كل المبـادرات أحـرز انتصارًا رائعًـا عند قُرُون حَمَـاة[1]، ثم لاحـق العدو إلى بوابات حَلَب[2]. وقد أَحرز انتصارًا آخر في العام التالي، عند آبار التُّرْكُمَان، على سَيْف الدِّين نفسـه، انتهى بهزيمة عامة للعراق، وبمعاهدة تحالف مع ملـك حَلَـب الصغير، تم الإقرار فيها بسـلطة صلاح الديـن على كل البلاد التي فتحها، من مِصْر إلى الفُرات تقريبًا.

---

(1) انظرعن معركة قرون حماة: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 94 وما يليها، ابن الأثير، الكامل، ج10/ ص 69، أبي شامة، كتاب الروضتين، ج2/ ص 226: 229، المقريزي، السلوك، ج1/ ص 168 (المترجم).

(2) تؤرخ سيادة صلاح الدين المستقلة من الناحية الفعلية منذ هذا الانتصار؛ حيث بدأ سك عملات تحمل اسمه منفردًا بعد هذا التاريخ، أما عندما كان وزيرًا لمصر فقد وضع على العملات أسماء الخليفة الفاطمي العاضد (565، 566، هـ 1169-1171م)، ونور الدين (567، 569هـ 1171 - 1174م) على التوالي، ولم يضع اسمه أبدًا. وحين احتل دمشق، وضع اسم الصالح ابن نور الدين، على العملات النحاسية، مضيفًا اسمه أيضًا. ظهرت عام 570هـ (1174 - 1175م، لكن بلا ريب في العام الأخير) لأول مرة وضعت ألقاب «الملك الناصر يوسف بن أيوب» على عملات القاهرة والإسكندرية الذهبية. مُنِحَ لقب الملك الناصر له بواسطة الخليفة الفاطمي عند تنصيبه وزيرًا. هناك سلسلة كاملة تقريبًا من دنانير القاهرة من عام 570 حتى عام 589هـ (1175 - 1193م)، وسلسلة أخرى أقل تواصلًا للإسكندرية من عام 570 حتى 585هـ. كانت عملات دمشق وحلب الخاصة به من الفضة والنحاس، وقد استخدم أيضًا دار سك حماة.



شكل (44) دينار صلاح الدين، القاهرة، 1179م

مرت فترة فاصلة من ستة أعوام (573 - 578هـ/ 1177-1182م) قبل أن يعقبها خطوته الأولى بضم بلاد العراق. ساد السلام بين صلاح الدين وبيت زَنْكي، وكان هناك أيضًا هدنة اسمية مع الصليبيين، فاوض عليها همفري أمير تورون Humphrey of Toron[1]، التي وصلت صداقته حد منح صلاح الدين رتبة الفروسية[2]. شغل أغلب وقته في تنظيم سلطته الواسعة وتحصين القاهرة. لقد بدأ في بناء أسوار حجرية جديدة، فضلًا عن بناء القلعة، على الرغم من أنها لم تنته حتى حُكْم ابن أخيه الكامل بعد ثلاثين عامًا لاحقة. يمكننا التعرف على البناء الأول للقلعة حتى الآن من خلال امتداد كبير للأسوار، على الرغم من تجديدها وإعادة تخطيطها مرات عديدة بواسطة سلاطين المماليك ومُحمد

---

(1) هو همفري الرابع لورد تورون Humphrey IV of Toron (561 -593هـ/ 1166-1197م)، ومدينة تورون هي الآن قرية تبنين اللبنانية التي تبعد حوالي 110كم جنوبي العاصمة بيروت، كانت تتمتع بأهمية تاريخية في الحروب الصليبية نظرًا لكونها ملتقى القوافل التجارية من دمشق إلى الساحل، ذكرها ياقوت أنها بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانياس بين دمشق وصور، وقد ذكر أرنول في تاريخه أن همفري الرابع كان كافلًا للمملكة ومرتبطًا بروابط قوية مع صلاح الدين مما أضر بالمصالح الصليبية، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج2/ ص 14، سهيل ذكار، الموسوعة الشاملة، ج7/ ص 388 (المترجم).

(2) Itin. Reg. Ric., i. 3; cp. V. II, and William of Tyre, xvii. 17, and l'Ordène de Chevalerie.

عليّ باشا؛ مما يجعل من الصعب التعرف على غالبية البناء الأصلي[1]، مع ذلـك فـلا يزال ممكنًا قراءة نقش المؤســس علـى «بوابة الـدَّرَج» القديمة، وهـو مدخـل مظلم فـي الناحيـة الغربية للقلعـة الأصلية. إنه يسـجل كيف «أمر بإنشــاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروســة القاهـرة بالعرمة التي جمعت نفعا وتحسينا وسعة على مَن التجئ إلى ظل ملكه وتحصينا مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده الملك العادل سـيف الدين أبو بكر محمـد خليل أمير المومنين على يد أميـن مملكته ومعين دولته قَراقُوش[2]

---

(1) مع ذلك، انظر الوصف التاريخي المفصل لـكازانوفا M. P. Casanova، في: Mém. De la Miss. Arch. Vi و M. Van Berchem's Notes d'Archéologie Arabe, Journ. Asiat. 1891، حيث يُلاحظ أن قلعة صلاح الدين والقلعة الأصلية الأولى تنتمي للنوع الفرنسي من الدفاعات التي جاء بها الصليبيون، في تناقض مع النوع البيزنطي الأبكر الذي تم استعماله بواسطة بدر الجمالي في السور الثاني والبوابات الثلاثة التي مازالت قائمة.

(2) أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، الملقب بهاء الدين، كان خادم صلاح الدين وقيل خادم أسد الدين شيركوه عمه، لما استقل صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية، وفوض أمورها إليه واعتمد في تدبير أحوالها عليه، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما وبنى قلعة الجبل، استمر في خدمة الملك العزيز وبعد وفاته أصبح قراقوش وصيًّا على ابنه الملك المنصور محمد، وقد ساد عنه في الأوساط الشعبية الكثير من الخرافات والافتراءات حتى غدا مضربًا للأمثال في العسف والجور بالعبارة الشهيرة (حكم قراقوش)، إلا إن ذلك لم يصح عنه كما أوضح السيوطي، توفي عام 597هـ، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4/ ص 91، 92، السيوطي، الفاشوش في أحكام وحكايات قراقوش، طبعة بولاق سنة 1311هـ عنان، تراجم إسلامية، ص 80: 84 (المترجم).

ابن عبد الله الملكي الناصري في سنة تسع وسبعين وخمسمائة». (1183- 1184م).



شكل (45) قلعة القاهرة، (رُسمت الصورة عام 1798م)



شكل (46) نقش صلاح الدين على بوابة الدرج بقلعة القاهرة، 1183م

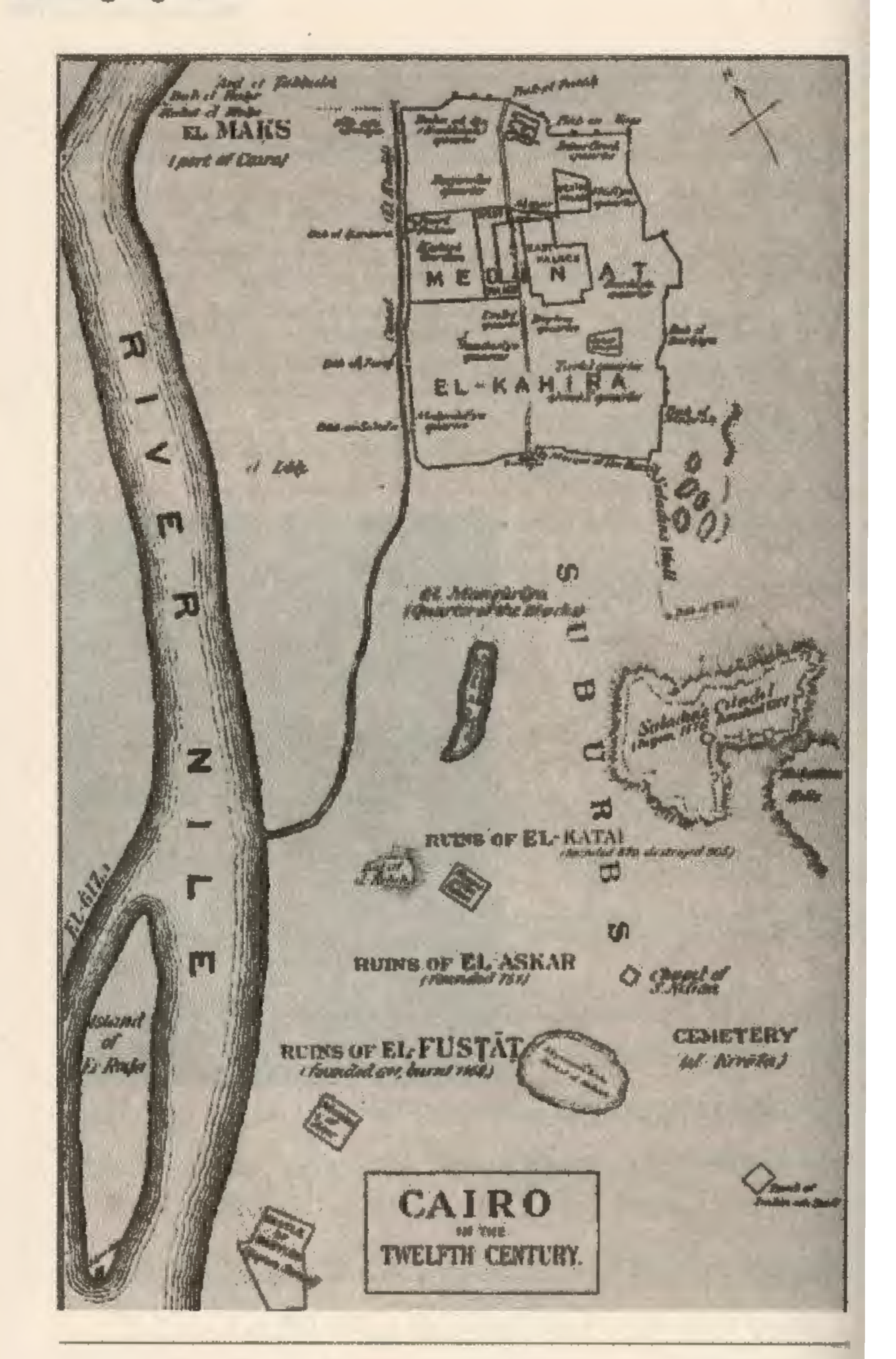
حَفر الخَصي قَراقُوش «بئر السَّبع سِقَايَات»[1] التي يبلغ عمقها مائتين وثمانين قدمًا، في صخرة صلبة بأمر من صلاح الدين؛ لكن المباني الأخرى (غير موجودة حاليًا) المرتبطة باسمه تنتمي لأزمنة متأخرة. كان شعب مصر فخورًا بتسمية الأعمال العامة باسم سلطانهم العظيم بعد رحيله، وبالتالي احتُفِظَ بذكراه في قناة للماء بالقاهرة (وهو عمل مملوكي)، وكذلك في القناة الرئيسية للصَعيد، التي مازالت تعرف باسم «بَحْر يُوسُف»، رغم أنها ترجع إلى عصر الفراعنة. كانت المنشأة العامة الرئيسية لصلاح الدين خارج القاهرة هي قناطر الجِيزَة، التي بنيت (1183– 1184م) كالقلعة بأحجار من الأهرامات الصغيرة، تقوم على أربعين عقدًا على طول حد الصحراء، كتحصين ضد أي غزو محتمل من الغرب[2].

لكن ربما لم يكن لأي من ابتكاراته تلك تأثيرًا أكثر بقاءً من المدرسة أو المسجد الجامعي. لم يكن هناك حتى ذلك الوقت مدارس دينية في القاهرة، فيما خلا المدارس الأساسية العادية، فقد تم تقديم الدروس الوحيدة تقريبًا التي يمكن حضورها في جامع عَمْرو القديم. وكانت «دَارُ العِلْم» الفاطمية استثناءً، لكنها كانت مكرَّسة بشكل عام لتلقين مبادئ عدة مراحل من التصوف الشِّيعي ومناقشة الفلسفة التأملية. كان الجامع أو المسجد الذين يُقدم فيه تدريسًا منتظمًا – بشكل مجاني عادة للحاضرين – ابتكارًا فارسيًا، أُدخل إلى سوريا بواسطة نور الدين، ثم أدخله إلى مِصْر صلاح الدين، الذي كان حريصًا على نقل النموذج الشافعي

(1) راجع: المقريزي، الخطط، ج 3/ ص 43 (المترجم).

(2) المقريزي، الخطط، 2– 204، 151؛ ابن جبير، 49.

للعقيدة الصحيحة إلى المصريين المُضلَّلين. لقد أسس المدارس لهذا الغرض في الإسْكَندرية والقاهرة، أقدمها بناء كان بالقرب من مقام الإمام الشَّافعي نفسه في القرافة الجنوبية، وأخرى في الناصرية (أو الشريفية) والقمحية قرب جامع عَمْرو في الفُسْطاط، والمدرسة السِّيوفية، التي أقيمت في القصر القديم للمأمون في القاهرة. لم يحافظ على أي من تلك المباني، لكن فيما بعد زمن صلاح الدين، نجد المدرسة المألوفة الصليبية الشكل أو المسجد الجامعي بأواوينه الأربعة العميقة؛ حيث دَرَّسَ أئمة المذاهب الأربعة (حنفية، شافعية، مالكية، وحنبلية) لطالبي العلم في حلقاتهم.


EL MAKS
(part of Cairo)
RIVER NILE
MEDINAT
EL-KAHIRA
SUBURBS
RUINS OF EL-KATAI
RUINS OF EL-ASKAR
RUINS OF EL-FUSTAT
CEMETERY
CAIRO
IN THE
TWELFTH CENTURY.

تلقـى صـلاح الديـن مسـاعدة عظيمـة فـي إدارة مملكته من قِبَـل عالم وخـادم مخلص هـو القاضي الفاضـل. كان عربيًّا من عَسْـقَلان، يعمل في خدمـة الخليفة الفاطمي منذ زمن الوزير العـادل، وصار عند ارتقاء صلاح الدين للسلطة مستشاره أو وزيره، وقد مارس نفوذًا كبيرًا في ذلك المنصب الرفيـع طوال عهد صـلاح الدين وابنه وحفيده، حتـى وفاته في يناير كانون الثانـي عام 596هــ/ 1200م. لقد كان شـهيرًا بأسـلوبه البديـع وبالنهايات الأنيقة لرسـائله. وثَقَ به صلاح الدين ثقة تامة، فقد كان سُـنيًّا ورعًا كسيده، وفوق ذلك أسس مدرسة دينية بالقاهرة. كان النصارى - الذين تم التساهل معهم في ظل الحكم الوضيع للفاطميين - معرَّضين إن لم يكن للاضطهاد، فبالتأكيد للمصادرات في ظل الحكم المستنير لصلاح الدين.

رغـم ذلك لم تُقضَ فترة السـتة أعوام الفاصلة كلها في أعمال السـلام. كان هناك العديد من المناوشـات مع الـفرنجة الذين تناسوا هدنتهم وقاموا بغزو الأراضي المحيطة بدمشـق. رَدَّ صلاح الدين على ذلك بغزو إقليمهم المميز وهو الأرض المقدسـة. تمت مفاجأته في تـل جَزَر Tell G'ezer[1] قرب الرَّمْلَة، وهُزِمَ هزيمة ثقيلة بواسـطة الملك بالْدوين[2] يدعمه في ذلك

---

(1) ذكره ياقوت (تل جزر)، و في التوراة (جيزر)، يقع على بعد حوالي 8كم إلى الجنوب الشرقي من مدينة الرملة، راجع: ياقوت، معجم البلدان، ج2/ ص 41 ، وعن معركة تل الجزر انظر: رينسمان، الحملات الصليبية، ج2/ ص 474 (المترجم).

(2) هو الملك بالدوين الرابع ملك بيت المقدس Baldwin IV of Jerusalem (570 - 579 هـ/ 1174 - 1183م)، أو بالدوين المجزوم، ابن الملك عموري الأول، تولى حكم المملكة وهو لم يتجاوز بعد الثالثة عشرة من العمر، انظر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ج7/ ص 372 وما بعدها (المترجم).

375 فارسًا، واضطر للانطلاق فرارًا بحياته. لقد كانت أول هزيمة خطيرة وفي الواقع الوحيدة له. رغم ذلك، وخلال ثلاثة أشهر، كان قادرًا على خوض المعركة مرة أخرى في حِمْص بجيش جديد، وظفر عام 575هـ/ 1179م بانتصار رائع على ملك بَيْت المَقْدس في مَرْج عُيُون[1]، وأَسَرَ سبعين فارسًا، بما في ذلك كبار فرسان المعبد والاسبتارية Hospital، وريموند أمير طَرابُلس Raymond of Tripolis، وباليان Balian، وبالدوين أمير إيلين Baldwin of Ibelin وهيو أمير طَبَرِيّة Hugh of Tiberias.



شكل (47) بوابة الدرج بقلعة القاهرة، 1183م

أعقب الانتصار دمار القلعة التي شيدها الملك عند مخاضة يعقوب كتهديد للمسلمين الفاتحين. في أثناء ذلك غزا الأسطول المصري من سبعين مركبًا ساحل فِلَسْطين وجلب في عودته ألفًا من الأسرى الصليبيين، الذين تم الاستفادة منهم باستعمالهم في بناء قلعة القاهرة. قُضِيَ الشتاء في تجهيز أسطول كبير، وحين بدأ صلاح الدين الحملة في الربيع بهجوم

---

(1) هي إحدى القرى اللبنانية الحالية، التي تقع بمحافظة النبطية بمحاذاة الحدود الجنوبية الشرقية للبنان، ياقوت، معجم البلدان، ج5/ ص 101 (المترجم).

متزامن عَبْر البر والبحر، اقترح الملك بالْدوين الهدنة بحصافة، وسرعان ما عُقِدت لمدة عامين وصَدَّقت عليها الأطراف الرسمية. مع التحول شمالًا نحو قِليقية Cilicia[1]، دخل صلاح الدين المفاوضات مع السلطان السَّلْجُوقي لقونية، وملك أرمينية الصغرى، وأمراء المَوْصِل والجزيرة وأَرْبِيل وكيفا وماردين، الذين وضعوا أختامهم على ميثاق جليل يلزمون به أنفسهم، مقسمين على السلام والتفاهم بينهم لمدة عامين. وفي هذه المدة لم يكن للحرب مكانٌ داخل حدودهم، حيث حَكَمت هدنة صارمة كل مكان في الشرق الأدنى.

أظهرت تلك الهدنة الكبيرة أن نفوذ صلاح الدين قد أرهب في ذلك الوقت كل القوى الصغيرة من البحر الأسود والخليج الفارسي إلى البحر المتوسط، وكان الاتحاد المؤقت لكل الولايات الإسلامية المجاورة خطوة كبيرة تجاه المسعى المشترك الذي اعتزمه ضد القوى الصليبية. كان ذلك بداية سياسة استخدام رجال قبائل العراق المولعة بالحروب كمجندين للحرب المقدسة. لقد فتحت وفاة نجل نور الدين ملك حَلَب، الطريق والمفاوضات الغادرة بين أمراء بلاد العراق والفرنجة، وحين غادر صلاح الدين القاهرة - للأبد - في السادس من شهر المحرم 578هـ/ 11 مايو 1182م، كان من أجل تحقيق خططه العظيمة كبطل للإسلام. وبعد بعض الاشتباكات مع الفرنجة، وحصار مخفق لبَيْروت، زَحف داخل العراق وأخضع البلاد بأكملها، باستثناء مدينة المَوْصِل. وتم شراء حَلَب

(1) هي المنطقة الواقعة على سواحل الأناضول الجنوبية، وتمتد شرقًا إلى الحدود السورية (المترجم).

بالمقايضة؛ وبعد حصارين مضنيين، وافقت المَوْصِل أخيرًا على أن تصير تابعة لصلاح الدين. بهذه المعاهدة، انضم الجزء الشمالي من بلاد العراق بأكمله وجزء من كُرْدستان بشكل نهائي لإمبراطوريته.

لقد أحرز الهدف من حملاته الطويلة والشاقة على دِجْلَة والفُرات، فقد أصبح لديه الآن حلفاء بدلًا من الخصوم في الجهة الشمالية. لم تكن مباشرة أي غزو للأراضي الصليبية قبل ذلك آمنة دون نشر جيش للمراقبة ضد أي هجوم محتمل من الشمال، لكنه الآن يستطيع التقدم بثقة. فضلًا عن ذلك كان لديه مزيدٌ من القوات مِنْ خَلْفه، فلم يقم فقط بقيادة قوات متكاملة من جنده السوريين والمصريين، لكنه اعتمد أيضًا على قوات كبيرة من أقاليم العراق. لقد شاركت كل الأقطاب الكبرى في هذه الأنحاء بدعم الجيش المُسْلم، من أمراء أسرة زَنْكي، والمَوْصِل، وسِنْجار، والجزيرة، وأَرْبِيل، وحَرَّان، وحتى الأكراد من وراء نهر دجلة، في الحرب المقدسة التي باشرها في ذلك الوقت بفاعلية.

هكذا دخل صلاح الدين مستعدًّا للفترة الثالثة من حياته، وهي الفترة الفلسطينية أو العدائية. لقد حدثت أعمال استفزازية وانتقامية لعدة أعوام، فقد دخل رينولد دي شاتيون



شكل (48) درهم (عملة فضية)
صلاح الدين، حلب، 1186م

Reginald of Chatillon[1] أمير الكَرَك البحر الأحمر، واستولى على سفن الحجيج، وغزا حتى الجزيرة العربية بنيَّة تدمير قبر الرسول ﷺ في المدينة، والكعبة في مكة. تمت ملاحقته من قِبَل الأسطول المصري، الذي قَطّع حملته إربًا. جرت في فِلَسطين معركة غير حاسمة قرب الفُولَة La Feve[2]، وحاصر صلاح الدين حصن رينولد المنيع في الكَرْك مرتين. سوِّيَت آنذاك معاهدة سلام لأربعة أعوام بواسطة ريموند أمير طرابلس، (وصي عرش الملك الطفل بالْدوين الخامس)، الذي كان على مودة شخصية إن لم يكن حليفًا حقيقيًّا لصلاح الدين؛ لكنه كان سلامًا أجوفًا في حين كانت أوروبا بأكملها تقرع طبول الحرب؛ حيث حمل الفرسان الإنجليز الصليب من شيفوت Cheviots[3] إلى البرانس Pyrenees[4]،

(1) أطلق عليه العرب (أرناط)، بدأ طريقه بالخدمة في الحملة الصليبية الثانية، ثم وضع نفسه في خدمة الملك بالدوين الثالث ملك بيت المقدس، تزوج بعدها أميرة أنطاكية عام 548هـ/ 1153م، فصار أميرًا لأنطاكية حتى عام 555هـ/ 1160م حين أسر وسجن في حلب حتى عام 571هـ/ 1176م، بعدها توجه إلى بيت المقدس حيث زوجه ملكها بالدوين الرابع بأرملة لورد شرق الأردن، فأصبح بذلك أميرًا على الكرك والشوبك ومونتريال، فعمل منذ ذلك الحين بالإغارة على المسلمين العزل وسرقتهم والتنكيل بهم، وفي النهاية تم أسره في معركة حطين عام 583هـ/ 1187م حيث قتله صلاح الدين بيده، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ص 169، 182، 201، 237، رينسمان، الحملات الصليبية، ج2/ ص 487 وما بعدها (المترجم).

(2) بلدة بفلسطين من نواحي الشام، ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 280 (المترجم).

(3) هي مجموعة من المرتفعات على جانبي الحدود بين انجلترا واسكتلندا (المترجم).

(4) هي سلسلة جبال تفصل شبه جزيرة أيبيريا عن فرنسا، تمتد لمسافة 430كم من الشرق إلى الغرب (المترجم).

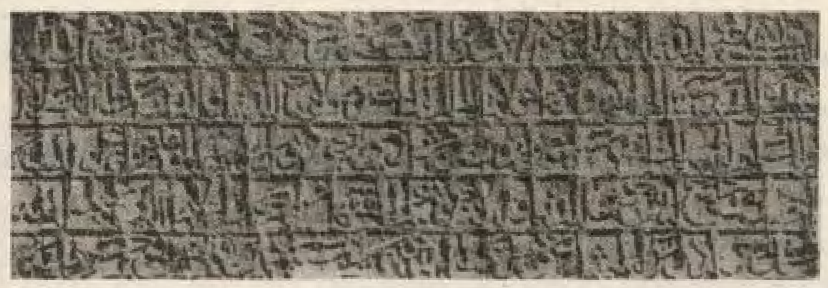
واحترقـت الفـرق العسـكرية توقًـا لضـرب ضربة مـن أجل الديـن، بنفس حماسـة صلاح الدين نفسه. كانت أصغر شرارة كفيلة بإضرام حريق هائل، وبالفعـل أتـت تلك الشـرارة مـن رينولد دي شـاتيون، الذي انقـض للمرة الثالثة - برغم المعاهدة - على قافلة مسالمة من التجار كانوا يمرون بجوار حصنه. لم تكن غنيمة نفيسـة فحسـب، بل أُشِـيعَ أنها اشتملت على واحدة من أخوات صلاح الدين، فكان ذلك عملًا شديد الإثارة للغضب؛ أخذ من بعده صلاح الدين عهدًا على نفسه أن يقتل منتهكي المعاهدة بيده، وبالفعل استطاع الوفاء بعهده.

إن تاريـخ الحـرب المقدسـة مـن عـام 583هــ/ 1187م إلـى 588هـ/ 1192م مألوف للطلاب؛ ولا يشـكل جزءًا مـن تاريخ مصر؛ لذا فإن ترتيب الأحداث هو كل ما ينبغي ذكره. تلا الهزيمة الساحقة للصليبيين تحت حكم ملكهـم الجديـد، جوي دي لوزينيـان Guy of Lusignan[1]، في حِطِّين[2]

(1) جوي دي لوزينيان Guy of Lusignan آخر ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية (582 - 588هـ/ 1186 - 1192م)، أصبح ملكًا عن طريق زواجه من سيبيلا Sibylla of Jerusalem التي ورثت عرش أخيها الملك بالدوين الرابع بعد موته عام 1186م، قاد الجيش الصليبي في معركة حطين التي انتهت بهزيمته وأسره، وبعد أن أطلق سراحه استقر في قبرص حيث أسس حكم عائلة لوزينيان، توفي عام 590هـ/ 1194م، انظر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ج 7/ ص 430 وما بعدها، ج8/ ص 412، رينسمان، الحروب الصليبية، ج2/ ص 506: 509، 517، 518 (المترجم).

(2) قرية بين أرسوف وقيصرية، حدثت بها وقعة حطين الشهيرة عام 583هـ؛ حيث أوقع صلاح الدين بالإفرنج وكانت سببًا لافتتاحه الساحل، وسقوط مملكة بيت المقدس الصليبية، ثم سببًا في قيام الحملة الصليبية الثالثة على المشرق، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج2/ ص 273، 274، ابن الأثير، الكامل، ج 10/ ص 146 وما بعدها (المترجم).

قرب طَبَرية، بغزو سريع لفلسطين. انتشر جيش صلاح الدين في الأرض المقدسة، وأُخضِعَت كامل مملكة بيت المقدس خلال شهر، باستثناء القليل من القلاع والمدن المحصنة. لقد سقطت عَسْقَلان في سبتمبر، وفي الثاني من أكتوبر استسلمت القُدْس بشروط مشرفة. وقد أفلتت صُور وحدها - بما يشبه المعجزة - من الموجة الأولى للغزو، وكانت مقاومتها الثانية الناجحة (نوفمبر، ديسمبر) نقطة تحول في مسيرة انتصار صلاح الدين. احتُلَّت بسهولة مقاطعة طرابلس وإمارة أَنطاكية، وكل المدن الساحلية شمال صُور، بحملة واحدة رائعة في مايو- سبتمبر عام 584هـ/ 1188م، وأُجبِرَت أَنطاكية نفسها على الموافقة على هدنة مذلة. أُخِذَت حصون بِلْفُوير Belvoir وصَفَد والكَرَك الداخلية العظيمة، التي كانت لاتزال صامدة، في ديسمبر ويناير. لم يبق شيء في أيدي الصليبيين ماعدا صُور وبلفورت Belfort.



شكل (49) نقش صلاح الدين بكنيسة القديسة حنّة St. Anne، القدس، 1192م

رغم ذلك كانت صُور هي نقطة تجمع الفرنجة، فقد التجأت إلى هناك نفس تلك الحاميات التي أَطلق صلاح الدين سراحها عند استسلام كل مدينة أو حصن، بشهامة أكثر من الحذر. وصل إلى هناك الملك جوي

ومعظم النبلاء والفرسان الذين أطلق سراحهم، بناءً على تعهدهم الرسمي بعدم حمل السلاح ضد السلطان مرة أخرى. ومن صُور زحف الجيش الذي بدأ حصارًا عظيمًا لعَكْا[1]، مرحبًا بالتعزيزات الضخمة للحملة الصليبية الثالثة. لقد كانت صُور بمثابة الحصان الخشبي القاتل لطروادة صلاح الدين. فلو أمكنه التغلب على نفاد الصبر أو الإنهاك الذي أصاب جنوده، وأن يُضحي بكل منفعة أخرى من أجل الاستيلاء على صُور، لربما عندئذٍ لم يقع حصار عَكْا ولا الحملة الصليبية الثالثة، ولكان صعبًا حتى على ريتشارد Richard[2] ملك انجلترا، أن يجلب فأس حربه الدَنِماركية ليرفعها في وجه المسلمين الفاتحين.

بدأ حصار عَكْا بواسطة جوي دي لوزينيان في رجب 585هـ/ 28 أغسطس 1189م، وبدأ حصار المُحاصِرين من قِبَل صلاح الدين بعد ذلك بيومين. ووقعت أول معركة كبيرة بين الفرنجة والعدو المشترك – الحامية بالداخل والجيش المُسعِف المطوِّق للصليبيين – في الرابع من أكتوبر، وانتهت بصد الصليبيين مع تكبيدهم خسائر فادحة. أَهمل صلاح الدين متابعة انتصاره، وقضى الفرنجة الشتاء في تحصين وتقوية مواقعهم قبالة عكا. وقد أسفرت التقارير في الربيع عن اقتراب الحملة الصليبية

---

(1) تمثل عكا العربية، أكو Akko القديمة. ينبغي التخلي عن الهجاء الفرنسي المعاصر لـ Acre، في اللغة الإنجليزية.

(2) هو ريتشارد الأول Richard I الملقب بقلب الأسد The Lionheart، ملك انجلترا (585 – 595هـ/ 1189 – 1199م) (المترجم).

الألمانية بقيادة فريدريك بارباروسا Frederick Barbarossa[1]، من جزء كبير من قوات المسلمين. كان هجوم كبير آخر على المسلمين في الخامس والعشرين من يوليو بمثابة عقاب شديد؛ إذ لم يتم متابعة النجاح، وتضاءلت فرص الفتك بالجيش المُحاصِر بشكل كبير مع رسو هنري أمير شامبانيا Henry of Champagne[2] مع عشرة آلاف رجل جدد. استمر الحصار ومقاومته، مع تناقص آمال المسلمين بشكل مستمر. أحضر دوق سوابيا Duke of Swabia[3] مَن بقي على قيد الحياة من الجيش الألماني إلى داخل عكا في أكتوبر، ووصل الأسطول الإنجليزي الأول في نفس الشهر. ولا يزال صلاح الدين صامدًا. وقد أوقف اشتباك عنيف محاولة

---

(1) هو الإمبراطور الجرماني فريدريك الأول برباروسا Frederick I Barbarossa (547- 586هـ/ 1152 – 1190م)، توج ملكًا على ألمانيا عام 1152م، ثم ملكًا على إيطاليا عام 1154م، وأخيرًا توجه البابا أدريان الرابع Pope Adrian IV إمبراطورًا للإمبراطورية الرومانية المقدسة عام 1155م، سار على رأس الحملة الصليبية الثالثة عام 1189م، لكنه مات غرقًا في أحد الأنهار ودفن في أنطاكية عام 1190م (المترجم).

(2) هو هنري الثاني كونت شامبانيا الفرنسية Henry II of Champagne من عام 561هـ/ 1166م وحتى عام 593هـ/ 1197م، شارك في الحملة الصليبية الثالثة حتى أصبح ملكًا على مملكة بيت المقدس اسميًا بعد سقوطها من عام 588هـ/ 1192م وحتى وفاته عام 593هـ/ 1197م (المترجم).

(3) هو فريدريك السادس Frederick VI، دوق سوابيا Duke of Swabia الواقعة جنوبي غرب ألمانيا من عام 565هـ/ 1170م وحتى وفاته في حصار عكا عام 587هـ/ 1191م، كان الابن الثالث لفريدريك الأول بربروسا وشقيق هنري السادس Henry VI إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1191 – 1197م) (المترجم).

للصليبيين لنقل المؤن من حَيْفَا عند رَأْس النَّبع، وبعد ذلك أحال الشتاء السهل إلى بحر من الوحل، هكذا انتظر كلا الطرفين قدوم الربيع، بينما أهلكت المجاعة والحمى المعسكر الصليبي. في غضون ذلك أعاد صلاح الدين تزويد عكا بالطعام، وأراح الحامية المُنهَكَة.

أخيرًا وصل قادة الحملة الصليبية الثالثة: فيليب ملك فرنسا Philip of France[1] في عيد الفصح، وريتشارد ملك إنجلترا في الثامن من يونيو. سُرعانَ ما وصل الحصار الطويل إلى هدفه مع مثل هذه التعزيزات؛ حيث استسلمت عكا في الثاني عشر من يوليو. لم يكن صلاح الدين طرفًا فيما فعلته الحامية المنهكة، لكنه لم يكن قادرًا على نجدتها واضطرَ لقبول هذا الوضع. بدأت مفاوضات السلام قبل الاستسلام المشروط وانتهت بعده؛ لكن بعض التأخير في تنفيذ الاشتراطات المتعلقة بتسليم الأسرى الصليبيين قد أثار استياء ريتشارد، حتى أنه ذَبح ألفين وسبعمائة أسير مسلم بدم بارد على مرأى من المعسكرين. لم يعد هناك أي حديث حول السلام، وزحف ملك إنجلترا (انطلق فيليب بالفعل عائدًا إلى فرنسا) على الساحل بغية الاستيلاء على عَسْقَلان؛ ومن ثَم ينطلق داخلًا بَيْت المَقْدس. لازم صلاح الدين الصليبيين أثناء المسيرة بأكملها، لكنه اضطر بعد الهزيمة في أرْسُوف أن ينقل قواته للرَّمْلَة، ثم إلى القُدْس مع اقتراب فصل الشتاء. جعلت محاولتان للزحف على المدينة المقدسة ريتشارد على مرأى من

(1) هو فيليب الثاني أغسطس Philip II Augustus، آخر ملوك الفرنجة (576 – 586هـ / 1180 – 1190م)، وأول ملوك فرنسا (586 – 620هـ / 1190 – 1223م) (المترجم).

هدفه، لكن الخلافات في المجلس غير المتجانس للصليبيين، فضلًا عن القوة المتزايدة للمسلمين قد أحبطت خطته؛ حيث انسحب ريتشارد خائبًا إلى عكا، فانتهز صلاح الدين الفرصة ليندفع مسرعًا إلى يافا[1]، التي سرعان ما أُسعِفَت من قِبَل ملك إنجلترا وحفنة من الفرسان المدافعين عنها، فكان ذلك أكثر الأعمال تألقًا في مجمل الحرب، التي أُنهك فيها كلا الطرفين. استمرت مفاوضات السلام منذ معركة أرْسُوف بصورة متقطعة، لكن عندما مرض ريتشارد في ذلك الوقت، واستدعت ظروف انجلترا حضوره بصورة عاجلة، تعرضوا لضغوط من أجل تعجيل النهاية، وبالفعل تم توقيع معاهدة لثلاث سنوات، احتفظ على أساسها الصليبيون بالمدن الساحلية من عكا إلى يافا، وسُمِحَ للحجاج بزيارة البقاع المقدسة في القدس.

استمرت الحرب المقدسة خمسة أعوام، فقبل الانتصار الحاسم في حِطّين في جمادى الأولى 583هـ/ يوليو 1187م، لم يكن شبرًا واحدًا من أرض فِلَسْطين - غربي نهر الأردن - في أيدٍ مسلمة. وبعد سلام الرَّمْلَة في رمضان 588هـ/ سبتمبر 1192م، أصبحت الأرض بأكملها تابعة للمسلمين باستثناء شريط ساحلي ضيق من صُور إلى يافا. قامت أوروبا مسلحة عن بكرة أبيها لاسترداد هذه المساحة، وسقط مئات الآلاف من الصليبيين. لكن كان من الصعب أن تبرر النتيجة هذا الثمن. وعلى الجانب الآخر، خرج صلاح الدين من الحرب بقوة راسخة. لقد تم تأييده بإخلاص بكامل قوة إمبراطوريته، ومَنْ دخل في سلطته من مصر إلى نهر دجلة. لقد امتزج

---

(1) راجع: إبراهيم سعيد فهيم محمود، يافا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية، 2007م (المترجم).

الأكـراد والتركمان والسـوريون والعرب والمصريون في جيوشـه، فكانوا جميعًا مسلمين مخلصين في تأدية الخدمة حينما استدعاهم للجهاد. هكذا لم تُنتقص أي مقاطعة أو إقليم، باستثناء تمرد تابع واحد لفترة وجيزة، رغم أن المحـن ومعانـاة الحمـلات الطويلة أرهقـت جَلَد الجنـود وإخلاصهم لقائدهم بصورة خطيرة. لقد بسـط سـلطته بعد أن انتهت الحرب من جبال كُرْدستان إلى الصحراء الليبية دون اعتراض، وبعيدًا فيما وراء هذه الحدود كان ملك جُورجيا، وقائد الكنائس النسـطورية والأرمينية، وسلطان قُونية، وحتى إمبراطور القُسْطَنطينية تواقين للتحالف معه. لقد عاش ليرى تحقيق حلـم حياتـه، لقـد طـرد الصليبيين مـن الأرض المقدسـة واسـتعاد وحدة الإسـلام. رغـم ذلك فإن إنهـاك الحمـلات الطويلة أوهن صحتـه التي لم تكن أصلًا قوية، فقد تسـببت الحمى في نقله إلى دِمَشْـق بعد ستة أشهر من السـلام. لم يُخطئ التصور الشـعبي لشـخصيته، فمع كونه شهمًا، وفارسًا، وكريمًـا، ونقي القلب والحياة، زاهدًا ومُجِدًّا، بسـيطًا في عاداته، متحمسًـا في ورعه، شـديدًا فقط في حماسـته لدينه، كان بحق صورة مناسـبة ومثالًا ونموذجًا لفروسية المسلم الفاتح.

* * *

الفصل الثامن

خُلَفَاءُ صَلاحِ الدّين (الأَيُّوبِيُّون)

589-648هـ/ 1193- 1250م

العـادل – أبنـاء صـلاح الديـن – تولـي العـادل – مجاعة عـام 1201-1202م – الحملـة الصليبية الألمانية – الحملـة الصليبية المجرية – حصار دمياط – شـخصية العادل – مقترحات للسـلام – تقدم الصليبيين – تراجع الفرنجـة – حملة فريدريك الثانـي الصليبية – فريدريك والكامل – معاهدة فريدريـك – فريدريـك في القدس – إمبراطورية الكامـل – إدارة الكامل – الصالـح أيـوب – حملة لويس التاسـع الصليبية – لويس فـي دمياط – بناء الجسـر – معركة المنصورة – الملكة شـجر الدر – تراجع الملك لويس – فدية الصليبيين – التجارة الأوروبية مع مصر – الكامل والنصارى.

الفصل الثامن
خُلَفَاءُ صَلاحِ الدِّين (الأَيُّوبِيُّون)
589-648هـ/ 1193- 1250م

المصادر: ابن الأثير، أبو شـامة، عبد اللطيـف[1]، ابن خلكان، جوانفيل Joinville[2]، أبو الفدا[3]، المقريزي، العيني[4].

---

(1) عبد اللطيف البغدادي، موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد (ت629هـ/ 1231م)، كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر (المترجم).

(2) يعتبر كتاب جوانفيل Jean de Joinville (1224 – 1318م)، تاريخ القديس لويس Histoire de Saint Louis، أهم المصادر الأوروبية المعاصرة عن الحملة الصليبية السابعة على مصر، لأن جوانفيل نفسه كان أحد فرسان هذه الحملة وشاهد عيان لها وموضع ثقة الملك الفرنسي لويس التاسع وأحد مستشاريه، وقد ظهرت ترجمات عديدة لكتابه الهام منها الترجمة العربية للدكتور حسن حبشي، راجع: جوزيف نسيم، لويس التاسع في الشرق الأوسط، القاهرة 1959م، ص 3، جوانفيل، القديس لويس: حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، القاهرة 1968م (المترجم).

(3) أبو الفدا، إسماعيل بن علي بن محمود (ت 732هـ/ 1331م)، كتاب المختصر في أخبار البشر، المعروف بتاريخ أبي الفدا (المترجم).

(4) بدر الدين العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى (ت 855هـ/ 1451م)، كتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (المترجم).

Modern- Kugler, Geschichte der Kreussüge, Winkelmann, Kaiser Friedrich II, Röhricht, Beiträge zur Geschichte der Kreuzzüge; and Various Arts. ; cf. Regesta Regni Hierosol

آثار: قبة الإمام الشافعي 608هـ/ 1211م؛ كِمَالة قلعة القاهرة؛ مدرسة الكامل (تكاد تكون قد اختفت) 621هـ/ 1224م؛ قبة الأمير إسماعيل 613هـ/ 1216م، والشيخ الفارسي 622هـ/ 1225م؛ منارة الحسنين (القديمة) 632-633هـ/ 1235- 1236م؛ مدرسة الصالح أيوب 641هـ/ 1243م.

نقوش: على الآثار التي تم ذكرها؛ ونقش العادل في القلعة موجود في: Mt. Tabor، 608هـ/ 1211م.

علبة جواهر: العادل الثاني في V. & A. Mus؛ عملات: انظر هامش كل حكم.

لعبت مصر دورًا ثانويًّا في دولة صلاح الدين منذ عام 578هـ/ 1182م، حين غادر صلاح الدين القاهرة لآخر مرة، فقد انتقل مركز الثقل السياسي إلى الشام، وكان على مصر أن تقنع بأن تكون مكانًا لتجنيد مَن يحتاجهم السلطان باستمرار لتعزيز جيوشه المنهكة. كان العُرف السائد طوال تلك الحروب هو القتال في الصيف، وعند هطول الأمطار في فصل الشتاء تتوقف التحركات العسكرية في سوريا وفلسطين؛ ومن ثمّ يتم إرسال جنود الفرق المختلفة إلى مواطنهم لاستجماع قواهم والاعتناء بمزارعهم. وفي مصر أَبعد مزاولة ذلك العرف القائم الكثير من الصعاب؛ حيث كان الشتاء موسمًا للأعمال الزراعية الرئيسية. أثناء غياب السلطان، أدار أخوه

العادل سَيْف الدّين[1] - المعروف عند الصليبيين بـ «Saphadin» - مصر بمساعدة القاضي الفاضل. وقد تم نقله إلى حَلَب عام 580هـ/ 1184م، حيث أُرسِلَ ابن أخيه تَقيّ الدّين عُمَر إلى مصر بدلًا منه، إلا أن عُمَر قد برهن على عناده؛ ومن ثمّ أُعيد العادل إلى القاهرة عام 582هـ/ 1186م، مع العَزيز بن صلاح الدين كرئيس اسمي. كان العادل هو الأكثر مقدرة من بين أقارب أخيه، فكان قائدًا بارعًا ومقاتلًا صلبًا، لكنه أيضًا وفوق كل شيء دبلوماسي حاذق وسياسي داهية. كان يساند أخاه بإخلاص في حملاته، ويقود الفرقة المصرية للتجمع السنوي في فِلَسْطين، وكان مميزًا خاصة في العديد من الاشتباكات التي خاضها في سهل عكا، ولا يعرف الكلل في حشد المجندين الجدد وتجهيز المراكب وتوفير الذخائر والأموال لحملات صلاح الدين. وكان من الناحية الشخصية على علاقة ودية مع ريتشارد، فكان هو مَن نزل ضيفًا في المعسكر الإنجليزي وليس صلاح الدين، وقد مُنِحَ أحد أبنائه رتبة الفروسية بواسطة قَلْب الأَسد[2]، هذا فضلًا عن أن النبيل سَيْف الدّين كان هو الوسيط الذي فاوضه ريتشارد في معاهدة الرَّمْلَة. لقد دلَّ كل شيء على أن العادل هو مَن سيخلف أخاه البطل.

رغم ذلك، فقد أمر صلاح الدين بشكل طبيعي أن تؤول خلافته إلى أبنائه، حيث تولى ثلاثة منهم حكم ثلاثة أقاليم رئيسية قبل وفاته ببضع

(1) راجع ترجمته وفترة حكمه في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5/ ص 74: 79، ابن واصل، مفرج الكروب، ج5/ ص 379 وما يليها، المقريزي، السلوك، ج1/ ص 265: 312 (المترجم).

(2) Itin. Reg. Ric., v. II. مُنِحَ تكريم مماثل بواسطة فريدريك الثاني للأمير فخر الدين، الذي أصبح قائدًا فيما بعد في المنصورة أمام لويس التاسع.

سنين. حاز أكبرهم وهو الأَفْضَل، على دِمَشْق ووسط سوريا؛ والعَزيز على مصر، أما الظَاهر فقد حاز على حَلَب. وحكم أبناء عمومتهم في حَمَاة وحِمْص وبَعَلْبَك؛ وأحد أعمامه حكم اليمن، وصارت بلاد العراق وديار بكر إقطاعًا خاصًا للعادل شقيق صلاح الدين. رغم ذلك، ومنذ بداية هذا التقسيم، اعتُبِرَت مصر بوضوح هي الإقليم الأهم. لقد سَكَّت دِمَشْق عملة، في نفس عام وفاة صلاح الدين، باسم العَزيز صاحب مصر، رغم أن الأَفْضَل كان هو الحاكم. لكن مهما بلغ قدر الولاء الذي تم إظهاره، لم تكن هناك وحدة بين أعضاء العائلة. فقد حاصر العزيز أخاه في دمشق في نفس العام، ورغم أن السلام قد حلَّ بوساطة العادل والظاهر، إلا أن النزاع اندلع ثانية في العام التالي، حين طارد الأفضل أخاه الأصغر داخل مصر حتى بِلْبَيْس. تدخَّلَ العم الحكيم مرة ثانية، يعاونه القاضي الفاضل[1]، الذي كان المستشار الرئيسي لصلاح الدين؛ حيث وجد العزيز نفسه مكبلًا بالعادل وزيرًا له في القاهرة، وكان ذلك على حساب سلطته المستقلة. كان العادل اليد اليمنى الوفية لأخيه، لكنه لم يكن ذلك الرجل الذي تقف العاطفة حائلًا أمام تقدمه، ففي وقت عمل فيه أبناء صلاح الدين على تمزيق الإمبراطورية، عزم العادل على أن يعيد وحدتها تحت قيادته الشخصية.

لقد عَلِمَ أن مفتاح الموقف هو مصر، فحاول إقناع الأَفْضَل بعدم الاستيلاء على القاهرة، التي أرادها لنفسه. كان الأَفْضَل - وهو محب للملذات، ومعاقر نهم للخمر - سيشكل خطرًا على مصر؛ في حين امتلك العزيز كل

---

(1) مات الفاضل في يناير 1199م، وزميله عماد الدين في 1201م، انظر: لين بول، صلاح الدين، 187 - 189.

الفضائل والسمات الخاصة التي تجعله مُذعِنًا للأوامر. لقد كان كما يقول أحد العارفين به[1]: «شابًّا كريمًا، شجاعًا كثير الحياء، لا يحسن قول لا»[2]. وكانت تلك هي الوسائل المناسبة لاستخدامه من قِبَل العادل. وافق الاثنان على طرد الأَفْضَل من دِمَشْق، وهو الذى لم يؤد إصلاحه المتأخر لذاته على محو ذكرى نقائصه. تم احتلال المدينة بسهولة؛ ومن ثمّ تسليمها للعادل كنائب عن العزيز. هكذا تقدم العادل شمالًا، وهو يسيطر على وسط سوريا ويحتفظ بعلاقة ودية مع مصر، لتوطيد ممتلكاته في بلاد العراق (594 - 595هـ/ 1198 - 1199م)، والتي صارت بعد وفاة صلاح الدين مُهدَّدَة من قبل منافسه القديم، أتابك المَوْصِل. وسُرعان ما أخضع البلاد للنظام، ومنذ ذلك الوقت حتى الغزو المغولي ظلت بلاد الفرات في أيدي أبنائه.

استُدعِيَ العادل من الشمال بأخبار الوفاة المبكرة للعزيز[3]، بسبب حمى ألمت به أثناء الصيد في الفيوم، فضلًا عن الوصول الفوري للأَفْضَل - نذل العائلة - إلى القاهرة. هنا استلم الوصاية على الطفل المَنْصُور[4]، ووريث

(1) عبد اللطيف، ed. Sacy, 469.

(2) راجع: عبد اللطيف البغدادي، رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر أو كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، إشراف: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، هيئة الكتاب - القاهرة 1998م، ص 47.

(3) سك العزيز عملات في القاهرة 589-595 هـ (1193 - 1198م)؛ والإسكندرية، 589 - 595هـ؛ ودمشق، 589 و594هـ؛ وحلب، 592هـ (1196م). تم إصدار الاثنين الأخيرين بواسطة العادل والظاهر، لكن دون نقش اسمهما رمزًا للإقطاع.

(4) تم سك عملات المنصور في القاهرة والإسكندرية، مؤرخة بعامي 595، 596هـ (1198 - 1199م).

أخيه، واستغل الفرصة لقيادة القوات المصرية للاستيلاء على دمشق، يعاونه في ذلك الظاهر من حَلَب، والذي تشارك مع أخيه في بغض عمه، إلا أن العادل كان في دِمَشْق قبلهم؛ حيث انسحب المُحاصِرون، واضطُرَّ الأَفْضَل للاستسلام المشروط وتسليم مِصْر. أصبح العادل الآن سيدًا كامل السيادة على دولة صلاح الدين[1]، باستثناء الجزيرة العربية وشمال سوريا؛ حيث الأسرات الحاكمة الثلاث لحَلَب وحِمْص وحَمَاة، على الرغم من الإقرار بسيادته وتقديم الخدمة العسكرية له، إلا أنهم احتفظوا باستقلالهم الفعلي. سُرعان ما تم عزل المَنْصُور الطفل؛ ومن ثَمَّ عَين العادل أبناءه كنواب على مختلف الأقاليم تحت سيطرته، فمَثَّله الكامل في مصر، والمُعَظَّم في دِمَشْق، والأَوْحَد والفَائِز والأَشْرَف والحَافِظ في أقاليم بلاد العراق.

كانت مصر مازالت رأس الدولة، لكنها كانت تمر بفترة من الشدة. فقد سبَّب مستوى النيل المنخفض بصورة استثنائية عجزًا في المحاصيل عام



شكل (50) دينار العادل، الإسكندرية، 1199م

(1) سك العادل عملاته في القاهرة 597 - 615هـ (1200 - 1218م)؛ والإسكندرية، 596 - 614هـ؛ ودمشق، 599 - 615هـ؛ وميافارقين Mayyafarikin، 591هـ (1195م)؛ وحرَّان، 591هـ؛ والرها، 601، 604هـ (1204 - 1208م). نُقِشَ اسمه أيضًا كأمير إقطاعي على عملات الظاهر في حلب، 599هـ؛ والعزيز في حلب، 614هـ؛ والأشرف في ديار بكر، 612هـ.

597هـ/ 1201م، وقد تكرر ذلك في عام 598هـ/ 1202م، وتلا ذلك المجاعة والوباء. وقد سجل عبد اللطيف الطبيب البغدادي - الذي عاش في القاهرة لعشرة أعوام (590 - 600هـ/ 1194- 1204م)، وحضر دروس العلماء في الجامع الأزهر - التجارب الرهيبة لتلك المجاعة. كان البلاء شديدًا حتى نزح الناس في حشود، وهُجِرَت أحياء وقُرى بأكملها، أما مَن بقي فقد عَرَّضَ نفسه لممارسات وحشية، فقد أَلِف الناس أكل اللحم البشري، حتى أن الآباء قتلوا وطهوا أبناءهم، وقد عُثِرَ على زوجة تلتهم زوجها الميت نيًّا. كَمِن الرجال للنساء في الشوارع من أجل اقتناص أبنائهم؛ حيث كانت الأطفال المطهوة وأطباق رؤوس الأطفال أصنافًا غذائية عادية. كان المجرمون يُحرَقون أحياءً متى تم اكتشافهم؛ إلا أن القليل منهم فقط تم الإمساك به. نُهِبَت القبور نفسها من أجل الطعام، واستمر ذلك في مصر من أقصاها إلى أدناها. كانت الشوارع شِراكًا مميتة، وعَم الاغتيال والسلب بلا رادع، واعتُدِيَ على النساء من قِبَل جموع الأشرار الذين أَطلقتهم يد الفوضى واليأس. بيعت الفتيات الحرائر بما يقابل خمسة شلِنات للرأس، وجاءت الكثير من النساء متوسلات حتى يتم شراءهن كجوارٍ للنجاة من المجاعة. بيع الثور بسبعين دينارًا، ووصل ثمن القمح إلى أكثر من عشرة شلنات للبشل. أُلقيت الجِيَف غير المدفونة في الشوارع والبيوت، وانتشر وباء فتَّاك في أنحاء الدلتا. خَطَّت أسراب من النسور والضباع وحيوانات ابن آوى مسيرة الموت في الريف وطرق القوافل. تساقط الرجال عند المحاريث مُصابين بالوباء. صَلَّى الإمام في يوم واحد بالإسكَندرية صلاة الجنازة على أكثر من سبعمائة شخص، وفي

شـهر واحد انتقلت إحدى الملكيات لأربعين وريثًا في تعاقب سـريع. كان انخفاض قيمة السـلع كارثيًا، فقد تدنى إيجار البيت في القاهرة لسُبع قيمته السـابقة بسـبب تناقص عدد السـكان، وحُطِّمَت منحوتات وأثاث القصور لتقتات عليها نيران الأفران. رَجَّت زلازل عنيفة - شُـعِرَ بها أيضًا في أنحاء سـوريا وشمالًا حتى أرمينية - بيوتًا لا تحصى، ودُمرت مدن بأكملها، فزاد ذلك من البؤس العام.

في غضـون ذلك، كان العادل يُرَسِّـخ دعائم إمبراطوريتـه بثبات. وكان خوفه الأساسي من أن الـفرنجة قد يغتنمون فرصة الانقسامات الداخليَّة بين ورثة صلاح الدين ليعاودوا إرسـال الحملات الصليبية. وهذا ما قد حدث بالفعـل، لكن بطريقة مفككـة واهنة، حتى أن محاولاتهم نـادرًا ما أصابت القوى الإسـلامية بأذى. كان هنري أمير شـامبانيا، ملك القُدْس الاسـميّ، ضعيفًـا للغاية علـى المجازفة بالتحرك للهجـوم، واضطُر أن يرضى بحكم مدنـه السـاحلية والتقيد بالهدنـة التي جددهـا العَزيز بحصافة عنـد ارتقائه الحكم. وانشغل أمير أَنْطاكية وطرابلس باستمرار الإبقاء على الجار، الملك الأرمنّـي لـقِليقية، في مركز حرج. لـم يكن هناك أي خطر من قِبَل الـفرنجة السـوريين، وإن حدث وسـارت حملـة صليبية جديدة، فلابـد أن تأتي من أوروبـا. هكـذا دعا البابا سيليسـتين الثالـث Celestine III، الصليبيين من جديد للحرب المقدسـة. كانت إنجلترا وفرنسا منشـغلتين للغاية بنزاعهما أكثر من الإصغاء لمناشدته؛ لكن الإمبراطور هنري السادس Henry VI[1]

(1) هنري السادس Henry VI (1165 – 1197م)، كان ملكًا على ألمانيا بين عامي (1190 – 1197م)، والإمبراطور الروماني بين عامي (1191 – 1197م)، وملك صقلية بين عامي (1194 – 1197م) (المترجم).

حمـل الصليب عام 591هـ/ 1195م، وجمع جيشًـا من سـتين ألف رجل، وأسطول من أربعة وأربعين مركبًا على ساحل بوليا Apulian [1]، وأرسلهم إلى عكا تحت قيادة أسـقف ورزبـورج Würzburg، حيث وصلوا في ذي القعـدة عام 593هـ/ سـبتمبر 1197م. ومـع ذلك، لم يكـن الألمان حلفاء مرحبًا بهم للأتباع الفرنسـيين لهنري أمير شـامبانيا، لذلك وجدوا أنفسـهم مجبرين على العمل بمفردهم. اغتنم العادل فرصة ترددهم للاستيلاء على يافا، وسببت وفاة الملك هنري في نفس الوقت مزيدًا من الارتباك، وقد تم اختيـار عَمُوري لوزينيـان، Amalric of Lusignan ملك قبرص، لخلافته علـى العرش الوهمي للقـدس؛ حيث تزوج من أرملتـه إيزابيلا، التي مات عنهـا ثلاثـة أزواج. ومع افتقادهم الشـجاعة للزحف على بيـت المقدس، استولى الألمان على بيروت بعد هزيمتهم للعادل قرب صيدا، التي جُردت من التجهيزات عند اقترابهم، وبعد ذلك أعدوا هجومًا على المدينة المقدسة بتوافـق مع بوهيموند أمير أنطاكية، وفي هـذه اللحظة جاءت أخبار المـوت المفاجئ لإمبراطورهم، فتخلى الألمان عن حصار تبنين (تورون) Toron [2] وأسـرعوا عائديـن للوطـن، ورضي كلٌّ من العـادل والعزيز بعقد السـلام.

---

(1) عبارة عن شبه جزيرة، تمثل الطرف الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة الإيطالية، تطل من جهة الشرق على البحر الأدرياتيكي، ومن الجنوب الشرقي على البحر الأيوني، وعلى خليج ترانتو Taranto من الغرب و الجنوب (المترجم).

(2) أطلق عليها الصليبيون تورون، وتبنين هي قرية تابعة لمحافظة النبطية، تقع جنوب شرقي لبنان الحالية، وعن وقائع الإفرنج بها راجع: أبي شامة، الروضتين، ج4/ ص 44 وما يليها، ابن واصل، مفرج الكروب ج3/ ص 75 وما يليها (المترجم).

لحسن مقدرات المسلمين، توقفت الحملة الصليبية اللاتينية عند القُسْطَنطينية[1]؛ حيث أسست المملكة اللاتينية التي استمرت لنصف قرن تقريبًا، واجتذبت الكثير من المغامرين من القوى الصليبية في سوريا. هكذا لم تحدث أي أعمال عدائية ذات أهمية، فيما عدا القليل من المناوشات بجوار قلعة الحِصْن Crac des Chevaliers[2]

---

(1) كان هدف الحملة الصليبية الرابعة هو استرجاع مملكة بيت المقدس عن طريق غزو مصر أساس قوة الدولة الإسلامية، إلا أنها بدلًا من ذلك انحرفت عن مسارها في أبريل عام 1204م واحتلت مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، وقد اختلفت الآراء حول مسئولية تغيير اتجاه هذه الحملة، ومن أبرز هذه الآراء، أن مسئولية هذا التغيير ترجع إلى البابا انوسنت الثالث بدافع العداء القديم بين الكنيستين الشرقية والغربية، ورغبته في إخضاع كنيسة القسطنطينية للسيادة البابوية والانتقام من البيزنطيين الذين عرقلوا مرور القوات الصليبية وسببوا هذه المتاعب منذ قيام الحروب الصليبية، وهناك رأي آخر يقول إن البنادقة هم المسئولون عن هذا التغيير بسبب المعاهدة التي تم إبرامها بين البنادقة والعادل سلطان مصر، والتي كانت تنص على تغيير البنادقة اتجاه الحملة الصليبية عن مصر مقابل منحهم امتيازات جديدة هي حي خاص بهم في الإسكندرية، هذا غير رغبة البنادقة في استعادة مراكزهم وامتيازاتهم التجارية في العاصمة البيزنطية بعد التفوق الذي أحرزه الجنويون والبيزيون، انظر: أسمت غنيم، الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية، القاهرة 1982م، إسحاق تاوضروس عبيد، روما وبيزنطة، دار المعارف بمصر 1970م، ص 305: 352 ، روبرت كلاي، فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة: حسن حبشي، د. ن، 1964م (المترجم).

(2) أهم القلاع الإسلامية الصليبية في الشام، تقع على مسافة 240كم من دمشق، وحوالي 60كم غربي مدينة حمص على ارتفاع حوالي 750م، على الطريق بين حمص وطرابلس الشام، ترتبط بسلسلة من الحصون التي تصل إلى بيت المقدس، أطلق عليها =

والمَرْقَب[1]، فضلًا عن غارة على الساحل المصري، وفي عام 600هـ/ 1204م عقد عَمُوري هدنة جديدة مع السلطان المصري، الذي سرَّه أن يعيد الهدوء باستعادة يافا والرَّملة من الفرنجة. وعُقِدَت هدنة مماثلة مع طرابلس عام 603هـ/ 1207م، فقد كان السلطان دبلوماسي بالفطرة، ودائمًا ما كان يفضل المعاهدات على المعارك. لقد قام بتأمين دعم قوي ومتبادل بموجب المعاهدة التجارية التي عقدها مع البندقية عام 605هـ/ 1208م[2]، نال من خلالها مواطني البندقية منشآت تجارية خاصة في الإسْكَندرية وعند مصب النيل في مقابل مساعيهم الحميدة المزعومة لكبح جماح الصليبيين من التقدم نحو مِصْر. في غضون ذلك مات عَمُوري عام 601هـ/ 1205م، وخلفته ماري Mary ابنة زوجته (ابنة إيزابيلا كونراد مونتفرات Conrad of Montferrat) على مُلْك بيت المقدس، ومن ثمّ تزوجت

= عدة أسماء منها حصن الأكراد وقلعة الفرسان، بنيت على الطراز النورماني على عدة مراحل فيما بين عامي 1140 – 1170م ، ظلت في أيدي الصليبيين حتى فتحها الظاهر بيبرس عام 669هـ/ 1271م، راجع: عبد الرحمن زكي، العمارة العسكرية في العصور الوسطى بين العرب والصليبيين، المجلة التاريخية المصرية، المجلد السابع 1958م، ص 128 (المترجم).

(1) حصن هام يقع على مسافة 5 كم شرقي مدينة بانياس على الساحل السوري على ارتفاع حوالي 370م، بُني عام 454هـ/ 1062م، استولى عليه الصليبيون عام 510هـ/ 1117م، واستلمه فرسان الاسبتارية عام 582هـ/ 1186م وظل في أيديهم حتى فتحه السلطان قلاوون المملوكي عام 684هـ/ 1285م بعد حصار طويل، كان إيذانًا بانتهاء الوجود الصليبي في المشرق (المترجم).

(2) عن المعاهدات والاتفاقيات بين الأيوبيين والبنادقة راجع: فايد حماد محمد عاشور، العلاقات بين البندقية ومصر في العصر الأيوبي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، 1978م، ص 118 : 144 (المترجم).

بجـان دي بريـن John of Brienne[1]، الـذي سـيظهر بعد ذلـك كصليبي قـوي، لكن لـم تكن قواته في البداية كافية للسـعي نحو المدينة المقدسـة. أطلق البابا إنوسنت الثالث صيحة الحرب مرة ثانية، لكن الاستجابة الأولى كانت «حملة الأطفال»[2] التعسة، والتي لم تفعل إلا أن ملأت مصر بأسرى من الأطفال، الذين كانوا في صالح العدو. وربما من فرط خجله من المثل البطولـي الذى ضربه هؤلاء الأطفـال، قام أندرياس Andreas ملك المجر Hungary، يعاونه الدوق الكبير ليوبولد من النمسا Leopold of Austria، وهيو من قبرص Hugh of Cyprus، وملك أرمينية، و رانولف من شيسـتر Ranulf of Chester، والعديد من النبلاء والأسـاقفة، بإرسـاء قوة ضخمة فـي عَكّا؛ حيث اندفعت أفواج الـمجريين والألمان الجنوبيين والـفريزيين والـراينلانـدرز Rhinelanders إلى حمل راياتهم، والقيام بثلاث حملات عقيمة، الأولى نحو بِيسان Beysan وحتى ما وراء نهر الأردن، والثانية إلى الحصن الذي بناه العادل على جبل طابور، وفشـلت في أن تسـتولي عليه؛ والثالثـة تجـاه بوفـورت Beaufort. وقد راقب سـلطان مِصْـر تحركاتهم،

---

(1) هو نبيل فرنسي صار ملكًا اسميًا على بيت المقدس بالزواج عام 606هـ/ 1210م، وصار إمبراطورًا على المملكة اللاتينية بالقسطنطينية من عام 625هـ/ 1228م وحتى وفاته عام 634هـ/ 1237م، قاد الحملة الصليبية الخامسة على مصر عام 616هـ/ 1219م، راجع: محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة: حملة جان دي برين على مصر، القاهرة 1985م (المترجم).

(2) كان الأطفال هم قوام هذه الحملة التي خرجت من ألمانيا وفرنسا عام 598هـ/ 1212م، انظر مزيدًا عنها: ستيفن رينسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3/ ص 249 وما يليها (المترجم).

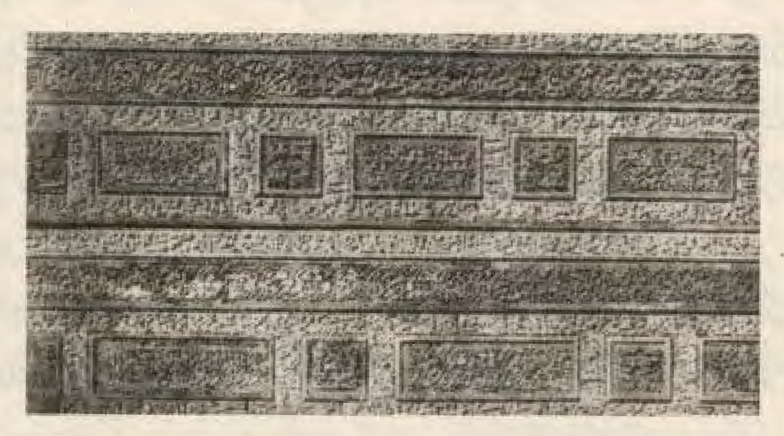
إلا أنه لم يجازف بالاشتباك. وأخيرًا عاد ملك المجر إلى بلده مستاءً، في حين ظل بعض الألمان يساعدون في تقوية الحصون الساحلية، خاصة بناء قلعة مونز بريجرينوس (Mons Peregrinus) قرب حيفا.

بدأ الصليبيون قبل هذا في إدراك أن أفضل طريقة للتغلب على العدو هي ضربه في منطقته الحيوية. وكانت مصر هي المنطقة الحيوية للدولة الإسلامية، وإلى حين إخضاع مصر، كانت الغارات التافهة في فِلَسْطين هي مجرد إهدارٍ للقوة. وأخيرًا، مع تعزيزه بأسطول من الفرنجة ورجال من الراين Rhine، استجمع جان دي برين شجاعته ليُغِير على دِمْياط، يرافقه ملك القُدْس، وأرشيدوق النمسا، والكونت وليم من هولندا William of Holland، وكونت وايد The Count of Wied، وسادة فرسان المعبد، والاسبتارية، والتيوتون Teutonic[1]، وسُرعان ما خيَّمَ جيش كبير على شاطئ الدلتا. كانت دمياط محصنة بقوة بسور ثلاثي التحصين، وبرج كبير مُقام على جزيرة وسط النيل، وسلاسل ممتدة عبر النهر، فضلًا عن المزايا الطبيعية لموقعها على شبه جزيرة محمية جزئيًا بالماء. لقد تمركز الصليبيون على الضفة الغربية؛ حيث وجهوا جهودهم للاستيلاء على البرج الكبير وسط النهر. هكذا أقاموا أبراج حصار على سفنهم، فضلًا عن سلالم التسلق، إلا أن نيران ومقذوفات الحامية قاومت الهجوم الأول،

---

(1) طائفة دينية ألمانية، تأسست عام 586هـ/ 1190م للمشاركة في التمريض في الحروب الصليبية لكنها تحولت إلى مؤسسة عسكرية عام 594هـ/ 1198م على نمط فرسان المعبد والاسبتارية، بعد أن اعترف بها البابا عام 587هـ/ 1191م، كانت أهم مراكزها في أنطاكية وطرابلس، راجع: حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة، الإسكندرية 1998م (المترجم)

يدعمها قوة جيش الكامل على الضفة الشرقية. بعد ذلك ربطوا السفن بعضها ببعض وبنوا قلعة أكثر قوة ذات جسر متحرك، وأرسوها بجوار برج النهر؛ حيث أُجبِرَ المدافعون - في يوم القديس بارثولوميو[1] St. Barth-lomew - على الاستسلام المشروط بعد كفاح مرير.



شكل (51) لوح خشب مزخرف بالحفر لضريح أحد الشيوخ، 1216م

تسببت خسارة هذا الحصن من أرض مصر في مقتل السلطان، فكانت وفاة العادل في الثامن من جمادى الآخرة عام 615هـ/ 31 أغسطس 1218م، عن عمر يناهز 73 أو 75 عامًا. وقد تمتع بسيرة طويلة عطرة لخمسين عامًا خلت، منذ أن دخل مصر مع شيركوه. لقد خدم أخاه بإخلاص وامتلك مهارة استثنائية ما يقرب من ربع قرن من الزمان، وقضى بعد وفاة أخيه خمسة وعشرين عامًا أخرى ساعيًا لاستعادة الإمبراطورية القوية التي فَرَّقها أبناء صلاح الدين بسبب غيرتهم. وقد نجح بالفعل في مخططه، فقد انضوى كل جزء من دولة صلاح الدين - باستثناء شمال سوريا - تحت

(1) هو يوم 23 أغسطس (المترجم).

سيطرته، وحَكَمَه أو واحد آخر من أبنائه الكثر. صار لكل من القاهرة ودِمَشْق والرُّهَا وحَرَّان وجَعْبر[1] ومَيافارقين[2]، وحتى اليمن حاكمًا من أبناء السلطان العظيم، وأبقت زياراته المتكررة لأقاليم إمبراطوريته من أقصاها إلى أقصاها، الجميع على أعلى مستويات الكفاءة والاستعداد:

إلى مَلِكٍ في العَيْنِ يَملأ سَرْحَةً[3] وَيَملأ آفاقَ البِلادِ اهتمامُهُ
أخو يَقَظاتٍ لَيسَ يَعرفُ طَرْفُه غِرارًا[4] سِوَى ما يحتَويهِ حُسامُهُ[5][6]

كان الفرنجة عاجزين إزاءه؛ فهجماتهم نادرًا ما كانت تصيبه بأذى، وكانت تضحيته بالقليل من الأراضي - بيروت ويافا والناصرة Nazareth - قد أدت إلى فترات طويلة من الهدوء، استمر خلالها

(1) تقع على الفرات مقابل صفين، على بعد 53كم من مدينة الرقة، كانت تعرف أولًا بدوسر فتملكها رجل من بني نمير يقال له جعبر بن مالك فغلب عليها فسميت به، ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 390 (المترجم).

(2) أشهر مدن ديار بكر، وتقع شمال شرقها بين دجلة والفرات، تسمى حاليًا (سيلوان) وتقع جنوب شرق تركيا، راجع: ياقوت، معجم البلدان، ج5/ ص 235: 237 (المترجم).

(3) السرحة: فناء الدار، أو كل شجرة طالت (المترجم).

(4) الغرار: هو النوم القليل، والغرار هو حد السيف، وفي الكلام تورية (المترجم).

(5) بهاء الدين زهير، 2- 258، أعاد بالمر Palmer الصياغة للحفاظ على تلاعب اللفظ العربي لكلمتي النوم والراحة. كان بهاء الدين شاعرًا معاصرًا، صار فيما بعد أحد الثقات وشاعر البلاط لدى الصالح أيوب، حفيد العادل.

(6) من قصيدة «عليك سلام الله»، للشاعر بهاء الدين زهير (581 - 656هـ/ 1185-1258م)، قالها في مدح الملك العادل الأيوبي، وأنشدها بقلعة دمشق عام 612هـ، راجع: ديوان بهاء الدين زهير، دار صادر - بيروت 1964م، ص 301، 302 (المترجم).

مواصلًا زيادة قوته. ولابد أن خلقه الشخصي كان جذّابًا، فقد حاز على إعجاب وصداقة الملك ريتشارد وغيره من الصليبيين. يصفه كاتب سيرته المشرقي[1] بأنه: «كان ملكًا عظيمًا ذا رأي ومعرفة تامة قد حنكته التجارب، حسن السيرة جميل الطوية وافر العقل، حازمًا في الأمور صالحًا.....عاش في أرغد عيش، وكان يأكل كثيرًا خارجًا عن المعتاد، حتى يقال إنه يأكل وحده خروفًا لطيفًا مشويًا، وكان له في النكاح نصيب وافر، وحاصل الأمر أنه كان ممتعًا في دنياه»[2].

كان قد ترك لابنه الأكبر المهمة الصعبة المتمثلة في طرد الفرنجة. ورث الكامل[3][4] العديد من سمات أبيه، فكان جنديًا بارعًا ودبلوماسيًا حاذقًا، وكان شديد المكر على ذوق معاصريه. شَرع في العمل في دِمْياط بنشاطٍ جم؛ حيث قام بطرح جسر عائم على النيل لإعاقة سفن الفرنجة، وقاد هجمات متكررة على مواقع العدو إلا أنها كانت غير مثمرة. وعندما قُطع الجسر بواسطة الصليبيين، قام بإغراق بعض السفن لسد الممر. أَلحقت

(1) ابن خلكان، 3 - FF 235.

(2) راجع: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5/ ص 76، 78 (المترجم).

(3) سكت عملات الكامل، بالقاهرة 616-635هـ (1219 - 1238م)؛ والإسكندرية 617 - 634هـ؛ ومدينة مصر 624هـ؛ ودمشق 615 - 619، 627هـ؛ وحرّان 623، 635هـ. ووضع اسمه كسيد على عملات العزيز في حلب، 619هـ؛ والأشرف في ديار بكر، 615هـ، والمظفر في ديار بكر 618هـ ؟63هـ.

(4) انظر ترجمته وسيرته في: أبي شامة، الروضتين، ج5/ ص 170 وما يليها، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5/ ص 79: 92، ابن واصل، مفرج الكروب، ج4/ ص 15 وما يليها، المقريزي، السلوك، ج1/ ص 313 وما يليها (المترجم).

حمى المعسكر وفيضان النيل أذى بالصليبيين أكثر من هجماته الضارية، لكن الفساد الصحي ذاته لمعسكرهم قد أجبرهم على التقدم، فقد عزموا على العبور بصرف النظر عن الأخطار المحدقة بهم، وانطلاقًا من هذا الهدف قاموا بتعميق قناة كبيرة؛ حيث قادوا أسطولهم في جهة المنبع إلى بقعة تقع جنوبي دِمْياط بثلاثة عشر ميلًا. ورغم أن أولى محاولاتهم قد تم إحباطها من قِبَل تنظيمات جنود الكامل الصَّلبَة على الضفة المقابلة، إلا أن وجود مؤامرة ضمن القادة المسلمين القائمين على القيادة، قد هددت عرش السلطان فضلًا عن حياته، وأجبرته على الفرار ليلًا إلى الريف، وسهلت عبور الصليبيين دون مقاومة تقريبًا، هكذا استطاعوا الاستيلاء على معسكر المسلمين، وأحكموا قبضتهم حول دِمْياط. لكن الصعاب التي لاقوها لم تكن قد انتهت بعد، فقد جمع الكامل بمساعدة أخيه المعظم في دِمَشْق، جيشًا جديدًا أنهك المُحاصِرين ليلًا ونهارًا؛ حيث قام بإحراق جسورهم، وتدمير آلات الحصار والتحصينات. مع ذلك وبرغم كل جهوده استمر الحصار، وبدأت المجاعة تؤتي أكلها. وقد تم تعزيز الصليبيين بصورة متواصلة من قِبَل أوروبا؛ فجاء لدعمهم فرسان فرنسيون وإنجليز، وجنود تحت قيادة كونتات، نيفيرز Nevers و مارتش Marche ، و إيرلات the Earls وينشستر Winchester وأروندل Arundel وشستر Chester؛ في حين تضاءلت الحامية المنهكة باستمرار حتى بقِيَ أربعة آلاف فقط من عدد يقارب خمسين ألف رجل قادرين على حمل السلاح. ولم يكن من الممكن أن يستمر النزال طويلًا بهذا القدر الكبير من عدم التكافؤ.

طلب السلطان الاتفاق عندما عاين ذلك، وعرض أن يتنازل عن كامل مملكة بَيْت المَقْدس كما كانت قبل فتح صلاح الدين عام 583هـ/ 1187م، إذا تم الجلاء عن دِمْياط. وعلى قدر صعوبة تصديق هذا التبادل الرابح فيما يبدو، تم رفضه بشكل غريب بحجة عدم كفايته؛ ومن ثمّ طالبوا بالمزيد من التنازلات. لم يكن الصليبيون في حالة تسمح لهم بقبول شروط من أي نوع. ولم يكن مُمثِّل البابا، الكاردينال بيلاجيوس Pelagius - الذي انتُخِبَ قائدًا عامًّا، وكان في نشوة مَن يحج للصليب - على استعداد للقيام بأية مقايضة مع «الكفار»؛ وقد اعتَبر آخرون أن دمياط بالغة الأهمية كمحور تجاري لا يمكن التخلي عنه. عبثًا تحدث ملك بيت المقدس والفرسان الشماليون بمزايا التبادل، إلا أن الكاردينال أقنعهم أن يدعموه في خيار الحرب إلى أقصى مدى. هكذا ذهبت أعظم الفرص التي يمكن أن تقدم للصليبيين على الإطلاق. وحين سمع فيليب أوغسطس - الذي خَبر قتال المسلمين قبالة عكا - بأن الصليبيين رفضوا استلام المملكة مقابل مدينة، هتف: «إنهم سُذَّج ومغفلون!». لقد سقطت دِمْياط بالفعل بواسطة الهجوم؛ حيث ذُبح البقية الباقية من الحامية المنهكة بغير رحمة، وبلغ الذُعر بالمسلمين قدرًا جعلهم يتعجلون هدم حوائط القُدْس والمدن الأخرى في فِلَسْطين، خشية أن تصير معاقل للعدو. لكن لم يتضمن أخذ دِمْياط الاستيلاء على مِصْر؛ حيث توانى الفرنجة بعجزهم المعتاد عن العمل، وقضوا عامًا ونصف عام في التشاجر بين أنفسهم عند دِمْياط. لم يكونوا حتى جمادى الأولى سنة 618هـ/ يوليو 1221م، مدعمين بقوة من ألمانيا، حين ذهبوا للقتال ضد السلطان. علاوة على ذلك، فقد وقع اختيارهم على الطريق

الخطأ لغزو مِصْر؛ حيث إن دِمْياط كانت ميناءً هامًّا، لكنها لم تكن القاعدة التي يمكن من خلالها التقدم نحو القاهرة، الهدف الرئيسي للهجوم. لقد كان اختيار أي جيش يستهدف الزحف نحو عاصمة مِصْر بطبيعة الحال هو الطريق القديم من الفَرَمَا إلى بِلْبَيس، والذي استخدمه الغزاة مرارًا وتكرارًا، من أيام قَمْبيز Cambyses والإسْكندر إلى فتح عَمْرو وحملات عَمُوري الأول. لم تكن هناك عقبات للتقدم نحو القاهرة فيما خلا صعوبات السير في الصحراء، أما بين دِمْياط والعاصمة فقد امتدت شبكة من قنوات وألسنة النيل، تتيح مواضع واضحة للدفاع، وتشكل سلاسل من الشِراك للجيش الغازي، الذي كان جاهلًا تمامًا بجغرافية البلاد[1].

بحلول ذلك الوقت بنى الكامل تحصينات على النيل إلى الجنوب قليلًا من دِمْياط، في قرية تم توسعتها لاحقًا فأصبحت مدينة المَنْصُورة[2]. استدعى أيضًا أقاربه، الذين احتشدوا جميعًا لدعمه، طارحين منافساتهم جانبًا أمام الخطر المشترك. وقد انضم إليه منذ البداية، المُعظَّم أمير دِمَشْق،

---

(1) See: Oman, *Art of War in the Middle Ages*, 264-5.

(2) قال ياقوت إن الملك الكامل قد أنشأها بين دمياط والقاهرة ورابط بها في وجه الإفرنج لما ملكوا دمياط سنة 616هـ، ويقول المقريزي إنها على رأس بحر أشموم، تجاه ناحية طلخا، وهي اليوم عاصمة محافظة الدقهلية وتقع شمال شرق القاهرة بنحو 120كم، ظلت قبلها بلدة أشمون طناح قاعدة لإقليم الدقهلية إلى آخر دولة المماليك، وفي بداية الحكم العثماني أصدر والي مصر آنذاك سليمان باشا الخادم أمرًا سنة 933هـ/ 1527م بنقل ديوان الحكم إلى مدينة المنصورة لتوسطها بين بلاد الإقليم وموقعها على النيل، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج5/ ص 212 ، المقريزي، الخطط، ج1/ ص 643 (المترجم).

ثــم قام أمــراء حَلَب وحَمَاة وحِمْـص وحَرَّان وكل جزء مــن الإمبراطورية، بقيــادة فرقهــم لإنقــاذ زعيمهم. لــم تظهر الســلالة الحاكمة فــي جبهة أكثر اتحــادًا منــذ أن كان صلاح الدين أمــام عكا، مما كانت عليــه حين اصطفوا على ضفة النيل لاعتراض الصليبيين.

تقــدم الــفرنجة جنوبًا، لكن ســرعان ما تــم إيقافهم بواســطة المَنْصورة وحاميتهــا ثابتــة العزم من الســوريين الأقوياء وفرســان الشــمال، محصنين خلــف «قنــاة أَشْــمُوم»، الفــرع الــتانيســي Tanitic القديــم للنيــل. لم يكن الموســم ملائمًــا، فقــد كان النهر فــي ارتفاع؛ حيــث قَطعت أراضــي الدلتا المســطحة المنخفضــة عدد من القنــوات، أعاقت الحركات الإســتراتيجية ومكَّنَت المســلمين من جلب أسطول لدعمهم. وبمجرد أن ارتفع الفيضان بدرجة كافية، انتشرت مجموعات من الجنود المسلمين على السهول خلف وحول العدو، وقاموا بقطع الســدود التي حبســت مياه النيل؛ فغدت البلاد كالبحيرة، ووجد الصليبيون أنفســهم على شــبه جزيرة يطوقهم الماء فضلًا عن الأعداء المتيقظين، وعمليًا صاروا مقطوعين عن التقدم أو الانســحاب على حد سواء. وفي ليلة السادس والعشرين من أغسطس قاموا بمحاولتهم اليائسة للهروب إلى دِمْياط عبر الممر الضيق الذي ظل سالكًا. بالكاد بدأوا في التحرك حين باغتهم العدو من كل جهة. وقد احتُل الطريق المؤدي نحو الشــمال بالفعل من قِبَل قوات المســلمين. كافح الفرســان ليشقوا طريقهم بشجاعة رائعة عبر الحقول المغمورة بالمياه، غارقين في القنوات العميقة. ظل النــزاع اليائس طوال يومين وليلتين، وبعدها صــرخ الصليبيون طالبين الرحمــة. مــال غالبية المســلمين الغاضبين لإبادة «الكفــار» بضربة واحدة،

إلا أن الكامل - مخلصًا لأسلوب أبيه رجل الدولة السياسي - فرض رأيه عليهم. لقد اعتبر أن شروطًا مواتية قد تنهي تلك الحرب العقائدية، على الأقل لبعض الوقت، بينما سيقود سفك الدماء بشكل أكيد لحملة صليبية انتقامية، ومن المحتمل أن يدفع حامية دِمْياط إلى المقاومة. هكذا سُمح للصليبيين بالمغادرة؛ بعد التعهد بالجلاء عن مِصْر وتسليم دِمْياط، والحفاظ على الهدنة لثمانية أعوام. وعلى الرغم من ذلك أضيف شرط للعقد، ينص على أحقية أي ملك أوروبي متوج في نقض هذه الهدنة. وقد رست تعزيزات جديدة قادمة من ألمانيا في ذلك الوقت تقريبًا قرب دِمْياط، وتلقت خبر المعاهدة بحزن شديد، إلا أن الرفض كان بعيد الاحتمال تمامًا، في وقت ظل فيه الجيش الرئيسي فضلًا عن الرهائن في حوزة المسلمين. وخلال أسبوع غادر الصليبيون بأكملهم شواطئ الإسْكَندرية يجرون أذيال الخيبة، وهم الذين كانوا قد بدأوا تلك الحملة منذ أربعين شهرًا خلت بآمال كبيرة ونجاح بارز.

لم تكن هناك أي محاولة لاسترداد القُدْس طوال ذلك الوقت. لم يكن الإهمال راجعًا فحسب لأسباب إستراتيجية، فقد تغيرت روح الصليبيين، حين تحولت حماستهم الدينية إلى حماسة دنيوية. أما بالنسبة للرجال في هذه المنطقة، فقد استقر الفرنجة في سوريا، مفضلين مدنها الساحلية الغنية المليئة بالتجار الإيطاليين، والتي تحدها الأراضي الزراعية الغنية، عن الأراضي المقفرة داخل فِلَسْطين، التي خربها الصراع مع صلاح الدين والإهمال الممنهج من قِبَل خلفائه، الذين لم يرغبوا في إغراء الصليبيين باحتلالها. وجه التجار أنظارهم - وخاصة البنادقة Venetians - نحو

دِمْياط والإسْكندرية، اللتين كانتا تعادلان خمسين مدينة مثل القُدْس، مع عدم رؤيتهم أي مميزات تجارية في سهول قاحلة وقرىً مهجورة، وطرق خالية من الماء. انطفأ التوق القديم لمدينة آلام المسيح أمام اشتهاء الثروة، ومع ذلك فإن الروح لم تمت، فقد استمر النشاط القتالي لأساقفة روما؛ حيث أجبر نداء العالم المسيحي للإمبراطور الصغير فريدريك الثاني Frederick II[1]، أن يشرع في حملة صليبية جديدة رغم موقفه الفلسفي تجاه الدين. لقد حفظ سلام عام 618هـ/ 1221م الحق لأي «ملك أوروبي متوج» بقطع العلاقات؛ حيث أُشير بوضوح لفريدريك في الفقرة التي نصت على هذا الشرط. كان قد حمل الصليب مبكرًا عام 612هـ/ 1215م، وأرسل جنودًا إلى مِصْر لتعزيز ذلك الجيش سيئ الحظ في وقت استسلامه بالذات، وتزوج عام 622هـ/ 1225م «وريثة بَيْت المَقْدس»، ابنة الملك جان دي برين، وعلى الرغم من أن يولاند Yolande مات بعد ثلاثة أعوام لاحقة، فقد طالب بتاجها من أجل إقصاء أبيها. تأجلت حملته الصليبية عامًا بعد عام بذريعة أو بأخرى، وجلب على نفسه حرمان البابا

(1) كان فريدريك الثاني (1194 – 1250م)، إمبراطورًا للإمبراطورية الرومانية المقدسة (1220 – 1250م)، وملك صقلية (1198 – 1250م)، من المعجبين بالثقافة والحضارة الإسلامية، فحاول عن طريق الترجمة والوسائل الأخرى نقلها إلى أوروبا، فكانت صقلية في عهده معبرًا من معابر الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوروبي، وقد أدى ذلك إلى غضب البابا ورجال الدين النصارى فرموه بالهرطقة والكفر، فدخل في صراع كبير معهم، قاد الحملة الصليبية السادسة على المشرق، التي انتهت بتتويج نفسه في القدس عام 1229م، عن الحملة الصليبية السادسة انظر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ج 34، رينسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3/ ص 305 وما يليها، محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص 277: 303 (المترجم).

نافد الصبر، لكنه أبحر في النهاية إلى الشام - رغم الحرمان البابوي - مع ستمائة فارس فحسب، يشابه «القراصنة من أتباع محمد ﷺ»، كما يقول جريجوري التاسع Gregory IX، أكثر من كونه ملك وجندي للمسيح.

كانت حملة فردريك الصليبية فريدة في كل ظروفها. لقد ظفر بالقدس ضد رغبة الكنيسة ودون معركة واحدة. كانت قواته في الحقيقة ضعيفة للغاية للمجازفة بالاشتباك مع جيوش المسلمين القوية. وتسببت معاملته السيئة لجان دي برين في صرف تعاطف الكثير من الصليبيين المستوطنين، وأضاع عليه نزاعه مع رُوما دعم رجال الكنيسة المتحمسين، ورفض فرسان المعبد والإسبتارية بتجهم أن يتبعوا قائدًا أدركته لعنة الكرسي البابوي. لم يبد أن أحدًا في الشام يهتم كثيرًا باستعادة القُدْس، لكن كان لفردريك حجة فاقت كل ذلك الجدل. وجد الكامل في أخيه المعظم حاكم دِمَشْق منافسًا، فقد اشتُبِه في استغلاله الإنهاك الذي حدث بعد حصار دِمْياط، والاستفادة من خدمته في الحرب؛ للتخلص من السلطة[1] التي شملت مِصْر وكل إمبراطورية صلاح الدين. وخوفًا من هذه الخيانة، أرسل الكامل سفارة إلى فردريك، كملك صاحب سيادة على مسلمي صِقِلِّية، عارضًا عليه مملكة بيت المقدس في مقابل دعمه. بدوره أتى برنارد أسقف باليرمو Bernard of Palermo في مهمة إلى القاهرة؛ حيث تم تبادل هدايا نفيسة. كان فردريك بشكل استثنائي على علاقة جيدة بالمسلمين، وقد أدى تسامحه هذا إلى إثارة الشكوك حول معتقداته. فكما رأينا، أطلق عليه

(1) تم رفض هذا الكلام من قِبَل أبي الفدا، والذي يقول إن المعظم ظل على إخلاصه للكامل؛ حيث أقر بسيادته بشكل دائم عن طريق الدعاء له في الصلاة.

البابا «من أتباع محمد». إن المراسلات التي تم نشرها بين الإمبراطور والفيلسوف العربي ابن سابين[1]، فضلًا عن مناقشات علوم ما وراء الطبيعة Metaphysical Discussions التي أحب فردريك أن يخوض فيها مع مبعوثي الكامل بعد وصوله إلى سوريا، تشير على الأقل إلى ما ينبغي أن نُطلِق عليه الآن أفكارًا متحررة، كانت يمكن أن تؤدي في تلك الأيام - في حالة المعتنقين الأقل أنصارًا - إلى الإعدام حرقًا. يُقِر مؤرخ عربي بأنه «كان الإمبراطور الأكثر إخلاصًا بين ملوك الفرنجة للعلوم والفلسفة والطب، فضلًا عن دعمه للمسلمين»، ووجد جوانفيل بعد عشرين عامًا لاحقة أن قرابته لفردريك كانت أفضل شفيع له عند المماليك. لا ريب أن هذا التسامح، الذي ربما شارك فيه الكامل بصلات مع النبلاء الأوروبيين؛ قد أدى إلى تقدير متبادل، إلا أنه لا يوجد دليل على توقيع أية معاهدات، على الرغم من التوصل لإيجاد بعض التفاهم. في غضون ذلك تغير هذا الوضع، فقد تُوُفِّيَ المُعَظَّم في شتاء 625هـ/ 1227م، ولم يكن خطر المنافسة السورية حاسمًا بصورة كافية للضغط على الكامل حتى يقدم أية تنازلات كبيرة، ومن الكثير الذى قيل عن دبلوماسية الإمبراطور إنه استطاع أن يحمل مفاوضه المصري على قبول المعاهدة، التي وُقِّعَت في صفر 624هـ/ 11 فبراير 1229م، وصَدَّقَ عليها المَلِكان بالقسم بعد أسبوع لاحق. لا ريب أن الكامل كان مُلزمًا بعض الشيء بعروضه السابقة، لكن حافزه الرئيسي كان في الضمانات الهامة المقابلة التي تلقاها من الإمبراطور.

---

(1) نُشِرتَ بواسطة الأستاذ مهرين Prof. Mehren.

كانت معاهدة عام 626هـ/ 1229م أبرز ما تم توقيعه بين القوتين المسيحية والإسلامية، وذلك قبل زمن المعاهدات الأوروبية مع الإمبراطورية التركية[1]. من جانبه تنازل سلطان مِصْر عن القُدْس (التي مع ذلك لم يسمح بتحصينها)، جنبًا إلى جنب مع بَيْت لَحْم Bethlehem والنَّاصِرة، وطريق الحج إلى يافا ثمَّ إلى عكا؛ للحيازة المطلقة للإمبراطور، محتفظًا فقط بحرم بيت المقدس، الذي يشتمل على مسجد عُمَر[2]، للاستخدام الحصري وحيازة المسلمين العزل. وأطلق أيضًا سراح جميع الأسرى الصليبيين، يشمل ذلك العديد من ضحايا «حملة الأطفال الصليبية» غير الموفقة. وفي المقابل تعهد الإمبراطور بالدفاع عن السلطان ضد جميع الأعداء، حتى النصارى منهم، وضمانه عدم تلقي أمراء شمال الشام مثل أنطاكية وطرابلس ومختلف الأماكن الأخرى، أي مساعدات من قوّى خارجية. وتستمر هذه التعهدات لعشرة أعوام ونصف عام.

لا ريب أنه إذا تم بأمانة التقيد بتلك المعاهدة، لربح الكامل عن طريقها أكثر بكثير مما خسر. فقد كانت الأراضي التي تم التضحية بها قليلة القيمة، مع الاحتفاظ بالجزء الوحيد المقدس لدى المسلمين من القدس بشكل خاص؛ بينما كانت مزايا الحِلف الدفاعي مع الإمبراطور عظيمة. ومهما كانت النتيجة لربما بدت مُرضِيَة لدى الطرفين المتعاهدين، إلا أن المعاهدة أثارت عاصفة من السخط بين المتعصبين من كلا الجانبين. عادت المدينة المقدسة بالفعل صليبية مرة ثانية، باستثناء جزء واحد، لكن بأي ثمن من

---

(1) المقصود بها الدولة العثمانية (المترجم).

(2) هو مسجد قبة الصخرة (المترجم).

الشـرف كان هـذا ؟! قال الفريق البابـاوي بأن فردريك سـاوم «الكفار» بدلًا مـن قتلهم. لقد ظلت معظم المملكة اللاتينية القديمة في أيدي المسـلمين. واستاء أمير أَنْطاكية كثيرًا، هو والجماعات العسكرية التي ملكت العديد من القلاع شمال سوريا، من الشرط الذي ينص على عزلهم عن تلقي العون من الجانب الأوروبي. لقد بدا الأمر في الواقع كانتقام كيدي على غدرهم. ونظر المسلمون من جانبهم للصفقة كخيانة مخزية للإسلام لصالح «الكفار».

دخـل فردريـك القُدْس خلال شـهر مـن المعاهدة، ووضـع التاج على رأسـه متوِّجًا نفسـه في كنيسة القبر المقدس[1]. وفي اليوم التالي وضع كبير أسـاقفة مدينة قَيْصَرية، المدينة المقدسـة تحت الحرمان الكنسي؛ مما أثار ذهول وسخط حشود الحجاج، الذين صرخوا قائلين: « المكان الذي عانى ودُفِنَ فيه يسـوع المسـيح أصبح محظورًا من قِبَل البابـا!» ، وجَرَّاء ذعرهم من هول الفاجعة، سـارعوا باتبـاع الإمبراطور إلى عكا؛ حيـث أبحر عائدًا إلى إيطاليا بعد تعيين رجال أمناء لإدارة مكتسباته الجديدة، ولتقوية جماعة التيوتون بكل الوسـائل الممكنة. هكذا انتهت الحملة الصليبية، ورغم أنها عملـت على اسـترداد بَيْـت المَقْـدس، إلا أن المدينة وقعت فـي إطار بلاد معاديـة، ولـم يكن مـن الممكن لها صـد أي هجـوم بالقوة. التـزم الكامل تمامًا بالمعاهدة التي أقسـم عليها (كما فعل النصارى بأمر البابا الذي أعيد النظر في أمره)، لكنه لم يستطع على الدوام أن يمنع المسلمين المتعصبين من إسـاءة معاملة الحجاج وتعكير سـلام المدينة المقدسـة. تركت معاملة

(1) المقصود بها كنيسة قُمَامَة، أو ما يطلق عليه الآن كنيسة القيامة، التي يحج إليها النصارى، زاعمين أن المسيح عليه السلام قد دُفن بها (المترجم).

الإمبراطور المتغطرسة مع العديد من النبلاء السوريين والقبارصة جراحًا لم تندمل، أدت إلى سلسلة من النزاعات. أما عن المكتسبات التي عادت على العالم المسيحي من تلك الحملة الصليبية فكانت ضئيلة، لكن اللوم كان يقع في ذلك على البابا ومؤيديه أكثر من الإمبراطور غير الحكيم.

كانت السنوات التسع الأخيرة من حياة الكامل خالية من إزعاج الحملات الصليبية، وأيضًا من المنافسة الخطيرة من قِبَل أقاربه. لقد تم الإقرار عمومًا بحقه الشرعي كسلطان لمختلف الأقاليم التي يحكمها الأيوبيون. عَيَّن أخاه الأشرف نائبًا في دِمَشْق؛ حيث قاما معًا بحملة في بلاد الفُرات، أخذا من خلالها آمد Amid[1] من الأمير أُرْتُقد Ortukid الذي حكم أسلافه هناك على مدار مائة وثلاثين عامًا. سعى الكامل لتدعيم اتحاد العائلة عن طريق زواج بناته من أمراء حَلَب وحَمَاة، ورغم إخفاقه في الحملة أمام كي قوباد Kay-Kubad، السلطان السَّلْجُوقي لآسيا الصغرى، إلا أنه استعاد الرُّهَا منه، وحافظ على

شكل (52) نسر بقلعة القاهرة، من المحتمل أنه يرجع إلى بدايات القرن 13م.

(1) هي الآن مدينة ديار بكر الواقعة جنوب شرق تركيا، في أقصى ما بين النهرين، أطلق عليها آمد أو آميد منذ تأسيسها كمستوطنة آرامية على ضفاف نهر دجلة، أضحت مركزًا لإقليم ديار بكر من الجزيرة الفراتية منذ أن فتحها العرب المسلمون عام 18هـ/ 639م (المترجم).

سلطته فى سائر الإمبراطورية التي ورثها عن أبيه، غير أن ذلك لم يحدث دون احتكاكات، فقد نظر إليه الأمراء الأدنى مرتبة بعين الشك والغيرة وارتابوا في دبلوماسيته الماكرة. وقد حدث قطع للعلاقات مع الأشرف عام 633هـ/ 1236م، ومع وفاته في 634هـ/ 1237م زحف الكامل على دِمَشْق للتأكيد على حقه في كونه سلطانًا أعلى. تم الدفاع عن المدينة بواسطة أخيه الصالح إسْمَاعيل، بدعم من أمراء حَلَب وحِمْص، الذين لم ينتسبوا للعادل، ودائمًا ما كانوا في معزل عنه وعن الكامل بقدر ما واتتهم الشجاعة. بعد حصار قوي، تم الإقرار بتسوية مُنحت على أساسها دِمَشْق للسلطان المصري، وتلقى الصالح بَعَلْبَك والمدن الأخرى، وعوقِبَت حِمْص على تدخلها. لكن برهن التعرض لصعوبات حملة شتوية على كونهم أكثر احتمالًا من الكامل، فقد أعقب ذلك إصابته بالحمى؛ ومن ثمّ وفاته في دِمَشْق. حكم الكامل مصر لأربعين عامًا، عشرون قبل وفاة العادل وعشرون بعدها. كان على قدم المساواة مع أبيه كرجل دولة، حَذِرًا وحازمًا في التشاور، مديرًا نشطًا وكفئًا، استطاع إدارة مملكته بمفرده. لم يُعين كبيرًا للوزراء بعد وفاة وزير أبيه، صَفِيِّ الدين، إلا أنه أنجز كل مهام الدولة بنفسه. ازدهرت مصر للغاية في ظل حكمه. وقد عمل جاهدًا على تحسين نظام الري، وعاين بنفسه عمل المهندسين ومد وتحسين القنوات والجسور والسدود، وضمان أمن المسافرين، والانتهاء من تحصينات قلعة القاهرة؛ ولكونه مسلمًا مخلصًا قام بتأسيس الكثير من المؤسسات،

مثل دار الحديث أو المدرسة الكاملية[1] في بَيْنَ القَصْرَين. لقد أحب العلم ومجتمع العلماء مثل معظم أفراد عائلته، واستطاع أن يبلي بلاءً حسنًا في المناقشات الأدبية التي نظمها مساء كل خميس.

خَلَفَه ابنه العادل الثاني[2]، وهو المسرف الذي أُطيح به خلال عامين ضمن مؤامرة نفذها مساعدوه، ليتولى العرش أخوه الصالح أيوب[3]. وقعت الأحداث الرئيسية من



شكل (53) دينار الكامل، الإسكندرية، 1225م

حكم الصالح في سوريا، بسبب خصم عنيد هو عمه الصالح إسماعيل، الذي استولى على دِمَشْق عام 636هـ/ 1239م، ثم سعى لتقوية نفسه بدعم من الفرنجة، الذين سلَّم لهم قلاع شِقيف Shekif وصَفَد وطَبَرِيَّة وعَسْقَلان. رغم ذلك لم تكن حالة الصليبيين فعَّالة بشكل كبير، فقد شلَّ قوة

(1) عنها انظر: أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، (العصر الأيوبي)، ج2/ ص 55: 60 (المترجم).

(2) عملات العادل الأصغر سُكت في القاهرة بين عامي 635 - 637هـ (1238 - 1240م)؛ ودمشق عام 635هـ. لقد تُوفِّيَ في السجن بقلعة القاهرة في شوال 645هـ/ فبراير 1248م. هناك علبة مكفتة بالفضة والنحاس تحمل ألقابه في متحف فكتوريا وألبرت جنوب كنسنجتون Kensington.

(3) سك الصالح أيوب عملاته في القاهرة بين عامي 637 - 646 هـ (1240 - 1248م)؛ ودمشق عامي 644، 645هـ؛ واعترف به كسلطان أعلى على عملة للناصر في دمشق عام 647هـ (1249م).

الفرنجة، الحملة الكارثية للملك نافاري Navarre دوق برجندي وكونت مونتفورت Montfort ، التي هُزِمَت في غَزّة، وبالكاد تم إنقاذها من الدمار بحصافة ريتشارد كورنوول Richard of Cornwall، وسيمون مونتفورت Simon of Montfort. دُفِعَت القبائل الخوارزمية المتوحشة غربًا بغزو جنكيز خان[1]، ومن ثمّ استدعاها الصالح أيوب للمساعدة في استئصال الصليبيين وانتزاع بيت المقدس، وبالفعل تم ذبح سبعة آلاف من السكان العاجزين، واستعيدت المدينة المقدسة مرة أخرى وأخيرة للإسلام[2]. كانت هزيمة القوات المشتركة للفرنجة والمسلمين السوريين كارثية على أيدي المصريين والخوارزميين قرب غزة؛ وقد استعاد أيوب دِمَشْق عام 643هـ/ 1245م، وعَسْقَلان 645هـ/ 1247م؛ وأخيرًا استعاد مملكته بنفس مستوى القوة التي وصلت إليها في عهد أبيه وجده. لم تتوقف حملاته الناجحة إلا بمرض خطير، تلقى خلاله رسالة عاجلة تُعلِن عن غزو مِصْر

(1) هو الزعيم المغولي الشهير، تيموجين الملقب بجنكيز خان (ت 624هـ/ 1227م)، استطاع أن يوحد المغول أو التتار في موطنهم الأصلي بوسط آسيا، بعد أن كانوا قبائل بدوية ليس لهم أماكن معينة للاستقرار، يخضعون تارة للصين في الشمال وتارة للترك في وسط آسيا، ومن ثمّ وجههم لفتح البلاد، فغزا بهم الصين واستولى على عاصمتهم بكين عام 612هـ/ 1215م، كما غزا بلاد الترك وبلاد ما وراء النهر، فأحرق سمرقند واستولى على إقليم خوارزم وخراسان، هكذا ساد ملكه من البحر الأصفر إلى البحر الأسود (المترجم).

(2) كان ذلك قبل خروجها مرة أخرى من أيدي المسلمين بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، واحتلال القدس من قِبَل الانجليز عام 1917م، ثم احتلالها من قِبَل الكيان الصهيوني بعد هزيمة عام 1967م (المترجم).



شكل (54) دينار الصالح أيوب، القاهرة، 1239م

من قِبَل لويس التاسع[1]. وعلى الفور قام بالانتقال محمولًا إلى مسرح الأحداث المُنذِر بالحرب.



شكل (55) نقش على ضريح الصالح أيوب، بالقاهرة، 1252م

ربما كانت الحملة الصليبية للويس ملك فرنسا، الحملة الوحيدة منذ أيام جودفري بويلون التي تستحق أن يطلق عليها حربًا مقدسة. قادها قديس بطل، يماثل في الحقيقة سير جالاهاد Sir Galahad، الذي «كانت حياته كلها صلاة؛ وجل هدفه تحقيق مشيئة الرب»، هو ملك ألهمت شخصيته

(1) هي الحملة الصليبية السابعة، انظر مزيدًا عنها: جوانفيل، القديس لويس..حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، القاهرة 1968م، حسن حبشي، الشرق العربي بين شقي الرحى...حملة القديس لويس على مصر والشام، القاهرة 1949م، جوزيف نسيم، لويس التاسع في الشرق الأوسط، القاهرة 1959م، العدوان الصليبي على مصر، الإسكندرية 1969م، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، القاهرة 1961م (المترجم).

الرفيعة والنبيلة ثقة وتقديسًا عالميًا؛ وقائدًا ارتكزت شجاعته وجلَدَه على يقين إيمانه فضلًا عن واجبات شرفه الفروسي. ومع ذلك فقد كان نبله ونقاء طبيعته بمثابة عوائق تحول دون السيطرة على جيش جامح فاجر، لكن السبب الرئيسي لفشله المؤسف يعود إلى حد ما إلى جهله بطبوغرافية أرض المعركة، فضلًا عن قصور في قواته. لم تكن حملته الصليبية من كافة أنحاء أوروبا، مثلما أثار القديس برنارد St. Bernard، فقد دخلت كل من ألمانيا وإيطاليا في نزاع بين البابا والإمبراطور، واضطر ملك فرنسا إلى الاعتماد بشكل أساسي على رعاياه، لقد جمع نحو ألفين وثمنمائة فارس فرنسي، بمرافقة عدد من الإقطاعيين ورجال الجيش الآخرين، وخمسة آلاف من الرماة، ثم التحق بهؤلاء فرق صغيرة من إنجلترا وقُبرص ومن الفرنجة السوريين[1]. أبحر الفرنسيون في 1720 سفينة، إلا أن العواصف عملت على تشتيت الجزء الأكبر بين قُبرص ومِصْر ودفعتها إلى الموانئ الشامية، هكذا وصلت سبعمائة سفينة فحسب إلى دِمْياط في بداية يونيو[2]. كان بالمدينة حامية من العرب من قبيلة كنانة، المشهورة بالشجاعة، بدعم من الجيش المصري بقيادة فخر الدين، إلا أن الحامية قامت بالفرار بمجرد ظهور الفرنسيين، متبوعة بجميع السكان؛ حيث تراجع المصريون إلى المنصورة.

احتل لويس دِمْياط دون اشتباك واحد تقريبًا، ورسا مثل جان دي برين على الجانب الخطأ من النيل، إلا أنه مع إهمال الخصم تدمير الجسر العائم

(1) يُقدِّر المؤرخون العرب مجموع هذه الأرقام بشكل تقريبي يناهز الخمسين ألفًا.

(2) وفقًا لجوانفيل، كان ذلك في 27 مايو، إلا أن معظم المصادر تجعل احتلال دمياط، الذي جرى فور وصول الأسطول، في الخامس أو السادس من يونيو.

أثناء عجلته، عبر لويس دون أية صعوبة. وللمرة الثانية ارتكب نفس الخطأ القاتل بتأخير تقدمه، على غرار ما فعل سلفه منذ ثلاثين عامًا خلت. كانت فرصته الوحيدة أن يندفع مسرعًا إلى القاهرة قبل أن يرتفع النيل، بينما شل المسلمين - الذين أصابهم الرعب من خسارة دِمْياط - مرض سلطانهم المحتضر، الذي فَقَدَ أتباعه الطمأنينة بعد الإعدامات الصارمة بحق الهاربين التابعين لكنانة. وبدلًا من هذا، انتظر الفرنسيون في دِمْياط ما يقرب من ستة أشهر، متوقعين وصول بقية الجنود الذين تم الدفع بهم إلى سوريا. وصل أولئك إلى ساحة الحرب في أكتوبر، وبعد ذلك عُقِدَت مشاورات حول الذهاب إلى الإسْكَندرية أو الزحف مباشرة نحو القاهرة. وكان القرار هو «ضرب رأس الأفعى»، بالمسير نحو القاهرة. مرة ثانية أعقب ذلك حادثة شديدة التماثل لسابقة حدثت من قبل عام 616هـ/ 1219م، فقد جازف الصليبيون مرة أخرى، نسيانًا أو جهلًا بالدروس الكارثية التي تم تعلمها سالفًا، وبالعقبات التي لا نهاية لها أثناء الزحف خلال أرض تتقاطع فيها القنوات العميقة وأفرع النيل، بدلًا من اختيار خروج سريع ومسيرة سهلة خلال أرض مفتوحة من الفَرَمَا. لقد استغرقوا شهرًا لقطع أقل من خمسين ميلًا صعودًا في النيل، وخلال هذا الوقت، وطوال ما يقرب من سبعة أشهر من مهلة غير متوقعة، تم تعزيز جيش المسلمين بثبات، فضلًا عن تعافيه تمامًا من الذعر، حتى أن الصليبيين كثيرًا ما فوجئوا في خيامهم بمسلمين مغامرين، تواقين للظفر بالمكافأة المعروضة لكل رأس من رؤوس «الكفار».

أُجبر الفرنسيون على التوقف في نفس تلك البقعة التي بلغها سلفهم غير الموفق عام 616هـ/ 1219م. وصلوا شرمساح Sharmesa[1] في الزاوية التي يتفرع فيها الفرع التانيسي القديم للنيل - المعروف آنذاك بقناة أشموم، والآن يعرف بالبحر الصغير - شرقًا من فرع دمياط الكبير. كان على يمينهم المجرى الرئيسي للفرع الشرقي للنيل، وفي الأمام البحر الصغير، وعلى الجانب الآخر أمكن رؤية معسكر الجيش المصري المقابل له مستريحًا في مدينة المنصورة، نحو أربعة أميال جنوبي الموضع الذي يتفرع فيه النهر[2]، ومدعومًا بسفن في المجرى الرئيسي. وللمضي قدمًا كان ينبغي عبور واحد أو آخر من فرعي النهر، وبالفعل اختار لويس أصغرهما. وبدأ على الفور في بناء سد أو جسر عبر البحر الصغير، وشيَّد قبل عيد الميلاد سقيفتين لحماية الفرق العاملة، وزوج من الأبراج المسلحة لحمايتها. قام المسلمون على الجانب الآخر بالحفر في ضفة النهر، وبفعل تيار الماء السريع، حافظوا

---

(1) هي بلدة من كورة الدقهلية، تتبع الآن محافظة دمياط مركز فارسكور، ياقوت، معجم البلدان، ج3/ ص 338 (المترجم).

(2) يقدم The Rev. E. J. Davis, of Alexandria في كتابه: غزو لويس التاسع لمصر 32-34، تفاصيل طوبوغرافية مثيرة للاهتمام مستمدة من الملاحظة المحلية والبحوث. يذكر أنه في عام 1249م كان البحر الصغير بعيدًا عن فرع دمياط بنحو أربعة أو خمسة أميال شمالي المنصورة، بدلًا من كونه (كما هو الحال الآن) على مقربة من المدينة. سمى جوانفيل البحر الصغير «قناة ريكسي»canal de Rexi، حيث اشتقه من قرية دركسا Dereksa، التي لاتزال موجودة، وليس من "رشيد" ، وبالتالي تبرئة جوانفيل من خطأ سخيف. يسجل أيضًا اكتشاف عدد كبير من الجماجم، موضحًا أنها أوروبية، مبعثرة في مساحة كبيرة، "مثل جبانة واسعة"، شمال شرق المنصورة، والتي يعتقد أنها بقايا الصليبيين الذين سقطوا في معركة ثلاثاء ما قبل الصيام الكبير.

على سـعة المجرى، ووجَّهوا دفقات غزيرة من المقذوفات بواسـطة مقالع الأحجار السـتة عشـر (Perrières, Petrariae) ناحية الدفاعات الفرنسية. ردت الأخيرة بواسـطة ثماني عشـرة آلة، واسـتمرت مبارزة بالقاذفات عبر النهر لبعض الوقت. وكان الجسـر يقع في مركز الهجوم. هاجم المسلمون الفـرق العاملة بوابـل متواصل من البراغي والسـهام والأحجار، عن طريق البـر والماء، ودمروا الثقيفتين والأعمال الخشـبية الأخـرى مرتين بإطلاق النـار الإغريقيـة بكثافة. ومما يضيف إلى مخاطر هـذا الموضع أنهم عبروا البحـر الصغير مـن الناحية السفلى، وهاجموا جيش الملـك من الخلف. لقـد تم التغلـب عليهم، لكن كان على لويس الآن أن يحصِّن معسـكره من الناحية الشمالية الشرقية، وأن يحرسه من كل جانب.

كان الجسر لايزال غير مكتمل، والنهر غير سالك كما كان، عندما أفشى أحد الخونة - قيل إنه شخص ما يدعى «الكافر سُلُمون» - سر مخاضة سرية في البحر الصغير، مقابل خمسمائة قطعة ذهبية، وفي ثلاثاء ما قبل الصيام الكبير، أخذ ملك فرنسا أفضل فرسانه وركبانه، فضلًا عن رماة الأسهم الراكبين إلى المكان. عَبَرَ الفرسان في ثلاثة أقسام أو فرق، كان أولها فرسان المعبد، يليهم القسم الثاني ورماة السهام الراكبين، تحت قيادة شقيق الملك روبرت كونت أرتوا، وفي المؤخرة فرقة الملك ومرافقيه. لم يكن بالممر أية مقاومة، برغم ذلك لم يكن غائبًا عن الملاحظة، لكن بمجرد وصول كونت أرتوا إلى الجانب الآخر، أصر - في عصيان مباشر لأوامر الملك - على الهجوم الفوري على العدو. عبثًا ناشده قائد فرسان المعبد ووليم طويل السيف Longsword، الحاكم الاسمي لمقاطعة سالسبوري

Salisbury، أن ينتظر عبور فرقة الملك. فأجاب ساخرًا، أنه لا خيار لهم سوى اللحاق به في الهجوم على العدو. هجموا جميعًا بعنف على معسكر المسلمين[1] ومباشرة دخلوا إلى المَنْصورة وخرجوا من الجانب الآخر. ذبحوا القائد العام للمسلمين، فخر الدين، الذي كان يستحم ولم يكن لديه وقت لتحضير سلاحه. لقد حاز على لقب فارس من قِبَل فردريك الثاني، إلا أن فروسيته لم تنجده. تشتت الصليبيون في جماعات متفرقة، واستمتعوا بالمناوشات الشخصية، بصرف النظر عن أي تشكيل أو حذر من أى هجوم. لقد غامروا حتى بمحاولة الاستيلاء على قصر السلطان على ضفة النهر خلف المدينة، حين باغتهم مصيرهم المُستحَق.

استحال الجنود المصريون والعرب إلى الفوضى، إلا أن أسراب الخيالة موضع الثقة والذين يبلغ عددهم نحو عشرة آلاف مملوكي، ممن دربهم الصالح بعناية باعتبارهم الأفضل، لم يُبَث فيهم الروع بهذه السهولة. لقد احتشدوا قرب القصر؛ حيث غيرت هجماتهم القوية بقيادة بيبرس من مقدرات ذلك اليوم. لقد دُفِعَ الصليبيون إلى شوارع المَنْصُورة الضيقة التي تم تحصينها، أما النوافذ والأسطح فكانت مزودة برماة السهام، هكذا قُطِّعَ الفرسان الفرنسيون إِرَبًا هناك أو في شِراك الخيام، وقُتِلَ كونت آرتوا وثلاثمائة من فرسانه، وهرب خمسة فقط من فرسان المعبد بمشقة كبيرة، أما وليم طويل السيف وكل الانجليز تقريبًا فقد صمدوا في مواقعهم حتى الموت. قُضي على رماة السهام الراكبين، وأحصى المسلمون ألف

(1) لا يتضح ذلك من قِبَل جوانفيل، لكنه يتضح من خطاب جين بيير ساراسين إلى نيكولاس آرود، المطبوع في نهاية طبعة ميشيل من جوانفيل.

وخمســمائة من الفرسان والنبلاء ضمن الموتى، والبقية تم مطاردتها ناحية البحر الصغير؛ حيث نجح لويس - بعد هجمات مفاجئة متكررة - في انتزاع موضع مقابل للجسر غير المكتمل. تعرض الملك نفسه لخطر عظيم، بصد هجمات المماليك؛ حيث أُسِرَ العديد من أفضل فرسانه. كان من المستحيل طرد رماة الأسهم الراكبين التابعين للعدو، الذين كان لهم ميزة الهجوم عن بُعد، أكثر من المبارزين بالسيوف؛ لكن الجيش قد عمل على كلا الجانبين من النهر باجتهاد بالغ لبناء معبر مؤقت على المساحة التي مازالت مفتوحة بين الجسـر والضفة الجنوبية. تم الاسـتيلاء علـى الـمقالع وآلات الحرب الأخرى والأخشاب والمواد التابعة للعدو، وبحلول الغروب استطاع دوق برجندي، الذي قاد المعسـكر، أن يرسل للجانب الآخر جماعة من المشاة حاملي القوس والنشاب Cross-Bowmen، بقيادة الكونستابل الفرنسي[1] Constable of France، الـذي حمى البقية المنهكة من الفرسـان بفعالية، وأجبـر المماليـك على الانسـحاب. مع ذلـك، وقبل حـدوث هذا خاض العديد من الفرنسـيين - في حالة من الذعر - النهر بجيادهم في تهور أملًا للوصول إلى المعسـكر، فامتلأ على إثر ذلك مجرى النهر بأجسـاد الرجال والجياد الغارقة.

كانـت معركـة المَنْصُـورة انتصـارًا باهـظ الثمـن، فبالفعل حـاز لويس الشـاطئ الجنوبي من البحر الصغير، واستولى على معسكر الخصم ودَمَّر

(1) كان واحدًا من الضباط الخمسة الكبار التابعين للتاج الفرنسي، وهو القائد العام للجيش، ومن الناحية النظرية يعتبر جنرال الملك وأعلى مرتبة من كل النبلاء، والثاني بعد الملك في القيادة (المترجم)

آلاته الحربية، لكنه خسر ربما نصف خيالته وجميع فرسانه من رماة السهام. لم ينزعج المسلمون بذلك إلا قليلًا، حتى أنهم بعد ثلاثة أيام هاجموا بقوة رأس الجسر الذي شيده لحماية المعبر، بينما كان هو قادرًا فحسب على الحفاظ على موقفه الدفاعي. تعتبر هذه المعركة إشارة بارزة للاعتماد على الترابط المتبادل بين سلاحي الفرسان والمشاة، فبغير مشاته من رماة السهام، لكان مصير لويس الغرق في النهر. وربما كان أمرًا حتميًّا أن يتم تقدمه عبر المخاضة بالخيالة وحدهم، لكن بمجرد عبورهم، كان يجب أن يكون هدفهم الأول الاتصال بالمشاة الذين تركوهم في الخلف على الجانب الشمالي، هذا غير استكمال الجسر. كانت هذه هي خطة الملك بوضوح، إلا أن فشلها رجع فقط إلى اندفاع كونت أرتوا[1].

يرجع الفضل الأكبر في ذلك اليوم للمثابرة في القتال من قِبَل المماليك، الذين تحملوا العبء الأكبر من المعركة، وأنزلوا عقابًا كبيرًا بخصومهم. كان ثباتهم هو الأجدر بالملاحظة خاصة أنهم كانوا بغير ملك يقودهم. لقد توفي الصالح أيوب في 21 من نوفمبر، تمامًا حينما انطلق الفرنسيون من دمياط في مسيرتهم المُهلِكَة. وُصِف الصالح بأنه أمير قوي الشخصية، زاهد، قليل الكلام، صارم، وشديد الفخر والاستبداد. كان طموحًا، ولا ريب أنه حافظ بل وعزَّز كامل السلطة التي ورثها عن الكامل[2]. كانت

(1) قام السيد أومان Mr. Oman بتحليل معركة المنصورة في عمله: تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى History of Art of War in the Middle Ages، ص 338 – 350.

(2) لقد بنى قلعة الروضة والكبش، بين القاهرة والفسطاط، بالإضافة إلى مدينة الصالحية، ولا يزال مسجده المقام على ضريحه قائمًا في بين القصرين في القاهرة.

وفاتـه في اللحظة الحاسـمة نكبة خطيرة؛ حيث كان ابنه الأكبر تُوران شـاه بعيدًا في كيفا بديار بَكْر. وكانت النتيجة الطبيعية لخلو العرش في مثل ذلك الوقت، نزاعًا بين الأمراء المتنافسين للوصاية على العرش أو حتى العرش نفسه، وانهيار أي تنظيم فى مواجهة العدو. لحسن المقدرات، ترك الصالح فـي نسـائه سـيدة متفردة فـي براعتها، هي أَمَـة تركية، أو كمـا يقول البعض أرمينيـة، تدعى شَـجَر الـدُّر، تولت الأمور علـى الفور، وقامت باسـتدعاء أميرين أو ثلاثة ممن كانوا موضع ثقة، و بالتشـاور معهم وضعت خططها. لقد أُخفِيَت وفاة السلطان؛ وأُذِيَع أنه مصاب بمرض خطير، وكانت وجباته ترسل بانتظام إلى مكان نومه المفترض، وأُصدِرَت أوامر الدولة الضرورية كما ينبغي، ممهورة بإمضائه المزور بواسـطة سُهيل الخَصي. ومهما كانت الشـكوك التـي أُثِيرَت، لم تحـدث أي اضطرابات بشـكل صريح، وأدارت شَـجَر الـدُّر وعمالها الحكم والدفـاع عن البلاد بنجاح منقطـع النظير. لقد كانـت بمثابـة المحـرك الرئيسـي للدولة، تعقـد مجلس البلاط، وتسـتقبل الـوزراء والقادة بالنيابة عن سـيدها «المريض»، وتراقـب انضباط الجيش؛ حيـن خاض معركـة المَنْصُـورة. هكذا حافظت شَـجَر الدُّر خـلال الوقت الحرج بين نوفمبر وفبراير على وحدة الدولة الإسـلامية، حتى وصل أخيرًا الوريث، الذي تم استدعاؤه على عجل.

حينما جاء تُوران شـاه، تخلت على الفور عن سلطتها المؤقتة؛ ومن ثَمّ قاد الشاب الذي لم يتمتع بأى شعبية على الإطلاق، الحملة بنشاط ومهارة. كانت خطوته الأولى أن يأخذ عددًا من السـفن في أجزاء وينقلها على ظهر

الجمال إلى نقطة على فرع دِمْياط تبعد مسافة دون الأسطول الفرنسي[1]؛ وهناك تم تجميعها، وكانت نتيجة هذه الحيلة الاستيلاء على اثنين وثلاثين سفينة فرنسية وإيقاف كل إمدادات الجيش الصليبي. أصبح لويس الآن في وضع ميئوس منه، فلم يكن قويًّا بما فيه الكفاية لفتح طريق عبر صفوف العدو وشق طريقه بالقوة نحو القاهرة، فقد انقطعت إمداداته، وبدأ جنوده يشعرون بتأثير قلة حصص المؤن، علاوة على التأثير المميت لحمى المعسكر. ومع ذلك كان ينتظر في إباء لا يسمح له أن يولي ظهره للعدو، رغم أنه انسحب للجانب الشمالي من البحر الصغير، مع كونه لا يزال محتفظًا برأس الجسر في الجنوب. أخيرًا بدأ المفاوضات في أمل عقيم بأن المسلمين سيجددون الشروط التي عرضها الكامل عام 616هـ/ 1219م، وهي مبادلة دِمْياط بمملكة بَيْت المَقْدس، لكن هذه المرة كان المسلمون هم مَن رفضوا الصفقة. وأخيرًا، حين أدرك الجوع الجيش بأكمله، وأنهكت الحُمَّى والفاقة والجراح قواه، أحرق الملك آلاته الحربية، وهجر معسكره وأمتعته، وغادر ليلًا في انسحاب يائس صوب دِمْياط، آخذًا بنفسه موضع الخطر في حرس المؤخرة. تُرِكَ الجسر والمعبر على النهر قائمين وسط الفوضى؛ مما أدى إلى تدفق المسلمين لملاحقتهم، فذبحوا المرضى الذين تم التخلي عنهم، واستمرت المعركة مشتعلة وصولًا إلى فَارسكور، نحو ثلثي الطريق إلى دِمْياط، وهناك وضعوا نهاية للجيش الصليبي. كتب تُوران شاه بنفسه أنه قد تم ذبح نحو ثلاثين ألفًا من الصليبيين؛ ومن المؤكد

(1) تم نقلهم على الأرجح «من النيل في سمنود برًّا إلى القناة الكبيرة التي تخرج من قناة المحلة إلى الجنوب قليلًا من مدينة بهذا الاسم، اتصلت هذه القناة بالنيل عام 647هـ/ 1249م لمسافة طويلة نزولًا عن طريق قناة جانبية» (Davis, 46).

علـى الأقل أنه قد تم قتل أو أسـر الفرنسـيين عن آخرهـم تقريبًا، وذبح كل الأسرى باستثناء النبلاء منهم.

كانـت الحمى قد طرحَت الملك لويس مريضًا أثناء أسـره، ومن ضمن الأسـرى أيضًا كان سـيور جوانفيـل Sieur de Joinville، وهو الذي كتب وقائع الحملة الصليبية بنفسـه، ولعب دورًا شـجاعًا فـي معركة المَنْصُورة. وفـي نهايـة المطاف تم الإبقاء على الأسـرى حتى دُفعت فديـة قدرها مائة ألف ليرة (عشرة ملايين فرنك) مقابل الإبقاء على أرواح الجنود، والتخلي عـن دِمْياط نظير إطلاق سـراح الملك. ويقال إن لويس قـد أبدى لا مبالاة ملكيـة حيـن عُرِضَ عليه مبلغ الفديـة، لدرجة أن تُوران شـاه أنقص المبلغ بمقـدار الربـع؛ حتى لا يتغلب عليه. أصبح الأسـرى فـي خطر عظيم حين قُتل السـلطان[1] على يـد المماليك، بعد ما أبداه من أفعـال جعلته مكروهًا بصورة عامة خلال شـهري حكمه، حيث أسـاء إلى زوجة أبيه، واسـتخف بقادة المماليك البَحَريَّة[2]. هكذا وبسعادة غامرة، تولت المرأة التي أنقذت مصر في السـابق، العرش مرة أخرى، وأكدت بشـرف على شروط الفدية، علـى الرغـم من معارضة المسـلمين الأكثـر تعصُّبًا. ذهب الفرنسـيون إلى دِمْيـاط، حيث جمعـت الملكة زوجة لويس بجهد نصف الفدية المشـترط عليهـا. ومن هناك أبحر إلى عكا، مع بقية جيشـه الباسـل غير الموفق. بعد

(1) كان جوانفيل شاهد عيان للاغتيال، وهو ما حدث في النهر حيث كان السلطان يسبح هاربًا بسيف مغروز في ضلوعه.

(2) ذكر المقريزي أنه إذا سكر في الليل جمع ما بين يديه من الشمع، وضرب رؤوسها بالسيف حتى تتقطع ويقول: «هكذا أفعل بالبحرية»، المقريزي، السلوك، ج1/ ص 457 (المترجم).

ذلك بوقت قصير سُوِّيَت دِمْياط - التي شهدت العديد من الغزوات الصليبية - بالأرض وأعيد بناؤها في موقع أكثر أمنًا على مسافة أبعد داخل البلاد، في حين تم مد حاجز عائم على مصب النهر.

وَصَلت السلالة الحاكمة الأيوبية في مِصْر إلى نهايتها بمقتل تُوران شاه، وأصبح المماليك - الذين نقرأ تاريخهم في الفصل التالي - هم السادة. فيما خلا وصف عبد اللطيف لأعوام المجاعة، لدينا القليل من الملاحظات التفصيلية عن الحالة الداخلية لمصر تحت حكم السلاطين الأيوبيين. تُبين شهادة المؤرخين العامة - مع كونها غير واضحة - حالة البلد المزدهرة بشكل عام، وتوضح أن الملوك الثلاثة، الذين شمل حكمهم الفترة الفاصلة تقريبًا من عام 592هـ/ 1196م إلى 648هـ/ 1250م، كانوا حكامًا أذكياء أكفاء، مدركين للمنافع الزراعية للأرض، وأهمية النظام والعدل. ولا نسمع عن ثورات أو مؤامرات باستثناء ما كانت ضد اثنين من السلاطين اللذين حظيا بسمعة غير طيبة. لدينا دليلٌ معاصرٌ من ابن خلكان وابن الأثير وبهاء الدين زهير عن الشخصيات السامية والميول الرفيعة للحكام الثلاثة الرئيسيين، العادل والكامل والصالح، ومن الواضح أن المجتمع الذي التقى فيه أولئك الرجال العلماء فضلًا عن عبد اللطيف في القاهرة، كان متميزًا فكريًّا ولاقى التقدير من قِبَل البلاط. كان بهاء الدين أمين الصالح وصديقه الحميم، ويعكس شعره حياة البلاط في مصر قبل منتصف القرن الثالث عشر. ليس هذا ما نتوقعه عامة من الشعر المشرقي، ولكن مع هزله ووده وفكاهته وتسليطه الضوء على الأمور الجادة، فهو يشبه بقدر أكبر الشعر الاجتماعي Vers de Société الأوروبي، بينما

في بعض مدائحه نجح بأن يكون فخمًا دون تكلُّف، ومعجبًا دون خنوع. أظهر الملوك الأيوبيون استعدادًا عمليًا لفتح البلاد للتجارة الأوروبية، فقد منح العادل عام 604هـ/ 1208م تسهيلات خاصة للبنادقة في جميع أنحاء مِصْر، وسمح لهم ببناء فندقٍ أو مركز تجاري، يدعى سوق الديك، في الإسكندرية. ومُنِحَت امتيازات مماثلة في نفس الوقت تقريبًا للتجار من بيزا Psians، الذين أرسلوا قنصلًا إلى الإسْكَندرية، وتم تجديد تلك الامتيازات عام 613هـ/ 1215- 1216م. وقد تداخل غزو عام 616هـ/ 1219م الصليبي بصورة طبيعية مع العلاقات التجارية، ولا يوجد تسجيل لمزيد من الامتيازات التجارية حتى عام 635هـ/ 1238م، حين أكَّدَ العادل الثاني الحقوق السابقة للبنادقة. أما عن الرسوم المدفوعة من قِبَل التجار غير المسلمين على كل البضائع التي تدخل إلى مِصْر فقد بلغت عُشر قيمتها[1].

أصبحت علاقات الأيوبيين مع تابعيهم النصارى أكثر وُدًّا بمرور الوقت. كان صلاح الدين وأخوه العادل شديدين وصارمين، أما الكامل فقد اعتبرته كنيسة مصر أكثر الحكام كرمًا وإحسانًا بالنسبة لها على وجه الإطلاق. فكثيرًا ما توسط كأمير ووصي على العرش عند أبيه لصالح النصارى،

---

(1) في وصف مثير للاهتمام لمدينة الفسطاط، يقول ابن سعيد إنه قد «وصلت السفن والمراكب من كل الأنواع من كل بقاع الأرض إلى أرصفة الميناء على النيل.. أما بالنسبة للسلع من البحر المتوسط والبحر الأحمر والتي تأتي إلى الفسطاط، فقد كانت فوق الوصف، بسبب جمعها هنا، وليس في القاهرة، ومن هنا يتم إرسالها إلى جميع أنحاء البلاد.» تم ترجمة الفقرة بواسطة السيد كوربيتMr. Corbet (انظر كتاب السيدة بوتشر، كنيسة مصر، Mrs. Butcher's Church of Egypt 2. 148-151).

وحين خلفه تابع نفس تلك السياسة، ورفض بحزم التدخل في الخلافات التافهه «للكنيسة القومية». أظهرت مراسلاته مع الإمبراطور فريدريك تسامحًا دينيًّا نادرًا ضمن المسلمين، وهو على ما يبدو ما أفضى بالنصارى للاعتقاد بإمكانية تحويل السلطان لدينهم. زار القديس فرانسيس الأسيزي St. Francis of Assisi نفسه، البلاط عام 616هـ/ 1219م، وقام بالوعظ في حضرة الكامل، وقد تم استقباله باحترام على أقل تقدير، ونجد الصالح في 643هـ/ 1245م يكتب للبابا إنوسينت الرابع Innocent IV آسفًا على أنه لم يكن قادرًا على مجادلة الرهبان الواعظين بسبب عائق اللغة. مع ذلك فقد أسخطت حملة لويس الصليبية المسلمين، ويُقَال إن مائة وخمس عشرة كنيسة قد تم تدميرها نتيجة لغزو دِمْياط.

وعلى الإجمال تبقى فترة حكم الأيوبيين في مصر بارزة في تاريخ البلاد، من حيث القوة الإمبراطورية، والازدهار الداخلي، والدفاع القوي ضد أي عدوان.

* * *

الأسرة الحاكمة الأيوبية[1]

1- الأيوبيون في مصر:

الناصر صلاح الدين يوسف	564هـ/ 1169م
العزيز عثمان (ابن)	589هـ/ 1193م
المنصور محمد	595هـ/ 1198م
العادل سيف الدين [2]	597هـ/ 1200م
الكامل محمد[2]	615هـ/ 1218م
العادل الثاني[2]	635هـ/ 1238م
الصالح أيوب (أخ)[2]	637هـ/ 1240م
المعظم تورانشاه[2]	697هـ/ 1249م
الأشرف موسى	648هـ/ 1250م 650هـ/ 1252م

2- الأيوبيون في دمشق:

الأفضل نور الدين عليّ	582هـ/ 1186م
العادل سيف الدين أبو بكر (راجع قسم مصر)	592هـ/ 1196م
المعظم عيسى	615هـ/ 1218م

(1) يبين هذا الجدول تعاقب مختلف أعضاء الأسرة الأيوبية في حكم سبعة أقسام رئيسية في الإمبراطورية. ينحدر جميعهم من خمسة أبناء لأيوب: صلاح الدين، العادل، شاهنشاه، تورانشاه، وطغتكين، باستثناء الفرع الذي حكم في حمص، والذي انحدر من شيركوه وإخوة أيوب.

(2) هؤلاء السلاطين حكموا أيضًا في دمشق.

الناصر داود	624هـ/ 1227م
الأشرف موسى	626هـ/ 1228م
الصالح إسماعيل (ابن العادل)	635هـ/ 1237م
الكامل (سلطان مصر)	635هـ/ 1238م
العادل الثاني (سلطان مصر)	635هـ/ 1238م
الصالح إسماعيل (مرة أخرى)	636هـ/ 1239م
الصالح (سلطان مصر)	643هـ/ 1245م
المعظم (سلطان مصر)	647هـ/ 1249م
الناصر يوسف (صاحب حلب)	648هـ/ 1250م 658هـ/ 1260م

3- الأيوبيون في حلب:

الظاهر غازي (ابن صلاح الدين)	582هـ/ 186 1م
العزيز محمد	13 6هـ/ 16 12م
الناصر يوسف (انظر قسم دمشق)	634هـ/ 1236م - 658هـ/ 1260م

4- الأيوبيون في الجزيرة:

الأوحد أيوب (ابن العادل)	597هـ/ 1200م
الأشرف موسى (ابن العادل، انظر قسم دمشق)	607هـ/ 1210م
المظفر غازي (ابن العادل)	627هـ/ 1230م 643هـ/ 1245م

5- الأيوبيون في حماة:

المظفر تقيّ الدين عمر (ابن شاهنشاه)	574هـ/ 1178م
المنصور محمد	587هـ/ 1191م
الناصر قلج أرسلان	617هـ/ 1220م
المظفر الثاني محمود (أخ)	626هـ/ 1229م
المنصور محمد	683هـ/ 1284م
المظفر الثالث محمود	698هـ/ 1298م

6- الأيوبيون في حمص:

الظاهر محمد (ابن شيركوه)	574هـ/ 1178م
المجاهد شيركوه الثاني	581هـ/ 1185م
المنصور إبراهيم	637هـ/ 1239م
الأشرف موسى	644هـ/ 1245م - 661هـ/ 1262م

7- الأيوبيون في شبه الجزيرة العربية:

المعظم تورانشاه (أخو صلاح الدين)	569هـ/ 1173م
سيف الإسلام طغتكين (أخو صلاح الدين)	577هـ/ 1181م
معز الدين إسماعيل (ابن طغتكين)	593هـ/ 1196م
الناصر أيوب (ابن طغتكين)	598هـ/ 1201م
المظفر سليمان (حفيد عمر)	611هـ/ 1214م
المسعود صلاح الدين يوسف (ابن الكامل)	612هـ/ 1215م 626هـ/ 1228م



الفصل التاسع
المَمَالِيكُ الأَوائِل
648 - 676هـ/ 1250 - 1277م

الحرس المملوكي – نبلاء المماليك – البريد والحمام الزاجل – موظفو البلاط – الفرقة السلطانية – تقدم الدولة – رياضة المماليك – الحياة الاجتماعية – تمرد المماليك – الرَّعية – الملكة شجر الدر – الملكة والأيوبيون – السلطة الشرعية – الغزو الأيوبي – أقطاي – قتل الأيوبيين وشجر الدر – هزيمة المغول – بيبرس – إحياء الخلافة – السفارات والتحالفات – بيبرس والحملات الصليبية – فتح أنطاكية – سقوط الحصون الصليبية – الحشاشون والمغول – بيبرس في قيصرية – حدود إمبراطورية بيبرس – حكومته – شخصية بيبرس البطولية.

الفصل التاسع

المَماليكُ الأَوائِل

648 - 676هـ/ 1250 - 1277م

المصادر[1]:

(1) يعتبر عصر سلاطين المماليك في مصر هو العصر الأكثر وفرة من حيث المصادر التاريخية، فقد وصلتنا عشرات المصادر التاريخية العربية التي تناولت بشكل تفصيلي الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية لمصر في ذلك العصر فضلًا عن العصور السابقة، أما عن أهم المؤلفات التاريخية التي وصلتنا من العصر المملوكي الأول: كتاب أبي شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، وهو تكملة لكتابه (الروضتين) الذي كان قد ألفه عن الدولتين الفاطمية والأيوبية. وكان ابن عبد الظاهر (ت 692هـ/ 1292م)، من أهم المؤلفين في العصر المملوكي الأول، فقد جاء كتابه الهام (الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر) في مقدمة الكتب التي تحدثت عن فترة حكم الظاهر بيبرس الفاصلة، والذي كتبه من واقع منصبه كأمير سر السلطان بيبرس؛ حيث قام بالاطلاع على كافة الوثائق الممكنة، وكتابه (تشريف الأيام والعصور لسيرة الملك المنصور) الذي تناول فيه فترة حكم المنصور قلاوون، وفي القرن الثامن الهجري يبرز كتاب بيبرس المنصوري الدواداري (ت 752هـ/ 1325م) الهام (التحفة المملوكية في الدولة التركية)؛ حيث يتناول فيه الأحداث حتى عام 711هـ، كتبه من واقع مناصبه منذ أن كان مملوكًا في عهد السلطان قلاوون حتى صار نائبًا للسلطنة في عهد السلطان الناصر محمد. ومن أهم المؤرخين في ذلك العصر، النويري وكتابه الموسوعي (نهاية الأرب في فنون الأدب)، والذي اعتبر عملًا جامعًا في تاريخ مصر حتى عهد الناصر محمد، =

أبـو الفداء، النويـري[1]، المقريزي، العيني، أبو المحاسـن، السـيوطي؛ معاصر:

Weil, Geschichte des Abbasidenchalifats in Egypten; Quatremère, Hist. des Sultans Mamlouks, and Mém. Sur l'Egypte; Lane-Poole, Art of Saracens, and Catalogue Or. Coins in B. M.; Röhricht, Regesta; Howorth, Hist. of Mongols, iii.

آثـار في القاهرة: جامع وضريح الصالح أيوب 648هـ/ 1250م؛ ضريح شـجر الـدر؛ مدرسـة (664هـ/ 1262م) وجامـع الظاهـر بيبـرس 665 - 678هـ/ 1267- 1279م؛ دار العدل، وأسفل أسوار القلعة.

نقـوش: علـى الآثـار المذكـورة أعـلاه؛ وأميـر بعلبك بمصلـى فاطمة 652هـ/ 1254م؛ قبر عبد الرحمن القرشـي 657هـ/ 1259م؛ نقش بيبرس

= وضع في اثنين وثلاثين جزءًا، ونذكر أيضًا ابن أيبك الدواداري، وكتابه الهام (كنز الـدرر)؛ حيث تنـاول الجزءان الثامن والتاسـع من الكتاب التاريـخ المملوكي حتى عام 736هـ وهناك أيضًا شـمس الدين الذهبي (ت 748هـ/ 1347م) وكتابه (دول الإسلام)، الذي يمتد حتى عام 744هـ. ومن كتب التراجم كتاب (الوافي بالوفيات) للصفدي (ت 764هـ/ 1363م)، وكتاب (فوات الوفيات) لابن شـاكر الكتبي (ت 764هـ/ 1363م). ومن أهم كتب التاريخ العام كتاب الحافظ ابن كثير (ت 774هـ/ 1373م)، (البداية والنهاية)، وكتـاب أبي الفدا (ت 732هـ/ 1331م)، (المختصر في أخبـار البـشر)، راجع مزيدًا عن المصادر في العصر المملوكـي: عبد اللطيف حمزة، الحركـة الفكرية في مـصر في العصرين الأيـوبي والمملوكـي الأول، القاهرة 1968م، أحمد عبد الرازق، دراسات في المصادر المملوكية المبكرة، القاهرة 1974م (المترجم)

(1) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد (ت 733هـ/ 1333م)، كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب (المترجم)

بالأزهر 654هـ/ 1256م؛ وفي قلعة دمشق 659هـ/ 1261م؛ وفي قبر خالد بحمص 664، 665هـ/ 1266، 1267م؛ وفي الجامع الأبيض بالرملة 665هـ/ 1267م؛ وفي الكرك 670هـ/ 1271م؛ وفي صفد، قلعة الحصن Carc des Chevaliers، بانياس، يُبنة، لبدا (M. van Berchem, Corpus and Inscr. Ar. De Syrie, and MSS. Notes).

عملات: انظر هامش كل حكم.

تعني كلمة مملوك «المنتمي إلى»، وهي تطلق خاصة على الرقيق الأبيض من الرجال، الذين تم أسرهم في الحرب أو شراؤهم من السوق. ويرجع استعمال مجموعة كبيرة من الحرس الخاص من الرقيق الأجنبي وخاصة الأتراك منهم، إلى عصر الخلفاء العباسيين[1]، الذين استجلبوا الشباب ذوي الوسامة والقوة من آسيا الوسطى لحماية أنفسهم من القبائل العربية والقوة المتصاعدة للحكام المحليين، إلا أنهم وجدوا أن جنود الحرس التركي صاروا بمثابة سجّانيهم، بنفس الطريقة التي صار بها من

(1) بدأ الأتراك في الظهور بكثافة على مسرح الشرق الأدنى حين بدأ الخليفة العباسي المهدي (158 - 169هـ/ 775 - 785م)، في استقدام الأتراك من فرغانة وبلخ وخوارزم وهراة وسمرقند وإسكانهم الثغور وبخاصة طرطوسة والمصيصة وأذنة ومرعش وملطية وآمد وغيرها، ومازالت كتلة الترك تتكاثف في عهد الخلفاء من بعده حتى وصل بهم الحال إلى سيطرتهم على الأمر في عهد المتوكل على الله (232 – 247هـ/ 847 – 861م)، راجع: ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 75، 76، السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم – القاهرة 2003م، ص 265: 270، نظام الملك الطوسي، سياستنامه، تحقيق: يوسف حسين بكار، قطر 1407هـ، ص 85، 86، العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص 20، 21 (المترجم).

هـو أكثر قـدرة وطموحًـا من القـادة المماليك لدى سـلاطين السَّـلاجقة، مؤسسـين لكثير من الأسـر الحاكمة المستقلة، التي تقاسـمت تدريجيًّا ما تبقـى من الدولة السَّـلْجوقية. لقد سـاد عُـرف توظيف الضباط والفرسـان الرقيق بشكل طبيعي ضمن السلالات الحاكمة التي ظهرت بنفس الطريقة، فقـد أُحِيـطَ نور الدين وصلاح الديـن بمجموعات مُختَـارَة من المماليك، تم تنشـئتهم بعناية خاصة، وتدريبهم على التخلق بمآثر الرجال، فضلًا عن تجهيزهـم وتدريبهم علـى فنون الحرب بصـورة رائعة. ولقد اسـتمر نظام (الحلقـة) أو الحـرس الخاص من الرقيـق البيض أو مَن أُعتـق من الرجال خـلال حكم خلفاء صلاح الديـن، ووصل إلى أعلى درجات الفاعلية على يـد حفيـد أخيه الصَّالِـح أيُّـوب[1]. كان لهذا السـلطان خبرة مبكرة بسـبب غيـرة أقاربه وعداء الـفرنجة، وكانت ثقتـه قليلة بالمصريين العاديين فضلًا عن العرب؛ لذا قام بإنشـاء جيش صغير – لكنه مدرب بشـكل كامل – من

(1) ازدادت أعداد المماليك في مصر والشام بشكل ملحوظ بعد وفاة صلاح الدين، وكان ذلك نتيجة طبيعية للخلاف والشقاق الذي دب بين ورثة البيت الأيوبي، حيث استمر على إثر ذلك استجلاب سلاطين الأيوبيين وأمرائهم للمماليك الترك لتغذية جيوشهم، وقد استفحل نفوذ هؤلاء المماليك حتى تدخلوا في إقامة السلاطين وعزلهم، ومن أمثلة ذلك ما دبره هؤلاء من مؤامرة مكنتهم من خلع العادل الثاني وإحلال الصالح نجم الدين أيوب مكانه في السلطة؛ لذا فهم الصالح من أول يوم دور المماليك الرئيسي في البلاد وفَضْلُهم عليه، من هنا بدأ في الإكثار من المماليك الأتراك بشكل غير مسبوق في مصر؛ حيث لعبوا بعد ذلك الدور الأكبر في سياسة البلاد بل في الشرق الأدنى برمته، راجع: السيد العريني، المماليك، ص 34: 51، العبادي، قيام دولة الممالك الأولى، ص 92 (المترجم).

الرقيق الذين اشـتراهم بماله الخاص، فأصبحوا مدينين له بكل شـيء. لقد تم جلب أولئك المماليك من أسـواق شتى، لكنهم كانوا في الغالب أتراكًا بغـض النظر عـن مكان شـرائهم. وقد تمركـز الصفوة من هؤلاء الفرسـان فـي القلعـة التي بناهـا على جزيـرة الرَّوْضَة، مقابل الفُسْـطاط علـى النيل، واكتسـبوا من ثكناتهم النهرية اسم «المَمَالِيك البَحَرِيَّة»، ولم يكونوا مجرد مماليـك في خدمته، بل كانوا هم الجماعـة الأكثر حظوة وقوة. كانت حالة العبودية تلك بعيدة كل البعد عن أن تسـبب لهـم وصمة عار، حتى أننا بعد فتـرة وجيـزة نجد أميرًا شـهيرًا مثل (قُوصون) يُنظَر إليه شـزرًا بسـبب عدم دخولـه في الرق سـلفًا، فقد كانت علاقة العبد بالسـيد في الشـرق دائمًا ما تضاهـي القرابة أكثر مـن العبودية. كان البحرية فخوريـن بأصلهم، وهو ما لم يشـكل عقبة أمام تقدمهم. لقد مارس زعماؤهـم أو «أمراء الألف» نفوذًا كبيـرًا، وخَلَفَ أحدهم وهو فَارِس الدِّين أَقْطَاي، فخر الدين كقائد عام بعد معركة المَنْصُورة. ترقى هؤلاء الجنود بالفعل، قبل وفاة الصالح، من منزلة مماليك عاديين إلى مناصب رفيعة في بلاط سـيدهم؛ لقد صاروا ساقين أو متذوقيـن أو أمراءَ للخيل؛ ومن ثـمّ نالوا حريتهم؛ وأصبح هؤلاء المماليك المُحَرَّرِيـن بدورهم أمراءَ ومالكين لمماليك آخرين. وبالتالي نجد في أول تاريخهـم مجموعة مـن الأمراء الأقويـاء، الذين كَوَّنوا مجموعـة كبيرة من الأتبـاع قامـوا بقيادتهم خلال الحـروب، في حين كان هـؤلاء الأتباع على استعداد لمسـاندتهم حتى الموت. بعد وفاة تُوران شـاه على يد المماليك البحريـة، لم يتبق على العرش سـوى خطوة قصيـرة، وللمائة وثلاثين عامًا

التاليـة توالـى زعمـاء الجنـود المماليـك ونسـلهم، كسـلاطين لمصـر في تعاقـب سـريع[1]. كان الحـق الشـرعي الوحيـد للوصول إلـى العرش عند أولئك النبلاء هو الشـجاعة الشـخصية وقيادة أكبر عدد من الأتباع. وقد تم اعتمـاد مبدأ الوراثة بشـكل أكيـد في حالة عدم وجـود أي مؤثرات أخرى، فنجـد عائلة مثـل عائلة قـلاوون، احتفظت بتـوارث العرش لعـدة أجيال؛ إلا أن القاعـدة كانت توريث السـلطة الملكية للأمير الأكثر قوة حينها، وقد اعتمـدت سـيطرته على العرش بصورة رئيسـية على قوة أتباعـه ووفاقه مع النبلاء الآخرين. إن حوليّات الحكم المملوكي مليئة بنماذج للأمير العظيم الذي يَحد من سـلطة السـلطان الحاكم محوِّلًا إياه إلى ظل؛ ومن ثمّ يرتقي فوق جسده المُغتال إلى العرش. لقد مات معظم هؤلاء السلاطين بحالات ناجمة عن العنف على أيدي أمراء منافسـين، واعتمدت سلامة الحاكم في ذلك الوقت بصورة رئيسـية على عدد وشـجاعة مَن يحرسه. لقد تمتع هذا الحـرس الخاص بمميزات اسـتثنائية وتعاطف مسـتمر من قِبَل السـلطان، الذي اعتمدت سـلامته وسـلطته علـى إخلاصهم؛ لذا فقد اعتـاد أن يهبهم منحًا من الأراضي ويخلع عليهم ثياب التكريم النفيسة بسخاء غير محدود. لقـد صار الجـزء الأكبر من أراضي مصر في قبضـة الأمراء وجنود الحرس على شكل إقطاعات مُنِحَت بواسطة السلطان. وقد بلغ عدد هؤلاء الجنود من الحرس عدة آلاف، ولابد أنهم قد انتقلوا من سلطان إلى آخر مع انتقال الحكم، في حين صار زعماؤهم عاملًا هامًّا في اختيار هؤلاء الحكام، فكثيرًا

(1) تم إعادة نسخ بعض الصفحات التالية، مع التصحيحات، من خلال كتابي: Art of the Saracens in Egypt، الفصل الثالث.

ما قاموا بعزل أو تنصيب السلطان كيفما بدا لهم. كان السلطان أو المملوك الزعيم في الواقع تحت رحمة ضباط حرسه بصورة قلت أو كثرت وفقًا لشخصيته، وقد كان كابح طموحهم أو سخطهم يعتمد أساسًا على غيرتهم المتبادلة، والتي يمكن التلاعب بها لتحييد معارضتهم.

كان كُلٌّ من أولئك الأمراء العظام، سواءً كان ضابطًا بالحرس أو مسئولًا بالبلاط أو مجرد نبيل خاص، سلطانًا مملوكيًا مُصغَّرًا. فقد كان لديه أيضًا حرسه الخاص من المماليك، الذين انتظروا على بابه لمرافقته عند الخروج، وكانوا على أهبة الاستعداد لتلقي أوامره بمهاجمة حتى الحمامات العامة وحمل النساء، أو الدفاع عنه حين يقوم أمير منافس بمحاصرة قصره، أو مناصرته ببسالة حين يقود فرقته في ساحة المعركة. كان أولئك الأمراء العظام مع تابعيهم، مصدر تهديد دائم للسلطان الحاكم. وقد يُشَكّل ائتلاف من بعض النبلاء الساخطين، بمعاونة أعضاء من الأسرة أو الحرس، يقوم تابعوهم بحشد المسيرات إلى حيث يتواجد السلطان، بينما يضرب ساقٍ موثوق به أو أحد الموظفين الآخرين الضربة القاتلة، وعلى الفور يختار المتآمرون واحدًا من جماعتهم لارتقاء العرش الشاغر. لم يتم ذلك دون مقاومة، ولم يتم دائمًا عن طريق رشوة أو هزيمة الحرس السلطاني، فقد كان هناك بشكل عام نبلاء آخرين ربطتهم مصالحهم بالسلطان الحاكم أكثر من أي وريث محتمل، باستثناء أنفسهم؛ لذا يكون من المؤكد معارضتهم لأي مؤامرة. ومن هنا يحدث قتال الشوارع؛ ويغلق الناس المذعورين محالهم ويفرُّون لمنازلهم؛ حيث تُغلق البوابات العظيمة التي تفصل أحياء وأسواق المدينة، وتنطلق الفصائل المتناحرة من المماليك عبر الشوارع

التي ظلت مفتوحة، ناهبين منازل خصومهم وحاملين النساء والأطفال، ومشعلين معارك ضارية عبر الطرقات، أو يقومون بإطلاق السهام والرماح من النوافذ على العدو من أسفلهم. كانت تلك الأمور دائمة الحدوث، جعلت على الأرجح حياة تجار القاهرة مليئة بالإثارة؛ لذا نقرأ كيف أن السوق الشرقي العظيم، الذي يُطلق عليه خان الخليلي، أحيانًا ما أُغلِقَ لأسبوع بينما جرت تلك المعارك في الشوارع، في حين احتشد تجار القاهرة الأثرياء مرتجفين خلف البوابات الحصينة.

إن عدم التأكد من السيطرة على السلطة، والقصَر العام لفترات الحكم (التي بلغت في المتوسط حوالي خمس سنوات)، هي أمور تثير الدهشة إذا علمنا أن سلاطين المماليك وجدوا وقت الفراغ اللازم للمساهمة في العديد من الأعمال المعمارية والهندسية الشهيرة التي تُميّز حكمهم، أكثر من أي فترة أخرى من فترات التاريخ المصري منذ العصر القبطي. لم يكن منصب السلطان منصبًا سهلًا، فبجانب الحذر الدائم المتطلب لإدارة المماليك، كان السلطان قاضيًا أعلى عليه أن يجلس بانتظام، ليس فقط لسماع القضايا، لكن أيضًا لتلقي الشكاوى والعرائض من أي فرد من أفراد الرعية. وكان عليه أيضًا أن يوجِّه مراسلات على نطاق واسع، وقد شارك معظم السلاطين شخصيًّا في صياغة الرسائل التي ترسل لجميع أنحاء الدولة فضلًا عن القوى الأجنبية. لقد أسَّس بيبرس - وهو الأكثر شهرة ونشاطًا بين السلاطين البحرية - نظامًا جيدًا للبريد، يربط كل جزء من الأراضي الواسعة الواقعة تحت سلطانه بالعاصمة. كانت الجياد المعدة للإبدال قيد الاستعداد في كل منزل من منازل البريد؛ حيث يستقبل السلطان ويرسل

التقارير مرتين أسبوعيًا من وإلى كافة أنحاء البلاد. وبجانب البريد العادي، كان هنـاك أيضًـا بريد الحمـام الزاجل[1]، الذي لم تحـظَ إدارته بعناية أقل. لقـد احتُفِظَ بالحمام في أبراج بالقلعة وفـي محطات أخرى متعددة، كانت أبعد من تلك الخاصة بالجياد، وقد تم تدريب الطائر على أن يقف في أول منـزل للبريـد، حيث يُرفَق الخطـاب بجناح حمامة أخـرى للمحطة التالية. وكان للحمام الملكي علامة مميزة، وحينما كانت تصل إحداها إلى القلعة برسالة عاجلة، لم يُسمَح لأحد أن يحل تلك الرسالة الهامة سوى السلطان نفســه، فقد كانـت القوانين صارمة للغاية بشـأن ذلك، لدرجة أن السـلطان إذا كان يتنـاول العشـاء أو نائمًـا أو فـي الحمام، كان يتم إبلاغـه على الفور بالوصول؛ حيث يشـرع مباشرة في تحرير الطائر من رسالته. كثيرًا ما كانت المراسـلات التي يتم توصيلها بواسطة مكاتب البريد كثيرة للغاية، ويمكن مشـاهدة ذلـك على سـبيل المثـال في سـاعات العمـل الخاصـة ببيبرس، الـذي وصـل قبالة مدينة صُور في إحدى الليالـي؛ حيث نصبت خيمة على الفـور على ضوء المشـاعل، وتم اسـتدعاء الأمناء البالغ عددهم سـبعة مع القائـد العـام؛ وصـدرت التعليمـات للقائد المعاون (أمير عَلَـم) مع الأمناء العسـكريين بكتابة الأوامر. ولسـاعات لـم يتوقف هؤلاء عن كتابة الرسائل والشهادات، التي ألَحق بها السلطان ختمه؛ حيث كتبوا في هذه الليلة نفسها سـت وخمسين شـهادة لكبار النبلاء، مع كل منها مقدمتها اللائقة من الثناء على الله.

---

(1) عن بريد الحمام الزاجل في العصر المملوكي راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، ج14/ ص 389: 395 (المترجم).

بالإضافة إلى الأعمال الضرورية، فقد شغلت مراسم الدولة جزءًا لا يستهان به من وقت السلطان. كان للبلاط المملوكي نظامٌ تم تسييره بدقَّة، ولابد أن اختيار الموظفين لشغل مناصب القصر العديدة، واللباقة المطلوبة في إرضاء الغيرة والخلافات، هذا فضلًا عن عرض الثياب الشرفية الخاصة بالمراسم، وكتابة الشهادات، ومنح الألقاب والإقطاعات، كل ذلك كان بمثابة ضريبة فُرضت على السلطان. لقد كانت المناصب التي تقترب من السلطان ذات قيمة ومستوى رفيع، وتحتاج إلى بعض الدبلوماسية لتنظيم الحكومة ومناصب القصر بما يكون مرضيًا للجميع، فبجانب موظفي الدولة الكبار، كنائب السلطنة أو الوزير، والقائد العام (أتابيك العسكر أو الأمير الكَبير)، وأمير القصر (إستدار)[1]، وقائد الحرس (رأس نوبة)[2]، وحامل السلاح (سلحدار)، وأمير الإسطبل (أمير آخور)[3]، وحامل الكأس (ساقي)[4]،

(1) هو الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه، وتمتثل أوامره فيه، وهو مركب من لفظتين فارسيتين: أحدهما (إستد) ومعناها الأخذ، والثانية (دار) ومعناها الممسك، المصدر السابق، ج5/ ص 457 (المترجم).

(2) هو الذي يتولى أمر مماليك السلطان أو الأمير، وتنفيذ أمره فيهم، والمراد بالرأس هنا الأعلى، أما النوبة وهي مفرد النوب هي المرة بعد المرة، المصدر السابق، ج5/ ص 455 (المترجم).

(3) هو المعني بإسطبل السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرهما مما هو داخل في حكم الإسطبلات، وهو مركب من لفظين: أحدهما عربي وهو أمير، والثاني فارسي وهو آخور ومعناه العلف، المصدر السابق، ج5/ ص 461 (المترجم).

(4) هو الذي يتولى مد السماط وتقطيع اللحم وسقي المشروب بعد رفع السماط، ونحو ذلك، المصدر السابق، ج5/ ص 454 (المترجم).

والمتذوق (جاشنكير)[1]، والحاجب، والسائس، والأمناء، وساسة الخيل الخادمين، إلى آخره، كان هناك الكثير من المناصب الأصغر، والتي كثيرًا ما نالت سلطة ونفوذًا عظيمًا. كان أمير المجلس[2] - الذي أُطلِقَ عليه هذا اللقب لتمتعه بامتياز الجلوس في حضرة السلطان - هو المشرف على أطباء وجَرَّاحي البلاط، وكان الجمدار[3] أو أمير خزانة الثياب، منصبًا رفيعًا، وكان أمير شكار[4] أو أمير الصيد، هو مَن يساعد السلطان أثناء صيده، وشغل أمير طَبر[5]، أو أمير المطارِد (سلاح من رمح وفأس حرب)، تقريبًا رتبة قائد الحرس، وقاد الطَّبَرْدَار[6] أو حامل سلاح المطارد، الحرس

(1) هو الذي يتصدى لذوقان الأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفًا من أن يدس عليه سم ونحوه، وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما (جاشنا) ومعناه الذوق، والثاني (كير) وهو بمعنى المتعاطي لذلك، فيكون المعنى (الذي يتذوق)، المصدر السابق، ج5/ ص 460 (المترجم).

(2) هو مَن يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير في الترتيب وغيره، المصدر السابق، ج5/ ص 455 (المترجم).

(3) هو الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه، وأصله جاما دار، وهو مركب من لفظين فارسيين أحدهما (جاما) ومعناه الثوب، والثاني (دار) ومعناه ممسك، فيكون المعنى (ممسك الثوب)، المصدر السابق، ج5/ ص 459 (المترجم).

(4) هو المعني بالجوارح من الطيور وغيرها وسائر أمور الصيد، وهو مركب من لفظين أحدهما عربي وهو الأمير، والثاني فارسي وهو (شكار) ومعناه الصيد، فيكون المراد (أمير الصيد)، المصدر السابق، ج5/ ص 461 (المترجم).

(5) وهو يخص الطبردارية الذين يحملون الأطبار حول السلطان في المواكب ونحوها، وهو مركب من لفظين أحدهما عربي وهو أمير والثاني طبر وهو بالفارسية الفأس، المصدر السابق، ج5/ ص 462 (المترجم).

(6) هو حامل الفأس، راجع: المصدر السابق، ج5/ ص 458 (المترجم).

السلطاني البالغ عددهم عشـرة أفراد؛ وحمل الـبشمقدار[1] نعل السلطان، وحمل الـجوكاندار[2] عصا البولو، وهي عصا من الخشـب المدهون يبلغ طولهـا أربعة أذرع، رأسـها مقـوس، وكان الزمامدار[3] حرسًـا خصيًّا. كان لأقسـام القصر العديدة أيضًـا موظفوهم، الذين كثيرًا ما كانـوا نبلاء عظامًا أو رجالًا ذوي نفوذ في السـلطنة. أشرف اسـتدار الصحبة[4] على المطبخ؛ وكانت الطبلخاناة القسم الذي اشتمل على الفرقة السلطانية، يترأسه موظف يدعى أمير عَلَم[5]، أو معاون القائد. وقد ذكر أن الفرقة السلطانية اشتملت في أحد الأوقات على أربعة طبول، وأربعين نَقَّارية Kettle-Drums، وأربعة مزامير، وعشـرين بوقًـا. كان الحصول على تصريح لحيـازة فرقة يعتبر من

(1) هو الذي يحمل نعل السلطان أو الأمير، وهو مركب من لفظين أحدهما من التركية وهو (بشمق) ومعناه النعل، والثاني من الفارسية وهو (دار) ومعناه الممسك، فيكون المعنى ممسك النعل، المصدر السابق، ج5/ ص 459 (المترجم).

(2) هو الذي يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة، ويجمع (جوكان دارية)، وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما (جوكان) وهو المحجن الذي يضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان، والثانية (دار) ومعناها ممسك، فيكون المعنى (ممسك الجوكان)، والعامة تقول (جُكندار)، المصدر السابق، ج5/ ص 458 (المترجم).

(3) أصلها الزنان دار، وهو الذي يتحدث على باب شارة السلطان أو الأمير من الخدام الخصيان، وهو مركب من لفظين فارسيين، أحدهما (الزنان) ومعناه النساء، والثاني (دار) ومعناه ممسك، فيكون المعنى ممسك النساء، ويعني أنه الموكل بحفظ النساء، المصدر السابق، ج5/ ص 459، 460 (المترجم).

(4) هو متولي أمر المطبخ، وكأنه لقب بذلك لملازمته الباب سفرًا وحضرًا، المصدر السابق، ج5/ ص 457 (المترجم).

(5) هو الذي يتولى أمر الأعلام السلطانية والطبلخاناه وما يجري مجرى ذلك، المصدر السابق، ج5/ ص 456 (المترجم).

الامتيازات المطلوبة في العصر المملوكي، وقد لُقِّبَ أولئك الأمراء الذين سُمِحَ لهم أن يحوزوا فرقة تعزف أمام بواباتهم، أمير طبلخاناه، كان عددهم حوالي ثلاثين شخصًا، قاد كل واحد منهم مجموعة من أربعين فارسًا، مع فرقة من عشر طبول ومزمارين وأربعة أبواق، وإقطاعية بقيمة حوالي ثلاثين ألف دينار. وقد انتقل عُرف استعمال هذه الفرق الشرفية إلى ساحة المعركة مع الفتح العثماني.

علاوة على ذلك كان هناك الطشتخاناه؛ حيث احتُفِظَ بالثياب والمجوهرات والأختام والسيوف الملكية إلخ، فضلًا عن غسيل الثياب؛ والشرابخاناه أو حجرة المؤن؛ حيث تم تخزين السوائل والحلويات والفواكه والعصائر والعطور والماء للسلطان، والحوايج خاناه أو المخزن؛ حيث تحضير الطعام والخضراوات اللازمة لليوم. بلغت كمية الطعام المعدة في زمن كتبغا عشرين ألف رطل، وتراوحت تكلفة الطعام والخضراوات أثناء حكم الناصر ما بين واحد وعشرين وثلاثين ألف درهم.

سيتبين أن حياة البلاط كانت معقدة حتى في القرن الرابع عشر، ولابد أن مشاركة السلطان المملوكي في مراسم الدولة تطلبت نفس مقدار الواجبات والآداب السلوكية التي تتماثل مع الوقت الحاضر، بل إنها قدَّمَت مشهدًا أكثر عظمة بكثير. تم تنظيم تشكيلات الحرس المُرافِق بإتقان، وذلك أثناء ركوب السلطان في أراضي الدولة؛ ليقوم باستعراض عسكري أو للهيمنة على الأراضي الواقعة تحت سيادته. فعلى سبيل المثال ركب بيبرس ماشيًا في الوسط، مرتديًا (جبة) من الحرير الأسود أو ثوبًا ذا أكمام واسعة، لكن دون تطريز أو تذهيب، وكان على رأسه عمامة من الحرير الرائع، مع

قلادة معلقة بين الكتفين؛ وبجانبه تدلى سيف بدوي، وتحت ثوبه أخفى دِرع داودي. وفي المقدمة حمل أمير عظيم (غاشية)، أو سرج ملكي من القماش هو رمز سيادته، مغطى بالذهب والأحجار الكريمة، وحمل أمير من السلالة الملكية أو القائد العام مظلة خفيفة من الحرير الأصفر فوق رأس السلطان، مطرزة بالذهب ومُكلَّلَة بطائر ذهبي يعلو قُبَّة ذهبية. وكان غطاء عنق جواده من الحرير الأصفر المطرز بالذهب، وغُطي كفل الفرس بزناري أو كساء من الساتان الأطلسي الأحمر. ورُفعت الراية الملكية المصنوعة من الحرير والخيوط الذهبية عاليًا، وكان للجنود ألوية من الحرير القاهري الأصفر، مطرزة بشعارات قادتهم. وقبالة السلطان مباشرة ركب وصيفين على جياد بيضاء مزخرفة بزخارف فخمة، وكانت أرديتهم من الحرير الأصفر حوافها من القماش المطرز بالذهب، وكوفية من نفس القماش، كانت مهمتهم استطلاع الطريق. يسبقهم عازف مزمار، يأتي من بعده مغنيًا ينشد الأعمال البطولية للسلاطين السابقين بمرافقة طبلة يد، وأنشد الشعراء القصائد بمرافقة آلات العزف مثل الكمنجة والموصل Mōşil. حملت جموع الطبردار المَطارِد خلف وأمام السلطان، وحمل أمير البولو (الجوكاندار) خناجر الدولة في غِمد على اليسار، وعلى اليمين خِنجَر آخر مع ترس السلطان. وركب بالقرب منه من الخلف الجمكدار أو حامل الصولجان، وهو رجل طويل أنيق، يرفع الصولجان ذو الرأس الذهبية عاليًا، ولا يُنزل عينيه أبدًا عن سيده. تبعهم موظفو البلاط الكبار بفخامة أقل بعض الشيء. وعندما كان ينادي للتوقف بالليل في الرحلات

الطويلة، كانت تحمل المشاعل قبالة السلطان، وفي اقترابه من الخيمة – التي يبدأ العمل بنصبها قبل وصوله – يأتي خَدَمه للقائه بالشموع الموضوعة على قواعد مطعمة بالذهب؛ ومن ثمّ يحيط به الخدم ذوي الزي المميز وحاملي المطارد؛ حيث يتعالى إنشاد الجنود في صوت واحد، وبعدها يترجل الجميع باستثناء السلطان، الذي يظل راكبًا إلى داخل مجاز خيمته؛ حيث يترك جواده ثم يدخل السُرادق الدائري الكبير من وراء ذلك، والذي يُفتَح على حجرة نوم خشبية صغيرة أكثر دفئًا من الخيمة، وحمام بمواد للتدفئة تكون في متناول اليد. كل ذلك كان محاطًا بسياج وحرس من المماليك الفرسان في نوبات حراسة منتظمة، فضلًا عن المعاينة الدورية التي تتم في جولات، منها جولتان كبيرتان أثناء الليل، قادهما أمير بابدار أو حارس الباب. أما الخدم والخصيان فكانوا ينامون عند الباب. ويصف جوانفيل معسكر السلطان في دمياط، أنه كان يتم دخوله من خلال برج مصنوع من أقطاب من خشب التنوب Fir-Poles مغطى بأشياء ملونة، وفي الداخل كانت الخيمة التي يترك بها الموظفون أسلحتهم عند ذهابهم لمقابلة السلطان. «كان خلف هذه الخيمة مدخلًا مماثلًا للأول، يقود إلى خيمة كبيرة هي قاعة السلطان. وخلف هذه القاعة برج مشابه للأول الذي في الأمام، من خلاله يمكن الدخول إلى حجرة السلطان. وخلف حجرة السلطان توجد مساحة محاطة بسياج، وفي وسط هذا السياج يوجد برج يعلو الأبراج الأخرى، يراقب منه السلطان المعسكر وسائر البلد. وينزل من السياج طريق إلى النهر، إلى البقعة التي بسط فيها السلطان خيمة

على الماء بغرض الاستحمام. أحيط كل هذا المخيم بتعريشات خشبية، وفي الجانب الخارجي بُسِطَت التعريشات المغطاة بالكاليكو Calico[1] الأزرق، وغُطِّت أيضًا الأبراج الأربعة بنفس هذا القماش».

كان المقريزي المؤرخ، مولعًا بأخبار طريقة زحف السلطان واستعراض قواته وأسلوب قيادته للمعارك، أو حتى لعبه في البيت. كان المماليك متحمسين للرياضة والتدريبات الرياضية. فقد كان الناصر متحمسًا للصيد؛ لذا قام باستيراد عدد من السناقر والصقور وطيور الباز، وقَدَّم إقطاعات قيِّمَة لمدربي صقوره، الذين امتطوا جيادهم بجانبه وهم يحملون صقورًا على معاصمهم. وكان بيبرس راميًا ماهرًا للسهام، فضلًا عن براعته في صناعتها. لقد شيَّدَ حقل رماية خارج بوابة النصر في القاهرة، كان يمكث فيه من الظهر إلى المغرب، مُشجِّعًا الأمراء في مرانهم. لقد أصبحت الرماية هي الشغل الشاغل لأمراء بلاطه. إلا أن بيبرس كان مثل معظم المماليك متحررًا في ميوله، فقد كان مغرمًا بسباق الخيل، وقضى يومين إسبوعيًّا في لعب البولو، واشتهر بلعبه للرمح في المباريات التي شكلت جزءًا من اللهو اليومي، وكان سبَّاحًا بارعًا حتى أنه سبح ذات مرة عبر النيل في دِرعه، ساحبًا وراءه العديد من الأمراء الكبار جالسين على بساطات منفوخة.

يمكن جمع تلك التفاصيل الخارجية عن حياة المماليك من أعمال المقريزي، لكن إذا كنا نسعى إلى معرفة شيء عن الحياة الداخلية في تلك الفترة، فيجب علينا الذهاب إلى مكان آخر. نجد بالفعل أحيانًا في الأعمال

(1) نوع من أنواع الأقمشة القطنية (المترجم).

التاريخية وصفًا للمرح الصاخب للبلاط في المهرجانات العظيمة، وكيف كان هناك حفلات موسيقية في القلعة؛ حيث يتم التلويح بشعلة من مكان لآخر للحفاظ على الإيقاع. لكن لفهم الحياة المنزلية للمماليك، ينبغي علينا الانتقال إلى ألف ليلة وليلة، التي مهما كان منشأ ومكان قصصها، إلا أن العادات والأعراف التي احتوتها انتُزِعَت من المجتمع الذي رآه الرواة في القاهرة زمن المماليك؛ وتؤكد صحة الصورة وسائل الترف العديدة التي وصلت إلينا، مثل: الكئوس ومواقد البخور والطاسات والأطباق المُطَعَّمة بالذهب والفضة بدقة بالغة. ومع كل صلواتهم وصيامهم وطقوسهم الشاقة، فقط تحايل مسلمو العصور الوسطى لتسلية أنفسهم. حتى في دينهم وجدوا فرصًا للاستمتاع، فقد استغلوا الأعياد الدينية كأفضل ما يكون؛ حيث قاموا بارتداء أفضل ثيابهم؛ وشكلوا فرقًا لزيارة القبور، إلا أن زياراتهم كانت تحظى بمرح تام على ظهور حميرهم، وسمحوا لخدمهم أيضًا بالخروج وتسلية أنفسهم في الشوارع المنارة بصورة مبهجة، ومزينة بالحرير والساتان، ومحتشدة بالراقصين والمشعوذين والمحتفلين، وشخصيات أخرى رائعة، مثل قراقوش وخيال الظل الصيني.

يُقدم الشاعر بهاء الدين زهير، أمين الصالح نجم الدين - الذي ظل على قيد الحياة بعد سيده وتُوُفِّيَ عام 656هـ/ 1258م - صورة حيَّة في قصائده عن هذا المجتمع البهيج في العصر المملوكي الأول، والذي يتضح من خلالها أنه لم يكن هناك تقيُّدٌ بالغ الصرامة بالقواعد الإسلامية ضمن رجال الحاشية. فها هي كأس الخمر تحتل مكانًا في قصائد زهير كما هي في قصائد عمر الخيام. والعديد من سلاطين المماليك وُصِفوا بأنهم

مدمنون للخمر، وقد ذُكر ذات مرة عن الأمير الكبير بَيْسرِي أنه كان عاجزًا عن المشاركة في الأمور لأنه كان مستغرقًا تمامًا في الشراب. على الرغم من ذلك ووسط كل هذا ظلت هناك نقاط توبة. لم يتناول المسلمون الخمر زمن هارون الرَّشيد - مزاجيًّا أو في انعزال - بصورة أقل من العصر الذهبي لبيبرس وبَرْقُوق. لقد أحبوا أن يكون مِن حولهم رفقة مرحة، والكثير من الأزهار والعطور الطيبة، فقد عطَّروا لحاهم بالزباد Civet[1]، ونثروا على ثيابهم الجميلة ماء الورد، بينما أُحرق العنبر والبخور في المباخر التي لاتزال بحوزتنا، ناشرة عبيرًا مبهجًا خلال الغرف. ولم تكتمل المأدبة دون الموسيقى وأصوات المغنيات، وكثيرًا ما كان مشهد مرحهم كقصر لا يحلم بمشاهده قوبلاي خان Kubla Khan[2]. يمكننا الآن أن نعرف القليل عن القباب الفخمة الممتعة التي حكم من تحتها المماليك في ذلك الزمان، كيف زينوها بالمواد النفيسة، وكسوها بالطنافس الغالية، وعن الثروة من النقوش ومصنوعات العاج التي زينت أبوابهم وسقفهم، وكيف كانت آنية شربهم وغسيلهم مطعمة بدقة، وألوان نوافذهم المصبوغة غنية بسلاسة.

---

(1) هو نوع من الطيب (المترجم).

(2) هو قوبلاي خان بن الإمبراطور تولوي بن الإمبراطور جنكيز خان، الإمبراطور الخامس للإمبراطورية المغولية (658 - 693هـ/ 1260 - 1294م)، وإمبراطور الصين فيما بين عامي (678 - 693هـ/ 1279 - 1294م)، تولى الحكم خلفًا لأخيه منكو خان، وصلت في عهده الإمبراطورية المغولية إلى أقصى اتساع لها؛ حيث ضمت كل من الصين والتبت وكوريا والهند الصينية وشمال الهند وإيران وآسيا الصغرى وروسيا والقرم وغيرها، راجع: السيد العريني، المغول، بيروت 1981م، ص 148: 150 (المترجم).

في هذا الوقت المزدهر من الفن الإسلامي، كان الاهتمام الحقيقي ينتمي للحياة وللحالة الاجتماعية للناس الذين صنعوا وشجعوا أفضل إنتاج للفنانين المشرقيين. يمكن للتاريخ أن يعرض تناقضات مذهلة، لكنها بالطبع أقل من تلك التي قدمها ذلك المشهد لتلك الجماعة من الجنود المتمردين، الذين شكلوا جيشًا نظاميًا من الأجانب، نادرًا ما تزاوج مع المواطنين الأصليين، وشكل طبقة منعزلة بكل معنى الكلمة، همج في كامل مظهرهم، ميالين لسفك الدماء، عديمي الرحمة بأعدائهم، مستبدين برعاياهم، وعلى الرغم من ذلك متذوقين لذلك النقاء المرهف الذي قدمه لهم الفن في حياتهم المنزلية، وأسخياء في عطاياهم للمؤسسات الدينية، وأصحاب عظمة فيما يخص مساجدهم وقصورهم، ومرهفي الحس لأصغر ما يخص التفاصيل المتعلقة بالثياب والأثاث. ومع السماح بعرض كل ما يجب السماح به وفقًا لهوى البرابرة، مازلنا بعيدين عن تفسير كيف أن الأتراك أصبحوا عن طريق الصدفة أشهر دعاة للفن والأدب والأعمال العامة، وهو ما لم تعرفه مصر منذ عهد البطالمة.

انقسم سكان مصر خلال ذلك العصر الرائع بشكل حاد إلى طبقتين، بينهما قليل من القواسم المشتركة. إحداهما كانت طبقة المماليك، أو الأقلية العسكرية الحاكمة، أما الأخرى فاشتملت على جماهير المصريين. كانت تلك الأخيرة مفيدة في زراعة الأرض، فضلًا عن دفع الضرائب التي دَعَّمت المماليك، والقيام بصناعة ثيابهم؛ لكن خارج نطاق هذه الوظائف، وعن تلك الخاصة بشغر المناصب القضائية والدينية في الإمبراطورية، فقد كان لهم دور صغير في شئون الدولة، ويبدو أنهم نادرًا ما اندمجوا في صفوف

أسيادهم الأجانب. وعن أسماء[1] المماليك التي وصلت إلينا في كتابات المقريزي الدقيقة والمفصلة كانت عمومًا أسماءً تركية، وحتى عندما تكون أسماء عربية عادية، فقد حَمَلَها أتراكًا اتخذوا أسماءً عربية جنبًا إلى جنب مع اللغة واللباس والبلد التي اتخذوها موطنًا. لم يكن للناس أي دور في أمجاد الجيش أوالمراسم الاحتفالية الخاصة بالمماليك. لقد كانوا في الواقع يشعرون بالامتنان حين يرتقي سلطان معتدل إلى العرش من أمثال لاجين، وحين يتم تخفيض الضرائب وتوزيع البقشيش، كانوا ينضمون - مثل كل حشود العامة - في تزيين الشوارع والانخراط في البهجة العامة، فضلًا عن عودة السلطان من غزو ناجح، أو تعافيه من أحد الأمراض، ومع ذلك لم يكن لهم أي صوت في حكم البلاد، وكان عليهم أن يقوموا بأفضل ما في وسعهم مع حكامهم المتعاقبين بشكل مستمر.

---

(1) سيكون من المفيد هنا تفسير النظام المتبع في أسماء وألقاب المماليك. كان لدى كل مملوك: 1- اسم حقيقي، مثل: كتبغا ولاجين وبيبرس وقلاوون، من أصل تركي عمومًا؛ 2- كنية أو لقب شرفي، مثل: حسام الدين ونور الدين وناصر الدين؛ 3- اسم عائلة زائف، مثل أبي الفتح وأبي النصر؛ 4- إن كان سلطانًا، يلحق أحد الألقاب بكنية السلطان أو الملك، كالملك السعيد والملك الناصر والملك المنصور؛ 5- لقب الملكية، يلمح ضمنًا بنهايته الموصولة بياء، أنه كان قد تم امتلاكه كعبد (أو تم توظيفه كموظف أو خادم) بواسطة سلطان أو سيد ما، مثل الأشرفي، «عبد أو مملوك السلطان الأشرف» والمنصوري، «مملوك السلطان المنصور». كان ترتيب تلك الألقاب كما يلي: أولًا، اللقب الملكي، ثم الكنية الشرفية، ثالثًا اسم العائلة، رابعًا الاسم الحقيقي، والأخير هو لقب الانتساب: مثل السلطان الملك المنصور حسام الدين أبو الفتح لاجين المنصوري. ومن المألوف، اختصارًا لهذه الأسماء الكثيرة أن يسمى السلطان بكنيته، المنصور، إلخ، أو بواسطة اسمه الحقيقي، لاجين، إلخ، مع إغفال البقية، بينما النبيل (الأمير) يرمز إليه بصورة ملائمة عن طريق اسمه الحقيقي فحسب.

كان ينبغي على المماليك بعد مقتل تُوران شاه انتهاز الفرصة والاستيلاء على عرش مصر، إلا أنهم مع ذلك أظهروا احترامهم للسلالة الحاكمة السابقة، إضافة للعرفان بالجميل لقادتهم السابقين؛ لذا قاموا باختيار أرملة الصالح، شَجَر الدُّر[1] كملكة عليهم، وهي الملكة الوحيدة تقريبًا التي حكمت بلدًا إسلاميًّا قبل الإمبراطورة الحالية للهند. جمعت شجر الدر بين كونها مملوكة ورفيقة للمماليك البحرية وبين زواجها من السلطان الأيوبي، الذي أنجبت منه ولدًا. وقد توفي ذلك الابن خليل في طفولته، لكنها أصرت على إثبات حقها في المُلْك اعتمادًا على كونها أمًّا لأمير من السلالة الملكية، وذلك بتوقيعها الرسمي على كل وثائق الدولة، لقد أطلقت على نفسها أم خليل (أو والدة خليل). وخطب لها على المنابر، ونقش اسمها على السكة بألقاب مؤنثة: «المُسْتَعْصِمِية الصَالِحِية، مَلِكَة المُسْلِمين، والدة المَلِك المَنْصُور خَلِيل أَمِير المُؤْمِنين»[2]، وهو ما يعني «الأَمَة [السابقة] للـ[خليفة] المُسْتَعْصِم[3] [ثم] للصالح؛ ملكة المسلمين،

---

(1) كانت تركية الجنس وقيل أرمينية، اشتراها الصالح نجم الدين، وما لبث أن أحبها فصار لا يفارقها أبدًا، ولدت له ولدًا هو خليل مات في صغره، يعدها المقريزي أول مَن تولى مصر من المماليك الترك، راجع: المقريزي، السلوك، ج1/ ص 459 ، عنان، تراجم إسلامية، ص 85: 116 (المترجم).

(2) راجع: المقريزي، السلوك، ج1/ ص 459 (المترجم).

(3) أرجع المؤلف لقب المستعصمية الذي ذُكر قبل لقب الصالحية، أنها بذلك كانت جارية للخليفة العباسي المستعصم (639 - 656هـ/ 1242 - 1258م) قبل أن يشتريها الصالح أيوب، إلا أن ذلك غير ثابت تاريخيًّا، ويذكر د. أحمد مختار العبادي أن شجر الدر قد أقرت هذه النسبة في سكتها وخطبتها ترضية للخليفة العباسي كي يعترف بشرعية حكمها، وأن لين بول يمكن أن يكون قد اختلط عليه الأمر بينها وبين =

أم الملك المنصور خليل [أي صديق] أمير المؤمنين»[1]. كان أول عمل للسلطان الجديد هو التصديق على المعاهدة السابقة مع الملك لويس، وإرساله هو وجيشه بأمان إلى خارج البلاد. على الأقل كان يوجد احتمال يجعل الصليبيين مدينين لها إلى حد ما بحياتهم، فبعد الحماس الذي أعقب اغتيال تُوران شاه، وبعد أن أثملهم استعادة دِمْياط، كان للمماليك رأيان إما ذبح الصليبيين أو عدم فعل ذلك. لقد قلبت الفدية كفة الميزان على الأرجح؛ حيث دفعت الملكة زوجة لويس - التي كانت في دِمْياط - النصف الأول، والذي بلغ ثمانمائة ألف بيزانتس Besants[2]، ولم يضع الملك وقتًا في مغادرة الساحل.

= جارية تركية أخرى تسمت بنفس اسمها، كانت جارية للخليفة العباسي الناصر لدين الله (576–622هـ/ 1180–1225م)، وتوفيت بالعراق عام 634هـ/ 1236م، راجع: العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص 119 (المترجم).

(1) توجد العملة الوحيدة المعروفة لشجر الدر في المتحف البريطاني (Lane-Poole, Catalogue, iv. p. 136) وتحمل هذه الألقاب جنبًا إلى جنب مع تلك الخاصة بالخليفة العباسي المعاصر لها وهو المستعصم، فضلًا عن التاريخ، القاهرة 648هـ (والذي يبدأ في 5 إبريل 1250م). الألقاب هي نفسها الواردة في المقريزي. والعملة هي الوحيدة التي سجلت بين المسكوكات لفترة حكمها، التي استمرت أقل من ثلاثة أشهر، وهي الآن العملة الوحيدة المعروفة لملكة مسلمة، باستثناء رضية ملكة دلهي، وأبش ملكة فارس، ونورجهان على عملات إمبراطور جهانكير المغولية (أسرة حكمت الهند حتى 1857م). كان لقب الملكة «عصمة الدين» ولقبها الملكي كان سلطان؛ حيث لم توجد صيغة مؤنثة على نحو «سلطانة» في اللغة العربية. كثيرًا ما يتم تغيير الاسم العام شجر الدر، كما كتبه أبو الفدا والمؤرخون الآخرون، إلى الاسم الدارج شجرة الدر بواسطة المقريزي والمؤرخين اللاحقين.

(2) هي عملة ذهبية ترجع في الأصل للإمبراطورية البيزنطية (المترجم).



شكل (56) دينار الملكة شجر الدر، القاهرة، 1250م

كان الوضع الغريب لملكة مسلمة ممقوت للغاية في الأفكار الإسلامية؛ مما يجعله لا يدوم طويلًا. فقد قال الرسول الكريم ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً»[1]، وكتب خليفة بغداد إلى القادة المصريين، بالرغم من كونه بعيدًا عن أن يتم استرضاؤه بالحقيقة الواضحة، وهي أن سلطان مصر الجديد سبق وأن كان ضمن حريمه: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلًا»[2]. وبالفعل تم الأخذ بهذا التلميح من قِبَل الأمراء، ووقع الاختيار على عِزّ الدّين أَيبك[3]، الذي كان واحدًا من قادة المماليك البحرية، فضلًا عن كونه أتابكًا للعسكر أو القائد العام للجيش؛ ليكون زوجًا لشَجَر الدُّر وسلطان مصر؛ حيث لُقِّب بالملك

(1) عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: (لَقَدْ نَفَعَنِي اللهُ بِكَلِمَةٍ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَيَّامَ الْجَمَلِ بَعْدَ مَا كِدْتُ أَنْ أَلْحَقَ بِأَصْحَابِ الْجَمَلِ فَأُقَاتِلَ مَعَهُمْ . قَالَ: لَمَّا بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّ أَهْلَ فَارِسَ قَدْ مَلَّكُوا عَلَيْهِمْ بِنْتَ كِسْرَى قَالَ : لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً). رواه البخاري (4425)، ورواه النسائي في «السنن» (8/ 227) (المترجم).

(2) نص المقريزي، السلوك، ج1/ ص 464 (المترجم).

(3) هو أيبك بن عبد الله الصالحي النجمي التركماني، أول سلاطين المماليك البحرية في مصر والشام، كان مملوكًا للصالح نجم الدين، ترقى عنده في الخدم حتى صار أحد الأمراء الصالحية، وعمله جاشنكيرًا، صار مقدمًا (أتابكًا) للعسكر بعد مقتل توران شاه وتولي شجر الدر، التي تزوج بها واستلم منها الملك سنة 648هـ المقريزي، السلوك، ج1/ ص 463 (المترجم).

المُعِـزّ[1]. لوحِظَ مزيد من الاحتراز الإضافي في ضوء العداء للأيوبيين في سوريا، فلم يكن أفراد سلالة صلاح الدين يميلون للسماح لمصر للإفلات مـن ملكيتهم دون محاولة للحفاظ عليها. ولقد استولى الناصر أمير حَلَب - ابن حفيد صلاح الدين - على دِمَشْـق (التي كانت تابعـة لمصر آنذاك) كخطـوة نحـو الزحف علـى وادي النيـل. ولحرمانه من هـذه الذريعة، قام المماليـك بوضع ملك يحكم جنبًا إلى جنب مع أَيْبَك، كان هذا الشـخص هو الأشـرف مُوسَـى[2]، ابن حفيد الكامل، وهو طفل يبلغ من العمر ست سـنوات[3] . إلا أن السـلطة الحقيقيـة ظلت فـي يد الملكة، التي سـيطرت على الموارد المالية، ورفضت أن تُخبِر أيبك بمكان ثروة السـلطان الأخير الصالـح، وأبقـت على زوجها في خضـوع تام. كانت وظيفتـه الحقيقية أن يحـارب أعداء الملكة، بينما أدارت هي الشـئون الداخليـة للدولة، بالرغم من أن ذلك كان عن طريق اسـمي الملكين المتشاركين، وبمساعدة الأقلية العسـكرية الحاكمة المُشـكَّلَة من قادة المماليك، ومنهـم: أَقْطاي وبيبرس وبالبان، وهم الأبرز من بينهم، فضلًا عن توليهم مناصب رسمية رئيسية.

(1) تم سك عملات أيبك النادرة بواسطة قوالب عملات الصالح أيوب، مع إضافة اسم أيبك (دون لقب)، بتاريخ: القاهرة 651 و652هـ (1253، 1254م). لا تحمل أيٌّ من العملات اسمي أيبك والأشرف موسى في ذات الوقت.

(2) هو الأشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل، كان جده المسعود صاحب اليمن المعروف بالقسيس، ابن الكامل بن العادل الأيوبي، وعاش أبوه في كنف الصالح أيوب حتى توفي، أقاموه سلطانًا في 3 جمادى الأولى سنة 648هـ، المقريزي، السلوك، ج1/ ص 464 (المترجم).

(3) كان موسى بن الناصر يوسف، ابن مسعود يوسف (ابن الكامل)، والذي حكم اليمن من 1215 إلى 1228م.



شكل (57) دينار أيبك، الإسكندرية، 1256م

كان على أَيْبَك أن يحمي نفسه من خطرين: أحدهما كان الغزو بواسطة أيوبيي سوريا المطالبين بالحق الشرعي، والآخر مؤامرة ضمن زملائه من المماليك والرعايا العرب.

يمكن إغفال خطر أهل البلد من المصريين، إلا أن الخطر الأكثر إلحاحًا كان متمثلًا في المطالبين بالحق الشرعي. وقد نادى بالفعل جزء من الجيش المملوكي في الصَّالِحية قرب الحدود الشامية بملك منافس ممثلًا في المُغيث عُمَر، ابن العادل الثاني وحفيد الكامل، وهو مرشح ذو حق شرعي جيد للعرش، هذا الحق الذي جعل عمه الصالح يبقيه سجينًا بقربه في الشَّوْبَك. وبعد إطلاق سراحه مباشرة من سجَّانه الانتهازي، واستيلائه على حصن الكَرَك القوي، كان رد أَيْبَك على هذه المنافسة وضع مصر تحت حماية خليفة بَغْداد، والمناداة بها ولاية ضمن ولايات الخلافة العباسية، وبنفسه نائبًا عن الخليفة بها. وبعد حصوله على لقب شرعي آخر، ووصوله لغايته من الأيوبيين، وجه أَيْبَك اهتمامه لتدابير الحرب. لقد أرسل أَقْطاي - قائد المماليك البحرية - أولًا لنجدة غَزة، التي كانت محاصرة من قِبَل السوريين، وفي غضون ذلك بذل جهودًا كبيرة لإقناع أهل مصر باحترامه للسلالة الحاكمة الأخيرة. وقد تم نقل جثمان الصالح أَيّوب من قلعة الرَّوْضَة؛ حيث أُخفي على عجل بواسطة شَجَر الدُّر، وحظي بجنازة مهيبة في الجامع الذي حوى ضريحه (ولايزال

قائمًا)، والذي كان قد بُني في بين القصرين بواسطة شَجَر الدُّر. حضر أَيْبَك والأشرف، الملكان الشريكان، فضلًا عن موظفي الدولة في أبهة عظيمة، وجميع المماليك يرتدون ثياب المشيعين البيضاء وقد حلقوا شعورهم، أما القبر فقد تم تغطيته بوقار بالرايات؛ ومن ثمّ وُضِعَ فوقه جعبة وقوس السلطان الراحل. تم تشجيع الناس أيضًا للاعتقاد بأن المعارضة الأيوبية منقسمة على نفسها، حتى أن المُغيث أمير الكَرَك صار حليفًا لأَيْبَك، وقد تم نشر جميع أنواع الشائعات الكاذبة.

مع ذلك تنبأ الجميع بانتصار السلالة الحاكمة القديمة، وعندما وصل الناصر أمير دِمَشْق إلى الحدود، كان أهل القاهرة واثقين من نجاحه؛ لذا أعدوا له ترحيبًا. هكذا قابل أَيْبك وأَقْطاي بصحبة جيش كبير من المماليك وعرب الصعيد ذلك المطالب بالحق الشرعي، بالقرب من العَبَّاسَة، وأعقب ذلك معركة قوية فر على إثرها العرب المصريون الذين هُزِمُوا هزيمة منكرة في الهجوم الأول إلى ديارهم، معلنين في طريقهم عن هزيمة أَيْبك. وقفت القاهرة على الفور إلى جانب المنتصر المُفترَض؛ حيث تم الدعاء للناصر في اليوم التالي في صلاة الجمعة، وقامت الاستعدادات للاحتفال به. ومع ذلك لم تكن المعركة قد انتهت حين فر العرب، فقد اخترقت الميمنة المصرية الميسرة السورية، مع توازن في قوتي القلب بين الجيشين؛ لذا تذبذب الموقف. وأخيرًا سبب انضمام مماليك الناصر إلى رفاقهم على الجانب الآخر قلبًا في الموازين؛ مما أدى إلى فرار بقية الجيش السوري إلى دمشق، والتخلي عن المعسكر والمتاع، وفقدان العديد من القتلى والأسرى. ومن ضمن الأسرى الذين شهدوا دخول أيبك المظفر إلى

القاهرة، كان الصالح إسماعيل، الأمير السابق لدمشق، والعديد من الأمراء الآخرين من سلالة صلاح الدين؛ حيث تم استعراض إسماعيل أمام قبر منافسه القديم، الصالح أَيُّوب، وشُنِقَ بعدها في القلعة كعدو خطير لمصر.

قام أَيْبك متشجعًا بهذا النصر بإرسال أَقْطاي لاستعادة غَزة وفِلَسْطين، وانتهز فرصة ازدياد هيبته كي يخلع شريكه الاسمي الطفل الأَشْرَف، ويرسله بعيدًا إلى القُسْطَنطينية (652هـ/ 1254م). في غضون ذلك تدخل الخليفة ليعزز من التفاهم السلمي بين أتباعه المتنافسين في كل من سوريا ومصر. كان باعثه في ذلك واضحًا، فقد بلغ الغزو المغولي بالفعل حدوده؛ حيث وصل البرابرة إلى ديار بَكْر، وبات من الضروري إزالة كل الخلافات الثانوية وتشكيل جبهة متحدة ضد أعداء الإسلام. تمت ترتيبات السلام بواسطة سفراء من بَغْداد على أساس أن مِصْر ستحوذ فِلَسْطين غربي نهر الأردن، بما في ذلك القُدْس والجزء الإسلامي من الساحل. تم تجديد المعاهدة عام 654هـ/ 1256م، حين تخلى الناصر عن حمايته للمصريين الساخطين، ولم يعد لأَيْبك بعد ذلك أي مشكلة مع المطالبين بالحق الشرعي[1].

كانت الوقاية من خطر مؤامرات أهل بيته أكثر صعوبة من هجمات العدو الصريحة. هكذا كان أَقْطاي، وهو أحد أبرز قادة المماليك والذي قام باستكمال هزيمة لويس التاسع فضلًا عن هزيمة السوريين مرارًا وتكرارًا، منافسًا خطيرًا لأَيْبك. لم يكن للمماليك البحرية أن ينصاعوا لقائد آخر، ومع تواطؤ أَقْطاي تحول أولئك الجند العدوانيون إلى ترويع الآمنين، وأطلقوا العنان لأعمالهم الوحشية من عنف وسلب لبيوت الأبرياء فضلًا عن

(1) حُدِّدَت الحدود المصرية، وفقًا لأبي الفدا، قرب العريش كما هي عليه اليوم.

مداهمتهم لحمامات النساء العامة. وكما يقول المقريزي لم يكن للفرنجة أنفسهم أن يفعلوا ما هو أسوأ. ومما أضاف للفوضى العامة، اندلاع ثورة عرب الصعيد تحت شعار: «مصر للعرب» وليس للترك، وتحولت هذه الحركة العرقية إلى حركة شعبية، حتى أن العرب كانوا قادرين على حشد اثني عشر ألف فارسٍ وعدد وافر من جنود المشاة. تصدى لهم أقطاي على مقربة من رأس الدلتا بصحبة خمسة آلاف فارس فحسب من مماليكه موضع الثقة، وتسببت مهارتِه المألوفة فضلًا عن شجاعتهم في إحرازالنصر مرة أخرى. ولقد أخضعت حملة سريعة في الشمال عرب الدلتا الذين اشتعلت فيهم روح الثورة؛ حيث أوقع أَيْبك قائدهم والعديد من أتباعه غدرًا، وعاقب القبائل بزيادة الضرائب، فكانت النتيجة هى إفلاسهم. كان عرب مصر أثرياء، امتلكوا العديد من البيوت والقطعان الكبيرة، وكما يقول مؤرخو القرن الخامس عشر، من الآن فصاعدًا تم إخضاعهم للدولة التي كانوا يرفضونها.

إن الانتصار الأخير لأقطاي جعله أكثر إزعاجًا من أي وقت مضى؛ مما جعل أَيْبك يعقد العزم على التخلص منه. هكذا تم الإيقاع بالقائد في قلعة القاهرة، وأُلقِيَت رأسه إلى مرافقه الذي يقف تحت الأسوار. على إثر ذلك فر من البلاد الكثير من المماليك البحرية، الذين راعهم هذه الضربة المفاجئة، واعتُقِلَ آخرون ممن ظلوا. لقد أنقذ أيبك عرشه لوهلة، ومع ذلك فقد شكل المماليك في المنفى خطرًا دائمًا، لقد أغاروا على فلسطين، وسعوا إلى إثارة الناصر في دمشق، وحين تم إقناعه عن طريق الخليفة بطردهم، انضموا إلى المغيث في الكرك وحاموا حول الحدود

المصرية. قضى أَيْبك الجزء الأفضل من أعوام حكمه الثلاثة في معسكر على الحدود، حاميًا نفسه من هجومهم. لقد أصبح الآن مصممًا على جعل لقبه شرعيًّا؛ لذا أَرسل سفيرًا إلى الخليفة في بَغْداد لطلب ثياب التكريم وشارات التقليد المعتادة، في نفس الوقت تقدم للزواج من ابنة لُؤْلُؤ[1] أمير المَوْصل، مما سبَّبَ قطيعة مع زوجته شَجَر الدُّر، التي رغم تحملها لأسوأ الظروف مع زوجها، كانت تشعر بالغيرة الشديدة من اشتراكها فيه مع امرأة أخرى. لقد جعلته بالفعل يطلق زوجته السابقة، ولم تكن لتحتمل زواجًا جديدًا، خاصة من أميرة ذات منزلة. لقد تم إخبار أَيْبك بواسطة منجم البلاط أنه سيموت مقتولًا على يد امرأة، وتم تحذيره سرًّا من أن الملكة كانت تعتزم إبعاده؛ لذا يبدو أنه أضمر خططًا مشابهة من جانبه، إلا أنها سبقته بدعوته إلى القلعة مع تأكيدات على صدق إخلاصها؛ ومن ثَمّ قُتل بأمرها داخل حمامه. حاولت بعد ذلك إظهار الحادث على أنه وفاة طبيعية، لكن سُرعان ما انتزع المماليك الحقيقة من العبيد الذين تم تعذيبهم. عبثًا عَرضت الملكة العرش على العديد من النبلاء، إلا أن أحدًا منهم لم يجرؤ على قبول هدية كهذه محفوفة بالمخاطر. كان من الممكن للمماليك قتلها

(1) هو الملك الرحيم بدر الدين أبو الفضائل لؤلؤ بن عبد الله النوري الأرمنّي الأتابكي، صاحب الموصل، كان في الأصل مملوكًا لنور الدين أرسلان شاه زنكي؛ لذا نسب إليه، ترقى عنده حتى صار استاداره، ثم قام بتدبير أمور المملكة في عهد ولده القاهر مسعود، وبعد موت القاهر ثم ولديه الصغيرين استقل لؤلؤ بالملك سنة 631هـ، وظل كذلك إلى أن ملك المغول بغداد وكامل العراق والجزيرة سنة 656هـ، فذهب إلى هولاكو الذي أقره على ولايته فرجع إلى الموصل ومات بها عام 657هـ، راجع: ابن واصل، مفرج الكروب، ج1/ ص 166: 168، ج2/ ص 289، 387 (المترجم).

فـي ضراوة غضبهـم، إلا أن روابـط الصداقة القديمة ضمنـت حمايتها من البحرية، الذين علاوة على ذلك لم يكن لديهم سببٌ يدعوهم لحب أيبك. هكذا تم حبسها في البرج الأحمر[1]، ولتوقعها الهلاك، كرست تلك المرأة البطلة ساعاتها الأخيرة لسحق جواهرها بالهاون، لألَّا ترتديها امرأة أخرى. بعد ثلاثة أيام تم سـحبها أمام الزوجة التي أجبرت أَيْبك على طلاقها، وفي حضور منافستها ضُرِبَت شَجَر الدُّر من قِبَل عبيد الأولى بالقباقيب الخشبية حتى الموت؛ ومن ثَمّ ألقوها شبه عارية في خندق القلعة، حيث ظلت لعدة أيـام قبل أن تفترسـها الـكلاب، إلـى أن دفنها في النهاية أحد الأشـخاص. ضريحها لايزال قائمًا قرب مشـهد السـيدة نفيسـة، غطته يد ورِعَة معاصرة بقمـاش مزخرف باسـمها. لقد كانـت نهايتها مثـل إيزابـل Jezebel، على الرغم من أنها كانت قد أنقذت مصر.

تـم تنصيب ابن أَيْبك (من زوجته المطلقة) على العرش الخالي باختيار المماليـك، إلا أن الغـلام البالغ خمسـة عشَـر عامًا، والـذي قضى وقته في تسـلية تافهـة بين قتـال الديوك وامتطـاء الحميـر، كان مجـرد بديل مؤقت لتجنب النزاع بين الأمراء الذين يشـعرون بالغيرة. لم يكن الملك المَنْصُور علـيّ[2][3] - كمـا تـم تسـميته - مسـيطرًا على الأزمـة الوشـيكة، ففي ذي

(1) هو من الأبراج التي بناها الملك الكامل الأيوبي في الناحية الجنوبية من القلعة، يعرف حاليًا ببرج المقطم، راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، ج3/ ص 372 (المترجم).

(2) تحمل عملة ذهبية للمنصور نور الدين علـيّ، تاريخ: القاهرة 656هـ (1258م).

(3) أقامه أمراء الدولة سلطانًا بقلعة الجبل، يوم الخميس 16 ربيع الأول عام 655هـ وعمره خمس عشرة سنة تقريبًا، المقريزي، السلوك، ج1/ ص 495 (المترجم).

القعـدة 657هـ/ نوفمبـر 1259م، تـم خلعه بواسـطة قُطُـز[1]، الوصي على العـرش (الذي كان فيما مضى نائبًا لأيبك أو نائبًا للسـلطنة)، والذي اعتلى العـرش بلقب المَلِـك المُظَفَّر[2]. لم يكن الوقت مناسـبًا لألعـاب الصبية، هكـذا قال قُطُـز لأتباعه: «لابد من سـلطان ماهر قاهر»[3]. لـم يكن الخطر الآن من قِبَل المطالبين بالحق الشـرعي، لأن أَيْبَك قد هَزم المُغيث الأيوبي أميـر الكَرَك هزيمة منكرة حين حاول غزو مِصْـر بمعاونة البحرية الذين تم نفيهم. لقد هدد خطر أكبر بكثير الشـرق الإسلامي بأكمله ممثلًا في زحف المَغُول تحت قيادة هُولاكو[4]، الذي اسـتولى على بَغْداد وقَتل الخليفة عام

---

(1) معناها بالتركية الكلب الشرس، يقال إن اسمه الأصلي هو محمود بن ممدود الخوارزمي، وأنه ينتسب إلى بيت الأسرة المالكة في خوارزم، فهو ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزمشاه، و أبوه ابن عم السلطان جلال الدين، ولما قضى المغول على ملك هذه الأسرة كان قطز من السبايا الذين حملوا إلى دمشق، فبيع هناك ثم انتقل إلى القاهرة، راجع: ابن أيبك، كنز الدرر، ج8/ ص 35، المقريزي، السلوك، ج1/ ص 520، أبي المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7/ ص 67: 85 (المترجم).

(2) يوجد تاريخ على عملة ذهبية للمظفر سيف الدين قطز هو 658هـ (1259–1260م)، لكن دار الضرب مطموسة، وتوجد دار الضرب على عملة فضية هي دمشق، إلا أن العام مطموس.

(3) المقريزي، السلوك، ج1/ ص 507 (المترجم).

(4) هو هولاكو خان بن الإمبراطور تولوي بن الإمبراطور جنكيز خان (1217– 1265م)، أكمل ما بدأه جده جنكيز خان في فتح ما تبقى من جنوب غرب آسيا، وقام بتأسيس سلالة إيلخانات فارس بعد اجتياحها، وقد اجتاح المغول بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية تحت قيادته، ثم اجتاحوا الشام ودخلوا دمشق عام 658هـ/ 1260م، عنه راجع: الهمداني، جامع التواريخ (تاريخ هولاكو خان)، القاهرة 1960م، عباس إقبال، تاريخ المغول، ترجمة: عبد الوهاب علوب، أبو ظبي 2000م، السيد العريني، المغول (المترجم).

656هـ/ فبراير 1258م، وقام بغزو سوريا بأكملها عام 658هـ/ 1260م، وواصل حتى غزة ناهبًا ومدمرًا كل شيء في طريقه. وقد أَرسل هولاكو سفيرًا لسلطان مصر، يَحمل خطابًا مليئًا بالتهديد وطالبًا خضوعه المُذِل[1]. رَد قُطُز بإعدام السفراء وتعليق رؤوسهم على باب زويلة. لم يكن ليتفاوض مع العدو خشية أن يتحول عنه بعض الأمراء ضعاف القلوب؛ لذا كان عليه أن يدبر توبيخًا صارمًا لهم قبل أن يتمكن من قيادة جيش متحد وصامد إلى الحدود. أُخمِدَت التذمرات وظهرت الشجاعة، حين أخرج بيبرس بصحبة طليعة الجيش حامية المغول من غزة؛ ومن ثمّ زحف جيش مصر بأكمله شمالًا على طول الساحل؛ حيث ضمن حياد الفرنجة في عكا، ثم ذهب لمواجهة البرابرة. لقد عثروا عليهم قرب بِيسان في عَيْن جَالُوت[2] (عين جالوت - موقع شهير في الحروب الصليبية)؛ حيث حَطمت الصدمة المروعة لهجمة المغول المفاجئة الميليشيا المصرية. إلا أن الفرار المتهور قاد إلى النصر؛ حيث فقد المغول تشكيلهم أثناء تفرقهم في المطاردة، فتم قطعهم بسهولة عن طريق الهجوم المطرد للمماليك الثابتين[3]. سقط قائد

---

(1) راجع نص الخطاب في: المقريزي، السلوك، ج1/ ص 514 (المترجم).

(2) هي بلدة شرق دارين بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين، ويقال إن هذا الاسم يرجع إلى قَتْل الملك جالوت على يد نبي الله داود عليه السلام في هذا المكان، ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص 171 (المترجم).

(3) روي أنه لما اصطدم العسكران يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان، اضطرب جناح عسكر السلطان وانتقض طرف منه، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته على رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: «وا إسلاماه» ، وحمل بنفسه =

المغول كَتْبَغا، وسرعان ما تراجع جيشه بشكل كامل؛ ومن ثمّ انضمت إليه حامية دِمَشْق؛ حيث ثار المسلمون سريعًا وذبحوا سكانها النصارى، الذين أظهروا فرحتهم مبكرًا بسقوط الإسلام. لقد استعاد قُطز النظام في كافة أنحاء المدن المدمرة، وقام باستبدال الأمراء الأيوبيين كتابعين في مراكزهم القديمة في حِمْص وحَمَاة، وتُلي الدعاء باسمه حتى حَلَب والفُرات. وفي عودته منتصرًا من حملته الرائعة التي أنقذت مِصْر واستعادت سوريا، سقط ضحية للغيرة التي هي آفة لا مفر منها للدكتاتورية العسكرية. لقد تآمر بيبرس، أعظم قادته - الذي أعمته رغبته في حكم حَلَب - مع النبلاء الآخرين؛ ومن ثمّ اغتيل قُطز أثناء عودته من مطاردة داخل الحدود المصرية؛ حيث تم اختيار قاتل الملك الأساسي كسلطان على الفور.

= وبمن معه حملة صادقة، فأيده الله بنصره وقُتل كتبغا مقدم التتر..... فرجع التتر وصافوا مصافًا ثانيًا أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم. وكان قد تزلزل المسلمون زلزالًا شديدًا فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول: «وا إسلاماه» ثلاث مرات، «يا الله انصر عبدك قطز على التتار»، فلما انكسر التتار الكسرة الثانية، نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكرًا لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم، راجع: المقريزي، السلوك، ج1/ ص 516، 517 ، انظر عن المعركة أيضًا: عبد المنعم ماجد، أضواء جديدة على معركة عين جالوت، عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص 161 (المترجم).

كان بيبرس - أو السلطان الملك الظاهر[1][2] رُكن الدنيا والدين بيبرس البَنْدُقْدَارِي الصَالِحي - هو المؤسس الحقيقي للدولة المملوكية. وفي حين احتفظ أسلافه بسلطتهم بشق الأنفس ولأمد قصير أمام الخصوم، سواءً من المتمردين أو الأجانب، جعل بيبرس من نفسه سلطة عليا فوق الجميع. فقد كان أصله من القفجاق Kipchak، الواقعة بين بحر قَزْوِين Caspian وجبال الأورال Ural، وكان طويلًا، وردي البشرة، أزرق العينين، التي كانت إحداها مشوهة بإعتام في العدسة؛ لذا جلب لمالكه ما يعادل (عشرين جنيهًا) فحسب عند بيعه في سوق الرقيق. كان ينتمي

(1) «الملك الظاهر، ركن الدنيا والدين، بيبرس البندقداري [مملوك] الصالح». اختار أولًا لقب القاهر، لكنه وُجِدَ أن هذا اللقب له سوابق مشئومة، فتم تغييره للظاهر. وبعد إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، أضاف لقب قسيم أمير المؤمنين «شريك أمير المؤمنين». عملاته (مثل معظم العملات المملوكية) تم استخدامها كثيرًا مما يجعلها غير مقروءة، مع ذلك هناك عملات مؤرخة من القاهرة بأعوام: 664، 665، 666، و667هـ (1265-1259م)؛ والإسكندرية، 659، 661، 664، 667هـ (1260-1269م)؛ ودمشق وحماة، مع تواريخ غير مؤكدة. نقش شعاره على عملاته، وهو أسد يرفع قدمه اليمنى - وهو ابتكار ملحوظ في العملات المصرية. يكتب اسمه عادة بيبرس، لكن على العملات لم يتم إدراج حرف الياء، فيظهر الاسم ببرس، كما تهجاه Quatremère.

(2) انظر عنه: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر بيبرس، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض 1976م، ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة 1971م، ج8 / ص 61 وما يليها، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر بيبرس، باعتناء: أحمد حطيط، طبعة فيسبادن 1983م، المقريزي، السلوك، ج1/ ص520 وما يليها، محمد جمال سرور، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، القاهرة 1938م، سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، القاهرة 1963م (المترجم).

للأميـر أيدكين البُنْدُقْدَار، وهو الذي أخذ منه لقـب البُنْدُقْدَارِي، التي كتبها ماركـو بولـو «Bendocquedar». بعد ذلـك انتقل لخدمـة الصَالِح أَيوُّب، وصـار أحد أبرز المماليك الصالحيـة أو البحرية، وأصبح مميزًا خاصة في معركة المَنْصُـورة. وكان بالفعل أول سـلاطين المماليك العظام، والرجل المناسـب لوضع أسـس الإمبراطورية. كان «Bondogar»، كما يقول وليم الطرابلسـي، «جنـدي لا يقـل منزلة عن يوليوس قيصـر، وداهية لا يقل عن نيـرون»، لكنه سـلَّم بأنه كان سـلطانًا «رزينًا، عفيفًا، عـادلًا لرعيته، وكريمًا حتى مع النصارى منهم». لقد نظم أقاليمه الواسعة بصورة جعلت أي عجز أو شـقاق بين خلفائه غير قادر على تمزيق ذلك النسـيج الذي قام بحياكته، وظـل الأمر كذلك حتى اجتاحت في النهاية موجـة الفتح العثماني كل من مصر والشـام. يرجع إليه تنظيم الجيش المملوكي، وإعادة بناء الأسـطول، وتوزيع الإقطاعات على الأمراء والجنود، وبناء الممرات والجسور، وحفر القنوات في مناطق عديدة من مصر. لقد قام بتقوية حصون سـوريا ووضع بهـا حاميات مـن المماليك؛ وربـط دِمَشْـق والقاهرة بخدمـة بريدية مدتها أربعة أيام، واعتاد على لعب البولو في كلتا المدينتين خلال أسـبوع واحد. لايزال جامعه قائمًا بدون البوابات الشمالية[1]، هذا غير مدرسة كانت قائمة في بَيْن القَصْرَين، لم يبق منها سوى زاوية واحدة فقط، وكان قد أسس وقفًا لدفن فقراء المسـلمين. لقـد كان حاكمًا عظيمًا من وجـوه كثيرة، ولابد أن

(1) انظر عن منشآت الظاهر بيبرس: حسن عبد الوهاب، العمارة الإسلامية في عصر المماليك البحرية، مجلة العمارة، المجلد الثاني، العددين 9-10، 1940م، ص 468: 480، عبد العزيز مرزوق، جامع الظاهر بيبرس البندقداري، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث، مايو 1950م (المترجم).

صفاتـه كانت اسـتثنائية حتى أنهـا رفعته من منزلة مملـوك أعور إلى موحد لإمبراطورية استمرت مائتين وخمسين عامًا.





شكل (58) دينار بيبرس، الإسكندرية، 1261م . شكل (59) الأسد رمز بيبرس على باب أحد الجوامع، 1268م.

لقد عزم بيبرس على أن يكون صلاح الدين الثاني، وأن يُحيي قوة وهيبة الإمبراطورية المصرية، وأن يشن الحرب ضد «الكفار» الذين مازالوا ماكثين على سـاحل البحر المتوسط. لقد قام سـلفه من قبل باستعادة سوريا، وكان بيبـرس حريصًا علـى تعزيز مناصبـه المحلية فضلًا عن استـرضاء الحكام؛ إلا أن الأمـر انعقد على ملكية غير مستقرة. فقد نصَّب أحد منافسـيه نفسـه ملكًا في دِمَشْق، وعلى الرغم من قمعه في صفر 659هـ/ يناير 126 1م، إلا أن طموحه كان ذا دلالة. كان الهدف الأول للسلطان الجديد هو الإبقاء على المَغُول - الذين شـكلوا سلالة حاكمة عرفت بإيلخانات فارس أو هولاكية - علـى الجانـب الآخر من الفـرات، وكان الهدف الثاني هـو معاقبة الدول الصليبية التي اشـتركت في الهدف مع البرابرة ضد ما تبقى من الخلافة التي كانت عظيمة في وقت من الأوقات. ومن أجل التأكيد على مكانته كسلطان بـارز من سـلاطين الإسـلام، لم يقم فقـط بالإنفاق بسـخاء علـى الجوامع والأوقاف الدينية، لكنه أيضًا دعا أحد ممثلي الخلافة العباسية المنفيين إلى القاهرة؛ حيث تم تنصيبه في أبهة عظيمة كزعيم ديني أعلى وشرعي للإسلام

بلقب المُسْتَنْصِر، وتسلم منه العمامة السوداء المزخرفة بالذهب، والرداء، والسلسلة الذهبية، التي كانت ترمز للسيادة الروحية للخليفة المُعَيَّن[1][2].

(1) يبدو أن بيبرس قد اعتزم أولًا إعادة الخلافة إلى بغداد؛ لذا زوَّد الخليفة بجيش وحاشية عظيمة لهذا الغرض، لكن حين بدأ الزحف الفعلي على بلاد العراق، أُثيرَت مخاوفه من أن عودة الخلافة قد تكون معادية له، وترك المستنصر سيئ الحظ للقيام بالمحاولة دون دعم تقريبًا، والتي فقد فيها حياته على ما يبدو. تم تنصيب خليفة عباسي آخر آنذاك في القاهرة (660هـ/ 1262م) بلقب الحاكم، لكن لم يعد هناك مزيد من الحديث عن إعادة غزو بغداد، ومنذ ذلك الحين فصاعدًا اقتصرت وظيفة السلالة الحاكمة الثانية أو المصرية من الخلفاء العباسيين على الأعمال الروحية مثل إقامة شعائر المسجد. مع ذلك، فقد شكلوا المركز التقني للإسلام، وأفادوا في ربط خلافة بغداد القديمة بالسلاطين المعاصرين في تركيا، الذين ورَّثوا لهم حقوقًا كتلك التي يستطيعون منحها. يمكننا الإشارة هنا إلى الخلفاء العباسيين في مصر: - المستنصر 659هـ/ 1261م، الحاكم الأول 660هـ/ 1262م، المستكفي الأول 701هـ/ 1302م، الواثق الأول 739هـ/ 1339م، الحاكم الثاني 740هـ/ 1340م، المعتضد الأول 753هـ/ 1352م، المتوكل الأول 763هـ/ 1362م، المعتصم 779هـ/ 1377م، تم إعادة المتوكل في 779هـ/ 1377م، الواثق الثاني 785هـ/ 1383م، ثم أُعِيدَ المعتصم في 788هـ/ 1386م، المتوكل للمرة الثالثة 791هـ/ 1389م، المستعين 807هـ/ 1405م (سلطان 815هـ/ 1412م)، المعتضد الثاني 816هـ/ 1413م، المستكفي الثاني 844هـ/ 1440م، القائم 855هـ/ 1451م، المستنجد 858هـ/ 1454م، المتوكل الثاني 884هـ/ 1479م، المستمسك 902هـ/ 1497م، المتوكل الثالث 903هـ/ 1498م، ثم أُعِيدَ المستمسك في 922هـ/ 1516م، ثم أُعِيدَ المتوكل الثالث عام 927هـ/ 1521م، إلى أن تولى السلطان العثماني الخلافة عام 945هـ/ 1538م.

(2) عندما تولى الظاهر بيبرس مقاليد الحكم في مصر، أحس أنه في حاجة إلى الشرعية التي تؤيد حكمه وتعطيه الشعبية والقانونية اللازمة، خاصة وأن كثيرًا من المتربصين ظلوا يحاولون انتزاع مصر من حكم المماليك، وكان ذلك سببًا هامًّا لسعيه لإحياء =

بعـد أن اكتسـب اللقب للقيـام بدور قائد المسـلمين، شـرع بيبرس في تدعيم سلطته من خلال إقامة تحالفات مع الأمراء الأجانب. ومن الصدف السعيدة، أن بركة «ايلخان» القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق - الذين رعوا الماشـية في وادي الفولجا Volga - قد اعتنق الإسـلام، وكان في منافسـة داميـة مـع أقاربـه إيلخانات فـارس. تـم تبـادل السـفراء (659 - 661هـ/ 1261- 1263م) والهدايا النفيسة بين بركة وبيبرس؛ ومن ثمّ صارا حليفين ضـد فـارس[1]، حتى ان اسـم بركة قد ذُكر بعد اسـم السـلطان مباشـرة في

= الخلافة العباسية في القاهرة، والذي سيمنحه الحق أيضًا في مد النفوذ المملوكي باسم الخلافة على الحجاز والبحر الأحمر، فضلًا عن تمييزه عن باقي حكام العالم الإسلامي، بوصفه حامي حمى الخلافة وباعثها، وحامي الحرمين الشريفين وهكذا تتبوأ مصر وسلطانها الصدارة في العالم الإسلامي، وهذا ما قد تم بالفعل. كان الظاهر بيبرس أول مَن نصب نفسه شريكًا لأمير المؤمنين، فأطلق على نفسه لقب (قسيم أمير المؤمنين)، ووفقًا للسيوطي لم يجرؤ الحكام الأيوبيون أسلافه على اتخاذ أي لقب مشابه، بل على العكس كانت ألقاب الحكام دائمًا تدل على الخضوع للخلافة العباسية، فكانت قديمًا (مولى أمير المؤمنين) ، (خادم أمير المؤمنين)، ثم بعد ذلك (صاحب أمير المؤمنين) و (خليل أمير المؤمنين) وهو أعلى ما لقب به ملوك بني أيوب. هكذا بدأ الخليفة في ظل المماليك يفقد مكانته الرئيسية، وقد حدث ذلك عبر سنوات طوال تعرضت مكانته خلالها للاستخفاف حتى أصبحت الخلافة ظلًا واهيًا لسابقتها في بغداد، انظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ج2/ ص 95، أحمد سالم سالم، دراسة لتطور مفهوم الخلافة والسلطة بين المماليك والعثمانيين، بحث تحت الطبع بالمجلة التاريخية المصرية، العدد الثامن والأربعون.

(1) تم تقديم روايات مفصلة عن السفارة المصرية إلى إيلخان القبيلة الذهبية عام 1263م، بواسطة ابن الفرات والنويري، مترجمة في Quatremere's Makrizi, i. 213. لقد ذهب المبعوثون إلى القسطنطينية، وعبروا إلى شبه جزيرة القرم؛ ومن ثمَّ إلى الفولجا (Volga) حيث وجدوا معسكر بركة. وصل سفراء بركة إلى القاهرة عام 661هـ/ 1263م.

صلوات الجمعة في جوامع القاهرة والقدس ومكة والمدينة، وصارت ابنته زوجة لبيبرس. ذهب مبعوثو السلطان إلى الإيلخان عن طريق القُسْطَنطينية، بعد أن أقيمت بالفعل تفاهمات ودية مع الإمبراطور ميخائيل باليولوجوس Michael Palaeologus، الذي كان يميل بصورة طبيعية لأخذ جانب مَن يكون عدوًّا لدودًا للمسيحية اللاتينية، كما كانت ممثلة في الصليبيين، الذين عانت من عنفهم وسوء حكمهم الإمبراطورية البيزنطية لنصف قرن من الزمان. لقد قام بيبرس - بناء على طلب الإمبراطور - بتزويد القُسْطَنطينية ببطريرك ملكاني، استعاد الكنيسة الأورثوذوكسية أخيرًا، وأجاز ميخائيل بدوره استعادة الجامع القديم الذي كان موجودًا في عاصمته لقرون إلى أن تم تدميره بواسطة اللاتين[1]. انتظرت سفارة أخرى من القاهرة عند منفريد Manfred، ملك صِقِلِّية وتُسكانا Tuscany، الذي رحب بالمبعوثين، كابن لفريدريك الثاني وخصم للبابوية، على الرغم من أنه لم يقدم أي مساعدة. علاوة على ذلك، فقد تم توقيع معاهدات تجارية بين سلطان مِصْر وجيمس الأراجوني Aragon، وبعد ذلك (669 - 670هـ/ 1271 - 1272م) ألفونسو الأشبيلي Seville. وقد أرسل تشارلز أنجو Anjou، شقيق لويس التاسع، بعثة إلى القاهرة عام 662هـ/ 1264م. وتم العثور أيضًا على حليف ممثل في كيخسرو Kay-Khusru، أحد أمراء السَّلاجقة المتنازعين في آسيا الصغرى، الواقعة تحت سيطرة المغول

(1) هو جامع بناه مسلمة بن عبد الملك عام 96هـ/ 714م في خلافة الوليد بن عبد الملك بعد صلح بين البيزنطيين والمسلمين، وظل قائمًا إلى أن هدمه الصليبيون عندما استولوا على القسطنطينية في الحملة الصليبية الرابعة (المترجم)

في ذلك الوقت. تُظهر كل تلك المعاهدات بيبرس في إطار رجل الدولة الحصيف بعيد النظر، إلا أن التحالف مع إيلخان القبيلة الذهبية القوي هو الذي حمى الدولة الإسلامية من الغزو الخطير لمغول فارس. لقد هاجموا البيرة مرارًا وتكرارًا عند ممر الفرات، وشنوا غارة داخل سوريا حتى أفامية؛ إلا أن بيبرس قام بحصافة بتخريب المناطق الشمالية؛ حتى أن الغزاة لم يجدوا طعامًا أو علفًا، ومنذ ذلك الحين فصاعدًا لم تنجز جيوش المغول أي نجاحات هامة خلال حكمه على الرغم من استمرار خطرهم.

مع ذلك فقد كان هناك متعاطفين مع المغول على طول الساحل الشامي ينبغي التعامل معهم. لقد كان الفرنجة مؤيدين للإيلخانات، الذين كانوا يميلون لصالح المسيحية على حساب الإسلام، خاصة بوهيموند السادس Bohemond VI of Antioch[1] أمير أَنْطاكية وطرابلس، وبالتالي كانوا أهدافًا خاصة لهجوم بيبرس. لقد شن حملات شبه سنوية ضد الإمارات الصليبية لعشرة أعوام بين عامي 659هـ/ 1261م إلى 669هـ/ 1271م. في البداية كانت مجرد غارات داخل إقليم أَنْطاكية وقليقية ومنطقة عَكْا، يصاحبها الكثير من القسوة والتدمير، أو يشوبها الكثير من سفك الدماء. دُمِّرَت كنيسة الناصرة ضمن أخريات، ومع ذلك فقد بدأ عام 663هـ/ 1265م سلسلة من الغزوات. ففي نفس ذلك العام تم الاستيلاء على قَيْصَرية وأَرْسُوف وتسويتهما بالأرض، خشية أن يصيرا معاقل

---

(1) هو بوهيموند السادس أمير أنطاكية وكونت طرابلس (650 - 674هـ/ 1252 - 1275م)، وهو ابن بوهيموند الخامس، والذي خلفه على الحكم عام 650هـ/ 1252م (المترجم).

لـ «كفـار». وفي إهانة كاملة أُجبِرَ النصارى ممن دافعوا عن الحصون التي تـم فتحها علـى المعاونة في إزالتها؛ ومـن ثمّ تم اقتيادهـم وحول أعناقهم صلبـان مكسـورة وأعلام مقلوبة، للإعلاء من شـرف دخـول المنتصر إلى القاهـرة. أثار الدراويش والـفقراء يؤيدهم النسـاء المتدينات، من حماسـة الجنود المسـلمين، وقامـوا بالعمل في الخنادق، واجتهد بيبرس نفسـه في العمـل علـى هدم الحصون. تم اسـتدعاء الجنـود من بيوتهم مـرة ثانية في 664هـ/ 1266م، وبعـد زيارة دينيـة للقُدْس وحَبْـرُون Hebron[1] وتوزيع الصدقـات، اسـتولى السـلطان علـى أركا Arka، وأغـار علـى الأراضـي الصليبيـة حـول عَـكّا وصُور وصَيْـدا، وظفـر بصَفَد بعد ثـلاث محاولات لاقتحامها من قِبَل فرسـان المعبد، الذيـن تـم ذبحهم عن بكرة أبيهم تقريبًا. وعلى خلاف المدن الساحلية، أصبح في صَفَد حامية وتم تقوية حصونها. لقد شـارك بيبرس في كل هذا شـخصيًّا، مشـجعًا رجاله عـن طريق اتخاذه لمواقـع الخطر، مسـاعدًا في عمليات الحصار، ومُبديًـا تعاطفًا غير مألوف بالمرضـى والجرحـى، مجهِّزًا خيام المشـفى والأطبـاء والجراحين. وفي الوقـت ذاتـه قمـع الاضطرابات والسـلب بقوة فـي الأراضي الإسـلامية، وحظر اسـتخدام الخمر في المعسكر، وقَدَّ أنوف الموظفين الذين انغمسوا فـي أي نهب أو أضـروا بالمحاصيل. اجتاح مرة ثانيـة في الخريف أراضي

---

(1) اسم القرية التي بها قبر النبى إبراهيم عليه السلام، وقد غلب على اسمها الخليل، تقع جنوبي القدس بحوالي 35كم، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج2/ ص 212 (المترجم).

ملـك أرمينية الصغرى[1] بعيدًا إلى طرسـوس، واشـترى هايثون Haithon السلام باستسلام دربساك Derbesak والبلاد شرقي نهر جيهون. واستولِيَ على يافا عام 666هـ/ 1268م؛ ومن ثمّ هُدمت مبانيها[2] واسـتخدم رخامها لتزيين جوامع القاهرة. استسـلمت شَـقِيف أرْنُون (بلفـورت)[3] في إبريل، وكان النصر المتوج للحملة هو اقتحام أَنْطاكية، المركز الرئيسي للمسيحية في شمال سوريا؛ ومن ثمّ أُحرِقَت المدينة الشهيرة حتى سويت بالأرض.

اغتنم بيبرس مناسبة غزو أَنْطاكية للكتابة إلى أميرها بُوهيموند السادس، واحدة من تلك الرسـائل السـاخرة التي اشـتهر بها. إنه يُذَكِّره، مخاطبًا إياه «بالكونـت»، بأنه قد خسـر الآن كل إمارته، وهو يَنظر «كالمغشـي عليه من الموت»، في حين يتم أخذ الأراضي الواقعة تحت سيادته جزءًا جزءًا. بعد ذلـك يصـف الفاتح الحملة التـي انتهت باقتحام عاصمـة بوهيموند وصفًا تفصيـلًا، ثم يقول: « فلو رأيت خيَّالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول، وديارك والنهاية فيها تصول، والكَسّـابة[4] فيها تجول، وأموالك وهي توزن

---

(1) انظر عن العلاقات بين المماليك ومملكة أرمينية الصغرى: سعيد عاشور، سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - المحاضرات العامة 1968م، ص 133: 184 (المترجم).

(2) كان هناك معاهدة بين جون إبلين كونت يافا، والسلطان الأيوبي الناصر صاحب دمشق، التي صدَّق عليها بيبرس في مقابلة شخصية مع جون عام 659هـ/ 1261م. ومع ذلك فقد أنهى موت جون إبلين تلك الاتفاقية.

(3) اسم قلعة حصينة جدًا في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل، سماها الصليبيون بلفورت أي الحصن الجميل، راجع: ياقوت، معجم البلدان، ج3/ ص 356 (المترجم).

(4) مَن كان شغله وهمه كسب الغنائم (المترجم).

بالقنطـار، وداماتـك[1] وكل أربـع منهـن تباع، فتشـترى من مَالِـك بدينار، ولو رأيت كنائسـك وصلبانها قد كسرت ونشـرت، وصحفها من الأناجيل المزورة قد نُثرت، وقبور البطارقة قد بعثرت. ولو رأيت عدوّك المسلم وقد داس مكان القُدَّاس والمَذْبَح، وقد ذُبح فيه الراهب والقسـيس والشَّـماس، والبَطَارِقَة وقد دُهِموا بِطارِقَة، وأبناء الملوك وقد دخلوا في المملكة[2]. ولو شـاهدت النيران وهي في قصورك تخترق، والقتلـى بنار الدنيا قبل الآخرة تحترق، وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسـة بولص وكنيسة القسيان قد زلّت كل منها وزالت، لكنت تقول: **يا ليتني كنت ترابًا**[3]....... وكتابنا هذا يتضمن البشـرى لك بما وهبك الله من السـلامة وطول العمر، بكونك لم تكـن لك فـي أنطاكية في هذه المـدة إقامة، وكونك ما كنـت بها فتكون إما قتيلًا، وإما أسـيرًا، وإما جريحًا، وإما كسيرًا. وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي إذا شـاهد الأموات...... ولما لم يسـلم أحد أن يخبرك خَبَّرْناك، ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها باشرناك فهذه المفاوضة وبَشّرناك، لتتحق الأمر على ما جرى»[4][5].

---

(1) اشتقاق من الكلمة الفرنسية (Dames)، وتعنى النساء (المترجم).

(2) أي أن الأمراء قد أصبحوا رقيقًا (المترجم).

(3) سورة النبأ: آية (40)، (المترجم).

(4) الخطاب باللغة العربية (في النويري)، وبالفرنسية في: Quatremère, Mamlouks, I., ii, 190-4؛ وبالألمانية في: Weil, iv. 63-7، والنسخة الإنجليزية الأقرب إلى روح الخطاب في: Sir II. Yule, Marco Polo, i. 25.

(5) راجع: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج30/ ص 196: 199 (المترجم).

عملت تلك الخسارة على تثبيط همم الفرنجة بشكل كبير حتى أنهم عرضوا السلام، وقد تخفى بيبرس نفسه يرافقه اثنان من سفرائه إلى داخل طَرابُلس، متنكرًا في زى عريس؛ لغرض استطلاع المكان سرًّا بهدف حصار مستقبلي. بدأ الفرنجة في عكا أيضًا مفاوضات السلام، التي فشلت بالكامل. ولقد أعقب غارة على البلاد قرب صُور وعكا عام 667هـ/ 1269م حملة أكثر قوة في عام 669هـ/ 1271م، حين استسلمت قلعة الحصن العظيمة (حِصْن الأَكْرَاد) بواسطة الاسبتارية؛ وظفرت كل من طَرْطُوس والمَرْقَب بهدْنة من خلال التضحية بإحدى المقاطعات، واستسلمت عكا، أما الفرسان التيوتون فكانوا عاجزين عن الدفاع عن قلعة مونتفورت (القُرين). وكتب بيبرس ثانية لبوهيموند: «عَلمنا الأصفر نُصب مكان علمك الأحمر، وصوت الناقوس صار عوضه الله أكبر»[1]، أي النداء للصلاة. بعد المزيد من الأعمال العدائية قدمت صُور عروضًا بتقسيم أراضيها مع مِصْر، ونجح هيو الثالث ملك قُبْرُص، مطلقًا على نفسه لقب ملك بَيْت المَقْدس، في إحراز معاهدة سلام لعكا وقبرص لعشرة أعوام وعشرة أشهر وعشرة أيام. وكان هذا التدبير إلى حد ما بسبب وصول تعزيزات من إنجلترا، بقيادة الأمير إدوارد بلنتجنت Edward Plantagenet، في شوال 669هـ/ مايو 1271م، وهو الذي كان قد ألهم مواطني عكا شجاعة متجددة بل وحصل على بعض النجاحات الصغيرة، كان بعضها لصد التحركات المُهدِّدَة التي يقوم بها المغول، الذين توغلوا في شمال سوريا عامي 669 - 670هـ/ 1271- 1272م. علاوة على ذلك، فقد تحطم الأسطول المصري

(1) المصدر السابق، ج8/ ص 271، 272 (المترجم).

بشكل كارثي في ليماسول Limasol[1] في محاولة لغزو قُبْرص، الدعم الرئيسي لبوهيموند، وكان بيبرس مشغولًا بإصلاح الضرر بالبناء السريع لسفن جديدة. وعند وفاة بوهيموند عام 673هـ/ 1275م، تم تجديد السلام مع خلفه الذي وافق على دفع جزية سنوية مقدارها عشرون ألف دينار.

أصبح الفرنجة الآن لا حول لهم ولا قوة، وقبل أن يحدث ذلك تم إزالة خطر آخر بإخضاع «الحَشَّاشِين». كان أولئك المتعصبون من الطائفة الإسماعيلية مُؤَمَّنين في قلاعهم الصخرية التسع وسط جبال الأنصارية بين المَرْقَب وحَمَاة، ومشكلين إرهابًا لسوريا منذ بداية القرن الثاني عشر، هذا وقد نفَّذ الانتحاريون أو الفدائيون الذين ينتسبون إليهم الكثير من الاغتيالات السرية بناءً على أوامر شيخهم القاتلة. عبثًا حاول صلاح الدين قمعهم، و منذ أن فشل في ذلك توددت إليهم العديد من القوى الصليبية، حتى أصبحوا تحت حماية خاصة لفرسان الاسبتارية. ومع ذلك أخذ بيبرس الجزية من الحَشَّاشِين عام 665هـ/ 1267م، وفقًا لمعاهدة مع الفرسان. ومع اكتسابه نفوذًا عليهم[2] بدأ في تجريدهم من قوتهم. لقد أخذ قلاعهم الواحدة تلو الأخرى بين عامي 668 - 671هـ/ 1270 - 1273م، بالقوة أو بالاستسلام المشروط، وهكذا أقنع أكثر الجماعات السرية ترويعًا أن تتخذ مقرًّا لها في مصر؛ حيث خسرت تدريجيًّا صفتها التعصبية واندمجت مع السكان المسالمين.

---

(1) هي ثاني مدن جزيرة قبرص بعد العاصمة نيقوسيا، وقع على الساحل الجنوبي للجزيرة (المترجم).

(2) رُوِيَ عن بيبرس أنه استحث الحشاشين على أن يقوموا بهجوم قاتل على إدوارد بلنتجنت، لكنه أنكر التهمة بقوة.

في غضون ذلك، ومع تخلصه من الأعداء على الساحل السوري، حوَّل بيبرس أسلحته شمالًا؛ حيث اجتاح قِليقية، وباغت وأحرق المِصِّيصَة وسيس، وقام بالإغارة صعودًا حتى طَرَسُوس؛ حيث تُلِيَت صلوات الإسلام في خضم فرحة النصر. هَزم المغول قرب البيرة في أوائل عام 671هـ/ 1273م، بعد السباحة في نهر الفرات على رأس قواته؛ وفي عام 675هـ/ 1277م شن حملته الأخيرة على أقوى خصومه. لقد حكم المغول آنذاك آسيا الصغرى وأمراء السلاجقة الصغار عن طريق حاكم أو بروانا، معين الدين، والذي قاد بيبرس في مقابله الرايات الصفراء لجيشه المنتصر. لقد باغت العدو مع مماليكه الأحد عشر ألفًا قرب أَبُلُسْتَيْن Abulusteyn[1]، وأنزل هزيمة رهيبة بالمغول حتى أنهم تركوا ما يقارب سبعة آلاف قتيل في ميدان المعركة، واستولى على معسكرهم وقتل الأسرى. ولقد نَصَّب السلطان نفسه على العرش في قَيْصَرية؛ حيث حكم سلاطين سلاجقة الرُّوم لقرنين من الزمان، وحاز على ولاء الناس هناك، فضلًا عن الدعاء له في المساجد، وإنشاد الشعراء، وعزف الفرقة السَّلجوقية الملكية؛ وضرب النقود باسمه. ولقد قام بتقسيم كنز البروانا بين جنوده، وتلقى هناك أيضًا ولاء حاكم قَرَمَان التركماني، الذي أثبت رجال قبيلته أن أرضهم هي بمثابة منطقة عازلة نافعة

(1) مدينة كبيرة تقع جنوب آسيا الصغرى، في محافظة مرعش التركية الحالية، وردت باسم «البُسْتَان» في كثير من المصادر الإسلامية والبيزنطية، وعرفت باسم Plasta أو Ablastha فى المصادر البيزنطية، وباسم Ablast أو Ablastayn في المصادر الأرمينية، أما في المصادر العربية والفارسية فقد عرفت باسم آلبيستان والبلستين وأبلستين، كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس و كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، 1985م، ص 165، 166 (المترجم).

على الحدود الشمالية. لم يكن ذلك سوى احتلال مؤقت، فقد حشد الإيلخان الفارسـي بالفعل جيشًـا ضخمًا لتعويض خسائره، وعاد بيبرس بحصافة إلى سوريا، تاركًا قَيْصرية لمذبحة رهيبة على يد المغول الساخطين، إلا أن مجد جلوسه على العرش السَّلْجُوقي لم يكن هو الأقل بين انتصاراته.

لم يكن توسـعه من الناحية الشـمالية هو التوسـع الوحيد للإمبراطورية المصريـة، فقد كان ضـم السـودان أكثر اسـتقرارًا إلى حد مـا. إن داود ملك النوبـة النصرانـي، الـذي كان عليـه - تبعًـا للعـرف القديـم - دفـع الجزية السنوية أو باقة العبيد للسـلطان، قام بإرسـال العديد مـن الحملات داخل الأراضي المصرية، اقتاد من خلالها أسـرى مسـلمين من أَسْوان على النيل ومـن عَيْذَاب على سـاحل البحر الأحمـر. أغار الحاكـم المصري لقُوص بـدوره علـى النُّوبَة بعيدًا حتـى دُنْقُلَة في 670 - 671هـ/ 1272 - 1273م؛ وفـي عام 673هـ/ 1275م اغتنم بيبرس فرصة وصول شِـكنده Shekenda ابن أخي دَاوُد إلى مصر لمناصرة دعواه وتنصيبه معارضًا لعمه. تم إرسـال جيش جديد إلى السـودان، قام بالاستيلاء على حصون، داو Daw وسوس Sus ودُنْقُلـة، وهـزم داود ونصـب شِـكنده على العرش، بعـد أن أخذ عليه الأيمـان المغلظة على أن يكون تابعًا صادقًا ومواليًا لسـلطان مصر، لتقديم باقـة العبيد المعتادة، ودفع نصف دخل المملكة، إلى جانب مختلف الفيلة والـزراف والنمور والجمال والثيران كجزية، إضافة لدينار ذهبي واحد عن كل ذكر بالغ من السـكان، الذين أُجبِرُوا أيضًا على أن يقسموا يمين الولاء. لقـد تمـت محاولة فتح السـودان مـن قبل عام 31هـ/ 652م، ثم بواسـطة شـقيق صلاح الدين عـام 568هـ/ 1173م، لكن كانت تبعيتها اسـمية فقط؛ لذا سرعان ما عادت مرة أخرى.

لقد وصل بيبرس الآن إلى غاية طموحاته. لقد ارتقى من مملوك (عن طريق اغتيال اثنين من قادته) ليصير أعظم سلطان في قرنه. أُطِيعَت أوامره من الشلال الرابع للنيل إلى نهر بيرامس Pyramus [1]، وشرقًا من البيرة على طول نهر الفرات إلى قَرْقِيسِيا على نهر الخابور[2]. لقد أصبح بدو الصحراء مساعدين له، وأشراف المدن المقدسة في الجزيرة العربية تحت حكمه، و سوريا بكاملها خاضعة له، باستثناء القليل من المدن الساحلية التي مازالت في يد الصليبيين، فضلًا عن إمارة حَمَاة. تودد ملك اليمن لكسب صداقته، وأرسل إليه هدايا نفيسة، وطلب منه حاكم الحَبَشَة بطريركًا. كانت سَوَاكِن على البحر الأحمر تابعة له، ودفع له الجزية حكام شمال إفريقيا من بَرْقَة إلى ما بعدها من ناحية الغرب[3]. توفي في أوج شهرته، ربما من شراب مسمم تم إعداده لشخص آخر.

(1) بيرامس هو الاسم التاريخي لنهر سيهان Ceyhan الحالي الواقع جنوب تركيا، الذي سماه العرب سيحان، كان في صدر الإسلام حدًّا مائيًّا بين بلاد المسلمين وبلاد الروم، المرجع السابق، ص 163 (المترجم).

(2) يقول ياقوت: قرقيسياء أو قرقيسيا وهي تعريب كركيسيا، وهي بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ، وعندها مصب الخابور في الفرات، فهي في مثلث بين الخابور والفرات، ياقوت، معجم البلدان، ج4/ ص328 (المترجم).

(3) Weil, iv. 96-97. أُخِذَت قرقيسيا من المغول عام 663هـ/ 1265م؛ وتلقى شريف المدينة منصبه بعد عام لاحق من قِبَل بيبرس، الذي عيَّنَ أيضًا شريف مكة. كانت حماة آخر أثر للقوى الأيوبية، والتي احتفظ أمراؤها بلقب ملك، رغم أنها في الواقع تابعة لسلاطين المماليك حتى انقراضهم عام 741هـ/ 1341م؛ وُلِدَ أبو الفدا، الملك قبل الأخير والمشهور بصورة أكبر كمؤرخ وجغرافي، عام 671هـ/ 1273م في دمشق، حيثما فر والديه فزعًا أمام الغزو المغولي. سقطت حمص (Emesa) الملكية قبل =

قضـى بيبرس الجـزء الأكبر من فتـرة حكمه في حمـلات خارج مصر، لكنه بشـكل عام قضى شهور الشتاء في القاهرة؛ حيث استراح جنوده بعيدًا عـن صعوبة السـير فـي المطر أو الثلج، وقـد كرَّسَ تلك الفتـرات الفاصلة لتحسـين أحوال البلاد والعاصمة. لم يكن اهتمامه العام مقصورًا فحسـب على تأسيس وترميم الجوامع والمدارس، أو إعادة بناء قاعة العدل في أدنى القلعـة، لكنه عمل على توسـيع قنوات الري وحفر أخـرى جديدة، وإقامة الطرق والجسور، وتحصين الإسْكندرية وترميم فنارها، وحماية مصبات نهر النيل من خطر الغزو الأجنبي. لقد بادر إلى إحياء الأسـطول المصري، وقام ببناء أربعين سـفينة حربية Galleys، واحتفظ باثني عشر ألف جندي نظامي، هذا غير - كما يجب علينا أن نفترض - العرب والميليشيا المصرية أو المجندين الإضافيين. اسـتلزمت نفقات حربه الثقيلة ضرائب شاقة، مع أنه وبغرض الشـعبية بدأ حكمـه بإلغاء الضرائب الجائـرة التي فرضها قُطُز إلى مبلغ سـتمائة ألف دينار سنويًّا، إلا أنه وجد نفسه مضطرًا لزيادة الأعباء المالية مع توسـع حملاته. على الرغم من ذلك فإننا كثيرًا ما نقرأ عن إلغاء الضرائـب القديمـة أكثر من فرض رسـوم جديدة، وقد امتـلأت خزانته من

= الأخيرة للأيوبيين في أيدي بيبرس عند وفاة ملكها الأخير عام 661هـ/ 1263م، وأُخِذَت بقية الأراضي الواقعة تحت سيادتهم بواسطة المغول حوالي عام 658هـ/ 1260م، واستعيد الجزء السوري عن طريق قطز. وفي عام 661هـ/ 1263م أوقع بيبرس المغيث - أمير الكرك الأيوبي والمُطالِب المحتمل لعرش أبيه العادل الثاني في مصر - في الشَرَكَ غدرًا، وحبسه في قلعة القاهرة. هكذا صارت الكرك حصنًا تابعًا لمصر، كما كانت الشوبك منذ عام 659هـ/ 1261م. وتم الاستيلاء على سواكن عام 664هـ/ 1266م.

رسـوم مصر بصورة أقل عنها من ضرائب المدن التي تم فتحها، هذا فضلًا عن المقاطعات السـورية، وجزية الدول والقبائل التابعة، والرسوم الكبيرة لجمارك الموانئ. يمكن التوصل لتقدير حجم ثروته من خلال قائمة الهدايا التـي أرسـلها لحليفه، إيلخـان القبيلة الذهبيـة. منها عرش مُطَعَّم بخشـب الأبنوس والعاج، وخزانة فضية، وسـجاجيد صلاة مميزة وسـتائر ووسائد تكاد لا تحصى، وسـيوف ذات مقابض فضية، وسـروج خيل من خوارزم، وأقواس من دِمَشْق، ورماح عربية، ومصابيح وثُريَّات فضية ومطلية بالمينا، ونسخة من القرآن الكريم لا تُقدَّر بثمن في علبة مطرزة بالذهب، وخصيان سـود، وطباخيـن، وخيل وجمـال عربية، وبغـال وحمير وحشـية، وزراف وقرود وببغاوات، إلخ.

كان حكمـه مستنيرًا، يتسـم بالعـدل والصرامـة. لقـد واجـه المجاعـة الشـديدة عام 662هـ/ 1264م عـن طريق اتخاذ تدابيـر حكيمة وكريمة في آن واحـد، من خلال تنظيم بيع القمح، وإجبـار موظفيه وأمرائه على القيام بدعم المُعْدَمين لثلاثة أشهر. لم يسمح بالخمر (برغم أن ضريبته كانت تدر عادة سـتة آلاف دينار سـنويًا)، أو الجعة أو الحشـيش في الأراضي الواقعة تحت سـيادته، وحاول القضاء على الأمـراض المعدية بالعزل المبني على أسـس علميـة، وكان صارمًـا فيمـا يخـص الآداب العامة لرعايـاه، فقد قام بإغلاق الحانات والمواخير، ونفي النسـاء الأوروبيـات من المدينة، برغم ذلك أدمن الكوميز التترية Tatar Kumiz[1]، فضلًا عن اشتباه في انحرافه، إلا أنـه لـم يكن منغمسًـا في الملـذات مهما كانـت رذائلـه الأخلاقية؛ ولم

(1) شراب مصنوع من ألبان الخيل المخمرة، انتشر استخدامه في وسط آسيا (المترجم).

يكن أحد يمتلئ بتلك القوة والنشاط اللازم للعمل أكثر منه. إن كان قضاء معظم يومه في كثير من الأحيان منحصرًا بين الصيد ولعب البولو والرمح أو الرماية، فقد كانت لياليه مُكرَّسَة للعمل. فعلى سبيل المثال تلقى أحد سعاة البريد، الذي كان قد وَصَل عند الفجر، الرد على رسالاته بعد ثلاث ساعات، بدقة شديدة في المواعيد. لقد رأينا كيف أُعِدَّت ذات مرة ست وخمسون وثيقة، وتم توقيعها وختمها في ليلة واحدة.

كان بيبرس ذو شعبية بين الناس، فدائمًا ما أُعجِبَ المسلمون بالسلطان المقاتل، خاصة إذا كان سخي اليد، وكان بيبرس بالفعل شديد السخاء، كما كان في الصدقات. لقد نال أيضًا استحسان التُّقاة، ليس فقط بسبب أوقافه الدينية، بل أيضًا لأنه لم يُظهِر انحيازه لمذهب معين من مذاهب الإسلام، فقد قام لأول مرة بتعيين أربعة قضاة، واحد لكل مدرسة من المدارس الفقهية الأربعة، ومن خلال تحرك كل منهم في وضع معارض للآخر، احتال للوصول إلى ما يريد عن طريق كل ما يُؤَثِّر على الشريعة والدين. كان كل من نبلاء وموظفي الدولة والجيش يساورهم الخوف من غضبه. لقد اشتَبه في الجميع، وقام بنقل ولاته باستمرار من موضع إلى آخر لمنع حصولهم على نفوذ محلي. وإذا أظهر أحد الأمراء خيانة لم ينل رحمة على الإطلاق، وعلى الجانب الآخر، نالَ من خدم بإخلاص أجرًا جيدًا وترقية سريعة فضلًا عن نصيب من الأراضي المفتتحة. كانت أسوأ صفة لدى السلطان هي غدره، فكلمته ويمينه كانا بلا أدنى قيمة، وكان يفتخر بقتله أحد خصومه عن طريق الخداع. ومن الأمثلة العديدة على ذلك، تلك المكيدة الماكرة التي تخلص بواسطتها من كاهن أرمنّي، عن طريق إرسال

خطاب مساومة له يتم اعتراضه من قِبَل عميل مصري يقوم بعرضه على الحاكم المغولي. لكن من الإنصاف أن نتذكر أنه قابل الشيء بنظيره فقط، وأن الساحة الذي تم تدريبه فيها، إضافة إلى الخبرة التي اكتسبها من حياته، لم تكن لتشجع على ثقة غير محدودة برفاقه أو خدمه. على مثل تلك الخطوات التي ارتقى من خلالها، كان يمكن للآخرين أن يرتقوا بالمثل، وليس من المستغرب أن تتسبب ريبته في جعل سجونه بالقلعة مليئة بشكل دائم. وقد ساقه عدم ثقته بعماله إلى العديد من الحيل من أجل مراقبتهم دون أن يشعروا؛ فمثلًا كان يُفترَض أنه ملازم لخيمته بسبب المرض في فلسطين، بينما كان في الواقع يسير متخفيًا طوال الطريق إلى القاهرة؛ حيث مكث لعدة أيام مختبئًا في القلعة، ينظر سلوك نوابه وهم غافلون. في حادثة أخرى قيل أنه غامر متخفيًا في آسيا الصغرى لاستطلاع الأرض، وبعد أن رهن خاتمًا في محل لبيع الطعام، بلغ من الوقاحة أن يكتب للإيلخان المغولي آباجا Abaga طالبًا إعادته إليه. كانت شجاعته وجرأته غير عادية، سواءً في المعركة أو في مجال الاستكشاف المحفوف بالخطر. لقد عاشت الصفات البطولية للسلطان بيبرس أكثر من عيوبه وتفاهاته، ولازالت جماهير المستمعين في المقاهي[1] حتى القرن الحالي تبتهج لسماع سرد الرواة لشيم الشجاعة والكرم الأميري لذلك السلطان، الذي تأثرت به مخيلة المصريين أكثر من أي شخص آخر، باستثناء الإسكندر وصلاح الدين فيما ندر.

* * *

(1) انظر قصص سيرة الظاهر في: Lane, Modern Egyptians, ch. xxi.

سلاطين المماليك البحرية

الملكة شجر الدر[1]	648هـ/ 1250م
المعز عز الدين أيبك[1]	648هـ/ 1250م
المنصور نور الدين عليّ بن أيبك	655هـ/ 1257م
المظفر سيف الدين قطز[1]	657هـ/ 1259م
الظاهر ركن الدين بيبرس[1]	658هـ/ 1260م
السعيد ناصر الدين بركة خان بن بيبرس	676هـ/ 1277م
العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس	678هـ/ 1279م
المنصور سيف الدين قلاوون[1]	678هـ/ 1279م
الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون	689هـ/ 1290م
الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون	693هـ/ 1293م
العادل سيف الدين كتبغا[2]	694هـ/ 1294م
المنصور حسام الدين لاجين[2]	696هـ/ 1296م
الناصر للمرة الثانية	698هـ/ 1298م
المظفر ركن الدين بيبرس الثاني[2]	708هـ/ 1308م
الناصر للمرة الثالثة	709هـ/ 1309م
المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر	741هـ/ 1341م

(1) المماليك البحرية الأصليون للصالح نجم الدين أيوب.

(2) هم مماليك قلاوون، مع ملاحظة أن جميع السلاطين منذ عام 689هـ/ 1290م كانوا من نسل قلاوون، باستثناء أولئك الذين كانوا من مماليكه.

الأشرف علاء الدين قوجوق بن الناصر	742هـ/ 1341م
الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر	743هـ/ 1342م
الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر	746هـ/ 1345م
المظفر سيف الدين حاجي بن الناصر	747هـ/ 1346م
الناصر ناصر الدين حسن بن الناصر	748هـ/ 1347م
الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر	752هـ/ 1351م
الناصر حسن للمرة الثانية	755هـ/ 1354م
المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي	762هـ/ 1361م
الأشرف ناصر الدين شعبان بن حسين بن الناصر	764هـ/ 1363م
المنصور علاء الدين عليّ بن شعبان	778هـ/ 1376م
الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان	783هـ/ 1381م
برقوق (المماليك البرجية)	784هـ/ 1382م
حاجي للمرة الثانية، بلقب المنصور	791هـ/ 1389م 792هـ/ 1390م

الفصل العاشر

أُسْرَةُ قَلاوون

678-784هـ/ 1279 – 1382م

أبنـاء بيبرس – قلاوون – الغزو المغولـي – هزيمة المغول – العلاقات الأجنبية – حكومة قلاوون – المارستان – مارستان قلاوون – خليل – فتح عـكا – نهاية الحملات الصليبية – الناصر محمد – كتبغا – لاجين – ترميم الجامع الطولوني – لاجيـن ومنجوتمر – رجوع الناصر – الأميران سـلار وبيبـرس – الغزو المغولي للشـام – المغول في دمشـق – هزيمة المغول – الشئون الخارجية – ثورة البدو – معاملة النصارى – ثروة النبلاء – التجارة والجمـارك والرسـوم – تنحـي الناصر – بيبـرس الثاني – الفتـرة الثالثة من حكم الناصر – إعدام زعماء المماليك – الشئون الخارجية – السفارات من الهنـد وروما – نصارى مصر – الإصلاحات الاقتصادية للناصر – تشـجيع التعليـم – الفنـون في عهد الناصـر – العمارة – الأعمال العامة – شـخصية الناصر – خلفاء الناصر – الشئون الخارجية – زعماء التركمان – برقوق.

الفصل العاشر
أُسْرَةُ قَلاوون
678-784هـ/ 1279 – 1382م

المصـادر[1]: أبـو الفدا، النويـري، المقريـزي، العيني، أبو المحاسـن، القلقشندي، ابن إياس؛ معاصر –

Quatremère, Historie des Sultans Mamlouks, and Mémoires Sur l'Egypte; Weil, Geschichte des Chalifen, iv.; Lane-Poole, Art of Saracens, and Cat. Or. Coins in B. M.; Casanova, Hist. de la citadelle du Caire (Mém. Miss. Archéol. Franc. Vi.).

الآثار الرئيسية في مصر: جامع ومارستان وقبة (مدفن) قلاوون 683 – 702هـ/ 1284 – 1303؛ جامع الأمير بدر؛ مدفن خليل في القرافة الجنوبية 687هـ/ 1288م؛ إصلاحات لاجين بجامع ابن طولـون 695هـ/ 1296م؛ مدفن زين الدين يوسف 697هـ/ 1298م. مدرسة الناصر 698هـ/ 1299م؛ إصلاحـات جوامـع الحاكم والأزهـر وابن رزيـك، إلـخ 701 – 703هـ/ 1302 – 1304م؛ خانقـاه بيبـرس الثانـي 710هـ/ 1310م؛ مدرسـة طيبرس (فـي الأزهر) 709هـ/ 1309م؛ قناة ماء ومبانٍ فـي القلعة 713هـ/ 1313م، وجامـع الناصـر 718هـ/ 1318م؛ جامع الأمير حسـين 719هـ/ 1319م؛ جامـع الملك 719هـ/ 1319م؛ جامع سـنجر الجاوالي وسـلار 723هـ/

---

(1) راجع مصادر الفصل السابق (المترجم).

1323م؛ ضريح الأميرة أوردتجين 724هـ/ 1324م؛ جامع أحمد المهمندار 725هـ/ 1325م؛ جزء من جامع قوصون 729هـ/ 1329م؛ جامع ألماس 730هـ/ 1330م؛ مدرسة أقبغا 734هـ/ 1334م؛ ضريح تاشتمر 734هـ/ 1334م؛ قصر بشتاك 735هـ/ 1335م؛ قبر وجامع الطنبغا المارداني 739هـ/ 1338 - 1339م؛ جامع الست مسكة 740هـ/ 1339م؛ جامع أصلم 747هـ/ 1346م؛ جامع كجك 747هـ/ 1346م؛ جامع آقسنقر 748هـ/ 1347م؛ جامع أرغون الإسماعيلي 749هـ/ 1348م؛ جامع قتلوبغا 749هـ/ 1348م؛ جامع منجك 751هـ/ 1350م؛ جامع وخانقاه وسبيل شيخو 751 - 756هـ/ 1350 - 1355م؛ صهريج لاجين 752هـ/ 1351م؛ جامع صرغتمش 758هـ/ 1357م؛ جامع وضريح السلطان حسن 757 - 763هـ/ 1356م - 1362م؛ إصلاحات جامعي الحاكم 760هـ/ 1359م والأزهر 761هـ/ 1360م، مدرسة الأميرة تتر الحجازية 761هـ/ 1360م؛ مدفن الأميرة طُلبية 765هـ/ 1364م؛ مدفن تنكز 764هـ/ 1363م؛ مدرسة الجاي اليوسفي 775هـ/ 1373م؛ جامع الأشرف شعبان 762هـ/ 1368م.

النقوش الرئيسية في مصر: على الجوامع والأضرحة سالفة الذكر، في كثير من الأحيان تكون متضمنة لتواريخ بدء البناء فضلًا عن الانتهاء؛ بركة خان في جامع (لم يعد موجودًا) 677هـ/ 1278م؛ بكتمر بجامع طلائع 699هـ/ 1300م؛ بيبرس الثاني بجامع الحاكم 702هـ/ 1303م؛ الناصر بالقلعة 713هـ/ 1313م، وفي جامع قلاوون 713هـ/ 1303م.

النقوش الرئيسية في الشام: بركة (كأمير مع أبيه بيبرس) على قلعة دمشق وقلعة الكرك؛ قلاوون بضريح بُنِيَ بواسطته لبيبرس وبركة في دمشق، لوح

في ذكرى غزو المرقب عام 656هـ/ 1258م، نقوش في بلاطنس وبعلبك والكَرَك والقُدْس وحَبْرون (الخليل) ونابلس وشَيْزر؛ خليل في يُبنة، وفي جامع بطَرابُلس، وقلعة حَلَب؛ كتبغا بجامع الرملة الكبير وحماة؛ لاجين بجامع غزة الكبير والشوبك ومُناخر؛ الناصر محمد بالحرم القدسي والمسجد الأقصى وقبة الصخرة، إلخ، وفي جامع غزة، والجبلة وطرابلس والرملة، وعلى برج الرَّمْلَة، وسور وبوابة دِمَشْق، وقريبًا من ذلك جسر تورا، وفي قلعة الكرك، وفي اللاذقية Latakia وجبل حور؛ الكامل شعبان في المسجد الأقصى بالقدس، وعلى قلعتي الكرك وطرابلس؛ وحسن في المسجد الأقصى وفي جامع بعلبك الكبير؛ والصالح في المسجد الأقصى وجامع بمؤتة بالقرب من الكرك؛ الناصر شعبان في قلعة حلب (MSS. Notes of M. van Berchem).

عملات: (انظر هامش كل حكم)، شارات نبَّالَة، والعديد من الأطباق والآنية الأخرى، ومصابيح زجاجية مطلية، إلخ، بالمتحف البريطاني، ومتحف فكتوريا وألبرت، ومتحف القاهرة، ومتحف باريس، وغيرها من المتاحف والمجموعات خاصة.

وصل إلى العرش أكبر أبناء بيبرس الثلاثة سنًّا، من ابنة بركة إيلخان القبيلة الذهبية، حاملًا لقب الملك السَّعِيد نَاصِر الدّين بركة خان. وقد أعلن بيبرس عن ولايته للعهد في وقت مبكر عام 662هـ/ 1264م، وبعد ثلاثة أعوام لاحقة أمر أن تكون تحيته بلقب «سلطان»، فقد كان حريصًا كل الحرص على ضمان توارث الحكم في سلالته، لكن مع الأسف لم تنتقل صفاته العظيمة لأي من أبنائه، فقد كان السعيد شابًّا ضعيفًا محبًّا للملذات

يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، وكان أداة في يد أمه المغولية فضلًا عمن اختارهم من شباب حاشيته وأغدق عليهم أفضل مناصب الدولة، في حين تم إهمال الأمراء الكبار لحروب أبيه، وسُجن بعضهم وسُمم آخرون بواسطة الملكة الأم، وهكذا تطور سخطهم إلى تمرد صريح، أُجبِرَ على إثره السعيد - المحاصَر في قلعة القاهرة - على التنازل عن العرش، والبقاء في حِصن الكرك[1]. ناشد المماليك قلاوون - أحد أكثر القادة الكبار كفاءة - لقبول العرش، لكن الأمير الحصيف توقع المعارضة، وفضَّلَ أن ينصب الابن الأصغر لسيده، بَدْر الدّين سُلامِش بلقب العادل. عمل قلاوون لمائة يوم كأتابك أو وصي على العرش للطفل البالغ من العمر سبعة أعوام، وأثناء ذلك عَيَّن مؤيديه في كل مناصب الدولة لإعداد الطريق للخطوة التالية؛ حيث تم عزل سُلامِش بهدوء؛ ومن ثمّ أصبح قلاوون سلطانًا لمصر.

قام الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي[2][3]

(1) تُوفِّيَ في ذي القعدة 678هـ/ مارس 1280م، وتم دفنه بجوار بيبرس في دمشق. خلفه أخوه، المسعود خضر، أميرًا على الكرك.

(2) «الملك المنصور، سيف الدين، قلاوون الألفي، [مملوك] الصالح». قلاوون، هكذا يُنطَق في مصر، ولكنه يكتب قيلاوون بالتركية، وتعني «بطة»؛ وكان تصوير البطة البرية شائعًا للغاية على الآنية والأعمال الأخرى المطعمة بالفضة والنحاس، والتي كانت تحمل اسمه أو اسم ابنه. راجع عملي: Art of the Saracens, pp. 164, 190, 194. أما «الألفي» فإشارة إلى شرائه بألف دينار. لقد كان تركيًا مائة بالمائة، حتى أنه تحدث أقل القليل من اللغة العربية. وقد تم الاحتفاظ بعدد قليل للغاية من عملات قلاوون؛ على إحداها تاريخ: دمشق 682هـ (1283-1284م).

(3) انظر عنه: ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، القاهرة 1961م، ابن أيبك، كنز الدرر، ج8/ ص 231 وما يليها، =

- وهو تركـي مـن قبيلـة برج أغلـو مـن القفجاق، وأوفـر حظًّا مـن بيبرس فيما يخص ذريته - بتأسـيس سلالة ملكية اسـتمرت في الحكم لمائة عام، وقـد قام بالحفاظ بل وزاد من المكانة والمسـاحة الإقليميـة للإمبراطورية المصريـة، وملأ العاصمة بالمبانـي العظيمة. ومع ذلك فقد اضطر لخوض قتال عنيف قبل أن يسـتقر على عرشـه. كان للنظام المملوكي نقطة ضعف معينـة، فعنـد وفاة السـلطان الذي تم اختيـاره، يصير جميع الأمـراء الكبار بمثابة مرشـحين محتملين للمنصب الشاغر. لم يكن هناك بعد نظام وراثي لخلافة العرش، رغم وجود ميل إلى الإقرار المؤقت بابن السـلطان السابق فـي انتظار اتفاق جميع الأطـراف. العديد من قادة بيبرس كانوا قد شـعروا بحقهـم الكامل فـي المطالبة بالعـرش مثلهم مثل قـلاوون، وأحدهم وهو سـنقر أعلن نفسـه ملكًا لسـوريا بلقب الملك الكامل[1]، فقد كان لديه دعم العديد من قادة الظاهرية أو مماليك بيبرس، فضلًا عن بدو الصحراء وأمير حماة الأيوبي، إلا أن قواتهم المشـتركة هُزمت على يد قلاوون - بعد قتال اسـتمر لعدة ساعات فقط، بمساعدة الانشـقاقات - في معركة عظيمة عند الجسـورة قرب دمشـق[2]؛ وتم وضع نهاية لحالة السخط عن طريق الشدة

= المقريزي، السلوك، ج2/ ص 122 وما يليها، أبي المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7/ ص 248 وما بعدها، ابن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة 1976م، محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، القاهرة 1947م (المترجم).

(1) أعلن سنقر الأشقر نفسه ملكًا في دمشق في الأول من محرم عام 679هـ المقريزي، السلوك، ج2/ ص 131 (المترجم).

(2) وقعـت المعركـة في 19 مـن شـهر محـرم 679هــ، المصـدر السـابق، ج2/ ص 132 (المترجم).

من ناحية، ومن ناحية أخرى عن طريق الاستمالة الحكيمة. وبعد فترة وجيزة قام بتجديد الهدنة التي عقدها بيبرس مع اسبتارية المرقب (برغم مخالفاتهم)، وعقد معاهدات مع أمير طرابلس (28 ربيع الأول 680هـ/ 16 يوليو 1281م)، وفرسان المعبد في طرطوسة (5 محرم 681هـ/ 15 إبريل 1282م)، وأمير عكا (6 ربيع الأول 682هـ/ 3 يونيو 1283م). كانت تلك المعاهدات سارية لعشر سنوات بصفة شكلية، وأكثر ما هو جدير بالذكر من الشروط التي احتوتها، حرية دخول السفن المصرية للموانئ الصليبية، وفرض قيود تنذر بالسوء على أي تحصينات إضافية. ولقد كانت موافقة الإمارات الصليبية على التنازل عن تدابير الدفاع عن النفس، دليلًا على شعورهم بالعجز أمام جيوش مصر؛ لذا لم تكن نهايتهم بعيدة.

عُقِدَت تلك المعاهدات المختلفة مع المدن الصليبية تحت وطأة الغزو المغولي. لقد أراد قلاوون أن يكون طليق اليد لمنازلة عدوه الرهيب بمفرده، والذي كان قد عبر الفرات ناهبًا حلب، مستفيدًا من الارتباك الحادث بسبب التمرد في سوريا. جمع السلطان كل ما أمكنه من رجال، مماليك وتركمان وجنود من حماة والكرك وبدو الصحراء وعرب من الحجاز والفرات[1]، فكان إجمالي ما تم حشده حوالي خمسين ألفًا. بلغ المغول تحت قيادة منكوتمر – شقيق الإيلخان أبغا – وفقًا للتقديرات المختلفة من خمسين ألفًا إلى ثمانين ألف، كان ثلثهم مُشكَّلًا من فرق آتية من جورجيا وأرمينية،

(1) يصف المقريزي الفرقة المكونة من أربعة آلاف من عرب قبيلة مرة، بأنهم جميعًا فرسانٌ جيدين، مسلحين بخوذة ودرع مغطى بالحرير، يحملون سيفًا ورمحًا، ترافقهم فتاة تتغنى بأغاني الحرب.

فضلًا عن حدود الإمبراطورية البيزنطية. التقى الجيشان قرب حِمْص، ونشبت المعركة الحاسمة يوم الخميس، 14 رجب 680هـ/ 30 أكتوبر 1281م. لقد عَمِلت تكتيكات فرسان المغول المُربِكَة - الذين استعملوا بلا شك حركتهم الشهيرة تولوغمة Tulughma أو حركة الالتفاف - على كسر ميسرة المسلمين بشكل كامل، فروا بعدها على نحوٍ مذرٍ إلى بوابات حِمْص، يطاردهم بحرارة رماة السهوب سريعي الحركة. وهناك تم ذبح بعض المصريين؛ واستمر البعض الآخر في فرارهم نحو مصر، حاملين الأنباء المؤسفة عن هزيمة السلطان، بينما عسكر المُطاردون المنتصرون خارج حِمْص؛ حيث أقاموا الولائم من الغنائم التي ظفروا بها. لم يتوقع أى من الطرفين أن ما حدث لميسرة الجيش المصرى ربما لم يحدث للميمنة والقلب. فقد كان جنود أمير حَمْاة الأيوبي القدامى الراسخين متمركزين هناك، مع البدو النشطاء المراوغين، وأولئك لم يصمدوا فحسب أمام وطأة هجوم المغول، أو أجبروا ميسرتهم على اللواذ بالفرار، لكنهم أيضًا جرحوا قائدهم، وأخذوهم في اللحظة التي أصبحوا فيها مترددين بلا قيادة، وساقوا العدو إلى هزيمة منكرة. فبمجرد أن طاردت الميمنة المغولية الميسرة المصرية، بالمثل طاردت الميمنة المصرية الميسرة المغولية، وظهر مشهد استثنائي لشطري اثنين من الجيوش الكبيرة، يطاردان بعضهما بقوة في اتجاهين متضادين أمام سلطان مصر الذي أصيب بالذهول، والذي كان يقف على تل مقفر بصحبة ألف فحسب من حرسه المملوكي، إلا أن المغول المستمتعين بالوليمة سُرعان ما علموا بالنكبة التي ألمَّت بميسرتهم، وسارعوا بالانضمام لرفاقهم المنسحبين.

فـي غمرة عجلتهم لـم ينعطفوا جانبًا لتمزيق فرقة السـلطان الصغيرة، رغم أنهـم مرُّوا بالقرب منـه لدرجة أنه قام بقلق بإخفاء راياته وإسـكات طبوله. رغم ذلك بمجرد أن رأى ظهورهم انقض عليهم، وأنهكهم أثناء انسحابهم، وأرسـل أوامره بواسـطة الحمام لولاته في الفرات لسد جميع المعابر. لقد كانت أسـوأ كارثة قابلها المغول في محاولاتهم للاعتداء على سوريا، لقد هزمهـم كل مـن قطز وبيبـرس والآن قلاوون، وكانت أعظـم هزائمهم هي الهزيمة الأخيرة.

كانـت النتيجة هي هدنة مسـلحة لسـبعة عشـر عامًا، وفـي الربيع التالي تُوُفِّـي كل من منكوتمر وأبغا، وكان أحمد، الإيلخان التالي لفارس، مغوليًّا اهتـدى للإسـلام، لكنه فيما يتعلق بهذا لم يتخل عن سياسـة أسـلافه، ولـم تشـر الرسـائل المتبادلة مع قلاوون[1] من خلال سـفيره إلى الحرب بشكل واضـح، إلا أن حـدوث منافسـة في بـلاده أدى إلى الإصلاح من سـلوكه، هكـذا حملت سـفارة ثانيـة هدايا رائعـة وعهـودًا ودية؛ حيث تم اسـتقبال السـفراء في دِمَشْـق من قِبَل قلاوون الذي كان محاطًا بألف وخمسمائة من حرسه المملوكي، في أردية من الحرير الأطلسي الساتاني، وأحزمة ذهبية، وعمائم من القماش المذهب، يحمل كل منهم شمعة في يده. لكن في هذه اللحظة كان قد تُوُفِّي أحمد، ولـم يعد لدى سلطان مصر مزيدًا من المتاعب مـع المغـول فيمـا تبقى مـن حكمـه. لقد حافـظ علـى العلاقات السـلمية التـي أقامهـا بيبرس مع المنافـس المغولي من القبيلـة الذهبية، وكذلك مع إمبراطور القُسْـطَنطينية، وملوك فَرَنْسا وقَشْتَالة وصِقِلِّية، وجمهورية جِنْوة،

(1) راجع المراسلات في المصدر السابق، ج2/ ص 158: 162 (المترجم).

ورودولف Rudolf إمبراطور هابسبورج Habsburg. وعقد مع جِنْوة معاهدة تجارية، في حين عقد كل من ألفونسو صاحب قَشْتَالة وجِيمس صاحب صِقِلِّية بالفعل حلفًا دفاعيًا مع السلطان المُسْلم أمام أي معتدٍ (688هـ/ 1289م). وأرسل له ملك اليمن هدايا نفيسة، وحتى حاكم سيلان Ceylon بعث سفيرًا بخطاب لم يتمكن أحد في القاهرة من قراءته، ومن خلال محادثة شفهية مفهومة قام بالدعوة للتجارة مع بلده الغني، وعرض مساعدات قوامها عشرون سفينة. كان قلاوون مثل بيبرس، رجل دولة بعيد النظر، وبذل قصارى جهده لجذب التجار إلى مصر. لقد كانت جوازات سفره، التي تضمن الحماية للتجار الأجانب في كل مكان من الأراضي الواقعة تحت سيادته، سائدة وصولًا إلى الهند والصين.

حينما تراجع الخوف من المغول، لم يضع السلطان وقتًا لإخضاع المدن الصليبية، فقد ظلت معاهداته[1] سارية طالما وجد ذلك مناسبًا، ولم يكن قَسَمُه أكثر قداسة من قَسَمِ بيبرس. فبرغم عهده الذي قطعه لعشرة أعوام مع الاسبتارية، إلا أنه باغت حصنهم الكبير في المَرْقَب، والذي لم يكن مهيئًا على الإطلاق للحصار، فقام على الفور بالاستسلام. وقد أُجبِرَ كونت طرابلس آنذاك على أن يتنازل له عن مراكية Marakiya الواقعة على الساحل، رغم أن موقعها يمثل تحديًا للحصار عن طريق البر. اشترت مرجريت أميرة صُور السلام لعشرة أعوام (على الورق) بالتنازل عن نصف رِيعها وبالتعهد بعدم تجديد حصونها مطلقًا. ولقد تمت مداهمة مملكة

---

(1) بعض تلك الوثائق مطبوعة بالعربية، مع ترجمة فرنسية، في ملحق لعمل: .Quatremère's Makrizi, II., i. 166 ff

أرمينية الصغرى؛ حيث أُجبِرَت على شراء هدنة لعشر سنوات بجزية سنوية قدرها مليون درهم، وتحرير كل الأسرى المسلمين، هذا فضلًا عن الكف عن كافة تدابير الدفاع. وفي تحد للمعاهدة مع طرابلس، تم الاستيلاء على اللَاذِقِيَّـة، وبعد موت بوهيموند السـابع - أبطل المعاهـدة آنذاك وفاة أحد مُوقِّعِـي المعاهـدة - حُوصِـرَت طرابلـس نفسـها، حتى تـم تقويضها ومن ثـمّ اقتحامهـا؛ حيث ذُبح الرجال واستُعبِدَ النسـاء والأطفال، ثـم أُحرِقَت المدينـة. وأخيـرًا حين خَـرق أهل عكا الهدنـة، ومع الترحيـب بأية ذريعة، أُعلِنَت الحرب المقدسـة، ومع توجه السـلطان للغزو مباشـرة، تُوُفِّي فجأة في خيمته عن عمر يناهز سبعين عامًا.

اتبع قلاوون خطوات بيبرس عن كثب، خاصة وأن أوضاعهما كانت متشابهة، فقد واجه نفس الصعوبات بنفس السياسة، وقام بتحصين نفسه من خلال التحالفات الأجنبية والتجارية، مُطيلًا المفاوضة مع الخصوم الثانويين الواقعين في متناول يده كسبًا للوقت، من أجل مواجهة الخطر الحقيقي بكامل قوته، ألا وهو الغزو المغولي. لقد حافظ تمامًا على هيبة ونطاق الإمبراطورية، ورغم عدم نجاح حملتين في النوبة (686، 688هـ/ 1287، 1289م)[1] في قمع ملكها المتغطرس، إلا أن سمامون Shemamun كان قد تأثَّرَ على الأقل حتى الآن بغزوات المصريين المتكررة والناجحة، حتى أنه جدَّدَ الباقة السنوية أو الجزية التي كان قد

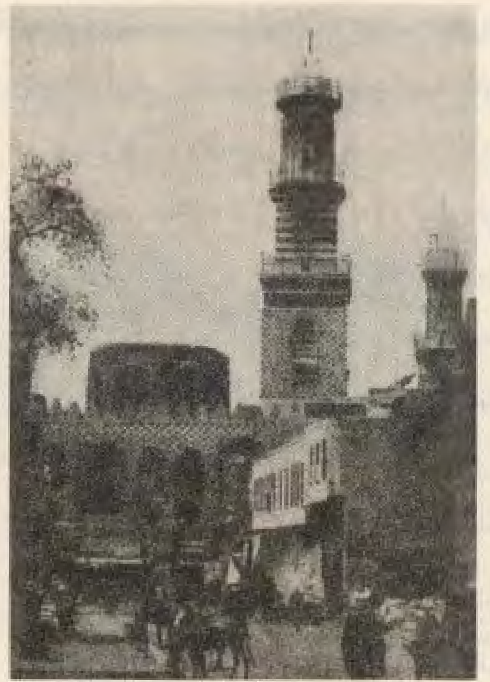
(1) بخصوص الحملات المصرية العديدة في النوبة والسودان، والتي لا يمكن التحدث عنها هنا بصورة كافية، انظر: Quatremère's Mémoires Géographique et hi-Toriques sur L'Egypte, etc., ii. 39-126.

رفضها بتهور. لقد ظل الجيش في حالة بالغة الفاعلية، فلم يسبق لاثنى عشر ألف مملوكي أن يصبحوا على هذا النحو الصارم من الانضباط، وأن يكبحوا تجاوزاتهم المفرطة. لقد تم إيواء ما يقرب من ثلث هؤلاء في قلعة القاهرة، وعُرِفَت هذه الفرقة باسم «البُرْجِيَّة» (نسبة إلى البُرْج). كان الكثير منهم جراكسة أو مغول من القبيلة الذهبية. وقد تم الإشادة بقلاوون كسلطان من قِبَل معاصريه من المشارقة، فهو شجاع لديه بصيرة، عادل معتدل، يمقت إراقة الدماء مع أنه كان صارمًا وقاسيًا فيما يخص الأمراء الخائنين، فقد تم إعدام الكثير منهم أو حبسهم أو سلب أموالهم، بينما كانت عقوباته في بعض الأحيان وحشية، فعلى سبيل المثال تم إحراق نصراني تزوج من مسلمة، بما يخالف القانون، وتم تشويه زوجته. وكان متحاملًا ضد النصارى، سواء في سوريا أو مصر، فبحلول نهاية حكمه تم منعهم من جميع المناصب الحكومية. كان كريمًا تجاه رعاياه المسلمين، وكان ورعه مُكرَّسًا لخدمة شعبه ماديًّا وروحيًا. لقد نَذر قلاوون أثناء مرضه الشديد في مارستان نور الدين في دِمَشْق أنه إذا تعافى سيقوم ببناء مارستان مماثل بالقاهرة، وكانت النتيجة هي المارستان المعروف، الذي أُتم بناؤه عام 683هـ/ 1284م[1]. لقد كان في الواقع ثلاثة مبان: جامع، ومشفى، وضريح المؤسِّس. زُين المدفن بزخرفة الأرابيسك الرائعة، ونقوش بارزة

(1) انظر عن المارستان المنصوري: أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، القاهرة 1939م، حسن عبد الوهاب، العمارة الإسلامية في عصر المماليك البحرية (المنصور قلاوون)، مجلة العمارة، المجلد الثالث، العدد الثاني عام 1941م، ص 85: 91، تاريخ المساجد الأثرية، ج1/ ص 114: 123 (المترجم).

في الجص، مع فسيفساء رخامية جميلة؛ وحفظت هناك أعمدة الجرانيت الأحمر، وثياب السلطان وابنه، التي كان يمسَّهَا المرضى فضلًا عن النساء العاقرات والأطفال البكم لقرون اعتقادًا منهم بتأثيرها العلاجي. أما الجامع فكان أقل لفتًا للنظر، لكن المشفى هو أحد أكثر المباني روعة في القاهرة. إنه يحتوي على ثلاثة مجالس، اثنين منهما محاطين بحجرات صغيرة، بينما تفتح عدد من الحجرات على أكبر هذه المجالس، والذي يوجد به صف من الأعمدة على كل جانب. كان هناك في الأصل قسمٌ لكل مرض معروف، وطاقم طبي منتظم، وغرفة محاضرات ومختبرات ومستوصف وحمامات ومطابخ، فضلًا عن جميع الأجهزة المعروفة في ذلك الوقت. لقد قام الموسيقيون بتلطيف ساعات أرق المرضى، بينما قام خمسون من قارئي القرآن مقابل أجر بتعليم المواساة الدينية في الجامع المجاور، هذا غير مكتبة يترأسها أمينٌ مع خمسة مساعدين تحوي مجموعة رائعة من الكتب الطبية والدينية والقانونية. وقد تم إعالة ستين يتيمًا بالإضافة إلى تعليمهم في المدرسة المجاورة. لقد كان أول مارستان يتم بناؤه على الإطلاق في مدينة القاهرة، لذلك سُرعان ما تم تقديره. لقد تمت معالجة الغني والفقير مجانًا على قدم المساواة، هكذا أصبح اسم قلاوون بسبب هذا العمل العظيم مكرَّمًا بين سلاطين مصر، لأن الصدقة عند المسلمين تمحو الكثير من الخطايا[1].

(1) فيما يتعلق بحالة واستخدام المارستان مبكرًا في القرن الحالي، انظر: Lane, Cairo Fifty Years Ago, 92 ff.، وفيما يتعلق بأسلوب البناء والزخرفة راجع عملي: Art of Saracens, 73-5, 91, 101, 123 ff.


شكل (60) مجموعة قلاوون، 1284م

من أبناء قلاوون الأربعة، تم إعلان علاء الدين خلفًا له عام 679هـ/ 1280م، لكنه توفي في ظروف غامضة عام 687هـ/ 1288م؛ حيث تم تعيين الابن التالي خليل وليًا للعهد، على الرغم من عدم اقتناع أبيه بالتوقيع على صك التعيين الرسمي، سواء لبغضه لشخصيته العنيفة الملحدة، أو لشكه في قيامه بتسميم أخيه. هكذا قال: «أنا ما أُوَلِّي خليلًا على المسلمين»[1] وربما كان ينتظر نضوج ابنه الأصغر محمد. لكن تسبب موت قلاوون وإقرار الرأي العام بعد ذلك، بإصدار ما يمكن أن يطلق عليه شهادة غير موقعة. هكذا جلس الملك الأشرف صلاح الدين خليل[2][3] على عرش أبيه دون معارضة. منذ

---

(1) المقريزي، السلوك، ج2/ ص 218 (المترجم).

(2) عملات خليل معروفة بتاريخ، القاهرة 691هـ (1292م)؛ والإسكندرية 692هـ.

(3) انظر عنه: ابن عبد الظاهر، السلطان الملك الأشرف خليل، القاهرة 1353هـ/ 1934م، ابن أيبك، كنز الدرر، ج8/ ص 303، المقريزي، السلوك، ج2/ ص 218، المقفى الكبير، ج3/ ص 793، أبي المحاسن، النجوم الزاهرة، ج8/ ص 3 وما يليها، عبد الرءوف عفيفي، السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة القاهرة، ب- ت (المترجم).

البداية رتب نفسه لإذلال أو التخلص من الأتباع الموثوق بهم في بلاط وجيش أبيه، فكانت سنوات حكمه القصيرة التي امتدت لثلاث سنوات مليئة بالإعدام والحبس، ونهب كبار الأمراء. كان أول مَن عانى أكبر وزراء الدولة، طرنطاي، كبير الوزراء، والذي تم توسيطه أمام السلطان، وأفلت لاجين من الموت أمام العرش؛ لأن وتر القوس انقطع فجأة عند قصبته الهوائية وقام الأمراء بالتوسل للعفو عنه. جَلبت مصادرة بضائع طرنطاي للسلطان ستمائة ألف دينار ذهبًا، وسبعة عشر ألف رطل من العملات الفضية، وعددًا لا يحصى من العبيد والخيل والجواهر، في حين تحول الابن الأعمى للرجل الذي تم قتله لاستجداء قوته.

جمع خليل في عمر السابعة والعشرين أسوأ درجات الرذائل الخاصة بطاغية وحشي مُتَّبع لنزواته. كانت منقبته الوحيدة هي شجاعته، وكانت مأثرته الوحيدة هي فتح عكا. رغم أن الحملة كانت إرثًا عن والده المكروه، إلا أنه كان توَّاقًا لتنفيذ سياسة استئصال «الكفار»، وبقدر ما قل اهتمامه بالدين، فقد كان لديه من الاعتقاد بالخرافات قدرًا يجعله يبدأ كل حملة بصلاة عامة مهيبة، وقراءة للقرآن تحت القبة الجميلة لضريح والده. لقد صدرت الأوامرَ للمسئولين السوريين بإرسال قواتهم إلى سهل عكا، مع كميات من مواد وآلات الحصار حتى أنهم ملأوا مائة عربة من عربات الثيران. لقد انضم خليل بصحبة الجيش المصري للمعسكر في الخامس من أبريل، وخلال أسبوع كانت آلات الحصار تعبث بالأسوار والتحصينات الخارجية. اشتهرت عكا منذ وقت صلاح الدين، بكونها المكان الأكثر تحصينًا في الشام على الإطلاق، وقد جمع خليل على نحو غير عادي حصارًا فريدًا في خطورته، ومع ذلك لم يكن الدفاع أفضل مما

كان عليه في الأيام السالفة. وقد أدى سقوط العديد من المدن الصليبية في حملات بيبرس وقلاوون إلى ملء عكا بخليط خطير من السكان المحبطين، والمنبوذين من أوروبا.

«لقد جمعت بين أسوارها ممثلين عن كل أمة من أمم العالم المسيحي. كان لكل منهم هناك بلدية مستقلة، والعديد من الأمراء، وقادة التنظيمات الكبيرة، وممثلي

شكل (61) دينار خليل، القاهرة، (التاريخ غير واضح)

ملوك فرنسا وإنجلترا وبيت المقدس، وقد مارس كل منهم سلطة مستقلة؛ بحيث تواجد في مدينة واحدة سبع عشر قوة مستقلة، «نشأ عنها الكثير من الفوضى». ليس من الغريب أن تصير المدينة في مثل تلك الظروف، كما كانت بالفعل، المصرف الذي اتجهت إليه كل مفاسد العالم المسيحي. حَكَمَ الكثير من سكانها المختلطين لكن بلا سلطة. كانت مبادئ الدين فضلًا عن القانون والأخلاق لاغية على حد سواء داخل أسوارها، وهكذا صارت عَكّا في أيامها الأخيرة مضربًا للأمثال في كل الأراضي المسيحية لترف وتمرد ورذيلة أهلها.. لم تكن هناك حاجة لمزيد من الجنود للنجاح في الدفاع عن المدينة، لكن حتى في تلك الساعة الأخيرة، كان السكان في شدتهم أكثر انكبابًا على الولائم منهم على القتال، وقد لعب التخاذل والخلاف دورهما أيضًا في تدمير الآمال فى دفاع ناجح، فقد سارع الكثير بالفرار عبر البحر عند أول تهديد بالخطر؛ بينما بقي آخرون لفترة إلى أن

وصلت فرص النجاح لدرجة يائسة.. حتى حين أصبح الهدف الأساسي من وجودهم في خطر، لم يستطع كل من فرسان المعبد والاسبتارية أن يطرحوا غيرتهم المتبادلة جانبًا؛ هكذا وإن تم الدفاع بشجاعة في بعض المناطق، إلا أنه قد افتقر إلى وحدة الهدف العام، والذي كان باستطاعته منفردًا أن يجعله ناجحًا. وأخيرًا في يوم الجمعة الموافق الثامن عشر من مايو، أحدثت آلات خليل صدعًا هائلًا بالأسوار، لدرجة أن جيشه شق طريقه داخل المدينة، مع امتلاء الخندق المائي حول الحصن بالأحجار وأجساد الموتى. فر الناس أمامه نحو الأبراج وقصور النبلاء، أو البيت الكبير لفرسان المعبد. وشق آخرون طريقهم إلى الميناء، محتشدين على سطح السفن بأعداد بلغت القدر الذي غرقت معه تلك السفن في مكانها. فرَّ هنري الثاني حاكم قبرص - الذي لعب دورًا ليس بالقليل في الأيام الأولى للحصار - إلى مملكته بالجزيرة؛ حيث تبعه كبير الاسبتارية وعدد من الهاربين الآخرين. لكن مع ذلك بَقِيَ ستون ألف صليبي كان مصيرهم السبي أو القتل أو ما هو أسوأ. لَقِيَ فرسان المعبد ومَن كان معهم نهاية أكثر نبلًا؛ عن طريق المقاومة حتى الرمق الأخير؛ حيث استسلموا فقط حين قُوض حصنهم، وهلكوا جنبًا إلى جنب مع عدد من مهاجميهم تحت أنقاضه»[1].

هكذا تم اقتحام المعقل الأخير لمملكة بيت المقدس اللاتينية، ثم نُهِبَ وأُضرِمَت به النيران؛ أُسقطت أبراجه الشهيرة ومعاقله، وسُويت حصونه بالأرض، وعلى الرغم من قيام مدينة جديدة مكانه، فقد غابت عن الأنظار مدينة عَكّا المنتمية للعصور الوسطى، تلك المدينة الباسلة التي قاتلت

(1) Archer and Kingsford, The Crusades, 414 - 418.

لقرن من الزمان. وبسقوطها اختفت آخر بقايا الأراضي الخاضعة للسيادة الصليبية؛ حيث استسلمت كل من صُور وصَيْدا وبَيْروت لمصيرها، فضلًا عن البقية القليلة الباقية من مدن الفرنجة. لقد تم إخضاع بعضها، واستسلم البعض الآخر، لكن دُمِّرت جميعها باستثناء بَيْروت، التي ذُبِحَ أو سبي سُكانها، وهكذا نُظِّفت الأرض بشكل كامل من الصليبيين. وأُنهيت بذلك «مناظرة العالم».

دخل خليل دِمَشْق مع عدد وافر من الأسرى، فضلًا عن عرض شجاع لرؤوس الصليبيين على أسِنَّة الرماح. زاد نجاحه من عزمه؛ لذا قام بإخراج الخليفة القديم الحاكم من مكان عزلته في قلعة القاهرة، وجعله يبشر ثلاث مرات بحرب مقدسة داخل الجامع، وعند ضريح أبيه قام بمراسم دينية أخرى. لقد تقدم نحو الفرات؛ حيث حاصر ثم استولى على «قلعة الرُّوم»، وسمَّاها قلعة المسلمين[1]. و أعلن أنه على وشك أن يغزو آسيا وأرض الروم بأكملها؛ حتى يسود حكمه من مطلع الشمس إلى مغربها، وبعد ذلك عاد إلى القاهرة. لقد أعلن عن عزمه في فتح اليمن، ثم بعد ذلك إرسال حملة إلى أرمينية، لكنها انتهت في دِمَشْق؛ حيث تنازل سيليسيان Cilician الحكيم عن مرعش وبهسنا من أجل الحفاظ على السلام. أرسل إيلخان

(1) هي حصن يقع في لواء الرها، أقصى جنوب تركيا الحالية، وقد أنشأت هذه القلعة على مرتفع يشكل لسانًا في نهر الفرات، على بعد حوالي خمسين كيلومترًا شمال شرقي عنتاب، فتحها الأشرف خليل عام 691هـ/ 1292م، ذكرها ياقوت على أنها قلعة حصينة غربي الفرات مقابل البيرة بينها وبين سميساط، بها مقام بطرك الأرمن، وهذه القلعة في وسط بلاد المسلمين، وما أظن بقاءها في يد الأرمن مع أخذ جميع ما حولها من البلاد إلا لقلة جدواها، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج4 / ص 390، 391 (المترجم).

فارس مبعوثًا لإبداء رغبته في المكوث في حَلَب، التي استولى عليها أبيه من قبل، وطلب استسلامها، رد خليل بأن لديه آراءً مماثلة حول بَغْداد، التي كانت تنتمي لخلفائه، وسيرَون مَن سيصل إلى هدفه أولًا. وصل هذا التفاخر الطائش إلى نهاية مفاجئة حينما تم استدراج خليل للعب الرماية؛ حيث تم اغتياله بواسطة بعض أمرائه الذين ضاقوا به ذرعًا. حين تم القبض على قاتل الملك الرئيسي - وكان شخصية بارزة لا تقل عن بيدرا، كبير وزراء مصر - قام بمخاطبة الأمراء المجتمعين قبل إعدامه مُبرِّرًا ما فعله، قائلًا: «رجل كخليل، يشرب الخمر في شهر الصوم، ويفسق بالمردان، ويستخف بالأمراء ومماليك أبيه، ويضع بعضهم في الأغلال، ويقتل آخرين، ليس صالحًا لأن يحكم المسلمين»[1].

يشغل النصف قرن التالي من التاريخ المملوكي فترات الحكم الثلاثة المتقطعة لابن قلاوون، الوحيد الباقي على قيد الحياة (من الأميرة المغولية أَشلُون خاتون)، وهو الملك النَّاصِر نَاصِر الدّين مُحَمَّد[2]، الذي تم تنصيبه بواسطة كبار الأمراء، عن عمر يناهز تسعة أعوام بعد وفاة أخيه، ثم عُزل بعد عام، وأُعيدَ بعد خمسة أعوام لاحقة (697هـ/ 1298م)، ثم تنحى عن منصبه ثانية بعد عشرة أعوام، وبعد عام آخر عاد للمرة الثالثة فى 709هـ/ 1309م؛ حيث احتفظ بالعرش لثلاثين عامًا حتى وفاته (441هـ/ 1340م).

(1) نص المقريزي، السلوك، ج2/ ص 247، 248 (المترجم).

(2) راجع عنه: ابن أيبك، كنز الدرر، الجزء التاسع (الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)، تحقيق: هانس روبرت رويمر، المقريزي، السلوك، ج2/ ص 249 وما يليها، أبي المحاسن، النجوم الزاهرة، ج8/ ص 35 وما يليها، ابن حبيب، تذكرة النبيه (المترجم).

أدت عودته المتكررة للسلطة إلى إضعاف أى قاعدة للحق الوراثي بالنسبة له - رغم أن احترام ذكرى أبيه جعلت الناس يميلون لأفراد سلالته - أكثر من مشاعر الغيرة لدى الأمراء الكبار، والتي جعلت أي اختيار لسلطان من بينهم باعثًا للحرب الأهلية والقتل. بالطبع كان حكم الناصر الأول اسميًا صرفًا؛ حيث وقعت السلطة الحقيقية في أيدي كبار الأمراء الذين قَسَّموا أعلى مناصب الدولة بين أنفسهم. لقد أصبح كتبغا نائبًا للسلطنة، وسنجر الشجاعي وزيرًا، وبيبرس الجاشنكير أميرًا للقصر (استادار). أظهرت الحكومة الجديدة في البداية نشاطًا حميدًا في القبض على قتلة السلطان، وثأروا ممن أمسكوا بهم من قتلة خليل بأساليب موت رهيبة. وكانت أفضل صور التعذيب هي صلب المجرم على ألواح خشبية ثم عرضه في الطرقات على بعير حتى يموت من شدة العطش والعذاب. ومثل جميع الزمر العسكرية، سرعان ما انقسم الفريق إلى فصيلين يغار أحدهما من الآخر، أحدهما يدعم كتبغا، والآخر الشجاعي. تلا ذلك معارك شوارع، حتى حوصر الشجاعي في النهاية عن كثب في القلعة بواسطة حشد غاضب يطالب برأسه. لقد تم خيانته عن كثب من قِبَل أم الناصر المغولية - التي تعاطفت مع زميلها وابن بلدتها كتبغا - خارج الأسوار. هكذا تم استعراض رأس الشجاعي على رمح، وتظاهرت الجماهير مؤكدين على ولائهم الدائم للبيت المالك.

أصبح كتبغا الآن سلطانًا فعليًا، وتم ذكر اسمه في خطبة الجمعة تاليًا لاسم الناصر. ومن أجل تعزيز موقفه، حصل على العفو عن اثنين من قتلة الملك الرئيسيين - لاجين، وقراسنقر الذي تمتع بشعبية واسعة فضلًا عن

أتباعه الأقوياء – الذين بدأ معهم خطة من أجل حيازة العرش. ولقد تسبب إنعامه على هذين الأميرين في استياء الأشرفية، أو مماليك الأشرف خليل الذي تم اغتياله، البالغ عددهم ما يناهز ثلاثمائة شخص، والذين قاموا ثائرين ونجحوا في الاستيلاء على الإسطبلات الملكية وسوق السلاح، وبعد نهب وتدمير كل ما وقعت عليه أيديهم، أقاموا معسكرًا عند باب القلعة وفرضوا حصارًا على الحصن. حينئذٍ ركب جنود كتبغا مطاياهم وانطلقوا لتفريقهم، وبعد هزيمة المتمردين تعرضوا لأشكال شتى من التعذيب، مثل العمى والتشويه والإغراق وقطع الرأس والشنق، أو صلبهم على باب زُوَيْلَة أحد أبواب المدينة، واستُبْقِيَ منهم عدد قليل فحسب حتى تم تخصيصهم كعبيد لمن قهروهم. هكذا أُخمد التمرد، لكن في اليوم التالي، مع استدعاء مجلس من كبار أمراء البلاط، احتج نائب السلطان على مثل تلك الأعمال التي من شأنها أن تسبب الإساءة للسلطنة، فضلًا عن منزلة السلطان التي ستكون عرضة للشبهات بصورة يتعذر إصلاحها إن شغل طفل كالناصر العرش أكثر من ذلك. بناءً على هذا تم تنحية الطفل حتى يصير في عمر مناسب، وخَلَفَه كتبغا بطبيعة الحال. كان من تعاسة حظه أنه ارتبط في أذهان الناس بالمجاعة العظيمة والوباء المروع؛ الذي بسببه كانت تخرج سبعمائة جثة من إحدى بوابات القاهرة في يوم واحد، وسُجلت سبعة عشر ألف وخمسمائة وفاة في شهر واحد. أدت كل تلك الكوارث، فضلًا عن السخط الذي أثير نتيجة لمحاباة السلطان الجديد للموظفين المغول[1]،

(1) حدثت العديد من الهجرات المغولية الكبيرة إلى مصر في العصر المملوكي الأول، أُطلق عليها من قِبَل المؤرخين الوافدية أو المستأمنة، كان أكبر هذه الهجرات ما =

إلــى التآمر. وبحلول نهاية عام 695هـ/ 1296م، وأثناء عودته من رحلة إلى سوريا، هوجمت خيمته، إلا أن حرسه ومماليكه نجحوا في تمكين سيِّدَهُم مـن الفرار، وعلـى الفور تم اختيـار زعيم التمرد - نائب السـلطان الجديد لاجين - سلطانًا بدلًا منه.

كان حُسَـام الدّيـن لَاجِين المَنْصُـورِي[1] - الذي ارتقـى العرش بلقب المَنْصُـور - فـي الأصل مملوكًا للمَنْصُور عليّ[2] بن أَيْبك، وقد تم شـراؤه

= حدث أثناء حكم الظاهر بيبرس، ثم زين الدين كتبغا المغولي الأصل، الذي رحب بمواطنيه وبالغ في إكرامهم. هكذا أصبح العنصر المغولي من العناصر الرئيسية للجيش المملوكي وارتفعت مكانته، وفي عهد الناصر محمد أدت العلاقات الودية بينه وبين إيلخان مغول فارس (أبي سعيد)، إلى وفود العديد من تلك العناصر إلى مصر، وهكذا أصبح لهذه العناصر المغولية وعلى رأسها مغول القفجاق تأثير كبير على المجتمع المملوكي في شتى الجوانب العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية وحتى العمرانية. عن الهجرات المغولية وتأثيرها في العصر المملوكي راجع: صلاح الدين محمد نوار، الطوائف المغولية في مصر في عصر دولة المماليك البحرية، منشأة المعارف بالإسكندرية، حياة ناصر الحجي، العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، حوليات كلية الآداب - جامعة الكويت، الحولية الثانية، 1400هـ/ 1980م، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، دار المعارف بمصر 1976م، أحمد عبد الكريم سليمان، العنصرية وأثرها في الجيش المملوكي، القاهرة 1984م (المترجم).

(1) تواريـخ العمـلات القليلة التـي تم الاحتفاظ بهـا لكل من كتبغا ولاجين مطموسـة بشـكل عام بسـبب التـآكل، مع ذلك تحمل واحـدة من عمـلات كتبغا تاريخ: 4 [69]هـ (1294 - 1295م).

(2) الفكرة الأوروبية التي تشير إلى أن لاجين كان ألمانيًّا ليست مؤكدة من قِبَل أي مصدر عربي، وعلى الأرجح لا أساس لها من الصحة.

آنذاك بما يعادل حوالي ثلاثين جنيهًا إنجليزيًا بواسطة قلاوون، وقد ارتقى تحت قيادته إلى مرتبة سلاحدار، ومنحه قلاوون رتبة أمير حين وصل إلى العرش، وجعله نائبًا للسلطان في الشام. وقد أُلقي لاجين في السجن على يد خليل، وبدوره قدم لاجين المساعدة في اغتياله. شغل أثناء حكم كتبغا القصير أعلى منصب كنائب للسلطنة، ثم انقلب على سيده الأخير، واستولى على العرش لنفسه. لقد حاز على الأقل شيئًا من ادعاء النسب للعائلة المالكة (إذا تم التسليم بأي مبدأ للوراثة آنذاك)، لأنه كان قد تزوج من ابنة قلاوون. ولقد طرحت شروط اختياره ضوءًا مثيرًا للاهتمام على السلطة الهشة لسلاطين المماليك. سار رفاقه المتآمرين في رِكابه؛ ومن ثمّ نادَوا به سلطانًا وقدموا له الولاء، لكنهم اشترطوا شرطًا لإخلاصهم هو أن السلطان الجديد ينبغي أن يستمر كواحد منهم، لا يفعل أي شيء دون مشورتهم، ولا يُظهِر محاباة مُفرطة تجاه مماليكه. لقد أَقسم بالفعل على هذا، لكنهم كانوا مفعمين بالشك في حسن نواياه، حتى أنهم جعلوه يقسم مرة أخرى، ملمحين صراحة أنه بمجرد تنصيبه سوف يخرق تعهداته ويقوم بتفضيل أتباعه، بما يُضِرُّ بالأمراء الذين رفعوه إلى العرش.


شكل (62) دينار كتبغا، القاهرة، (1294 - 95م)

حين تم تسوية ذلك بصورة مرضية، سار لاجين إلى القاهرة بصحبة شارات المُلك، فضلًا عن المظلة الملكية المحمولة فوق رأسه بواسطة الأمير الكبير

بَيْسرِي، تُليت الدعوات باسمه في الجوامع، ودقت الطبول في المدن التي مر خلالها؛ خرج الأمراء القاهرة لتقديم الولاء له، وركب إلى القلعة يرافقه حشد من الأمراء والموظفين، عارضًا نفسه كسلطان للناس في الميدان، ثم تقدم خلال الشوارع من القلعة إلى بوابة النصر. وركب إلى جانبه الخليفة العباسي البقية الواهنة من بيت بَغْداد القديم، وأمامهم حُمِلَت شهادة تفويض من الخليفة، والتي بدونها لا يكتمل تتويج السلطان. هذا وقد زُيِّنَت الشوارع بالحرير النفيس والأسلحة، وكانت البهجة الشعبية كبيرة، فكان بِرُّ لاجين وكرمه سببًا في جعله أثيرًا لدى الناس، وقد وعد بالفعل بالتغاضي عن باقي ضرائب العام، بل وحتى نَذَرَ أنه إن بقي على قيد الحياة لن تظل هناك ضريبة واحدة مفروضة. انخفض سعر الطعام، الذي ارتفع عند زيادة المجاعة أثناء الاضطرابات الأخيرة بنسبة ستين بالمائة؛ حتى صار الخبز رخيصًا، وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يصبح السلطان معشوقًا لدى الجماهير.

برغم اشتراكه في اغتيال أحد السلاطين واغتصابه الغادر للعرش، يبدو أنه كسب ود رعاياه. لم يُعْفَ الناس فقط من قدر كبير من الضرائب الجائرة والتعسفية التي رزحوا تحت نيرها، لكنه امتنع أيضًا - على الأقل حتى وقع تحت تأثير آخر - عن السَّجن والتعذيب الاستبدادي الذي كان أمرًا مألوفًا لتأمين حكم المماليك. كانت إدارته لخصومه معتدلة لدرجة أنه من الصعب أن تكون لها نظير بين أمراء عصره، فهو لم يحاول تدمير السلطان السابق كتبغا، بل أعطاه حكم صَرْخَد[1]

---

(1) تقع الآن على مسافة مائة كيلومتر جنوبي دمشق، وهي كبرى مدن منطقة حوران، كانت مركزًا للديانة المسيحية في القرن الخامس. ذكر ياقوت أنها ملاصقة لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة، ياقوت، معجم البلدان، ج3/ ص 401 (المترجم).

على سبيل التعويض[1]. لم يكن هناك ما يخافه الناصر الطفل من لاجين، الذي أخبره أنه بمثابة مملوك لأبيه، وأنه فقط قد اعتبر نفسه ممثلًا له، وحافظًا للعرش حتى يصل إلى السن المناسبة؛ ومن ثمّ يتولى الحكم بنفسه. كان لاجين متحمسًا للأعمال الخيرية؛ حيث قَدَّم الصدقات سرًّا على نطاق واسع، وأسس العديد من الأوقاف الخيرية. دُفِعَ لإصلاح جامع ابن طُولُون، بتكلفة ما يساوى عشرة آلاف جنيه استرليني؛ بسبب أنه كان قد اتخذ من أروقته المهجورة ملجأً أثناء المطاردة التي أعقبت اغتيال خليل، مختفيًا في حجرات وممرات الجامع القديم المُهمَلَة، باستثناء مصباح واحد كان يُضاء أمام المحراب ليلًا، أما المؤذن فلا يتقدم عن العتبة لترديد أذان الصلاة، هكذا نذر لاجين إصلاح الجامع الذي آواه. نجحت مثل تلك الأعمال الخيرية، فضلًا عن الإفراج الشهم عن العديد من السجناء في مضاعفة حب الناس له، وبعد أن احتُجز في القلعة لشهرين من جراء الجراح التي نتجت عن سقوطه أثناء لعب البولو، كان الابتهاج بعودته للحياة العامة حقيقيًا وعلى كافة الأصعدة؛ حيث زُيِّنَت كافة الشوارع بالأقمشة الحريرية والساتان، وتم استئجار المتاجر والنوافذ من قِبَل السائحين التوَّاقين لإلقاء نظرة على السلطان، ودقت الطبول أثناء سيره الرسمي خلال العاصمة. لقد احتفل بهذه المناسبة من خلال منح عدد من أردية الشرف لكبار الأمراء، فضلًا عن تحرير الأسرى، وتوزيع الصدقات على الفقراء. كانت حياته الخاصة مماثلة لحياة مسلمي القاهرة الصالحين، فبرغم أنه كان في شبابه

---

(1) عاش كتبغا لخدمة ابن سيده القديم، الناصر، بإخلاص في حروبه، أعاد زيارة القاهرة، وتوفي عام 702هـ/ 1303م، مع قدر كبير من الاحترام لنبل شخصيته وتقواه.

مقامرًا ومعاقرًا للخمر، ومستغرقًا في اللهو إلى أبعد مدى، إلا أنه حين ارتقى العرش صار ملتزمًا بشكل صارم فيما يخص ممارساته؛ حيث صام شهرين في العام إضافة لرمضان، وأولع بمصاحبة القضاة ورجال الدين الورعين، وكان بسيطًا في ثيابه، كما قضى الرسول ﷺ بما على المسلم أن يكون، وصارمًا في تطبيق البساطة بين أتباعه. وتميز كأجنبي ببشرته الوردية اللون وعينيه الزرقاوين، فضلًا عن كونه طويلًا مهيبًا، لكن عاداته نفسها تميزت بالقوامة في ذاتها؛ فقد جَلَد السكارى وإن كانوا نبلاء، ولم يكن إسرافه في تناول الطعام شرًّا بالضرورة.

على الرغم من وعوده، بدأ لاجين في المحاباة. لقد عَيَّن في البداية رفاقه المتآمرين في مناصب كبيرة بالدولة، لكنه بدأ تدريجيًّا في استبدال الأمراء القدامى برجال جدد، وقد اكتسب شخص يدعى منكوتمر تأثيرًا كبيرًا غير سعيد على سيده الودود. تم اختبار النبلاء الموثوق بهم عن طريق اقتراح مفاده أن نائب السلطان الجديد ينبغي أن يكون خلفًا للاجين، ومع رفضهم الساخط لإمكانية مثل تلك الخطوة، أُلقي بهم في السجن؛ حيث ماتوا بانتظام مريب. هكذا في النهاية تم إلقاء القبض حتى على الأمير الكبير بَيْسِرِي، الأمير الأكثر غنًى وشعبية في مصر، رغم أن القائد العسكري قاده إلى السجن والدموع في عينيه. من هنا تعالى اللغط، ومن أجل إسكاته أرسل لاجين جيشه لنهب أرمينية الصغرى، واستغل الفرصة لتفريق نبلاء سوريا الذين ارتاب فيهم. هكذا فر البعض إلى مغول فارس، وحلَّت الفوضى بسوريا. ولم تكن مصر أقل اضطرابًا؛ حيث لم يتحمل الأمراء أعمال القمع والانتقام من قبل منكوتمر، لكن لم يكن بالأمر الهين

التعـرض لمخاطر وأهوال السـجن في زنزانـة القلعة، تلـك الحفرة كريهة الرائحة؛ حيث زاد على الظلام الرهيب رائحة العفن المميتة، والحشـرات القـذرة والخفافيـش. هكـذا أحيكـت مؤامرة بواسـطة رجلين عقـدا العزم علـى اغتيال لاجيـن، وبالفعل اغتيل أثناء قيامه لصلاة العشـاء، و بعد ذلك مباشـرة تم الإيقاع بمنكوتمر، حيث تم إيداعه مؤقتًا بالجب أسـفل القلعة، لكن الأمير الذي قام بتسديد الضربة القاتلة للاجين وصل للمشهد، وصاح بصـوت حـاد: «إيش عمل بي السـلطان حتـى قتلته ؟ والله لقد أحسـن إليَّ وكبَّرني وأنشـأني، ولو علمت لأنـي إذا قتلت منكوتمر يبقيني بعده والله ما قتلته. وما أحوجني أقتله إلا ما كان يقع من منكوتمر»[1]. مع قوله هذا مضى مسرعًا إلى الجب وقتل الأسير المكروه بيديه، ثم سلَّم بيته لجنوده ينهبوه.

أُعـدِمَ القتلة في حينه – الذين تولى أحدهم العرش لبضعة أيام – بحِس العدالـة الذي أبـداه المماليك دائمًا تجـاه جرائم الآخريـن. لكن بعد تلك التجربة لحكم هذا الأمير، كان السبيل الوحيد هو العودة إلى سلالة الحكم الراسـخة، وعلـى ذلك أُعِيـدَ الناصر إلـى القاهـرة؛ حيث رُحِّبَ به وسـط عاصفـة مـن الحماس. بعـد يومين لاحقين تـم تنصيبه مرة ثانية[2] بشـهادة تقليد جديدة من الخليفة الاسـمي. تم توزيع أردية الشرف، وزينت المدن،

(1) انظر النص في المقريزى، السلوك، ج2/ ص 301 (المترجم).

(2) العملات الخاصة بالفترة الثانية من حكم الناصر (1299 – 1310م) تحمل تاريخ: القاهرة، * 69هـ (والذي ينبغي أن يكون 698 أو 699هـ = 1299 – 1300م)، والقاهرة، 707هـ (1307–1308م). الكثير من العملات الأخرى التي تحمل اسم الناصر، ودور سك القاهرة، حلب، حماة، طرابلس، دمشق، يمكن أن تخص إما هذه الفترة أو فترة الحكم الأولى أو الثالثة.

ودُقت الطبول في جميع أنحاء الدولة. كان لايزل عمره أربعة عشر عامًا، ولم يكن ندًّا للأمراء الأقوياء الذين قاموا فعليًا بالحكم. كان جميع الحكام الجدد - الذين رحلوا الآن لمناصبهم الإقليمية بعد تقبيل عتبة القلعة وفقًا للعُرف - صنائع الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير، وقد أدار شئون الدولة شخصان أحدهما تتري والآخر جركسي، وهو الذي أدار شئون الدولة لصالحهما. عَقَد الخليفة المجالس في أيام السبت، لكن كان كل ما عليه القيام به هو تسجيل قرارات أمرائه؛ حيث يقترح سلار إجراءً معينًا، ويعلن الناصر موافقته. وفي حين كدَّس كبار النبلاء ثروات ضخمة من أراضي إقطاعاتهم ومختلف المنح الاستثنائية - أُعطِيَت ابنة سلار مهرًا قدره مائة وستين ألف دينار - ظل السلطان في فقر مدقع على وجه التقريب، وحُرِمَ من الأطعمة المترفة والرفاهية التي اعتادها. يبدو أن السؤال الوحيد الذي كان مطروحًا هو: أي من القائدين، سلار أو بيبرس، من شأنه هزيمة الآخر والاستيلاء على العرش؟ لقد عملوا معًا حتى الآن، غير منفصلين في الأعمال العامة والمراسم، ولكن كان على المواجهة أن تأتي عمًّا قريب.



شكل (63) نقش بمدرسة الناصر بالقاهرة، 1299م

في غضون ذلك اندمجت كل الاعتبارات الأخرى في الصراع المتجدد مع المغول. قام المماليك البحرية، الذين فروا إلى غازان - أحد أعظم

وأفضـل ايلخانـات فـارس - بإطلاعـه بشـكل كامـل علـى حالـة سـوريا المرتبكـة مع نهاية حكم لاجيـن، وبناء على نصيحتهم عَبَرَ المغول الفرات مرة ثانية في قوة عظيمة لاستعادة ما خسـروه عام 681هـ/ 1282م. زحف السلطان الصغير - رغم عدم كونه محاربًا - على رأس جيش مصر لملاقاة الغـازي، تاركًا القيادة الحقيقية للأمراء، الذين كانت الحرب بالنسـبة إليهم كحاجتهم إلى الهواء، إلا أن سـوء الحظ كان ملازمًا للمسـيرة منذ البداية، فقد سـادت الغيرة والتنازع بين الأمراء؛ وسبَّبت مؤامرة من لاجئي يويرات Uirat في سـوريا ضد القادة المصريين شـكوكًا أكبر، رغم قمعها بوحشية، هذا وقد فُقدت الكثير من أمتعة المعسـكر في سـيل الفيضانات، وأظلمت السـماء عن طريق سرب كثيف من الطيور، جعلهم يعتقدون أنه نذير شؤم، فأصاب الجيش الهلع. وفي اقترابهم من دِمَشْـق شـهدت حشـود الهاربين مـن حَلَب والجهات الشـمالية رعـب الغزو. مـع تقدمهم بقلـوب خافقة، وصـل المصريون على مرأى من المغول عند حِمْص، فنودي عند ذلك في العسـكر: «أن ارمـوا الرماح واعتمـدوا على ضرب السـيف والدبوس»[1]. تمثلـت الفرصـة الوحيـدة فـي التقاتـل عن قـرب، وجهًـا لوجـه، حين لا يستطع نبالة المغول اسـتخدام سـهامهم. لاقى ما يقارب عشـرون ألفًا من فرسـان المماليـك، الجيش المغولـي الذي يقدر بضعـف عددهم بأربع أو خمـس مـرات فـي «وادي الخازنـدار». إلا أن جميـع الأمراء الكبـار كانوا هنـاك، ورجـال الحـرب الأشـداء؛ حيـث كان الجنود مدججين بالسـلاح ومرتبطين بقادتهم بالروابط العشـائرية. تم التقيد بالتشكيل المعتاد المقسم

---

(1) المقريزي، السلوك، ج2/ ص 319 (المترجم).

لثلاثة أقسـام، القلب والميمنة والميسرة، ووُضِعَ خمسمائة من المسلحين بأنابيب النفـط أمام الصف. أخذ رجال الدين يتجولون بين الصفوف ذهابًا وإيابًـا، يحثـون الرجال على عدم التردد؛ حتى بكـى الجنود من التأثر، وقد أبقـى غـازان مغولـه مترجلين خلـف خيولهم؛ حيـث قام بالتحـرك الأول علـى المصريين. تم إطلاق النفط دون تأثيـر، وعند ذاك تخلى المغول عن تحفظهم، وبعد صب وابل مميت من السـهام علـى المصريين المتقدمين، قاموا بامتطاء جيادهم وهاجموا باندفاعهم العنيف المعتاد. وكما حدث في المعركة السـابقة في حِمْص، حقق كل جانب نجاحًا على الطرف المقابل، وتذبـذب الموقف للحظة، ثم اسـتجمع غازان جنوده لهجمـة ثانية، بعدما كبح جماح مخاوفه، واقتحم القلب، عندئذٍ اسـتدار فرسـان مصر الرائعين ولاذوا بالفرار. لاذ الأمراء الكبار، سـلار وبكتمر وبرلغي، وغيرهم بالفرار بحياتهـم، وفحيح أسـهم مطارديهـم وراء آذانهـم. تُرِكَ السـلطان باكيًا مع ثمانية عشـر مملوكًا لحراسـته، وقد تم إنقاذه بواسـطة الميسـرة المصرية، التـي حالفها النجاح في مسـتهل المعركة، وأصابهـم الذهول عند عودتهم مـن مطاردة خصومهم بعدما رأوا خسـارة القتال في ذلـك اليوم فضلًا عن التخلي عن سلطانهم. كبح وصولهم، مقرونًا بالخسائر الثقيلة للمغول، من الهزيمـة المنكرة، وانسـحب بقيـة الجيش في نظام كامل إلى دِمَشْـق، ومن هناك إلى مصر بأقصى سرعة ممكنة.

احتـل المغول دِمَشْـق على الفـور دون مقاومة، وأظهر غـازان – الذي كان مسـلمًا، وملـكًا حكيمًا كريمًـا – أكبر قدر ممكن من الرأفة بالسـكان، ليـس فقـط مَن هم علـى دينه، بل وأيضًـا مـن اليهود والنصارى. لم يُسـمَح

بـأي نهـب أو إزعاج[1]. ميزت صفـات المجتمع الديني هذا الغزو بشـكل طبيعـي بالمقارنـة بالغزوات السـابقة حين كان المغول علـى وثنيتهم، هذا بالرغـم من وجود قـدر كبير من موروثاتهم القديمة التـي لاتزال بينهم؛ لذا كان مـن الصعب كبحهم، حيث قاموا بالكثير من التخريب خارج دِمَشْـق. وحتـى فـي الداخـل كان هناك قـدر كبير مـن الأذى؛ حيـث قُتِـلَ أو بيعَ ما يقرب من عشـرة آلاف نسـمة، وأُحرِقَت ودُمِّرَت الكثير من الآثار النفيسـة التـي ترجـع إلى عصـر نور الديـن؛ لكن يمكـن أن يُعزَى خـرق الوفاء هذا إلـى خيانة المغول، إلا أن ذلك يعد بقدر أقل من اسـتحالة الإمسـاك بزمام جيش همجي، وللدمار المحتم الذي سـببه الدفاع الباسل عن القلعة، التي رفض أرجواش - القائد المصري - بحزم أن يعلن استسـلامها، وشن منها قتـالًا قويًّا مع المدينة. في غضون ذلك عملت مصر بقوة من أجل الانتقام. أجريت اسـتعدادت هائلة بالسـلاح والمال. كان الطلب على المطايا كبيرًا للغاية حتى أن سـعر الفرس ارتفع من اثني عشـر إلى ما يقابل أربعين جنيهًا إسـترلينيًّا؛ وكان الذهـب وفيرًا للغاية حتى أن الدينـار انخفض لقيمة تبادل سـبعة عشـر بدلًا من خمسة وعشـرين درهمًا. في ضوء هذه الاستعدادت، فضلًا عن الخطر على الحدود الشرقية، ومع اكتشاف مناعة الحصن، تخلى المغول عن دِمَشْـق بعد عربدة وفجور لـم يسـبق لها مثيل من قِبَل في موطن كهذا من مواطن الإسلام.

---

(1) مرسوم الاستسلام المشروط (المأخوذ عن النويري) مطبوع في: Quatremre's Makrizi, II., ii. 151, note، والفرمان اللاحق لتشكيل الحكومة الجديدة في سوريا، نفس المرجع السابق، 156, note؛ انظر أيضًا Howorth, Hist. of the Mongols, iii. 441 ff.

مع ترك السلطة في يد المماليك البحرية الذين رافقوا غازان، عادوا إلى ولائهم المصري. وقد نزل أرجواش من الحصن الذي دافع عنه ببسالة، واستعاد النظام وكبح الشغب، وسكب الخمر المغولي وكسر زجاجاته. هكذا استعاد المصريون دِمَشْق وحَلَب وكامل سوريا، وأُتي بالدروز من لبنان حتى تتم محاسبتهم بشدة، بعد أن قام نبالتهم الاثنا عشر ألفًا بإرهاق المماليك في انسحابهم من أربعة أشهر خلت.

أعقب ذلك المفاوضات، بعد حملة كارثية في شمال سوريا؛ حيث قضت الأمطار والثلوج على جيشه، أرسل غازان سفارتين إلى القاهرة للمفاوضة على السلام، لكن دون جدوى[1]. هكذا كان عليه اختبار مسألة الحرب مرة أخرى، فسار مائة ألف مغولي بقيادة قطلغشاه نحو سوريا. أُصِيبَت دِمَشْق بحالة من الذعر؛ حيث هجر الرجال عائلاتهم وفروا من أجل الحماية، مات الناس وطئًا بالأقدام في الحشود التي تدفقت خارج البوابات، ودُفعت أثمان باهظة من أجل الجياد والحمير لحمل السكان الذين أصابهم الرُعب. لم تُزعِج مثل تلك المخاوف بيبرس وكبار المماليك الذين دخلوا المدينة الخائفة في أبريل، وانطلقوا راكبين لملاقاة المغول؛ ومن ثمّ وجدوهم بقوة خمسين ألف جندي في شَقْحَب[2] على سهل مرج

---

(1) المُراسَلَة مقدمة في: Quatremère, l.c., Appendix, II., ii. 289 ff.؛ حيث يمكن العثور على وصف محكم للأعراف الدبلوماسية والتقنية المشرقية للمراسلات.

(2) ذكر المقريزي أن شقحب تقع تحت جبل غباغب، وهي قرية في أول عمل حوران من نواحي دمشق بينهما ستة فراسخ، كما ذكر ياقوت، راجع: معجم البلدان، ج3/ ص871، المقريزي، السلوك، ج2/ ص 256 (المترجم).

الصُّفر[1]؛ حيث هَزم الفاتحون المسلمون جيش هِرَقْل منذ ما يقرب من سبعة قرون خلت. جاء الناصر مع الخليفة وغالبية الجيش المصري من القاهرة في نفس اليوم. تكرر مشهد هزيمة الميمنة المصرية، مع خسارة فادحة على يد المغول، بينما بقي كل من الميسرة والقلْب ثابتين وقاوما كل هجوم. مع نهاية اليوم استحوذ المصريون على ميدان المعركة، وانسحب المغول إلى التل المجاور. «قضى السلطان ومَن معه الليل على ظهور الخيل، بينما دُقت الطبول وترددت أصوات الصنج لتوجيه الهاربين إلى موضع التجمع، وحوصِرَ الجبل الذي فر إليه المغول بسرعة. قضى سلار وقبجق وباقي الأمراء الليل في تفقد صفوف الجند وتشجيع الرجال. عند الشروق كان الجيش المصري مصفوفًا بنظام ... في مشهد مهيب؛ ومن ثمّ نَزل المغول لملاقاتهم حيث استؤنف الصراع القوي مرة ثانية، وأصيبت خيول الكثير من مماليك السلطان من تحتهم. استمر القتال حتى الظهر، حين انسحب قتلغشاه إلى الجبل مرة ثانية»[2]. ومرة أخرى نزل المغول، مع ازدياد الظمأ، ليشقوا طريقهم بالقوة خلال العدو الذي يحاصرهم، وهذه المرة سَمح المصريون لهم ببراعة بالمرور، وذلك لمباغتة سراياهم أثناء انسحابها. هكذا تم تقطيع العدو المنهك إربًا، أو فُقِدوا خلال الصحراء، أما البقية التي تبعت قتلغشاه عبر نهر الفرات فكانت تثير الرثاء. سقط عشرة آلاف أسير وعشرين ألفًا من الماشية في يد الفاتحين. كادت الفاجعة تحطم قلب غازان، الذي تُوفِّي بعد فترة وجيزة، وكان خَلَفَه ألجايتو،

(1) اشترك المؤرخان أبو الفدا والنويري شخصيًّا في المعركة.

(2) Howorth, Mongols, iii. 470.

حريصًا علـى ألا يخاطر أبدًا بمواجهة المماليك، الذين قاموا للمرة الرابعة بهزيمة أخطر الأعداء الذين واجهتهم مصر منذ الفتح الإسلامي.

عاد الناصر إلى القاهرة تُتَوِّجُه هالة من المجد؛ حيث أعلن الرسـل عن الأخبار، وتنافس الأمراء مع بعضهم في إقامة أغلى السُرادقات، أو منصات كبرى مزخرفة ومجهزة بكل نفيس، على طول طريق موكبه. مُنِعَ العمال من عمل أي شـيء غير إقامة منشـآت النصر تلك. تم تأجيـر الغُرَف على طول الطريـق بمـا يوازي من اثنيـن إلى أربعة جنيهات اسـترلينية لليـوم الواحد. بُسِـطَ السـجاد الحريري عبر الطريـق؛ حيث انطلق السـلطان الفَخُور راكبًا بيـن الواجهات الرائعة معجبًا بسُـرادِقات الأمراء، بينمـا أكمل فرحة النصر جنود المغول الأسـرى الذين رزحوا فـي قيودهم، يتدلى من عنق كل منهم رأس زميلـه. كان ذلك الابتهاج مفعم بالصخـب، وكانت أصوات الطبول والموسيقى تصم الآذان في جميع أنحاء مصر، حتى أن الناس كانوا بحاجة لزلزال على الأقل كي يردهم لصوابهم.

كانـت الحـرب علـى المغول حدثـًا عظيمًا فـي الفترة الثانيـة من حكم الناصـر، كانـت إلـى جانبهـا الحمـلات المتكررة التي نشـبت فـي أرمينية الصغـرى لإجبار ملكها على دفع الجزية، أو لتحويل انتباه جنود المماليك عـن الطموحات فـي الداخل، والغزو غيـر المثمر للنوبـة (703-706هـ/ 1304- 1306م) غير هامة. تم تجهيز حملة على سـفن نقل تم بناؤها على النيل، لطرد فرسـان المعبد من جزيرة أردس (أَنْطَرْسُوس)[1] على الساحل =

(1) بلد من سواحل بحر الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص، قال أبو القاسم الدمشقي إنها من أعمال طرابلس مطلة على البحر شرقي =

السـوري، آخـر موطـئ قـدم للصليبييـن، وقد أنجـزت أهدافهـا بالمذبحة المعتادة. ولقد اسـتمرت علاقات السلطان المصري بالقوى الأجنبية على نحـو ودي؛ حيـث تـم الحفاظ علـى الحِلف القديـم مع إيلخانـات القبيلة الذهبيـة، علـى الرغـم مـن أن المماليك لم يعـد لديهم أي ضـرورة لصنع قضية مشـتركة ضد مغول فارس. أرسـلت النوبة هدايـا إضافية من الجزية (704هـ/ 1305م)، وجاء السـفراء من المغرب وفرنسا ومن قِبَل إمبراطور القُسْـطَنطينية (705هــ/ 1306م)، الـذي حصـل على تصريح بإعـادة فتح الكنيسة الموصلية في القدس.

في الخارج كانت الأمور كلها تسـير على نحـو إيجابي، في حين كانت الحالة الداخلية لمصر لا تبعث على الرضا؛ فقد سبَّبَت الضرائب للحصول المـوارد الماليـة للحـرب الكثيـر من الفقـر والاسـتياء. تخلصـت القبائل البدويـة في مصر العليا من السـلطة المملوكية بعـد الكارثة التي وقعت في حِمْص عام 698هـ/ 1299م، وأطلقوا ألقابًا سـاخرة على القائدين «سلار» و«بيبرس»، الأميران الرئيسـيان في القاهرة. قامـوا بفرض ابتزاز مالي على القـرى وأطلقوا عليه اسـم ضرائـب. قضى المماليك فـي وقت قصير على هذه الثورة؛ حيث قاد سـلار وبيبرس جنودهما على التوالي شـرقي وغربي النيـل، وتقدم بكتاش ناحية الفيوم، والأمراء الآخرون إلى الشُّـوَيْس، بينما قام حاكـم قوُص، مع عرب مناصرين، بقطع الطـرق الصحراوية. تـم تنفيذ مختلف التحركات في سرية وسرعة، ومباغتة البدويين الأشقياء على غرة.

= عِرْقَة بينهما ثمانية فراسخ وبها برجان حصينان كالقلعتين، ياقوت، معجم البلدان، ج1/ ص 270 (المترجم).

أُريقَت دماء السكان صعودًا من الجِيزَة إلى أطفيح، وكان عددهم حوالى ستة عشر ألف نسمة، تم الاستيلاء على زوجاتهم وأبنائهم وممتلكاتهم. وإن أنكر رجل أصله البدوي ونسب نفسه إلى أبناء المدن، أمروه أن يقول كلمة دقيق (التي لا يستطيع مصري لفظها بالشكل الصحيح)، وبمجرد سماعهم للنطق العربي الصحيح، قاموا بقطع رأسه. هكذا تخلصوا من أعداد كبيرة من المُراوغين، فصار الريف مسرحًا لمذابح رهيبة، حتى سَممت الجِيَف الهواء. فر البدويون إلى الكهوف في التلال، إلا أن أعداءهم قاموا بقتلهم عن طريق الدخان. كان من بين الغنيمة بضائع ألف وستمائة صاحب أرض، وثمانية آلاف ثور، وستة آلاف من الأغنام والماعز، وأربعة آلاف جواد، واثنين وثلاثين ألف رأس من الإبل. كانت الغنائم وفيرة للغاية حتى أن خروفًا سمينًا تم بيعه بما يقابل زوج من الشلنات، وعنزة بما يقابل تسعة بنسات، ورطل من الزبد ببنسين. بعد نهب الريف عادت الحملة التأديبية إلى القاهرة، تاركة وراءها أرضًا خالية لا يُرَى بها إنسان.

عانى السكان النصارى واليهود أيضًا من اضطهاد غير معقول. لقد تمتعوا مؤخرًا بإعفاء استثنائي، وجمعوا ثروة عظيمة. امتطوا جيادًا أو بغالًا مزينة بالحلي الفاخرة، وارتدوا الملابس الفخمة، وشغلوا العديد من المناصب الحكومية الرفيعة. لقد صاروا بالفعل أحرارًا إلى أبعد مدى، و(في أعين المسلمين) متسمين بالوقاحة، لدرجة أن مبعوثًا من المَغْرِب أخذ على نفسه الاحتجاج لدى الأمراء بسبب ذلك التسامح الذي لا يُصدَّق، هكذا تم استدعاء القضاة للمجلس، وكانت النتيجة إحياء القوانين القديمة المُقيِّدة لهم. هكذا أُلزم النصارى في جميع أنحاء الإمبراطورية بلبس

العِمامـات الزرقـاء، واليهود العمامـات الصفراء، ولم يســمح لأحد منهم أن يمتطي فرسًـا أو بغـلًا، وأُلزِمُوا بامتطـاء الحمير وأن يتنحوا للمسـلمين عـن منتصـف الطريق؛ وبـألا يقرعوا جرسًـا أو يرفعوا صوتًا، مـع تقييدات أخـرى مُذِلَّة. هكذا تحول كثير من النصـارى ممن كانوا يهتمون بمظهرهم إلى الدين الإسـلامي. تم هدم بعض الكنائس من قِبَل العامة الذين شـعروا بالارتيـاح بالإسـكندرية وأماكـن أخرى، وظلت جميـع الكنائس في مصر مغلقة في ذلك العام. أُعِيدَ فتح بعض الكنائس، مثل الكنيسة المعلقة بقصر الشـمع، و سـانت مايكل St. Michael وسـانت نيكولاس St. Nicholas ، فقـط بناء على طلب إمبراطور القُسْـطنطينية. وقد تـم إلغاء مهرجان النيل السـنوي (عيد الشـهيد) – وهو احتفال عام كان يقام على النهر بالقرب من شـبرا – بواسـطة بيبرس، بسـبب شـرب الخمر والاضطرابـات التي كانت تلحـق به. لقد وصلت سـلوكيات النـاس بالفعل إلى درجة غيـر عادية من الابتذال، فبعد عودة السلطان منتصرًا من الشام، تحولت البهجة العامة إلى حالة من السكر والفجور والعربدة، فقد شوهِدَت نساء غير محجبات برفقة رجال يشـربون الخمر بلا حرج على مراكب فـي قناة الحاكمي، لدرجة أنه بعـد ذلك حُظِرَت القـوارب الترفيهية علـى مياهها. تَبِع ذلـك زلزال مروع قدَّم لهم شـيئًا آخر يمكن الانشغال به، فقد سبَّبَ الاهتزاز وتصدع الأسوار وانهيار المنازل والمساجد حالة من الذعر الشديد. اندفعت النساء للشوارع دون حجـاب، ومنهـم مَن أنجب أطفـالًا قبل أوان ولادتهـم. رأى الرجال بيوتهم تتداعى إلى الأرض، وكل شـيء امتلكـوه يضيع، أو فرُّوا في ذهول

تاركيـن منازلهـم لنهب اللصوص. ألقـى النيل قواربه علـى الأرض كرمية القوس. نزل السـكان في خيـام خارج المدينة، وهم يرتجفون من سـقوط السـماء ونهاية العالم. لقد شُـعِرَ بالزلزال في جميـع أنحاء مصر، وأصيبت الإسْـكندرية بالأذى وكذلك قُـوص، ووصل الزلزال لدِمَشْـق وعَكّا. وفي القاهـرة لاقت جوامع الحاكـم والأزهر والصالح ابـن رزيك وقلاوون[1]، وفي الفُسْـطاط جامع عَمْـرو القديم، ضـررًا كبيرًا، ولعام وأكثـر أنفق كبار الأمـراء لاسـيما سـلار وبيبرس، مبالغ ضخمـة على ترميمهـا. هكذا بدت القاهرة بعد الزلزال، كمدينة حطَّمها جيش محتل.

كانت ثروة الطبقة الحاكمة لحسن الحظ مساوية لنفقات ترميم الجوامع. وقـد أظهر النبلاء نشـاطًا ملحوظًـا عامًّا أو دينيًّا في نَـذْر مبالغ ضخمة لهذا الغـرض. وبجانـب إعـادة بناء مـا حطمـه الزلـزال، انتهـت الحكومة (في 703هـ/ 1304م)، من الإنفاق بسخاء على بناء المدرسة الناصرية الجديدة أو جامـع الناصـر (لايزال قائمًا بسـوق النحاسـين)، والتي جُلبـت بوابتها

(1) تم إثبات تهدم المأذنة القديمة لمجموعة قلاوون بنص على المأذنة الحالية التي أنشأها الناصر محمد عام 703هـ/ 1303م، بمعرفة الأمير سيف الدين كهرداش المنصوري؛ حيث نقش تاريخ التجديد في أربعة أسطر تحيط بمربع الدورة الأولى أسفل المقرنص بما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم اللهم جدِّد الرحمة والرضوان على روح الملك المنصور رحمه الله أمر بتجديد هذه المأذنة في أيام ولده مولانا السلطان الملك الناصر أبو الفتح محمد، وذلك عند ظهور الآيات المنزلة وسقوط أعاليها عند حدوث الزلزلة في شهور سنة ثلاث وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام». كما أثبت ذلك أيضًا في لوحة ثانية على وجه قاعدتها من الناحية البحرية، راجع: حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ج1/ ص 116، 117 (المترجم).

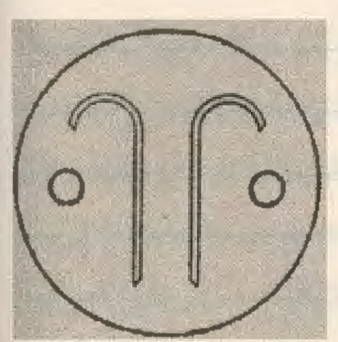
القوطيـة من كاتدرائية عَـكّا أثناء هدم المدينة بأوامر مـن خليل[1]. لم يكن هنـاك نقـص في المال لدى مصر، فحين قام بكتمر - أمير البولو في البلاط - بالحـج إلـى مكة عام 700هـ/ 1301م، أنفق خمسـة وثمانيـن ألف دينار علـى الرحلة، كان جـزءًا كبيرًا منها على الهبات الخيريـة. ولـم يضع الأمير بَيْسـرِي - الأكثر نبلًا وشـعبية بين المماليك، والذي كان قد رفض العرش بعد مقتل خليل - حدودًا لإسـرافه، فهو لا يشرب مرتين من نفس الكأس، وكانـت أكوابه دائمًا مزينة ومطعمـة بالفضة، مثل مباخر عطوره المحفوظة في المتحف البريطاني، عاش في أروع القصور التي يمكن للمال أن يبنيها، وتباهى بكونه مدين دومًا بما يساوي خمسة عشر ألف جنيه استرليني. مكنت الإقطاعـات الغنية، مضافًا إليهـا الأجور والمِنَح العديـدة، أمراء المماليك مـن الحفاظ على حيـاة فارهة، على الرغم من السـجن والطرد والمصادرة المتكـررة. شـكلت الرفاهية والإسـراف الفني لذلك الزمـان، والتطورات الملحوظـة فـي الدراسـات الأدبيـة والتاريخيـة، والوضع الكريـم لرجال العلم، تناقضًا غريبًا مع أعمـال العنف المتواصلة، فضلًا عن الاضطرابات ومعـارك الشـوارع وأعمال القتل والتعذيب الوحشـي. مما لا شـك فيه أن مصر كانت مزدهرة تحت حكم تلك الفئة المتناقضة بشـكل غريب. كانت

(1) ذكر المقريزي أنه بعد فتح السلطان الأشرف خليل لعكا سنة 690هـ، أقام الأمير سنجر الشجاعي لهدم أسوارها وتخريب كنائسها، فوجد هذه البوابة على باب كنيسة من كنائس عكا، فحملها إلى القاهرة وأقام عنده إلى أن قتل الملك الأشرف وتملك كتبغا، فأخذ دار الأمير بلبان ليعملها مدرسة، فدل على هذه البوابة فأخذها من ورثة الأمير بيدرا، بعد أن كانت قد انتقلت إليه، ثم عملها على باب هذه المدرسة، فلما خلع من الملك وأقيم الناصر مرة أخرى، اشترى هذه المدرسة، المقريزي، الخطط، ج3/ ص 485، 486 (المترجم).

الضرائب ثقيلة، إلا أن النيل كان وافرًا، والتجارة مع أوروبا ضخمة، يُذكر أن سفينة واحدة دخلت ميناء الإسْكَندرية كانت قد دفعت أربعين ألف دينار كجمارك، ولابد أن التجارة مع الهند كانت بنفس القدر من الأهمية. كل شيء كان يمر عبر مصر خضع للرسوم الجمركية، ويفسر تلك الإيرادات الواسعة فرض رسوم بلغت 10٪ على التجارة[1].

---

(1) وفقًا للقلقشندي - الذي تُوُفِيَ في 1418م، لكنه استفاد من إحصائيات الكتاب السابقين - كان المصدر الرئيسي للدخل في مصر: ضريبة الأرض، وهي إما عينية (كما كان في مصر العليا)، والكمية من واحد إلى ثلاثة إردبات (خمسة بشل لكل منها) لكل أكر، أو نقدًا (كما في الدلتا). بلغت هذه الضريبة عام 771هـ/ 1370م، أربعين درهمًا (= 2 دينار، أو حوالي جنيه إنجليزي) على أفضل أرض (باق)، وثلاثين درهمًا على أرض (برايب) التي أنهكتها محاصيل القمح، وما إلى ذلك؛ لكنها ارتفعت في أوقات لاحقة. وإذا أخفقت زراعة المحاصيل أو كانت رديئة يتم إنقاص الضريبة بصورة متناسبة. تم تخصيص مدن مصر (بمعنى المقاطعات فيما هو ظاهر) إما للحكومة أو للأمراء والجيش، باستثناء نسبة صغيرة للغاية تم تخصيصها للجوامع والمدارس، إلخ. (أ) تلقت الحكومة: (1) لبيت المال، الضرائب من أراضي الجيزة ومنفلوط نقدًا وعينًا على حد سواء، علاوة على البرسيم للإسطبلات الملكية والعسكرية؛ (2) لإنفاق السلطان الشخصي (ديوان الخاص)، خُمس دخل الإسكندرية والمناطق التابعة لها. (ب) تم تخصيص لأمراء المماليك والجيش: (1) ضريبة الأرض من بقية المدن والمقاطعات، متفاوتة وفقًا لمستوى الفيضان والأسعار؛ حيث تم توزيعها على المستفيدين وفقًا لرتبتهم؛ (2) المبالغ المحصلة من (أ) مناجم الزمرد، والتي أهملت لأنها لم تكن مربحة في العام الأخير من حكم الناصر؛ (ب) محاجر حجر الشب في صعيد مصر والواحات، والتي كان يجلب منها حجر الشب إلى قوص أو أسيوط؛ ومن ثمّ يتم شحنه عبر النيل إلى الإسكندرية، ثم يباع لليونانين بشكل رئيسي ، بسعر يتراوح ما بين 5 إلى 2/ 15 دينار للقنطار (القنطار يساوى مائة رطل إنجليزي)، اعتادت الحكومة (أي الأمراء والجيش) أن تأخذ منه الثلث، لكن=


شكل (64) شعار أمير البولو

لم ينل السلطان نفسه شيئًا من هذا، لقد أُبقي عليه في ظروف صعبة عن طريق وزرائه المستبدين، وعندما حدث صراع بين سلار وبيبرس وتنازعا حول الضحية، وجد نفسه في ظروف لا تحتمل بشكل أكبر. لقد حاول ذات مرة أن يدبر لاغتيالهما، لكن تم إفشاء المؤامرة، وصارت الأمور إلى أسوأ. وقف الناس في الواقع إلى جانبه، وأثارهم بشكل كبير شائعة عن مؤامرة لاغتياله؛

= تم تغيير النظام حوالي عام 802هـ/ 1400م؛ (ج) مناجم النطرون في طبرية (قرب بهنسة)، التي عملت منذ أيام ابن طولون، مائة أكر قدمت 100.000 دينار كل عام، وفي مقاطعة فاقوس؛ ارتفع سعر حجر الشب، كونه سلعة محتكرة، إلى ثلاثمائة درهم لكل قنطار، وأخذ السلطان الثلث، في الأغلب لرواتب الجنود؛ (3) الزكاة، التي (رغم أنها عادة ما كانت توزع بواسطة مؤدي الزكاة نفسه)، تم جبايتها بواسطة الحكومة على صافي أرباح التجار المستوردين في الإسكندرية، ومن تجار المواشي في برقة؛ (4) الجزية من الرعايا المشمولين بالحماية (أي اليهود والنصارى)، والتي بلغت من 10 إلى 25 درهمًا على كل رأس من السكان، وفقًا لطبقاتهم – استخدمت هذه الضريبة للرواتب القضائية والدينية؛ (5) رسوم السلع المستوردة المجلوبة عن طريق الأجانب إلى الإسكندرية أو دمياط، الذين قاموا بدفع العشر؛ وإن تمت إعادة البيع في مصر، يتم المطالبة بخمس آخر، حتى إنه دُفعَ على السِلَع أحيانًا ما بلغ 35٪ من قميتها؛ (6) ميراث الأشخاص بدون وارثين؛ (7) ربح العملات، المخفَّضَة القيمة بشكل كبير آنذاك. بجانب ذلك كان هناك رسوم جمركية بموانئ عيذاب، القصير، الطور، والسويس على البحر الأحمر، والتي بلغت عشر القيمة؛ وأيضًا على القوافل السورية. Cp. Wiitenfeld, Die Geographie und Verwaltung von Aegypten, 155 ff

لقد صار الشعور بالولاء لأسرة قلاوون جزءًا من شخصيتهم. لكن سلوك الأمراء جعل حكم الناصر مستحيلًا، وفي أحد الأيام ركب منطلقًا إلى الكرك بذريعة الحج، وبمجرد أن صار داخل القلعة القوية أعلن تنازله عن العرش. لم تُجْدِ الاعتراضات نفعًا، سواء كانت صادقة أم كاذبة، لقد عقد العزم على أن يحيا حياة هادئة، واضطُرَّ الأمراء لاختيار خلفٍ له.



شكل (65)

إيناء لأحد أمراء الناصر بالمتحف البريطاني.

لقد أحرز بيبرس الجاشنكير (الاستادار)، نفوذًا كبيرًا بشكل تدريجي. لقد كان سلار بالفعل نائب السلطنة، إلا أن بيبرس كان مدعومًا من البرجية أو مماليك القلعة بأكملهم، والذين لم يكن من الممكن مقاومة قوتهم. لقد خَطَّطوا منذ أمد طويل أن يرفعوه للعرش؛ لذا فقد انسجم تخلي الناصر عن العرش مع مقاصدهم. وهكذا صار الملك المُظَفَّر رُكْن الدّين بيبرس (الثاني) المَنْصُوري[1] سلطانًا. فشل حكمه القصير فشلًا ذريعًا، فهو لم يسبق له أن حظي بدعم الناس على الإطلاق، وعن جهل تم ربط استمرار مستوى النيل المنخفض ونقص المؤن الناتج عن ذلك مع سوء إدارته. وقد انتمى عدد كبير من أمراء المماليك لحزب سلار، الذي رغم قبوله لمنصب نائب

---

(1) تحمل القليل من العملات الصغيرة النحاسية لبيبرس الثاني تاريخ 708، 709هـ والذي يوافق العام 1309م.

السلطنة، إلا أنه عمل في الخفاء ضد زميله السابق. في غضون ذلك لم يقبع السلطان السابق خاملًا في الكَرَك. لقد تقاعد للراحة كما قال، لكن الإجراءات التي اتخذها أظهرت أنه انسحب من سيطرة أمرائه المصريين من أجل تنظيم حزب موالٍ له في سوريا. تلخصت كل التدابير التي اتخذها بيبرس في مواجهة تلك التحضيرات والمؤشرات على الثورة، أنه جعل سُلَيْمان المُسْتَكْفِي[1] يعلن ارتقاءه للعرش مرة أخرى. لكن أحدًا لم يحترم «أمير المؤمنين» المتراخي، فقد ضحك الأمير برلغي، وهو من مؤيدي بيبرس وقال ما مفاده أن سليمان كان قائدًا للريح، وحين سمع الناس اسم الناصر في الإعلان، صاحوا: «حفظه الله»، وحين ذكر اسم بيبرس، صاحوا: «لا نريده». جاءت الأخبار عن دخول الناصر لدمشق؛ حيث تلقى ولاء أمراء الشام، حَلَب وحَمَاة وحِمْص وطَرابُلُس وصَفَد والقُدْس، وعمل حرسه المتقدم الذي وصل إلى غَـزَّة على دفع القواعد الأمامية المصرية إلى الخلف. لم يكن لدى بيبرس أي خطة مضادة، ولم ينل أي دعم فعَّال؛ لذا فقد اتخذ السبيل الناجع الوحيد، وأرسل تنازله عن العرش وخضوعه للسلطان المتقدم. قَبِلَ الناصر ذلك ومن ثمّ عفا عنه، وعرض عليه حكم صحيون. لكن في الوقت نفسه ظلت مخاوفه تجاه بيبرس، الذي فر من القاهرة بصحبة حرسه المملوكي (الذين سرعان ما هجروه)، مترددًا بين عدة خطط للهروب، حتى تم أسره أخيرًا في غزة.

---

(1) هو أمير المؤمنين المستكفي بالله سليمان بن أحمد بن علي، ابن الحاكم بأمر الله، من خلفاء العباسيين بمصر، خطب له بعد وفاة أبيه عام 701هـ استمرت خلافته حوالي 39 عامًا، راجع: ابن كثير، البداية والنهاية، ج14/ ص 187 (المترجم)

بـدأ الناصـر فترة حكمـه الثالثـة[1]؛ حيث دخـل القاهرة فـي الثاني من شوال عام 709هـ الموافق الخامس من مارس عام 1310م، بعد أحد عشر شهرًا من اعتزاله. أيًّا كانت الفضائل الحميدة التي تحلى بها في شبابه، فقد أفسـدتها خبرتـه غير السـعيدة وعملت علـى تدهورها. ورغـم أنه فقط في عامه الخامس والعشـرين، إلا أنه كان بالفعل ساخرًا، ذا وجهين، ومتعطِّشًا للانتقام لشـقاء طفولته وشبابه، ولتحرير نفسه في النهاية من تدخل الأمراء الأقويـاء. لقد احتال للأمر بواسـطة الخِداع والغِش. لقـد دعى بيبرس إلى القاهرة، وعلى الرغم من الترحيب به بشكل ظاهري وتعيينه في الحكومة، إلا أنه رُمي بسهم هناك. لم يستطع الناصر أن يغفر له، فمن ضمن الذكريات المؤلمـة، أنه أبَى عليه أوزة مشـوية حين طلبها فـي الأعوام التي قضاها في الذُّل. وسرعان ما تبِعَ سلار غريمه، لقد أعان في استعادة الناصر، ورحب به بحفاوة بهدايا نفيسة، ومُنِحَ إمرة الشَّوْبك الصغيرة كمكافأة له. وباستدعائه إلـى العاصمـة، أُلقِيَ به في السـجن حيث تـم تجويعه حتـى الموت، فبعد ثمانية أيام من الجوع، أُرسـل له ثلاثة أطباق مغطاة من قِبَل السلطان، وبعد رفع الأغطية وجد أنَّهُا، طبقًا من نقود ذهبية، وآخر من نقود فضية، والثالث من أحجار كريمة ولآلئ. عندئذٍ قال: «الحمد لله الذي قسـم لي عقابي في هذه الحياة». في اليوم الثاني عشـر عُثِرَ عليه ميتًا، وفي فمه إصبع مقضوم. صـودِرَت ثروتـه الضخمة لصالح الدولة، وتم تقديـر دخل ممتلكاته بألف دينـار يوميًـا. ذكر مـؤرخ معاصر، كان قـد رأى جرد ممتلكاته الشـخصية،

(1) تحمل عملات الفترة الثالثة من حكم الناصر، التواريخ: القاهرة أعوام 710، 716، 733، 741هـ (1310 – 1340م)؛ وحلب عامي 710، 733هـ؛ ودمشق عامي 733، 735هـ؛ طرابلس عام 717هـ.

بأن فحص هذه الممتلكات استغرق أربعة أيام، وأنهم قد عثروا على أكثر من نصف مليون دينار أو ما يعادل قيمتها من الدراهم، إلى جانب خزائن مليئة بالأحجار الكريمة واللآلئ، وآنية فضية وثياب وخيل وجمال عربية وقطعان من الماشية والأغنام، وأعداد وافرة من العبيد. تم استدراج الأمراء القدامى الذين قاتلوا في حروب أبيه، وسيطروا على الابن في فترات حكمه الأولى، واحدًا تلو الآخر، غُرِّرَ بهم ومن ثمّ سجنوا وتم إعدامهم. لقد تعلم الناصر الدرس، فعزم على أن يحكم وحده، ولم يخالجه أي تردد في «قطع ما طال من الخشخاش».

اتبعت سياسته الخارجية سياسة أبيه قلاوون السابقة فضلًا عن بيبرس الأول، إلا أن الظروف المتغيرة جعلته حريصًا على التقرب من مغول فارس. كان له علاقات طيبة مع الإيلخان أبي سعيد، الذي عقد معه معاهدة وديّة عام 733هـ/ 1333م، ومع انقسام الخانات عند وفاة



شكل (66) نقش بمدرسة الأميرة تتر الحجازية بالقاهرة، 1360م

أبي سعيد، واصل مفاوضات عديدة مع المرشحين المحتملين للسلطة، وكان ذعمه مرغوبًا بشكل كبير حتى أن الشيخ حسن بزرج - أحد أكثر القادة المتنافسين قوة - وصل به الأمر إلى أن أقرّ بسيادة الناصر في الدعاء وعلى

العملـة في بَغْداد (741هـ/ 1341م) في مقابل وعدٍ بالمسـاعدة المسـلحة، إلا أنهـا لم تحدث أبدًا. وبرغم ذلك فـإن الصداقة القديمة مع دولة المغول المنافسـة - القبيلة الذهبية لمدينة سَـراي[1] على نهر الفولجا - تم الحفاظ عليهـا وتجديدهـا، رغـم أن العلاقات مع فارس سـببت قلقًـا لأزبج خان، وأخفـق عرض الناصـر بالزواج من ابنة الخان إخفاقًا ذريعًا بسـبب المبالغة في مبلغ المهر المطلوب من مصر. ومع ذلك فقد عُثِرَ على عروس أقل مهرًا ممثلـة في إحـدى قريبات الخان، السـيدة طلبية، التي لا يـزال ضريحها في القرافة الشـرقية يشـهد على الحِلف، والتي ربما كانـت الأميرة الوحيدة من المسلمين التي احتفى بها شاعر غربي[2].

حتـى ذلـك الوقت كان هنـاك العديد من الحروب الصغيـرة مع مملكة أرمينيـة الصغـرى. وكان الحـكام الأشـراف لمكـة يُعَيَّنون مـن قِبَل مصر، ويتـم دعمهـم بالجنود، إلا أن ذلك لا يَحدث دون نزاع، وفي عام 717هـ/ 1317م اعترف بسـلطة الناصر في المدينة المنورة أيضًا. قام السلطان نفسه بالحـج إلى مكة ثلاث مرات يصاحب ذلك الإسـراف المعتاد في الأعمال الخيرية. وقد أرسـلت اليمن، المسـتقلة تحت ملوك بني رسـول[3]، الهدايا

---

(1) مدينة سراي هي عاصمة مغول القبيلة الذهبية، التي أسسها باتو خان المغولي في أواسط القرن الثالث عشر، وهي الآن مدينة سراتوف على نهر الفولجا بروسيا (المترجم).

(2) Araucana, Canto 28..

(3) الدولة الرسولية باليمن (626 - 858هـ/ 1229 - 1454م)، هي من أطول الدول عمرًا في تاريخ اليمن الوسيط إذ استمرت لأكثر من قرنين من الزمان، وكانت عاصمتها مدينة تعز، أعلن بنو رسول استقلالهم عن الأيوبيين في مصر عام 630هـ/ 1232م، =

مـن وقـت لآخر إلى القاهرة، والتي كان السـلاطين يسـعون إلى الاعتراف بهـا كجزيـة، لكن علـى الرغم من إرسـال حملـة من خمسـة آلاف جندي مصـري عـام 725هـ/ 1325م وفقًـا لطلـب واحد مـن بني رسـول، الذي كانـت ولايته للحكم مثار خـلاف حتى انتهت بكارثة، هذا ولم يقع جنوب الجزيـرة العربية بأي شـكل تحت سـلطة الناصر. أما النوبـة، الواقعة تحت حكم مغتصب العرش كنز الدولة، فكانت مستقلة أيضًا في ذلك الوقت[1].

علـى الجانب الآخر من ناحية الغرب، أقيمت الخطبة باسـم السـلطان في طَرابُلس وتُونس (711-717هـ/ 1311- 1317م) بواسطة الملك الحَفْصِي أبو زَكَريا يَحْيَى[2]، الذي ساعده الناصر للوصول إلى العرش.

= وخطبوا للخليفة العباسي ببغداد بشكل مباشر، وظلوا يخطبون للخليفة العباسي حتى بعد انقضاء الدولة العباسية عام 656هـ فقد روى المؤرخون أن الدعاء على منابر اليمن ظل للمستنصر آخر الخلفاء العباسيين حتى القرن التاسع الهجري، وقد انقضت الدولة الرسولية على يد الطاهريين الذين ورثوا ملكهم عام 858هـ/ 1454م، انظر: الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، عني به: الشيخ محمد بسيوني عسل، بيروت 1983م (المترجم).

(1) كانت قبيلة كنز شوكة في جانب مصر منذ زمن صلاح الدين، وكان هناك نزاعات متكررة معهم في القرن الرابع عشر الميلادي؛ فقد هاجموا أسوان في 767، 787هـ/ 1366، 1385م، وحوالي 792، 798هـ/ 1390، 1396م؛ وبعد عام 805هـ/ 1403م لم تعد منطقة أسوان لبعض الوقت تابعة للسلطة المصرية.

(2) هـو زكريـا بن أحمد بن محمـد بن يحيى بن عبد الواحد بـن أبي حفص اللحياني (650-727هـ/ 1252-1326م)، أصبح ملكًا على الدولة الحفصية بإفريقية عام 680هـ وخُلع ثم توجه إلى الحجاز عام 709هـ، ثم عاد إلى إفريقية حيث بايعه أهل طرابلس، وزحف إلى تونس فدخلها عام 711هـ، واسـتوثق لـه الأمر، فقطع ذكر المهدي بن تومرت من الخطبـة، وبعـد أن قـدم أبـو بكـر بـن يحيـى إلى إفريقية، خافـه زكريـا فخـرج =

ترجع معظم تلك الحالات من التبعية الواضحة، إلى المساعدة المصرية أثناء فترات الحروب الأهلية أو التنازع على الحكم، وهي تشهد بالأحرى على الكفاءة العسكرية للجيش المملوكي أكثر من أي هيمنة مستمرة من قِبَل السلطان. صارت مصر عاملًا لا يستهان به كلما نشأت خلافات بين جيرانها، لكنها لم تتوسع فيما وراء نطاق حدودها الطبيعية، والتي استقرت لفترة طويلة بالصحراء السورية، ونهري الفرات وبيرامس في الشرق والشمال، وسَوَاكِن وأُسْوان في الجنوب، وطَرابُلُس في الغرب. كان الناصر نفسه لديه طموح للإمبراطورية، لكنه لم يكن قائدًا، وخشي تسليح أحد المنافسين المحتملين لقيادة جيش كبير. لقد أُجبِرَ بالفعل على قمع ثورة الدروز والنُصيريين[1] بالقوة، وأن يشن حربًا على أرمينية الصغرى، لكنه ارتكز بالأحرى على الدبلوماسية كي يبسط نفوذه. جَلبت مفاوضاته في الشمال ولاء أرتينا بآسيا الصغرى وأمير ذي القدر. لقد استمر في تبادل السفارات مع مغول القفجاق، إضافة لمغول فارس، وملوك اليمن والحبشة وغرب إفريقيا، فضلًا عن أباطرة القُسْطَنطينية وملوك بُلْغَاريا. حتى سلطان الهند وملك أراجون وبابا الكنيسة وملك فرنسا أرسلوا مبعوثين إلى بلاطه. كانت رسائل الأباطرة البيزنطيين، المتكررة في أحوال كثيرة

= من تونس عام 717هـ إلى طرابلس مكتفيًا بإمارتها، ناقضًا يده من الخلافة، فأقام نحو سنة ثم رحل إلى الإسكندرية حيث توفي بها، راجع: ابن كثير، البداية والنهاية، ج14/ ص 129، السلاوي الناصري، الاستقصا، ج3/ ص 28 وما بعدها (المترجم).

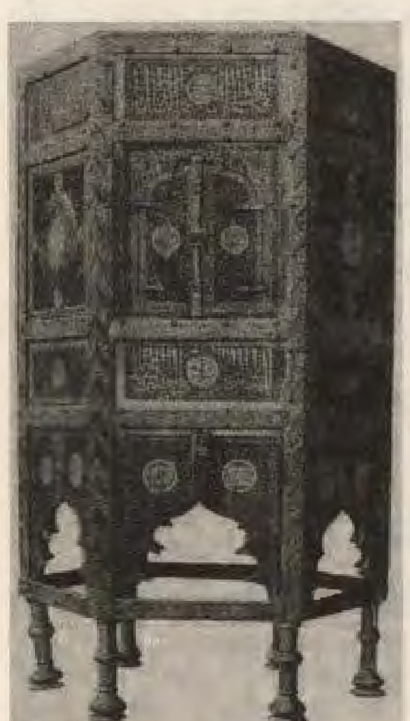
(1) هم فرقة من غلاة الشيعة كانت تعتبر الإمام عليّ أفضل من الرسول، ينسبون إلى محمد بن نصير من البصرة، وهو أحد تلاميذ الإمام العاشر، جاء إلى الشام وبدأ بنشر دعوته أيام الحمدانيين (المترجم).

[مثلًا في 717، 726هـ/ 1317، 1326م]؛ تهدف على ما يبدو للتفاوض على التحالف مع الناصر ضد التركمان، الذين ازدادوا قوة في ذلك الوقت بشكل متواصل في آسيا الصغرى، وهددوا بالفعل الإمبراطورية البيزنطية. كان سلطان هندوستان، محمد بن تغلق[1]، الذي أرسل سفارة إلى الناصر في 731 - 732هـ/ 1331 - 1332م عن طريق بَغْداد، يعتزم غزو شرقي فارس، ورغب على الأرجح أن يستخدم الناصر في هجوم متزامن على مملكة المغول بغربي فارس. ووصل عام 727هـ/ 1327م مبعوث من بابا الكنيسة لحثه على معاملة رعاياه النصارى بصورة إنسانية، واعدًا في المقابل أن يحمي - قدر المستطاع - الرعايا المسلمين الذين يعيشون في العالم المسيحي من أي مصدر للإزعاج. أرسل فيليب السادس ملك فرنسا سفارة عام 730هـ/ 1330م يطالب من خلالها الناصر أن يُسلِّم بيت المقدس وجزء من ساحل فلسطين للصليبيين؛ فكانت المحصلة الطبيعية الطرد بازدراء[2].

---

(1) هو السلطان محمد عادل بن تغلق شاه (725 - 752هـ/ 1325 - 1351م)، أحد سلاطين سلالة تغلق الحاكمة بدلهي ذات الأصل التركي (721 - 817هـ/ 1321- 1414م) (المترجم).

(2) Weil, iv. 352-4.





شكل (67) أحد الأبراج بقلعة القاهرة. شكل (68) كرسي عشاء الناصر محمد، القرن 14م، بمتحف القاهرة.

تم استخدام النصارى بشكل أفضل من ذي قبل في الفترة الثالثة من حكم الناصر، وسعى السلطان بقدر المستطاع لتخفيف مرسوم عام 700هـ/ 1301م المُذِلّ، ليس دون إثارة حنق علماء الدين والفقهاء المتعصبين. لقد قام بحماية الكنائس من الدمار، ورفض التصديق بأن أي حريق أو كارثة يجب أن يكون ناتجًا عن مؤامرة مسيحية، كما قال المسلمون المتعصبون. إلا أن التعصب ضده كان قويًّا للغاية؛ فقد احتشد عشرون ألف رجل في الميدان وصاحوا صيحة واحدة: «لا دين إلا دين الإسلام، نصر الله دين محمد بن عبد الله، يا ملك الناصر يا سلطان الإسلام، انصرنا على أهل

الكفـر، ولا تنصر النصارى!»[1]. هكذا استسـلم الناصر للـرأي العام، وتم فرض المرسـوم السـابق مرة أخرى تحـت تهديد المـوت. أغلق النصارى كنائسـهم، ولـم يجرؤا على الظهـور إلا متخفين[2]. لقد أحرقوا دون شـك العديـد من الجوامع والبيوت، وفي المقابل هَدَم المسـلمون انتقامًا أعدادًا كبيرة من كنائسهم وديارهم. ومع ذلك استخدم السلطان نفوذه في صالحهم كلما سنحت الفرصة، وعمل وزراؤه، ممن كانوا نصارى ثم صاروا مسلمين اسـميًّا، على إجهاد أنفسهم من أجل شركائهم القدامى، بينما ابتزوا الرعايا المسـلمين بقـدر ما أمكنهم ذلك. اسـتخدم الناصر النصـارى أي الأقباط، كما استخدمتهم كل الحكومات المصرية، لأنهم كانوا رجال أعمال أفضل من المسـلمين، هذا فضلًا عن أنهم لم يشـكلوا خطرًا على عرشه، كما كان كبار موظفي المسـلمين؛ حيث كان حذرًا منهم بشـكل دائم، واستخدمهم بطريقة شديدة قاسية.

من ناحية أخرى، كان خدمه وموظفوه المتواضعون، والجزء الأكبر من شـعب مصر في سعة تحت حكمه. فقد أُلغِيَت الكثير من الضرائب الجائرة – مثلًا على الملح والدجاج وقصب السـكر والقـوارب وراكبيها، والعبيد والجياد، إلخ – وتم تعويض الخسـارة بتغريم كبار النبلاء. لقد أمر بمسـح جديد للأرض ودخلها، وخصَّصَ من بين أقسام الدولة الأربعة والعشرين،

---

(1) نص المقريزي، السلوك، ج3/ ص 44، كان ذلك في حوادث عام 721هـ (المترجم).

(2) أفضل وصف لحالة النصارى تحت حكم سلاطين المماليك - وهو ما يتفق مع العمل الحالي - في: Quatremère's Mémoires sur l Egypte, ii. 220-66. حيث تشغل أعمال العنف لعام 721هـ/ 1321م وحدها أربعًا وعشرين صفحة، ومن المتعذر عرض التفاصيل في مساحة موجزة.

عشرة للدولة وأربعة عشر للأمراء والجيش، وفقًا لدرجتهم. وقاوم الأسعار الباهظة التي سادت وقت نقص المؤن، وجلد الطحَّانين والخبَّازين الذين غالوا في الأثمان، وجلب القمح من الشام وعدَّل ثمنه في السوق، وأجبر الأمراء على فتح مخازن الغلال الخاصة بهم للبيع العام، بدلًا من بيع قمحهم سرًّا بأسعار باهظة. وقام المحتسب أو مفتش الأسواق، ضياء الدّين يُوسُف - الذي كان رجلًا شجاعًا مستقيمًا - بإبلاغ السلطان عن أية مخالفات؛ لذا قام السلطان بتوبيخ صهره الأمير الكبير قوصون علنًا، وضربه فوق رأسه بالجزء المسطح من سيفه، وجلد وكيله في حضوره. كان لتلك التدابير القوية تأثيرها، فساد على إثر ذلك سعر معتدل للقمح. كان الناصر صارمًا في سبيل القضاء على شرب الخمر وكل أنواع الرذيلة، وكانت عقوباته همجية وبدائيَّة مثلما كانت أساليب مصادرته شاملة وغير شرعية. وجد القضاة بالفعل أحيانًا أنه من الضروري الاحتجاج على إجراءاته المستبدَّة، وكانوا على يقين من أنهم سيجدون آذانًا صاغية. وجد العلماء في شخص السلطان صاحب الفكر الرائع راعيًا ومُقدِّرًا للشيء حق قدره. كان العالم المؤرخ أبو الفدا[1]، وهو الأمير المنتسب لسلالة شقيق صلاح الدين، صديقًا حميميًّا لـه، وقد أعاده الناصر (710هـ/ 1310م) إلى حَمَاة إمارة أسلافه، وأعاد ألقاب وامتيازات عائلته القديمة، واصطحبه

---

(1) أبو الفداء إسماعيل علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي (672-732هـ)، المؤرخ صاحب كتاب (المختصر في أخبار البشر)، كان من جملة أمراء دمشق، ولاه الناصر حماة ولقبه بالملك الصالح مدة، ثم لقبه بالملك المؤيد عندما قدم إلى مصر عام 716هـ عاد إلى حماه سنة 723هـ، ولم يزل بها حتى مات يوم 27 من شهر محرم عام 732هـ، المقريزي، المقفى الكبير، ج2/ ص 100، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج9/ ص 173 (المترجم).

للحج إلى مكة، وجعل الولاة السوريين يعاملونه باعتباره سلطانًا، خاطبه كأخ، واستمر في محبته وتكريمه حتى وفاته (732هـ/ 1331م). كان ذلك العصر خصبًا بالعلماء، وقد تمتعوا بكل علامات الاحترام فضلًا عن الرواتب الكبيرة تحت حكم الناصر.

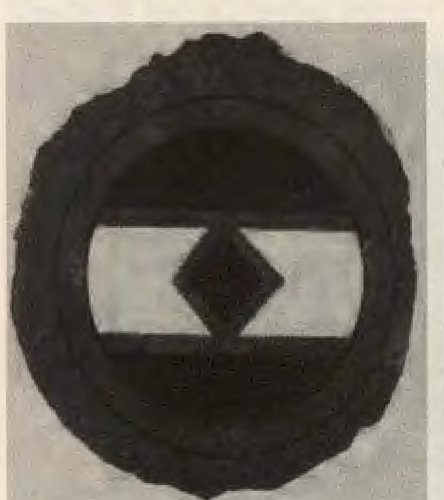
لقد كان عصر تألق غير عادي على كافة الأصعدة. وبرغم الذِّكْر العرضي لنقص المؤن وارتفاع الأسعار، إلا أن ثروة البلد كانت هائلة، سواء بسبب خصوبة أرضها أو حجم التجارة الكبير دائم التزايد مع أوروبا والشرق، إن كانت ثروات الأفراد تمثل معيارًا. إن الحسابات التي كادت تكون خرافية لتبذير أمراء هذا العصر والمذكورة في المصادر العربية، تُظهِر مواردهم الضخمة، وتمثل الجوامع الثلاثين أو ما يزيد، التي بُنِيَت بواسطة أمراء الناصر، مثل سنجر الجاولي وقوصون والمارداني وآقسنقر وشيخو، وذلك على سبيل المثال ممن لازالت آثارهم باقية، دليلًا على أنهم كانوا أحيانًا ينفقون ثرواتهم على أهداف نبيلة[1]. إن عمارة ذلك العصر ربما

---

(1) يكتب ابن بطوطة، الذي زار القاهرة عام 762هـ/ 1326م، عن المنافسة بين الأمراء في بناء الجوامع والمساجد، ويخص بالذكر الخانقاوات، جمع خانقاه (مثل تلك الخاصة ببيبرس الثاني، ولاتزال قائمة)؛ حيث عاش الفقراء، وفي الغالب الصوفية الفرس، مُعتزلين تحت قواعد صارمة. ويقول: إن أديرة منفصلة خُصِّصَت للعُبَّاد المتزوجين. ويصف الناصر بأنه «ذو شخصية نبيلة وفضائل عظيمة»، ويشير إلى إكرامه للحجيج، وجلوسه مرتين أسبوعيًا للاستماع شخصيًا إلى جميع الشكاوى والعرائض؛ ويقدم قائمة صغيرة بالأمراء والعلماء الرئيسيين. إن وصفه يعتبر هزيلًا بصورة مؤسفة، فبدلًا من الإحصاءات القيمة يخبرنا عن 12.000 حامل للماء على ظهر الجمال، و 30.000 طُعم للصيد، و36.000 قارب على النيل (Ed. Defrémery et Sanguinetti, i. 67 ff.).

كانت الأكثر براعة في تاريخ الفن الإسلامي في مصر، أما الفنون الصغرى فلم يتم تشجيعها في عصر أكثر من ذلك العصر. لقد صُنِعَت أوعية جميلة، وحافظات للعطور، وعلب جواهر، وعلب المصاحف والكراسي أو المناضد الصغيرة، من البرونز أو النحاس، وكثيرًا ما تم صنعها خلال أيام بتصاميم فنية باهرة وطُعِّمَت بالفضة بشكل يثير الإعجاب. صُنِعَت مصابيح زجاجية مطلية بالمينا، ومصاحف مزخرفة، وألواح خشبية منقوشة، وأسقف مطلية، وكل أنواع الزخرفة في ذلك العصر بصورة تفوق كل ما قبله وما بعده جمالًا وروعة. فعندما نجد في متاحفنا مثالًا من أروع أمثلة الفن الإسلامي، نكاد نكون واثقين من العثور ضمن نقشه على كلمات: «الملكي الناصري» أو «مملوك الملك الناصر».





شكل (69) خانقاه سنجر وسلار، 1323م. شكل (70) شعار الأمير المارداني، القرن 14م، جزء من مصباح زجاجي.

قاد السلطان نفسه مسيرة ذلك الفن المتحضر. لقد تم الحفاظ على بعض أثاثه الشخصي - أو ذلك الخاص بجوامعه - وبِنَائَيه الرئيسيين، وهما المدرسة الناصرية بسوق النحاسين (المقامة على جزء من بين القصرين القديم)، والتي بنيت بين عامي 698 - 703هـ/ 1299- 1304م، وجامعه (718هـ/ 1318م) في قلعة القاهرة، وهما من بين أهم الآثار الإسلامية. ومما يؤسف له أن قصره الفخم في القلعة قد دَرَسَ، وهو قصر الأَبْلق، الذي أُطلق عليه ذلك الاسم بسبب تناوب طبقات الحجارة البيضاء والسوداء في بنائه، وقد تكلف خمسمائة مليون درهم (تم تأسيسه عام 713هـ/ 1313م)؛ وظلت «قاعة الأعمدة» الخاصة به قائمة حتى أوائل هذا القرن[1]. وقد أُعِيدَ بناء القلعة بالفعل على نحو واسع عام 712هـ/ 1312م وفي الأعوام التالية، وتم إضافة عدد من المباني الجديدة[2].



شكل (71) قاعة الأعمدة، بناها الناصر بقلعة القاهرة، 1313م

(1) أي أوائل القرن التاسع عشر (المترجم).

(2) See Casanova in Mem. de la Miss, Archeol. Francaisc, vi. 619 - 665.

لقد أنفق ذات مرة ثمانية آلاف درهم (حوالي ثلثمائة جنيه إنجليزي) على البناء في يوم واحد. كان ضمن الأعمال العامة التي تم إنشاؤها خلال حكمه قناة الإسكندرية، والتي عملت على ربط الميناء بالنيل في فُوّة، وأسهمت بصورة كبيرة في تجارة وخصوبة البلد، فضلًا عن إحياء العاصمة اليونانية المُهمَلَة. وعمل الممر الكبير الذي أنشأه بجوار النيل كطريق وسد معًا أثناء وقت الفيضان. وكانت قنطرة الماء التي تصل من النيل إلى قلعة القاهرة من عمل هذا السلطان (711هـ/ 1311م)، رغم أنه قد أُشيع بين الناس نسبتها لصلاح الدين. ومن أجل تنفيذ خططه والاستمتاع بذوقه، فقد احتاج إلى دخل هائل، في وقت توفر فيه المال. لقد زوَّج إحدى عشرة بنتًا من بناته إلى الأمراء القادة، منفقًا ثمانمائة ألف دينار على كل عُرس، ووصلت تكلفة الموسيقى وحدها إلى عشرة آلاف دينار لكل منها. كان الناصر خبيرًا في الخيل، وكان من شأنه دفع ما يصل إلى مليون درهم (أربعة آلاف جنيه إنجليزي) من أجل أحد هذه الحيوانات الرائعة. بالطبع احتفظ بسجل لائق لتلك الجياد، وعَلِمَ اسم وعُمر وسعر ونسب كل حصان. وُلد في إسطبلاته ثلاثة آلاف مُهر كل عام تم ترويضها بواسطة البدو، كانت تُقَدم للأمراء أو تعد لدخول السباق، التي كان الناصر من أكثر المدربين حماسًا لها. كان الناصر مزارعًا أيضًا، وكان يعمل على استيراد الأغنام من أنواع جيدة لقطيعه الذي بلغ ثلاثين ألف رأس، والذي كان قد احتفظ به في القلعة. وكان رياضيًا متحمسًا لرياضة الصيد بالصقور، فكانت منزلة رجال صيده، وحراس مناطق الصيد ذات شأن في بلاطه، هذا فضلًا عن الهبات والعطايا. لقد كان أيضًا جامعًا للأحجار الكريمة، في وقت شاع

فيه جمع رأس مال قابل للحمل وسهل التداول. وعلى الرغم من تشجيع التَرَف والإسراف في بلاطه، إلا أنه لم يرتدِ أي جواهر، وكان رداؤه الأقل تكلفة والأبسط حالًا. هذه الشخصية لذلك الرجل ذو الإرادة الحديدية - المستبد والحاكم الأوحد، ضئيل البدن، صغير القوام، ذو القدم العرجاء، مع إعتام في عينه، برداته البسيط وأخلاقه الصارمة، وذكائه الحاد ونشاطه الذي لا يعرف الكلل، ذوقه واهتماماته الراقية، دبلوماسيته الفطنة التي تتحول إلى خِداع، ريبته اليقظة وروحه الانتقامية القاسية، بلاطه الفخم ومبانيه المهيبة - هي واحدة من أبرز الشخصيات في العصور الوسطى، كان حكمه بلا ريب هو ذروة الثقافة والحضارة المصرية[1].





شكل (72) شعار الأمير تكزدمر، على مصباح بالمتحف البريطاني، القرن 14م.
شكل (73) دينار الناصر، القاهرة، 1340م.

---

(1) أفضل وصف أوروبي لحكم الناصر نجده في العمل الدقيق: Geschichte der Chalifen، بواسطة: Weil، مبنيًا على أعمال المقريزي، وأبي المحاسن، ومعظم المصادر العربية المتاحة. لقد تم تلخيصه، مع عدة أخطاء للأسف، بواسطة السيد: و. موير W. Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt.

مما يُؤْسَف له أنه حين مات معترفًا بآثامه عام 741هـ/ 1341م، عن عمر يناهز خمسة وثمانين عامًا تقريبًا، لم يترك خلفًا قادرًا على مواصلة عمله. ظَهرت ثقة الناس في حكمه الراسخ ومخاوفهم مما سيأتي بعده، في هلعهم من مجرد إشاعة موته، والتي عند حدوثها أغلقوا متاجرهم وأبقوا على مؤنهم لوقت الحاجة. اجتمع أمراؤه حول فراشه، وأعلنوا في إجلال «أنهم كانوا مماليك أسرته، حتى وإن بقي منها ابنة عمياء فسيؤيدونها حتى الموت». وبالفعل توارث العرش اثني عشر من سلالة الناصر[1] خلال واحد وأربعين عامًا بشكل سريع، لكن لا يمكن القول بأنهم قد حكموا بالفعل. فقد تعاقب ثمانية أبناء وحفيدان وابنا أحفاد على العرش. كان بعضهم مجرد أطفال، وبعضهم حمل لقب سلطان لبضعة أشهر، وظل

(1) العملات الخاصة بورثة العرش هؤلاء هي كما يلي: الصالح إسماعيل، القاهرة، 4[4] 7هـ دمشق، 743، 744هـ، حماة 746هـ، حلب، بدون تاريخ؛ الكامل شعبان، القاهرة، 747هـ، دمشق، 746هـ؛ المظفر حاجي، القاهرة، 747هـ، دمشق، 747هـ (ذو الحجة)؛ الناصر حسن (أول حكم)، القاهرة، 748، 749، 750، 752هـ دمشق، 749، 750هـ؛ الصالح صالح، القاهرة، 752، 753، 754هـ، دمشق، 756هـ؛ حسن (فترة حكمه الثانية)، القاهرة، 754، 756، 757، 8[75]، 759، 760، 671هـ، الإسكندرية، 756، 9 [75]، دمشق، 758، 760، 761، 762؛ المنصور محمد، القاهرة، 761، 762، 763، 764، دمشق، 763هـ؛ الأشرف شعبان، القاهرة، 764، 765، 766، 767، 768، 769، 770، 773، 774، 776هـ، الإسكندرية، 766، 777هـ، دمشق، 766، 771، 773، 774، 777هـ، حلب، حماة، طرابلس، بدون تواريخ مقروءة؛ المنصور عليّ، القاهرة، 779، 781هـ، دمشق، 778، 780، 781، 782، حلب، 778هـ؛ الصالح حاجي، دمشق، حلب، بدون تواريخ؛ دمشق، 792هـ، بلقب المنصور.

أحد الأبناء وهو حسن، على العرش لأربعة أعوام، ثم استعاده بعد ذلك لستة أعوام أخرى، بل لقد احتفظ أحد الأحفاد وهو شعبان، بلقب سلطان لأربعة عشر عامًا. لكن إذا لم يكن هؤلاء السلاطين أطفالًا بلا حول ولا قوة، فقد كانوا عادة فسقة بائسين، وكانت السلطة الحقيقية في أيدي الأمراء الكبار، كان قُوصون (المغولي التابع لعروس الناصر القفجاقية) وتاشتمر وآقسنقر وشيخو ويلبُغا وصرغتمش، الأبرز من بينهم. ظل البلاط على نفس حاله من الترف والإسراف، واستمر الأمراء في جمع الثروة وبناء الجوامع والقصور الرائعة، واحتفظت مكانة مصر باحترام القوى الأجنبية. لكن التنافس بين الأمراء والفوضى التي تلت ذلك حملت البلاد إلى ضائقة مالية، وتم التخلي عن الحج إلى مكة أكثر من مرة لنقص الموارد المالية للدولة، رغم أن المال على ما يبدو لم ينقص أبدًا لدى المغنيين وجواري القصر. حاول شيخو بصورة متقطعة أكثر من مرة أن يوقف موجة التفكك، فأنقص النفقات، وخصَّص للسلطان حسن ما يساوي أربعة جنيهات إنجليزية يوميًّا فقط، وأخضع قطاع الطرق البدو الذين عج بهم وادي النيل؛ لكن نكبة الطاعون الذي حدث فيما بين 749-750هـ/ 1348- 1349م - هو نفسه «الموت الأسود» الذي انتشر في أنحاء أوروبا في ذلك الوقت - حوَّلت البلاد إلى حالة يائسة؛ فقد مات من عشرة آلاف إلى عشرين ألف إنسان في القاهرة في يوم واحد؛ ورافق الوباء طاعون الماشية ومرض الفاكهة، وتسمم أسماك النهر، هكذا أُفرِغَت المدن وخربت الأرض.



شكل (74) دينار السلطان حسن، القاهرة، 1349م.

فيمـــا يتصـــل بالشئـــون الخارجيـة، تـم تسـجيل القليل مـن فترات الحكـم القصيـرة لأفـراد سـلالة الناصـر، والتـي كانت قليلة الأهمية، مثل انتصار صغير في مكة على ملك اليمن، وانتصار آخر في سـنجار ببلاد العراق على عصابة كردية من قطاع الطرق، وإجبار مؤقت لحاكم متمرد في بغداد على الولاء، والذي قام بسك عملات باعتباره تابعًا لمصر (766هـ/ 1365م)، وحملة تأديبية ضد البدو المغيرين في صعيد مصر، وأخرى (تم تجهيزها بالقوارب التي حملها الشلال الأول بنهـر النيل) في النوبة لهدف مشـابه (766هــ/ 1365م)، وهجمات مألوفة على أرمينية الصغرى (حيث تم الاستيلاء على أَذِنَة وطَرْسُوس والمِصيِّصَة، ووضعـت حاميـة فـي أول اثنين منهما). كانـت غارة الأسـطول الأوروبي العدائيـة على الإسـكندرية خبـرة جديدة بعـد أكثر من قرن مـن الراحة من الحمـاس الصليبـي؛ حيث أنـزل بطـرس لوزينيـان Peter of Lusignan، ملك قُبرص، يدعمه فرسان رودس وجِنْوة والبُندقية، اثني عشر ألف رجل فجأة إلى اليابسة، وهاجم الإسْكَندرية ونهبها، ثم أبحر بعيدًا بصحبة خمسة آلاف أسير[1]. وقد أُكرِهَ النصارى في مصر على دفـع فديتهم والتبرع لبناء

(1) كان اعتـلاء بطرس لوزينيان عرش قـبرص (751 - 770هـ/ 1350 - 1369م)، فاتحة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية المتأخرة، فقد عمل ذلك الملك الصليبي المتعصب على استـغلال حالة الضعف والإنحـلال التي آلت إليها مصر عقب وفاة السـلطان النـاصر محمـد وتوليـة عـدد كبـير مـن أولاده وأحفاده العـرش في تعاقـب سريع =

أسطول في القاهرة وطَرابُلُس. هاجم الأسطول القُبرصي مرة ثانية عام 770هـ/ 1369م على طرابلس وظهر قبالة الإسكندرية، لكنه لم يحقق إلا أهدافًا صغيرة، وبعد بعض المفاوضات تم عقد السلام مع قُبرص وباقي الجمهوريات. كانت الأعمال العدائية لرؤساء تركمان ذي القدر، على الحدود الشمالية لسوريا أكثر أهمية؛ حيث تحول بعض المساعدين النافعين الذين يحرسون الحدود إلى أعداء، وهم أسلاف الأتراك الذين غزوا مصر بعد مائة وأربعين عامًا لاحقة.

كانت النهاية الوحيدة الممكنة لسلسلة الدُمى التي حكمت كسلاطين رمزيين منذ وفاة الناصر، أن يستولي أحد الأمراء الأكثر قوة وحظوة على العرش، مثلما أمسك بيبرس وقلاوون العرش منذ قرن مضى. ظهر هذا

= وتنازع بين كبار الأمراء، وقام بالإعداد لحملة صليبية على مصر لكنها لم تكن تهدف إلى احتلال مصر بل إلى ترويع وإرهاب المماليك فضلًا عن السلب والنهب والتخريب، وبالفعل وصلت الحملة إلى الإسكندرية يوم الخميس 21 من محرم سنة 767هـ/ 9 أكتوبر 1365م في عهد السلطان الأشرف شعبان (764 – 778هـ/ 1363 – 1376م)، واقتحمت المدينة وأعمل بها التخريب والتقتيل والنهب والحرق، وما إن حقق الفرنج هدفهم بعد ثمانية أيام من الغزو حملوا الأسرى وما قاموا بسلبه وانطلقوا عائدين، انظر تفاصيل غزوة القبارصة: النويري السكندري، كتاب الإلمام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق: عزيز سوريال عطية، الهند 1968 – 1976م، سهير محمد نعينع، الحروب الصليبية المتأخرة... حملة بطرس لوسينان على الإسكندرية، القاهرة 2002م، عبد العزيز سالم، تاريخ إسكندرية، ص 309: 349، عبد الرحمن زكي، غزوة الإسكندرية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع (العدد الثاني)، 1952م، ص 123، حسن حبشي، هجوم القبارصة على الإسكندرية 767هـ/ 1365م، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس عشر، 1969م، ص 1 (المترجم).

الرجل في شخص بَرْقُوق، الذي خلع عن العرش آخر أسرة قلاوون عام 784هـ/ 1382م، بعد التخلص من واحد تلو الآخر من منافسيه، وأسس سلالة حاكمة من السلاطين البرجية أو الجراكسة. إلا أن الشيء الوحيد الذي كان مستغربًا، هو بقاء سلالة ضعيفة كسلالة الناصر طوال ذلك الوقت في عالم يموج بالعواصف.



شكل (75) قصر قوصون - يشبك بالقاهرة، 1476م، مجاور لجامع السلطان حسن





شكل (76) نقش تذكاري بضريح السلطان حسن، 1384م. شكل (77) جامع السلطان حسن، 1362م، من القلعة.

الفصل الحادي عشر
المَمَالِيكُ الجّرَاكِسَة
784 – 923هـ/ 1382 – 1517م

السلاطين الجراكسة – استبداد الجنود – الفوضى والفتنة – فساد المسئولين – برقوق – غزو تيمور – برقوق وتيمور – فرج – الحملات في الشام – المؤيد – برسباي – فتح قبرص – محاولة فتح رودس – التجارة الهندية – الاحتكارات – برسباي، جقمق، خشقدم – قايتباي – منشآت قايتباي – حروب الثغور – الحدود التركمانية – التدخل العثماني – جم سلطان – قانصوه الغوري – الأعمال العامة لقانصوه الغوري – الحروب البحرية مع البرتغال – الفتح العثماني – الخلافة – ولاية تركية – محمد عليّ.

الفصل الحادي عشر
المَمَالِيكُ الجَرَاكِسَة
784 – 923هـ / 1382 – 1517م

المصادر[1]: المقريزي، أبو المحاسن، ابن إياس، القلقشندي؛

---

(1) من أهم المؤرخين المعاصرين للعصر المملوكى الثاني: ابن الفرات (ت 807هـ/ 1405م)، وكتابه (تاريخ الدول والملوك) المعروف بتاريخ ابن الفرات، وهو من الكتب الموسوعية عن العصر المملوكي الأول، ومن أعظم المؤرخين قاطبة كان ابن خلدون (ت 808هـ/ 1406م)، وكتابه الموسوعي صاحب المقدمة الشهيرة (العبر وديوان المبتدأ والخبر) ولاسيما جزءه الخامس الذي يتناول أخبار المماليك، وابن دقماق (ت 809هـ/ 1406م)، وكتابه الجغرافي التاريخي (الانتصار لواسطة عقد الأمصار)، وكتابه الآخر (الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين) الذي يتناول فيه أحداث العصر المملوكي، ومن أهم الكتب التي وصلتنا كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا)، للقلقشندي (ت 821هـ/ 1418م)، الذي كان يعمل في ديوان الإنشاء المملوكي؛ لذا استطاع الاطلاع على الوثائق المملوكية الأصلية ونقل الكثير من نصوصها، أما المقريزي فهو أهم مؤرخي مصر الإسلامية على الإطلاق، وقد تناول التاريخ المملوكي تفصيليًّا على نظام الحوليات في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك)، هذا فضلا عن خططه الشهيرة، وهناك الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ/ 1449م)، وكتابه (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)، وكتابه الآخر (إنباء الغمر بأنباء العمر) يتناول فيه الحوادث السنوية لعصر المماليك، والمؤرخ الهام بدر الدين العيني (ت 855هـ/ 1451م)، وكتابه (عقد الجمان في تاريخ أهل =

Weil, Geschichte des Chalifen, v، von Hammer, Gesch. D. Osman. Reiches, ii.

الآثار الرئيسية في مصر: قبة أنص والد برقوق 784هـ/ 1382م؛ مدرسة الأمير أيتمش 785هـ/ 1383م؛ مدرسة برقوق 788هـ/ 1386م؛ مدرسة الأمير إينال اليوسفي 794هـ/ 1392م؛ مدرسة الأمير مقبل 797هـ/ 1395م؛ مدرسة الأمير سودون 804هـ/ 1402م؛ مدرسة جمال الدين الاستادار 811هـ/ 1408م؛ خانقاه وضريحي فرج وبرقوق 803 - 814هـ/ 1401-

---

= الزمان)، وكتابه (سيف المهند في سيرة الملك المؤيد)، وكتابه (الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر)، وابن شاهين الظاهري (ت 872هت/ 1468م)، وكتابه (زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك)، وهو عبارة عن وصف للممالك التابعة لدولة سلاطين المماليك، ويأتي بعد ذلك الكتاب الهام (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) لأبي المحاسن ابن تغري بردي، وكتبه الأخرى مثل (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي)، وهو عبارة عن تراجم من عام 650هـ إلى 857م. وفي القرن العاشر يأتي السخاوي (ت 902هـ/ 1497م)، وله عدة مؤلفات هامة منها (الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع)، وهو من أكبر كتب التراجم، وكتابه (التبر المسبوك في ذيل الملوك)، وهو ترجمة للأعيان حتى عام 857هـ ثم يأتي من بعده جلال الدين السيوطي (ت 916هـ/ 1505م)، ومن أهم مؤلفاته (حسن المحاضرة)، ثم يأتي ابن اياس (ت 930هـ/ 1524م)، وكتابه الشهير (بدائع الزهور في وقائع الدهور)، وترجع أهمية هذا الكتاب غير سرده للأحداث إلى معاصرته لوقائع سقوط دولة المماليك والفتح العثماني لمصر والذي رواه بشكل تفصيلي، هذا فضلًا عن ابن زنبل الرمال (ت 960هـ/ 1552م)، الذي كتب بإسهاب عن وقائع الفتح العثماني في كتابه (تاريخ السلطان العثماني مع قانصوه الغوري)، راجع: محمد مصطفى زيادة، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي، القاهرة 1954م، عنان، مؤرخو مصر الإسلامية (المترجم).

1411م؛ مدرسة فرج؛ ومدرسة الأمير عبد الغني، 821هـ/ 1418م؛ المؤيد، مارستان 821هـ/ 1418م؛ وجامع 823هـ/ 1420م؛ مدرسة القاضي عبد الباسط 823هـ/ 1420م؛ برسباي، مدرسة 827هـ/ 1424م، خانقاه وضريح 835هـ/ 1432م؛ جامع في الخانقاه 841هـ/ 1437م؛ جامع الأمير جاني بك 830هـ/ 1427م؛ مدرسة الأمير فيروز 830هـ/ 1427م؛ مدرسة الأمير تغري بردي 844هـ/ 1440م؛ جامع الأمير قانيباي 845هـ/ 1441م؛ جامع وقبر القاضي يحيى 848، 850هـ/ 1444، 1446م؛ جامع جقمق 853هـ/ 1449م؛ مدرسة وخانقاه وضريح إينال 855-860هـ/ 1451-1456م؛ ضريح الأمير جاني بك 869هـ/ 1465م؛ جامع الأمير سودون 870هـ/ 1466م تقريبًا؛ مدرسة الأمير قانم 870هـ/ 1466م تقريبًا؛ جامع الأمير تمراز 877هـ/ 1472م؛ جامع الأمير أزبك (إزبك) 880هـ/ 1475م؛ قصر الأمير يشبك 881هـ/ 1476م؛ قايتباي، مدرسة وضريح 879هـ/ 1474م، مدرسة Intra Muros 880هـ/ 1475م، وكالة قرب الأزهر 882هـ/ 1477م، ترميم جسر الجيزة 884هـ/ 1479م، قلعة (برج الظفر) في موقع المنار القديم بالإسكندرية 884هـ/ 1479م، سبيل 884هـ/ 1479م، وكالة قرب باب النصر 885هـ/ 1480م، وكالة في السروجية 885هـ/ 1480م تقريبًا، ضريح الفداوية 886هـ/ 1481م تقريبًا، قصر 890هـ/ 1485م، مكان 890هـ/ 1485م، ترميم البوابات الجنوبية 890هـ/ 1485م، مدرسة في الروضة 896هـ/ 1491م؛ مدرسة الأمير جانم 883هـ/ 1478م؛ مدرسة القاضي أبي بكر بن مزهر 885هـ/ 1480م؛ جامع الأمير قجماس 886هـ/ 1481م؛ مدرسة الأمير أزبك (إزبك) اليوسفي

900هـ/ 1495م؛ قصر الأمير مماي (بيت القاضي) 901هـ/ 1496م؛ قبر الظاهر قانصوه 904هـ/ 1499م؛ جامع الأميرة أصل باي، زوجة قايتباي، في الفيوم 904هـ/ 1499م؛ ضريح العادل طومانباي 907هـ/ 1501م؛ جامع الأمير خاير بك 908هـ/ 1502م؛ مدرسة قاني باي أمير أخور 909هـ/ 1503م؛ قانصوه الغوري، مدرسة 909هـ/ 1503م، ضريح 910هـ/ 1504م، ترميم قناطر المياه الواصلة للقلعة 912هـ/ 1506م تقريبًا، جامع قرب القلعة 916هـ/ 1510م، بوابات خان الخليلي - أضرحة طرا باي، رزملك، سودون 910 - 911هـ/ 1504- 1505م؛ مدرسة قاني باي قاره 912هـ/ 1506م.

النقوش في مصر: على الآثار المذكورة أعلاه؛ وعلى شمسية بجامع قُوصون 785هـ/ 1383م؛ مرسوم لقانتمر في ضريح قلاوون 791هـ/ 1389م؛ نقش برقوق في القلعة 791هـ/ 1389م؛ عبد العزيز بضريح فرج 808 ، 809هـ/ 1405، 1406م؛ صك وقف بمدرسة برسباي 827هـ/ 1424م، وخانقاه 834هـ/ 1431م؛ لوحة سبيل برسباي في مجموعة Schefer 836هـ/ 1433م؛ جقمق في الفيوم 845هـ/ 1441م، وفي القلعة 852هـ/ 1448م، وفي مدرسة برقوق؛ السلطان حسن في جامع المؤيد؛ شمسية في مدرسة إينال 870هـ/ 1466م؛ نقش ضريح للأميرة شقرا ابنة فرج في ضريحه 887هـ/ 1482م؛ نقش لقايتباي في نفس المكان 888هـ/ 1483م، وفي الأزهر 874هـ، 900هـ/ 1469م، 1495م؛ طومانباي في القلعة 907هـ/ 1501م؛ الغوري على قلعة قايتباي في الإسكندرية 907هـ/ 1501م، في الأزهر. (M. van Berchem, Corp. Inscr. Arab., iii., Proof Sheets).

النقوش في الشـام: برقوق في قبـة الصخرة وعلى خان بالقدس، وعلى الجامـع الكبير بغـزة وبعلبك، الأكروبوْل ببعلبك، قلعـة حلب؛ المؤيد في جامع بغزة، وعلى سور ومارستان حلب، ورواق بالجامع الكبير في دمشق ومسجده ذاته؛ أحمد، مرسوم في الحرم، وبيت المقدس؛ برسباي، مراسيم في قبة الصخرة، والقدس، وفي الجامع الكبير في دمشق وطرابلس، وعلى قلعة شيزر، ونقش على جسر في شيزر؛ جقمق، نقش في مدرسته بدمشق، مراسـيم علـى دير أرمنـي، وفي بيت المقـدس، وفي الحرم، وفـي الجامع الكبيـر بدمشـق؛ إينـال، مراسـيم فـي الجامع الكبيـر بدمشـق، وطرابلس، وبعلبك؛ خُشـقَدَم، على قلعة دمشـق؛ قايتباي، نقوش ومراسيم عديدة في القدس، وفي الجامع الكبير بدمشق، وطرابلس، وبعلبك، وحماة، والعديد مـن النقوش على قلعـة حلب؛ محمد بـن قايتباي، نقش على قلعة دمشـق وفي الجامع غزة الكبير؛ العادل طومانباي، العديد من المراسيم في دمشق (MSS. Notes of M. van Berchem).

عملات: (انظـر هامـش كل حكـم)، شـارات نَبَّالَـة، مصابيـح زجاجية مطلية، أطباق وآنية أخرى، إلخ.

اختلفت السـلالة الحاكمة الثانية من سـلاطين المماليك عن السـلالة الأولـى، خصوصًا من حيث العِرق[1]، فضـلًا عن غياب أي وراثة للحكم،

(1) كان سقوط دولة المماليك الأولى وتأسيس بيت جديد يلي الحكم في مصر نتيجة مباشرة لاستفحال عنصر جديد هو العنصر الجركسي، الذي يعتبر فرعًا من الجنس التركي العام المنتشر في وسط آسيا، موطنه الأصلي هو المرتفعات الجنوبية من بلاد القفجاق (القوقاز) بين البحر الأسود وبحر قزوين، هكذا وقع السلطان قلاوون في خطأ سلفه الصالح نجم الدين أيوب عندما أراد أن يستكثر من الأتباع حتى يضمن =

= المنعة والقوة، وكان اختياره على الأرجح للعنصر الجركسي نتيجة طبيعية لما كانت عليه علاقة المماليك بمغول القبيلة الذهبية منذ عصر الظاهر بيبرس، الذين كانوا يسيطرون على منطقة القوقاز، من هنا ركز السلطان قلاوون على العنصر الجركسي في تكوينه لفرقة جديدة من الجند أسكنهم بجواره في أبراج القلعة وأطلق عليهم (المماليك البرجية)، وحرص على عدم اختلاطهم بطوائف المماليك الأخرى، وهذا في الغالب ما أحدث العنصرية التي أدت إلى محاولة استئثار هذا العنصر بالسلطة دون غيره، وقد استمر بعض خلفائه في الاعتماد على ذلك العنصر حتى استفحل أمره وصار له الخطوة التي أحدثت حقدًا ضده من الطوائف الأخرى للمماليك، وقد وصل خطرهم إلى ذروته في عصر الناصر محمد بعد أن أصبح كثير منهم أمراء، حتى استطاع أحدهم لأول مرة أن يصير سلطانًا وهو الأمير بيبرس الجاشنكير، الذي ولى السلطنة بعد عزل الناصر محمد للمرة الثانية عام 709هـ/ 1309م، إلا أنه لم يستمر في السلطة إلا بضعة أشهر رفع فيها مماليكه الجراكسة إلى الصفوف الأولى، فقويت شوكة الجراكسة في مصر ودب بينهم وبين الترك بزعامة الأمير سلار الكثير من المنافسة والمقارعة، حتى عاد السلطان الناصر محمد إلى السلطة للمرة الثالثة فشعر بخطرهم وحاول القضاء عليهم، وشرع في زيادة عدد مماليكه الترك لمواجهتهم، وبالفعل استطاع الناصر بقوة شكيمته أن يرجع نفوذ الترك إلى سابق عهده وأن يحد من نفوذ الجراكسة، إلا أن خلفاء الناصر محمد لم يكن لديهم هذه الهمة أو لم يلتفتوا إلى خطرهم كما فعل هو؛ لذا تحينوا الفرصة من جديد بعد ما واجهوه من التنكيل والتضييق، وتسارعت الأحداث بعد ذلك واشتد التنافس حتى استطاع الجراكسة أن يستأثروا بالسلطة نهائيًا بعد مؤامرة دبروها لقتل الأشرف شعبان عام 778هـ والتي تزعمها الأمير برقوق الجركسي مؤسس دولة المماليك الثانية، راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، ج1/ ص 800: 875، حياة الحجي، العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، أحمد عبد الكريم سليمان، العنصرية وأثرها في الجيش المملوكي، سعيد غاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة 1994م، ص 144: 146، 181، حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة 1966م، ص 59، 60 (المترجم).

كما كان الحال في أسرة قلاوون، السلالة الحاكمة السابقة. كان السلاطين البرجية جميعهم جراكسة من حيث العرق، باستثناء اثنين (خُشقَدَم وتمربُغا) كانا من أصل يوناني؛ ولم يقدر أي منهما على إرساء مبدأ الوراثة في عائلته. كان هؤلاء السلاطين في الواقع رؤساء للمماليك أو أمراء كبار أكثر من كونهم ملوكًا بكامل المعنى المفهوم في الشرق. لم يكن السلطان الجركسي إلا الأول بين أقرانه Primus Inter Pares، يتم اختياره بواسطة رفاقه من المماليك، وتعتمد درجة قوته على مهارته في إدارة الأوليغاركية (حكم الأقلية) العسكرية التي تعد السلطة الحقيقية في المملكة. وكان نجاحه أو إخفاقه يرجع إلى مدى لباقته أو دبلوماسيته، وبشكل أكبر إلى تسامحه، هذا فضلًا عن الانقسامات العديدة بين فصائل المماليك. كان أتباع كل سلطان يشكلون بعد وفاته فريقًا مستقلًا، يطلق عليه اسم منسوب إلى ذلك السلطان (كالأشرفية، الناصرية، المؤيدية، الظاهرية)، يتحرك بروح قوية وعزم على الفوز والاحتفاظ بكل ما أمكن من السلطة والثروة. كان من الممكن لأحد الأمراء من خلال المناورة مع هذه الفرق، وتشكيل تحالفات أو إزكاء مشاعر الغيرة، أو عن طريق المكائد والرشاوى، أن يوجِد الوسيلة حتى يكون سلطانًا مختارًا؛ لكن عندما يرتقي العرش، يجد نفسه أفضل قليلًا من كونه ممثلًا لمن اختاروه من المماليك المتمردين، الذين نادرًا ما استطاع الحفاظ على درجة انضباطهم. وإذا شغل العرش حتى وفاته، عادة ما كان يخلفه ابنه لبضعة أشهر؛ ليكون بمثابة حاجز فاصل بين طموحات الأمراء المتنافسين، أكثر من مراعاة تقاليد وراثية تتصل بعصر سابق. هكذا يحتفظ الابن بالعرش دافئًا، بينما يتقاتل قادة الأمراء من أجل

خلافة الحكم؛ وعندما يربح الرجل الأفضل، يتم التخلص من تلك الفئة. كانت القاعدة بعدها إما أن يتم وضعه في أحد السجون معززًا مكرمًا، أو يُسمح له بالعيش حرًّا دون تحفظ فى إحدى المدن المصرية، ونادرًا ما تم قتله على ما كان جاريًا في النمط القديم. من بين ثلاثة وعشرين سلطانًا شكَّل حكم ستة منهم حوالي مائة وثلاثة أعوام من مجموع مائة وأربعة وثلاثين عامًا، وبلغ حكم تسعة منهم هم: برقوق، فرج، شيخ، برسباي، جقمق، إينال، خشقدم، قايتباي، وقانصوه الغوري، مائة وخمسة وعشرين عامًا، تاركين تسعة أعوام فحسب للأربعة عشر سلطانًا الباقين.

إن التاريخ يتمحور فقط حول التسعة سلاطين المذكورين، أما البقية فلا أهمية لهم، كان أولئك التسعة جديرين بالذكر، كما يدل على ذلك ضمنًا نجاحهم في الفوز والاحتفاظ بسلطتهم لثمانية أو لستة عشر، أو حتى لستة وعشرين عامًا. لم تكن قدراتهم عادية، تلك التي أدت إلى الاحتفاظ ولو حتى بسلطة جزئية على الأمراء المتنافسين والمماليك مثيري الفتنة لأي فترة من الزمن، ومع ذلك فنادرًا ما كانت قدراتهم تعادل قدرات السلطان المقاتل. كثيرًا ما شقوا طريقهم إلى العرش قتالًا فوق جثامين منافسيهم، لكن بعد وصولهم إلى هناك نادرًا ما قادوا جيوشهم في ساحة المعارك، وربما كان فرج هو السلطان الجركسي الوحيد الذي كان قائدًا حربيًّا بارزًا. كان العديد منهم - مثل برقوق، شيخ، جقمق، قايتباي، بجانب مَن حكموا لمدة قصيرة مثل ططر وتمربُغا - مولعين كثيرًا بالأدب ومجتمع العلماء؛ وكانوا مسلمين صارمين، بل وأحيانًا متشددين، ومازالت تُقَدم العديد من أوقافهم الدينية، فضلًا عن المساجد والمجموعات والمارستانات

والمدارس دليل بليغ على نقاء جمالياتهم. ولعل القصد من الصياغة المكلفة لمثل تلك الجواهر المعمارية الرائعة التي تماثل جامعي بَرْقُوق وقايتباي، هو التكفير عن الكثير من الأعمال الوحشية والظلم التي عادة ما كان يقترفها السلاطين الجراكسة. فعلى سبيل المثال جعل برقوق غريمه منطاش، «يخضع للمساءلة» حتى يبوح بمكان ثروته الخفية، وأثناء ذلك كُسِرَت أوصال الأمير البائس واحدة تلو الأخرى، وتم تعذيبه بواسطة النار وبكل براعة جهنمية، لكن دون جدوى؛ وفي النهاية وُضِعَ حد لمعاناته؛ حيث عُرض رأسه على رمح خلال المدن السورية؛ ومن ثمّ على باب زويلة بالقاهرة. تم صلب متآمرين آخرين على سروج الجمال وطيف بهم في الشوارع حتى وفاتهم. في مقابل مثل هذه الأعمال تضاءلت للغاية مدرسة برقوق الجميلة وضريحه الشهير على كونها تكفيرًا. لقد كانت قسوته مثالًا احتُذِيّ به من قِبَل خلفائه.

لقد عانت مصر بالفعل تحت حكمهم بشكل خطير، فقد فَرضت النزاعات الدائمة لفرق المماليك المتناحرة، وقتال الشوارع، فضلًا عن إطلاق العنان للجُنْد، عهدًا من الإرهاب. بالطبع لم يكن لدى المماليك أي شعور بالجماهير المنكوبة. لقد كانوا جميعًا من الأجانب، على الرغم من أنهم لم يكونوا جراكسة بالضرورة، فبعد مؤامرة من قبل الجراكسة من أتباع بَرْقُوق، بدأ في تجنيد المماليك من طوائف الرقيق اليونانيين والأتراك والمغول. يمكن تقدير تعداد أولئك المرتزقة المُفسدِين من أن برقوق نفسه قد اشترى منهم خمسة آلاف؛ وحين قُمِعَت ثورة للبدو والفلاحين في مصر العليا والسفلى بواسطة سبعة آلاف مملوكي انطلقوا في أنحاء البلاد، يمكن تخيل قدر الترويع الذي تسببت فيه تلك العملية.

بلـغ السـوء بالجنـود أنه حتى تحـت حكم برسـباي، أقوى السـلاطين الجراكسـة، كان مـن المسـتحيل السـماح للنسـاء بالظهـور في الشـوارع، فقـد حُظِرَت مواكب العُرْس، وتم إعادة النسـاء بالقـوة إذا حاولن الذهاب لحضـور جنـازات أو لزيارة قبور موتاهم. وكثيرًا لـم يجرؤ الفلاحون على جلـب محاصيلهـم وماشـيتهم الريفيـة إلى أسـواق القاهرة، خشـية أن يتم الاسـتيلاء عليها بواسـطة المماليك، أو أن تؤخذ بواسـطة الحكومة بسـعر إلزامـي لإمـداد القصـر، الذي تَطَلـب في زمن برسـباي ألفًـا ومائتي رطل إنجليزي من اللحوم يوميًّا. كانت الحكومة فاسـدة وغير فعَّالة؛ لذا سـرت العدالة على مَن يدفع أكثر. فخلال حكم المؤيد، سَرَقَ شيخ الإسلام ذاته، رأس القانـون، أمـوال الائتمـان[1]، فقد كان فارسـيًّا من هـراة، لا يتحدث العربيـة؛ تـم طرده بعـد أن فُضِحَ جهله فـي مناظرة عامة في جامع المؤيد. وفي الإسـكندرية في نفس ذاك الوقت تقريبًـا انتزع مجموعة من الصيادين القانون بأيديهم من مضطهديهم، مثلما فعل رجال جريكو Jericho، الذين طافـوا به الشـوارع على ظهر جمل، يُرافقـه المغنيون والعازفـون؛ ومن ثمّ قامـوا بقتله. لقد جعلوا الحاكم نفسـه يقف عاريًا أمـام القاضي، ثم ضربوه حتى الموت. إلا أن تنفيذ مثل هذا الإعدام دون محاكمة قانونية كان نادرًا، أما القاعدة فكانت إجبار الناس على المعاناة دون تعويض أو انتقام. وكثيرًا ما كانت البلاد في ثورة، خاصة حيث اسـتقرت القبائل البدوية، وحين دُفِعَ الناس إلى اليـأس بالضرائب الجائرة والتجنيد للحروب، والفوضى العامة

(1) هي الأموال أو الملكية الأخرى التي يديرها شخص أو مجموعة لصالح شخص آخر أو مجموعة، ويطلق أيضًا هذا المصطلح على رأس المال الأصلي (المترجم).

وانعدام الأمن في الأرواح والممتلكات، وكثيرًا ما تفاقم ذلك بسبب الوباء والمجاعة؛ لكن الثورات أدت فقط إلى معاناة أسوأ، وأعمال انتقامية قاسية، وقضاء دموي على التحريض على الفتنة بواسطة المماليك المعاندين. قيل إنه انخفض عدد السكان في عصر فرج إلى ثلث عدده الاعتيادي.

كان السلاطين عاجزين بالفعل عن السيطرة حتى على حرسهم. ظهرت بعض أسوأ التجاوزات المشار إليها تحت حكم المؤيد شيخ، الذي كان رجلًا ورِعًا وعالمًا، ومُوسيقِيًّا بارعًا وشاعرًا وخطيبًا، صارمًا فيما يخص التقيد بقواعد دينه، بسيط للغاية ومتواضع في ملبسه وطريقة حياته، مؤديًا الفروض الدينية كمسلم بسيط بين جماعة المصلين، مرتديًا الصوف الأبيض الشائع في الصباح بسبب الوباء الذي أحال الأرض خرابًا. لقد أنفق القليل على نفسه، إلا أنه أنفق أربعمائة ألف دينار على الجامع الذي بناه في الموضع الذي عانى فيه من الأسر؛ وقد أظهر المارستان وغيره من المؤسسات نشاطه الخيري. لكن برغم كل هذا، لم يكن له أي سيطرة على الوزراء أو عامة الناس، ورغم أنه قام بجلد الظالمين إلا أنه لم يستطع حماية المظلومين. نُسِيَت أعماله التي تنم عن التقوى في خضم تَرَدُّده، وطَغى إخفاق تجاربه على فضائله؛ وحين مات عن عمر يناهز اثنين وخمسين عامًا، رغم أنه كان هناك أكثر من مليون دينار في خزانته، إلا أنه دُفِنَ دون كفن أو مشيعين، ودون حتى مِنْشَفَة لغسل الجثة. لقد حجب التوق لخلافته أي اعتناء بالمتوفى.

أقرَّ سلطان لاحق هو خُشقَدَم - الذي ينتمي لعِرْق يتصل بيوناني العصور الوسطى - صراحة باستحالة كبحه لخَدَمه أنفسهم؛ لذا حوَّلَ فسادهم

وعنفهم لمصلحته الشخصية. لقد حرَّضَ فصيل ضد آخر، الظاهرية ضد الأشرفية، أو الناصرية ضد المؤيدية، حسبما يستدعي الموقف، وهكذا أبطل قوتهم، وترك ساحة القتال حرة لفجور المشاغبين من مماليكه، الذين قَتلوا وسلبوا ونهبوا كما يحلو لهم. عَلِمَ هذا اليوناني الماكر كيفية الاستفادة من الثروة المترتبة على الإثم لأقصى درجة. لقد بيعت المناصب الرسمية على نحو صريح؛ فقد دَفع حاكم طَرابُلُس خمسة وأربعين ألف دينار ليتم ترقيته إلى دِمَشْق، وتم شراء منصبه الشاغر بواسطة أمير آخر في مقابل عشرة آلاف دينار، في حين بيع المنصب في صَفْد في مقابل مبلغ بخس هو أربعة آلاف دينار. بل والأسوأ أن خُشقَدَم أخذ الرشاوى من المماليك في مقابل تعذيب وقتل خصومهم الشخصيين، هكذا جُلد وعُذب وزير لم يحظ بشعبية، وأخيرًا أُعدِمَ دون محاكمة، بعد أن رشى أعداؤه السلطان بمبلغ خمسة وسبعين ألف دينار. لقد جعلهم يدفعون بلا ريب مقابل متعتهم. وحين يعوزه المال، كان يقوم بزيارة لأحد النبلاء الموسرين في الدولة، وقبل أن تنتهي الزيارة بصورة رسمية يتم سلب المُضِيف التعس.

على الرغم من التحريض على العصيان والتآمر والثورة، وبرغم الحروب الأهلية المتكررة، والانشقاقات المتواصلة، والفساد الذي لا يُقهر، فمن الجلي أن سلاطين الجراكسة ومماليكهم ملكوا قدرة المحافظة على الذات، وعَلِمُوا كيفية حصر نزاعاتهم بين أنفسهم دون أن يفسحوا مجالاً للغرباء. وبقدر ما كان حكمهم شائنًا، وكانت غيرتهم المتبادلة انتحارية على ما يبدو، فقد كانوا جنودًا رائعين، وبالتالي لم يستمروا فقط في السيطرة على مِصْر وعموم الشَّام لقرن وثلث من الزمان، بل أيضًا هَزموا فيما يبدو

غـزوًا سـاحقًا وعـدة اعتـداءات أخرى بسـيطة. حيـن كانت آسـيا بأكملها ترتجـف من صدمة غزوات تيمـور[1] الهائلة، تحـداه مماليك مصر وقاموا بهزيمتـه، علـى الرغم مـن أن الموقف السياسـي في وقت اقترابـه كان غير مواتٍ لمقاومة صلبة. لقد قام بَرْقُوق[2]، أول السـلاطين الجراكسـة، فعليًّا بخلع الطفل حاجي، آخر سـلالة المماليك البحرية، دون صعوبة؛ ومن ثَمّ تم قبوله كسلطان في جميع أنحاء مصر والشام. لكن بعد عام لاحق هز من سـلطته مؤامرة سـعت لتنصيب الخليفة المتوكل مكانه، ورغم أن المؤامرة قُمِعَـت بقسـوة شـديدة، إلا أنه سـرعان ما ازداد السـخط الذي انتشـر إلى شـمال سوريا. هَزَمَ المتمردون – الذين يقودهم منطاش ويلبغا، حاكما كل

(1) هو تيمورلنك (737- 807هـ / 1336 - 1405م)، القائد المغولي وأحد أشهر الغزاة في التاريخ، ولد جنوبي سمرقند (أوزباكستان الحالية)، من سلالة الإمبراطور جنكيز خان إلا أنه كان مسلمًا، قام بإحياء غزوات المغول المدمرة في منتصف القرن الرابع عشر بعد ما يقرب من قرن على خمودها، فبدأ بالتوسع من سمرقند حيث استطاع الاستيلاء على خوارزم ثم خراسان وباكستان وأفغانستان وأذربيجان وفارس، وواصل سيره إلى العراق وديار بكر وأرمينية وجورجيا، ثم اتجه إلى الشرق مرة أخرى فاحتل دلهي ودمرها، وبعدها رجع للسيطرة على الشرق الأدنى فاحتل بلاد الشام وآسيا الصغرى، وما لبث أن مات بعد ذلك بقليل أثناء غزوه للصين عام 1405م، بعد أن دانت له البلاد من دلهي إلى دمشق، وبعد وفاته تم تقسيم إمبراطوريته بين أبنائه، راجع: ابن عربشاه، عجائب المقدور في أخبار تيمور، طبعة كلكته 1299هـ عنان، تراجم إسلامية، ص 116: 124 (المترجم).

(2) راجع عنه: المقريزي، السلوك، ج5/ ص 141: 230، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج11/ ص 181 وما يليها، السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل – بيروت، ج3/ ص 11، فيصل حبطوش، أعلام الشراكسة، عمان – الأردن 2007م (المترجم).

من ملطية وحلب، بدعم من المغول والتركمان على الحدود الشمالية- الجيش المصري قرب دمشق هزيمة منكرة، ودخلوا العاصمة السورية، وزحفوا نحو القاهرة حيث برقوق، الذي أخذ في البكاء ملتجئًا إلى محل حياكة، بعد أن خسر كل قوة إرادته، وبعد أن ألغى جميع الضرائب، وقام بتسليح السكان، وسد الشوارع بالمتاريس، وحصَّن القلعة.





شكل (78) شعار أحد الأمراء مطعم بالعاج والأخشاب الملونة. شكل (79) دينار برقوق، حلب، 1385م.

هكذا قام الثوار بنهب القاهرة، وأعادوا تثبيت الصبي حاجي على العرش بشكل رمزي؛ بعدها تنازعوا فيما بينهم؛ حيث قَصف منطاش ويلبغا كل منهما الآخر، من أعلى جامع السلطان حسن وشرفات القلعة المقابلة له، ومهدوا الطريق للثورة المضادة التي كان برقوق يعمل على إعدادها في سوريا. لقد جمع جيشًا بعد فراره من حِصن الكرك؛ حيث أحبط الثوار قرب صَرْخَد، وأخذ كل من حاجي والخليفة أسيرين؛ ومن ثمّ دخل القاهرة منتصرًا؛ حيث خرجت الحامية والناس للترحيب به، اليهود يحملون توراتهم والنصارى يحملون أناجيلهم؛ وأُشعِلَت الشموع وبُسِطَ السجاد تكريمًا له. هكذا عُزِلَ السلطان الصغير حاجي للمرة الثانية،

لكن سُمِحَ له أن يعيش براحته في القلعة حتى وفاته عام 815هـ/ 1412م، برغم العناء الذي سببته وحشيته الشديدة لجواريه من النساء، فقد حاول أن يغمر صرخاتهن في صخب الأغاني والمرح. لقد انشغل العامين التاليين في إخضاع الثوار بقيادة منطاش في الشام، وبمجرد أن أتم ذلك هَدد غزو تيمور الأفق. لقد أخذ الغازي بَغْداد في شوال 795هـ/ أغسطس 1393م، واجتاح بلاد العراق في 796هـ/ 1394م، مُلحقًا أقاليم تعترف بسيادة بَرْقوق (مثل ماردين)، وهكذا دخل في نزاع مباشر مع مِصْر.





شكل (80) منبر جامع وقبة فرج بن برقوق خارج القاهرة، 1401 – 1411م.
شكل (81) مشكاة باسم برقوق بمتحف القاهرة

لم يكن برقوق مغامرًا شجاعًا، وعاش في خوف من الاغتيال، لكنه أظهر للغازي جبهة قوية. لقد انضم لأمراء الشمال – بُرْهَان الدّين أمير

سيواس، وقره يوسف رئيس تركمان الشاة السوداء[1]، وتوقتامش خان القبيلة الذهبية، وبايزيد السلطان العثماني – في حِلف مقاومة عام. حين أرسل تيمور سفارة للقاهرة، بزعم بدء مفاوضات للسلام، قام برقوق بإعدام المبعوث، لشكه في دوافعه. علاوة على ذلك، ومن أجل إظهار تعاطفه مع ضحايا عُدْوان تيمور، فقد دعا سلطان بغداد المطرود أحمد جلاير، إلى القاهرة، واستقبله بتكريم خاص. وردًّا على رسالة تهديدية من تيمور، استخدم برقوق لغة متغطرسة وقارن بازدراء بين أسلوب نائب الغازي المنمق والعزف السيئ. احتشد جيش مصر في قوة عظيمة وزحف

---

(1) تكونت دولتان تركمانيتان في جنوب شرق الأناضول في منتصف القرن الرابع عشر، هما دولة الشاة البيضاء (الآق قيونلية)، ودولة الشاة السوداء (القرا قيونلية)، تركزت الأولى في ديار بكر وما حولها، واستوطنت الأخرى شمال بحيرة وان، وقد كثر النزاع بين الدولتين نتيجة لأن الأولى كانت سنية والثانية شيعية، وقد تغلب مؤسس دولة الآق قيونلية (قره بولاق عثمان) على (قره محمد) زعيم دولة القراقيونلية عام 791هـ/ 1389م في المناوشات العديدة التي قامت بينهما، وعندما تحرك تيمور لغزو الأناضول ساعده قره بولاق واشترك معه في معاركه في الأناضول عام 804هـ/ 1402م، فعينه تيمور حاكمًا على ديار بكر بعد انتصاره. ظل النزاع قائمًا بين الدولتين التركمانيتين إلى أن تولى حكم الآق قيونلية، أوزون حسن (حسن الطويل) (857 – 882هـ/ 1453 – 1478م)، فاستطاع أن يقضي على آخر حكام القراقيونلية ويدعى حسن علي، ويضم دولته إليه عام 873هـ/ 1469م، وظل أوزون حسن يوسع أملاك دولته حتى شملت أجزاء من شمال العراق وبلاد فارس وأرمينية، حتى هاجم السلطان العثماني محمد الفاتح أوزون حسن عام 878هـ/ 1473م وهزمه هزيمة منكرة، وآلت بعد ذلك الدولة إلى الضعف حتى استطاع إسماعيل الصفوي القضاء عليها تمامًا عام 907هـ/ 1502م، انظر: أحمد فؤاد متولي، الفتح العثماني للشام ومصر، القاهرة 1995م، ص 76، 77 (المترجم).

عبر دمشـق إلـى حلب والبيرة الواقعـة على نهر الفـرات، إلا أن تيمور كان آنذاك منشـغلًا تمامًا في نزاع مع توقتامش في جورجيا، وتم تأجيل الأزمة. تـم تجنب غزو الشـام إلى حين؛ ومن ثمّ مات برقـوق دون قتال مع العدو؛ حيـث كان راضيًـا تمامًـا برؤيتـه الهجوم علـى حلفائه، فقـد كان خوفه من القوة الصاعدة للعثمانيين أكبر بكثير من خوفه من تيمور. مات برقوق فوق الستين عامًا، وحكم مصر عمليًا منذ 780هـ/ 1378م، في حصافة واعتدال علـى وجه الإجمـال، برغم بعض الإعدامات الوحشـية. قـام بإلغاء بعض الضرائـب الشـاقة، وكان محبًـا للتعلم، ومشـيدًا عظيمًا. تم تشـييد جامعه وضريحـه، فضـلًا عن قبتين، في المدفن الشـرقي خارج القاهرة، بواسـطة ابنـه فـرج (الذي دُفِنَ هنـاك أيضًا)، لكـن ترجع المدرسـة الجميلة في بين القصريـن - والتـي رممت مؤخـرًا بواسـطة م. هيرتز بك - إلى السـنوات الأولى من حكمه، وتشهد على ذوقه في الفن وحماسته للتعليم الديني.

من أبناء برقوق الثلاثة نجح أكبرهم سنًّا، وهو الناصر فرج، في الوصول إلى العرش. كانت أمه يونانية، وكان اسـمه الأصلي بُلغك أي «نكبة»؛ لأنه وُلِدَ أثناء ثورة منطاش، لكنه غُيّر بعد ذلك إلى «فرج» بعد انتصار برقوق على الثوار. بلغ فرج من العمر ثلاثة عشر عامًا فقط، لكنه لـم يمسك طويلًا بزمام القيـادة، فبحلول نهاية عـام 1400م الموافقة لعام 803هـ توجه إلى الشـام على رأس جيش مصري عظيم، يسعى جاهدًا لكبح التقدم الجديد لتيمور، الذي نهب حلب وهدد دمشـق. في البداية بدا أن المصريين يَرُدُّون الغزاة، إلا أن الانسـحاب كان إسـتراتيجيًا على الأرجح؛ لأنه حين قام المصريون بالهجـوم تم صدُّهُـم بقوة، وحين وجد فـرج أن الهزيمة ولَّـدت الفتنة بين

أمرائه، الذين رغبوا طبيعيًا في قائد أكثر خبرة في مثل تلك الأزمة، انسحب على عجل إلى القاهرة، تاركًا الجيش لمصيره. هكذا استسلمت دمشق بشروط، لكنها برغم ذلك نُهِبَت وخُرِّبَت وأُحرِقَت على يد التتار الذين لا يرحمون، ودُمِّرَ شمال سوريا بالكامل بمنتهى القسوة. وبعد حملة تيمور المنتصرة في آسيا الصغرى، والهزيمة الساحقة للجيش العثماني في معركة أَنْقَرة Angora[1]، وافق فرج على الشروط التي طلبها مبعوثو تيمور؛ حيث قام بتسليم الأسرى، ووافق حتى على ضرب النقود باسم الغازي. رغم

(1) كانت معركة أنقرة يوم الأربعاء 27 من ذي الحجة سنة 804هـ/ 28 يوليه سنة 1402م، من المعارك الكبرى في التاريخ، فقد تحدثت الروايات المعاصرة أن جيش التتار قد بلغ يومئذ زهاء ثمانمائة ألف مقاتل، بينما بلغ الجيش التركي زهاء أربعمائة ألف، إلا أن الجيش العثماني وعلى رأسه السلطان بايزيد الأول يلدرم (791 – 804هـ/ 1389 – 1402م)، كان متفوقًا على التتار بنظامه وبفرق الإنكشارية الشجاعة، وكان جيش التتار متفوقا في روحه المعنوية نظرًا لانتصاراته المتوالية التي احرزها بين السند والأناضول، وفي النهاية انتهت المعركة بانهزام الجيش العثماني وأسر السلطان بايزيد الذي مات في الأسر عام 805هـ/ 1403م، تفككت بعدها أراضي الدولة العثمانية في الأناضول، حيث أعاد تيمور أمراء السلاجقة السابقين إلى إماراتهم، لكنه أبقى الروم إيلي – وهو الجناح الأوروبي من الدولة – للعثمانيين، والتي آلت إلى سليمان ابن بايزيد، الذي اضطر أن يعترف بسلطة تيمور، وبعد أن عاود تيمور أدراجه لفتح الصين بدأت الدولة العثمانية تستعيد عافيتها ووحدتها على يد السلطان محمد الأول (816 – 824هـ/ 1413 – 1421م)، انظر عن المعركة: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمد سليمان، إستانبول 1988م، ج1/ ص 110، بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 422، عنان، تراجم إسلامية، ص 120 ، جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، هيئة الكتاب – القاهرة 1992م، ص 188 وما يليها (المترجم).

ذلـك لم يُكشـف عن مثل تلك العملات على الإطـلاق، ولـم يدخل تيمور مصر أبدًا أو يتحكم بها. لقد مات في شعبان 807هـ/ فبراير 1405م، بينما كان فرج يجمع جيشًا جديدًا لمقاومة أي طلبات أخرى.

مع ذلك خسر السـلطان رصيده من خلال تلك الإجراءات، فقد عومل بازدراء خلال صراع من أجل السـلطة بين قيادات المماليك، حتى أنه هُزِمَ فـي المعركة، وانتهى هذا الصراع باختفائه المفاجئ. جلس أخوه المنصور عبد العزيز على العرش الشاغر منذ شهرين تقريبًا، لكن بحلول ذلك الوقت تعافى فرج من ذعره، وتم إعادته مرة أخرى للسلطة بواسطة الأمير يَشْبَك؛ حيث قضى بقية حكمه إلى حد كبير في السـعي لاستعادة النظام في الشام، الذي أصبح ميدانًا للصراع بين الأمراء المتنافسين - وصل بأحدهم الحد، وهو بجكم، بأن لقب نفسـه بالملك العادل - لكن برغم الحملات السـبع أو أكثر الناجحة، ظل الشـام في حالة من الفوضى، وهَددت القوة المتزايدة للأميريـن شَـيْخ المحمـودي ونُوروز في دمشـق عـرش السـلطان. انتهت الحملة السـابعة بعزله بواسـطة الخليفة، واستسـلم فرج لشـيخ في دمشـق بنـاءً علـى وعد بالحفاظ على حياتـه، لكن الخليفة والعلمـاء قضوا بموته، على أسـاس عاداته الماجنة المعروفة عنه. قاوم فرج جلاَّديه دون جدوى؛ وأُلقـي بعدها جثمانه على كومة من الـروث. كان فرج مدمنًا للخمر، يذبح مماليكـه، حتى زوجته المطلقة ذبحها بيديه. أنَّت مصر تحت وطأة ضرائبه ورسومه التي كان يجبيها من أجل الحرب؛ فقد أغار القراصنة الأوروبيون على الإسْـكندرية (805هـ/ 1403م)، وطَرابُلُس الشَّام (806هـ/ 1404م)، وبَيْروت وصَيْدا؛ وتعدى العثمانيون على الحدود الشمالية.

أحدثت فترات الحكم الخمس التالية تغييرًا قليلًا في الموقف، فقد تم تنصيب الخليفة المُسْتَعين[1] كبديل مؤقت، بينما تصارع



شكل (82) دينار فرج، القاهرة، 1407م

شَيْخ ونُوروز لمعرفة الأقوى؛ ومن ثـمّ اعتزل الخليفة طواعية بعد أقل من ستة أشهر، عندما قَبِلَ شَيْخ العرش بلقب المُؤَيَّد. كانت الأحداث الرئيسية في فترة الحكم الجديدة متمثلة في حملتين على الحدود الشمالية؛ بهدف

---

(1) هو المستعين بالله (ت 833هـ/ 1430م)، أبو الفضل العباس بن محمد بن أبي بكر، بويع بالخلافة بمصر بعد وفاة أبيه المتوكل على الله عام 808هـ استقل بالسلطة السياسية بمصرعام 815هـ/ 1412م، وهي المرة الوحيدة في التاريخ المملوكي التي استطاع فيها الخليفة أن يستأثر بالسلطة السياسية في البلاد؛ حيث أفرد بالدعاء على المنابر وضرب اسمه على السكة، وأمسك بيده جميع السلطات، إلا أنه أدرك أن ولايته للبلاد ولاية مؤقتة، أراد بها الأمراء المتصارعون أن تكون وسيلة للتخلص من الصراع على السلطة حتى يستطيع أحد الأمراء الانفراد بحكم البلاد، مع ذلك فقد أدى ذلك الأمر إلى فرح أهل مصر فرحًا شديدًا ظنًا منهم أنهم بذلك قد تخلصوا نهائيًا من حكم المماليك، راجع: المقريزي، السلوك، ج6/ ص 319، السيوطي، حسن المحاضرة، ج2/ ص 86، السخاوي، الضوء اللامع، ج4/ ص 19، أحمد سالم، دراسة لتطور مفهوم الخلافة والسلطة (المترجم)

إجبار الولايات التركمان الحدودية - قَرَمَان[1]، ذو القَدْر[2]، وبنو رمضان[3] - على التبعية. زحف المؤيد عام 821هـ/ 1418م على أَبْلُستَين

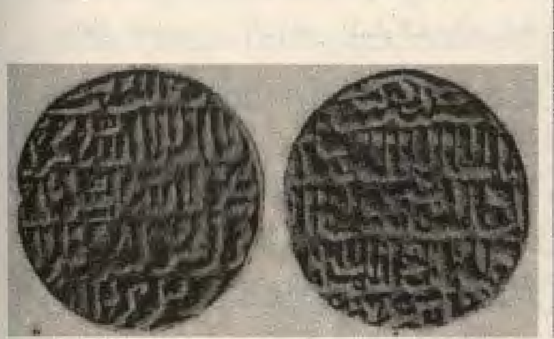
(1) هي أكبر الإمارات التركمانية من حيث المساحة، نشأت عام 648هـ/ 1250م جنوبي الأناضول، أسسها نوري الصوفي الأرمني الذي اعتنق الإسلام، وتوالى على حكمها سلالته من بعده، أصبحت ساحة من ساحات الصراع بين المماليك والعثمانيين حتى قضى عليها السلطان محمد الفاتح وضمها نهائيًّا للدولة العثمانية عام 875هـ/ 1471م (المترجم).

(2) تأسست إمارة ذي القدر على يد زين الدين قراجة بك (ت 754هـ/ 1353م)، وذلك ضمن ممتلكات المماليك عام 740هـ/ 1339م، بعد أن اشترك قراجه بك مع الجيش المملوكي في إحدى المعارك ضد الأرمن وأبلى بلاء حسنًا حاز على إعجاب قائد الجيش، وفي سنة 740هـ/ 1339م استولى على مدينة ألبستين (البستان) واستطاع أن يجعلها مركزًا لإمارته، ثم ضم إليها مرعش فيما بعد، وقد اعترف المماليك بإمارته نظرًا لإخضاعه حاكم آسيا الصغرى المغولي للسلطان الناصر محمد، وقد تمكن ابنه وخليفته خليل بك (ت 788هـ/ 1386م)، من ضم ملطية وخربوت وبهسنا للإمارة، واستمرت بعد ذلك تلك الإمارة في التوسع حتى شملت عينتاب وعزاز من أعمال حلب وبلاد سيس وغيرها من البلدان التي قامت عليها المملكة الأرمينية؛ أي مناطق الحدود بين الدولتين المملوكية والعثمانية، انظر: فؤاد متولي، الفتح العثماني، ص 72، 73، أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1/ ص 77 (المترجم).

(3) كانت إمارة بني رمضان ضمن الإمارات التابعة للمماليك في الأناضول، متخذة من أذنة عاصمة لها، وذلك بعد أن احتل المماليك أذنة عام 761هـ/ 1360م، جعلوا منها دولة حاجزة على حدودهم الشمالية، وعلى الرغم من أن السلطان العثماني بايزيد الثاني تمكن من الاستيلاء على أذنة وطرسوس مرة أو مرتين، إلا أن هذه الإمارة لم تتخل عن ولائها للمماليك، وبعد سقوط الدولة المملوكية ظل بنو رمضان يحكمون الإمارة في إطار الدولة العثمانية حتى ضمت نهائيًّا للأراضي العثمانية عام 1017هـ/ 1608م، انظر: المرجع السابق، متولي، الفتح العثماني، ص 77، 78 (المترجم).

وطَرْسُـوس، وتلقى إذعان الأمراء - حتى أن قرمان قامت بإصدار عملات باسم السلطان المصري - لكن عند رحيله أعاد التركمان احتلال الأراضي التـي أخذهـا كضمـان؛ ووفقًا لهذا تقدّم ابنه شـمالًا عـام 822هـ/ 1419م؛ حيث اسـتولى علـى قَيْصَريـة وقُونيـة Iconium ونجدة، وسـك العملات باسـم المؤيد، وَعيَّن الحكام من بين العائلات التركمانية؛ وضُمت كل من إركلـي Erekli ولارنـدة Larenda (الآن مدينة قرمان) وأَذِنَة وطَرْسُـوس، وهكـذا تم الترحيب بإبراهيم بحماسـة فـي القاهرة، إلا أنه مـات في العام التالي، مُسـمَّمًا (كما كان يشـاع) بواسطة أبيه الغيور. ومع ذلك فقد كسبت مصـر القليل مـن تلك النجاحـات؛ وكان المؤيد عاجزًا عن السـيطرة على المماليـك، وعانـى الناس بصـورة خطيرة. لقد انتهى الحكـم القصير لابنه أحمد تحت وصاية طَطر، وانتهى الحكم الأكثر قصرًا لططر نفسـه، متبوعًا بابنـه محمد لعدة أشـهر تحـت وصاية برسـباي، وانتهى كل ذلـك كما هو معتاد بوصول الوصي نفسه إلى العرش.





شكل (83) نقش للمؤيد بالخط الكوفي. شكل (84) دينار المؤيد، الإسكندرية، 1415م.

حكم الأشـرف برسـباي[1] لأكثر من سـتة عشـر عامًا، ورغم أن حكمه كان جائرًا بصورة استثنائية، وأن مصر قد أنَّت تحت احتكاراته التجارية[2]، وتجـاوزات مماليكه، فضلًا عن نقص المؤن وارتفاع الأسـعار الذي رافق بطبيعـة الحـال الوضع العام من النهب وانعدام الأمـن، إلا أنه لم يكن فقط يتمتع بقدر كاف من القوة لمنع الانتهاكات الواقعة على الأراضي الخاضعة لسـيادته أو الثـورات بداخلهـا، بل لقـد حقق أيضًـا امتدادًا لسـلطته بفتحه لقُبرص[3]. لقد اسـتَخدم القراصنة الذين عجت بهم شواطئ مصر والشام، موانئ قُبرص كقاعدة لهم، رغم أنهم لم يكونوا قبارصة الأصل بالضرورة، وكان من المستحيل القبض عليهم طالما التجأوا إلى هناك. أبحرت القليل

---

(1) راجع عنه: المقريزي، السلوك، ج7/ ص 55 وما يليها، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج14/ ص 78، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة 1984م، ص 255 وما يليها، السخاوي، الضوء اللامع، ج3/ ص 8، سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص 171 (المترجم).

(2) أصدر السلطان برسباي مرسومًا عام 841هـ/ 1438م يحرم به شراء التوابل من غير مخازن السلطان، فتضاعفت أسعار السلع، وكان لذلك أثر سيئ على ترويج البضائع للأوروبيين الذين ضجوا من مغالاة المماليك في احتكارهم للتجارة الشرقية، راجع: سعيد عاشور، التدهور الاقتصادئ في دولة سلاطين المماليك، ضمن كتاب: بحوث ودراسات في العصور الوسطى، بيروت 1977م، ص 351 وما يليها (المترجم).

(3) راجع: المقريزي، السلوك، ج7/ ص 103، أبا المحاسن، النجوم الزاهرة، ج14/ ص 106، السيوطي، غزوات قبرص ورودس، فيينا 1882م، مصطفى زيادة، غزوة المماليك لقبرص، كلية الآداب – جامعة فؤاد الأول، الجزء الأول 1933م، ص 90: 113، سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، القاهرة 2002م، العبادي وسالم، تاريخ البحرية، ج1/ ص 329: 336 (المترجم).

من السفن من بُولاق ودِمْياط وطَرابُلُس مزودة بجند من المتطوعين في صيف 827هـ/ 1424م إلى قُبرص؛ حيث نهبت ليماسول Limasol[1]، وعادت محملة بالأسرى والغنائم. بتشجيع من هذا النجاح، تم إرسال أسطول من أربعين مركبًا شراعيًّا من مصر في العام التالي، حيث استسلمت فاماجوستا[2] Famagusta من قبل حاميتها من جِنْوة، وتم الاستيلاء على لارنكا Laranaca[3] وكذلك ليماسول بعد مقاومة قصيرة، وأحضر أمير البحر المصري جرباش إلى القاهرة بعد انتصاره أكثر من ألف أسير والكثير من الغنائم.[4] لكن برسباي لم يكن يعتزم مثل هذه العودة المتعجلة بل أراد فتحًا دائمًا؛ وفي العام التالي، مع رفضه توسط إمبراطور القُسْطنطينية، أرسل أسطولًا أكبر إلى قُبرص، مزودًا بشكل جزئي بجند من المماليك، لكن كانت قوته الأساسية من المغامرين والبدو المتطوعين. رست القوات الحربية الجديدة في ليماسول، التي سقطت في بضعة أيام رغم تحصيناتها

---

(1) سماها العرب (اللمسون)، وهي ثاني مدن جزيرة قبرص، وتقع في أقصى جنوب الجزيرة (المترجم).

(2) سماها العرب (الماغوصة)، وهي تقع في شمال جزيرة قبرص التابع الآن للسيادة التركية (المترجم).

(3) سماها العرب (لرنقة)، وهي تقع جنوب شرق جزيرة قبرص، وتعتبر ثاني موانئ الجزيرة (المترجم).

(4) يجب أن يسجل للسلطان أنه حينما كان يتم بيع الأسرى بشكل علني، كان يرفض السماح بفصل الآباء والأبناء أو أي أقارب آخرين. لقد ذهبت عائدات البيع إلى خزانة الدولة، بعد أن يتم دفع 5.3 أو 7 دنانير لكل مغامر. ربما يمثل المبلغ المضاعف أجر جندي- فارس.

المجـددة، وزحفـت القـوات نحـو لارنـكا، بمرافقة الأسـطول على طول السـاحل. قَتـل الملـك جيمـس لوزينيـان James of Lusignan الرسـول الذي أُرسِـل إليه لدعوته للاستسـلام، وتقـدم بحرًا وبرًّا فـي مقابلة الغزاة. وفي اشـتباك عند شيروكتيوم Cheirocitium، تخلى القبارصة عن تقدمهم الأول، وعنـد تجديد المعركة من قِبَل المماليك أخذوا الملك والعديد من فرسـانه أسـرى قبل مجيء الأسـطول الصليبي. سـقطت نيقوسيا بعد ذلك مباشـرة؛ ومن ثمّ أُخضعت الجزيرة. احتفلت القاهـرة بعودة الفاتحين بعد حملتهـم القصيرة الحاسـمة، فقد حُمِـلَ تاج قبرص والرايـات الملكية في انتصار عبر الشـوارع، يليها ألفين من الأسـرى. دخل الملك جيمس نفسـه إلـى القلعـة ومَثُلَ في حضرة السـلطان، الذي أحاطه بـلاط رائع فضلًا عن سـفراء الباب العالي العثماني، والأمراء التركمان لآسيا الصغرى، وممثلي القبائل العربية، وشريف مكة، وملك تونس. هكذا قام حاسر الرأس مكبَّلًا بالأصفـاد الحديديـة بتقبيـل الأرض أمام برسـباي، ثم أُغشـي عليه. وعند الضغط عليه من أجل دفع فدية، رد جيمس: «لا أملك شـيئًا سـوى حياتي، والتي يمكن للسـلطان أن يتصرَّف بها كما يشاء». وعند تهديده بالموت لم يظهـر خوفًا، مع ذلك تدخل قنصـل البندقية والتجار الأوروبيون، وضمنوا دفع فدية قدرها مائة ألف دينار، ومبلغ مماثل بعد العودة إلى قبرص؛ هكذا نـال الملـك حريته، وسُـمِحَ له بمنـزل ومؤونة مناسـبة. لقـد امتطى خلال العاصمة جوادًا مغطى بثياب رائعة، زار الأسـواق والكنائس، وأخيرًا غادر مصر مع سفراء رودس الذين أتوا ليعقدوا معاهدة مع السلطان العظيم الذي

تجاسر بوضع يده على قبرص. كان ينبغي دفع جزية سنوية، لا نستطيع التأكد من مبلغها، لكنها لم تتجاوز على الأرجح مبلغ خمسة آلاف إلى ثمانية آلاف دوكة، بواسطة الملك بوصفه تابعًا لمصر.

استمرت قبرص في تبعيتها لمصر حتى نهاية حكم الدولة المملوكية. قام جون الثاني حين خَلَفَ جيمس عام 835هـ/ 1432م بتجديد عهود خلفه، وفي خطاب من السلطان إينال إلى جون[1] جاء شكره على الأفراح التي أقيمت في قبرص بسبب تنصيب الحاكم الجديد على عرش مصر، وإعفائه من متأخرات الجزية. دعَّمَ إينال عند وفاة الملك عام 863هـ/ 1458م، ابن غير شرعي لجون وهو يعقوب Jacob ضد ابنته الشرعية شارلوت Charlotte، زوجة لويس أمير سافوي Louis of Savoy، وأَرسل حملة من أربع وثمانين سفينة إلى قُبرص لتنفذ مطالبه بالقوة. لم تكن الحملة ناجحة للغاية؛ حيث عانى الجُند من الحُمَّى، وتُرِكَ جون مع فرقة مصرية صغيرة وبحوزتهم معظم الجزيرة، في حين قاومت شارلوت في سرينس Ceriunes بدعم من جنوة وفرسان رودس[2]. وقد استبد جاني بك الأبلق

---

(1) ماس لاتري Mas Latrie, Chypre, iii. 73. يضيف إينال أنه كتب إلى السلطان العثماني محمد طالبًا منه أن يأمر القراصنة الأتراك باحترام قبرص. وقد ذكر أيضًا هدية من 400 قطعة للخزينة المصرية، وعشرين تحفة دقيقة الصنع لإينال، ربما كبديل عن الجزية.

(2) هم في الأصل فرسان القديس يوحنا الأرشليمي، وقد بدأت هذه المؤسسة حياتها كمنظمة خيرية دينية، وكان لها في مدينة القدس قبل الحروب الصليبية مأوى لمساعدة المحتاجين، وعندما نشبت الحروب الصليبية تحولت إلى منظمة عسكرية تحت اسم (الاسبتارية)، تم طردهم من القدس إلى عكا بواسطة صلاح الدين، ثم =

والفرقـة المصرية لبعـض الوقت بالملك الجديد، لكـن في النهاية تخلص منهم يعقوب، دون إنكار الجزية والتبعية لخُشقَدَم، سلطان مصر الجديد.

فـي هذا السـياق ربما يمكن إضافـة أن جقمق، قام بمحاولة للاسـتيلاء علـى رودس[1]، فـي ربيـع الأول 844هـ/ أغسـطس 1440م، فـي إطـار المنافسـة لانتصار سـلفه برسـباي في قُبرص؛ حيث أبحرت خمس عشرة سـفينة شـراعية من بُولاق، مزودة بشكل رئيسـي بالجند المتطوعين، وبعد إعـادة تزويدهـا بالمـؤن في قبـرص تقدمت إلى ميناء العلائية الآسـيوي،

= بعد جلاء الحملات الصليبية تم طردهم نهائيًا من الشام عام 1291م، توجهوا بعدها إلى جزيرة قبرص ثم إلى رودس؛ حيث أسسوا مملكة مسيحية تحت رعاية البابا امتد نفوذها ليشمل جزر الدوديكانيز القريبة، فتحولت بذلك طائفة الفرسان إلى عصابة من القراصنة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط تعمل لحساب الصليبية لعرقلة البحرية الإسلامية في المتوسط، تم طردهم من رودس بعد فتحها على يد العثمانيين عام 929هـ/ 1523م، انتقلوا بعدها إلى جزيرة مالطة التابعة لإسبانيا فأطلق عليهم فرسان مالطة، راجع: جوناثان سميث، الاسبتارية: فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص 1050 – 1310م، ترجمة: صبحي الجابي، دمشق 1989م، ص46: 62، عمر محمد الباروني، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي – طرابلس 1953م، ص 75 (المترجم).

(1) راجع: السيوطي، غزوات قبرص ورودس، العباسي، منح البرية في فتح رودس الأبية، تحقيق: فيصل عبد الله الكندي، حوليات كلية الآداب – الكويت، الحولية 18، 1998م، خلف الوزيناني، الفتح العثماني لجزيرة رودس، مكة المكرمة 1997م، مصطفى زيادة، المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، ترجمة: جمال الدين الشيال، مجلة الجيش 1946م، عبد العزيز محمود عبد الدايم، الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك الجراكسة في مياه البحر المتوسط، ضمن كتاب: مصر وعالم البحر المتوسط، القاهرة 1986م، ص 203: 224 (المترجم).

ومن ذلك المكان إلى شاتورو Chateauroux، الجزيرة التابعة لفرسان القديس يوحنا St. John، والتي سقطت على الفور. ومع ذلك فإن رودس كانت مستعدة للهجوم بعد تحذيرها من قِبَل الجواسيس في مصر؛ حيث قام الأسطول التابع لفرسان يوحنا بطرد المصريين الذين تكبدوا خسائر فادحة. تم تجديد المحاولة أكثر من مرة، وفي صفر 848هـ/ يونيو 1444م، أبحرت قوات حربية كبيرة من بُولاق، تحمل ألفًا من مماليك السلطان، بجانب ثمانية عشر ألفًا من المتطوعين والمجندين من طَرابُلُس، نجحوا في الرسو عند رودس، إلا أن المدينة نفسها قاومت كل جهود الاستيلاء عليها، وبعد أربعين يومًا من الحصار عادت الحملة إلى القاهرة في أكتوبر؛ حيث تم توقيع السلام[1].

كان فتح قُبرص هو الإضافة الوحيدة للإمبراطورية المصرية أثناء حكم المماليك الجراكسة. لم يكن ذلك هو العمل الوحيد الذي ميَّز حكم برسباي عن بقية السلالة الحاكمة، فقد كرَّس اهتمامًا خاصًا للتجارة الهندية، واستنبط الوسائل لاقتناص مزيد من الأرباح أكثر من سابقيه[2]. وفي عام 825هـ/ 1422م حدثت انطلاقة جديدة للتجارة حين أبحر أحد قباطنة البحر من كاليكوت Calicut[3] متجاوزًا عَدَن – حيث جعلت ابتزازات بني رسول ملوك اليمن من التجارة الرابحة أمرًا مستحيلًا – إلى جدة، الميناء

---

(1) Vertot, Hist. des Chev. De Malte, ii. 208 ff. ; Mas Latrie, iii. 56, etc.

(2) كان أول مَن أخذ العشر على البضائع الواردة ببندر جدة، راجع: ابن اياس، بدائع الزهور، ج2/ ص 189 (المترجم).

(3) هي مدينة في ولاية كيرالا بجنوب الهند، اشتهرت بإنتاج التوابل في العصور الوسطى؛ لذا كانت مركزًا هامًّا للتجارة بين الشرق والغرب (المترجم)

الخـاص بمكة، وهناك تم خداعه بنفس الطريقة التي كانت متبعة في عدن؛ لذا فقد أبحر في العام التالي متجاوزًا كل من عدن وجدة، وباع بضاعته في دهلك وسواكن. ومع كونه لا يزال غير راض عن تلك الأسواق، فقد اعتزم فـي العـام الثالث الهبوط في ينبـع، ميناء المدينة المنـورة، الذي كان تحت الحكـم المصري؛ حيث قام الموظـف المصري هناك بنصيحة ذلك الربان بالمحاولة في جدة مرة أخرى، ووعد بحمايته من الابتزاز، وبالفعل أصبح في غاية الرضى من هذه المعاملة، حتى أنه في 828هـ/ 1425م نقل حمولة أربعة عشـر مركبًا من البضائع النفيسـة إلى جدة، وفي عام 829هـ/ 1426م جاء إلى هذا الميناء أكثر من أربعين سـفينة مـن الهند وفارس؛ حيث دفعوا رسـومًا بلغـت قيمتها سـبعون ألـف دينار، ولا شـك أن معظمهـا قد وجد طريقـه فـي النهايـة إلى الخزانـة المصرية. مـع عدم رضاهم عـن هذا، فقد سـعى المصريون إلى زيادة أرباحهم بواسـطة رسـوم أخرى متعددة إضافة إلـى العشـر المعتـاد، فبدأت التجـارة في العـودة إلى عدن. عنـد ذلك عاد برسباي إلى ضريبة العشر وحدها على كل ما يتم استيراده من خلال جدة، لكنه ضاعف الرسـوم على كل البضائع المجلوبة من عدن؛ بهدف استعادة التجارة. وتمت مصادرة السلع حتى من أراضي بني رسول، وأُلزِمَ الحجاج بدفع رسوم جمركية على ما جلبوه أثناء عودتهم من مكة.

للأسـف لا توجد إحصاءات جديرة بالثقة لإظهار نتائج هذه السياسـة. لم تكن الرسـوم بأية حال محصورة في موانئ الاسـتيراد، وكان هناك عدد من الاحتـكارات الحكومية؛ لذا كان ينبغي إحضار جميع السـكر والفلفل والخشب والمصنوعات المعدنية وغير ذلك، إلى المستودعات الحكومية؛

حيث تباع بأسعار تحددها الحكومة، وتخضع لدفع الرسوم. لقد تم بيع شحنة من الفلفل ثمنها في القاهرة خمسين دينارًا إلى الأوروبيين في الإسكندرية مقابل مائة وثلاثين دينارًا؛ لذا احتج البنادقة من خلال قنصلهم، ومع عدم حصولهم على تعويض، قاموا بقطع العلاقات، وأرسلوا أسطولًا إلى الإسكندرية لحمل جميع تجارهم. أعاد ذلك التصرف برسباي إلى صوابه؛ حيث مَنح شروطًا أفضل للبندقية، فيما عدا ما يتعلق باحتكاره للفلفل[1]. وقد احتج أيضًا مَلِكَا كلٍّ من قَشتالة وأراجون، وأرسلا سفنًا حربية لأسر سفن الشحن المصرية على سواحل الشام. وبجانب تدخله في التجارة، تدخل برسباي في النقد المتداول، مغيرًا العلاقة بين الذهب والفضة (كانت العملات الفضية مخفَّضَة القيمة بصورة استثنائية تحت حكم سلاطين المماليك)، مُخرِجًا العملة الأجنبية من النقد المتداول؛ ومن ثمّ يعاود الاعتراف بها؛ مما سبب إزعاجًا شديدًا وخسارة للتجار. وتحت حكم جقمق نجد أن الاحتكارات الملكية والرسوم الشاقة لاتزال قوية، إلا أن رسوم الاستيراد من الهند التي تُحَصَّل في جدة ظلت بمقدار العشر. حاول إينال أن يصلح النقد الفضي منخفض القيمة، لكن تغييراته لم تحظ بقبول شعبي. لقد تحول النقد المتداول من سيئ إلى أسوأ، ومع أفول الإمبراطورية المملوكية، والاضطرار للقتال لمجرد البقاء، ازداد ثقل الضرائب أكثر فأكثر.

---

(1) راجع: ناجلا محمد عبد النبي، العلاقات السياسية والاقتصادية بين البندقية ومصر في عصر دولة المماليك الثانية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، 1984م (المترجم).



شكل (85) دينار برسباي، الإسكندرية، 1425م

مات برسباي غير مأسوف عليه، فقد كان حاكمًا صارمًا وظالمًا، ولم يكن الهدوء الخارجي للمملكة دليلًا على ازدهار مماثل. لقد سعد مماليكه بغزوه لقبرص، وأدت احتكاراته إلى ثرائهم، إلا أن الناس عانوا في معيشتهم. صارت مصر والشام في عهده - كما يقول المقريزي - بمثابة صحاري. كان أحد أعماله الأخيرة هو إعدامه لاثنين من الأطباء، لأنهما لم يستطيعا علاجه؛ هذا رغم الاحتجاجات الشديدة من قِبَل الأمراء، الذين كانوا يُجِلونهما. على الرغم من ذلك كان برسباي يحمل طابع المسلم الورع، الذي يصوم مرتين أسبوعيًا، بجانب خمسة أيام أخرى في الشهر، ويسعد لسماع المؤرخ العَيْني[1] يقرأ له بالتركية في

---

(1) هو المؤرخ والفقيه والمحدث الشهير، أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العيني، (ت 855هـ/ 1451م)، ولد في عنتاب بالقرب من حلب عام 762هـ/ 1361م، نشأ في كنف والده القاضي الذي تعهده بالرعاية والتعليم، ثم رحل طلبًا لمزيد من العلم، جاء إلى مصر في عهد الظاهر برقوق، وكانت له حظوة لدى السلطان المؤيد شيخ، لذا ألف كتابه (السيف المهند في سيرة الملك المؤيد)، وفي عهد الظاهر ططر، عظمت مكانة العيني عنده وكان من أثر ذلك تأليف العيني لمصنفه: (الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر)، وكان نديماً للسلطان برسباي لذا قام بتأليف كتابه: (سيرة الأشرف برسباي)، قام العيني بالتدريس في المدرسة المؤيدية عند افتتاحها عام 818هـ غير المدرسة التي أقامها في القاهرة عام 814هـ خلف الجامع الأزهر، ومن أشهر الذين تتلمذوا على يديه أبي المحاسن ابن تغري بردي والسخاوي =

المساء. سُرعان ما قام ابنه العزيز يوسف، البالغ من العمر أربعة عشر عامًا، بتقديم فرصة اعتلاء العرش لوصيه (نظام الملك) جقمق - الذي كان فيما مضى مملوكًا لبرقوق، وضابطًا تحت حكم المؤيد، وأمير ألف تحت حكم ططر، ووزيرًا أعلى تحت حكم برسباي - الذي كان حكمه معتدلًا مقارنة بسلفه، وكان خُلُقَه الشخصي نموذجيًا. لقد تقيَّد بشرائع القرآن بكل دقة، ولم يمس طعامًا مُحرَّمًا، وحظر الخمر، وقمع الموسيقى. أقنعته معتقداته الدينية الأصولية باضطهاد اليهود والنصارى، وفرض أوجه التمييز المُقيِّدَة القديمة. لقد كان - على خلاف برسباي - على دراية بالعربية مثلها مثل التركية، ودرس علوم الدين العربية، وكان مولعًا بمجتمع العلماء. مات عن عمر يناهز ثمانين عامًا، وعلى الرغم من حياته البسيطة لم يترك إلا ثروة تافهة لابنه، الذي أنجبه من امرأة يونانية.

تم خلع هذا الابن، المنصور عثمان، الذي نوديَ به سلطانًا أثناء مرض أبيه الأخير، خلال شهر ونصف شهر عن طريق الأشرف إينال، العجوز الهادئ لين العريكة، الذي استطاع بالكاد أن يكتب اسمه، والذي زاد من مرارة حكمه التنافس المتواصل والاضطرابات الحادثة بين المماليك. كان ابنه المؤيَّد أحمد، غير كفء على الإطلاق لذلك المنصب الصعب، وسريعًا ما تخلَّى عنه لصالح واليه اليوناني الظاهر خُشقَدَم، الذي حكم حكمًا فاسدًا. وقد خُلِعَ ابنه الظاهر يلباي، المعروف بالمجنون، عن العرش كالمعتاد خلال شهرين بواسطة فئة من المماليك لإفساح المجال

= وابن الصيرفي، أما عن أهم كتبه التي وصلتنا فكانت موسوعته الكبيرة (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان)، راجع عنه: إيمان عمر شكري، السلطان برقوق من خلال مخطوط عقد الجمان، مكتبة مدبولي - القاهرة 2002م، ص 17: 26 (المترجم).

لمرشحهم، الذي كان كهلًا يونانيًا آخر، هو الظاهر تمربغا. كان السلطان الجديد رجلًا مثقفًا للغاية، ضليع في فقه اللغة والتاريخ وعلوم الدين، قَبِلَ العرش مع كثير من الافتقار إلى الثقة. كانت خطواته الأولى هي تحرير المسجونين من أمراء الفِرَق المختلفة، إضافة للسلطانين السابقين أحمد وعثمان، والسعي لاسترضاء جميع الأطراف. كانت نتيجة نواياه الطيبة أن وجد نفسه دون أنصار، أو دون مال لشرائهم. ومع فقدان المماليك لصبرهم مع قائد غير مفهوم على الإطلاق، قاموا باقتحام القلعة؛ حيث سَجنوا السلطان المثقف، وقاموا بتنصيب خاير بك بلقب العادل. ومع ذلك فقد كان لدى خاير بك الوقت فقط ليقوم بسلب حريم سلفه، وفي ذلك الوقت قام أمير أكثر قوة هو قايتباي، بحشد مماليكه؛ ومن ثمّ استطاع طرد مغتصب العرش، وقام باغتصابه لنفسه. أما تمربغا الذي أطيح به مرتان في نفس اليوم، فقد تمت معاملته بمراعاة كبيرة، وسُمِحَ له أن يعيش بحرية في دِمْياط.

تمتع الأشرف قايتباي[1] بأطول فترة حكم منذ الناصر بن قلاوون. لقد حكم ما يقرب من تسعة وعشرين عامًا، كان فيها الأكثر نجاحًا وولعًا

---

(1) هو الخامس عشر من ملوك الجراكسة بمصر، أصله جركسي الجنس، جلبه إلى مصر الخواجا محمود سنة 839هـ/ 1436م، فاشتراه الأشرف برسباي، استمر مملوكًا كتابيًا في الطباق إلى أن أعتقه الظاهر جقمق حيث صار جمدارًا ثم خاصكيًا ثم داودار سكين، جعله بعد ذلك الأشرف إينال أمير عشرة سنة 862هـ/ 1458م، ثم جعله خشقدم أمير طبلخانة، ثم جعله مقدم ألف، وعندما تسلطن الظاهر يلباي جعله رأس نوبة، ثم أصبح أتابكًا للعكسر لما تولى الظاهر تمربغا، ولما خُلع بايع الخليفة والمماليك قايتباي يوم الاثنين السادس من رجب سنة 872هـ/ 1468م، انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج3/ ص 2 وما يليها (المترجم).

بالحرب من بين سلاطين الجراكسة، وسار فيها على طريقة المماليك من قبله. كان برسباي قد اشتراه بما يقابل خمسة وعشرين جنيهًا انجليزيًّا (50 دينارًا)؛ وأُعِيدَ بيعه لجقمق، وأصبح أمير عشرة بواسطة إينال، وأمير طبلخانة وأخيرًا مقدم ألف[1] بواسطة خُشقَدَم، حتى صار قائدًا عامًّا (أتابكًا للعسكر) تحت حكم تمربغا. لقد كان مبارزًا بالسيف خبيرًا، وماهرًا في اللعب بالرمح. قَدمت له حياته العملية الخبرة والمعرفة بالعالم؛ لقد امتلك الشجاعة والحكمةِ ونفاذ البصيرة والنشاط والعزم. هيمنت شخصيته القوية على مماليكه الذين أخلصوا له، فضلًا عن إرهاب المنافسين. عَرض أحيانًا نشاطه البدني عن طريق جَلْد الموظفين الكبار بنفسه؛ بهدف انتزاع المال لخزانة بيت المال. كانت مثل هذه المساهمات والضرائب الاستثنائية ضرورة قصوى من أجل الحروب التي كان مضطرًا لخوضها. لم تُفرض على الأرض ضريبة تصل إلى خُمس المحصول فقط، ولكن أيضًا تم المطالبة بعُشر إضافي (نصف درهم لكل إردب من القمح). لقد انتهى بلا هوادة عصر ثراء اليهود والنصارى. كان هناك الكثير من الوحشية الهمجية، وعوقِبَ

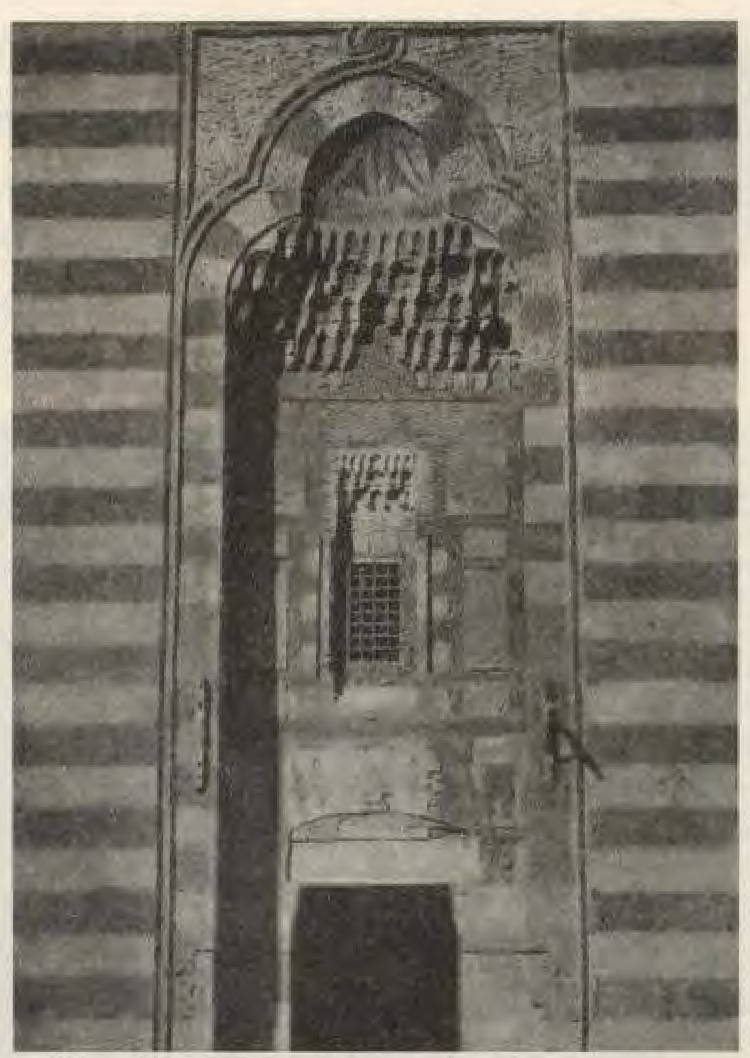
(1) استخدمت هذه المصطلحات هنا لتمثيل درجات المماليك «أمير عشرة»، «أمير أربعين»، و«أمير ألف» فارس. لم تكن الرتب عسكرية فحسب، لكنها حملت معها منزلة رسمية نبيلة، مثل Tchin الروسية. لم يكن هناك سوى أربعة عشر أمير ألف في زمن قايتباي؛ وكان هناك في وقت الناصر بن قلاوون أربعة وعشرون. على الجانب الآخر، فقد تزايد أجر الجيش على نحو ثابت، من 11.000 دينار كل شهر تحت حكم المؤيد، و18.000دينار تحت حكم برسباي، إلى 28.000 دينار تحت حكم جقمق، و46.000 دينار في الجزء الأول من حكم قايتباي. تناقص الآن هذا المبلغ، البالغ تقريبًا ما يقابل 300.000 جنيه إسترليني سنويًّا، باستبعاد الكثير من غير الأكفاء أو المتقاعدين فقط من السجلات. كانت مؤن الجنود بالطبع، إضافة إلى أجورهم.

الأبرياء بقسوة حتى الموت، فقد تم ثمل عين الكيميائي عليّ بن المرشوشي وُنزِع لسانه، لأنه لم يستطع تحويل خبث المعادن إلى ذهب.



شكل (86) دينار قايتباي، 1468 - 1496م

شكل (87) جامع وضريح قايتباي، 1474م



شكل (88) مدخل جامع قايتباي، 1474م

لحقت بالسلطان سمعة البخل، رغم أن قائمة أعماله العامة، ليس فقط في مصر، بل في الشام وشبه الجزيرة العربية أيضًا، تبين أنه قام بإنفاق الإيرادات على أهداف تثير الإعجاب. فقد قام بإنشاء جامعين في القاهرة، ووكالات أو خانات، وهي من بين أكثر الأمثلة الرائعة لزخرفة الأرابيسك

المُتْقَنة التي طُبِّقَت على العمارة الإسلامية. لقد أعاد بجد إصلاح الآثار المتداعية لمن سبقوه، كما تشهد بذلك النقوش العديدة بالجوامع والمدارس والقلعة، وغيرها من المباني في القاهرة. كان كثير السفر، فقد ارتحل في الشام، وإلى الفرات، وفي مصر العليا والسفلى، فضلًا عن أداء الحج إلى مكة وبيت المقدس؛ وأينما ذهب قام بترك آثار لزيارته ممثلة في الطرق والكباري والجوامع والمدارس والتحصينات، أو غيرها من الأعمال الدينية والضرورية الأخرى. لم تشهد أي من فترات الحكم التي تشملها القائمة الطويلة لسلاطين المماليك، باستثناء تلك الخاصة بالناصر ابن قلاوون، إنتاجًا من حيث التشييد المعماري أو الصناعات الفنية الدقيقة أكثر مما شهدته فترة حكم قايتباي. وقد عانى الشعب لتغطية تكاليف مبانيه المتعددة، إلا أن العصور اللاحقة قد اعترفت بجمالها منقطع النظير.





شكل (89) وكالة قايتباي، 1477م، بالقرب من الأزهر. شكل (90) شعار قايتباي.

رغم ذلك فقد كان لدى قايتباي أمورٌ أكثر خطورة للتعامل معها غير الإنجازات المعمارية. لقد كانت الحدود الشمالية لسوريا منذ فترة طويلة

شوكة في جانب سلاطين المماليك، ليس فقط بسبب التمرد المستمر أو الثورات بين تابعيهم التركمان؛ بل لأن تلك الاضطرابات قد وفَّرَت على نحو متواصل ذريعة للتدخل من جانب أكثر الجيران خطورة، وهو السلطان العثماني، الذي سرعان ما تُوِّجَت قوته بفتح القُسْطَنْطِينية[1]. قام المؤيد وابنه أكثر من مرة بإخضاع الإمارات الحدودية المزعجة بشكل مؤقت. وشن برسباي حربًا على تركمان الشاة البيضاء (836هـ/ 1433م)، بل وقام بحصار مدينتهم آمد في ديار بَكْر، دون نجاح. وقام جقمق برعاية صداقة أمراء الحدود، وتزوج بناتهم، وتلقى ولاءهم على الأقل على نحو شكلي؛ وواصل إينال سياسته الاسترضائية تجاه تركمان الحدود وأيضًا تجاه العثمانيين؛ حيث زَين القاهرة لعدة أيام عام 857هـ/ 1453م، حين وصلت سفارة من محمد الثاني بخبر فتح القُسْطنطينية، وحافظ على سيادة ودية اسمية مع حاكم الشاة البيضاء وذي القَدْر أمير أبُلُسْتَين، رغم أنه اضطر لإرسال جيش (860-86 1هـ/ 1456- 1457م) لاستعادة طَرْسُوس وأَذِنَة من إبراهيم، أمير قَرَمَان الطموح. رغم ذلك فقد صار خضوع أمراء الشاة البيضاء أمرًا مثيرًا للسخرية، حين قام أوزون حسن بالاستيلاء على مدن وحصون مصرية (مثل كركر وخربرت)، ثم ادعى بأنه قد أصلح ذلك عن طريق إرسال مفاتيحها إلى القاهرة.

---

(1) كان ذلك يوم الثلاثاء الموافق 21 جمادى الأول سنة 857هـ/ 29 مايو 1453م، بقيادة السلطان العثماني محمد الثاني (الفاتح) (855 – 886هـ/ 1451 – 1481م)، انظر عن الفتح: عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص 169، أحمد سالم سالم، إستراتيجية الفتح العثماني، مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية 2012م، ص 74: 91، أزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1/ ص 131 وما يليها، نيقولا بربارو، الفتح العثماني للقسطنطينية، ترجمة: حاتم عبد الرحمن الطحاوي، القاهرة 2002م (المترجم)





شكل (91) شعار قايتباي، على أحد المصابيح. شكل (92) شعار الأمير أزبك على جامعه، 1495م.

علاوة على ذلك كانت هناك علامات تشير إلى أن العثمانيين لم يكونوا توّاقين لصداقة مصر. لقد تجاهلت سفارة من محمد الثاني عام 868هـ/ 1464م بوضوح بعض الآداب المتعارف عليها. وفي جدال حول خلافة الحكم في إمارة قَرَمان، أخذ الباب العالي ومصر جوانب متضادة، وكادوا أن يبدأوا في التنازع، وفي نزاع آخر بين شقيقين على إمارة ذي القدر - التي كانت تابعة بالفعل لمصر - دعم الباب العالي شاه سوار، المرشح الذي قاوم مصر سرًّا، وقد هُزِمَ المماليك بخسارة فادحة في عنتاب، ولاحقًا قرب نهر جيهون. وفي نهاية المطاف أُجبِرَ المتمرد على الاستسلام، بعد حرمانه من الدعم التركي؛ حيث أتى به إلى القاهرة وتم شنقه؛ إلا أن سياق الحرب أظهر خطر التدخل العثماني. واصل أوزون حسن سياسة التظاهر بالتبعية لقايتباي، مُرسِلًا إليه هدايا من الجمال والدروع وعبيد من الجراكسة؛ لكنه طالما أصرَّ على الاحتفاظ بالحصون وإعطاء سيده الأعلى المفاتيح فحسب، فقد كان قدر القلق الذي سببه لقايتباي بتقدمه التوسعي ليس بالقليل، وقد نظر السلطان العثماني محمد الثاني إلى هزيمة «تابعه» ببعض الرضا.

برهنت كل تلك المنافسات البسيطة على القوة المتنامية فضلًا عن التدخل من قِبَل السلطة العثمانية، وإن كان هناك حاجة لقطع العلاقات، فقد كان من المؤكد سهولة العثور على فرصة في بعض النزاعات الحدودية. لقد سعى قايتباي في طلب النزاع، ومع ذلك حين قام بالترحيب بالأمير المنفي جِم[1]، شقيق ومنافس السلطان العثماني الجديد بايزيد الثاني[2]، فإنه لم يعامله فحسب بمظاهر حفاوة ملكية في القاهرة، لكنه قام أيضًا بإمداده بالوسائل اللازمة للقيام بثورة كانت غير مجدية في آسيا الصغرى.

(1) أعقب وفاة السلطان محمد الفاتح عام 1481م، النزاع بين ولديه، بايزيد وجم، بعد أن أعلن جم نفسه سلطانًا للدولة العثمانية واتخذ مدينة قونية مقرًّا له، وأقام الخطبة وضرب السكة باسمه، إلا أنه اضطر بعد هزيمته أمام قوات أخيه في موقعة يني شهر إلى الفرار ومعه والدته وزوجته إلى سوريا، ومن ثمّ التجأ إلى الدولة المملوكية، فوصل إلى القاهرة في شعبان 886هـ/ أكتوبر 1481م. أخذ بعد ذلك قايتباي يعد العدة لإمداده بالمال والجند لرحيله إلى آسيا الصغرى وانتزاع الملك من أخيه، إلا أن الهزيمة حلت به وأجبرته الظروف هذه المرة على الالتجاء إلى فرسان الإسبتارية بجزيرة رودس في 29 يوليو 1482م، بقصد العبور إلى أوروبا ومتابعة الحرب ضد أخيه معتمدًا على أخواله المجريين، إلا أن جم كان قد أخطأ التقدير؛ إذ عمل دوبوسون رئيس الاسبتارية على التحفظ عليه لاستخدامه كورقة ضغط ضد السلطان العثماني، وأخذ يتنقل بعدها من بلد أوروبي إلى آخر وهو متحفظ عليه حتى وفاته في 24 فبراير 1495م، راجع: أحمد السيد الدراج، جم سلطان والدبلوماسية الدولية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثامن، 1959م، ص 201: 242 (المترجم).

(2) هو بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني، ثامن السلاطين العثمانيين (886 – 918هـ/ 1481 – 1512م)، راجع: أحمد سالم، إستراتيجية الفتح العثماني، ص 118 وما يليها (المترجم).

وحيـن استُخدم المنفـى كمخلـب قـط (أو أداة) للقـوى الأوروبية، لعب قايتبـاي دوره في المأسـاة الوضيعة، وفاوض البابا من أجل تسـليم وريث العـرش العثمانـي ذي القيمة الكبيـرة[1]، إلى أن وَجد أنه مـن الميئوس منه تخليص مثل تلك الغنيمة من الشِـراك المسـيحية، فبدأ في اسـترضاء الأخ المسـتاء فـي القُسْـطنطينية. رفـض بايزيد فـي البداية كل العـروض، وغزا أرمينية الصغرى، واسـتولى على طَرْسُوس وأَذِنَة؛ لكن حينما رجحت كفة المماليك في العديد من المعارك تحت قيادة الأمير يَشْـبك[2]، كان ماتياس كورفينوس Matthias Corvinus[3] يشـكل خطرًا كبيرًا في المجر، أما جِم مصـدر كل تلـك النزاعات، كان لا يـزال على قيد الحياة فـي روما؛ لذا غير الباب العالي العثماني تفكيره بشـأن مبادرات السـلام التي جددها قايتباي، بعد أن أرهقته كل تلك الحملات المكلفة. سُجِنَ المبعوث الأول، مماي؛ إلا أن المبعوث الثاني، الأمير جانبلاط بن يشـبك، نجح في الحصول على

---

(1) See Thuasne, Djeni Sultan, ch. ii, and pp. 254, 281, etc.; Weil, V. 345 Note.

(2) راجع تفاصيل هذا الموضوع في: ابن أجا، محمد بن محمود الحلبي (ت 881هـ / 1476م)، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الداودار، صنعه: محمد أحمد دهمان، دار الفكر – دمشق، 1986م (المترجم).

(3) ماتياس كورفينوس Matthias Corvinus (1443 – 1490م)، هو ملك كل من المجر وكرواتيا منذ عام 1458م، منذ أن كان في الرابعة عشر من عمره حتى وفاته، وبعد العديد من الحملات العسكرية أصبح ملك بوهيميا (1469 - 1490م)، ودوق النمسا (1486 – 1490م)، وكانت له العديد من المحاولات التي باءت بالفشل لضم مولدافيا إلى المجر، كان بمثابة خصم عنيد للعثمانيين في أوروبا، خاض معهم العديد من المعارك لمنعهم من التوسع على حساب الأراضي المسيحية (المترجم)

إذن من بايزيد؛ حيث أُبرم السلام على إثر إعادة الأتراك مفاتيح الحصون التي استولوا عليها.

كانت الأعوام الأخيرة من حكم قايتباي غائمة مكفهرة، ليس فحسب لفرض الضرائب الثقيلة بسبب الحرب وما ترتب على ذلك من استياء، لكن أيضًا بسبب وباء فتاك غير عادي، أباد اثني عشر ألف شخص في القاهرة في يوم واحد، وقتل ثلث المماليك، وحَرَم السلطان نفسه من زوجته الوحيدة وابنته في نفس اليوم. وأعقب ذلك الوباء نقص المؤن ومرض الماشية؛ وقد أضاف للبؤس العام، اندلاع نزاعات شرسة بين فرقتين عظيمتين من المماليك. هكذا أظهر السلطان المُسِن رايته عند بوابة القلعة، وقمع أعمال الشغب في حينها، لكن تواصلت المكائد والغيرة، وأخيرًا حين هزمته السنون (بلغ من العمر فوق الثمانين) فضلًا عن المرض والقلق، تنازل عن العرش لصالح ابنه، ومات في اليوم التالي.

بعد فترات الحكم القصيرة لابن قايتباي القاسي والعاجز، الناصر محمد (7 أغسطس 1496 - 31 أكتوبر 1498م)؛ والظاهر قانصوه (2 نوفمبر 1498م - 28 يونيو 1500م)؛ والأشرف جانبلاط (30 يونيو 1500 - 25 يناير 1501م)؛ والعادل طومانباي (يناير - 20 إبريل 1501م)[1]، الذين وقعوا جميعًا تحت رحمة المماليك المتمردين، وقع الاختيار على الأشرف قانصوه الغوري - وهو رجل مسن بلغ الستين من العمر، سبق أن كان مملوكًا لقايتباي - للجلوس على العرش، وسرعان ما برهن على أن العمر لا يحد من قوة شخصيته الطبيعية. لقد استعاد على الفور النظام في

(1) راجع قائمة السلاطين الجراكسة في نهاية هذا الفصل (المترجم).

العاصمة المشتتة، ووضع رجالًا يمكن الثقة بهم في المناصب، وشرع في ملء خزانة المال الفارغة. لم يسبق أن عُرِفَت مثل تلك التدابير التعسفية، فقد جَمع ضرائب عشرة أشهر دفعة واحدة، ولم يكتف بفرض الضرائب على الأراضي والمتاجر والمصادر الأخرى المعتادة، إنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والسواقي والقوارب والدواب واليهود والنصارى وخدام القصر، بل حتى الأوقاف أو الهبات الدينية. لقد فرض رسومًا جمركية ثقيلة، وغرَّمَ الأقارب الجزء الأكبر من ميراثهم. هذا إلى جانب أنه خفَّض من قيمة العملات بشكل أكبر لصالح خزانة الدولة وبما يلحق الخسائر بالتجار. كانت النتيجة مزيدًا من العائدات على حساب افتقار الناس وسُخطهم.

أنفق الغوري ماله على مماليكه، الذين ازداد عددهم بواسطة الشراء؛ وعلى بناء جامعه ومجموعته في أحد الشوارع بالقاهرة، والذي سُمّي من بعده بالغورية؛ وعلى تحسين طريق الحج إلى مكة، وإنشاء مباني الراحة للمسافرين وحفر الآبار والقنوات، والتحصينات بالإسكندرية ورشيد، وترميم قلعة القاهرة، وتحسين الأعمال العامة في البلاد بشكل عام. لقد حافظ أيضًا على بلاط رائع؛ فقد كانت جياده وجواهره ومائدته ومطبخه مُتْرَفَة ورائعة؛ ورغم أنه كان بخيلًا وقاسي القلب بما يكفي لقطع معاش الأيتام، إلا أنه كان سخيًا في هداياه للشعراء والموسيقيين.



شكل (93) نقش طومانباي الأول بقلعة القاهرة، 1500م

فيما خلا القليل من أعمال الشغب العسكرية والثورات البدوية، فقد كان هناك القليل من الأحداث التي سببت الإزعاج في الأعوام الأولى من حكمه. كانت الحملات الرئيسية إلى البحر الأحمر؛ حيث ظهر منافس جديد وهائل، هدد بتدمير تجارة الترانزيت الهندية التي جلبت الكثير من الثروة لمصر. لقد قام فاسكو دا جاما Vasco da Gama بالدوران حول رأس الرجاء الصالح عام 902هـ/ 1497م، ووطَّدَ البرتغاليون أنفسهم في كاليكوت عام 905هـ/ 1500م؛ حيث تم تحويل التجارة التي كانت تذهب إلى مصر عن طريق عدن وجدة وسواكن إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذي يصل إلى أوروبا، وتم الاستيلاء على السفن المصرية، أو السفن التجارية التي تصل إلى البحر الأحمر بواسطة البرتغاليين[1]. هكذا ناشد

---

(1) أدى وصول البرتغاليين إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح بدلًا من الطريق التقليدي القديم الذي كان يمر عبر مصر، إلى إضعاف النشاط التجاري والعوائد المالية للدولة المملوكية؛ مما أدى إلى ذبولها في مستهل القرن السادس عشر، فقد أخذت البرتغال تنقل منتجات الهند وعلى الأخص التوابل على سفنها إلى لشبونة؛ حيث كان يتلقفها التجار الأوروبيون لتوزيعها في البلاد الأوروبية واختفت إلى حد بعيد من أسواق الإسكندرية البضائع الهندية فقل على إثر ذلك مجيء سفن البندقية واتجهت السفن إلى لشبونة، فانتقل بذلك مركز التجارة الشرقية من الإسكندرية إلى لشبونة. راجع مزيدًا عن هذا الموضوع: فاروق عثمان أباظة، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، دار المعارف، الطبعة الثانية، ص 48، 49، نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصر الوسيط، القاهرة 1973م، ص 131، سعيد عاشور، الحصار الاقتصادي على مصر زمن الحروب الصليبية، ضمن كتاب: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت 1977م، ص 153، 154، مركز مصر في التجارة العالمية أواخر العصور الوسطى، ضمن نفس الكتاب، ص 131: 135، =

ملك كجرات والحكام المسلمين الآخرين في الهند وجنوب الجزيرة العربية، الغوري حتى يسارع لنجدتهم؛ وكانت أهمية وحجم التجارة التي تم تهديدها حُجَّة قوية كافية لتحريكه. لقد حاول أولًا نداءً دبلوماسيًا للبابا لكبح اعتداءات الإسبان والبرتغاليين على المسلمين غربًا وشرقًا على حد سواء، وهدد بتدمير الأماكن المقدسة في فلسطين إن استمر الاضطهاد والنهب. قَدَّرَت القوى الأوروبية بأن ذلك لم يكن إلا تهديدًا أجوفَ فلم يأبهوا له. قام الغوري آنذاك ببناء أسطول جديد في البحر الأحمر؛ حيث واجه أمير البحر حسين الأسطول البرتغالي قبالة شاول Chaul، وقام بهزيمته، مع خسارة سفينة القيادة وأميرها، لورينكو Lorenco ، ابن ألميدا Almeida. ولكن البرتغاليين نالوا انتقامهم في ديو Diu في العام التالي[1]؛ وهاجم البوكرك Albuquerque عدن عام 919هـ/ 1513م؛ هكذا قضي على عبور التجارة بين مصر والهند، ليس هذا فحسب بل لقد قضي على السلالة الحاكمة المملوكية أيضًا.

= ح. هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: أحمد رضا محمد رضا، القاهرة 1994م، ج3/ ص 173: 194، أحمد دراج، إيضاحات جديدة عن التحول في تجارة البحر الأحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجري، محاضرة ألقيت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية في 15 إبريل 1968م (المترجم).

(1) وقعت معركة ديو البحرية في الثالث من فبراير عام 1509م، قرب السواحل الهندية، بين أسطول البرتغال من جهة، وأسطول مشترك من المماليك والعثمانيين وسلطان كجرات المسلم بدعم من جمهورية البندقية المتضررة من تحويل طريق التجارة، وتعتبر من المعارك الفاصلة في التاريخ؛ إذ كان من نتائجها إنهاء سيطرة المسلمين على خطوط التجارة في المحيط الهندي بين الشرق والغرب وبدء السيطرة الأوروبية؛ مما مهد الطريق بعد ذلك للقوى الاستعمارية الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا من السيطرة على التجارة بين الشرق والغرب (المترجم).



شكل (94) منازل تعود للقرن 16م، بمدينة رشيد

طالما كان بايزيد الثاني سلطانًا عثمانيًا فقد كان من الممكن إطالة المفاوضات؛ لكن حين خلفه ابنه سليم الأول[1] الطموح والمولع بالحرب

---

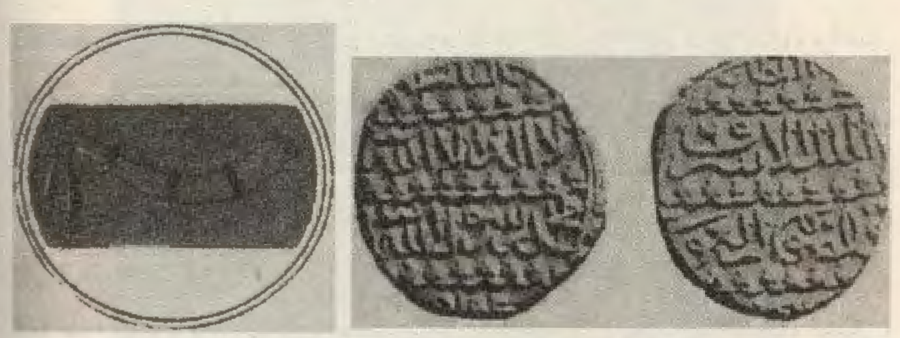
(1) هو سليم الأول بن بايزيد الثاني، تاسع السلاطين العثمانيين (918 - 926هـ/ 1512 - 1520م)، أطلق عليه لقب (ياووز) أى المهول أو الرهيب، بسبب شدته وصرامته، وتعتبر فترة حكمه من أهم الفترات في تاريخ منطقة الشرق الأدنى بأسرها؛ إذ حدثت أثناءها تحولات إستراتيجية كبيرة على المسرح الدولي أثرت تأثيرًا مباشرًا في مصير العالم لخمسة قرون لاحقة، فقد استطاع سليم الأول أن يحوّل الدولة العثمانية من دولة أوروآسيوية إلى إمبراطورية عالمية مترامية الأطراف في قارات العالم القديم؛ ومن ثمّ أصبحت دولة الإسلام الأولى خاصة بعد سقوط الدولة المملوكية في مصر، والمدافعة عنه أمام القوى الصليبية الكبرى التي أرادت افتراسه بعد الصعود =

عـام 918هـ/ 1512م، لم يعد ممكنًا تجنـب الكارثة المُهدِّدَة منذ أمد بعيد. بعد هزيمة إسـماعيل، أول شـاه للسـلالة الحاكمة الصفوية في فارس، في معركة تشـالديران عام 920هـ/ 1514م[1]، تحول سـليم جنوبًا تجاه الشـام ومصـر. لقد اسـتولى على الإمـارة الحدودية ذي القدر، التـي كانت آنذاك تابعـة لمصـر، وأرسـل رأس حاكمها إلى القاهـرة، رغم أن مصـر والدولة العثمانيـة كانـا لا يزالان في سـلام مع بعضهما، وقد سـبب ضـم ديار بكر للعثمانيين الاتصال مع الحدود المصرية في سوريا وعلى الفرات، وواصل سـليم حشـد قواتـه على الحـدود. كانت دعاويـه ضد الغـوري تافهة، مثل

= الملحوظ لقوة كل من البرتغال وإسبانيا مع نهاية القرن الخامس عشر، راجع: أحمد سالم، إستراتيجية الفتح العثماني، ص 138 وما يليها (المترجم).

(1) عندما أقام الشاه إسماعيل الصفوي، الدولة الصفوية في إيران على المذهب الشيعي، اصطدم بالطبع بالدولة العثمانية راعية الإسلام السني والمدافعة عنه، ولقد ازداد العداء بينهما عندما حاول الشاه إسماعيل نشر المذهب الشيعي في الأجزاء الشرقية من أراضي الدولة العثمانية، ومحاولته بسط نفوذه على البلدان العربية السنية قبل التدخل العثماني بها، وقد مهد كل هذا للتصادم العسكري بين القوتين، والذي حدث بالفعل في معركة تشالديران أو جالديران في 23 أغسطس عام 1514م، والتي انتهت بهزيمة الصفويين هزيمة ساحقة، دخل على إثرها العثمانيون إلى عاصمتهم تبريز، وكان من نتائج ذلك تحجيم القوة الصفوية وحصرها في إطارها، وإنهاء التمدد الشيعي إلى البلدان السنية، هذا فضلًا عن السيطرة العثمانية على الأجزاء الغربية من الدولة الصفوية المتمثلة في عراق العجم وشمال عراق العرب فضلًا عن أذربيجان، والتمهيد للتدخل في البلدان العربية والتي حدثت بعد ذلك بعامين في معركة مرج دابق أمام المماليك عام 1516م، راجع: أحمد سالم، المرجع السابق، ص160 وما يليها، أحمد عبد الرحيم مصطفى، أصول التاريخ العثماني، القاهرة 2003م، ص 79 (المترجم).

سماح سلطان مصر لأعداء الدولة العثمانية وحتى أمراء البيت العثماني الهاربين بالمرور أو اللجوء لدولته؛ لقد اعتُقِدَ أنه في اتصال سري مع شاه فارس إسماعيل، لم يأمر تابعه في ذي القدر بدعم الأتراك في حملتهم ضد الفُرس. لكن لم يكن سليم رجلًا يمكن أن ينتظر مُبررًا عادلًا للحرب Casus Belli، لقد كان عازمًا على غزو مصر؛ لذا لم تكن لأي مسألة من مسائل الحق أن تثنيه عن عزمه.



شكل (95) دينار الغوري، القاهرة، 1508م. شكل (96) شمار أحد القادة، 1516م.

لقد أضاع قانصوه الغوري فرصته، فقد كان عليه أن يلحق قواته بقوات الشاه إسماعيل عام 920هـ/ 1514م، عندها كان يمكن أن تكون لمعركة تشالديران نتيجة مختلفة. إلا أنه فاق السبعين من العمر ووهنت قواه. لقد غادر القاهرة متأخرًا في ربيع الثاني 922هـ/ مايو 1516م، على رأس جيشه. رافقه إلى الشام خمسة عشر من أمراء الألوف البالغ عددهم ستة وعشرين أميرًا، وقُدِّرَ عدد أتباعه الشخصيين من المماليك بخمسة آلاف إلى أربعة عشر ألف فارس. لم يتم تسجيل إجمالي القوة التي كانت تحت قيادته، لكنها شملت المجندين من مصر والشام فضلًا عن القبائل البدوية. دخل دخول المنتصرين إلى دمشق في يونيو، وزحف من ذلك المكان شمالًا

إلى حلب[1]. تلقى سفارتان من سليم، يؤكدان له حسن النية ويكرران بأن الأتراك كانوا يحتشدون ضد فارس وليس مصر؛ لكن الغوري لم يقتنع، وعندما قام بإرسال سفارة إلى سليم كرد فظ وغاضب على السلطان العثماني، لم يعد هناك أي مجال للشك في نواياه. التقى الجيشان في سهل يسمى مَرْج دَابِق، إلى الشمال قليلًا من حَلَب، يوم الأحد 25 رجب 922هـ/ 24 أغسطس 1516م[2]، وعلى الرغم من شجاعة المماليك، فقد تلقى الجيش المصري هزيمة ساحقة؛ بسبب التفوق العددى والمدفعية العثمانية[3]، فضلًا عن غيرة بعض الجنود، وخيانة خاير بك، الذي استماله

(1) ذكر المؤرخ ابن زنبل أن المماليك عند وصولهم إلى حلب قاموا بالاعتداء بوحشية على أهالي الشام، فكان ظلم المماليك سببًا مباشرًا في انهزامهم وزوال دولتهم، لأن الأهالي قد اعتبروا السلطان سليم عند دخوله إلى الشام محررًا ومخلصًا قدموا له المساعدات، راجع: ابن زنبل الرمال، آخرة المماليك، تحقيق: عبد المنعم عامر، هيئة الكتاب – القاهرة 1998م، ص 91 (المترجم).

(2) انظر عن معركة مرج دابق: ابن اياس، بدائع الزهور، (تحقيق: محمد مصطفى)، ج3/ ص 44 وما يليها، ابن زنبل، آخرة المماليك، ص 100 وما يليها، محمد مصطفى زيادة، نهاية سلاطين المماليك، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع – العدد الأول ، مايو 1951م، ص 219 وما يليها، أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1/ ص 222، متولي، الفتح العثماني، ص 165 وما يليها، عبد الرازق الطنطاوي القرموط، العلاقات المصرية العثمانية، القاهرة 1995م، ص 141 وما يليها (المترجم).

(3) استطاع العثمانيون بالفعل تحويل المدفع من سلاح دفاعي يوضع غالبًا في الحصون والطوابي، إلى سلاح هجومي يستخدم في ميدان القتال، حتى أنهم أوجدوا له فرقة خاصة ألحقت بالجيش أطلق عليها (طوب جيلار) أي (المدفعجية)، فأصبح المدفع من خلال هذه الفرقة سلاح ميداني رئيسي سهل الحركة، يتنقل على عجلات خشبية ويسحب عن طريق الخيل والماشية، وكان أول ظهور للمدفع كسلاح هجومي =

سليم، والذي انشق بالجناح الأيسر للجيش بعد نشر شائعة مقتل الغوري، وعلى إثـر ذلك هُزم المصريون هزيمة منكرة وفرُّوا من سـاحة القتال. لقد مات بالفعل سلطانهم ولم يعد لديهم قائد.



شكل (97) باب العزب، مدخل قلعة القاهرة، القرن 18م

فـي القاهـرة، تم اختيـار طومانباي، نائب السـلطان ومملـوك الغوري؛ بمجـرد أن عُرِفَـت الأخبار بوفاة سـيده. لقـد قَبِل المنصـب على مضض؛ وذلـك بعـد أن تعهد له الشـيخ أبو السـعود بـولاء الأمـراء المطلق. وصل

= حاسم في المعارك كان على يد السلطان محمد الفاتح أثناء حصاره للقسطنطينية عام 857هـ/ 1453م، أما المماليك وبالرغم من أنهم قد عرفوا الأسلحة النارية قبل العثمانيين، إلا أنهم لم يتقنوا صناعتها أو استخدامها ولم يوظفوها توظيفًا فعّالًا، إنما اعتمدوا عليها كسلاح دفاعي يوضع في القلاع، كما حدث في عهد الغوري عند تحصينه لقلعة الإسكندرية وثغور مصر الشمالية، عن تطور المدافع العثمانية وأهميتها، انظر: المصطفى محمد أحمد محمد الخراط، تطور الأسلحة النارية «المدافع والبنادق» وأثرها على العمائر الحربية بمصر في العصر العثماني وحتى نهاية حكم محمد علي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب - جامعة سوهاج، عام 2011م، ص 16: 66 (المترجم).

خطـاب مـن سـليم، مُقترِحًـا أن يُقِـره كنائب على مصـر إذا أقر بالسـلطان العثمانـي علـى العملـة وفي الدعـاء[1]. لـم يكـن طومانباي نافـرًا من قبول هـذه الشـروط، لكن أمـراء المماليـك أجبروه علـى الرفض؛ ومن ثـمّ قُتِلَ الموفـدون الأتراك. لا ريـب أن جماهير المصريين نظـروا للفتح العثماني كحقيقـة لا يمكـن مقاومتها، فسُـرعان ما أصبـح الأتراك فـي بلادهم. لقد هَزمـوا الجيـش المصري فـي الثاني والعشـرين مـن يناير خـارج القاهرة، وفـي اليـوم التالي تم الدعاء لسـليم في كل جوامع القاهرة[2]. دخل سـليم بنفسـه إلى القاهرة في السادس والعشـرين من يناير يرافقه الخليفة الأسير. تـم التغلب على المقاومة القصيرة للمماليك؛ وتعرض طومانباي للخيانة؛ ومـن ثمّ شُـنِق على باب زويلة (14 إبريل). تم نقـل الخليفة المتوكل، آخر الخلفاء العباسـيين في مصر، إلى القُسْطنطينية وسجن هناك؛ لكن بعد وفاة سـليم (شـوال 926هـ/ سـبتمبر 1520م)، قام سـليمان العظيـم[3] بإطلاق

(1) كانت الرسالة بتاريخ 15 شوال 922هـ/ 10 نوفمبر 1516م، وكان مضمونها: (إني أريد أن تكون السكة والخطبة باسمي، وأنت نائب عني، وأبقيك على ما أنت عليه)، ابن زنبل، ص 119، راجع نص الرسالة: متولي، الفتح العثماني، ص 176، 177 (المترجم).

(2) انظرعن موقعة الريدانية وسقوط القاهرة: ابن إياس، بدائع الزهور، ج5/ ص 85، ابن زنبل، آخرة المماليك، ص 118 وما يليها، زيادة، نهاية سلاطين المماليك، ص 222 وما يليها، متولي، الفتح العثماني، ص 190 وما يليها، القرموط، العلاقات المصرية العثمانية، ص 181 وما يليها (المترجم).

(3) هو سليمان الأول بن سليم الأول بن بايزيد الثاني، عاشر السلاطين العثمانيين، وصاحب أطول فترة حكم في التاريخ العثماني (926 – 973هـ/ 1520 – 1566م)، أُطلق عليه لقب (القانوني)، لما قام به من إصلاحات هامة في قوانين الدولة العثمانية =

سراح الخليفة وسَمح له بالعودة إلى القاهرة بعد ذلك بوقت قصير، حيث مات عام 944هـ/ 1538م، بعد توريث لقبه وحقوقه إلى السلطان العثماني. تـم إنكار شـرعية هـذا الميراث، ليس فقط من قِبَل الشـيعة، لكـن أيضًا من قِبَـل أكثرية علماء السُّنة، الذين أدركـوا أن الخليفة يجـب أن يكون منتميًا لقريش قبيلة الرسـول ﷺ؛ لكن مهما كان أمرهم في نظر الشـرع de Jure، أصبح سلاطين تركيا بحكم الأمر الواقع de Facto خلفاء للجزء الأكبر من الإسلام السني منذ وفاة المتوكل.



شكل (98) عملة للسلطان سليمان العثماني، مصر، 1520م. شكل (99) عملة لعلي بك، مصر، 1769م.

انحطت مصر بعد الفتح العثماني إلى مجرد ولاية ضمن ولايات الدولة العثمانيـة، وتـم فصلها عن الولايـات المجاورة لها[1] من الشـام والجزيرة

= سادت عليها مئات السنين، وأطلق عليه الغرب (سليمان العظيم)، وصلت الدولة العثمانية في عهده إلى قمة التقدم والازدهار والتوسع العسكري والنضوج السياسي. انظر عنه: هارولد لامب، سلطان الشرق العظيم سليمان القانوني، ترجمة وتحقيق: شكري نديم، بيروت 2007م، أندري كلو، سليمان القانوني، ترجمة وتحقيق: البشير ابن سلامة، بيروت 1991م (المترجم).

(1) ساد في أوساط المستشرقين في القرن التاسع عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين أن الدولة العثمانية كانت عاملًا رئيسيًّا في انحطاط وتدهور العالم العربي، إلا أن =

العربيـة[1]. كان الخائـن خاير بك أول والي في ظل النظام الجديد. لكن لـم يتم القضاء على قوة المماليك، ومع مرور الوقت انكمشـت سـلطة الباشـا التركـي، الذي يدعمه الجنود الأتراك (الإنكشـارية) Janizaries، أمام قوة المماليك المنتعشـة، التي يرأسـها أميرهم المعروف بشيخ البلد. قام واحد

= الأبحاث والدراسات التي قامت بعد ذلك على أسس تاريخية سليمة أثبتت عكس ذلك تمامًا، فقد تحدث أندريه ريمون عن المراكز التجارية الهامة في العصر العثماني وقارن حال هذه المراكز وحجم أنشطتها التجارية قبل وبعد السيطرة العثمانية، يقول على سبيل المثال: «أدى الغزو العثماني إلى دمج الدول العربية داخل مجموعة موحدة متسعة للغاية امتدت من حدود المغرب إلى الحدود الإيرانية ومن الحدود الروسية إلى اليمن، وكانت الإمبراطورية العثمانية بفضل اتساعها ووجودها على ثلاثة أرباع محيط البحر المتوسط هي أكبر بنيان سياسي عرفه الغرب منذ نهاية الإمبراطورية الرومانية، وكان يمكن لكل مواطن تابع للسلطان أن يتجول من الدانوب حتى المحيط الهندي ومن بلاد العرب حتى المغرب وهو خاضع لنفس القوانين ونفس التنظيم الإداري وأن يتحدث بنفس اللغة ويستخدم نفس النقود، وهي ظروف مواتية لحركة تبادل داخلية واسعة النطاق، هذه السهولة في انتقال الأفراد والأموال اقتضت في الواقع تنمية التجارة الداخلية إلى حد كبير بين مجموعة دول متفاوتة للغاية وتمر عبرها منتجات شديدة التنوع وتمثل عنصرًا فعالًا في التجارة الدولية، وفي نطاق هذا النشاط التجاري الواسع ازدادت حيوية العمليات الجارية داخليًا إلى حد كبير بفضل ضخامة سوق الإنتاج والاستهلاك داخل الإمبراطورية وظلت هذه العمليات محتفظة بأهميتها الكبيرة في نهاية القرن التاسع عشر» راجع: أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة: لطيف فرج، القاهرة 1991م، ص 36، 37، أحمد سالم سالم، الدولة العثمانية ونقد نظرية الاستعمار عند جمال حمدان، دورية كان التاريخية، العدد الخامس عشر، مارس 2012م، ص 49: 56 (المترجم).

(1) يشكل تاريخ مصر تحت حكم الأتراك العثمانيين، وتطوره تحت حكم الخديوية تحت تأثير فرنسي وحديثًا إنجليزي، موضوعًا لكتاب منفصل.

من شـيوخ البلد، وهو علي بك، في القرن الثامن عشـر، والذي كان يدعمه قوة كبيرة من المماليك البواسـل فضلًا عن تعاطف السـكان، بطرد الباشـا التركي، وإعلان اسـتقلال مصـر (1182هـ/ 1768م)؛ حيث أخضع جزء مـن الجزيرة العربيـة، وحاول إخضاع الشـام. رغم ذلك فقـد تمت خيانته وهزيمته وقتله بواسطة قائده الأثير مُحَمد أبي الذَّهب (1186هـ/ 1772م). تقاتـل قـادة المماليـك حـول حكـم مصـر، التابعة بدرجـة ما إلى السـلطة العثمانيـة، حتى حوَّلَ غـزو وانتصار نابليون في معركـة إمبابة أو «الأهرام» (7 من صفر 1213هـ/ 21 يوليو 1798م) مصر إلى مسـتعمرة تابعة لفرنسا لمـدة ثلاثـة أعـوام. أجبر الانتصـار البحـري البريطاني في النيـل، والقتال فـي خليـج أبي قير (18 مـن صفر 1213هـ/ 1 أغسـطس 1798م) ومعركة الإسـكندرية (6 مـن ذي القعـدة 1215م/ 21 مارس 1801م)، الفرنسـيين علـى الجـلاء مـن البلاد فـي (سـبتمبر)، وتـم اسـتعادة الهيمنـة العثمانية. وصلـت الغيرة الدائمـة للمماليك ونزاعاتهم مع الباشـا التركي إلى نهايتها حين قام الباشا مُحَمد عليّ (1220هـ/ 1805م)، بطرد وذبح قادة المماليك (1220هـ/ 1805م و1226هـ/ 1811م)، وتأسـيس سلالة حاكمة من نواب السلطان أو الخديوية، الذين استقروا على عرش مصر حتى الآن.

* * *



شكل (100) قلعة القاهرة عام 1859م

سلاطين المماليك البرجية

الظاهر سيف الدين برقوق	784هـ/ نوفمبر 1382م
قطع حكمه المظفر حاجي	791-792هـ/ يونيو 1389م – فبراير 1390م
الناصر ناصر الدين فرج بن برقوق	801هـ/ يونيو 1399م
المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق	808هـ/ سبتمبر 1405م
الناصر فرج (للمرة الثانية)	808هـ/ ديسمبر 1405م
العادل المستعين (الخليفة العباسي)	815هـ/ مايو 1412م
المؤيد شيخ	815هـ/ نوفمبر 1412م
المظفر أحمد بن شيخ	824هـ/ يناير 1421م
الظاهر سيف الدين ططر	824هـ/ أغسطس 1421م
الصالح ناصر الدين محمد بن ططر	824هـ/ نوفمبر 1421م
الأشرف سيف الدين برسباي	825هـ/ ابريل 1422م
العزيز جمال الدين يوسف بن برسباي	841هـ/ يونيو 1438م
الظاهر سيف الدين جقمق	842هـ/ سبتمبر 1438م
المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق	857هـ/ فبراير 1453م
الأشرف سيف الدين إينال	857هـ/ مارس 1453م
المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال	865هـ/ فبراير 1461م
الظاهر سيف الدين خشقدم	865هـ/ يونيو 1461م

الظاهر سيف الدين يلباي	872هـ/ أكتوبر 1467م
الظاهر تمربغا	872هـ/ ديسمبر 1467م
الأشرف سيف الدين قايتباي	872هـ/ يناير 1468م
الناصر محمد بن قايتباي	901هـ/ أغسطس 1496م
الظاهر قانصوه	904هـ/ أكتوبر 1498م
الأشرف جانبلاط	905هـ/ يونيو 1500م
العادل طومانباى	906هـ/ يناير 1501م
الأشرف قانصوه الغوري	906هـ/ ابريل 1501م
الأشرف طومانباي	922هـ/ أكتوبر 1516م 923هـ/ يناير 1517م

* * *

المَلاحِق

أهم مصادر الكتاب

- يوحنا النقيوسي (ت 695م)، John, Bishop of Nikiu : Chroniquer, ed. & tr. H. Zotenberg (Notices et Exiraits, xxiv,), Paris, 1883.
- ابن عبد الحكم (ت 871م)، فتح مصر، Ibn-'Abd-el Hakam : Futilh Misr (Paris codex 655 ; cp. Zeitschr. fur Kunde d. Morgenl. iii., 1840).
- ابن قتيبة (ت 889م)، Ibn-Kutayba : ed. F. Wustenfeld, Gottingen, 1850.
- البلاذري (ت 892م)، El-Biladhuri : Liber expugnationis regionum, ed. M. J. de Goeje, Lugd. Bat., 1866.
- الطبري (ت 923م)، Et-Tabari : Annales, ed. de Goeje et alii, 13 vols. Lugd. Bat 1879 – 96.
- المسعودي (ت 956م)، El-Mas'udi : Les Prairies d'or, Arab, et Fr., ed.Barbier de Meynard et Pavet de Courteille, 9 vols., Paris, 1861 - 1873.
- عريب بن سعد القرطبي (ت 977م)، صلة تاريخ الطبري، 'Arib b. Sa'd el-Kurtubi': Tabari continuatus, ed. M. J. de Goeje, Lugd. Bat., 1897.
- وليم الصوري (ت 1185م)، William of Tyre: Historia rerum in partibus transmarinis gestarum (Rec. Hist. des Croisades), Paris, 1844.
- أسامة بن منقذ (ت 1188م)، كتاب الاعتبار، Osama ibn Munkidh: Kitab el-I'tibur ; Vie d'Ousama, ed. & tr. H. Derenbourg, 3 vols., Paris, 1886-93.
- أبو صالح (1208م)، كنائس وأديرة مصر، Abu-Salih: Churches and Monasteries of Egypt, Arab, and Engl., ed. B. T. A. Evetts, Anecd. Oxoniens., 1895.
- عبد اللطيف (ت 1231م)، Abd-el-Latif : Historia AEgypti Compendium,' Arab, et Lat., ed. J. White, Oxon., 1800 ; Relation de l'Egypte, tr. S. de Sacy, Paris, 18 10.
- ابن الأثير (ت 1233م)، الكامل، Ibn-el-Athir: Chronicon (el-Kamil), ed. C. J. Tornberg, 14 vols., Lugd. Bat., 1867-74.

- بهاء الدين بن شـداد (ت 1234م)، سيرة صلاح الدين، Baha-ed-din ibn Sheddad
: Vita Saladini, Arab, et Lat., ed. Schultens, Lugd. Bat., 1732; and in Pec.
.Hist, des Croisades, iii., 1884
- أبـو شـامة (1267م)، كتـاب الروضتيـن، Abu-Shama : Kitab er-Rawdateyn, 2
.vols. , Cairo, 1870 - 1871
- El-Mekin (1275) : Historia Saracenica, Arab, et Lat., ed. T. Erpenius, Lugd, Bat., 1625.
- ابـن خلكان (1282م)، وفيات الأعيـان، Ibn-Khallikan : Wefayut el-A'ydn, ed.
F. Wustenfeld, Gottingen, 1835-50 ; Biographical Dictionary, tr. M. de
.Slane, 4 vols., Paris, 1843-71
- جوانفيـل (1307م)، Joinville : Memoires, ed. M. Francisque Michel, Paris,
.1881
- أبـو الفـدا (1331م)، -Abu- 1-Fida: Annales Muslemici, Arab, et Lat., ed. R
.iske et Adler, Hafniae, 1788-93
- ابـن بطوطة (1377م)، الرحلـة، -Ibn-Batuta : Voyages, Arab. et Fr., ed. C. D
.fremery et Sanguinetti, 4 vols., Paris, 1873-9
- ابـن خلدون (1406م)، كتاب العبـر، -Ibn-Khaldun : Ketab el-'ibar, 7 vols, B
.lak, 1867-8
- القلقشندي (ت 1418م)، El-Kalkashandi : Die Geographie und Vorwaltung
.von Aegypten, tr. F. Wustenfeld, Gottingen, 1879
- المقريزي (ت1441م)، الخطط وتاريخ سلاطين المماليك، El-Makrizi: Khitat, 2
vols., Bulak, 1853-4. Histoire des Sultans Mamlouks, tr. E. Quatremere,
.2 vols., Paris, 1837-45.
- أبـو المحاسـن (ت 1469م)، النجـوم الزاهـرة، Abu- 1-Mahasin : Annales (en-
.Nugum ez-Zahira), ed. Juynboll, 3 vols., Lugd. Bat., 1855-61
- السـيوطي (ت 1505م)، حسن المحاضرة، وتاريخ الخلفاء، Es-Suyuti : Husn el-
Mohadara, 2 vols., Bulak. History of the Caliphs tr. H. S. Jarrett, Cal-
.cutta, 1881
- ابن اياس (ت 1524م)، كتاب تاريخ مصر، Ibn-Iyas : Kitab Ta-r'ikh Misr,Cairo,
.1893

مَصَادِر ومَرَاجِع التَحْقِيق

أولًا: المصادر العربية:

- **ابن الأثير الجزريّ**، أبو الحسن عليّ بن محمد (ت 630هـ/ 1233م):
  الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت، 1987م.
- **ابن أجا**، محمد بن محمود الحلبي (ت 881هـ / 1476م):
  العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادار، صنعه: محمد أحمد دهمان، دار الفكر – دمشق، 1986م.
- **أسامة بن منقذ**، مؤيد الدولة المظفر أسامة بن مرشد الشيزري، (ت 584هـ/ 1188م):
  كتاب الاعتبار، اعتنى بتصحيحه: هرتويغ درنبرغ، طبعة ليدن، 1883م.
- **ابن أيبك الدواداري**، أبو بكر بن عبد الله، (ت 645هـ/ 1247م):
  كنز الدرر وجامع الغرر: الجزء السادس (الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية)، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة 1961م، الجزء السابع (الدر المطلوب في أخبار بني أيوب)، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة 1972م، الجزء الثامن (الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية)، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة 1971م، الجزء التاسع (الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)، تحقيق: هانس روبرت رويمر، القاهرة، 1960م.
- **ابن اياس الحنفي**، أبو البركات زين الدين محمد بن أحمد، (ت 938هـ/ 1523م):
  بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة، 1984م.
- **البنداري**، أبو إبراهيم الفتح بن على الأصفهاني (ت 643هـ/ 1245م):
  تاريخ دولة آل سلجوق، مطبعة الموسوعات بمصر عام 1318هـ/ 1900م.

- **البلوي**، أبو محمد عبد الله بن محمد المديني، (ت 270هـ / 883م):
سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد كرد علي، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة.
- **البلاذري**، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت 297هـ / 892م):
فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف - بيروت.
- **بهاء الدين زهير** (ت 656هـ/ 1258م):
ديوانه الشعري، دار صادر - بيروت، 1964م.
- **ابن حبيب**، الحسن بن عمر (ت 779هـ/ 1377م):
تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة 1976م.
- **ابن حجر العسقلاني**، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، (ت 852هـ/ 1448م):
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (د. ت).
- **ابن حزم الأندلسي**، أبو محمد عليّ بن أحمد، (ت 456هـ / 1064م):
الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل - بيروت، (د. ت).
- **الخزرجي**، علي بن الحسن، (ت 812هـ/ 1409م):
العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، عني به: الشيخ محمد بسيوني عسل، مركز الدراسات والبحوث اليمني بصنعاء - دار الآداب ببيروت، الطبعة الثانية، 1983م.
- **الحميري**، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم، (ت 900هـ/ 1495م):
الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، 1984م.
- **ابن خلكان**، أبو العباس أحمد بن محمد، (ت 681هـ / 1282م):
(وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)، تحقيق : إحسان عباس، بيروت، 1969 - 1972م.
- **الذهبي**، شمس الدين محمد بن أحمد، (ت 784هـ/ 1382م):
سير أعلام النبلاء، بيت الأفكار الدولية - لبنان، 2004م.
- **الرازي**، فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر، (ت 606هـ / 1209م):
اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحرير: علي سامي النشار، القاهرة، 1938م.

- **ابن زنبل الرمال**، (ت بعد 960هـ/ 1553م):
آخرة المماليك، تحقيق: عبد المنعم عامر، هيئة الكتاب - القاهرة، 1998م.
- **ساويرس بن المقفع**، أسقف الأشمونين (ت 377هـ/ 987م):
سير الآباء البطاركة، نشره: يسي عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأزولد بورمستر وأنطوان خاطر، جمعية الآثار القبطية - القاهرة 1959 - 1974م.
- **السخاوي**، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، (ت 902هـ/ 1497م):
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل - بيروت، (د. ت).
- **ابن سعيد المغربي**، أبو الحسن علي بن موسى، (ت 685هـ / 1286م):
المغرب في حلى المغرب (القسم الخاص بمصر)، تحقيق: زكي محمد حسن، وشوقي ضيف، وسيدة كاشف، القاهرة، 1953م.
النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، تحقيق: حسين نصار، القاهرة، 1972م.
- **السلاوي الناصري**، أحمد بن خالد، (ت 1315هـ/ 1879م):
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1954م.
- **السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد، (ت 911هـ / 1505م):
حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، 1968م.
تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم - القاهرة 2003م.
الفاشوش فى أحكام وحكايات قراقوش، طبعة بولاق، سنة 1311هـ.
غزوات قبرص ورودس، فيينا، 1882م.
- **أبو شامة**، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، (ت 665هـ/ 1267م):
الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، وضع حواشيه وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، 2002م.
- **ابن شداد**، بهاء الدين أبي المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (ت632هـ/ 1235م):
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، 1964م.

- **ابن شداد**، عز الدين محمد بن علي (ت 684هـ/ 1285م):
تاريخ الملك الظاهر بيبرس، باعتناء: أحمد حطيط، طبعة فيسبادن، 1983م.
- **الشهرستاني**، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، (ت 548هـ / 1 153م):
الملل والنحل، تحقيق: أمير علي مهنا، وعلي حسن فاعور، دار المعرفة - بيروت، (د. ت).
- **الصباغ**، أبو البلاغ عبد الغني، (ت 840هـ / 1436م):
شروط عمر بن الخطاب، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 1090.
- **الصفدي**، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت 764هـ/ 1363م):
الوافي بالوفيات، جمعية المستشرقين الألمانية، 1962م - 2004م.
- ابن **الصيرفي**، أبو القاسم علي بن منجب، (ت 542هـ / 1147م):
الإشارة لمن نال الوزارة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، 1990م.
- **الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير بن غالب (ت 310هـ / 923م):
تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، (د.ت).
- **العباسي**، عبد الرحيم بن عبد الرحمن، (ت 963هـ/ 1556م):
منح البرية في فتح رودس الأبية، تحقيق: فيصل عبد الله الكندي، حوليات كلية الآداب - الكويت، الحولية الثامنة عشرة، 1998م.
- **عبد اللطيف البغدادي**، موفق الدين أبي محمد عبد اللطيف بن يوسف (ت 629هـ/ 1231م):
كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، إشراف: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، هيئة الكتاب - القاهرة، 1998م.
- **ابن عبد الظاهر**، محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد المصري (ت 692هـ/ 1292م):
الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الدار العربية للكتاب - بيروت، 1996م.
الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر بيبرس، تحقيق: **عبد** العزيز الخويطر، الرياض 1976م.
تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، القاهرة، 1961م.
السلطان الملك الأشرف خليل، القاهرة، 1353هـ/ 1934م.

- **ابن عبد الحكم**، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، (ت 257هـ / 870م):
كتاب فتوح مصر وأخبارها، تحقيق: محمد صبيح، القاهرة، 1974م.
- **عُريب القرطبي**، ابن سعد، (ت 370هـ/ 980م):
صلة تاريخ الطبري، طبعة ليدن، 1897م.
- **ابن عربشاه**، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله، (ت 854هـ/ 1450م):
عجائب المقدور في أخبار تيمور، طبعة كلكته 1299هـ.
- **عمارة اليمني**، نجم الدين عمارة بن أبو الحسن على الحكمي، (569هـ / 1174م):
النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، تحقيق: هرتويغ درنبرغ، طبعة شالون، 1897م.
- **عماد الدين الكاتب الأصفهاني**، أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد (ت 597هـ/ 1201م):
الفتح القسي في الفتح القدسي، دار المنار - القاهرة، 2004م.
خريدة القصر وجريدة العصر، (قسم شعراء الشام)، تحقيق: شكري فيصل، المطبعة الهاشمية - دمشق، 1955م.
خريدة القصر وجريدة العصر، (قسم مصر)، نشره: أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس، طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة، 1951م.
- **عماد الدين إدريس**، ابن الحسن بن عبد الله الأنف، (ت872هـ / 1467م):
تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار)، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي - بيروت، 1985م.
- **العيني**، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد، (ت 855هـ/ 1451م):
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 1584.
- **أبو الفدا**، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي، (ت 732هـ/ 1331م):
المختصر في أخبار البشر، طبعة مصر 1325هـ.
- **أبو الفرج الأصفهاني**، علي بن الحسين بن محمد (ت 356هـ/ 967م):
مقاتل الطالبيين، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعرفة - بيروت، (د. ت).
- **القضاعي**، أبو عبد الله محمد بن سلامة (ت 454هـ/ 1062م):
عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف، تحقيق ودراسة: جميل عبد الله محمد المصري، مطبوعات مركز البحوث وإحياء التراث الإسلامي - مكة المكرمة، 1995م.

- **القلقشندي**، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عليّ، (ت 821هـ / 1418م):
صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبعة دار الكتب - القاهرة 1912 - 1938م.
- **الكندي**، أبو عمر محمد بن يوسف، (ت 350هـ/ 961م):
كتاب الولاة والقضاة، بعناية: رفن كست، مطبعة اليسوعيين - بيروت، 1908م.
- **ابن كثير**، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت 774هـ/ 1373م):
البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر - القاهرة، 1998م.
- **لسان الدين بن الخطيب**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد (ت 776هـ / 1374م):
أعمال الأعلام (القسم الثالث)، تحقيق وتعليق: أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، 1964م.
- **محمد اليماني**، (ت في القرن الرابع الهجري):
سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج المهدى صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سلمية إلى سجلماسة وخروجه منها إلى رقادة، تحقيق: و. إيفانونف، مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول، المجلد الرابع عام 1936م.
- **أبو المحاسن**، جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت 874هـ / 1470م):
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، (د. ت).
المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة، 1984م.
- **المقريزي**، تقي الدين أحمد بن علي، (ت 845هـ / 1441م):
كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي - القاهرة، 1998م.
المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي - بيروت، 1991م.
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين الشيال، ومحمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، 1996م.

السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، 1997م.
إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة، 1957م.
- **نظام الملك الطوسي**، الحسن بن علي بن إسحاق، (ت 485هـ/ 1092م):
سياستنامه، تحقيق: يوسف حسين بكار، دار الثقافة – قطر، 1407هـ.
- **النويري**، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ / 1333م):
نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب العلمية – بيروت، 2004م.
- **النويري السكندري**، محمد بن قاسم بن محمد (ت 775هـ/ 1372م):
كتاب الإلمام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق: عزيز سوريال عطية، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرأباد الدكن بالهند، 1968 – 1976م.
- **ابن واصل**، جمال الدين محمد بن سالم (ت 697هـ/ 1298م):
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال وحسنين محمد ربيع، القاهرة 1960 – 1977م.
- **الهمداني**، رشيد الدين فضل الله، (ت 718هـ/ 1318م):
جامع التواريخ (تاريخ هولاكو خان)، القاهرة 1960م.
- **ياقوت الحموي**، شهاب الدين أبي عبد الله – ياقوت بن عبد الله، (ت 626هـ/ 1228م):
معجم البلدان، دار صادر – بيروت، 1977م.
معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي – بيروت، 1993م.
- **أبو يوسف**، يعقوب بن إبراهيم، (ت 183هـ / 799م):
كتاب الخراج، دار المعرفة – بيروت، 1979م.
- **اليعقوبي**، أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر، (ت 284هـ/ 897م): تاريخ اليعقوبي، طبعة ليدن، 1883م.

ثانيًا: المراجع العربية:

- إبراهيم أحمد العدوي:

الحمام الزاجل في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثاني (العدد الأول)، 1949م.

إقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع الميلادي، المجلة المصرية التاريخية، المجلد الثالث (العدد الثاني)، 1950م.

الأمويون والبيزنطيون، القاهرة، 1953م.

ولاية قرة بن شريك على مصر في ضوء أوراق البردي، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الحادي عشر، 1963م.

- إبراهيم سعيد فهيم محمود:

يافا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية، 2007م.

- إبراهيم علي طرخان:

الحركة اللاأيقونية في الدولة البيزنطية، القاهرة، 1956م.

مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، 1960م.

- أحمد الشامي:

صلاح الدين والصليبيون، مكتبة النهضة العربية – القاهرة، 1991م.

- أحمد السيد الدراج:

جم سلطان والدبلوماسية الدولية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثامن، 1959م.

إيضاحات جديدة عن التحول في تجارة البحر الأحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجري، محاضرة ألقيت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية في 15 ابريل 1968م.

- أحمد أمين:

ضحى الإسلام، (ثلاثة أجزاء)، الطبعة السابعة، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، 1964م.

ظهر الإسلام، (أربعة أجزاء)، الطبعة الرابعة، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، 1966م.

- أحمد تيمور باشا:

معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، إعداد وتحقيق: حسين نصار، هيئة الكتاب – القاهرة، 1994م.

- أحمد سالم سالم:

دراسة لتطور مفهوم الخلافة والسلطة بين المماليك والعثمانيين، المجلة التاريخية المصرية، العدد الثامن والأربعون (تحت الطبع).

إستراتيجية الفتح العثماني، مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية، 2012م.

الدولة العثمانية ونقد نظرية الاستعمار عند جمال حمدان، دورية كان التاريخية، العدد الخامس عشر، مارس 2012م.

- أحمد عبد الرازق:

دراسات في المصادر المملوكية المبكرة، القاهرة، 1974م.

- أحمد عبد الكريم سليمان:

العنصرية وأثرها في الجيش المملوكي، دار النهضة العربية – القاهرة، 1984م.

- أحمد عبد الرحيم مصطفى:

أصول التاريخ العثماني، دار الشروق – القاهرة، 2003م.

- أحمد عيسى:

تاريخ البيمارستانات في الإسلام، القاهرة، 1939م.

- أحمد فكري:

مساجد القاهرة ومدارسها، (ثلاثة أجزاء)، دار المعارف بمصر، 1961 – 1969م.

- أحمد فؤاد متولي:

الفتح العثماني للشام ومصر، الزهراء للإعلام العربي – القاهرة، 1995م.

- أحمد مختار العبادي:

الصقالبة في إسبانيا، مدريد، 1953م.

سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، مجلة المعهد المصري بمدريد، المجلد الخامس، 1957م.

في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية - بيروت، (د. ت).
دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، 1968م.
قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية - بيروت، 1986م.
- **إسحاق تاوضروس عبيد:**
روما وبيزنطة، دار المعارف بمصر، 1970م.
- **أسد رستم:**
الروم وصلاتهم بالعرب، دار المكشوف - بيروت، 1955م.
- **أسمت غنيم:**
الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، دار المعارف - القاهرة، 1983م.
الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف - القاهرة، 1982م.
- **إيمان عمر شكري:**
السلطان برقوق من خلال مخطوط عقد الجمان، مكتبة مدبولي - القاهرة، 2002م.
- **أيمن فؤاد سيد:**
الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد)، هيئة الكتاب - القاهرة، 2007م.
- **جرجي زيدان:**
تاريخ التمدن الإسلامي، (خمسة أجزاء)، دار الهلال - القاهرة، (د. ت).
- **جمال الدين الشيال:**
مجمل تاريخ دمياط، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، 2000م.
مجموعة الوثائق الفاطمية، القاهرة، 2002م.
أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، 2001م.
- **جوزيف نسيم يوسف:**
الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، 1962م.
لويس التاسع في الشرق الأوسط، القاهرة، 1959م.
العدوان الصليبي على مصر، الإسكندرية، 1969م.

- **حسن إبراهيم حسن:**
تاريخ عمرو بن العاص، مكتبة مدبولي - القاهرة، (د. ت).
مذكرة موكزة مما تم نشره من أوراق البردي العربية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الأول، 1948م.
تاريخ الإسلام، (أربعة أجزاء)، مكتبة النهضة بالقاهرة ودار الجيل ببيروت، الطبعة الرابعة عشرة، 1996م.
كافور الإخشيد، مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول، المجلد السادس، مايو 1946م.
عبيد الله المهدي، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، 1947م. بالاشتراك مع: طه أحمد شرف.
- **حسن أحمد محمود:**
العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي - القاهرة، 1973م. بالاشتراك مع: أحمد ابراهيم الشريف.
حضارة مصر الإسلامية (العصر الطولوني)، دار الفكر العربي - القاهرة، (د. ت).
- **حسن الباشا:**
الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية - القاهرة، 1965 - 1966م.
- **حسن حبشي:**
الشرق العربي بين شقي الرحى... حملة القديس لويس على مصر والشام، القاهرة 1949م.
هجوم القبارصة على الإسكندرية 767هـ/ 1365م، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس عشر، 1969م.
- **حسن عبد الوهاب:**
تاريخ المساجد الأثرية، (جزءان)، هيئة الكتاب - القاهرة، 1993م.
تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها، منشورات المجمع العلمي المصري، عام 1955م.

العمارة الإسلامية في عصر المماليك البحرية، مجلة العمارة، المجلد الثاني، العددان 9- 10، عام 1940م.
العمارة الإسلامية في عصر المماليك البحرية (المنصور قلاوون)، مجلة العمارة، المجلد الثالث، العدد الثاني عام 1941م.

- **حسن عبد الوهاب حسين:**
تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية، 1998م.

- **حسنين محمد ربيع:**
دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، 2008م.
النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، 1964م.

- **حسين مجيب المصري:**
صلات بين العرب والفرس والترك، الدار الثقافية للنشر - القاهرة، 2001م.

- **حسين مؤنس:**
أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البحر المتوسط، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع (العدد الأول)، 1951م.

- **حكيم أمين عبد السيد:**
قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة، 1966م.

- **حياة ناصر الحجي:**
العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، حوليات كلية الآداب - جامعة الكويت، الحولية الثانية، 1400هـ/ 1980م.

- **خلف الوزيناني:**
الفتح العثماني لجزيرة رودس، جامعة أم القرى - مكة المكرمة، عام 1997م.

- **درويش النخيلي:**
فتح الفاطميين للشام في مرحلته الأولى، الإسكندرية، 1979م.

- **زكي محمد حسن:**
كنوز الفاطميين، القاهرة، 1937م.

- **رأفت عبد الحميد:**

الدولة والكنيسة (الجزء الخامس)، القاهرة، 2001م.

- **سعاد ماهر:**

مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، (خمسة أجزاء)، القاهرة 1971 – 1983م.

- **سعد زغلول عبد الحميد:**

الإسلام والترك في العصر الوسيط، مقال بمجلة عالم الفكر، المجلد العاشر – العدد الثاني، الكويت، 1979م.

تاريخ المغرب العربي، (أربعة أجزاء)، منشأة المعارف بالإسكندرية، (د. ت).

- **سعيد عبد الفتاح عاشور:**

أوروبا العصور الوسطى، (جزءان)، القاهرة، 1966م.

الحركة الصليبية، (جزءان)، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة، 1975م.

قبرس والحروب الصليبية، القاهرة، 2002م.

الظاهر بيبرس، القاهرة، 1963م.

العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة، 1994م.

المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، بيروت، 1992م.

شخصية الدولة الفاطمية في الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، العدد 16، عام 1969م.

سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية – المحاضرات العامة، 1968م.

التدهور الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك، ضمن كتاب: بحوث ودراسات في العصور الوسطى، بيروت، 1977م.

الحصار الاقتصادي على مصر زمن الحروب الصليبية، ضمن كتاب: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، 1977م.

مركز مصر في التجارة العالمية أواخر العصور الوسطى، ضمن كتاب: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، 1977م.

- **سلام شافعي محمود:**
أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، هيئة الكتاب - القاهرة، 1995م.
أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي، دار المعارف - القاهرة، 1982م.
- **سهير محمد نعينع:**
الحروب الصليبية المتأخرة ... حملة بطرس لوسينان على الإسكندرية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية - القاهرة، 2002م.
- **سهيل زكار:**
تاريخ أخبار القرامطة، بيروت 1971م.
الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق، 1995م.
- **سيدة كاشف:**
مصر في فجر الإسلام، هيئة الكتاب - القاهرة، 1994م
مصر في عهد الإخشيديين، القاهرة، 1950م.
الوليد بن عبد الملك، القاهرة، 1963م.
عبد العزيز بن مروان، القاهرة، 1967م.
أحمد بن طولون، القاهرة، 1965م.
- **السيد الباز العريني:**
الدولة البيزنطية، القاهرة، 1960م.
الشرق الأدنى في العصور الوسطى (1- الأيوبيون)، بيروت (د.ت)
الشرق الأوسط والحروب الصليبية (الجزء الأول)، دار النهضة العربية - القاهرة، 1963م.
المماليك، دار النهضة العربية، (د. ت).
المغول، دار النهضة العربية - بيروت، 1981م.
- **السيد عبد العزيز سالم:**
تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط، (الجزء الأول)، الإسكندرية 1981م. بالشتراك مع: أحمد مختار العبادي.

تاريخ إسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية، 1982م.
قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، (جزءان)، مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية، 1984م.
تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية، 2000م.
المآذن المصرية، نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني، مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية، (د. ت).
البحرية المصرية في العصر الفاطمي، ضمن كتاب: تاريخ البحرية المصرية، مطبوعات جامعة الإسكندرية، (د. ت).
تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986م.

- **صفاء حافظ عبد الفتاح:**

الإدارة المحلية في مصر في عصر الولاة، القاهرة، 1991م.

- **صلاح الدين محمد عبد القادر نوار:**

سياسة الخلافة الفاطمية في الشام في عهد الوزير بدر الجمالي وابنه الأفضل، رسالة ماجستير، كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، 1984م.
الطوائف المغولية في مصر في عصر دولة المماليك البحرية، منشأة المعارف بالإسكندرية.

- **عبد المجيد الصغير:**

المعرفة والسلطة في التجربة الإسلامية، هيئة الكتاب – القاهرة، 2010م.

- **عبد الله خورشيد البري:**

القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، القاهرة، 1992م.

- **عبد المنعم ماجد:**

ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دار الفكر العربي – القاهرة، 1994م.
الإمام المستنصر بالله الفاطمي، القاهرة، 1961م.

أضـواء جديدة على معركة عيـن جالوت، بحث ألقي في الجمعية التاريخية المصرية عام 1977م، نشر في جريدة المساء العدد 7223، السبت 12 يونية 1976م.
التاريـخ السياسـي لدولـة سـلاطين المماليك في مصـر، مكتبة الأنجلـو المصرية - القاهرة، 1988م.
- عبد الجبار ناجي:
ثورة البساسيري في بغداد، مجلة كلية الآداب - جامعة البصرة، عام 1971م.
- عبد الرحمن زكي:
قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، القاهرة 1960م.
غزوة الإسكندرية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع (العدد الثاني)، 1952م.
العمـارة العسـكرية في العصور الوسـطى بين العرب والصليبيـن، المجلة التاريخية المصرية، المجلد السابع، 1958م.
- عبد اللطيف حمزة:
الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، القاهرة، 1968م.
- عبد العزيز مرزوق:
جامع الظاهـر بيبرس البندقداري، المجلة التاريخيـة المصرية، المجلد الثالث، مايو 1950م.
- عبد الرءوف عفيفي:
السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، رسالة ماجستير، كلية الآداب - جامعة القاهرة، (د. ت).
- عبد العزيز محمود عبد الدايم:
الصراع بين القوى المسـيحية ودولة المماليك الجراكسـة في مياه البحر المتوسـط، ضمن كتاب: مصر وعالم البحر المتوسط، القاهرة، 1986م.
- عبد الرازق الطنطاوي القرموط:
العلاقات المصرية العثمانية، الزهراء للإعلام العربي - القاهرة، 1995م.
- عصام الدين عبد الرؤوف:
الدول المستقلة في المشرق الإسلامي، دار الفكر العربي - القاهرة، 1999م.

- **عمر كمال توفيق:**
المؤرخ وليم الصوري، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، المجلد الثاني عشر، عام 1967م.
- **عمر محمد الباروني:**
الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي - طرابلس، 1953م.
- **علي إبراهيم حسن:**
جوهر الصقلي، القاهرة، 1934م.
التاريخ الإسلامي العام، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، 1971م.
- **علي أدهم:**
عبد الرحمن الناصر، هيئة الكتاب - القاهرة، 1972م.
- **علي بيومي:**
قيام الدولة الأيوبية في مصر، القاهرة، 1952م.
- **علي حسني الخربوطلي:**
الحضارة العربية الإسلامية، القاهرة، 1960م.
أبو عبد الله الشيعي، القاهرة، 1972م.
- **علي محمد فهمي:**
البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط، ضمن كتاب: تاريخ البحرية المصرية، مطبوعات جامعة الإسكندرية، (د. ت).
- **علية عبد السميع الجنزوري:**
إمارة الرها الصليبية، هيئة الكتاب - القاهرة، 2001م.
- **فاروق عثمان أباظة:**
أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثانية، (د. ت).
- **فاطمة مصطفى عامر:**
تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، هيئة الكتاب - القاهرة، 2000م.

- **فايد حماد محمد عاشور:**
الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، دار الاعتصام - القاهرة، (د. ت).
العلاقات بين البندقية ومصر في العصر الأيوبي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، 1978م.
العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، دار المعارف بمصر، 1976م.
- **فرج حسين فرج الحسيني:**
النقوش الكتابية الفاطمية على العمائر في مصر، مطبوعات مكتبة الإسكندرية، 2007م.
- **فيصل حبطوش:**
أعلام الشراكسة، مؤسسة خوست للإعلان، عمان - الأردن، 2007م.
- **قاسم عبده قاسم:**
ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة (149) - الكويت، 1990م.
عصر سلاطين المماليك، مطبوعات قصور الثقافة - القاهرة، 1999م.
- **قدري قلعجي:**
صلاح الدين الأيوبي، بيروت، 1992م.
- **لقبال محمد موسى:**
دور قبيلة كتامة في قيام الخلافة الفاطمية، الجزائر، 1979م.
- **لطيفة البكاي:**
حركة الخوارج نشأتها وتطورها، بيروت، 2001م.
- **محمد أحمد دهمان:**
معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر - بيروت، 1990م.
- **محمد الششتاوي:**
متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني، دار الآفاق العربية - القاهرة، 1999م.

- **محمد السعيد جمال الدين:**

دولة الإسماعيلية في إيران، الدار الثقافية للنشر - بيروت، 1999م.

- **محمد بن تاويت التطواني:**

دولة الرستميين أصحاب تاهرت، مجلة المعهد المصري بمدريد، عام 1957م.

- **محمد جمال الدين سرور:**

تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق، القاهرة، 1966م.

تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي - القاهرة، (د. ت).

النفوذ الفاطمي في بلاد الشـام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، دار الفكر العربي - القاهرة، 1957م.

الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، القاهرة، 1938م.

دولة بني قلاوون في مصر، القاهرة، 1947م.

- **محمد رمزي:**

القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، دار الكتب - القاهرة، 1953 - 1968م.

- **محمد عبد الله عنان:**

مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ الإسلامي، هيئة الكتاب - القاهرة، 1999م.

تراجم إسلامية، هيئة الكتاب - القاهرة، 2000م.

الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مكتبة الخانكي - القاهرة، 1983م.

مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، الطبعة الخامسة، القاهرة، 1997م.

- **محمد سهيل طقوش:**

تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، دار النفائس - بيروت، 2009م.

- **محمد ضياء الدين الريس:**

النظريات السياسية الإسلامية، القاهرة، 1960م.

- **محمد كرد علي:**

الإدارة في عز العرب، القاهرة، 1934م.

خطط الشام، (ستة أجزاء)، دمشق، 1938م.

- **محمد كامل حسين:**

طائفة الدروز تاريخها وعقائدها، دار المعارف بمصر، 1962م.

- **محمد محمود زيتون:**

الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان، الإسكندرية، 1973م.

- **محمد مختار باشا:**

التوفيقات الإلهمية، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - القاهرة، 1980م.

- **محمد مصطفى زيادة:**

المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي، القاهرة، 1954م.

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، القاهرة، 1961م.

غزوة المماليك لقبرص، مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول، الجزء الأول، 1933م.

بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك بمصر، مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول، المجلد الرابع - الجزء الأول، مايو 1936م.

المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، ترجمة: جمال الدين الشيال، مجلة الجيش، 1946م.

نهاية سلاطين المماليك، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع - العدد الأول، مايو 1951م.

- **محمود إسماعيل:**

المالكية والشيعة بإفريقية إبان قيام الدولة الفاطمية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث والعشرون، 1976م.

- **محمود إسماعيل عبد الرازق:**

الخوارج في بلاد المغرب، دار الثقافة - الدار البيضاء، 1985م.

- **محمود سعيد عمران:**

معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية، 2000م.

تاريخ الحروب الصليبية، الإسكندرية، 2000م.

الحملة الصليبية الخامسة: حملة جان دي برين على مصر، دار المعارف – القاهرة، 1985م.

- **محمود عكوش:**

مصر في عهد الإسلام (فتح مصر والإسكندرية)، دار الكتب – القاهرة، 1941م.

- **مصطفى محمد سعد:**

البجة والعرب في العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة، 1959م.

- **المصطفى محمد أحمد محمد الخراط:**

تطور الأسلحة النارية «المدافع والبنادق» وأثرها على العمائر الحربية بمصر في العصر العثماني وحتى نهاية حكم محمد علي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة سوهاج، 2011م.

- **مهجة السيد عبد العال محمود:**

حارم ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي في بلاد الشام، رسالة دكتوراه، كلية الآداب – جامعةالإسكندرية، 1995م.

- **ممدوح عبد الرحمن عبد الرحيم:**

دور القبائل العربية فى صعيد مصر منذ الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الفاطمية، مكتبة مدبولي – القاهرة.

- **مجموعة باحثين:**

دراسات عن ابن عبد الحكم، هيئة الكتاب – القاهرة، 1975م.

- **ناجلا محمد عبد النبي:**

العلاقات السياسية والاقتصادية بين البندقية ومصر في عصر دولة المماليك الثانية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، 1984م.

- **نعيم زكي فهمي:**

طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصر الوسيط، هيئة الكتاب – القاهرة، 1973م.

ثالثًا: المصادر والمراجع المترجمة

- آدم متز:

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي - بيروت، (د. ت).

- أرشيبالد لويس:

القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، ومحمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، (د. ت).

- ألفريد بتلر:

فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، هيئة الكتاب - القاهرة، 1999م.

- أودلف جروهمان:

محاضرات في أوراق البردي العربية، ترجمة: توفيق إسكاروس، دار الكتب - القاهرة، 1930م.

أوراق البردي العربية في دار الكتب المصرية، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، دار الكتب - القاهرة، 1994م.

- أندريه ريمون:

المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة: لطيف فرج، دار الفكر - القاهرة، 1991م.

القاهرة تاريخ حاضرة، ترجمة: لطيف فرج، دار الفكر - القاهرة، 1994م.

- أندري كلو:

سليمان القانوني، ترجمة وتحقيق: البشير بن سلامة، دار الجيل - بيروت، 1991م.

- برنارد لويس:

الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، تعريب: محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي - القاهرة، 2006م.

- بول كزانوفا:

تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ترجمة: أحمد السيد دراج، القاهرة، 1974م.

- جاك تاجر:

أقباط ومسلمون، كراسات التاريخ المصري - القاهرة، 1951م.

- **جورج مارسيه:**

بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة: محمود عبد الصمد هيكل، الإسكندرية، 1996م.

- **جوزيف داهموس:**

سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، هيئة الكتاب - القاهرة، 1992م.

- **جوناثان ريلي - سميث:**

الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، هيئة الكتاب - القاهرة، 1993م.

- **جوانفيل:**

القديس لويس: حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، دار المعارف - القاهرة، 1968م.

- **جوناثان سميث:**

الإسبتارية: فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص 1050 - 1310م، ترجمة: صبحي الجابي، دمشق، 1989م.

- **ح. هايد:**

تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، (أربعة أجزاء)، ترجمة: أحمد رضا محمد رضا، هيئة الكتاب - القاهرة، 1985 - 1994م.

- **روبرت كلاي:**

فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة حسن حبشي، د. ن، 1964م.

- **رينهرت دوزي:**

المسلمون في الأندلس، ترجمة: حسن حبشي، هيئة الكتاب - القاهرة، 1994م.

- **زامباور:**

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، (جزءان)، ترجمة وإخراج: زكي حسن وحسن أحمد محمود بالاشتراك مع آخرين، دار الكتب - القاهرة، 2008م.

- ستيفن رينسمان:
تاريخ الحروب الصليبية، (جزءان)، ترجمة: نور الدين خليل، القاهرة 2000م.
- ستانلي لين بول:
سيرة القاهرة، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وعلي إبراهيم حسن، وإدوارد حليم، هيئة الكتاب - القاهرة، 1997م.
صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس، ترجمة: فاروق سعد أبو جابر، القاهرة، 1995م.
تاريخ الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والأشراف في الإسلام، ترجمة عن الفارسية: مكي طاهر الكعب، الدار العربية للموسوعات - بيروت، 2006م.
- عباس إقبال:
تاريخ المغول، ترجمة: عبد الوهاب علوب، أبو ظبي، 1420هـ - 2000م.
- عزيز أحمد:
تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، 1980م.
- عزيز سوريال عطية:
الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة: فيليب صابر سيف، دار الثقافة - القاهرة، 1990م.
- فرهاد دفتري:
حسن الصباح وأصول الحركة الإسماعيلية النزارية، ضمن كتاب، الإسماعيليون في العصر الوسيط، ترجمة: سيف الدين القصير، بيروت، 1999م.
- فوشيه الشارتري:
تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد العسلي، دار الشروق - القاهرة، 1990م.
- كارل بروكلمان:
تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت، 1968م.
- كريزويل:
العمارة الإسلامية في مصر (المجلد الأول، الإخشيديون والفاطميون)، ترجمة: عبد الوهاب علوب، مكتبة زهراء الشرق - القاهرة، 2004م.
وصف قلعة الجبل، ترجمة: جمال محمد محرز، القاهرة، 1974م.

- **كي لسترنج:**
بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس و كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، 1985م.
- **ل. ا سيمينوفا:**
تاريخ مصر الفاطمية، ترجمة وتحقيق: حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة، 2001م.
- **ليفي بروفنسال:**
الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة: السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية، 1990م.
- **ناصر خسرو:**
سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب، هيئة الكتاب – القاهرة، 1993م.
- **نيقولو بربارو:**
الفتح العثماني للقسطنطينية، ترجمة: حاتم عبد الرحمن الطحاوي، عين للدراسات – القاهرة، 2002م.
- **و. بارتولد:**
تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، هيئة الكتاب – القاهرة، 1996م.
- **و. مادلونغ:**
الفاطميون وقرامطة البحرين، ضمن كتاب: الإسماعيليون في العصر الوسيط، ترجمة: سيف الدين القصير، بيروت، 1999م.
- **وليم الصوري:**
الحروب الصليبية، (أربعة أجزاء)، ترجمة: حسن حبشي، هيئة الكتاب – القاهرة، 1994م.
- **هارولد لامب:**
سلطان الشرق العظيم سليمان القانوني، ترجمة وتحقيق: شكرى نديم، الدار العربية للموسوعات – بيروت، 2007م.

- **يوحنا النقيوسي:**

تاريخ مصر، ترجمة: عمر صابر عبد الجليل، هيئة الكتاب - القاهرة، 2009م.

- **يوليوس فلهوزن:**

تاريخ الدولة العربية، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، 2009م.

أحزاب المعارضة السياسية في صدر الإسلام (الخوارج والشيعة)، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، القاهرة، 1958م.

- **يلماز أوزتونا:**

تاريخ الدولة العثمانية، (جزءان)، ترجمة: عدنان محمد سليمان، إستانبول، 1988م.

* * *

الكشافات

أولاً: الأعلام

ثانيًا: الأماكن والمواضع والبلدان

* * *

فهرس الصور والأشكال التوضيحية

* * *

- القطع النقدية والأوزان الزجاجية تم استنساخها من قوالب جصية للقطع الأصليـة المحفوظـة بالمتحف البريطانـي، أما النقوش فهـي من كتاب، ماكس فان برشـم M. Max von Berchem : Corpus Inscriptionum Arabicarum، ماعدا شكل (49)، من كتابه: Inscriptions arabes de (Syrie) Mem de le institut Egyptien, 1897، وشكلي (47) (67) مـن كتـاب كزانوفـا : Casanova's Hist, de la Citadelle dn Caire (Man. de la Miss, airheo franraise an Caire, vi)، والشـعارات مـن مقال روجرز بـك: Rogers Bey's article in the Bull. de l inst. Egypt, 1880، ماعـدا شـكل (92) مـن مقال أرتين باشـا: H. E. Artin Pasha's article on Trois differentes armoiries du Kait Bay، وشكل (52) من مقال السيد كاي: Mr. H. C. Kay in the Jotirnal of the R. Asiatic Society, N.S., xiv. (1882)، وأشـكال (11) و(33) و(45) و(71) مـن لوحـات كتـاب (وصـف مصـر، Description de l Egypte)، وباقي الأشكال: (69) و(75) و(89) و(94)، زودني بها هرتز بك Herz Bey، رئيس مهندسي لجنة حفظ الآثار العربية في مصر.

* * *



فهرس الكتاب

* * *



